جبل الصمت

بحث عن الروحانيّة الأرثوذكسيّة

كيرياكوس مركيذيس

نقلَته إلى العربيّة دينا فام أنطونيوس

كيرياكوس مركيذيس

جَبَلُ الصَّمْت

بحثٌ عن الرُّوحانيَّةِ الأُرثوذكسيَّة

نقلَته إلى العربيَّة دينا فام أنطونيوس

جميع الحقوق محفوظة
دير رقاد والدة الإله حمطوره ©
٢٠١٣

مقدّمة

أتقدَّمُ بوافرِ الشكرِ والامتنانِ من الأبِ مكسيموس، الشخصيَّةِ المِحْوَريَّةِ في هذا الكتاب، لِما قدَّمَه لي من محبَّةٍ وصداقةٍ وتوجيهٍ روحيّ. فَلَولا استعدادُه لمشارَكتي خبراتِه ومعرفتَهُ التقليدَ الروحيَّ الأرثوذكسيَّ الشرقيّ، لَما كانَ هذا الكتاب. من نافلِ القول، أنّني أتحمَّلُ وحدي مسؤوليَّةَ كلِّ إساءةِ فهمٍ في تقديمِ هذا التقليدِ الحكيم، وأيِّ تقصيرٍ وَرَدَ في هذا الكتاب. كما أودُّ أنْ أشكرَ أيضًا رهبانَ ديرِ الفائقةِ القداسةِ في قبرص وكلَّ من التقيتُه من شيوخٍ ورهبانٍ ونسَّاكٍ في جبلِ آثوس، لِحَفاوَتِهِم وَحُسْنِ ضيافتِهِم.

كما أودُّ أنْ أُعبِّرَ عن امتناني لزملائي في قسمِ عِلْمِ الاجتماعِ في جامعةِ 'ماين' Maine لمَنحي إجازةً في ربيع ١٩٩٧ للتفرُّغِ للبحثِ، ولدعمِهم المستمرّ لِمَساعِيَ بحثي. إلى جانبِ ذلك، أتقدَّمُ بشكرٍ فائقٍ مِنْ كُلِّ فردٍ كانَ له دورٌ مباشرٌ أو غيرُ مباشرٍ في إخراجِ هذا الكتاب، ومن هؤلاء: كلُّ مَنْ جئتُ على ذكرِه في هذه الصفحات؛ مارلين غابريل، وكيلةُ أعماليَ الأدبيَّة، وإيريك ماجور، المحرِّرُ والناشر، لخبرتِهم المحترفةِ النموذجيَّةِ وإيمانِهم الثابتِ في قيمةِ هذا العملِ؛

الأسقفُ كاليستوس وير، أستاذُ الدينِ في جامعةِ أُكسفورد، لمراجعتِه معظمَ أبوابِ المسوَّدَةِ الأُولى ولاقتراحاتِه الثمينةِ التي قدَّمَها لي؛ عالِمَةُ الإنسانيّات، إيليني ستاميريس، لاقتراحاتِها النيِّرة؛ أكيس لوردوس لتَقديمي إلى جبل آثوس، حيثُ تعرَّفتُ على هذا الثراءِ الفريدِ الذي للروحانيَّةِ الأرثوذكسيَّةِ الشرقيَّة؛ ولامبروس كاريس، الصديقُ والزميل، الذي كشفَ لي فنَّ الترتيلِ البيزنطيّ، الدعامةَ الروحيَّةَ التي تُدخِلُ الفرحَ والدفءَ الداخليَّ إلى النفس.

شكرٌ خاصٌّ إلى صديقِي البروفسور مايك لويس، أستاذِ الفنونِ في جامعةِ ماين، على تنميةِ إحساسِي بجمالِ الطبيعةِ وتقديمِه العونَ لي لفهمِ أهمِّيَّةِ الدورِ الذي يمكنُ أنْ يلعبَه الفَنُّ في اليقظةِ الروحيَّةِ للإنسان، ولمراجعتِه النقديَّةِ لكلِّ أبوابِ المسوَّدةِ الأُولى، ولتَصميمِه الفنِّيِّ لغلافِ هذا الكتاب.

إلى جانبِ مَنْ تقدَّمَ ذِكرُهم، لَعِبَ العديدُ مِنَ الأصدقاءِ والأقرباءِ دورًا مهمًّا في إبْقائِنا، أنا وزوجتِي إيميلي، في تواصلٍ عاطفيٍّ مع مسقطِ رأسِنا وشعبِه. أودُّ أنْ أشكرَ كلَّ أولئك الأصدقاءِ والأقارب، وبشكلٍ خاصّ، صديقَ الطفولةِ بيتروس ياسيميذس وزوجتَه ريتسا، لجعلِنا نشعرُ وكأنَّنا جزءٌ من حياتِهما.

إمتنانِيَ الأعمقُ يَذْهبُ إلى أختِي مارولا ونسيبي ڤاسوس خريستو وعائلتِهما، لكَرَمِهم الصادقِ ومودَّتِهم الأصيلة. فوجودُهم في قبرص، أبقىَ جمرَ حبِّنا لمسقطِ رأسِنا حيًّا، أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر.

⁜ ⁜ ⁜

عندما نَشرتُ كتابِيَ الأوَّلَ عام ١٩٧٧، كان قُسطنطين، ابنُنا البكر، طفلًا

يحبو، وكانت إيميلي تحملُ في أحشائِها ابنتَنا فاسيا. عندَ إنتهاءِ مسوَّدَةِ هذا الكتاب، زوَّدَني ولداي باقتراحاتٍ قيِّمة. قرأَ قُسطنطين صفحاتِ المسوَّدَةِ بأكملِها، وقدَّم، بأعينِ ناقدةٍ مبشِّرةٍ بولادةِ مؤلِّفٍ طموح، مقترحاتٍ قيِّمةً ونيِّرةً لتحسينِ المضمون.

إلى زوجتِي إيميلي لا يمكنني إلاَّ أنْ أكرِّرَ فقط ما قُلتُه في أعمالِي السابقة. طاقتُها الاستثنائيَّة، وما تتمتَّعُ به من حُبِّ الحياةِ وحبِّ المغامرة، زوَّداني بالسياقِ الذي سَمحَ لي بالدخُولِ إلى عوالمِ التجربةِ، تلكَ العوالمِ التي، دونَ دعمِها وعنايتِها، ما كنتُ لِأخاطرَ أبدًا في خوضِ أسرارِها. ليست رفيقتِي الدائمةَ وحجرَ أساسِ استقرارِيَ العاطفيّ ورفاهيّتي فحسب، بل هي صديقتِي الفُضلى، موضعُ سرِّيّ، شريكتي على المستوى الثقافيّ، والمحرِّرُ الرئيسُ لكلِّ أعماليَ الأدبيَّة. يتفوَّقُ هذا الكتابُ على كلِّ ما كتبْتُه سالِفًا بسببِ عونِها التحريريِّ الجادِّ والدقيق، بالرغمِ من ارتباطِها بعملِها المُلحِّ الخاصّ: «قريةُ السلامِ البيئيَّة الدَّوليَّة» للنساءِ والشباب، الذي بدأَتْه في قبرص، مع ناشِطي سلامٍ آخرين.

* * *

مُلاحظةٌ نهائيَّة: إستندتُ في مخاطبتِي المباشرة لأسماءِ الذكورِ في الحواراتِ والمحادثاتِ إلى النحوِ اليونانيّ. على سبيلِ المثال، يخاطَبُ الأبُ مكسيموس Maximos بـ«الأبِ مكسيم»، وكيرياكوس Kyriacos يُخاطَبُ بـ«كيرياكو». لا تَطْرحُ الأسماءُ اليونانيَّةُ النسائيَّةُ مثلَ هذه المشاكل.

وللحفاظِ على الخصوصيَّةِ، أغلبُ الأسماءِ في هذا العملِ هي أسماءٌ مستعارة. لهذا السبب، من حينٍ لآخر، أدخلْتُ تعديلاتٍ بسيطةً في وَصْفِ الموقعِ الفعليِّ لبَعْضِ الحوادثِ المذكورةِ في هذا الكتاب. غيرَ أنَّ كُلَّ ما كُتِبَ مستنِدٌ إلى حوارات، ومحادثات، وخلوات، ولقاءاتٍ فعليَّة، وتجاربَ حقيقيَّة.

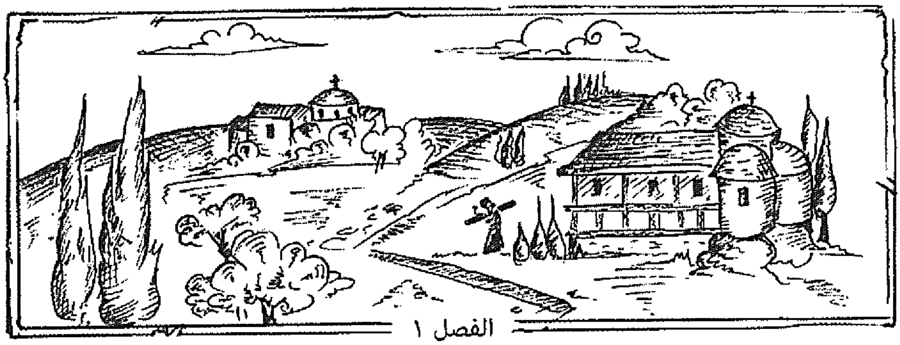

توطئة

في أوائلِ الستّينيّات، حين وَصلْتُ إلى أميركا لتحصيلِ تعليميَ الجامعيّ، اصطحبْتُ معي إيمانًا ساذجًا بالدّينِ المسيحيّ والكنيسة، وبإلهِ أجدادي وجدّاتي. كان إيمانًا مُسَلَّمًا به مستنِدًا إلى تنشئةٍ ترعرعَتْ في تخومِ مجتمعٍ أرثوذكسيٍّ شرقيٍّ معزولٍ ومتجانسٍ هو جزيرةُ قبرصَ، الأرثوذكسيّةُ الدّينِ بوجهٍ عامّ. لكنّ المجتمعَ الأميركيَّ المتحرِّرَ من القيودِ القوميّةِ والمحلّيّةِ والمتعدِّدَ الثقافاتِ حيثُ إنَّ الدّينَ خيارٌ لا قَدَر، حطّمَ ذاكَ الصمّامَ الإيمانيَّ الساذج. بعدَ عشْرِ سَنواتٍ مِنَ التمرُّسِ كعالِمِ اجتماع، تحوّلتُ من إنسانٍ مؤمنٍ إلى إنسانٍ لاأدْريّ[1]. كَمُعظمِ نُظَرائي، استنتجتُ أنَّ الدّينَ، في النهايةِ هو، خليقةُ المجتمع. واعتبرتُ حقيقةً بديهيّةً أنَّ المجتمعَ أَوجدَ الآلهةَ، لا العكس. فَلِتأمينِ بقائِهِ الذاتيِّ، خلقَ المجتمعُ الدينَ. في أسوإ الأحوال، حوّلَ هذا النظامُ المجتمعيُّ الطبَقيُّ، بؤرةَ ارتكازِ الإنسانِ من العالمِ الحقيقيِّ للظلمِ والقهر، إلى عالمٍ أُخرويٍّ يَعِدُ بخلاصٍ مقدّمٍ «على فطيرةٍ سماويّة». في أحسنِ الأحوالِ،

---

١ اللاأدْريّ هو من يعتقدُ بأنَّ وجودَ اللهِ وطبيعتَه وأصلَ الكونِ أمورٌ لا سبيلَ إلى معرفتِها.

ساعدَ الناسَ على التعايشِ مع مآسيهم الشخصيَّة، وهو وهْمٌ جَماعيٌّ مفيدٌ لصيانةِ الإستقرارِ والنظامِ الإجتماعيّ. لذا، عندما يَسْجدُ المؤمنونَ من كُلِّ المعتقداتِ والمذاهبِ ليُجِلُّوا آلهتَهم، فَهُم في الواقع، ومن حيثُ لا يدرونَ، عن غيرِ قصد، يَعْبدونَ مجتَمَعَهم. وجاءَ ذلكَ نتيجةَ بصيرةٍ قويَّةٍ تصعبُ مقاومتُها، بأقلامِ مفكّرينَ مقتدرِينَ في علمِ الفلسفةِ الاجتماعيَّةِ الحديثةِ وعِلْمِ الاجتماع.

مع إتمامِ دراساتي، كان قد ترسَّخَ في داخلي هذا المنظورُ العالميُّ الشائعُ في الأوساطِ الأكاديميَّةِ الحديثة، وغيرُ المُعلَنِ إلى الآن، وهو أنَّ الدِّين، والتقليديَّ منه على الخصوص، أي الذي يؤمِنُ بإلهٍ شخصيّ، هو أمرٌ من الماضي، رواسبُ متبقِّيةٌ من القرونِ الوسطى، سائرٌ نحو نسيانٍ نهائيّ.

لم أكن، في الحقيقة، «لا أدريًّا» سعيدًا. فمجرَّدُ التأمُّلِ في النتائجِ المبدئيَّةِ العدميَّةِ لهذا اللاهوتِ القائلِ بموتِ الله، كان مؤلِمًا جدًّا لي – «لو كانَ اللهُ غيرَ موجودٍ إذن كلُّ شيءٍ مباح». لكنَّ تلكَ البيئةَ الثقافيَّةَ التي وُجِدْتُ فيها نادرًا ما قدَّمَتْ بديلًا آخر. فعالِمٌ جِدّيٌّ لا يُمكِنُهُ أَنْ يؤمنَ بأفكارٍ غيرِ قابلةٍ للبرهانِ، تدورُ حولَ مجهولٍ ما ورائيّ، حولَ كائناتٍ روحيَّة، ملائكةٍ وشياطينَ، وما شابه. هذه كانت اعتقاداتِ أولئك الناسِ غيرِ المثقَّفين، والعمَّاتِ المُحبَّاتِ والمتواضعاتِ اللواتي تَركتُهُنَّ ورائيَ في قبرص. بالنسبةِ لرجلٍ ضليعٍ بالأدبِ ولعالِمٍ اجتماعيّ، العالَمُ الحقيقيُّ الوحيدُ كانَ عالَمَ الحقائقِ القاطعةِ والكونِ الطبيعيِّ الثابتِ والنابعِ من وعيٍ زمنيٍّ عاديّ. وأيَّةُ أفكارٍ حولَ المجهولِ، هي تخيُّلاتٌ، أوهامٌ، أو «مجرَّدُ معتقداتٍ».

إنَّ ارتباطي بِدينِ شبابي، يقتصرُ على سِماتِه الثقافيَّة. وذلك بسببِ تقديريَ الجماليِّ لتراتيلِه وخِدَمِه الليتورجيَّةِ التي تَرَسَّخَت في عقلي منذُ طفولتي. أصبحَ الدِّينُ بالنسبةِ لي مسألةَ هويَّةٍ شخصيَّةٍ، لا أكثر. إستَمْرَرْتُ في اعتِبارِ نفسي أرثوذكسيًّا يونانيًّا، ولكنْ أرثوذكسيًّا يونانيًّا علمانيًّا، مثلَما يُعتَبَرُ اليهوديُّ العلمانيُّ يهوديًّا، والعربيُّ العلمانيُّ عربيًّا. لذا، أثناء مرحلةِ اللاأدريَّة، أيَّةُ علاقةٍ لي مَع الرهبانِ والنسَّاكِ المسيحيِّين، والتي تُشكِّلُ مادَّةَ بحثِ هذا الكتاب، كانت، عمليًّا، أمرًا مستحيلًا. ما كانَ فكري، حينذاك، منفتِحًا نحوَ احتمالِ وجودِ قيمةٍ وحكمةٍ خارجَ حدودِ الثقافةِ الأكاديميَّةِ العقلانيَّة. في أحسنِ الأحوال، كنتُ ميَّالًا أثناءَ مرحلةِ اللاأدريَّة، إلى اعتبارِ أمثالِ أولئكَ الناسِ متاحفَ حيَّةً لعالَمٍ قضى عليه الزمن. في أسوإِ الأحوال، كُنْتُ سَأُوَضِّحُ أسلوبَ حياةِ الرهبانِ والنسَّاكِ بحسبِ مصطلحاتِ التحليلِ النفسيِّ، رافضًا كاملَ الحالةِ الرهبانيَّةِ، باعتبارِها شكلًا من أشكالِ التهرُّبِ المجتمعيّ، لا صلةَ له بأعمدةِ البناءِ المجتمعيِّ الحديث. حينذاك، كان يصعبُ عليَّ قبولُ فكرةِ وجودِ شيوخٍ يملكونَ حكمةً روحيَّةً حقيقيَّة، اكتسبوها نتيجةَ جهاداتِهم النسكيَّةِ الشاقَّةِ الصامتةِ وجهاداتِهم الروحيَّة.

لكنَّ العنايةَ الإلهيَّةَ تعمَلُ بطرقٍ سرِّيَّة. ففي عام ١٩٧٢، وصلْتُ برفقةِ زوجتي إيميلي إلى جامعةِ ماين، لأبدأَ عملِي كأستاذٍ مساعدٍ في قسمِ علمِ الاجتماع. وهناك بدأَ «تحرُّري» من المادِّيَّةِ العلميَّةِ واللاأدريَّةِ، على يدِ زميلٍ أطلعَني على فكرِ الشرقِ وتقليدِ ممارسةِ اليوغا الهنديّ. فبالإضافةِ إلى الكُتُبِ الجِداليَّةِ لكارلوس كاستانيدا، وكتاباتِ أَلِنْ واتس، وهيلينا بلافاتسكي،

ورودولف شتاينر، وجورج غوردجييف Gurdjieff، أصبحتْ أيضًا أعمالُ الحكماءِ من الهند مثل بارَمَهانسا يوغاناندا Paramahansa Yogananda وجيدو كريشنامورتي جُزءًا من حِمْيَتِي الروحيَّةِ المُنتظمةِ لعدَّةِ سَنَوات. ذاك الزميلُ عينُه، عرَّفني على التأمُّلِ التجاوزيِّ الذي أَدخَلَهُ معلِّمُ اليوغا مهاريشي ماهش Maharishi Mahesh إلى أميركا في سنواتِ الاضطرابِ في الستِّينيَّاتِ من القرنِ الماضي. ولقد مارستُ هذا التأمُّلَ الفكريَّ لأكثرِ من سبعِ سنواتٍ مُلتمِسًا «الوعيَ الكونيَّ» والاسترخاءَ الداخليَّ العميق.

إنَّ ما قادَني شيئًا فشيئًا للانتِقالِ بعيدًا عن حالةِ عدمِ الإيمانِ هو ممارسةُ التأمُّل وقراءةُ كُتُبِ الأديانِ الصوفيَّةِ الشرقيَّةِ القديمة، وأعمالٍ علميَّةٍ مثلَ أعمالِ فريتجوف كابرا[٢] Fritjof Capra وآخرينَ غيرَه، حولَ القاسمِ المشتركِ بين العِلْمِ والصوفيَّة. وقد اتَّضحَ لي على نحوٍ متزايد، أنَّ الفَرَضيَّاتِ العلمانيَّةَ حولَ الحقيقةِ، التي هَيمنَت عليَّ أثناءَ تدريبيَ الجامعيّ، كانتْ، في الحقيقة، وهمًا كبيرًا وخُرافةً ماديَّةً أبقتْ الفكرَ الغربيَّ مُحاصَرًا وسَجينًا في السنواتِ الثلاثمائةِ الماضية. كانَ ذلك خُرافةً مُدمِّرةً قادتْ جمًّا من المثقَّفينَ الغربيِّينَ إلى اليأسِ الوجوديِّ، وفي بَعْضِ الحالاتِ إلى الانتحارِ والجنون. إدراكُ زيْفِ الماديَّةِ العلميَّةِ تركَ تأثيرًا تحريريًّا كبيرًا في فكري.

---

٢ د. فريتجوف كابرا ولد في شباط ١٩٣٩. هو عالِمٌ فيزيائيّ أميركيّ من أصل نمساويّ. وَضع نظريّات في علم الفيزياء والأنظمة. ناشط في العمل البيئيّ. وضع عددًا من الكتب عن مغزى العلوم أهمّها "طاوية علم الفيزياء: إستكْشاف التطابق بين علم الفيزياء الحديث والصوفيّة الشرقيّة" An Exploration of the Parallels Between Modern Physics and Eastern Mysticism : The Tao of Physics . وفيه يؤكّد أنَّ الفيزياء و الميتافيزيقيا كلاهما يؤدّي إلى المعرفة ذاتِها وعلى نحو صلب أكيد. والمحور الأساسيّ في كلّ كتاباته وأعماله يدور حول فكرة أساسيّة هي «أنّ هناك ارتباطًا خفيًّا بين كلّ الأشياء في الكون».

أكثرُ حادثٍ حاسمٍ في حياتِي، والذي حرّرني مِنْ القيودِ الأخيرةِ للّاأدريَّةِ، كانَ لقائِي مَعَ معالجٍ روحيٍّ وصوفيٍّ غيرِ عاديٍّ معروفٍ بإسمِ «ذاسكَلوس» أي المعلِّم. هو عرَّافٌ ومعلِّمٌ للعلومِ الباطنيَّة، يبلغُ من العمرِ ستَّةً وستِّينَ عامًا، وقدِ اجتمعتُ بهِ في رحلةٍ ميدانيَّةٍ إلى قبرص عام ١٩٧٩. لقائي مع هذا الكاهنِ الساحرِ الغربيِّ، أحدثَ فيَّ تحدِّيًا أكاديميًّا جذريًّا، إلى حدِّ أنَّني وَضعتُ جانبًا مشروعًا اجتماعيًّا كُنْتُ أَعْمَلُ عليه حينذاك، وفرَّغْتُ وقتي كلَّهُ لدرسِ هذه الظاهرةِ «ذاسكَلوس» ودائرةِ تلاميذِه. ولعشرِ سنواتٍ تَلَت، أجرَيتُ عددًا من الأبحاثِ الميدانيَّةِ وكَتبتُ الكثيرَ عن أولئكَ المعالجِينَ وعالمِهم غيرِ العاديِّ. إنَّهُ عالَمُ عجائب، سَفَرٌ خارجَ الجسد، ظواهرُ نفسيَّةٌ متنوِّعة، طردٌ للأرواحِ الشرِّيرة، ومآثرُ شفاءٍ غريبةٌ أعجزُ عن تفسيرِها من خلالِ المنطقِ التقليديِّ[3]. كَيْفَ يُمكنني أنْ أُفسِّرَ عقلانيًّا شفاءَ امرأةٍ مشلولةٍ، كانَ الاختصاصيُّونَ في قبرصَ وفي إسرائيلَ قد اعتبروا شفاءَها غيرَ ممكنٍ؟ شاهدتُ بعينيَّ شفاءَ هذه المرأةِ على يدِ ذاسكلوس، الذي ببساطةٍ مدَّ يدَيه ومسَّدَ ظهرَها لمدَّةِ نصفِ ساعةٍ فقط. صورُ الأشعَّةِ السينيَّة(X-Rays) التي أُخِذَت فورًا بعدَ تدخُّلِه، أظهرتْ أنَّ العمودَ الفقريَّ طبيعيٌّ جدًّا مقارنةً بالصوَرِ التي أُخِذَت قبلَ أسبوعٍ واحدٍ فقط، والتي أظهرتْ بوضوحٍ أنَّ العمودَ الفقريَّ منحرفٌ عن مكانه الأصليِّ ومُتلَف. أَو كَيْفَ يمكنني أنْ أفسِّرَ إعطاءَ هذا المعالجِ تشخيصًا دقيقًا للحالةِ الصحِّيَّةِ لامرأةٍ تعيشُ في مدينةِ نيويورك، بلمسِهِ صورتَها الشمسيَّةَ

3 Kyriacos C. Markides, The Magus of Strovolos: The Extraordinary World of a Spir - tual Healer (New York: Penguin Arkana, 1985); Homage to the Sun: The Wisdom of the Magus of Strovolos (New York: Penguin Arkana, 1987); Fire in the Heart: Healers, Sages, and Mystics (New York: Penguin Arkana, 1991)

فقط وهو مُغمِضٌ عينَيه، بينما أطبّاؤها لم يتمكّنوا من معرفةِ ما تشكُو منه؟ إبّانَ السنواتِ العشرِ التي أمضَيتُها في مراقبتي الميدانيَّةِ لأولئكَ المعالجِينَ الروحيِّينَ، كانتْ ظواهرُ كهذِه أمورًا روتينيَّة. من ثمَّ، اكتشفتُ بأنَّ باحِثِينَ في أماكنَ أُخرى مِنَ العالمِ، قدَّموا تقاريرَ عن تجاربَ ومشاهدَ مماثلة. كانَ اجتماعِيْ بعلماءِ الإنسانيَّاتِ مثلَ مايكل هارنر Harner من المدرسةِ الجديدةِ للبحثِ الاجتماعيّ، الذي دَرسَ عرَّافين وكهنةً(shamans)، وكانَ شاهدًا على ظواهرَ مماثلةٍ، قدْ عزَّزَ ثقتي في نفسِي، في أنَّ شهاداتي الميدانيَّةَ الخاصَّةَ ما كانتْ أوهامًا شخصيَّةً[٤].

إستخلصتُ استنادًا إلى بحثِي معَ داسكلوسَ ومعاونِه المقرَّبِ إليهِ كوستاس، أنَّ لدى البشرِ قدراتٍ خاملةً تمتدُّ فوقَ إدراكِ الحواسِ الخمس، وأنَّ العقلَ البشريَّ ليس محصورًا في الدماغ. علاوةً على ذلك، توصَّلتُ إلى معرفةِ أنَّ هناك، رُبَّمَا، درجاتٍ أو مراحلَ مِنَ الوعيِ تمتدُّ إلى ما بعدَ المرحلةِ العقلانيَّةِ، تكلَّمَ عنها صوفيُّون من كُلِّ التقاليدِ والفلسفاتِ الروحيَّةِ عبرَ التاريخ، وأنَّ الموتَ، كما ندعوه، ليسَ إلاَّ بدايةً جديدة، وانتقالاً إلى مدًى آخرَ من الحياةِ والوجود. الصوفيُّون القبارصةُ علَّموا نظامًا متكاملًا للفلسفةِ الصوفيَّة، محورُ ارتكازِه هو المسيح Christocentric. هذا النظامُ استمالَني عقليًّا ومِهنيًّا وفتحَ أيضًا آفاقَ فكري نحوَ إمكانيَّةِ وجودِ عوالمَ أُخرى، أبعدَ بكثيرٍ من حدودِ العالَمِ الماديّ، ومن حدودِ الوعيِ العقلانيِّ العاديّ. إكتشافُ مثلِ هذه الكونيَّةِ الروحيَّةِ داخلَ تقليديَ الثقافيِّ كان مُشجِّعًا.

4 Michael Harner, The Way of the Shaman (New York: Bantam, 1982).

قدَّمَ الاهتمامُ بالصوفيّينَ القبارصة، الذي نتجَ عن مؤلَّفاتي الثلاثةِ عنهم، دعمًا إضافيًّا لإدراكيَ الجديدِ للحقيقة. فمنذُ إصدارِ تلكَ الثلاثيّةِ، التي فيها دوَّنْتُ كلَّ مشاهداتي خلالَ السَّنواتِ العشرِ التي أمضيتُها في بحثيَ الميدانيِّ في قبرص، اتَّصلَ بي أشخاصٌ كثرٌ مِنْ جميعِ أنحاءِ العالَم، ليُسِرُّوا إليَّ أنَّهم عاشوا أيضًا في هذا العالَمِ الاستثنائيِّ، عالَمِ المُعالِجينَ والصوفيّينَ القبارصةِ كما وَصَفْتُهُ في كُتبي. هكذا بدأتُ أُدرِكُ، تدريجيًّا، أنَّ أعدادًا كبيرةً من الناسِ في الولايات المتَّحدةِ وفي أمكنةٍ أخرى، تحيا حياةً مزدوجة. على الرغمِ من أنَّهم يَعيشونَ حياتَهم اليوميّةَ العاديَّةَ، إلّا أنَّهم يجتازونَ اختباراتٍ سرِّيَّة، لا يَتجاسَرُونَ على الإفصاحِ عنها خوفًا من نعتِهم بالجنون. يجبُ أن أُعجِّلَ بالقول، إنَّنا نَجِدُ مثلَ أولئكَ الناسِ في مختلفِ المهنِ والبيئات، بِمَنْ في ذلكَ أعضاءُ المجتمعِ الأكاديميِّ مثلَ علماءِ النفسِ السلوكيّ، وعلماءِ الاجتماع، وعلماءِ الفيزياء والأحياء. إكتشفتُ مندهشًا، أنَّ هنالك ثقافةً مُحاذيةً للثقافةِ المُعلَنةِ في هذا العالم، والتي بسببِ التحيُّزِ والإجحافِ المادّيِّ المُتَحَصِّنِ جدًّا، أخفقَ المثقَّفونَ والعلماءُ في مُلاحَظَتِها.

قد يكونُ الصوفيُّون القبارصةُ ساعَدوني في التغلُّبِ على لاأدريَّتي ومادّيَّتي العلميَّة، لَكنَّهم لم يلَعبوا أيَّ دورٍ يُذكَرُ في مُسَاعَدَتي للتغلُّبِ على موقفِي السلبيِّ من الدِّينِ المُنظَّم. بالعكس، اعتبرتُ أنَّ الروحانيَّةَ الأصيلةَ يُمْكِنُ أَنْ توجدَ وتزدهرَ فقط من خلال امتدادِها إلى ما بعدَ حدودِ الدِّينِ المؤسَّس. إعتبرتُ على نحوٍ قاطعٍ أنَّ فكرةَ الدينِ المُنظَّمِ تدلُّ حتمًا على فسادِ الدِّين. في تاريخِ الأديانِ، يُمْكِنُ أَنْ نَجِدَ ذخيرةً وفيرةً لدعمِ مثلِ هذه الاعتقادات.

كمعظمِ الأكاديميّين الغربيّين، إنْ لم أنسبْ لممثّلي الأديانِ المنظَّمةِ ضيقَ الأفقِ والمحدوديَّةَ والتعصُّبَ والفساد، فأقلّه كنتُ أعتبِرهم هامشيّين. قبلَ لقائيَ الأخيرِ مع بضعةِ رهبانٍ ونسّاكٍ مسيحيّينَ غيرِ عاديّين، ما اجتمعتُ يومًا برجلِ دينٍ ألهمَني روحيًّا أو فكريًّا. من وجهةِ نظري، بدا لي أنَّ الجسمَ الإكليريكيَّ كانَ بمعظمِهِ باردًا، ولا يملِكُ المؤهّلاتِ الفكريّةَ والثقافيّة. إعتقدتُ أنَّ الدّينَ المُنظَّم، يملِكُ اليومَ القليلَ ليقدّمَهُ إلى الإنسانِ القلِقِ، الذي هو معَ ذلك جِدّيٌّ وذكيٌّ ويسعى إلى المعرفةِ الداخليّة. حينذاك، كنتُ متّفقًا تمامًا مع رثاءِ أحدِ علماءِ الكتابِ المقدّسِ البارزينَ، الذي قال: «المسيحيَّةُ كما عرفناها في الغربِ تعاني من فقرِ الدمِ، وهي تندثر»[5].

حالما حرَّرتُ عقلي مِنْ قيودِ اللاأدريّةِ والمادّيّةِ العلميّةِ، افترضتُ أنّه كي تتسنّى للمرءِ المشاركةُ بجدّيّةٍ في ممارسةٍ تأمُّليّةٍ روحيّةٍ من أجلِ بلوغِ التحوُّلِ الشخصيِّ والاختبارِ الداخليّ، يلزمُهُ اعتمادُ المناهجِ التأمُّليّةِ التي يمارسُها الصوفيُّون العامّيُّونَ كالتي دَرستُ، أَو ممارسةُ اليوغا الهنديّةِ، ومن المفضَّلِ بإرشادِ معلّمٍ متمرّس. ولمزيدٍ من الرومانسيّة، ربّما يلزمُ المرءَ السفرُ إلى الشرقِ المليءِ بالأسرار، والجلوسُ عندَ أقدامِ المعلّمينَ الروحيّينَ «gurus» الذين حقّقوا ذواتِهم، ومِنْ قممِ جبالِ الهملايا نشرُوا حكمتَهم.

تغيُّرُ مشاعري من نحوِ الدينِ المُنظَّمِ جاءَ نتيجةً لدعوةٍ للذهابِ في رحلةِ حجّ. ففي ربيعِ عامِ ١٩٩١، تَحدّاني صديقي أنطوني، وهو رجلُ أعمالٍ قبرصيٌّ مهتمٌّ بالروحانيّةِ المسيحيّة، للسفرِ معهُ إلى الجبلِ المقدّس، أيْ جبلِ آثوس،

5 Robert W. Funk, Honest to Jesus (San Francisco: Harper, 1996), p. 305.

للاجتماعِ «بقدّيسينَ أحياءَ يشعُّون بمحبَّةِ المسيح». جبلُ آثوسَ هو شبهُ جزيرةٍ يصعُبُ الوصولُ إليها، تقعُ في شمالِ اليونان وتمتدُّ على طولِ ثلاثينَ ميلًا. إدَّعى أنطوني أنَّ صلواتِهم تُحْدِثُ المعجزاتِ وأنَّ هالاتِهم هي مثلُ الشموسِ المُشرِقة. فُتِنتُ بما قالَه، فوافقتُ على دعوتِه. وحين التقيتُ، إبَّانَ زيارتي الأُولى لجبلِ آثوسَ، بالأبِ مكسيموس تحوَّلَتْ حياتي وعملي مرَّةً أُخرى. في السنينَ التي تلت، أصبحَ هذا الراهبُ الآثوسيُّ الإستثنائيُّ والمواهبيُّ مرشدي ومعلّميَ الخاصّ والراويَةَ الرئيسيَّ لِسِمَاتِ الحياةِ الروحيَّةِ المسيحيَّةِ الأصيلةِ كما حُفِظَتْ في «جبلَ الصمت».

بعدَ مرحلتَي اللاأدريَّةِ والتأمُّلِ التجاوزيّ، وبعدَ الاختراقاتِ الفلسفيَّةِ التي جمعَتْني لسنينَ عديدةٍ معَ الصوفيّينَ العامّيّينَ والمعالجينَ الروحيّينَ في قبرص، كُنْتُ جاهزًا لأغامِرَ في سَبْرِ غَوْرِ تقليدِ المسيحيَّةِ النظاميَّةِ الميستكيِّ المخُتبَر، الذي بَقيَ مُصانًا في بضعةِ أديرةٍ قديمةٍ غيرَ معروفٍ في الغربِ ولا في معظمِ الدوائرِ المسيحيَّةِ الرئيسة. هناك، في جبلِ آثوس، ذاكَ الموقعِ المُصانِ منذُ القرنِ التاسعِ كمأوًى للنسَّاكِ والرهبانِ، التقيتُ بمسيحيَّةٍ مختلفة[٦]!

كما وَعَدَني صديقي أنطوني، وبمساعدةِ معلّمي الأبِ مكسيموس، تمكّنتُ من لقاءِ نسَّاكٍ في قامةِ القدّيسينَ يقطنونَ في شبهِ الجزيرةِ الآثوسيَّة، في مواقعَ بعيدةٍ معزولةٍ يصعُبُ الوصولُ إليها، يجهلُها الزائرُ العابر. في الحقيقة، بَدَوا لي وكأنَّهم 'يوغيُّون' مسيحيُّون، من نوعِ الحكماءِ الذين يسعى الغربيُّون للقائِهم

6 Robin Amis, A Different Christianity: Early Christian Esotericism and Modern Thought, (Albany: State University of New York Press, 1995).

في الأشرماتِ[٧] الهنديَّة. أدركتُ حينذاك أنَّ الروحانيَّةَ التي صادفتُ في جبلِ آثوس، بتاريخِها الألفيّ، كَانَت تملكُ كُلَّ السِّماتِ والمواصفاتِ التي كُنَّا نَبْحثُ عنها في كُتُبِ الفيدا[٨] واليوبانيشاد[٩] الهنديَّة، لا بل وأكثر. وفيما كنَّا نُبحِرُ بعيدًا، في نهايةِ هذهِ الزيارةِ الأُولى، قلتُ لأنطوني متأمّلًا: «إنَّ جبلَ آثوس هو مثيلٌ مسيحيٌّ للتِّيبت».

⁜ ⁜ ⁜

بَدأتُ بتَوسيعِ بؤرةِ استكشافَاتي مِنَ العالَمِ الهائلِ الذي لذاسكلوس وكوستاس إلى التقليدِ المسيحيّ، فإلى أسرارِ الحياةِ الروحيَّةِ المسيحيَّة، وذلك في كتاب «الركوب مع الأسد[١٠]».

يا لَدَهشتي، اكتشفتُ أنَّ التمارينَ الروحيَّةَ والتقنيَّاتِ النفسيَّةَ التي نبحثُ عنها في الهند والتِّيبت حاضرةٌ أيضًا في قلبِ التقليدِ المسيحيّ، ومحفوظةٌ في الأديرةِ والمناسكِ المُعلَّقةِ فوقَ المنحدراتِ الشاهقةِ في جبلِ آثوس، منذُ القرونِ الأُولى للتاريخِ البشريّ المشترك. رغم ذلك، فالكنائسُ من كُلِّ الطوائف، بالإضافةِ إلى علماءِ الكتابِ المقدَّسِ الغربيِّين، غافِلون عن الحكمةِ الروحيَّةِ التي ما زالَتْ تَزدهرُ في بعضٍ مِنْ هذه المجتمعاتِ الرهبانيَّة.

---

٧ الأشرمُ هو مُعْتَزَلٌ خاصٌّ بحكيم أو فيلسوف هنديّ.

٨ الفيدا Veda: اسم عامّ يُطلق على كتب الهندوس المقدّسة الأربعة أو على أيّها واحد منها. ولفظة Veda سنسكريتيّة ومعناها "المعرفة".

٩ اليوبانيشاد (upanishad) هي جزءٌ من كتب الهندوس المقدّسة. تركز على التأمّل والفلسفة. وهي تفسير صوفيّ أو روحيّ لكتب الفيدا الأربعة وتُعتبر جوهر الفيدا وغايتها النهائيّة. لذا تُسمى الفيدنتا Vedānta أي خاتمة الفيدا. يرجع تاريخ كتابة اليوبانيشاد إلى القرن الرابع قبلَ الميلاد.

10 Kyriacos C. Markides, Riding with the Lion. In Search of Mystical Christianity (New York: Penguin, Arkana, 1996).

عند عودتي إلى ماين، حينَ ذَكَرتُ للأصدقاءِ والزملاءِ عن عزمِي إدخالَ حياةِ الرهبانِ والنسَّاكِ المسيحيِّينَ وعالَمِهم في دائرةِ دراساتي، أدركتُ أنَّه عليَّ أنْ أشرحَ موقِفِي بوضوح. فسُمعةُ الرهبانِ والنسَّاكِ مُريبةٌ في الثقافةِ الغربيَّةِ، إنْ في الدوائرِ الأكاديميَّةِ أو بينَ عامَّةِ الشعب. ففي هذا الزمن، زمنِ ما بعدَ الفرويديَّة، الموجَّهِ بالملذَّاتِ والشهواتِ والمكيَّفِ وفقًا لها، يُعتبرُ نمطُ الحياةِ النسكيَّةِ كريهًا، ويُبغضُهُ العقلُ الحديث. في أغلبِ الأحيان، يُوازَى هذا النمطُ الحياتيُّ بالإماتةِ والتعذيبِ الجسديِّ وبالقمعِ الجنسيِّ، حتَّى بالماسوشيَّة الساديَّة[11]، ناهِيكَ عن كرهِ النساء misogynism ومحاكمِ التفتيشِ (الكاثوليكيَّة) غيرِ المقدَّسَة. إنَّه حِمْلٌ ثقافيٌّ ثقيل. وما يثيرُ الفضولَ والعَجَبَ، أنَّ مثلَ هذا الإجحافِ لا يوجَّهُ نحوَ الرهبانِ الواصلينَ إلى الشواطئِ الأميركيَّةِ مِنَ المشرق. في مؤتمرٍ أُقيمَ في مونتريال مؤخَّرًا، حيثُ تكلَّمتُ عن تجربتي في جبلِ آثوس، سألَتْني الكاتبةُ الأفريقيَّةُ-الأميركيَّةُ لويزا تيش Teish، إنْ كانَ الرهبانُ قاموا بتَطهيرِ تُراثِهم لقَتلِهم ملايينَ من النِساءِ باعتبارهنَّ سحرة. غيرَ أنَّ الدكتور جون روسنر Rossner، وهو مُنظِّمُ المؤتمرِ ومُضيفُه، وأسقفٌ أنجليكانيٌّ وأستاذُ الأديانِ المقارنةِ، استبقَ جوابي وانتصَبَ بسرعةٍ مُعلِنًا للمُستمعينَ أنَّهُ لم تكنْ هناك محاكمُ تفتيشٍ في المسيحيَّةِ الشرقيَّة. ارتبكَتِ الدكتور تيش وفرِحَتْ لسماعِ ذلك. وأضفتُ قائلًا: «أن نلومَ رهبانَ جبلِ آثوسَ على دواوينِ محاكمِ التفتيش، هو سُخفٌ مُنَافٍ للعقلِ والمنطق، تمامًا كما لو قُمنا بِلَوْمِ الدالي لاما وغيرَه من الرهبانِ والبراهمةِ البوذيِّينَ والهندوس على تلكَ الحقبةِ المريعةِ من

[11] الساديَّة: انحرافٌ جنسيٌّ يتلذَّذُ فيهِ المرءُ بإنزالِ العذابِ بالآخرينَ أو بنفسِه.

التاريخِ الغربيّ».

ما إنْ بَدأتُ باسْتِكشافِ الحياةِ الروحيَّةِ في جبلِ آثوس، لَعِبَ شخصانِ دورًا حاسِمًا في مُساعدَتي لتوضيحِ أفكارِي وشَحْذِ بؤرةِ تركيزي، هما زوجتي إيميلي وصديقِي وزميلِي الفنَّان مايك لويس. تمامًا، مثل إيميلي ومثلي، كانَ مايك مهتمًّا بالروحانيَّاتِ لكنَّه كان مرتابًا من الدِّينِ المُنظَّم، خصوصًا المجموعاتِ المتنوِّعةِ الغيُورةِ بإفراطٍ والمُغاليةِ في حماسِها. علاوةً على ذلك، فَتَوجيهاتُه، كونُهُ غيرَ ممارسٍ لأيَّةِ ديانةٍ رسميَّة، ساعدَتْني كثيرًا في أن أصبحَ أكثرَ تحسُّسًا لعناصرِ الحياةِ الروحيَّةِ القائمةِ في الأرثوذكسيَّةِ الشرقيَّة، تلكَ العناصرِ التي لا تتعلَّقُ بحياةِ المسيحيِّين فقط، بل بحياةِ أيِّ شخصٍ مهتمٍّ بالأبعادِ الأكثرِ عمقًا للوجودِ الإنسانيّ. على نحوٍ مماثل، عندما انغمستُ في مساحاتِ الحياةِ الروحيَّةِ التي للرهبانِ والنسَّاك المسيحيِّين، لم تَكِلَّ إيميلي بحسِّها النسائيِّ المُجتمَعيّ، عن تذكيري بأهمِّيَّةِ تسجيلِ استكشافاتي بشمول.

التقليدُ الآثوسيُّ الذي خبِرتُه، بالرغمِ من سياقِهِ الثقافيِّ القديم، مَلأ فراغًا في سعيِي نحوَ الحقيقة. ما يَمَسُّ قلبَ الزائرِ ليس فقط هذا الشعورُ المذهلُ بالمحبَّةِ اللَّاأنانيَّة، التي تخترقُ عالمَ الجبلِ المقدَّسِ بأسرِه، بل قوَّةُ تعبيرِهِ الفنِّيِّ أيضًا الذي يُلامس الحاجَّ في درجةٍ أعمق، في قلبِه. فالتراتيلُ الشِّعريَّةُ الروحيَّةُ باليونانيَّةِ البيزنطيَّةِ أثناءَ الخِدمِ الطويلة، كانت ترفعُ حسِّيَ الداخليَّ باستمرار، ما قادَني إلى إدراكِ قوَّةِ الفَنِّ والموسيقى في المغامرةِ الإنسانيَّةِ لإيجادِ الله. التراتيلُ كانت وكأنَّها صلاةٌ تأمُّليَّةٌ تقذِفُني في أحضانِ سكونٍ، سلامٍ، وهدوءٍ عميق. شيءٌ لمْ أشعرْ به أو ألمُسْهُ من قبلُ في أيِّ شكلٍ من أشكالِ التأمُّلاتِ

الروحيَّةِ الأُخرى التي اختبرت.

غيرَ أنَّ جبلَ آثوس لم يكنْ مرتفعًا حسِّيًا وروحيًا فقط، بل تحدِّيًا فكريًا أيضًا. فأحاديثُ مايك وإيميلي الجذَّابةُ والأَخَّاذةُ ساعدتْني فكريًا لتوضيحِ هذه السِّمَةِ في عملي، وأثارَتْ في ذهنيَ الكثيرَ من الأسئلةِ التي استحوذَتْ على فكري لشهورٍ وسنينَ تالية. ما هي الخصائصُ الأساسيَّةُ للحياةِ الروحيَّةِ الآثوسيَّةِ كما حُفِظَتْ وتشكَّلتْ على مرِّ العصورِ في تلكَ الأديرةِ والمناسكِ القديمة؟ لماذا تجاهلَ المثقَّفونَ الغربيُّونَ هذا الشكلَ أو الحالةَ الروحيَّةَ المسيحيَّة، هذه الحياةَ الروحيَّةَ الحيَّة، في وقتٍ أدارَ فيه العديدُ من الغربيِّينَ نظرَهم نحوَ الهندوسيَّةِ والبوذيَّة؟ ما هو الشيءُ المفقودُ اليومَ ضمنَ الكنائسِ السائدةِ في الغرب، والذي يمكنُ لجبلِ آثوسَ أنْ يقدِّمه إليهم؟

عزَمْتُ العودةَ إلى جبلِ آثوسَ البعيدِ في وقتٍ لاحقٍ لأجِدَ أجوبةً على كلِّ الأسئلة، بالطبع، بمساعدةِ الأبِ مكسيموس. أثناءَ ذلك، قَرأتُ وناقشْتُ أمورًا كثيرةً مَع إيميلي، وواصلْتُ محادثاتَي المَشَّائيَّة[١٢] مَع مايك. خلالَ تلكَ المحادثاتِ في ممرَّاتِ الجامعة، بدأتُ أُدرِكُ بوضوحٍ ما يُمْكِنُ لجبلِ آثوس، تلكَ الجمهوريَّةِ الرهبانيَّةِ المستقلَّةِ ذاتيًا التي تحوي ألفَيْ راهبٍ وناسك، أَنْ يقدِّمَ للحضارةِ المُعاصرة.

في أحدِ الأيَّامِ بينما كنَّا نتمشَّى، والشمسُ تختبئُ وراءَ الغابات، شرحتُ لمايك موضِحًا له بعضًا مِنْ أفكارِيَ النظريَّةِ وافتراضاتيَ حولَ ما اعتبَرْتُه الأهمِّيَّةَ

١٢ المحادثات المَشَّائيَّة أو الأرسطوطاليسيَّة منسوبة إلى أرسطو الذي كان يُعلِّمُ وهو يتمشَّى في الليسيوم Lyceum بأثينا.

المحتملةَ لجبلِ آثوس بالنسبةِ للعالمِ الحديث. العالِمُ الاجتماعيُّ الراحلُ بيتِريم سوروكين Pitirim Sorokin الذي من هارفرد، والمفكّرون العَبر-شخصانيُّون transpersonal المُعاصرون مثل كين ويلبير، إدَّعَوا أنَّه بإمكانِنا إدراكُ الحقيقةِ من خلالِ ثلاثِ طرائق: «الإدراكُ الحسّيُّ» (العِلْمُ التجريبيّ)، «الإدراكُ العقليُّ» (الفلسفة، المنطق، الرياضيّات)، و«الإدراكُ التأمُّليُّ» (تمارينُ روحيَّةٌ منظَّمةٌ ومنضبطةٌ لكشفِ القدراتِ الحدْسيةِ والروحيَّةِ للنفس)[13]. طرائقُ إدراكِ الحقيقةِ هذه تختلِفُ عن بعضِها البعض، لكلٍّ منها مجالاتُها الشرعيَّةُ الخاصَّةُ والمُميَّزةُ وقوانينُها وخصائصُها التي لا يُمْكن إختزالُها في الأُخرى. إنَّها مراتبُ أو أنظمةٌ إدراكيَّةٌ فريدة، هي في حدِّ ذاتِها حقائق. كما ذكَّرنا دائمًا الراحلُ بيتريم سوروكين، فهذه المقاربةُ «التكامليَّةُ» للحقّ، تفترضُ احترامَ مراتبِ «الإدراك» الثلاثةِ وتنميَتَها على قاعدةٍ متساوية. فما نتجَ تاريخيًا في الغربِ هو أنَّ واحدًا من المُقارباتِ الثلاثِ يُهَيْمِن، فيتعدّى مزيلًا المجالَين الآخرَين. أثناءَ تطوُّرِ الغربِ في مختلفِ المجالاتِ أُبعِدَ «الإدراكُ التأمُّليّ» كطريقٍ شرعيٍّ للمعرفة، وهُمِّشَ أولئك الذين كرّسوا حياتَهم لنموِّه، لا بل حُطَّ من قدرِهم واضطُهدوا أحيانًا كثيرة. وهكذا، تقلَّصَ ميزانُ المعرفةِ الكاملُ إلى مستوى «الإدراكِ الحسّيّ» فقط. من الجهةِ الأُخرى، في الحضاراتِ الشرقيَّة، كحضارةِ التيبت مثلًا، بَقِيَ «الإدراكُ التأمُّليُّ» حيًّا، واكتشفَهُ في الغرب، منذ القرنِ التاسعَ عشر، شعراءُ وكُتَّابٌ محرَّرونَ من الوهم، وأنصارُ تيّارِ «العصر الجديد» new age

13 Ken Wilber, Eye to Eye: The Quest for the New Paradigm (Garden City, NY: Anchor, 1983).

المعاصرونَ أثناءَ بحثِهم عن الروحانيّةِ الأصيلة [14].

حافظَ جبلُ آثوسَ أيضًا على «الإدراكِ التأمُّليّ» بطريقتِه الهادئة، بينما كانَ يُبعَدُ في كلِّ مكانٍ آخرَ في الحضارةِ الغربيّة. إذًا، إنْ كانَ ما قدَّمَتْهُ الحضارةُ اليونانيّةُ الكلاسيكيّةُ للعالمِ أوّلًا، هو منهجٌ لتهذيبِ ونموِّ «الإدراكِ العقليّ» أي الفلسفة، والمنطقِ وعقلانيّةِ الفكر؛ وبالطريقةِ عينِها، ساهمتْ الحضارةُ الغربيّةُ الأُوروبيّةُ في تطوُّرِ «الإدراكِ الحسّيّ» (العلوم التجريبيّة)؛ فإنَّ جبلَ آثوس، تلكَ المحميّةَ الثقافيّةَ المحفوظةَ منذُ سقوطِ الإمبراطوريّةِ الرومانيّةِ الشرقيّةِ المعروفةِ باسمِ الإمبراطوريّةِ البيزنطيّة، لا يزالُ بإمكانِه أنْ يساهمَ في نموِّ «الإدراكِ التأمُّليّ»، وإعادةِ التقليدِ الداخليّ إلى الحضارةِ الغربيّة. ويمكنُه أن يساهمَ في نموِّ مقاربةٍ «تكامليّة» تامّة، لمعرفةِ الحقّ.

إذًاك، وأنا أُناقشُ هذه الأفكارَ مَع إيميلي ومايك، أدركْتُ أنَّ جبلَ آثوسَ قد يملكُ حلاًّ لمشكلةِ أنَّ «المسيحيّةَ كما عَرفنَاها في الغربِ، تُعاني من فقرِ دمٍ حادٍّ وهي في طريقِها إلى الاندثارِ والزوال». لذا، فالجبلُ المقدّسُ يملكُ الإمكاناتِ الحيّةَ لِحَقْنِ المسيحيّةِ بحيويّةٍ جديدة، هي في أمَسِّ الحاجةِ إليها.

14 Robert Thurman, Inner Revolution: Life, Liberty, and the Pursuit of Real Happiness (New York: Riverhead Books, 1998).

الفصل ٢

شيوخٌ وقدّيسون

أَحَبَّ الأبُ مكسيموس أن يُحدِّثَ عن أبيهِ الروحيِّ الناسكِ الأسطوريِّ والقدِّيسِ الآثوسيِّ المُعاصرِ الشيخِ باييسيوس. أَذكرُ بعضًا من هذه الأفعالِ التي رواها لنا فيما كنّا نتغلغلُ سيرًا على الأقدامِ في دروبِ الجبلِ الوعرةِ للوصولِ إلى منسكِ الشيخِ باييسيوس، وذلك أثناءَ زيارتي الأُولى إلى الجبلِ المقدَّسِ، في ربيع عام ١٩٩١. في ذلكَ اليومِ قالَ لنا: «منذُ زمنٍ ليس ببعيد، كنتُ مع الشيخِ باييسيوس في منسكِهِ حينَ بدأَ توافدُ أعدادٍ كبيرةٍ من الحجّاج. كانَ يومًا مُتعِبًا جدًّا للشيخِ المُسنّ. عندَ العصر، أَعلمَ الشيخُ البارُّ المجموعةَ الأخيرةَ من زوّارِه: «إخوتي، حانَ وقتُ الرحيل. فأمامَكم مسافةٌ طويلةٌ سيرًا على الأقدامِ للوصولِ إلى أقربِ ديرٍ من هنا. أسرِعوا وإلاّ ستجِدونَ أبوابَ الديرِ مُغلقَة». لكنَّ أحدَ أفرادِ المجموعةِ طلبَ بإلحاحٍ التحدُّثَ معَه في مشكلةٍ خاصَّة، قائلًا: «أبتِ، أوَدُّ التحدُّثَ معكَ لبضعِ دقائقَ على انفراد».

لوَّحَ الشيخُ باييسيوسُ بيدِه قائلًا للرجل: «إذهبْ يا بنَيّ. إذهبْ مَعَ الآخرين. الوقتُ متأخِّرٌ وأنا مُتعَبٌ جدًّا».

قاطعَهُ الرجلُ متوسّلًا: «لكنْ أرجوكَ يا أبتِ! لديَّ شيءٌ مهمٌّ جدًّا أقولُه لك».

- «إذهبْ يا بنَيَّ، إذْهب. لا داعي للقَلْق».

لكنَّ الرجلَ أصرَّ، وبَدا الشيخُ پاييسيوس فاقدَ الصبر: «حبًّا باللّهِ، إذْهبْ قَبْلَ أَنْ يُغْلِقَ الديرُ أبوابَه».

- «لكن يا أبتِ، زوجتي مريضةٌ جدًّا. إنَّها مصابةٌ بالسرطانِ وتُحتَضَر».

وقفَ الأبُ پاييسيوس واحتضنَ الرَّجُلَ، وطَمأنَه بلطفٍ قائلًا: «إذْهبْ، يا عزيزي ولا تَخَفْ. زوجتُكَ بألفِ خير».

وتابعَ الأبُ مكسيموس كلامَه فيما كنَّا نسيرُ باتِّجاهِ المنسك: «بَدا الرجلُ يائسًا للغاية. وبقلبٍ مثقل، مَشَى مع الآخرين عائدًا إلى الديرِ، شاعرًا أنَّه لم ينجِزْ شيئًا، وأنَّ رحلتَهُ الطويلةَ إلى جبلِ آثوسَ، الذي يبعدُ مئاتِ الأميالِ عن العاصمةِ اليونانيّةِ أثينا، كانَت مضْيَعَةً للوقت. لقد سَمعَ بالمواهبِ التي منحَها اللّه لهذا الشيخِ القدّيسِ وأنَّ صلاتَه وشفاعتَه قد شَفَتَا الكثيرينَ من أمراضِهم المستعصية. والآنَ، أملُه الأخيرُ قد تَبخَّر».

وفيما كنَّا نقتربُ من المنسك، قالَ الأبُ مكسيموس: «أيُمْكنكم أَنْ تَتخيَّلوا دهشتَه وفرحَه العظيمَين لدى عودتِه إلى بيتِه، إذ وَجدَ زوجتَه تمشي وبدَتْ في صحَّةٍ جيِّدة. وقد أخبرَتْ أنَّه بينما كانت طريحةَ الفراشِ، تعرَّقَ جسدُها تعرُّقًا غزيرًا وباردًا، وشعرَتْ بالشفاءِ الكامل. أكَّدَ طبيبُها لاحقًا أنَّ

مرضَها السرطانيَّ غُسِلَ كليًّا بأسلوبٍ عجائبيّ. سألَها زوجُها عن وقتِ شعورِها بذاكَ الاختبارِ الشفائيّ. فأجابت بأنّه كانَ يومَ الجمعةِ حوالي الساعةِ الرابعةِ من بعدِ الظهر. لدى سَماعِ الزوجِ جوابَها اعترتْهُ القشعريرة. إذ كانَ الوقتَ ذاتَه حينَ طمأنَه الشيخُ باييسيوسُ بأنَّ زوجتَه بألفِ خيرٍ وعافية».

أخذَ الأبُ مكسيموس نفَسًا عميقًا وتوقَّفَ لبضعِ ثوانٍ، محدِّقًا في البحرِ المنبسطِ تحتَ أقدامِ الجبل. ثمَّ التفَتَ إلينا موضحًا أنَّ هذه الظواهرَ الباهرةَ ليستْ مصدرَ دهشةٍ وتعجُّبٍ في جبلِ آثوس، بل جزءٌ من الخبرةِ اليوميّةِ للرهبانِ والنسّاكِ الذين اختاروا العيشَ هنا في حالةٍ دائمةٍ من الصلاةِ والتأمُّل.

وعندَ بوّابةِ منسكِ الشيخِ بايیسيوس، توقَّفَ الأبُ مكسيموس ليوضِحَ قائلًا: «عندما يُزيلُ الإنسانُ غرورَه ويقتلعُ من داخلِه الأنانيّةَ الذاتيّةَ نهائيًّا ويرتفعُ إلى حالةِ التألُّه، أو الاتِّحادِ باللّه، إذّاك يضحي ما يَتمنّاه ويريدُه هو ذاتُه ما يتمنّاه اللّه ويريدُه. ويُعطيهِ اللّهُ إيّاه. الفصلُ بين الأنا الفرديّةِ واللّه، أو بينَ مشيئةِ الأشخاصِ الذين صَلبُوا ذواتِهم مع المسيحِ مُحلِّقينَ نحوَ الكمالِ ومشيئةِ اللّه، يغدو ضئيلًا جدًّا. هذه هي حالةُ القداسة، الحالةُ التي نالَها الشيخُ بايیسيوس بعدَ جهادٍ نُسكيٍّ طويلٍ دامَ طولَ عمرِه». وقبلَ أنْ يفتحَ لنا الشيخُ بايیسيوس البابَ، عاجَلَنا الأبُ مكسيموس شارِحًا أنَّ الإنسانَ «المصلوبَ» لا يفقِدُ هويَّتَه الذاتيّةَ بل يستمرُّ في التمتُّعِ بها ضمنَ حالةِ الوحدةِ معَ اللّه. في التقليدِ الصوفيِّ المسيحيّ، الحالةُ النهائيّةُ هي التألُّه، وهي حالةٌ لا تعني طمسًا لفرادةِ المرء.

⁜ ⁜ ⁜

لا زلتُ أتذكّرُ بشكلٍ جَلِيٍّ ذاكَ اليومَ الذي تقابلتُ فيه مع الأبِ مكسيموس للمرّةِ الأُولى في ربيعِ عام ١٩٩١، إبّانَ ذلك الحجِّ الحاسمِ المصيريِّ إلى الجبلِ المقدّس. إنتظرَنا، هو وثلاثةُ رهبانٍ آخرينَ عندَ مدخلِ ديرِ ڤاتوبيذي، ذلكَ الديرِ القديمِ الواقعِ عندَ المنحدرِ الشرقيِّ لجبلِ آثوسَ العسرِ الوصولُ إليه. كان يقفُ بثوبِه الأسود. إستقبلَنا بابتسامةٍ عريضةٍ ودِّيّة، بدَتْ ظاهرةً على وجهِهِ الدائريِّ الشكل. في اللحظاتِ الأُولى للقائِي به، انتابَني شعورٌ غريبٌ، ككلِّ إنسانٍ حينَ يلتقي بشخصٍ غريبٍ كلّيًّا عنهُ ومَع ذلك يُصبحان فورًا صديقَين حميمَين. لكنّني لمْ أتوقَّعْ قطُّ أنْ يتركَ هذا اللقاءُ العَرَضيُّ أثرًا عميقًا في حياتِي الروحيّةِ والمهنيّةِ اللاحقة.

منذُ لقائِنا الأوّل، أدركتُ أنَّ الأبَ مكسيموس هو شخصٌ غيرُ عاديٍّ، وأنّه بالرغمِ من صغرِ سنِّهِ (إثنتان وثلاثون سنةً حينذاك)، يملِكُ حكمةً روحيّةً استثنائيّة. وقد علمتُ لاحقًا أنَّ الرهبانَ الآخرينَ يعتبرونَ الأبَ مكسيموس «شيخًا»[١٥]، أيْ شخصًا مثلَ الشيخِ بايسيوس، منحَهُ الروحُ القدسُ مواهبَ مقدّسة. بصرفِ النظرِ عن العُمرِ، شيخٌ كهذا (أو شيخةٌ) يُمْكِنُ أَنْ يقومَ بدورِ المرشدِ الروحيِّ لآخرينَ في جهادِهم الروحيِّ للاتّحادِ بالله. كانَ هذا بالنسبةِ لي اكتشافًا هامًّا، وهو وجودُ نظامِ تلمذةٍ، أو «مشيَخَةٍ»، مزدهرٍ لا في الدياناتِ الشرقيّةِ فحسب، بل ضمنَ المسيحيّةِ أيضًا.

١٥ "الشيخ" هو صورة نموذجيّة في الرهبنة الأرثوذكسيّة. هو راهب بلغَ درجة من التمييز الروحيّ والحكمة يمكنه بهما أن يصيرَ مرشدًا وأبًا روحيًّا لرهبانٍ آخرين أو لغير الرهبان. وقد يكون الشيخ كاهنًا، لكنّه أحيانًا يكون راهبًا عاديًّا لم يتقبّلْ نعمةَ الكهنوت. لا يحتاجُ الشيخُ إلى رسامةٍ خاصّة أو تفويض معيّن ليمارسَ عملَ "الشيخ"، لكنّه يسيرُ بإلهام مباشر من الروح القدس وتتجلّى موهبته الخاصّة بكشفه للذين يقصدونه إرادةَ الله ومقاصدَه فيما يعانون، وكيفيّة معالجة حالة كلّ واحد منهم.

كنتُ مهيّأً نفسيًا وفكريًا للتعَلُّمِ منه، وهذه عادةٌ اكتسبتُها أثناءَ لقاءاتي المطوَّلةِ بالصوفيّينَ والمُعالجينَ القبارصة. والأهمُّ من هذا أنَّ الأبَ مكسيموس أبدى استعدادًا ليَضُمَّني تحتَ جناحِه، ويَكُونَ معلّمًا ومرشدًا أساسيًّا في استكشافاتي الجديدةِ في قلبِ التقليدِ الصوفيِّ المسيحيّ.

بَدأتُ أُعدُّ برنامجَ عودتي إلى جبلِ آثوسَ، على أنْ تكون أثناءَ عطلتي السنويَّةِ القادمةِ المقرَّرةِ في ربيعِ عام ١٩٩٧. وقد زادَني إقدامًا للتحضيرِ لهذه العودةِ عددٌ من الرسائلِ، بعثَها لي الأبُ مكسيموس، يؤكِّدُ فيها تعهُّدَه لمساعدتي في بحثي. كما أبدى اهتمامَهُ بحياتِي الروحيَّة. ولقد ذكرَ بصورةٍ عابرةٍ في إحدى تلكَ الرسائلِ، وكان ذلك في بدايةِ عامِ ١٩٩٢ أنَّه، «للأسف»، انتُخِبَ «البروتوس» أو الراهبَ «الأوّل» لجبلِ آثوس، وهو مركزٌ قياديٌّ يُتناوبُ عليه مداورةً وتستمرُّ ولايتُه سنةً واحدةً[١٦]. كانَ انتخابُه هذا علامةً للإحترامِ والتقديرِ الكبيرَين اللذَين يتمتَّعُ بهما الأبُ مكسيموس بينَ إخوتِه الرهبان. كما أنَّ هذا المركزَ القياديَّ يُشيرُ أيضًا إلى المكانةِ الاستثنائيَّةِ لجبلِ آثوسَ كحكومةٍ دينيَّةٍ مسيحيَّةٍ مستقلَّةٍ ذاتيًا تقعُ على أطرافِ القارَّةِ الأوروبيَّة، كمحميَّةٍ للإمبراطوريَّةِ البيزنطيَّةِ المندثرة.

١٦ في جبلِ آثوس عشرون ديرًا تتبعها الأساقيط والقلّايات والصوامع. يعيش فيها الرهبان حياة شركة أو توحّد. وتُديرُ شؤونَ الجبل أربعُ سلطات: السلطة التشريعيّة (وتتألّف من عشرين عضوًا هم رؤساء الأديار يجتمعون مرّتين في العام في كاريس، عاصمة الجبل المقدّس، لاتّخاذ القرارات والقواعد)؛ السلطة الإداريّة (يقوم بها عشرون مندوبًا عن كل دير يُنتخبون في الأوّل من كانون الثاني وتستمرّ ولايتهم سنة واحدة يقيمون خلالها في كاريس)؛ السلطة القضائيّة (تمارسُها إدارة كلّ دير واللجنة العليا للأديار إضافة إلى المجمع المسكونيّ المقدّس في الفنار، اسطنبول، والمحاكم المدنيّة في تسالونيك)؛ والسلطة التنفيذيّة (مُناطة بلجنة مؤلّفة من أربعة أعضاء، وذلك حسب توزيع الأديرة إلى خمس مجموعات في كلّ واحدة أربعةُ أديرة. من بين هؤلاء يُنتخبُ البروتوس Protos. ووحدَها أديرة اللافرا وفاتوبيذي وإيفيرون وخيلاندار وذيونيسيو لها الحقّ في هذا الانتخاب - (مجلّة النور، العدد الرابع، السنة الستون، ٢٠٠٤، ص. ١٨١) (المعرّب)

لم يكنِ الحفاظُ على هذا الحكمِ الذاتيِّ وعلى هذه الاستقلاليَّةِ التامَّةِ سهلًا دائمًا. لا بدَّ أنَّ الأبَ مكسيموس شَعَرَ بعبءِ المسؤوليَّةِ وثقلِها، حتَّى وإنْ كانتْ لوقتٍ قصير. وبينما جلستُ أُفكِّرُ في شأنِ الأعباءِ الإضافيَّةِ التي أُلقِيَتْ على عاتقِه بسببِ مركزِه القياديِّ الجديدِ، تَذكَّرتُ حوارًا جرى بيننا ذاتَ يومٍ أثناءَ زيارتي الأُولى، حينَ قُمنا بجولةٍ معَه في أرجاءِ الديرِ وشاهدْنا بعضَ مقتنياتِه الفنِّيَّةِ الثمينة. حينذاك، شرحَ لنا أهمِّيَّةَ الحفاظِ على استقلاليَّةِ الجبلِ المقدَّسِ التامَّةِ وحُكْمِهِ الذاتيِّ، وذلك لدوامِ الحفاظِ على الروحانيَّةِ الحقيقيَّةِ للرهبنةِ الآثوسيَّة. وتعليقًا على التطوُّراتِ في الغربِ من بعدِ حركةِ الإصلاحِ البروتستانتيِّ، أوضحَ الأبُ مكسيموس قائلًا: «إغلاقُ الأديارِ (في الغرب)، كانَ بمثابةِ اقتلاعِ القلبِ من الجسمِ المسيحيِّ». وعَنى بذلك القول، أنَّ الخبرةَ الروحيَّةَ كانت مغروسةً على نحوٍ منتظمٍ ومنهجيٍّ في هذه الأديار، كشاهدٍ حيٍّ لحقيقةِ اللّٰهِ الحاضرِ بينَنا. بإقفالِ أبوابِ الأديار، اعتمدَ الغربُ في بحثِه عن اللّٰه، على العقلِ البشريِّ. ولكن، كما كانَ الأبُ مكسيموس يكرِّرُ على مسمعِنا دائمًا: «طريقُ معْرفةِ اللّٰه، لا تكونُ من خلالِ الفلسفةِ ولا من خلالِ العِلْمِ التجريبيِّ بل من خلالِ ممارسةِ الحياةِ الروحيَّةِ المنتظَمة، والتي يُمْكِنُها، وحدَها، أَنْ تمنحَنا الانفتاحَ على نعمةِ الروحِ القدس. إذَّاك فقط، يُمكن أنْ نتذوَّقَ اللّٰه، وأنْ نحظى من المصدرِ الأصليِّ أيْ مِن اللّٰهِ الخالق، باختبارٍ فعليٍّ حيٍّ لمعرفتِه. ما عدا ذلك، نحنُ قابعونَ في حدودِ معتقداتٍ وأيديولوجيَّاتٍ مجرَّدة». ووفقًا للأبِ مكسيموس الحفاظُ على التقليدِ الصوفيِّ الآثوسيِّ، كان ذا أهمِّيَّةٍ عُظمى لبقاءِ المسيحيَّة.

صَونُ الأديارِ تَطلَّبَ دبلوماسيَّةً وذكاءً ماهرَين من قِبَلِ الرهبانِ، وهي مهمَّةٌ رئيسيَّةٌ للبروتوسِ المنتخَبِ ومستشاريه. لنْ أنْسى أبدًا، بعضَ الحكاياتِ الشيِّقةِ التي سَمعتُها هناكَ أثناءَ زيارتي الأُولى لجبلِ آثوس، حولَ جهادِ الرهبانِ المستمرِّ لحِراسَةِ خلوةِ الجبلِ المقدَّسِ واستقلالِه مِنَ الدُّخَلاء. ولقد عرفَ جبلُ آثوس، عبرَ القرون، الكثيرَ مِنْ أولئكَ المتطفِّلين.

اختيرت شبهُ الجزيرةِ الآثوسيَّةُ أصلًا كموقعِ خلوةٍ للرهبانِ والمتوحِّدينَ بسببِ موقِعِها الجغرافيِّ المنيع، حيثُ يتعذَّرُ الوصولُ إليها. فهيَ تمتدُّ على مسافةِ ثلاثينَ ميلًا في بحرِ إيجيه الشماليِّ، جنوبِ شرقيِّ مدينةِ تسالونيكي، وتعزلُها عن باقي الأراضي اليونانيَّةِ جبالٌ وعرةٌ منيعةٌ وشريطٌ ساحليٌّ قاس. بخلافِ أكثرِ أجزاءِ اليونانِ الساحليَّة، لا تتمتَّعُ شبهُ الجزيرةِ الآثوسيَّةُ بموانئَ طبيعيَّةٍ، ممَّا جعلَها هدفًا غيرَ جذَّابٍ للغزاةِ والزوّارِ غيرِ المرغوبِ فيهم. لمستُ ذلكَ شخصيًّا يومَ قُمنا برحلةٍ على متنِ قاربٍ شراعيٍّ حولَ جبلِ آثوسَ في صيفِ عام ١٩٩٨، مع بعضِ الأصدقاءِ والأهل، إذْ هبَّتْ رياحٌ قويَّةٌ مفاجئةٌ وارتفعتْ أمواجُ البحرِ وحاصرَتْنا وكادتْ أن تُغرقَ القارب، ولم نجدْ أيَّ خليجٍ صغيرٍ نأوي إليه.

وبالرغمِ من تعذُّرِ الوصولِ إلى شبهِ الجزيرةِ الآثوسيَّة، تعرَّضتِ الأديارُ عبرَ العصورِ للسلب، من قِبَلِ القراصنةِ المُجازفينَ والصليبيِّينَ المُغيرِينَ وجيوشٍ مهاجمةٍ أُخرى. لهذا السبب، وللحفاظِ على إستقلاليَّةِ الجبلِ المقدَّسِ وهدوئِه، شُيِّدتِ الأديارُ على شكلِ قلاعٍ حصينةٍ على قممِ الجبال أو على شفا المنحدراتِ الشديدة.

وفيما أبقى رهبانُ جبلِ آثوسَ تركيزَهم في ما هو أبعدُ من هذا العالمِ الآنيِّ، طوَّروا ثقافةً دبلوماسيَّةً مكَّنتْهم من معالجةِ مشاكلَ من هذا النوعِ في العالم. فعندما سقطتْ تسالونيكي، ثاني أهمّ مدينةٍ في الإمبراطوريَّةِ البيزنطيَّة، في يدِ الأتراكِ العُثمانيّين في القرنِ الخامسَ عشر، أدركَ الرهبانُ آنذاك، أنَّ سقوطَ القسطنطينيَّة هو مسألةُ وقتٍ فقط. لذا، ولأجْلِ حمايةِ الأديارِ من غزوِ الجيوشِ التركيَّةِ الوشيك، ذهبَ بروتوس جبلِ آثوس بصحبةِ وفدٍ من الرهبانِ ممثِّلٍ عن كُلِّ الأديارِ إلى تسالونيكي لتَقديمِ استسلامِهم الرسميّ وللتعبيرِ عن ولائِهم للباشا التركيّ. قدَّرَ الباشا استسلامَهم وأظهرَ استحسانَه لهذهِ الخطوةِ الحكيمةِ التي أقدمَ عليها الرهبان، فلَمْ يَغْزُ الجبلَ المقدَّسَ وتَركَ الرهبانَ يُديرونَ شؤونَهم الخاصّة. ولذلك بَقِيَتِ الروحانيَّةُ الآثوسيَّةُ مُصانةً ولم تتعرَّضْ لأيِّ أذًى على مدارِ السنواتِ الأربعمائةِ إبَّانَ حُكمِ العثمانيّين.

واتَّبع الرهبانُ المنطقَ الحكيمَ ذاتَه ومناوراتٍ دبلوماسيَّةً مماثلة، مكَّنتْهم من الوصولِ إلى شطِّ الأمانِ وسطَ هيجانِ حوادثِ القرنِ العشرينِ وتشنُّجاتِه. فأثناءَ الحربِ العالميَّةِ الثانية، عندما غَزا الألمانُ اليونانَ، تخوَّفَ الرهبانُ على مصيرِ جبلِ آثوس. حينذاك، أرسلَ البروتوسُ رسالةً مباشرةً إلى هتلر طالبًا منْه وَضْعَ جبلِ آثوسَ تحتَ حمايتِه الشخصيَّة. تأثَّرَ هتلر كثيرًا بهذهِ المبادرةِ الإطرائيَّةِ وأَمَرَ جنرالاتِه ألاَّ يَتدخَّلوا في حياةِ الرهبانِ في جبلِ آثوس. وبالرغمِ من إقامةِ حاميةٍ عسكريَّةٍ ألمانيَّةٍ في جبلِ آثوس، إلاَّ أنَّ الأديرةَ كلَّها لم تتعرَّضْ لأيِّ أذًى طيلةَ فترةِ الاحتلالِ النازيِّ الوحشيِّ لليونان. وإبَّانَ تلكَ الفترةِ العصيبةِ وجدتِ العديداتُ من النساءِ اليونانيّاتِ اليهوديّاتِ الأصلِ،

مأوًى لهنَّ ولأطفالهنَّ في جبلِ آثوسَ المقدَّس، إذ أخفاهُم الآباءُ الآثوسيُّون طوالَ مدَّةِ الحكمِ النازيّ. وبقيامِهم بذلك، انتهكوا تحريمًا سادَ منذُ القرنِ الحادي عشر يَمْنعُ دخولَ النساءِ إلى شبهِ الجزيرةِ الآثوسيَّة. ويُقالُ إنَّ ذلك الإستثناءَ كان الأوحدَ في تاريخِ شبهِ الجزيرة.

سلامةُ الجبلِ المقدَّسِ واستقلاليَّتُهُ هُدِّدَتا مرَّةً أُخرى عندما وقعتِ اليونانُ أسيرةَ حكمٍ دكتاتوريٍّ عسكريٍّ وذلك من عامِ ١٩٦٧ إلى عام ١٩٧٤. فقدْ شاعَ في أوائلِ السبعينيَّاتِ أنَّ الحكومةَ كانتْ تُعِدُّ الخططَ لتَطويرِ شبهِ الجزيرةِ الآثوسيَّةِ للسياحة. وأكثر من ذلك، أُشيعَ أنَّ الحكومةَ تُفكِّرُ في تحويلِ بعضِ الأديارِ شبهِ المهجورةِ إلى كازينوهاتٍ وملاهٍ ليليَّة. إرتعبَ الآباء. إنماءٌ سياحيٌّ كهذا كانَ سَيؤدِّي حتمًا إلى دمارِ جبلِ آثوسَ مَع كُلِّ كنوزِهِ الروحيَّة. إنَّ عملًا كهذا سيكُونُ أيضًا انتهاكًا صارخًا للدستورِ البيزنطيِّ الذي، بناءً عليه، أُسِّسَ جبلُ آثوسَ في القرنِ التاسعِ كمكانِ خلوةٍ للرهبانِ والنسَّاكِ من مختلفِ الإثنيَّات، ذي استقلاليَّةٍ تامَّة. ولاحتواءِ المشكلة، بَعثَ بروتوسُ جبلِ آثوسَ برسالةٍ إلى ليونيد بريجنيف، أمينِ عامِ الحزبِ الشيوعيِّ للإتِّحادِ السوفياتيِّ آنذاك، يَحُثُّه للتَدخُّلِ نيابةً عَنْ الجبلِ المقدَّس. بِحَسبِ ما كتبَ لي الأبُ مكسيموس في رسائلِه، كانَ لروسيا في جبلِ آثوسَ حصَّةٌ ثقافيَّة. فالعديدُ مِنَ القدِّيسينَ والآباءِ الشيوخِ العظماءِ الروسِ برزوا من الجبلِ المقدَّس. علاوةً على ذلك، فإنَّ أحدَ أقدمِ الأديرةِ وأكثرَها شهْرَةً هناك، ديرَ القدِّيسِ بندلايمون، كانَ غالبيَّةُ رُهبانِهِ من الروس. بناءً على رسالةِ البروتوس، التزمَ بريجنيف بإرسالِ رسالةٍ صارمةٍ إلى القادةِ اليونانيِّين مُحذِّرًا من نتائجَ وخيمةٍ إذا ما تدخَّلتِ الدولةُ اليونانيَّةُ

منتهكةً أمْنَ جبلِ آثوس الداخليّ، والتي يقتصرُ دورُها على حراستِه. مرّةً أُخرى، نَجتِ استقلاليّةُ الجبلِ المقدَّس.

* * *

هذه هي طبيعةُ الإرثِ الدبلوماسيّ الذي وَرثَه الأبُ مكسيموس في مركزِهِ الجديدِ كبروتوس الجبلِ المقدَّس. تساءلتُ، بعدَ الإنتهاءِ من قراءةِ الرسالة، عن كيفيّةِ تأقلُمه مع هذهِ المهمّةِ الجديدة، وطمحتُ أنْ ألقاه هناكَ لمتابعةِ استكشافي للروحانيّةِ الآثوسيّة. لكنَّ هذا لم يتمّ. ففي خريف عام ١٩٩٣، إنقلبَ مشروعي وتحضيراتي للعودةِ إلى الجبلِ المقدَّسِ رأسًا على عقبٍ بعدَ أنِ استلمتُ رسالةً من استفانوس، صديقيَ القديمِ الذي أثقُ به كثيرًا والذي اشتركتُ معَهُ في كثيرٍ من التجاربِ أثناءَ بحثيَ الميدانيِّ معَ المعالجينَ القبارصةِ في الثمانينيّات. استفانوس، المُحَنَّكُ والصديقُ القديمُ لمجموعاتٍ سرِّيّةٍ صوفيّةٍ وهندوسيّةٍ أثناءَ السنواتِ العديدةِ التي أمضاها في لندن، بعدَ تقاعُدٍ مبكرٍ منَ العملِ، عادَ إلى قبرصَ محوِّلًا انتباهَهُ إلى المسيحيّة. كتبَ استفانوس في رسالتِه: «سيهمُّكَ أنْ تعرفَ أنَّ راهبًا استثنائيًّا جاءَ منْ جبلِ آثوس إلى قبرصَ مصطحِبًا معه راهبَين آخرَين، وهو يؤسِّسُ ديرًا جديدًا في أحدِ الجبال. أَجتمعُ به كثيرًا، وقد أصبحتُ مُستشارًا له في الشؤونِ الاجتماعيّةِ المحلّيّة. برأيي، يحملُ هذا الرجلُ سماتِ المعلّمِ الحقيقيّ، وكما تَعلَم، لقد عرفتُ عددًا من المعلّمينَ الحقيقيّين في حياتي. وتُوافقُني الرأيَ نفسَه ثيانو زوجتي، إذ إنَّها تُقدِّرُه وترى فيه ما أراه أنا تمامًا. في الحقيقة، لقد أصبحَ أبًا ومرشدًا روحيًّا لِكِلَينا. أخيرًا، وَجدْنَا معلّمًا حقيقيًّا وهو لحسنِ حظِّنا مسيحيٌّ أيضًا. في زيارتِك القادمةِ إلى

قبرصَ سأُعرِّفُك به. أنا متأكِّدٌ أنَّكَ ستُحِبُّه. اسمُهُ الأبُ مكسيموس».

للحظة، افترضتُ أنَّ الاسمَ كانَ اسمًا عَرَضيًّا، مجرَّدَ مصادفة. فهو اسمٌ مشتركٌ وشائعٌ بينَ الرهبانِ الأرثوذكسيّين كدَعوةِ الأمريكيِّ بالسيِّدِ سميث. كنتُ متأكِّدًا من أنَّ الأبَ مكسيموس الذي أعرفُ، ما كانَت لديه أيَّةُ نيَّةٍ لِتَرْكِ جبلِ آثوس. فهو راهبٌ سعيدٌ، تأقلمَ بالكلِّيَّةِ مع طرائقِ الجبلِ المقدَّسِ وثقافتِه. تركَ قبرصَ في الثمانيةَ عشْرةَ من عُمرِه، وكما أعلمُ ما كانَ لدَيه أيُّ مخطَّطٍ للعَودة. فمنذُ انتهائِه من دراسةِ اللاهوتِ في جامعةِ تسالونيكي دخلَ جبلَ آثوسِ واستقرَّ فيه. «بلادي»، كما أخبرَني أثناءَ زيارتِي إلى هناك، «هي الجبلُ المقدَّس. أنتمي إلى هذا المكانِ ورُقادِي سيكونُ في هذا المكان. ليس في نيَّتي الذهابُ إلى أيِّ مكانٍ آخر». حينذاك، كان قدْ أمضى عشْر سنواتٍ راهبًا في جبلِ آثوس.

عندما اتَّصلتُ هاتفيًّا باستفانوس للمزيدِ من التفاصيل، كانت مفاجأتِي العظيمةُ إذْ أدركتُ أنَّ الراهبَ الوَاصِلَ حديثًا هو في الحقيقةِ الأبُ مكسيموس الذي أعرف. لكن لماذا تَركَ جبلَ آثوس؟ أجابَ استفانوس بغموضٍ أنَّ القصَّةَ طويلةٌ وبأنَّني سأكتشفُ الكثيرَ من التفاصيلِ أثناءَ زيارتِي القادمةِ إلى قبرص.

حالما أنهيتُ اتِّصاليَ الهاتفيَّ، بدأتُ إعادةَ التفكيرِ في برنامجي. فالأبُ مكسيموس، مُرشدي الرئيسيُّ في رحلةِ استكشافِ عمقِ الروحانيَّةِ المسيحيَّةِ، لنْ يكونَ في جبلِ آثوس عندما يَحينُ وقتُ إجازتِي. لذا، سيكونُ أمرًا غيرَ منطقيٍّ الذهابُ إلى آثوس للبحثِ عن شيخٍ آخرَ ليكونَ مُرشدًا ومعلِّمًا لي خَلَفًا

للأبِ مكسيموس. إضافةً إلى ذلك، قد أسَّسْتُ صِلاتٍ وثيقةً معَه وأستَمتعُ جِدًّا بصحبتِه.

على كلِّ حال، لمْ يُشكِّلْ هذا الوضعُ الجديدُ أيّةَ صعوباتٍ رئيسيَّةٍ لي. بل على العكسِ تمامًا، بالإضافةِ إلى أنَّ جزيرةَ قبرص هي موطني ومسقطُ رأسي، فالذهابُ إليها أكثرُ سهولةً من جبلِ آثوس الهائل، الذي يصعبُ الوصولُ إليه في زياراتٍ متكرِّرة، بينما سيكونُ من السهلِ السفرُ إلى ديرٍ آثوسيٍّ في قبرص. علاوةً على ذلك، فإنَّ وجودَ مؤسَّسةٍ روحيَّةٍ أصيلةٍ على الجزيرةِ قدْ يكُونُ عاملًا مُساعدًا وعزاءً عظيمًا للسكّانِ المحلّيِّين، المخذولينَ مِن قِبلِ الكنيسةِ المُصابةِ بكوارثَ وفضائحَ إقتصاديَّةٍ وسياسيَّة. مَنْ يَعلم، ربَّما يُؤثِّرُ وجودُ الأبِ مكسيموس ويشكِّلُ عاملًا فارقًا. وقد سَرَّني على الأخصّ، أنَّ استفانوس يُقدِّرُه كلَّ التقدير. وأنا أثِقُ بحُكمِه على المعلِّمين الأصيلين. وقد زوَّدَني حماسُ استفانوس بدعمٍ إضافيٍّ لتصوُّراتِي الخاصَّةِ عن الشيخِ الآثوسيّ.

وبينما كنتُ جالسًا أُفكِّرُ مليًّا بهذا الوضعِ الجديد، طرأَ تطوُّرٌ آخرُ غيرُ متوقَّع، أنهى حيرتي وتردُّدي بينَ الإنضمامِ إلى الأبِ مكسيموس في قبرص أو العودةِ إلى جبلِ آثوسَ دونَ الاستفادةِ من وجودِه هناك. إذ في ربيع ١٩٩٤، استلمتُ رسالةً من زميلٍ لي في جامعةِ مينيسوتا، وهو قبرصيٌّ أيضًا، يسألُني الإنضِمامَ إلى لجنةٍ دَوليَّةٍ مِنَ العلماءِ للقيامِ ببحثٍ ميدانيٍّ يتعلَّقُ بجزيرةِ قبرص. وأوضحَ أنَّ مشاركَتي كعضوٍ في هذه اللجنة، يتطلَّبُ حُضُوريَ اجتماعاتٍ في الجزيرةِ مرَّتينِ في السنَة.

حبستُ أنفاسي حين قَرأتُ رسالتَه، إذ بدَتْ وكأنَّها جوابٌ واضحٌ، أو علامةٌ لِما عليَّ أنْ أعمَل. منَ الآنَ فصاعدًا، يُمكنُني أنْ أتواصلَ على نحوٍ منتظمٍ مع الأبِ مكسيموس، ولفتراتٍ أطولَ تتعدّى أيّامَ إجازتي السنويَّةِ المحدودة. سأتمكَّنُ من الإجتماعِ به مرَّتين في السنة، في الصيفِ وفي عيدِ الميلاد، وسأُمضي بضعةَ أيّامٍ معَه في الدير، كُلَّ مَرَّةٍ أسافرُ فيها إلى الجزيرةِ لحضورِ اجتماعاتِ اللجنةِ الدوليَّة. أحسستُ كما لو أنَّ يدًا خفيَّةً رتَّبَتْ كُلَّ شيءٍ بطريقةٍ ما، لِتُسَهِّلَ عملي. لسببٍ غامض، كانَ بحثي في الروحانيَّةِ المسيحيَّة، الذي بدأَ في قبرص قبلَ سنواتٍ مع ذاسكَلوس وكوستاس الصوفيَّينِ العلمانيّين، لا بُدَّ أنْ يَستمرَّ في الموقعِ الجغرافيِّ نفسِه، مَع الأبِ مكسيموس الشيخِ الآثوسيِّ والپروتوس السابقِ للجبلِ المقدَّس. وباعتمالِ كلِّ هذه الإعتباراتِ في ذهني، حوَّلْتُ طاقتِي من جبلِ آثوس إلى قبرصَ مجدَّدًا.

* * *

لو كنتُ سائحًا، كان يمكنُ لجزيرةِ قبرص، مسقطِ رأسِ أفروديت بحسبِ أسطورةِ هوميروس، أنْ تكونَ موقِعًا مثاليًّا لقَضاءِ عُطلتِي في أيّةِ فترةٍ من السنَة. ففي شباط، حينَ يبدأُ عملِي معَ الأبِ مكسيموس، بحسبِ برنامجي، يمكنُ أنْ أتمتَّعَ برياضةِ التزلُّجِ في الصباح، وأتوجَّهَ بعدَ الظهرِ منَ الجبلِ إلى أحدِ الشواطئِ الرمليَّةِ للسباحة. قبرصُ، هي ثالثُ أكبرِ جزيرةٍ في البحرِ الأبيضِ المتوسِّط، وأقربُها إلى الشرقِ الأوسطِ، وهي الأكثرُ دفئًا. ولو أنّي سائحٌ لكنتُ أتطلَّعُ إلى تذوُّقِ مأكولاتٍ شهيَّةٍ ونبيذٍ مَحَلِّيٍّ سعرُه مقبول، ولِصُحبةِ قبارصةٍ مُحبِّينَ يتلهَّفونَ لإرضاءِ زوَّارِهم الأجانب، خصوصًا الميسورينَ منهم. وإنْ كنتُ

عالِمَ آثار، لأمكنَ لجزيرةِ قبرص الواقعةِ عندَ تقاطعِ طرقِ الحضاراتِ، أن تكونَ موقِعًا مثاليًا لإمضاءِ حياتِي في حُفَرِ أرضِها الأثريَّةِ الشاهدةِ على وجودِ كُلِّ الإمبراطوريَّاتِ العظيمةِ التي حَكمتْ شرقَ البحرِ الأبيضِ المتوسِّطِ، واندثارِها. وإنْ كنتُ حَاجًا في طريقِي إلى الأرضِ المقدّسةِ القريبة، كانَ يمكنُ أنْ أتوقَّفَ أوَّلًا في جزيرةِ قبرصَ لأجولَ سيرًا على الأقدامِ في شوارعِ مدينةِ بافوس، تلكَ البلدةِ الساحليَّةِ التي يُقالُ إنَّ القدّيسَ بولسَ الرسولَ ألقى فيها بعضًا مِنْ عظاتِه الأُولى ليغيِّرَ قلوبَ الوثنيّين الغارقينَ في أهوائِهم، عابديْ أفروديت، إلى مسيحيِّينَ أتقياءَ مُستقيمين.

لكن، في عصرِ ذلكَ اليومِ من شهرِ شباط ١٩٩٧، ما كنَّا سائحَينِ أو عالمَيْ آثارٍ ولا حاجَّينِ متوجِّهَين إلى القُدس، لا أنا ولا إيميلي الجالسةُ إلى جانبي على متنِ خطوطِ الطيرانِ القبرصيِّ قاطِعَينِ أربعَ ساعاتٍ جوِّيَّةٍ منْ لندنَ إلى مطارِ لارنكا. فجزيرةُ قبرصَ بالنسبةِ لنا لها معنًى مختلفٌ تمامًا؛ هيَ وطنُ العواطفِ الجيّاشةِ حيثُ ينتظرُ الأصدقاءُ والأقرباءُ وصولَنا، وهي مكانُ الذكرياتِ المؤلمةِ، بل الجارحةِ أيضًا. فبالرغمِ من كُلِّ لمعانِها الخارجيِّ الظاهِرِ في شواطئِها الرمليَّة، وسيّاحِها المتعبِّدين للشمس، ومع كُلِّ البهارجِ الاستهلاكيَّةِ العالية، قبرصُ هي أرضٌ مضطربةٌ بعمق، منقسمةٌ ومجتمعُها مُهدَّد. هي أكثرُ الأوطانِ احتياجًا إلى صلواتِ رهبانِ آثوس. تساءلتُ إنْ كانتْ تلكَ الأسبابُ هي التي جَلبتِ الأبَ مكسيموس وأعادَتْه إلى الجزيرةِ بعدِ خدمتِه كپروتوس للجبلِ المقدَّس.

تاريخُ جزيرةِ قبرصَ الحديثُ ليس أكثرَ من سلسلةِ مآسٍ وكوارثَ متتالية. وأعظمُ هذه المآسي حدثَ عندما غزَتْها تركيًا، وهي على بُعدِ أربعينَ

ميلًا فقط، ذلك في تموز ١٩٧٤. جاءَ الاحتلالُ أثناءَ ذلك الشهرِ الصيفيِّ الحارّ، كردَّةِ فعلٍ ضدَّ انقلابٍ عسكريٍّ أسقطَ حينذاكَ حكومةَ رئيسِ الأساقفةِ مكاريوس، وهو الرئيسُ الأوّلُ لقبرصَ بعدَ استقلالِها عَن إنكلترا في عام ١٩٦٠. الانقلابُ هندسَتْهُ الدكتاتوريَّةُ العسكريَّةُ الحاكمةُ في اليونان آنذاك، غافلةً عن تهديدِ تركيّا المجاورة، وخطَّطَتْ لِتَوحيدِ الجزيرةِ القبرصيَّةِ بالدولةِ اليونانيَّة. وعندما غزَتِ الجارةُ الجبّارة، تحتَ ذريعة «حمايةِ الأقلِّيَّةِ التركيَّة»، استولَتْ على أربعينَ بالمئةِ تقريبًا مِنْ أرضِ الجزيرةِ، مُجبِرَةً حواليْ ثُلثِ السكّانِ من القبارصةِ اليونانيِّينَ أنْ يُصبِحوا لاجِئين في بلادِهم[١٧].

لا يمكنُ أنْ ننسى، لا إيميلي ولا أنا، تلكَ الأيّامَ الفظيعةَ منْ عام ١٩٧٤. تُومِضُ تلكَ الذكرياتُ المؤلمةُ في ذهني مثلَ ضيفٍ متطفِّل، وتعبرُ كشريطٍ مسجّلٍ كُلَّما وطِئتْ قدمايَ أرضَ قبرص. في تلكَ السنة، كنتُ في إجازةٍ منْ جامعةِ ماين، أُجري أبحاثًا في مركزِ أبحاثِ قبرص الاجتماعيِّ في العاصمةِ نيقوسيا، بينما عَملَتْ إيميلي في المكتبةِ البريطانيَّة. نوَينا البقاءَ في قبرص والعيشَ في مدينةِ فاماغوستا، الميناءِ التجاريِّ الرئيسيِّ في الجزيرة، حيثُ يعيشُ أهلُ إيميلي. لكنَّنا لمْ نتمكَّنْ حتّى منْ فتحِ هدايا زفافِنا، عندما اجتاحَ الجيشُ التركيُّ فاماغوستا، محوِّلًا المدينةَ من مكانٍ مزدحمٍ ومزدهرٍ سياحيًّا إلى 'مدينةِ أشباحٍ' مسيَّجَةٍ بالأسلاكِ الشائكة. بعدَ نجاتِنا من الغزو، وخسارةِ بيتِنا في فاماغوستا بكُلِّ ما فيه، بما في ذلكَ هدايا الزفاف، بالإضافةِ إلى الكتبِ والصورِ، عُدْنا إلى ماين. ورحلَ أهلُ إيميلي كلاجئينَ إلى لندن حيثُ عاشوا مع

17 Markides, Kyriacos C. 1977. The Rise and Fall of the Cyprus Republic. New Haven: Yale University Press.

ابنِهم لفترة، ثمّ عادوا إلى قبرص ثانيةً وسكنوا في ليماسول، المدينةِ الجنوبيّةِ التي حلّتْ محلّ فاماغوستا كميناءٍ رئيسيٍّ ومركزٍ سياحيٍّ في الجزيرة.

بعدَ ثلاثٍ وعشرينَ سنةً من الاحتلالِ، لا تزالُ مُشكلةُ قبرص عالقةً. أبقتْ تركيّا سيطرتَها على الشمالِ بينما ماتَ اللاجئونَ المسنُّون، مثلَ أنسبائِي، الواحدُ تلوَ الآخرِ، وفي قلوبِهم حنينٌ للعودةِ إلى ديارِهم، حنينٌ وأملٌ لم يتحقّقا قطّ. في الحقيقة، حين عُدنا إلى الجزيرةِ في شباطِ ١٩٩٧، بدا وكأنَّ الأملَ في قرارٍ سلميٍّ ودائمٍ للمشكلةِ القبرصيّةِ تلاشى تقريبًا.

تلكَ كانتِ التقديراتُ المتشائمةُ لكُلِّ مَنِ اجتمعْنا بهِ في العاصمةِ نيقوسيا، حيثُ بقِينا فترةً قبلَ أنْ أتوجّهَ إلى الجبلِ لمقابلةِ الأبِ مكسيموس، وقد عقدْتُ العزمَ أنْ أبقى في ديرِهِ حتّى فصلِ الصيف. إيميلي أزمعَتْ أن تَبقى في قبرص ثلاثةَ أسابيعَ بعدُ لتُتابعَ، في وسطِ التوتُّراتِ السياسيّةِ المستمرَّة، هدفَها لإنشاءِ «قريةِ سلامٍ بيئيّةٍ دَوليّةٍ» للشباب. فَلِكَيْ تُحوّلَ ألمَها لخسارةِ فاماغوستا إلى نشاطِ سلامٍ، تَصوَّرتْ خَلْقَ 'قريةٍ' دَوليّةٍ للشبابِ الذين يعيشونَ في مجتمعاتٍ منقسمةٍ عرقيًّا، يأتونَ إليها ويعيشونَ في ربوعِها لفترةٍ معيَّنةٍ، ليَتعلّموا كيفيّةَ العَيشِ معًا في سلامٍ، ولِيتدرّبوا على المؤازرةِ الاجتماعيّة.

أوهنَ عزيمتَنا ما أدركناهُ من قلقٍ عميقٍ اشتركَ فيه السياسيُّونَ المحلّيُّونَ والصحافيُّونَ والدبلوماسيُّونَ الأجانب، والقبارصةُ كافّةً، من أنَّ أشياءَ فظيعةً كانتْ على وشكِ أنْ تَحْدُث. منذُ الصيفِ الماضي، وصلتْ حدّةُ التوتُّرِ في الجزيرةِ إلى درجةِ الغليان، حينَ قُتِلَ قبرصيّانِ يونانيّانِ على الخَطِّ الأخضرِ،

تلك «المنطقةِ الميتةِ» المشهورةِ التي تقعُ تحتَ سيطرةِ جمهوريَّةِ قبرص، والتي تفْصِلُ الجزءَ الجنوبيَّ للجزيرةِ عن الشمالِ الواقعِ تحتَ السيطرةِ التركيَّة. خافَ العديدُ منَ القبارصةِ من حربٍ هائلةٍ أُخرى وشيكة، حربٍ ليسَ في استطاعةِ مواطني الجزيرةِ-الجمهوريَّةِ الستُّمائةِ ألفٍ من القبارصةِ اليونانيّينَ أنْ يربحوها ضدَّ أكثرَ منْ خمسٍ وستّين مليونَ مواطنٍ تركيّ، ضدَّ دولةٍ تقتني تَرسانةً هائلةً من الأسلحة. تفكّرتُ في توقيتِ عودةِ الأبِ مكسيموس إلى الجزيرة، بعيدًا عن صفاءِ موطنِه المحبوبِ جبلِ آثوس، ويا لَهُ من توقيت!

* * *

إشتدَّتْ مشاعرُ اليأسِ أبعدَ من ذلكَ مع حدوثِ ظواهرَ غريبة. فعددٌ منَ الإيقوناتِ المقدّسةِ للعذراءِ بدأتْ «تدمعُ» في عِدَّةِ كنائسَ وأديرةٍ في أرجاءِ الجزيرة. هذه المعجزاتُ المزعومةُ عُرِضت على التلفاز. خلالَ بضعةِ أيّام، زارَ ما يقاربُ خمسينَ ألفَ حاجًا ديرَ كيكو، حيثُ دمَّعتْ أوّلُ إيقونةٍ للسيّدةِ العذراء. قبلَ توجُّهي إلى الجزيرةِ، تلقّيتُ رسالةً عبْرَ البريدِ الإلكترونيِّ من صديقي فيليب، وهو عالمُ إنسانيّاتٍ أميريكيٌّ موجودٌ في قبرص بمقتضى منحةٍ ثقافيَّةٍ من مؤسّسةِ فولبرايت، جاءَ فيها: «آخِرُ ما نَحتاجُه هنا مع كُلِّ هذا التوتُّرِ السياسيِّ والنعراتِ القوميّةِ المُجيَّشةِ هو عذراءُ دامعةٌ!»

بالنسبةِ للمشكّكين، شكّلَ بكاءُ الإيقوناتِ ظواهرَ طبيعيَّةً يمكنُ أنْ تُوَضَّحَ عقلانيًّا؛ ربّما هيَ مسألةُ رطوبةٍ مُكَثَّفةٍ لا أكثر. وللأتراك، ليستْ سوى شائعةٍ قبرصيَّةٍ يونانيَّة، صافيةٍ وبسيطة. أمَّا للمؤمنين، فالدموعُ كانتْ إشارةً سماويَّةً أنَّ قبرص ينتظرُها المزيدُ من المآسي. هذه الظواهرُ زادتْ نسبةَ القلقِ

والتوتُّرِ السائدِ آنذاكَ في الجزيرة. وفي محاولةٍ لتهدئةِ المخاوفِ المحلِّيَّة، أعلنَ أحدُ اللاهوتيِّينَ في مقابلةٍ مُتَلفَزةٍ أنَّ بكاءَ الإيقوناتِ ليس بالضرورةِ إشارةً لمجيءِ الكوارث. وأوضحَ أنَّها قدْ تكونُ طالِعًا حسنًا. لكن، عندما رأيتُ استِفانوس في نيقوسيا في اليومِ الثاني لِوصولِنا، أخبرَني أنَّ الأبَ مكسيموس تساءَلَ عن هذا التفسيرِ المتفائِل، وأفضى إليه أنَّها ليسَتْ دموعَ فرح، بل دموعُ حزن، هي تحذيرٌ للناسِ كي يُكَفِّروا عن خطاياهم، ويُجاهدوا ليتوبوا[١٨]، لكي يتجنَّبوا المزيدَ من الكوارث.

وَروى لي استِفانوس أيضًا عن التغييرِ القلبيِّ والذهنيِّ الملموسِ لدى العديدِ من الناسِ كثمرةٍ لوصولِ الأبِ مكسيموس إلى قبرص. فالرهبنةُ، التي اعتُبِرَت حتَّى ذلك الحين، حالةً في طريقِها إلى الزوال، وعمليًّا مؤسَّسةً غامضةً لا علاقةَ لها بواقعِ الحياة، استعادَتْ بمجيئه حياةً جديدةً ونشاطًا فاعِلًا حيًّا. وأوضحَ استِفانوس بأنَّه منذُ وصولِه إلى الجزيرة، أي في فترةٍ قصيرةٍ جدًّا، أحدثَ الأبُ مكسيموس ثورةً روحيَّة. فعددُ المجتمعينَ حولَه من الناسِ كانَ في تزايدٍ مستمرّ، لإيجادِ عزاءٍ وراحةٍ من مشاكلِهم الشخصيَّةِ والتوتُّراتِ السياسيَّةِ السائدة. على عكسِ غيرِ المتعاطفينَ مع هذه الطريق، حياةِ العُزلة، وبعضِ أقرباءِ الرهبانِ المبتدئين أيضًا، الذينَ اعتبروا حضورَه أناثيما[١٩].

❊ ❊ ❊

إختَبَرْتُ مباشرةً واقعَ هذه القضيَّةِ المتفجِّرةِ في اليومِ السابقِ لِتوجُّهي

---

١٨ التوبة metanoia: المعنى الحرفيُّ لهذه اللفظةِ اليونانيّةِ هو التغييرُ الجذريُّ في القلوبِ والأذهان.

١٩ لعنة وحرم.

إلى جبالِ ترودوس لمقابلةِ الأبِ مكسيموس، الذي كان قدْ عُيِّنَ رسميًّا رئيسًا جديدًا لديرِ السيّدةِ الفائقةِ القداسة. لمستُ ذلكَ حينَ قمتُ بزيارةٍ إلى توماس، وهو مديرُ مدرسةٍ ثانويَّةٍ متقاعدٌ وجارٌ لنا أثناءَ إقامةٍ طويلةٍ سابقةٍ في قبرص. حينَ عَلِمَ بمشروعي لقَضاءِ بعضِ الوقتِ في ديرِ الفائقةِ القداسة، بَدأ بنبرةٍ محتدَّةٍ إثارةَ أسئلةٍ حولَ دورِ الأبِ مكسيموس في قبرص. ومن دونِ أنْ يباليَ باعتراضاتِ زوجتِهِ المؤيِّدةِ بشدَّةٍ لرئيسِ الدير، إدَّعى صديقي توماس أنَّ الأبَ مكسيموس غَسَلَ أدمغةَ الشبابِ وأغراهم ليُصبحوا رهبانًا وراهبات. وبتوتُّرٍ عصبيٍّ شديد، ناولَني مقصوصاتٍ صحفيَّةً تناولتْ الأبَ مكسيموس، احتفظَ بها في أحدِ أدراجِ مكتبِه. وكانَ أكثرُ المقالاتِ قسوةً هو ما كتبَه صحفيٌّ في الجريدةِ الشيوعيَّةِ تحتَ عنوانٍ بارزٍ كبير: «بوسائلَ مُلتويةٍ كاهنٌ يَدْفعُ الشبابَ نحوَ الرهبنة».

كانَ توماس رجلَ علمٍ مثقَّفًا. حاولتُ التفاهمَ معَه بإثارةِ أسئلةٍ حولَ أهمِّيَّةِ الأديرةِ في المجتمع. أشَرْتُ إلى الدورِ التاريخيِّ الذي لَعبَتْه الأديرَةُ في الشرقِ كما في الغربِ في صونِ المعرفة [٢٠]. أوضحتُ من الناحيةِ التاريخيَّةِ أنَّ الأديارَ قامتْ بدورِ المؤسَّساتِ المتخصِّصةِ في صقلِ الخبرةِ الدينيَّةِ وتكريسِها، هذا في صميمِ كُلِّ الأديانِ العظيمة. أوضحتُ لِتوماس بأنَّ الرهبانَ هم الذين نشروا المسيحيَّةَ في الغربِ وفي الشرق. أدخلَ الرهبانُ المسيحيَّةَ إلى إنكلترا وايرلندا، وأثناءَ العصورِ المُظلمةِ لعبوا دورَ المثقَّفينَ بنَسخِهم نصوصَ الحضارةِ

20 Thomas Cahill, How the Irish Saved Civilization: The Untold Story of Ireland's H - roic Role from the Fall of Rome to the Rise of Medieval Europe (New York: Doubledly, 1995).

الكلاسيكيَّةِ بدقَّةٍ شديدةٍ وصونِهم لها. علاوةً على ذلك، ذكَّرْتُه بالإنتاجِ الفنّيِّ للرهبانيّات، في الشرقِ وفي الغرب، منْ أناشيدَ وتراتيلَ رائعة، إلى إيقوناتٍ وصلوات. ولفتُّ نظرَ توماس، الذي كان يستمعُ إلى حديثي بنفادِ صبرٍ ملحوظ، أنَّ نشرَ المسيحيَّةِ بين الشعوبِ السلافيَّةِ في الشمالِ كانَ على يدِ راهبَين من تسالونيكي. هذان الراهبان، رسولا السلاف، إخترعا أحرفَ الهجاءِ السلافيَّة، مانِحَينِ هذه الشعوبَ لغةً مكتوبةً إستخدمَها لاحقًا تولستوي ودوستويفسكي لكتابةِ رواياتِهما الأدبيَّةِ الرائعة. ذكَّرتُه أيضًا بالدورِ الرئيسيِّ الذي لعبَه القدّيسُ قوزما الإيتوليُّ، الراهبُ الآثوسيّ، في إنْقاذِ اللغةِ والثقافةِ اليونانيَّة. فأثناءَ السنَواتِ الأكثرِ ظلمةً منْ الحكمِ العُثمانيِّ في اليونان، تَركَ القدّيسُ قوزما سكونَ جبلِ آثوسَ وخاطرَ بحياتِه مسافرًا مِنْ قريةٍ إلى قرية، لا لتأسيسِ كنائسَ بل مدارسَ سرّيَّةٍ لتعليمِ اللغةِ اليونانيَّةِ وحفظِها. حتَّى إنَّني بِسَذاجةٍ لمَّحتُ قليلًا إلى مضمونِ أُطروحتِي، وهو أنَّ الأديرةَ الآثوسيَّة، مثلَ ديرِ الفائقةِ القداسةِ الذي يترأَّسُه الأبُ مكسيموس، تعملُ على تنشئةِ «عينِ التأمُّلِ» وتعزيزِها، كترياقٍ تَصْحيحيٍّ للهيمنةِ المادّيَّةِ العلميَّة. لكنَّ مزاجَ توماس لم يكنْ مهيَّئًا لسَماعِ هذا النوعِ من التَنظير.

أجابَني بسخريةٍ: «إنَّ الأديرةَ هي مؤسَّساتٌ تنطوي على مفارقةٍ تاريخيَّة، لا دورَ لها في العالَمِ الحديث».

لسببٍ ما لم أفهَمْه، كانَ توماس غاضبًا جدًّا منَ الأبِ مكسيموس، واستمرَّ في صَبِّ غضبِه علنيًّا بحماسةٍ شديدة: «يَستهدفُ شبابًا ضعفاءَ ويَسْحَرُهم بفكرةِ الرهبنةِ». وفقًا له، كانَ هدفُ الأبِ مكسيموس الوحيدُ من المجيء

إلى قبرص تجنيدَ رهبانٍ وراهباتٍ لكي يَمْلأوا أديرةً مَهْجُورة. إعتراضُ توماس على الرهبنةِ مبنيٌّ على هذا النقدِ المألوفِ بأنّها هجرٌ وتخلٍّ عن العالَمِ لأسبابٍ أنانيّة، سعيًا لخلاصٍ فرديٍّ، بدَلًا مِنْ مُساعدةِ الآخرين. وبحِدَّةٍ عاطفيّةٍ قالَ توماس: «السيِّدُ المسيحُ ما كانَ راهبًا. عاشَ في العالَمِ وأمضى حياتَه في مُساعدةِ الناس. لمْ يَسْجنِ المسيحُ نفسَه في دير».

لكنَّ حيرتي زالتْ عندما أوضحَتْ لي نيكي سببَ إحباطِه، تَحسُّسًا منها بشكوكي تجاهَ ردَّةِ فعلِ زوجِها. فتوماس، وهو رجلٌ مبجَّلٌ وناشطٌ اجتماعيٌّ مُندفع، انزعجَ جدًّا لأنَّ ابنةَ صديقٍ له قرَّرتْ أنْ تترهَّب، رغمَ احتجاجاتِ والدَيها. وقد لامَ الجميعُ الأبَ مكسيموس على قرارِها. قالَ توماس وهو يهزُّ رأسَه مُستنكرًا: «وقعُ هذا القرارِ كانَ مأساةً عظيمةً على تلكَ العائلة. أفي هذا عدلٌ؟»

أجابَتْ نيكي بشكلٍ هادئ، لكنْ بنبرةٍ قويَّةٍ حازمة: «كانَ هذا قرارَها الخاصّ، وعلى أقربائِها أنْ يحترِموه ويتركوا الأبَ مكسيموس بسلام».

راحَ توماس يُفكِّرُ لبضعِ ثوانٍ في كلماتِ زوجتِه. قطعْتُ الهدوءَ الذي ساد، واقترحتُ على توماس: «لعلَّك يجِبُ أَنْ تجتمعَ بالأبِ مكسيموس لمُناقشةِ هذه الحالةِ المعيَّنةِ والتي تُثيرُ مخاوفَكَ من الرهبنة. أنا متأكِّدٌ أنَّهُ سيرحِّبُ بكَ في ديرِه». آخِذًا بالإعتبارِ ميلَ توماس السلبيَّ نحوَ الأبِ مكسيموس، كانَ أملي ضعيفًا في أنْ يأخذَ باقتراحَي. لكنّ عيونَ توماس التمعتْ ورحَّبَ بالفكرة. وَعَدْتُه بأنَّ أَعْرضَ الموضوعَ على رئيسِ الديرِ لترتيبِ الإجتماع.

توجّهتُ إلى الجبلِ في وقتٍ مبكرٍ من صباحِ يومِ الإثنين، وكانَ ذلكَ في منتصفِ شهرِ شباط، بينما كانت إيميلي، وقبلَ عَودتِها إلى الولاياتِ المتَّحدةِ الأميركيَّة، منهمكةً بمشروعِ «قريةِ السلامِ البيئيَّة»، ذاكَ الحلمِ الذي بدأَ يتبلورُ تدريجيًّا إلى حقيقةٍ ملموسة، على وعدِ أنْ نلتقيَ معًا في الصيفِ في ماين. إتَّصلتُ هاتفيًّا بالأبِ مكسيموس لأؤكِّدَ وصوليَ الذي كانَ يَتوقَّعُه. كانَ التوجُّهُ إلى الجبلِ مصدرَ راحةٍ لي منْ تَوتُّراتِ الحالةِ السياسيَّة، ومن حركةِ المرورِ الخانقةِ في المدينة، ومنْ تنشُّقِ دخانِ الغازولينِ المرصَّصِ الموجودِ في كلِّ مكان. كانَ موسمُ ربيع، وبالرغمِ منَ الجفافِ المُزمن، بدا الريفُ القبرصيُّ مُبتهجًا لابسًا أروعَ حُللِه. تغطَّتِ الوديانُ بحقولِ الحنطةِ الخضراءِ مرصَّعةً بما لا يُعَدُّ ولا يحصى من الأزهارِ البرِّيَّةِ الصفراءِ والحمراء. على مسافةٍ منظورة، ترتفعُ الجبالُ الساحرةُ في لباسِها الأخضرِ الداكن، لونِ الغاباتِ والنباتاتِ المتراصَّة.

في صباحِ ذلك الإثنينِ، اختلطتِ السماءُ الملبَّدةُ بالغيومِ بفسحاتٍ ضيِّقةٍ من نورِ الشمس، التي أسقطتْ شعاعَها مضيئةً بُقعًا متفرِّقةً في الأرض. لكنْ مع بدءِ اعتلائيَ المنحدراتِ الجبليَّة، كانتِ السماءُ في طريقِها إلى ظلامٍ مشؤوم. إختفى نورُ الشمسِ بالكاملِ وبدأَ المطرُ بالهطول. قُدْتُ بينَ المنعطفاتِ الخطرةِ بحذرٍ شديد، بسببِ غزارةِ المطرِ الذي حجبَ عنّي الرؤية. توقَّفْتُ في مقهًى في قريةِ 'كاكوبيتريا'، التي تقعُ عندَ سفحِ جبلِ 'أُولمبس' ذي اللباسِ الأبيضِ الثلجيّ. سُمِّيَ هذا الجبلُ منذُ عصرٍ قديمٍ باسْمِ جبلِ أُولمبس في اليونان، وهو أعلى قمَّةٍ جبليَّةٍ في سلسلةِ جبالِ ترودوس. في ذاكَ المقهى المليءِ بالدخان، وبينما أنا جالسٌ بانتظارِ توقُّفِ المطرِ عنِ السقوط، شَهِدْتُ مشهدًا عَرفْتُهُ جيِّدًا

في سِني نشأتي وترعرعي في الجزيرة. رجالٌ «يقتلونَ الوقت»، بعضُهم مأخوذٌ بلعبِ طاولةِ النرد، والبعضُ الآخَرُ يَتحلّقونَ للعبِ الورق، بينما غيرُهم يقرأونَ الصحفَ المحلِّيَّةَ متتبِّعينَ آخرَ أخبارِ الأُممِ المتَّحدةِ لحَلِّ «المشكلةِ القبرصيَّةِ» المزمنة.

حين وَصلتُ أخيرًا إلى طِيَّتي[٢١]، ترجَّلتُ من السيَّارةِ ووجدْتُ نفسي في وسطِ صخبٍ مهيبٍ رائع: الرياحُ تعصُف، وهطولُ الأمطارِ الغزيرةِ مُستمرٌّ مصحوبًا بالبرقِ والرعد. شَعرتُ بالارتياح، إذِ اعتبرتُ تزامنَ العاصفةِ المَطَريَّةِ مع وصوليَ إلى ديرِ الفائقةِ القداسةِ إشارةً إيجابيَّةً، لا سيَّما أنَّ المطرَ كانَ حاجةً مُلِحَّةً لمواجهةِ الجفاف.

إستطعتُ قدرَ الإمكانِ إيقافَ سيَّارتي الهوندا قربَ بوَّابةِ الديرِ الخارجيَّة، وهرولتُ للاحتماءِ ساترًا رأسيَ برزمةِ صُحُف. لم تكنْ ثمَّةَ إشارةُ حياةٍ داخلَ الممرِّ المحميِّ حولَ ساحةِ الديرِ الأماميَّة، لذا، افترضتُ أنَّ الرهبانَ يأخذونَ قسطًا من الراحةِ عصرًا. توجَّهتُ نحوَ مبنى الضيوفِ المجاورِ الذي غالبًا ما يكتظُّ بالحجّاج-الزائرين لتناولِ الشايِ والمُعَجَّنات. ويا فرحي! إلتقَيْتُ هناك الأبَ أرسانيوس، وهو راهبٌ سبقَ أنْ تعرَّفتُ به إبَّانَ زيارتي لجبلِ آثوس، وهو أحدُ الراهبَين التلميذَين اللذَين تَركا الجبلَ المقدَّسَ لمُرافقةِ الأبِ مكسيموس إلى قبرص. حينَ وصلتُ إلى غرفةِ الضيوف، كانَ الأبُ أرسانيوس، ذاك الناسكُ البالغُ ثلاثينَ سنةً من العمر، ذو اللحيةِ الشقراءِ الطويلة، والابتسامَةِ المطبوعةِ دائمًا على وجهِه، منهمِكًا في قراءةِ العهدِ القديم. عندما قاطعتُه، كانَ يَنتظرُ

٢١ الطِّيَّة: المكان الذي تنتهي به الرحلة: المكان المقصود.

آخرَ حاجّةٍ ليقدّمَ لها الشايَ والمعجّناتِ من بعدِ انتهائِها من الاعترافِ لدى رئيسِ الدير. في ذاكَ اليوم، كانت مهمّةُ الأبِ أرسانيوس حفظَ النظامِ وتنظيمَ دخولِ المعترفينَ حسبَ ترتيبِ وصولِهم. أخبَرَني أنَّ أعدادَ الحجّاجِ الراغبينَ في الاستشارةِ الروحيَّةِ قد تزايدَتْ كثيرًا، بسببِ انتشارِ صيتِ الأبِ مكسيموس، حتّى باتَ من الصعبِ تنظيمُها وتدبيرُها.

قالَ الأبُ أرسانيوس مُلقِيًا تحيَّتَه الدافئةَ الخاصّةَ، مُرحِّبًا بوصولي: «آخرُ الحجّاجِ لليومِ لا يزالُ في الدّاخلِ، هي الحاجّةُ-الزائرةُ الخامسةُ والأربعونُ هذا اليوم».

بدأَ الأبُ مكسيموس باكرًا في صباحِ ذلكَ اليومِ بالاستماعِ إلى اعترافاتِ الناسِ من دونِ أيِّ توقُّف، ودونَ إبعادِ أيِّ راغبٍ في الاعتراف. نَظرْتُ إلى ساعتِي. كانتِ الرابعةَ والنصفَ من بعدِ الظهر. حين خَرجَ أخيرًا من غرفةِ الاعترافِ، لاحظتُ بعضَ الشعرِ الرماديِّ ظاهرًا هنا وثمّةَ في لحيتِهِ السوداءِ الطويلة. بدا مُنهَكًا لكنّه سُرَّ لرُؤيتي.

قلتُ له ممازحًا: «ستحتاجُ إلى خمسِ ساعاتٍ منَ الصلاةِ لتستعيدَ نشاطَك». فأغرقَ في الضحكِ وأجابني: «لا يا كيرياكو، أحتاجُ إلى خمسينَ ساعةً مِن النومِ».

إعادةُ التواصلِ معَ الأبِ مكسيموس كانَت أمرًا سهلًا. خِلافًا للسماتِ الصارمةِ والتقشُّفِ النسكيِّ الظاهرِ في وجهِه، كانَ الأبُ مكسيموس إنسانًا هادئًا سَلِسًا، ذوّاقًا للأكلِ الطيِّبِ حينَ لا يكون صائمًا، ويديرُ انتباهَهُ دائمًا

إلى الجانبِ المُضحكِ للأمور. ككاهنٍ وخادمٍ للأسرارِ المقدّسة، كان شخصيّةً متسامحة. يعترفُ الناسُ إليه بخطاياهم من دونِ أيّةِ مشقّةٍ، شاعرينَ بالراحةِ في حضورِه.

دعاني الأبُ مكسيموس، وهو يمسّدُ لحيتَه، للأكلِ معَه إذْ إنّه لم يتناولْ لقمةً منذُ وجبةِ غداءِ اليومِ السابق. فصعِدْنا معًا السلالِمَ إلى المطبخ، وأوضَحَ لي أنّه في المبدإ لا يأكلُ شيئًا على الإطلاقِ قبلَ خدمةِ سرّ الاعتراف. قال: «كي يكونَ المعرِّفُ فعّالًا، من المُهمّ تهيئةُ النفسِ أوّلًا عن طريقِ الصومِ والصلاة. هكذا يَنْشَطُ الروحُ القدسُ ويتفاعلُ في داخلِكَ مانحًا ايّاكَ القدرةَ على منحِ الاستشارةِ الروحيّةِ الصحيحةِ للآخرين». وأصرَّ على أنَّ هذا مبدأٌ، يجبُ أنْ يتّبعَهُ العلمانيّون الذين يعيشونَ في العالمِ ويُواصلون الحياةَ العاديّةَ أيضًا. «إذا كنتَ ترغبُ في تولّي مهمّةٍ لمُساعدةِ الآخرينَ بشكلٍ فعّالٍ، فأنا أنصحُكَ، بإمضاءِ بعضِ الوقتِ في الصلاةِ والصوم، قبلَ الشروعِ في المهمّة. بصومِكَ وصلاتِك، أنتَ في الحقيقةِ تحثُّ الروحَ القدسَ للسيرِ أمامَكَ نحوَ هدفِكَ مُمهّدًا لكَ الطريق، مُسهِّلًا مهمّتَكَ ورافعًا احتمالاتِ النجاح». قلتُ في نفسي: ليتَ أطبّاءَ النفسِ والمعالجينَ النفسانيّينَ يتّبعونَ مثلَ هذا النظامِ قبل معاينةِ مرضاهم!

حولَ مِنضدةِ المطبخ، جَلسنا وجهًا لوجهٍ لنأكلَ حساءَ الفاصولياء مع الخبزِ والزيتون. كانت في الواقعِ وجبةَ عشاءٍ أكثرَ ممّا كانت وجبةَ غداء، لأنَّ الساعةَ كانت قد تعدَّت الخامسةَ من بعدِ الظهر. سَألتُ الأبَ مكسيموس: «ماذا حدث؟ لماذا أنتَ هنا لا في جبلِ آثوس؟». إفترضتُ أنَّ الأبَ مكسيموس

تَرَكَ جبلَ آثوسَ لمنحِ خدماتِهِ إلى وطنِهِ الأصليّ، في وقتٍ تزايدتْ فيه حدَّةُ التوتُّراتِ في الجزيرةِ منذِرَةً بالتفجُّر. فهناكَ سابقةُ القدّيسِ قوزما الإيتوليّ الذي تَرَكَ جبلَ آثوس لمساعدةِ اليونانيّينَ في صونِ لغتِهم، وذلك أثناءَ ما يُعتبرُ أحلَكَ فترةٍ زمنيَّةٍ منْ تاريخِهم. إتّباعُ هذا النموذجِ من قِبَلِ شيخٍ آثوسيٍّ من أصلٍ قبرصيٍّ يونانيّ، هو في النهايةِ أمرٌ طبيعيٌّ.

إبتسمَ الأبُ مكسيموس وهَزَّ رأسَه، وأجابَني وقد بدا عليهِ أنَّهُ لم يستغربْ سؤالي: «هلْ تَعتقدُ بأنَّ تَركِي لجبلِ آثوسَ كانَ اختيارًا شخصيًّا؟». قالَ ذلكَ وتَوقَّفَ مَع نظرةٍ متسائِلةٍ على وجهِه، كما لو أنَّه في انتِظارِ جوابٍ منّي. «أنا طُرِدْتُ، يا كيرياكو. هلْ تَفْهمُ؟». وأضافَ ساخرًا من سوءِ حظِّه: «طُرِدْتُ!»

لم أكنْ أتوقَّعُ جوابًا كهذا. سقطَتْ سِماتُ وجهي من الذُّهولِ وتَمْتَمْتُ: «مَنْ طردَك؟»

أجابَ الأبُ مكسيموس: «الشيخُ باييسيوس». عندَ سماعي ذلكَ تَجَهّمَ وجهِي، وظهرَتْ عليهِ علاماتُ الحيرةِ والذهول.

قالَ الأبُ مكسيموس مُكرِّرًا: «نعم، العودةُ إلى قبرصَ لم تكنْ فكرتي بل فكرةَ الشيخِ باييسيوس».

- «لكنّي اعتقدتُ بأنَّهُ يحبُّك».

- «بالطبع يحبُّني. حبُّه لي وللآخرينَ لم يكنْ يومًا موضعَ شكٍّ أو تساؤل.

لكن لسببٍ ما، أرادَ الشيخُ پاييسيوس عودتي إلى قبرص. وأصرَّ على ذلك. توسَّلتُ إليه، لكن دونَ جدوى. كونَه شيخِيَ الروحيّ، كانَ لا بُدَّ لي أنْ أُطِيع». وفيما كان يبلغُ آخرَ لقمةٍ، قال: «نحنُ رهبانٌ لا يُمكنُ أنْ نتمتَّعَ برغباتٍ شخصيَّة. وإلاَّ يجبُ أنْ ننْزَعَ هذا الثوبَ الرهبانيَّ عنَّا ونَكُفَّ عن التظاهرِ بأنَّنا رهبان».

توقَّفَ لثوانٍ، وعَلَتْ وجهَه سماتُ شكٍّ، وفي عينَيهِ نظراتٌ تكادُ تكونُ آسفة، ثمَّ أضافَ قائلًا: «في بادئِ الأمرِ أُغريتُ للعِصيان، ففكرةُ تَرْكِي جبلَ آثوسَ آلمَتْني كثيرًا. أملْتُ كثيرًا ألاَّ يكونَ طلبُ الشيخِ پاييسيوس مغادرتي لجبلِ آثوسَ وعودتي إلى قبرص طلبًا جِدّيًا. فكَّرت أنَّه، عاجلًا أم آجلًا، سيَنْسى، فهو رجلٌ مُسنٌّ. لكن لا مَجال. في كُلِّ مَرَّةٍ كنتُ أراه فيها، كان يُذكّرني بوجوبِ مباشَرَتي في العَودةِ إلى قبرص فورًا. يئستُ جدًّا، فَجُلْتُ في جميعِ أنحاءِ جبلِ آثوس، منْ ديرٍ إلى دير، مِنْ منسكٍ إلى منسك، مُلتمِسًا تَدَخُّلَ الشيوخِ الآخرينِ لإنْقاذي ممَّا اعتقدْتُه حينذاك سوءَ حظٍّ يُجبرُني على التَخلّي عن حياتِي في جبلِ آثوس. تَمنَّيتُ أن يَأْمُرَني الشيوخُ الآخرونَ لأعْملَ خلافَ ذلك، أيْ أنْ أبقى في جبلِ آثوس. فكَّرتُ حينذاك، أنَّه بتنقُّلي بينَ الأديرةِ وصوامعِ النسَّاكِ يُمكنُني أنْ أُلغيَ قرارَ الشيخِ پاييسيوس. لكنَّ كُلَّ الشيوخِ أخبروني بأنَّه عليَّ تنفيذُ تعليماتِ مُرشدي الروحيّ، الذي يعرفُ أفضلَ الطرقِ وأكثرَها ملاءمةً لي. لذا، ترَكتُ جبلَ آثوس، وها أنا هنا».

- «أنا مسرورٌ لِرُضوخِك لهذا القرار. وجودُك مطلوبٌ هنا».

أضافَ الأبُ مكسيموس بصوتٍ ملؤهُ الحنين: «رُبّما تَركتُ جبلَ آثوسَ بالجسدِ لكنّي ما زلتُ هناكَ بالروح. بالطبع، جَلبْنا جبلَ آثوسَ معَنا هنا إلى هذا الدير. فهو يماثلُ وجودَنا في جبلِ آثوس».

أجبتُه: «يُسعِدُني أنْ يكونَ هذا هو شعورُك».

إستمرَّ الأبُ مكسيموس في التكرارِ بأنَّ بيتَه الحقيقيَّ هو الجبلُ المقدَّس، لا قبرص حيثُ ولِدَ وترعرع. وبما أنّني أعرفُ عمقَ ارتباطِ القبارصةِ المغتربينَ بجزيرتِهم، شعرتُ بأنَّ تصريحَ الأبِ مكسيموس كان تصريحًا استثنائيًّا. لكنَّ الأبَ مكسيموس كانَ قبرصيًّا غيرَ عاديٍّ. على خلافِ معظمِنا، آثوس حررَّهُ من كلِّ قيودٍ محلِّيّةٍ وارتباطاتٍ إثنيّة.

قُلت مقترحًا: «لا بُدَّ أنَّ الشيخَ پاييسيوس أحسَّ بموتِه الوشيك. لذا، ربّما، كانَ متلهِّفًا جدًّا لتَوديعِك قبلَ رحيلِه».

أجابَ الأبُ مكسيموس: «ربّما! لقد رقدَ في الربِّ بعدَ سنةٍ واحدةٍ بالضبطِ من تَركِي لجبلِ آثوس».

«بالتأكيدِ، عرَفَ الشيخُ پاييسيوس بأنَّكَ لنْ تأخذَ من ذاتِكَ قرارَ العودةِ إلى قبرص. فليسَ لديك أيّةُ نيّةٍ في ذلك. لهذا، ربّما، كقدّيسٍ اشتُهِرَ بموهبةِ النبوءة، اسْتَشْرَفَ المستقبلَ، وعلِمَ أنَّ لكَ عمَلًا هامًّا تقومُ بِهِ هنا».

ضَحِكَ الأبُ مكسيموس متجاهِلًا اقتراحي، وقال: «عندما جِئتُ إلى قبرص، افترضْتُ بأنّني سأَخْلقُ فوضى إلى حدٍّ يجعلُ الشيوخَ يتلهَّفون لإعادتي

ثانيةً إلى الجبلِ المقدَّس. هذا ما تَمنَّيتُ».

* * *

تعجَّبتُ، ولفَتَني أنَّه، بغضِّ النظرِ عن سمعةِ الأبِ مكسيموس الخاصَّة، وبغضِّ النظرِ عن أنَّه في الحقيقةِ خدمَ كِيروتوس الجبلِ المقدَّس، إلاَّ أنَّه ما كانَ عِنْدَهُ خيارٌ آخرُ سوى طاعةِ شيخِهِ الناسكِ، الذي عاشَ لعقودٍ في عزلةٍ كلِّيَّةٍ عن العالمِ الخارجيّ. لكن منْ منظارِ التقليدِ الروحيِّ الآثوسيّ، أنْ تكونَ قدِّيسًا حيًّا صانعَ معجزاتٍ مثلَ الشيخِ پاييسيوس، فأنتَ تتكلَّمُ بسُلطةِ السماءِ مثلَ أنبياءِ العهدِ القديمِ تمامًا. عصيانُ الأبِ مكسيموس قد يُحتسبُ أمرًا مستحيلًا ونقيضًا للروحانيَّةِ الآثوسيَّة. فطَرْدُهُ مِنْ عَدْنَ الرهبانيَّة، جاءَ بحسبِ مشيئةِ الربِّ وحدَه.

فيما كانَ الأبُ مكسيموس يوضحُ لي كيفَ انتهى به المطافُ إلى قبرصَ بخلافِ رغبتِه، تذكَّرتُ أمرًا أخبرَني به السُّوامي[٢٢] سواروباناندا حينَ نزلْتُ ضيفًا مُحاضِرًا في خلوةِ يوغا سيفانندا في جزيرةِ بارادايز في ناسو. فبعدَ تناولِ العشاءِ معَ ضيوفٍ مُحاضرينَ آخرينَ، وبعدَ عرضِ فيلمٍ وثائقيٍّ عن جبلِ آثوس، ناقَشْنا أهمِّيَّةَ المراكزِ الرهبانيَّةِ والدَّورَ المحتمَلَ الذي يمكنُ أنْ تلعَبَهُ في حضارةِ اليوم. بعدَ سماعِ وجهاتِ النظرِ المختلفةِ وتعليقًا على الفيلمِ الوثائقيّ، هَزَّ السُّوامي اليهوديُّ الأصلِ الرائعُ والحكيمُ رئيسُ الأشرماتِ رأسَه معلِّقًا: «على رهبانِ آثوسَ أنْ يَخْرجوا منَ الجبلِ ويشاركوا حكمتَهم مع بقيَّةِ العالم. إنَّ كوكَبَنا يقعُ على مفترقِ طرقٍ خطيرٍ للغاية، وحكمةٌ كهذِه لمْ يَعُدْ من

٢٢ السُّوامي: معلِّمٌ دينيٌّ هندوسيّ.

المستطاعِ أنْ تَبقى مخفيَّةً في الأديرةِ القديمة. إنْ لم يُبادِروا بالقيامِ بهذا العملِ الشركَويِّ طوعًا، فاللّه سَيُجبرُهم على ذلك. كما تعلمون، هكذا تعملُ الأمور. هذا ما حَدثَ مع التيبتيِّينَ بالضبط».

قلتُ في نفسي إنَّ هذا ما حَدثَ مع الأبِ مكسيموس أيضًا. وقتذاك، أوضحتُ للسوامي أنَّ الأمرَ ليس على هذه الصورةِ بالضبط. فالرهبانُ الآثوسيُّونَ كانوا نشيطينَ خارجَ جبلِ آثوس في عدَّةِ مراحلَ تاريخيَّة[٢٣]. أخبَرْتُه أنَّ المعرفةَ والحكمةَ الآثوسيَّتَين، في الحقيقة، ما كانتا 'محجوبتَين' أبدًا. الحقيقةُ ببساطة، أنَّ عالمَنا الحديثَ لم يَلْفِتْهُ جبلُ آثوس، ولم يُولِ كنوزَهُ الروحيَّةَ اهتمامًا يُذكَر.

⁜ ⁜ ⁜

عندما انتهينَا من تناولِ الطعام، سألْتُ الأبَ مكسيموس عن دوريَ المحتملِ أثناءَ إقامتي في ديرِ الفائقةِ القداسة. ذكرتُ أنَّه إضافةً إلى البحثِ والكتابةِ لإتمامِ كتابِي، فأنا أحبُّ أنْ أخدمَ في الديرِ أيضًا. إقترحتُ عليه بأنَّه، ربَّما يُمكنُني أنْ أحلَّ محلَّ سائقِه أثناءَ إقامتِي، لقيادةِ السيَّارةِ ونقلِه حيثُ يريدُ، لتلبيةِ مهامِّهِ العديدةِ خارجَ الدير، والمتفرِّقةِ في أجزاءٍ مختلفةٍ من الجزيرة. فالأبُ مكسيموس نفسُه، لم يسبقْ أنْ تعلَّمَ قيادةَ السيَّارة. إبتسمَ وأومأ برأسِه وقالَ: «موافق». سُرِرْتُ بموافقتِه. فأنْ أكُونَ سائقَه يَفِي بغرضَين في آنٍ معًا: أنْ أَجْعلَ نفسِي مفيدًا، وفي نفسِ الوقتِ سيكونُ لديَّ الوقتُ، أثناءَ تنقُّلِنا من مكانٍ إلى آخر، للدخولِ مع الأبِ مكسيموس في حواراتٍ خاصَّةٍ والتواصلِ معَه عبرَ أحاديثَ عرضيَّة.

23 Dimitri Obolensky, The Byzantine Commonwealth (New York: Praeger. 1971).

قَبْلَ أنْ يذهبَ إلى قلاَّيتِهِ لاستراحةٍ منشودةٍ بإلحاح، سألَ الأبَ أرسانيوس أنْ يُعِدَّ لي إحدى القلاَّياتِ المتوفِّرة. فخُصِّصتْ لي غرفةٌ واسعةٌ فيها تدفئةٌ مركزيَّةٌ مَع حمَّامٍ خاصّ. كما كان فيها أريكةٌ ومنضدةٌ خشبيَّةٌ لحاسوبِيَ النقَّالِ أيضًا. بحسبِ المعاييرِ الرهبانيَّةِ، مسكنِي كانَ فاخرًا. علِمْتُ لاحقًا بأنَّ قلاَّيتي كانتْ في الحقيقةِ جناحًا مخصَّصًا للضيوفِ المميَّزين مثلَ رئيسِ الأساقفةِ أو وجهاءَ آخرين. شَعرتُ بالحرجِ لكنِّي سُررتُ بإبداءِ الأبِ مكسيموس اهتمامَه بتأمينِ راحتي الجسديَّة. وقد أعلمَني استِفانوس بأنَّ الأبَ مكسيموس كانَ قلقًا من جهتي بالنسبةِ إلى قدرةِ تحمُّلِي صرامةَ الحياةِ الرهبانيَّة، ولو لوقتٍ قصير. بالتأكيد، كانَ يعلمُ أنَّني لستُ مدعوًّا لأكونَ راهبًا.

قبلَ أنْ يتركَني لأَستقرَّ في غرفتِي الجديدة، أوضحَ الأبُ أرسانيوس أنَّه بسببِ الصومِ الكبير، يُقدِّمُ الديرُ الطعامَ مرَّةً واحدةً فقط في اليوم، عند الظهر. وإذْ لاحَظَ تعابيرَ الشكِّ على وجهِي، طمأنَني بأنَّه ليستْ هناك من مشكلةٍ إنْ رغِبتُ في شربِ كوبٍ من الشاي صباحًا أو مساءً على أنْ أُعِدَّهُ بنفسي. فكَّرت، كم صعبةٌ هي حياةُ الراهب، وتَساءلتُ كيفَ يتأقلمُ الرهبانُ الثلاثونَ تلاميذُ الأبِ مكسيموس، ومعظمُهم من الشبابِ، ويخضعونَ لمثلِ هذا البرنامجِ الصارمِ والمتقشِّف.

في اليومِ التالي وبَعْدَ الصلاةِ، وصفْتُ للأبِ مكسيموس تفاصيلَ لقائي بصديقِي توماس. فوافقَ على مقابلتِه، وأنا لم أُضيِّعْ وقتًا. فحدَّدْتُ موعدَ اجتماعٍ في صباحِ اليومِ التالي، وأنا على يقينٍ أنَّ أفكارًا هامَّةً حولَ طبيعةِ الحياةِ الرهبانيَّةِ ستَبرزُ جليًّا أثناءَ هذا اللقاء. كنتُ واثقًا من معرفةِ الأبِ مكسيموس

العميقةِ وخبرتِه في الموضوع، ومن عقلانيَّةِ توماس الحادَّةِ ونقديَّتِه الحديثة. تأكَّدتُ من سلامةِ آلةِ التسجيل، وتهيَّأتُ نفسيًّا لأُشاهدَ ما توقَّعتُ أنْ يكونَ تبادلًا حواريًّا قويًّا وحادًّا حولَ موضوعِ الحياةِ الرهبانيَّة.

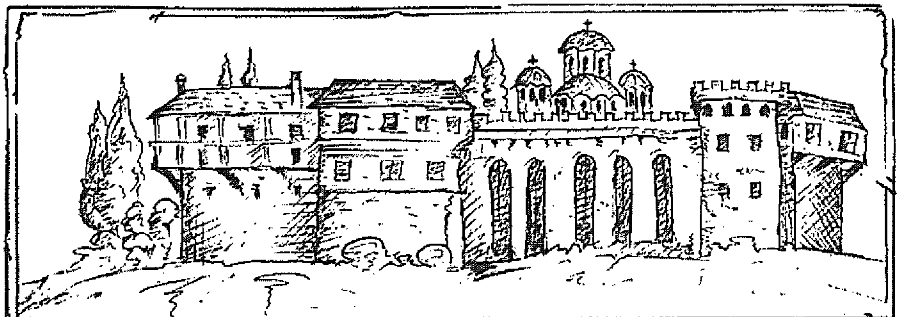

الفصل ٣

تحوُّلات

جلَسْنا منتظرينَ في غرفةٍ مجاورةٍ لمكتبِ الأبِ مكسيموس. بدَا توماس متوتّرًا حاملًا مسبحتَه، مُحرِّكًا حبّاتِها بعصبيّةٍ شديدة، وهي عادةٌ يلجأُ إليها الرجالُ المُسنّونَ في بلادِنا لتمضيةِ الوقت. كان يتنفَّسُ بصعوبة، وبصوتٍ خافتٍ بالكادِ يُسمَعُ، حذَّرني أنّه ينوي مواجهةَ الأبِ مكسيموس بكلّ صراحةٍ بشأنِ الراهبةِ المبتدِئة روزا. أعدَّ كلَّ ما يريدُ قولَهُ للأبِ مكسيموس عن رفضِه التامّ للرهبانيّةِ ووجودِها في العالم، استعدادًا للّقاءِ–المواجهة. أكّدْتُ له أنَّ الأبَ مكسيموس سيُقدّرُ محادثةً صريحةً كهذه. فأومأَ توماس برأسِهِ وتنفَّسَ الصُّعَداءَ كعلامةِ رضًى. جلسَتْ زوجتُه نيكي بقربِهِ في هدوء، وعلاماتُ اللّهفةِ باديةٌ على محيّاها.

تبدّلَ المناخُ المخيِّمُ على الغرفةِ فورَ دخولِ الأبِ مكسيموس، حيثُ تقدَّمَ مباشرةً مصافِحًا باليدِ كُلاًّ من توماس ونيكي. قالَ توماس، وسِمَاتُ التعجُّبِ ظاهرةٌ على وجهِه: «توقَّعتُ لقاءَ شخصٍ متقدِّمٍ في العمر! الجميعُ يدعونَك 'شيخًا'، فتصوَّرتُ أنّكَ ناهزْتَ الستّينَ من العمرِ على الأقلّ». إبتسمَ

الأبُ مكسيموس وطارَفَنا بموقفٍ سابقٍ يتعلَّقُ بصغرِ سنِّه نسبيًا. وَعلِمَ توماس أنَّ الأبَ مكسيموسَ كانَ تلميذًا في ثانويَّةٍ باڤوس، حينَ كانَ هو مديرًا هناك. حينذاك، بدأَ الجليدُ الفاصلُ بينَهما في الذوبان، وخفَّفَ توماس من نواياهُ القتاليَّة. علاماتُ الإعجابِ الفوريِّ بالأبِ مكسيموس بَدَتْ على وجهِهِ وتغيَّرتْ تعابيرُهُ بالرغمِ من شعورِهِ السلبيِّ نحوَ الحياةِ الرهبانيَّة. معَ ذلك، ووفاءً لوعدِه، أثارَ كلَّ المواضيعِ الساخنةِ التي دفعَتْهُ للقدومِ إلى ديرِ الفائقةِ القداسة.

قالَ توماس بجِدِّيَّةٍ: «أبانا مكسيموس، تدورُ حولَكَ إشاعاتٌ كثيرة». وبعدَ تردُّدٍ لثوانٍ، دخلَ مباشرةً في صلبِ الموضوع: «بالتحديد، أتكلَّمُ هنا عن مشكلةِ روزا. فأنا صديقٌ لتلكَ العائلة. جميعُهم متألِّمون، وخاصَّةً الوالد. يشكونَ أنَّكَ لمْ تمنعْ ابنتَهم من الترهُّب، وأنَّ معاملتَكَ لهم كانتْ قاسية».

كردَّةِ فعل، قالَ الأبُ مكسيموس متعجِّبًا: «قاسية!؟»

- «إنَّك إتَّهمْتَ والدَ روزا أنَّه لمْ يكنْ أبًا صالحًا. لذا جئتُ إلى هنا اليومَ لأَستَوضحَ حقيقةَ الأمر. نحنُ نتحاورُ الآنَ بصراحةٍ وبحرِّيَّةٍ مطلقةٍ، أليسَ كذلك؟»

- «بالطبع، بالطبع».

تابعَ توماس حديثَه بنبرةٍ حادَّةٍ، محرِّكًا حبَّاتِ مسبحتِه: «سؤالي هو، هذه الشابَّةُ أنهَتْ دراستَها الجامعيَّةَ وتدرَّجَتْ في حقلِ الهندسةِ المعماريَّة، وعزمتْ على الذهابِ إلى أميركا لمتابعةِ دراستِها. ولكن منذُ ذاكَ اليومِ الذي قابلتْكُم فيه، بدَأَتْ تتوجَّهُ نحوَ الرَّهبنة. يشعرُ أهلُها وجميعُ أقاربِها أنَّ تأثيرَكم كانَ

سيِّئًا على حياتِها. هل كنتَ في مكانةٍ تسمحُ لكَ بمنعِها مِنْ أنْ تصبحَ راهبة؟ أرجوك، اعذُرْني لصراحتي المباشرةِ معَكُم، ولكنَّني أطرحُ هذه المسائلَ لجلاءِ الموقفِ وتوضيحِ كلِّ مُلابساتِه».

تنهَّدَ الأبُ مكسيموس وطمأنَ توماس أنّه يُقدِّرُ صراحتَه:

- «دَعْنا نبدأْ من البداية. كيفَ تعرَّفتُ بروزا؟ إحدى مهمَّاتي هنا في الديرِ هي إتاحةُ الفرصةِ للناسِ للاعتراف. ليستْ لديَّ أيَّةُ فكرةٍ عن القادمينَ إلى الديرِ لمقابلتي. لا أعرفُ مَنْ يكونونَ، ولا مِنْ أين يأتون، أو أيَّةَ وظيفةٍ يشغلون. وغالبًا لا أسألُهم حتَّى عن أسمائهم. بما أنّي راهبٌ أتجنَّبُ الظهورَ في المجتمعِ قدرَ المستطاعِ وأبتعدُ عن الحشودِ الاجتماعيَّةِ أيضًا. كما أنّني لا أقبلُ الدعواتِ الخاصَّةِ إلى البيوتِ والمنازل. حياتي رهبانيَّةٌ ظاهرةٌ بوضوح. على أيَّةِ حالٍ، رأيتُ روزا بضعةَ مرَّاتٍ فقط. في الحقيقة، حينَ أتَتْ للمرَّةِ الأُولى للاعترافِ كانتْ بصحبةِ أبيها. حتّى إنَّه شَكَرَني لتحدُّثي معَ ابنتِه. وقد جاؤوا يومَ السبت، المخصَّصِ لمقابلةِ كلِّ الراغبينَ بالاعتراف. عندما يزدادُ عددُ الوافِدين، بإمكاني رؤيةُ كُلِّ شخصٍ عشْرةَ دقائقَ فقط. في حالتِهما، اكتشفتُ لاحقًا أنَّ جَدَّها الذي رقَدَ في الربِّ، كان كاهنًا، وللمصادفة، كانَ مُرشدي الروحيَّ ومعرِّفي في سنِّ المراهقةِ حينما كنتُ تلميذًا في ثانويَّةِ باقوس».

قالَ توماس بحماسةٍ: «عَرفْتُ الأبَ الراحلَ كيرلُّس جيِّدًا»، وأكَّدتْ نيكي كلامَ زوجِها. وكانتْ هذه مصادفةً ممتعةً ومثيرةً، فجَدُّ روزا كانَ مُعرِّفَ الأبِ مكسيموس وأباه الروحيَّ في شبابِه، وتوماس يعرفُه أيضًا. في جزيرةٍ

صغيرةٍ مثلَ قبرص، لا تزيدُ عن مساحةِ ولايةِ كونيكتيكت، صدفةٌ كهذه أمرٌ مألوفٌ وشائع.

تابعَ الأبُ مكسيموس: «أتذكَّرُ أنَّ كثيرًا من الأسئلةِ كانتْ تدورُ في فكرِ روزا، وقد تَمنَّت مواصلةَ دِراساتِها في الفلسفة. وفي الوقتِ نفسِه، أخبرَني أحدُ الشبّانِ القادمينَ للاعترافِ أنَّه راغبٌ في الزواجِ وهوَ مُعجبٌ بها. ولاحظتُ أنَّه شابٌّ خجولٌ للغاية، فتطوَّعتُ من بعدِ أخذِ إذْنِه، لذِكرِ الأمرِ إلى روزا لترتيبِ موعدِ لقاءٍ وتعارفٍ بينَهما».

وكدليلٍ عن حُسْنِ نِيّتِه، سألَ الأبُ مكسيموس: «الآنَ رجاءً أخبِرْني يا توماس، لو كنتُ مهتمًّا في جعلِ روزا راهبةً، أَكُنت لعبتُ دورَ مدبِّرِ زواج؟»

أسرعَت نيكي بالجواب: «بالطبع لا»، بينما أَومأ توماس بتردُّد.

- «حسنًا، خَرجَ الإثنانِ معًا لكنَّهما لمْ يتَّفقا. وفي ثاني لقاءٍ لي مع روزا للاعتراف، أخبرَتْني بشكلٍ مطلقٍ بأنَّها غيرُ مهتمَّةٍ بالزواج. شوقُها الأعمقُ كانَ أنْ تصبحَ راهبة. فقُلت لها: 'أصغي يا روزا، تركُ العالمِ هو قرارٌ جِدّيٌّ جدًّا. وأنت ليستْ لَكِ أيَّةُ تجربةٍ لمعْرفةِ ما تتضمَّنُهُ الحياةُ الديريَّةُ حقًّا'. كانتْ تعملُ في حقلِ الهندسةِ المِعماريَّة، فنَصحتُها أنْ تُتابعَ مهنتَها وتَنتظرَ سَنَةً كاملةً لتختَبِرَ حقيقةَ مَيْلِها وتتأكَّدَ من هذا القرارِ المصيريّ. وافقتْ روزا حينذاك، ولكن بعدَ شهورٍ قليلةٍ، جاءتْ تقولُ لي إنَّها قرَّرتْ أنْ تُصبحَ راهبة. مرَّةً أُخرى، نصحْتُها بالتروّي والانتظارِ لفترةٍ أطولَ لكي تتأكَّدَ ما إذا كانتْ حقًّا تريدُ أنْ تُمضيَ بقيَّةَ حياتِها في دير. إنتظرَتْ حتَّى عيدِ الميلاد. ثمَّ جاءتْ وقالتْ لي:

'أُنظرْ يا أبانا مكسيموس، إمَّا أنَّك لا تريدُني أنْ أدخلَ ديرًا هنا في قبرص؛ في هذه الحالة، سأذهبُ إلى ديرٍ في اليونان؛ أَو أنَّ هناك مشكلةً ما فيَّ وأنتَ لا تريدُ أنْ تناقِشَها معي'».

فسألَ توماس بصوتٍ منخفض، وقد تملَّكَهُ الفضول: «من ثَمَّ، ماذا قلتَ لها؟»

- «أخبرتُها بأنّه ليسَ من حقّي منْعُها من أنْ تصبحَ راهبةً ولا إجبارُها على ذلك: 'أنتِ شابَّةٌ في الخامسةِ والعشرينَ من العمر، وكما لكِ الحقُّ بالزواجِ من أيِّ شخصٍ تَتمنَّين، لكِ الحقُّ أيضًا أَنْ تُصبحي راهبة'. وحَثثتُها لمناقشةِ المسألةِ مَع والدَيها».

توقَّفَ الأبُ مكسيموس عن الكلامِ لبرهةٍ وتابع: «هكذا فَعَلَتْ. جاؤوا جميعًا إلى هنا بصحبةِ بعضِ الأقرباءِ الآخرين. كانَ ذلكَ اليومَ الذي ادَّعوا أنَّني أسأْتُ فيهِ معاملَتَهم. جميعُهم اتَّهَمُوني بأنَّني وراءَ قرارِ ابنتِهم في الترهُّب. أصرُّوا أنَّ كُلَّ شيءٍ كانَ عائدًا إليَّ، وطَلبوا منِّي أنْ آمرَ روزا بالتخلِّي عن قرارِها والعدولِ عن رأيِها. حاولتُ أنْ أشرحَ لهم أنّه من المستحيلِ عليَّ أنْ أقومَ بعملٍ كهذا، ولكن عبثًا».

سألَ توماس فجأةً: «هلِ الرَّهبنةُ هي الطريقُ الوحيدةُ إلى الله؟»

- «بالطبع لا، ولكنَّها إحدى الطرق».

- «عُذرًا على تغييري الموضوع، ولكن قبلَ أنْ نُكمِلَ حديثَنا، رجاءً

هل يمكنُ أنْ تُخبِرَني باختصارٍ عن مفهومِكَ الشخصيِّ للرَّهبنة؟»

– «ليس من السَّهلِ شرحُ ماهيَّةِ الرَّهبنةِ لِمَنْ لا ينتمي إليها. هو سرٌّ يُكشَفُ عن طريقِ الاختبارِ فقط. إلى غيرِ المُنتمين إليها، ظاهرةُ الرَّهبانيَّةِ غامضةٌ ويصعُبُ فهمُها حقًّا. إنَّ أفضلَ مصدرٍ لتفسيرٍ موجزٍ ممكنٍ لماهيَّةِ الرَّهبنةِ بكلِّ ما تحتويهِ هو شهادةُ القدِّيسينَ العظماءِ عبرَ العصور. فوَفْقًا لإفاغريوس البنطيّ، أحدِ آباءِ الصحراءِ في القرنِ الرابع، الرهبانُ هم أولئكَ الناسُ الذين فَصَلُوا أنفسَهم جغرافيًّا عنْ كُلِّ شيءٍ وعنْ كُلِّ الناس، مع ذلكَ لا يزالون مُرتبطينَ بكُلِّ شيءٍ وبكُلِّ الناسِ على نحوٍ غيرِ منظورٍ عن طريقِ الصلاةِ ومحبَّةِ المسيح. ووَفْقًا للقدِّيس مكسيموسَ المعترف، الرهبانُ هم أولئك الذين أزالوا أذهانَهم منْ عالمِ المادِّيّاتِ الحسِّيَّة، وعن طريقِ الزهدِ والمحبَّةِ والصلاةِ والترنيمِ تُصبحُ أذهانُهم مُرَكَّزَةً كلِّيًّا على الله. شيخٌ آخرُ اعتبرَ أنَّ الرُّهبانَ هم الذين ليسَ لَهُمْ شيءٌ في هذه الحياةِ عدا المسيح. هذا ما نحاولُ أنْ نتبَعَه هنا[٢٤]».

واستأنفَ الأبُ مكسيموس حديثَه في موضوعِ روزا: «أوضحتُ لهم أنَّ ما طلبوهُ منِّي يخالفُ ضميري. معَ ذلك، طمأنْتُهم أنَّه، بسببِ إصرارِهم سأطلبُ من روزا ألاَّ تأتيَ ثانيةً إلى الدير. هناكَ آباءٌ مُعرِّفونَ آخرونَ في الجزيرة. يمكنُها أنْ تذهبَ إليهم وتعملَ ما يحلو لها. بالمناسبةِ، وللتوضيح، ما فعلْتُهُ غيرُ مسموحٍ من قِبَلِ الأبِ الروحيّ. كنتُ على خطإٍ، وأنا نادمٌ على فِعلي. ليسَ من حقِّي أنْ أمنعَ أحدًا من المجيءِ إلى الاعترافِ لأتفادى مشكلةً مُحتملة. لكنْ هذا ما

٢٤ أُنظر: كاليستوس ويّر: الكنيسة الأرثوذكسيّة في الماضي والحاضر. منشورات النور، ١٩٨٢؛ الأرشمندريت صفرونيوس (سخاروف): القدّيس سلوان الآثوسيّ. نقلته إلى العربية الأمّ مريم (زكّا). منشورات التراث الآبائي، طبعة ثانية ١٩٩٩.

فعلتُه. أخبرتُها بأنّني لا أريدُ أنْ يكونَ لديَّ أيُّ اتّصالٍ بها أبدًا، لكي لا أكُونَ متّهمًا بالتأثيرِ على حياتِها. وافقَتْ روزا، ومذّاك، لم يكنْ لديَّ أيُّ اتّصالٍ بها. ذاتَ يوم، جاءَ والدُها هنا إلى الدير، وبعنفٍ طلبَ منّي أنْ أُخبرَه ماذا يحدثُ مع روزا. أجبتُ: 'كيفَ لي أنْ أعرف، وليسَ لديَّ أيُّ اتّصالٍ بها؟'، عندَ ذلك، بدأَ يصَيحُ ويهدّدُ بأنّه سيقتلُني مثلَ كلبٍ ويَشْربُ دمِي!»

تمتمَ توماس متجهّمًا: «أَعتقدُ أنّه قادرٌ تمامًا على فعلِ ذلك. ليس غريبًا عنه أنْ يقتِلَ كونَهُ ارتكبَ أعمالًا عدّةً مماثلةً ضدَّ من سمُّوا خَوَنَةً إبّانَ حربِ العصاباتِ ضدَّ البريطانيّين في الخمسينيّاتِ».

تابعَ الأب: «وهدّدَ أيضًا، بأنْ يكتبَ إلى الصُحُفِ مُتّهمًا ايّايَ بقِلّةِ الأخلاقِ، حتّى إنّه هدّدَ بتفجيرِ الدير».

قالَ توماس بحزنٍ بالغ: «كما ذكرتُ، العنفُ ليس غريبًا عنْ أولئكَ القوم».

وتابعَ الأبُ مكسيموس: «حينئذٍ أدركتُ، بأنّه لا بُدَّ لي أنْ أعْمَلَ شيئًا. فحذّرْتُهُ بأنّني سأستدعي الشرطةَ في هذهِ اللحظةِ بالذاتِ، 'وبعدَ ذلك سنَرى مَنْ سَتُرْدِي رميًا بالرصاص، ودمَ من سَتَشْرب. أَسَبَقَ أنِ اتّصلتُ بإبنَتِكَ عبرَ الهاتف؟ هَلْ سَبَقَ أنْ ضايَقْتُها؟ هَلْ سَبَقَ أنْ دَعَوْتُها للمَجيءِ إلى الديرِ؟ لماذا لمْ تحرَصْ على ابنَتِكَ وتَعْتَنِ بها حينَ ظَنَنْتَ أنّها تسلُكُ الطريقَ الخاطئ؟ بوجودِكَ معَها نهارًا وليلًا، لماذا تركْتَها تأتي وحدَها إلى الدير؟ باللّه عليك، اجتمعتُ بإبنتِكَ مرّةً كُلَّ شهرَين ولمدّةٍ زمنيّةٍ لا تتعدّى عشرةَ دقائق. كانت معَكَ كُلَّ

يوم، ورغمَ ذلك، لم تكنْ قادرًا على إملاءِ أيِّ تأثيرٍ عليها. فكيفَ تَتَّهمُني أنَّني كنتُ السببَ في قرارِها أنْ تُصبحَ راهبة، وهي، في الحقيقة، شابَّةٌ في الخامسةِ والعشرينَ من العمر، تخرَّجَتْ من الجامعة؟'. لم يصغِ إلى حديثي وواصلَ تَهديدَه بقتلي وبِشُربِ دمي. قلتُ له: 'حسنًا، هيا اقتلْني واشربْ دمي'. وعندَ هذا الحدّ، انتهى حديثنا».

سألَ توماس ببَعْضِ التردُّدِ والخوف: «ألا تظنُّ أنَّه من واجبِكم أنْ تحثُّوا الناسَ الآتينَ إليكم راغبينَ في الترهُّبِ ألاَّ يُقدِموا على فعلِ ذلك؟»

- «إنْ كانوا غيرَ مؤهَّلينَ للرهبانيَّة، بالطبعِ عليَّ فعلُ ذلك، لكنْ فقطْ إنْ كانوا غيرَ أهلٍ. في مثلِ هذه الحالاتِ سأقول: 'يا عزيزي، أنتَ لا يمكنُك أنْ تُصبحَ راهبًا (أو راهبةً) لهذه الأسبابِ أو لغيرِها'».

وذهبَ توماس أبعدَ من ذلكَ في حديثِه قائلًا: «هناكَ اتِّهامٌ آخرُ موجَّهٌ ضدَّك، أنَّكَ تستدرجُ المجروحينَ نفسيًّا على الانخراطِ بالرَّهبنة. مثلًا، شابَّةٌ تُعاني من إحباطٍ بسببِ علاقةِ حبٍّ فاشلة، قدْ تكونُ معرَّضةً للتأثُّرِ بشخصيَّتِكم، ويسهُلُ إقناعُها لتُصبحَ راهبة».

ضَحِكَ الأبُ مكسيموس وسألَ: «توماس، هلْ تعرفُ معنى الحياةِ الرهبانيَّة؟»

رَدَّ توماس مُدافعًا: «لستُ أنا بالضرورةِ من يقولُ هذه الاتِّهامات، أنا بكلِّ بساطةٍ أُردِّدُ بعضَ ما يقولُهُ الناسُ عنكم».

طَمأنَه الأبُ مكسيموس: «حسنًا، حتّى إذا كنتَ أنتَ شخصيًا مقتنِعًا بهذه الإشاعات».

قال توماس: «ما أتذكَّرُهُ بشكلٍ واضحٍ جدًّا، هو حالةُ الأمِّ التي ناشَدَتْك علنًا للتدخُّلِ في إقْناعِ ابنِها الوحيدِ ألاَّ يتركَها ويترهَّب. ثمّ خطرَ في فكريَ موقفُ المسيحِ قبلَ مَوتِه على الصليبِ، حين قالَ لأمِّه: 'يا أمّي، هذا ابنُك'، مشيرًا إلى تلميذِه يوحنّا. ومن ثمّ توجَّهَ إلى يوحنّا قائلًا: رجاءً، اعتنِ بأمّي لأنّي ماضٍ. وَفْقَ تقديري هذا تصرُّفٌ مسيحيّ. فإذا بدا المسيحُ قلِقًا بشأنِ حالِ أمِّه، لماذا تبدو الكنيسةُ قاسيةً جدًّا؟ أليستِ الكنيسةُ مُذنِبَةً لتوليدِها هذا الكمَّ من مشاعرِ الغضبِ والاستياء؟ هلْ كان صوابًا أنْ تسبِّبَ هذا الكمّ من المشاعرِ المرَّةِ في قلوبِ الكثيرين؟ إضطراباتٌ نفسيَّةٌ عديدةٌ لأجلِ شخصٍ واحد؟! ألا يَجبُ على الفردِ أنْ يُضَحِّيَ بحياتِه لمصلحةِ الكثيرينَ بدلَ أنْ يَعتنيَ بمصالحِهِ الشخصيَّةِ مثلَ خلاصِ روحِهِ فقط؟ هلْ يجبُ أنْ أقُودَ الآخرينَ إلى اليأسِ والدمارِ لأجلِ خلاصِ روحي؟»

إستمعَ الأبُ مكسيموس إلى حججِ توماس الانفعاليَّةِ بإنتباه. ثمَّ، أوضحَ له بهدوءٍ أنَّ الشابَّ الذي تركَ أمَّه وذَهبَ إلى جبل آثوس ليُصبحَ راهبًا، فَعلَ ذلك قَبْلَ وصولِه إلى قبرص. مع ذلك، وكمَا في حالةِ روزا، افترضَ الجميعُ أنَّ الأبَ مكسيموس كانَ بإمكانِهِ بكلِّ سهولةٍ إقناعَ الشابِّ بالتخلّي عنِ الحياةِ الرهبانيَّةِ والعودةِ إلى أمِّه.

تابع توماس القَولَ بنبرةٍ قويَّة: «ألا تعتقدُ، بأنَّ على المقاتلِ الحقيقيِّ

البقاءَ في وسطِ العالمِ لمجابهةِ الحياةِ الدنيويَّةِ اليوميَّةِ بدلًا من الانعزالِ سعيًا لخلاصِهِ الذاتيّ لكسْبِ السعادةِ الأبديَّةِ؟ لمْ أسمعْ آيةً واحدةً في الإنجيلِ تُشيرُ إلى أنَّ المسيحَ علَّم أو تكلَّمَ عن الرهبانيَّة. أرادَ أنْ يُجاهدَ البشرُ في العالمِ، للاعتناءِ ببعضِهِم البعض، أرادَهم أن يَتحابُّوا. ألا تَجِدُ من الغرورِ أنْ نُغلقَ على ذواتِنا في ديرٍ لتحقيقِ هدفٍ وحيدٍ فقطْ، وهو خلاصُ نفوسِنا؟»

تدخَّلتُ مقاطِعًا حديثَ توماس مُقدِّرًا انفعالَه العفويَّ النابعَ من القلب، قائلًا: «سؤالٌ كلاسيكيٌّ».

أجابَ الأبُ مكسيموس: «رجاءً، اعْلَمْ أنَّني لا أَقْصدُ أن أثبِّطَ عزيمتَك»، مشيرًا ضمنًا إلى أنَّ توماس يسيءُ قراءةَ الإنجيلِ وفهمَه. فطَمأنَه توماس: «لا تهتمَّ لذلك».

كِلاهما كانَ متحمِّسًا لمُناقشةِ هذه القضايا بانفتاح. فُتِنْتُ لمشاهدتِهما يتصارحانِ معًا إلى هذا الحدّ.

تابعَ الأبُ مكسيموس قائلًا: «أوّلًا، طريقةُ قِراءتِكَ وتفسيرِكَ للإنجيلِ لا تتطابقُ مع تفسيرِ الآباءِ القدّيسين. الإنجيلُ واضحٌ جدًّا حولَ هذه القضيَّة. دعْني أُعطِكَ مثالًا، أتَذْكُرُ تلكَ الحادثةَ حينَ اقتربَ ذاكَ الشابُّ من المسيحِ وسألَه: 'يا سيِّدي، ماذا يجبُ أنْ أعملَ لأنالَ الحياةَ الأبديَّة؟'، أجابَهُ المسيحُ: 'بِعْ كُلَّ ما تملِكُ واتبعْني'. وفي مكانٍ آخرَ نَسْمعُ المسيحَ يقول: 'لا أحدَ يستطيعُ أَنْ يكُونَ تلميذًا لي إذا أحبَّ أمَّه أو أباه، أو ابنتَه أو حقولَه أكثرَ منّي'. وأعطى الوصيَّةَ الأُولى: 'أحبِبِ الربَّ إلهَكَ مِنْ كُلِّ نفسِكَ وبكُلِّ قلبِكَ'. هذا يعني،

أحببْ الربَّ إلهَكَ مِنْ كُلِّ كيانِك. فكِّرْ فقطْ في الرسلِ الإثنيْ عشر. كانوا أناسًا عاديِّينَ اختارَهمُ الربُّ منْ أوساطٍ معيشيَّةٍ دونَ الوسط، لكنَّهم تَخلَّوا عن كُلِّ شيءٍ لاتِّباعِ المسيحِ والعيشِ معَه».

- «أجل، لكنَّ المسيحَ عاشَ في العالم. ولمْ يَحبِسْ نفسَه في دير».

- «دعْني أسألُك يا توماس، كم عددُ السنواتِ التي عاشَها المسيحُ في العالمِ؟ ثلاثٌ وثلاثونَ سنة، أليسَ كذلك؟ وكمْ سنةً بشَّرَ؟»

- «ثلاثَ سنواتٍ تقريبًا».

- «صحيح. من أصلِ السنواتِ الثلاثِ والثلاثين، بشَّرَ المسيحُ - حوالي سنتَينِ ونِصْفَ السنةِ فقط. ماذا كانَ يعملُ في السنواتِ الثلاثينَ السابقةِ لبشارتِهِ؟»

أجابَ توماس: «حَسنًا، هناكَ كتاباتٌ أبوكريفيَّةٌ[٢٥] عن حياةِ المسيح، لا نعرفُ الكثيرَ عنها».

تابعَ الأبُ مكسيموس قائلًا: «ذلكَ يعني أنَّ المسيحَ عاشَ حياةَ صمتٍ لمدَّةِ ثلاثينَ سنة. لم يبشِّرْ ولم يقُمْ بعمَلِ أيِّ شيءٍ ملحوظ. ووالدةُ الإلهِ الفائقةُ القداسة، الأرفعُ من كلِّ الخلائقِ والتي لا يوجدُ ولن يوجدَ مثيلٌ لها على وجهِ الأرض، لم تقمْ بعَملِ أيِّ شيءٍ يمكنُ أنْ نُشيرَ إليه أو نحدِّدَه بدقَّة. هلْ بشَّرَتْ؟ أبدًا؛ هَلْ أسَّستْ أيَّةَ جمعيَّاتٍ خيريَّة؟ أبدًا؛ الشيءُ الوحيدُ الذي نعرفُه هو

٢٥ كتاباتٌ مجهولةُ الأصلِ نُسبت خطأً لكاتبٍ أو آخر. تحوي حقائقَ نافعةً جدًّا ولكن فيها أخطاء عقائديّة.

أنَّ الكلِّيَّةَ القداسةِ كانتْ في الهيكلِ تُصلّي وتعبدُ اللّه. ثمَّ أُعطِيَتْ لها مهمَّتُها الخاصَّة. لماذا اختيرتْ لتلِدَ المسيح؟ بالتَّأكيد، ليسَ لأنَّها كانتْ مبشِّرةً عظيمة، بلْ لأنَّها كانتْ كلِّيَّةَ القداسة.

هلْ تذكرُ ما قالَهُ المسيحُ للرّسلِ مباشرةً بعدَ قيامتِه؟ اذهبوا وأقيموا في أورَشليم بصمتٍ ولا تعملوا شيئًا وانتظروا حتَّى يجيءَ إليكمُ الرُّوحُ القدس. وأتى في اليومِ الخمسين. لمْ ينطلقوا إلى العالمِ للتَّعليمِ والشِّفاءِ إلاَّ بعدَ أنِ استناروا بحلولِ الروحِ القدسِ عليهم آخذينَ منه التعليماتِ والإرشادات. أراهم المسيحُ الطريق. وهو في مَثَلِهِ هذا يُعلِّمُنا ألاَّ نسلُكَ الدربَ ونُنَصِّبَ أنفسَنا مبشِّرينَ ومعلِّمين، بل أنْ نَنتظِرَ في صمتٍ واختلاء، ونُركِّزَ قلوبَنا وأذهانَنا على علاقتِنا الشخصيَّةِ مَع اللّه حصرًا. بهذِه الطريقةِ إذًا، حينَ يدعُونا اللّه للخُرُوجِ إلى العالمِ في مهمَّةٍ معيَّنة، نكونُ مهيَّأينَ ومسلَّحينَ للقيامِ بها.

لا تنسَ أيضًا يا توماس، أنَّ الرسلَ عاشوا معًا حياةً جماعيَّة. تخلَّوا عن كُلِّ شيءٍ يربطُهم بالعالمِ الماديِّ بسببِ انشغالِهمِ الحصريِّ باللّه. على الصعيدِ الفرديّ، لم يمتلِكْ أيُّ فردٍ منهم شيئًا خاصًّا. عاشوا حياةَ عفَّةٍ وطاعةٍ كلِّيَّةٍ لسيِّدِهِم ومعلِّمِهم. هذا بالضبطِ ما نعملُهُ في الدير. في الحقيقة إذًا، أسَّسَ المسيحُ نفسُه جذورَ الحياةِ الرَّهبانيَّةِ خلالَ حياتِهِ مع الرسل».

أومأَ توماس برأسِه كما لو أنَّه صُعِقَ بومضة: «أجل، أجل».

ثمَّ تابعَ الأبُ: «هذا ما نحاولُ أنْ نفعلَه نحنُ الرُّهبان، نحاولُ أنْ نتَّبعَ ما اقترحَه المسيحُ ونعمَلَ به، نتركَ كُلَّ شيء، نتخلَّى عن كلِّ شيءٍ لنيلِ

الكمال، وننتظرَ زيارةَ القوّةِ المحرِّكَةِ من العلاءِ لنستنير. حينذاك فقط، يُمكنُنا أنْ نعرفَ ما يجِبُ علينا أَنْ نعمَل. فالمسيحُ بذاتِه تكلَّمَ بوضوحٍ حولَ هذا. تذكَّرْ هذا الرجلَ الذي اقتربَ من المسيحِ وسألَهُ: 'يا معلِّم، ماذا يَجِبُ أَنْ أفعلَ لأَخلُصَ؟'، فأجابَه: 'إتبعِ الوصايا'. فسألَهُ الرجل: 'وماذا بعد؟'، أجابَهُ المسيح: 'إذا أردْتَ أنْ تُصبحَ كامِلًا، بِعْ كلَّ ما تملِكُ ووزِّعْهُ على الفقراء'. وفي قصَّةٍ إنجيليَّةٍ أُخرى، نسمعُ عن ذاكَ الرجلِ الذي طلبَ من المسيحِ أنْ ينتظرَهُ حتَّى يَدْفِنَ أباه، وهذا طلبٌ نبيلٌ وطبيعيٌّ جدًّا. فماذا كان جوابُ المسيح؟، 'دعِ الموتى يدفنونَ موتاهم'. بمعنًى آخر، فوقَ كُلِّ الارتباطات، ليسَ من علاقةٍ أسمى وأهمَّ من علاقتِنا مع الله. أَليست هذه دعوةً إلى الاتِّجاه الرهبانيّ؟ أَليستْ بِدايةَ الحياةِ الرهبانيّة؟»

أَضفتُ قائلًا: «بحسبِ ما قرأتُ، الرهبنةُ تنظَّمتْ في القرنِ الثالثِ مباشرةً بعدَ نهايةِ اضطهادِ المسيحيِّينَ وبِداية تنصيرِ الإمبراطوريَّةِ الرومانيَّة. حلَّ الرهبانُ محلَّ الشهداءِ كنماذجَ روحيَّةٍ للدِّينِ الجديد».

أجابَ الأبُ مكسيموس: «صحيح، الرَّهبنةُ كنظامٍ بدأتْ مع القدِّيسَينِ الكبيرَينِ أنطونيوس وباخوميوس في صحراءِ مصرَ، ولاحقًا مع القدِّيسِ باسيليوسَ الكبير، الذي نظَّمَ حياةَ الرهبنةِ المشتركة[٢٦]. لكنَّ المبادئَ الأساسيَّةَ للرَّهبنة، كانت قدْ وُضعتْ مسبقًا على يدِ المسيحِ ورسلِه».

قالَ توماس بطريقةٍ جافَّة: «قالَ المسيحُ لرسُلِه: 'إذهبوا وعلِّموا الأممَ في

٢٦ في هذا النمط، يعيش الرهبان كجماعة واحدة في الدير، تحت قيادةِ الرئيس، حسب قوانين محدَّدة.

العالمَ. لمْ يقُلْ لهم: 'اذهبوا وأقيموا في دير'».

- «أعطى هذه التعليماتِ إلى الرسل. وليسَ المقصودُ أنَّها موجَّهةٌ لكُلِّ الناس».

- «لمَ لا؟»

- «سأُوضِّحُ لك. لكن دَعْني أوَّلًا أسألْكَ شيئًا يا توماس. أنت، كمسيحيٍّ مثلي، لماذا لا تذهبُ إلى الأممِ لتبشِّرَ بالإنجيل؟»

- «حسنًا، عندما يتحدَّثُ المسيحُ عن الأمم، فهو لا يقصدُ بالضرورةِ بُلدانًا أُخرى. يعني أنَّه عليك استعمالُ تلكَ الوزَناتِ التي منحَكَ إيَّاها اللّٰه لمنفعةِ الآخرينَ من حولِك».

- «إذًا، أنتَ تُعزِّزُ كلمةَ اللّٰهِ بينَ مَنْ همْ حولَكَ مِنْ بَشَرٍ، أليس كذلك؟»

- «أحاولُ قدرَ استطاعتي، كنتُ مديرَ مدرسةٍ ثانويَّة، وأعتقِدُ أنَّني قمتُ بواجبي بنصحِ الشَّبابِ لاتِّباعِ طريقِ اللّٰه. عندما يصبحُ أحدٌ راهبًا...».

وقبلَ أنْ يُنهيَ توماس جملتَه، قاطعَتْه زوجتُه نيكي: «لكن أليسَ صحيحًا أنَّ المئاتِ من الناسِ يأتونَ كُلَّ أسبوعٍ إلى هذا الديرِ طلبًا للاستشارةِ والنصحِ الروحيَّينِ لحلِّ مشاكلِهم؟»

إندفعَ توماس مُحدِّدًا القَصدَ من حديثِه: «أنا لا أتحدَّثُ عن الأبِ مكسيموس، بل أتحدَّثُ عن الرَّهبنةِ بشكلٍ عامّ».

قالَ الأبُ مكسيموس: «أصغِ يا توماس، لستُ أنا منْ بدأَ الرّهبنة. كما سبقَ وذكرتُ، الحالةُ الرهبانيّةُ كانتْ نظامًا كنسيًا منذُ البداية. دعْني أسألْكَ سؤالًا. أخبَرَني كيرياكوس أنّكَ تذهبُ إلى الكنيسةِ بانتظامٍ كما أنّك، في الحقيقة، مرتّل. أخبِرْني، هلْ تُكرّمُ القدّيسين؟»

- «بالطبع!»

- «لكنْ يا عزيزي توماس، أغلبُ القدّيسينَ جاؤوا منْ صفوفِ الرهبان. إذًا، أنتَ تُكرّمُ القدّيسينَ، لكنّكَ لا تَقْبلُ النظامَ أو المنهجَ الذي صيّرَهم قدّيسين. أليسَ هذا تناقُضًا واضحًا؟ تذكّرْ جيّدًا، فالكنيسةُ لم يكنْ الرُّسلُ وحدَهم قِوامَها. مَنْ كانَ يوحنّا المعمدان؟ ناسكًا، أليسَ كذلك؟ والمسيحُ نفسُه، بالطبع، أمضَى العديدَ منَ الأيّامِ في الصحراء».

- «يوحنّا المعمدان أعدَّ طريقَ المسيح. زحفَ الناسُ نحوَ الصحراءِ لسَماعِه. كانَ شجاعًا وأدانَ فسادَ المتسلّطينَ والمتكبّرين».

- «أفهمُ من ذلكَ أنّكَ توافقُ ما فعلَهُ النسّاكُ والأنبياء».

- «طبعًا».

- «إذًا، لماذا تجدُ صعوبةً في تقبُّلِ العملِ الذي نقومُ به نحنُ الرُّهبانَ هنا؟»

- «أنا لا أنتقِدُك شخصيًّا. بالتأكيد، أنتَ تساعدُ الناسَ وأنا لذلكَ أحترمُك».

- «لكنْ قَبْلَ مجيئي إلى قبرص، يا توماس، عِشتُ في قلّايةٍ وحدي، منقَطِعًا كلّيًا عن العالم، في صلاةٍ دائمة. فأنا قرَّرتُ الذَّهابَ إلى جبلِ آثوسَ لأصبحَ راهبًا، لا لأتعلَّمَ كيفَ أصيرُ واعظًا أو مبشِّرًا. وعودتي إلى قبرص، كانت معاكِسَةً تمامًا لرغَبَاتي وأُمنياتي الشخصيّة».

قالَ توماس، مُبرِزًا نقطةَ تحوُّلٍ في موقفِهِ نحوَ الأبِ مكسيموس: «اللهُ وَضعَكَ هنا لمهمّةٍ خاصّة».

- «أنا لا أعرفُ ذلك. على أيّةِ حال، ما أعرِفُهُ هو أنَّه لم تكنْ لديَّ أيّةُ نيّةٍ أبدًا لأُصبِحَ مُرسَلًا، وينتهيَ بِيَ الأمرُ مُعرّفًا لآلآفِ الناس. لو بقِيتُ في قلّايتي في جبلِ آثوس، وهذه رغبتي الدّفينة، لما كنتُ عانَيتُ من كُلِّ هذه المشاكلِ التي أنا فيها اليوم. ولمَا كنتُ عانَيتُ من أناسٍ يلاحقونَني عِطاشًا ليشربوا دمي!»

سادَ صمتٌ لِبضعةِ ثوان، ثمَّ تابعَ الأبُ مكسيموس: «دعْني أسألْكَ السُّؤالَ التالي يا توماس: هل يحقُّ لنا أنْ نعارضَ رغبةَ شخصٍ قرَّرَ تكريسَ حياتِهِ حصرًا لحبِّ الله؟»

أجابَ توماس وفي صوتِهِ ارتعاشٌ: «حسنًا، ليس بالضرورةِ أن أقولَ لا. على أيّةِ حال، أنا لستُ واثقًا إلى حدٍّ ما بشأنِ هذا الموضوع. هل يحقُّ للشخصِ بسببِ حُرّيّتِه في التصرُّفِ أنْ يُوقِعَ القلقَ النفسيَّ والألمَ في قلوبِ أفرادِ عائلتِه؟»

تابعَ الأبُ مكسيموس دالاً على زوجةِ توماس: «دعْني أسألْك سؤالًا

آخر. أنتَ متزوِّجٌ من نيكي. إفترضْ أنَّ والدتَكَ أتتْ إليكَ وأخبرَتْك: 'يا ابني العزيز، إمَّا أنْ تُطلِّقَ امرأتَكَ أو سأَنتحر'. بالمناسبة، واجَهْتُ حالاتٍ عدَّةً تتطابقُ وهذا الافتراضَ أثناءَ الاعترافات. لذا، 'إمَّا أنْ تَتْركَ امرأتَكَ أو أنِّي سأشربُ سُمًّا'، فكيفَ ستتصرَّف؟»

- «سأُخبِرُ أمِّي بأنَّها مخطئة. وما تطلبُهُ منِّي غيرُ أخلاقيّ».

- «جيِّدٌ للغاية. إذًا، ألا تظنُّ أنَّ الأمرَ مماثلٌ مع الرهبانِ والراهباتِ؟ ألا يحقُّ لهم اختيارُ طريقةِ عيشِهم، وشريكِ حياتِهم المحبوب؟»

- «لستُ أخالفُكَ الرَّأيَ بالضرورة، ولهذا تدخَّلتُ مع هذه العائلةِ بالتحديدِ وحاولتُ تهدِئَتَهم».

سارعتْ نيكي في القولِ باندفاعٍ شديد: «لكن، لم يهدأوا».

وعَدَ توماس: «سأبذلُ كلَّ ما في وسعي لإقناعِهم ولمُساعدَتِهم على فهمِ الوضع».

من ثمَّ، أعلنتْ نيكي بانفعالٍ شديد، وهي النَّاشطةُ في منظَّمةٍ ضدَّ العنفِ المنزليّ: «في بلادِنا هناكَ فكرةٌ سائدةٌ أنَّ الأولادَ هم مُلكيَّةُ الأهلِ وبأنَّهم لا يَملكونَ الحقَّ لأخذِ أيَّةِ قراراتٍ بأنفسِهم، حتَّى ولو بلغوا سنَّ الرشد. ويطالبُ الأهلُ بحقِّهم في تحديدِ أيِّ خطوةٍ متعلِّقةٍ بزواجِ أولادِهم، أو توجُّهِهم العلميّ، أو حياتِهم بشكلٍ عامّ. ويراقبونَ حياةَ أولادِهم على نحوٍ مستبدٍّ إلى أنْ يفارقوا هم الحياة. إنَّ أبناءَ الجيلِ الجديدِ في بلادِنا لم يدركوا بعدُ أنَّهم أحرارٌ في

حياتِهم الخاصّة، وبأنَّ لديهم ملكيَّةً لبَعْضِ حقوقِ الإنسانِ التي لا يحقُّ لأحدٍ سواهم أنْ يتصرَّفَ بها. وهذا الوضعُ المتوارَثُ يخلقُ العديدَ من المشاكلِ ضمنَ العائلاتِ في بلادِنا».

أومَأ الجميعُ برؤوسِهم موافقين.

وتابعَ الأبُ مكسيموس: «أعزّائي، طرحتُم سابقًا سؤالًا يفيدُ: 'هل يصلُحُ المجروحونَ والمضطربون نفسيًّا للرَّهبنة؟'، لكنْ، أيُّ شخصٍ مطَّلعٍ على طبيعةِ الحياةِ الرَّهبانيَّة، يعرفُ أنَّها، من وجهةِ نظرِ المفهومِ الزمنيِّ للأمور، حياةٌ قاسيةٌ وصعبةٌ تتضمَّنُ القليلَ جدًّا من التَّعزياتِ الجسديَّةِ والراحة. نحنُ نستيقظُ عند الثالثةِ والنصفِ فجرَ كلِّ صباحٍ ونقيمُ القدَّاسَ الإلهيَّ حتَّى الثَّامنةِ صباحًا. وفي فترةِ الصَّومِ الكبيرِ الذي نعيشُه الآن، لا نأكلُ إلاَّ مرَّةً واحدةً في اليومِ تمامَ الساعةِ الواحدةِ والنصفِ من بعدِ الظهرِ بعدَ الانتهاءِ من خدمةِ صلاةٍ تدومُ ساعتَين. ووجبةُ الغداءِ الوحيدةُ التي نأكلُ تقتصِرُ على مأكولاتٍ خفيفةٍ وبسيطةٍ جدًّا. في السَّادسةِ من بعدِ الظهرِ، نعود ثانيةً إلى الكنيسة. ونبقى من دونِ أيِّ طعامٍ حتَّى اليومِ التالي. غدًا نقيمُ سهرانيَّةً، وهي صلاةٌ تدومُ طوالَ الليلِ وحتَّى ساعاتِ الفجرِ الأُولى. والبرنامجُ نفسُهُ يتكرَّرُ يومَ الإثنين. نصلِّي باستمرارٍ ونعملُ مئاتِ المطَّانيّات (أي السجَدات) أمامَ الإيقوناتِ المقدَّسة. ليسَ لدينا ممتلكاتٌ خاصَّة، ولا مال. إذًا، ماذا بالإمكانِ أنْ نقدِّمَ هنا إلى شابٍّ لكي نُغوِيَهُ بالرهبانيَّة؟ خصوصًا في أيّامِنا هذه حيثُ اعتادَ الشبابُ على حياةِ رخاءٍ وراحةٍ جسديَّة، وسَفَرٍ إلى الخارج، وتمضيةِ الوقتِ في المقاهي والملاهي الليليَّة، ومُتَعٍ دنيويَّةٍ أُخرى؟ هل تعتقِدُ أنَّ حياةَ الشابِّ المبتدِئِ هنا في الديرِ

سهلة؟ أيُّ فتًى تعَوَّدَ على أكلِ الهامبرغر والبيتزا وشُربِ الكوكاكولا وغيرِها من المرطِّبات، يحتاجُ إلى وقتٍ طويلٍ وعصيبٍ ليَعتادَ على الخضارِ والحبوبِ المسلوقة، وهذا ما نَأْكلُ هنا في الدير. بالإضافةِ إلى ذلك، مطلوبٌ من كلِّ مبتدِئ الذهابُ إلى الحقلِ للحراثةِ والزراعة. من ثمَّ، عليه أنْ يأخذَ المِكنسةَ وينظِّفَ الساحة. وهو يقومُ بهذهِ المهامِ مرتديًا مِئزرًا باليًا قديمًا على مرأى الزوّارِ والأقرباء. هل تدرِكُ صعوبةَ هذا الاختبارِ الذَّليل؟ أتعتقِدُ أنَّ أيَّ شابٍّ مصابٍ بإحباطٍ أو بخيبةِ أملٍ في الحياةِ أو هو في حالةِ انهيارٍ نفسيٍّ، لديه القدرةُ على التحمُّلِ والانضباطِ اللازمَينِ لخوضِ مثلِ هذا الاختبارِ والتدريب؟»

أجابتْ نيكي: «بالتأكيدِ لا»، فيما تمتمَ زوجُها موافقًا.

وأضافَ الأبُ مكسيموس: «شخصٌ كهذا سيهْرُبُ من الدَّيرِ في بضعةِ أيّام، إذ سيكونُ في حالةِ جهادٍ روحيٍّ مستمرٍّ. هذا ليسَ مكانًا للاستراحةِ والاسترخاءِ والاستمتاعِ بالشَّمس. مفروضٌ عليهِ أنْ يخضَعَ لنظامِ الديرِ ويلتزمَ به. هل يمكنُهُ الحضورُ في الوقتِ المحدَّدِ للمشاركةِ في الخِدَمِ التي تبدأُ عندَ الرابعةِ صباحًا؟ إنْ لم يستطِع، فعلَيه أنْ يتركَ حياةَ الرهبنة».

تذكَّرْتُ أنّه سبقَ لي أنْ سألتُ الأبَ مكسيموس عنِ الشُّروطِ المُسبقةِ لقَبُولِ شخصٍ كراهبٍ مبتدِئٍ في ديرِه. شرحَ لي حينذاك، أنّه أوَّلًا وقبلَ كلِّ شيءٍ مطلوبٌ ألاَّ يعاني المبتدِئُ المتوقَّعُ التحاقُه بالديرِ من أيَّةِ مشاكلَ نفسيَّة. أكثرُ أمرٍ يُزعِجُ هو وجودُ رهبانٍ مضطربينَ عقليًّا ضمنَ الشركةِ الرهبانيَّة. فهؤلاءِ يُلحقونَ الضَّررَ بأنفسِهم ويُسبِّبون فوضَى في الدير. مثلُ هؤلاءِ الأفرادِ يجِبُ

ألّا يُصبِحوا رهبانًا، فالديرُ ليسَ مصحًّا عقليًّا. يجبُ أن تُقْبَلَ فقطِ الشخصيَّاتُ الناضجةُ الثابتةُ الخُطى. لذا، فإخضاعُ الشخصِ لاختبارِ صلاحيَّةٍ دقيقٍ ووافٍ، قبلَ قبولِهِ كمبتدئٍ في الدَّيرِ، أمرٌ مهمٌّ للغاية. شرطٌ آخرُ يُوازي في أهمِّيَّتِه الشرطَ الأوَّل، هو أنْ يكونَ الشخصُ الراغبُ في الالتحاقِ بالديرِ مَغْمورًا بحبِّهِ للّهِ ومتعطِّشًا لمعرفةِ اللّهِ والاتِّحادِ به. عدا ذلك، يجبُ ألاَّ يكونَ لأيِّ شيءٍ آخرَ أهمِّيَّةٌ في حياةِ المبتدئ.

توماس، الذي أظهرَ إشاراتٍ واضحةً حتَّى الآنَ، تُفيدُ تحوُّلًا في ذهنِهِ وقلبِهِ نحوَ الأبِ مكسيموس، سألَ بشكلٍ مدروسٍ إنْ كانَ تركُ المرءِ مهامَهُ ونشاطاتِهِ الدنيويَّةَ لينْضمَّ إلى ديرٍ، هو شأنٌ يستحقُّ العَناءَ المبذولَ في سبيلِه: «إذا كانَ الجوابُ نعم، يمكِنُ من ثمَّ للأهلِ أنْ يقولوا: حسنًا، عيشُ ابنِنا أو ابنتِنا في الديرِ شأنٌ يستحقُّ التَّضحيةَ من قِبَلِ عائلتِنا. لكنْ إنْ كان دونَ جدوى، فلماذا تهدُرُ ابنتي حياتَها على هذا النحو؟»

أجابَ الأبُ مكسيموس: «حياةُ الراهباتِ والرهبانِ والنسَّاكِ خيرُ جوابٍ عن هذا السؤال. إذا كنَّا نحنُ الرهبانَ لم نُدرِكْ توقُّعاتِنا وما نرجوه هنا، أتظنُّ أنَّه في استطاعتِنا أنْ نبقى ونستمرَّ في هذا الإطارِ الحياتيِّ الصعبِ والمتقشِّف؟ ماذا يكونُ الهدفُ والقصدُ منه؟ خُذْ حالَتِي على سبيلِ المثال. كنتُ في الثامنةَ عشرةَ من عمري حينَ قرَّرْتُ الذهابَ إلى جبلِ آثوس للترهُّب. أنْ تكونَ راهبًا، لا يعني أنَّك تفتقِدُ للرغباتِ الطبيعيَّةِ التي لأيِّ رَجُل. تتمنَّى أيضًا أنْ تعيشَ مع امرأة، أنْ تَخرُجَ وتتمتَّعَ بالحياةِ بحسبِ المفهومِ العامِّ للحياة. لدَيكَ كُلُّ الرغباتِ الجنسيَّةِ التي يشعرُ بها كلُّ واحدٍ منَّا، ومثلَ أيِّ شخصٍ آخرَ أنتَ

تحِبُّ يومًا ما أنْ تتزوَّجَ وتؤسِّسَ لكَ عائلة. أنْ تصيرَ راهبًا لا يعني أنَّكَ تتجاوزُ أوتوماتيكيًّا رغباتِكَ وطموحاتِكَ الإنسانيَّة.

رغمَ ذلك، هنالِكَ قوَّةٌ أُخرى تَسْحَبُك في اتِّجاهٍ معاكس، وهي اختبارُ المسيح. عندما ندخلُ الديرَ نتساءل: 'هلْ سأَجِدُ ما أبحثُ عنه؟'، أَو 'انسَ الأمر، اخلعْ عنكَ هذا الغمبازَ الأسود، ابحثْ عن إمرأة، تزوَّجْ منها، أنجِبْ أولادًا وعشْ حياتَكَ كأيِّ إنسانٍ عاديٍّ آخر'. فالراهبُ لا يملِكُ شيئًا، ولا فلسًا واحِدًا. رغمَ ذلك، نبقَى. لا، بل نحْنُ مُنجَذِبونَ إلى هذه الحياة. فهي تملأُنا بسحرٍ لا يوصفُ وتُنعِشُنا حتَّى بعدَ مرورِ عشرين، وثلاثين، أو أربعينَ سنةً من بدءِ سلوكِنا هذه الطريق. قابلتُ بعضَ رهبانٍ مسنِّين، ناهزوا الثمانينَ من العمر، وهم لا يزالونَ مُتحمِّسينَ لخوضِ غمارِ الحياةِ الرهبانيَّة. أنا راهبٌ منذُ عشرينَ سنة، ولم أشعرْ يومًا بالتَّعبِ أو المللِ من هذا النمطِ الحياتيِّ. ما سئمتُ أبدًا، وما شعرْتُ مرَّةً أنَّ حياتي رتيبةٌ، ما كانَ لديَّ أيَّةُ شكوكٍ حولَ صحَّةِ قراري بأنْ أُصبحَ راهبًا. أبدًا! أشعرُ أنَّ حياتي هي في حركةٍ مستمرَّةٍ نحوَ المسيح. إنْ لم يكنْ هذا هو واقعَ الحال، لَما بقِيتُ لا أنا ولا غيري من الرهبانِ في الدير. فبقاؤنا يكونُ فعلًا أحمقَ وبلا معنًى بالتأكيد. لماذا علينا أنْ نُقاسيَ كُلَّ هذا الحرمانِ والتقشُّف؟ ألا أُحْسَبُ أبلهَ لِبَذْلي كلَّ هذا الجهادِ دونَ أيِّ كسبٍ روحيٍّ ملموس؟ لذا، فالجوابُ على سؤالِكَ هو حياتُنا الفعليَّة. كلُّ واحدٍ مِنَّا جوابٌ في حدِّ ذاتِه».

بانَ انفعالُ توماس في صوتِه قائلًا: «أُقدِّرُ وأحترمُ كثيرًا إخلاصَكَ وعزمَكَ، لكن ما عرضْتَهُ الآن ليس إلاَّ مَرْثاةً للحياةِ الروحيَّة».

- «أرجو منكَ أنْ تكونَ على يقينٍ من أنّني لا أُقلّلُ في أيّةِ حالٍ من أهمّيّةِ الحياةِ الزوجيّة. أُكرّمُ وأحترمُ حرّيّتَكَ لعَيشِ حياةٍ زوجيّةٍ عاديّة. في نفسِ الوقت، أتوقّعُ منكَ أنْ تكرّمَ وتَحترمَ اختياري في الحياةِ وتسمحَ للرهبانِ والراهباتِ بقيادَةِ حياتِهم كما اختارُوها هم طوعًا بإرادةٍ حرّة».

سألَه توماس وقد بدا شاردَ الفكرِ: «دعْني أسألْكَ سؤالًا آخرَ. أيُّهما أكثرُ نفعًا للمجتمعِ، الطبيبُ أم الراهبُ؟»

إبتسمَ الأبُ مكسيموس ابتسامةً عريضةً وتنهَّدَ: «سُئلتُ هذا السؤالَ من قبل. ماذا تُقدّمُ الرهبانيّةُ إلى المجتمع؟ حسنًا، هذا السؤالُ من خاصّيّةِ طريقةِ التفكيرِ الحديث. إنّه توجيهٌ ناشِطٌ نحوَ العالم. كُلُّ فِعْل، كُلُّ شخص، مَحكومٌ عليه على أساسِ دورِه ومساهمتِه في المجتمع. يَحُثُّ الآباءُ أولادَهم ليبرَعوا ويتفوّقوا كي يكونوا ذوي فائدةٍ ومنفعةٍ للمجتمع. إستنادًا إلى تقليدِنا الروحيّ أُفضِّلُ أَوّلًا وقبلَ كلّ شيءٍ رؤيةَ الإنسانِ من ناحيةِ مَنْ هو في حقيقتِه، وبعدَ ذلكَ فقط، أراه من ناحيةِ مساهماتِهِ في المجتمع. خلافَ ذلك، نحنُ نُجازفُ بتَحويلِ الناسِ إلى آلاتٍ تُنتِجُ أشياءَ مفيدةً ونافعة. فماذا إذا كنتَ لا تُنتِجُ أشياءَ مفيدة؟ هل يعني ذلك أنّه يَجِبُ نَبذُكَ كشَيءٍ عديمِ الفائدة؟ أخشى أنْ تكونَ الإنسانيّةُ المُعاصِرةُ بتوجيهِها هذا قد قَوّضَتِ القيمةَ المتأصّلَةَ للشخصِ الإنسان. اليومَ نُقَيّمُ أنفسَنا لا وَفقًا لِمَنْ نحنُ في الحقيقةِ بل وَفقًا لمقدارِ مساهمتِنا. وفي أغلبِ الأحيان، هذا التقييمُ الذاتيُّ يؤدّي إلى مشاكلَ نفسيّةٍ من كلِّ شكلٍ ونوع. أرى وألمسُ هذا دائمًا أثناءَ جلساتِ الاعتراف.

مَنْ يستنِدُ مِن الناسِ على مثلِ هذه المعاييرِ النفعيَّةِ ينظرُ إلى الرهبانيَّةِ وينتهي إلى أنَّها عديمةُ النفع، لذا يجبُ أنْ تُطرحَ جانبًا. لكنْ إنْ كنَّا على استعدادٍ لتوظيفِ معاييرَ مختلفة، سنرى أنَّ الرهبانيَّةَ تُقدِّمُ إلى الإنسانيَّةِ الهِبَةَ الأسمَى والتي قد لا يُدرِكُها الفردُ المعاصر».

* * *

مناظرةُ الأبِ مكسيموس ذكَّرتْني بحالةِ الأبِ صفرونيوس، الشيخِ الروسيِّ المشهورِ الذي تَركَ جبلَ آثوس عام ١٩٤٧، مع بعضِ الرهبان. طَلَبَ تأشيرةَ دخولٍ إلى إنكلترا لتأسيسِ ديرٍ هناك. رُفِضَ الطلبُ في بادئِ الأمر، استنادًا إلى مبدإٍ أنَّ الرهبانَ ليسَ لديهم شيءٌ يقدِّمونَهُ إلى إنكلترا. تبدَّلَت الآراءُ حينَ طرحَ أحدُ أعضاءِ الجهازِ الحكوميِّ المسؤولِ عن مَنْحِ تأشيراتِ الدخول، السؤالَ التالي: «ماذا كانت ستفعلُ الحكومةُ إنْ وصلَ يسوعُ بصحبةِ رسلِه الاثْنَيْ عشرَ إلى إنكلترا وطلبَ تأشيرةَ دخول؟». نجحَتْ حُجَّتُهُ في إصدارِ قرارٍ بالأغلبيَّةِ ومُنِحَ الأبُ صفرونيوس تأشيرةَ دخولٍ إلى إنكلترا. في عام ١٩٥٩، أسَّسَ الشيخُ الآثوسيُّ مركزًا روحيًّا مزدهِرًا حيثُ راهباتٌ ورهبانٌ مِن جنسيَّاتٍ مختلفةٍ يواصلونَ عمَلَهم إلى اليوم. ذكَرْتُ الحالةَ إلى الأبِ مكسيموس الذي عرفَ الأبَ صفرونيوس شخصيًّا وكان قد زارَ ديرَه. الراحلُ صفرونيوس بنى الديرَ في إسِكْس من بعدِ استنارةٍ سرِّيَّةٍ كَشَفَتْ له موقعَ إنشاءِ الديرِ بالتحديد[٢٧].

تابعَ الأبُ مكسيموس حديثَهُ بعدَ أنْ عبَّرَ بكلماتٍ موجَزَةٍ عن مدى

---

٢٧ الأرشمندريت صفرونيوس (سخاروف)، معاينة الله كما هو، نقلته إلى العربيّة الأمّ مريم (زكّا) - منشورات النور - ١٩٨٩، منشورات التراث الآبائيّ - ٢٠٠٣

إعجابِه بالأبِ صفرونيوس: «إذًا، إليكَ جوابي على سؤالِكَ يا توماس. أَوْكَلَ اللّٰه لِكُلِّ شخصٍ مهمّةً معيَّنة، واجبًا مُحدَّدًا. أنا لستُ طبيبًا. أنا مرشِدٌ وأبٌ روحيٌّ، وغيري طبيب. كيرياكوس أستاذٌ جامعيٌّ وأنتَ أستاذُ لغةٍ إنكليزيَّةٍ ومديرُ مدرسةٍ ثانويَّةٍ سابق. كُلُّ شخصٍ يقودُ حياتَه بموجِبِ المهمّةِ التي أَوكلَها اللّٰه إليه. لا يمكنُ للساقِ أنْ تقولَ لليَد: 'أنا لستُ بحاجةٍ إليكَ'؛ ولا العينُ للأُذُن. حينَ نطرحُ السؤالَ: 'مَنْ يُساهِمُ أكثر؟'، فنحنُ نُثيرُ مشكلةً صعبةً لأنَّ طبيعةَ السؤالِ في حدِّ ذاتِها هي نظريَّةٌ مشكوكٌ فيها. لماذا؟ لأنَّه، كما سبقَ وذَكَرتُ، يجبُ ألاّ نُقَيِّمَ الإنسانَ على أساسِ مساهماتِهِ وما يُقدِّمُهُ لمنفعةِ المجتمع، لكنْ على أساسِ مَنْ هو كفرد. هذا هو جوهرُ الروحانيَّةِ المسيحيَّة».

أشارَ توماس: «الاستعارةُ التي أشرتَ إليها، أيْ أنَّ الساقَ تساعِدُ اليَد، تُشيرُ ضِمنًا إلى تعاونٍ بينَ أطرافِ الجسمِ المختلفة».

- «إنّه أمرٌ بديهيّ».

- «هل الرَّهبانيَّةُ كائنةٌ بهذا الشكلِ ضمنَ النظامِ العامِّ للمجتمع؟ أعْني ما هي مساهمتُها وعلاقتُها بالكلّ؟»

- «ها إنَّكَ تعودُ وتطرحُ السؤال»، قالَ الأبُ مكسيموس مع ضحكةٍ هادئة. وبنبرةٍ متشدِّدَةٍ في صوتِه، تابعَ حديثَه: «سأوضحُ لك. الرَّهبانيَّةُ تُبْقي اختبارَ الحياةِ في المسيحِ حيًّا، على نحوٍ نقيٍّ صَرْفٍ دونَ تزييف. إنَّها الفُسحةُ التي يتحرَّرُ ضمنَها الإنسانُ من كلِّ احتياجاتِهِ البيولوجيَّةِ واهتماماتِهِ الزمنيَّةِ ليُعيدَ توجيهَ تركيزِه وطاقتِهِ نحوَ انشغالٍ حصريٍّ بحقيقةِ اللّٰه. إفترضْ أنّي

مُتزوِّج، فسوفَ أكونُ ملتزمًا بالذهابِ إلى العملِ والاعتناءِ بأولادي، وبجمعِ المالِ لتأمينِ تعليمِهم... بكلمةٍ أُخرى، سيكونُ لديَّ الكثيرُ منَ الاهتماماتِ والأعباءِ الدنيويَّة. وأنا أحترمُ كُلَّ ذلك، فهذهِ مهامٌ مبارَكة. ولكنْ ما هي اهتماماتي الآن؟ بالتأكيدِ اهتماماتٌ كثيرةٌ وكثيرةٌ جدًّا. ولكنْ ما طبيعتُها؟ لديَّ الآنَ خِدَمٌ كنسيَّة، اعترافاتُ مئاتِ الناس، عظاتٌ ومُناقشاتٌ حولَ طبيعةِ الحياةِ الروحيَّة. وفي إمكاني القيامُ بكُلِّ هذه الأشياءِ لأنِّي لستُ مُلزَمًا وغيرُ مرتبطٍ باهتماماتٍ دنيويَّة.

أتَرى، كُلُّ شخصٍ منَّا يساهمُ وَفقًا لطبيعةِ مهامِه. لا يمكِنُ لأحدٍ منَّا أنْ يَرى عملَ الكَبِدِ داخلَ الجسم. رغمَ ذلك، فمساهمتُهُ متعدِّدةٌ ومُهمَّةٌ جدًّا. يعملُ القلبُ دونَ انقطاعٍ وبشكلٍ هادئ، رغمَ ذلك إنْ توقَّفَ، يموتُ الجسم».

تدخَّلتُ هنا قائلًا: «إن البيبليوغرافيا المتراكمةَ عن حياةِ القدِّيسينَ وخبرتِهم هي شهادةٌ حيَّةٌ راسخةٌ لما يقولُهُ الأبُ مكسيموس». وبينما أومأ الأبُ مكسيموس برأسِهِ موافِقًا، تابعتُ مُداخلتي: «كتاباتُهم وأعمالُهم تُساعِدُ عددًا عظيمًا من الناسِ في حياتِهم اليوميَّة. القدِّيسونَ شهودٌ على حقيقةِ اللّٰه، يمنحونَ العزاءَ للناسِ الذين ليس بمستطاعِهم تَرْكُ انشغالاتِهم الزمنيَّةِ والانضمامُ إلى الأديرةِ أو أن يُصبحوا نسَّاكًا بحثًا عن اختبارٍ مباشرٍ في الإلهيَّات. يبدو لي أنَّ شهادةَ القدِّيسينَ الحيَّةَ تُقدِّمُ إلى العديدِ من الناس، وأنا ضمنَهم، برهانًا غيرَ مباشرٍ عن حقيقةِ اللّٰه. عبرَ القرون، شهِدَ الأنبياءُ والقدِّيسونَ من خلالِ معجزاتِهم وحياتِهم الشخصيَّةِ عن حضورِ اللّٰهِ الحيّ، ومن دونِهم كانَ يمكنُ أنْ يكُونَ اللّٰه لا شيءَ أكثرَ من تجريدٍ فلسفيّ».

ما كدتُ أُكمِلُ حديثي حتّى دخلَ الغرفةَ بخفرٍ راهبٌ مبتدِئٌ ذو لحيةٍ سوداء، في أوائلِ الثلاثيناتِ من العمر، مرتديًا ملابسَ عاديّةً، وسألَ إنْ كنّا نرغبُ في تناولِ المرطّبات. كونَه مبتدِئًا، أُوكلتْ إليه مهمّةُ مساعدةِ الأبِ أرسانيوس في الاهتمامِ بالضيوفِ في الدير. عرَّفَنا بهِ الأبُ مكسيموس. يُدعى أندرياس وهو طبيبٌ متدرِّبٌ قرَّرَ التخلّي عن مهنتِهِ والانضمامَ إلى الدير. كانتَ مفاجأةُ توماس وحيرتُهُ كبيرتَين، لكنَّه لم يضيِّعِ الوقتَ وسارَعَ بِطرحِ سؤالٍ صائب:

- «أندرياس، لو بقِيتَ تزاولُ مهنتَكَ كطبيب، بموازاةِ ممارستِكَ لدِينِك، ألا تعتقدُ أنّكَ كنتَ ستُنجِزُ بذلك مهمّةً مضاعفة: خلاصَ الناسِ على صعيدِ الجسدِ كطبيبٍ، وعلى صعيدِ الروحِ كشخصٍ مؤمن؟ لماذا تخلّيْتَ عن الواحدةِ للتركيزِ حصريًّا على الأُخرى؟»

أجابَ الطبيبُ الشابُّ، مع تردُّدٍ ملحوظٍ في صوتِه، أنّه لو بقيَ في العالم لكانَ سيعيشُ معذّبًا لأنَّ طاقةً قويّةً داخلَه سَحبَتْه إلى الحياةِ الرهبانيّة. فهو لم يَجِدْ في العالمِ ما كانَ يبحثُ عنه.

مضَتْ عشرةُ أشهرٍ على أندرياس كمبتدِئ. وأوضحَ الأبُ مكسيموس أنَّ أندرياس لا يُعَدُّ بعدُ راهبًا، فالأمرُ يتطلَّبُ وقتًا أطولَ قبلَ أن يتقرَّرَ إنْ كانَ في مقدورِه أن يرتديَ الثوبَ الرهبانيّ.

أضاف الأب مكسيموس: «بإمكانِه أنْ يخرجَ من الديرِ أيَّ وقتٍ يشاء. رجاءً يا توماس، أخبِرْني كيف يمكنُ أنْ أستدرِجَ إلى الرهبنةِ شخصًا درسَ

وتدرَّبَ لأكثرَ من ستِّ سنواتٍ ليصيرَ طبيبًا، وعاشَ في العالمِ بينَ زملاءَ له من رجالٍ ونساء؟!»

أجابَ توماس، وقدِ انطبعتْ على وجهِه علاماتُ الإعجابِ والتأثُّر: «لا أعتقدُ أنَّه بإمكانِك أنْ تفعلَ ذلك». ثمَّ التفتَ نحو أندرياس، الذي كانَ على وشكِ تركِ الغرفة، وأضافَ بصدق: «سُرِرْتُ حقًّا بلقائِك».

أبدى توماس إعجابَه بأندرياس بعدَ مغادرةِ هذا الأخيرِ الغرفة. من ثمَّ، أضافَ الأبُ مكسيموس أنَّ مئاتِ الناسِ يأتونَ كُلَّ أسبوعٍ إلى الديرِ لإيجادِ العزاءِ من خلالِ الاعترافِ والاشتراكِ في الصلواتِ والخِدَم. وهذه هي المساهمةُ الحيَّةُ الملموسةُ للديرِ في المجتمع.

نهضَ توماس عن مقعدِهِ وقال: «أبانا مكسيموس، أخذْنا الكثيرَ من وقتِك. شكرًا لك. كنْ متأكِّدًا أنَّني سأبذُلُ كلَّ ما في وسعي لمصالحتِكَ وأهلَ روزا وإعادةِ السلامِ بينَكما. فهم يحترمونَني وأَعتقدُ أنَّ بإمكاني إقناعَهم».

رافقَ الأبُ مكسيموس نيكي وتوماس إلى السيَّارة. صافَحَ توماس الأبَ مكسيموس وبدا كأنَّه شخصٌ آخر، شخصٌ تحوَّلَ تحوُّلًا ملموسًا. وبعدَ مغادرتِهما، كانت لي محادثةٌ قصيرةٌ مع الأبِ مكسيموس، الذي قالَ وهو يهزُّ رأسَه: «الناسُ ينزعجونَ كثيرًا ويضطربونَ لأنَّ بضعةَ رجالٍ ونساءٍ قرَّروا أنْ يُصبحوا رهبانًا وراهبات، مع ذلكَ هم بالكادِ يقلقونَ بشأنِ الآلافِ الذين يُدمنونَ على المخدِّرات. أليسَ هذا مثيرًا للعجبِ والدهشة؟»

في عصرِ ذلك اليوم، تنزَّهْتُ في طُرقاتِ الجبلِ المحيطِ بالديرِ وفكَّرتُ

في معنى لقائِيَ العَرَضيّ مع توماس واقتراحيَ العابرِ لزيارتِه الأبَ مكسيموس واللقاءِ به. كانَ صمتٌ في الجبل، يخترقُ سكونَه حفيفُ أشجارِ الصنوبرِ الملطِّفَةِ الهادئةِ وأوراقِ الأشجارِ التي تنسحقُ تحتَ قدميّ. المحيطُ مثاليٌّ للتأمُّلِ والتفكُّر. ها أنا مقيمٌ كضَيفٍ في الديرِ لأكثرَ من أسبوع. جاهدتُ لمتابعةِ برنامجِ الرهبانِ اليوميّ بجِدٍّ، أستَيقِظُ فجرَ كلِّ نهارٍ في الثالثةِ والنصفِ للاستعدادِ للصلاةِ في تمامِ الساعةِ الرابعةِ فجرًا. في بادِئ الأمر، ما كانتْ مهمَّةً سهلةً، لكنْ مع مضيِّ اليومِ الثالثِ بدأتُ في التأقلمِ مع «روتينِي» الجديدِ لا بل أصبحتُ أتَطلَّعُ بشوقٍ إلى صلواتِ وتراتيلِ سَحَرِ كلِّ صباح. هناك إلْهامٌ ورِعٌ رهيبٌ في النهوضِ معَ إشراقِ كلِّ صباحٍ والنجومُ وحدَها تلمعُ دونَ أيَّةِ مشاركةٍ ضوئيَّةٍ أُخرى تُعكِّرُ صفاءَ سماءِ الليل، والأصواتُ الوحيدةُ المسموعةُ هي خطواتُ الرهبانِ السريعةُ بينما يتوجَّهونَ إلى الكنيسةِ للخدمةِ التي تدومُ أربعَ ساعات. الغريب، تمامًا كتجربتي في جبلِ آثوس، أنَّ الطقوسَ والتراتيلَ الطويلةَ في عتمةِ الكنيسةِ أعطتْني زخمًا وحيويَّةً كبيرَينِ ما كنتُ سأكتسبُهما أبدًا بساعاتِ نومٍ إضافيَّةٍ في الصباح، والتي يمكنُ على أيَّةِ حالٍ التعويضُ عنها أثناءَ استراحةِ العصر. والأكثرُ دهشةً هو أنّني في الحقيقةِ ولأسبابٍ غامضة، ما شعرْتُ بالمللِ قطُّ أثناءَ خِدَمِ الصباحِ الطويلة. إذْ شاركتُ في الصلواتِ التأمُّليّةِ الجماعيَّةِ التي كان لها أثرٌ كبيرٌ على قوامِ ذهني وحوَّلَتْ مفهوميَ عن الوقت.

عُدتُ إلى الدير، وهم على وشكِ أنْ يُغلِقُوا البابَ الخارجيّ. أثناءَ صلاةِ الغروبِ في تلك الليلة، أبقَيْتُ عينَيَّ مُثبّتتَين على إيقونةِ السيِّدة، الذخرِ المقدَّسِ الأساسيّ في الديرِ، والتي يُعْتَقَدُ أنّها عجائبيّة. في عتمةِ الليل، مع بضعةِ

شموعٍ مضاءةٍ فقط، أنشدَ الرهبانُ التراتيلَ إلى والدةِ الإله، وهم يَرسمونَ إشارةَ الصليبِ بشكلٍ مستمرٍّ ويعملونَ المطّانيّاتِ أمامَ إيقونتِها بشكلٍ متواصل.

معَ إنتهاءِ الخدمةِ قبّلوا الإيقونةَ، كلٌّ بدورِه. وحذَوتُ أنا حذوَهم.

الفصل ٤

معرفة الله

جنَيتُ فوائدَ وافرةً من دوري كسائقٍ للأبِ مكسيموس. فالقيادةُ به لقضاءِ مهمّاته المختلفةِ خارجَ الدير، كانت فرصةً فريدةً لتمضيةِ ساعاتٍ عديدةٍ معه على انفراد، مستكشِفًا سماتٍ مختلفةً للروحانيّةِ المسيحيّة. ذيونيسيوس، المبتدِئُ الشابُ، حاملُ الشهادةِ الجامعيّةِ في اللاهوت، اشتكى ممازِحًا بأنّني في بضعةِ أيّامٍ فقطْ أمضَيتُ، منفرِدًا، وقتًا مع الأبِ مكسيموس أكثرَ ممّا أمضاهُ هو معَه طيلةَ عامٍ بأكملِه. الانفرادُ مع رئيسِ الديرِ خارجَ سياقِ المهمّاتِ الأكثرِ رسميّةً كاستشاراتٍ واعترافاتٍ روحيّةٍ يُعتبَرُ امتيازًا عظيمًا. لذا، كنتُ على أتمِّ استعدادٍ وفي كاملِ نشاطي حين سألَني إنْ كنتُ قادرًا لأخذِه عندَ الرابعةِ صباحًا إلى ديرٍ للراهباتِ على اسمِ القدّيسةِ حنّة. تُقدَّرُ مسافةُ الطريقِ بساعتَين بالسيّارةِ للوصولِ إلى هناكَ عبرَ طرقاتٍ جبليّة. وهو يرغبُ أنَ يبدأ عملَهُ مع الأخواتِ عندَ السادسةِ صباحًا على الأكثر.

يقومُ الأبُ مكسيموس بهذه الرحلةِ الطويلةِ إلى ديرِ القدّيسةِ حنّة مرّةً كلَّ أسبوع، ويُمضي اليومَ كلَّهُ مع الراهباتِ اللواتي اعتمَدْنَه شيخًا، مُرشدًا

روحيًا لهنَّ. حيثُ يُقابلُ كلَّ واحدةٍ منهنَّ بشكلٍ منفرد. تدومُ هذه الاعترافات حتّى حلول الليل.

بَدأنا رحلتَنا حينَ باشرَ الآباء، كما يشيرُ الأبُ مكسيموس إلى رهبانِه، بقراءةِ المزاميرِ وذلك، كالعادة، في تمامِ الساعةِ الرابعةِ فجرًا. كانَ الهواءُ باردًا والنجومُ لا تزالُ تتألّقُ في ظلامِ جَلَدِ السماءِ الصافية. ركّزتُ نظري على الطريقِ الجبليّةِ المُتعرّجة، وكالمعتاد، جلسَ الأبُ مكسيموس بجانبي على طريقتِهِ المألوفة، بتواضعٍ وبساطة. سنبقى معًا لِساعتَينِ من دونِ أيِّ إلهاء، ما خلا سباقَ الأرانبِ البرّيّةِ المرتبكةِ والخائفةِ من أضواءِ سيّارتِنا والتي تعترضُ طريقَنا بينَ الحينِ والآخر. لم أُضيّعْ أيَّ وقتٍ في فتحِ حديثٍ حولَ القضايا الروحيّةِ، وضغطتُ فورًا زرَّ مُسجّلي الآليّ، الذي أُبقيهِ عادةً على لوحةِ عدّاداتِ السيّارة.

بدأتُ بتَذكيرِه بحديثٍ ألقاهُ لمجموعةِ حجّاجٍ من اليونان قبلَ أيّامٍ قليلة، إذْ وجدْتُ فيه معلوماتٍ مفيدةً جدًّا. غيرَ أنَّ أسئلةً عديدةً تبادرَتْ إلى ذهني، ولمْ أَحْظَ بفرصةٍ لطرحِها أثناءَ ذلك اللقاء. أجابَ الأبُ مكسيموس أنَّ الوقتَ مناسبٌ الآنَ لطرحِها. لكنّه نبّهَني أنّه لا يذكرُ فحوى حديثِه ذاك. في مناسبةٍ سابقة، أوضحَ لي أنّه لمْ يحضّرْ يومًا لأحاديثِه. بل، يتهيّأُ لحدثٍ معيّنٍ بالصلاة، مسلّمًا أمرَهُ لإلهاماتِ الروحِ القدس.

– «ذكرتَ في سياقِ حديثِكَ أنَّ المسيحيّينَ يَضِلّونَ في افتِراضِهم أنَّ المسيحَ علّمَ أنَّ نكونَ مؤمنينَ غيرَ مشكّكين. فالاعتِقادُ بأنّنا غيرُ مضطرّينَ لبذلِ الجهدِ في البحثِ عن براهينَ عن حقيقةِ الله، هو خطأٌ فادح. ماذا عنَيْتَ

بالضبطِ بقولِكَ هذا؟»

أجابَ الأبُ مكسيموس، بعدَ ربطِهِ حزامَ الأمان: «أجل، الآنَ أتذكَّر. ذلكَ الاعتقادُ فيه سوءُ فهمٍ كبير. حَثَّنا المسيح، في الحقيقة، على تفتيشِ الكتبِ المقدَّسة، أي البحثِ عن اللّه. من الواضحِ أنَّ اللّه يحبُّ أنْ نبحثَ عنهُ نحن البشر».

تابعتُ حديثي، فيما أَبقَيتُ نظري مثبَّتًا على الطريق: «إذًا، عندما يتلو المسيحيُّونَ دستورَ الإيمان، فهذا لا يشيرُ ضمنًا إلى أنَّنا يجبُ أنْ نَقْبَلَ بوجودِ اللّهِ بصورةٍ عمياء، دونَ اختبارِ إنْ كان اللّه حقيقةً أم وهمًا».

- «تمامًا. الإيمانُ الأعمى هو فعلٌ أحمق».

- «بالنسبةِ لأكاديميٍّ مثلي، يُريحُني كلامُكَ جدًّا. لكنَّ السؤالَ المباشرَ الذي يَخطرُ في ذهني هو، إنْ كانَ اللّه فعلًا يَحُثُّنا أنْ نكونَ مُحِبّينَ للبحثِ، فكيفَ يفترضُ علينا إذًا أنْ نوجِّهَ بحثَنا؟ كنقطةِ بدايةٍ أنتَّجِهُ إلى العِلْم، إلى الفلسفةِ أم إلى اللاهوت؟»

واصلتُ التعمُّقَ في ما كانَ يجولُ في فكري. هل نبدأُ بحثَنا عن اللّه بمُلاحظةِ ظواهرِ الطبيعة؟ هذه كانتْ نظرةُ أرسطو. فبملاحظتِهِ الطبيعةَ وباستعمالِهِ منطقًا هائلًا، استنتجَ أنّه لا بدَّ أنْ يكونَ هناكَ خالقٌ، «محرِّكٌ لا يتحرَّكُ»، محرِّكٌ أوَّلُ وَضَعَ كُلَّ شيءٍ في حركة. وبراهينُ أرسطو الأربعةُ لوجودِ اللّه صارَتْ أُسُسَ اللاهوتِ الغربيِّ، ذلك بعدما دَمَجَ توما الأكوينيِّ الفلسفةَ الأرسطوطاليسيَّةَ باللاهوت.

لاحظتُ ابتسامةً على وجهِ الأبِ مكسيموس، الذي تَجنّبَ ردًّا مباشرًا، وأثار أسئلةً أخرى: «دعْنا نُبسِّطُ الأشياء. لنَفترضْ أنّنا نرغبُ في التحقُّقِ من ظاهرةٍ طبيعيَّة. كما تعلم، للقيامِ بذلكَ، نحتاجُ إلى استِخدامِ الطرقِ العِلميَّةِ الملائمة. على سبيلِ المثال، إنْ رغِبْنا في دراسةِ المجرَّات، نحتاجُ إلى مراقبَ (تلسكوبات) قويَّةٍ وإلى آلاتٍ أُخرى مماثلة. إنْ رغِبْنا في فحصِ حالةِ قلوبِنا الصحِّيَّة، نحتاجُ إذًا إلى المِسماع (سمَّاعة الطبيب). كُلُّ شيءٍ يجبُ أنْ يُستَكشَفَ من خلالِ منهجٍ يتلاءمُ وموضوعَ البحث. لذا، إنْ رغِبْنا في استكشافِ اللّه ومعرفتِه، فسيكونُ خطأً بالغًا إن استخدمْنا حواسّنا أو التلسكوباتِ باحثِينَ عنْهُ في الفضاءِ الخارجيّ. إنَّ في ذلك سذاجةً بكلِّ ما في الكلمةِ من معنى، ألا تعتقدُ ذلك؟»

– «نعم، إذا طرحْتَ الأمرَ على هذا النحو. إذًا، هل يمكِنُنا أن نَستنتجَ أنَّ المنهجَ الملائمَ للإنسانِ المنطقيِّ المعاصرِ في بحثِه عن اللّه هو الفلسفةُ الميتافيزيقيَّةُ كفلسفةِ أفلاطونَ وأرسطو مثلًا أو اللاهوتِ العقلانيِّ المجرَّد؟». إعتقدتُ وأنا أطرحُ السؤالَ أنّي أتكهَّنُ الجواب.

– «أنْ نسعى لمعرفةِ اللّه عن طريقِ منطقِنا وإدراكِنا البشريِّ حماقةٌ وسذاجةٌ على حدٍّ سواء. تحدَّثْنا عن هذا الموضوعِ من قبل، أليس كذلك؟»

أومأتُ بالإيجاب، بينما تابعَ الأبُ مكسيموس قائلًا: «إعتبِرْه أمرًا بديهيًّا أنَّ اللّه لا يُمْكن أنْ يُبحَثَ عنه بمُقارباتٍ كهذه».

– «إذًا، الميتافيزيقيا الأفلاطونيّةُ والأرسطوطاليسيَّةُ ليستا الطريقَ لمعرفةِ

اللّه».

- «بالطبع لا. تلكَ هي الرسالةُ التي أُعْطِيَتْ لنا مِن قِبَلِ كُلِّ الشيوخِ والقدّيسِينَ عبرَ التاريخ. المنطقُ والعقلُ لا يستطيعانِ التحقُّقَ من معرفةِ ما هو أبعدُ منهما. أنتَ تُدرِكُ هذا، أليس كذلك؟»

- «نعم. هذا لا يزالُ الروحيُّون يردِّدونَه، أنَّ اللّه لا يمكنُ التحدُّثُ عنه بل يجبُ أنْ يُختَبَر. لكنْ ما معنى ذلك؟ هلْ يعني أنَّ اللّه لا يُمكن أنْ يُدْرَس؟»

- «كلاَّ، يُمكِنُنا أنْ ندرسَ اللّه، وعلينا أنْ نَدْرُسَه، ويمكنُنا أنْ نَصِلَ إلى اللّه ونَتعرَّفَ إليه».

قلتُ مُلِحًّا: «لكنْ كيف؟»

توقَّفَ الأبُ مكسيموس عن الكلامِ لبضعِ ثوان، ثمَّ تابعَ قائلًا: «المسيحُ بذاتِه كشَفَ لنا المنهج. أخبَرَنا أنَّنا لسْنا قادرينَ على استكشافِ اللّهِ فقط، بل يمكنُنا أنْ نعيشَ معَه أيضًا، أنْ نُصبِحَ واحدًا معه. ويُمكننا أنْ نُنجِزَ ذلك، لا عن طريقِ حواسِّنا أو منطقِنا بل عن طريقِ قلوبِنا فقط».

ذكَّرَني الأبُ مكسيموس، بينما ركَّزتُ نظري على الطريقِ الجبليِّ الضيِّقِ الذي كُنَّا نسلكُه، أنَّ القلبَ، وَفقًا لتقليدِ الشيوخِ القدِّيسين، هو مركزُ وجودِ الإنسان. فبالإضافةِ إلى كونِهِ العضوَ البيولوجيَّ الذي لا غنى عنهَ، والذي يُبقي

جسمَ الإنسانِ حيًّا، القلبُ هو أيضًا مركزُ قِوانا النُّوسْ-نفسيَّة[٢٨] psychonoetic، مركزُ وجودِنا وكينونتِنا، ومركزُ شخصِنا. إذًا، في القلبِ ي كشفُ اللّه ذاتَه إلى الإنسانيّة. علَّمَ الشيوخُ القدّيسونَ عبرَ العصور، أنَّ اللّهَ يتكلَّمُ مع البشرِ فقطْ من خلالِ القلب، العضوِ الذي عبْرَه وفيه يمكنُ للمرءِ أنْ يُعاينَ اللّه. لذا، فالتوّاقونَ لمعاينةِ اللّهِ لا يُمكنهم تحقيقُ ذلك عبرَ وسائلَ أُخرى كقراءةِ أفلاطون وأرسطو، أو بتوظيفِ العِلْم. عظيمةٌ فلسفتُهم، إلاَّ أنَّها ليست الطريقَ إلى اللّه. وحدَها طهارةُ القلبِ ونقاوتُه تقودُ إلى التأمُّلِ ورؤيةِ اللّه.

وتابعَ الأبُ مكسيموس مؤكِّدًا: «هذا فحوى قولِ المسيحِ الربِّ في التطويبات: 'طوبى لأنقياءِ القلوبِ لأنَّهم سيعاينونَ اللّه'.هلْ تفهمُ القصدَ من هذا؟ أولئكَ الراغبينَ في استكشافِ وجودِ اللّه يجبُ أنْ يختاروا المنهجَ الملائم، أعني تنقيةَ القلبِ مِن الأهواءِ والشوائبِ الأنَويّةِ egotistical. إذا تمكَّنَ الناسُ ونجحوا في تنقيةِ قلوبِهم، وأخفَقوا رغمَ ذلك في معاينةِ اللّه، فَهُم، من ثمَّ، مُبَرَّرونَ بالاستنتاجِ أنَّ اللّه هو حقًّا كذبة، بأنَّه غيرُ موجود، بأنَّه وهمٌ كبيرٌ فحسب. مثلُ أولئكَ الناسِ يمكنُ لهم أنْ يرفضوا اللّه بِكُلِّ صدقٍ وأمانةٍ بقولِهم: 'إتَّبعتُ المنهجَ الذي أعطانا إيّاهُ القدّيسون، ولم أجِدِ اللّه. لذا، فاللّه غيرُ موجود'.

ألا تعتقِدُ بأنّنا سنضلُّ تمامًا، إذا آمنّا بإلهٍ لا دليلَ أو برهانَ على وجودِه، بإلهٍ أبعدَ تمامًا من إدراكِنا، بإلهٍ ملتزِمِ الصمت، لا يتواصلُ معَنا بأيِّ شكلٍ ملموسٍ وحقيقيّ؟»

---

٢٨ النوس هو جوهر النفس.

إستنتجتُ قائلًا: «لكنَّ هذا يعني، أنَّ معظمَ المؤمنينَ هم في الحقيقةِ مؤمنونَ فاقدو البَصَر، أو كما دَعَوتُهم 'مؤمنين أيديولوجيّين'، أيْ إنَّهم يؤمنونَ بأفكارٍ عن الله اختلقُوها هم بأنفسِهم، ومعظمُها لا علاقةَ لها بالله. لا عَجَبَ أنَّ هناكَ العديدَ من المشاكلِ مع الدِّين، والكثيرَ من التعصُّبِ الدِّينيّ».

تَوسَّعَ الأبُ مكسيموس بالحديث: «أيمكِنُك أنْ تتخيَّلَ كم نكونُ حمقى، وكم يبدو النسَّاكُ والقدِّيسونَ حمقى، لِمتابعتِهم جهاداتِهم الروحيَّةَ لأنَّهم ببساطةٍ آمنوا بإلهٍ خياليّ، أو بإلهٍ بعيدٍ يصعبُ الوصولُ إليه؟ سيكونُ ذلكَ سخيفًا وغيرَ جِدّيٍّ. ويمكنُ للمرء، في الحقيقة، أنْ يدعُوَه حالةً مَرَضيَّةً».

أوضحتُ قائلًا: «ليسَ لديَّ أدنى شَكٍّ أنَّ معظمَ الأطبَّاءِ والمعالجينَ النفسانيّينَ المعاصرينَ وغيرِ المتديِّنينَ يَرَونَ أسلوبَ الحياةِ الرهبانيَّ النسكيَّ شكلًا آخرَ من أشكالِ الأمراضِ النفسيَّة». ثمَّ بنبرةٍ أكثرَ جِدِّيَّة، سألتُ: «أَعلينا أنْ نفترضَ وَفقًا لذلك، أنَّ المسعى الفلسفيَّ إلى الله، الذي شغفَ العقلَ الغربيَّ من أفلاطون إلى إمانويل كَنْتْ Kant والفلاسفةِ العظماءِ في القرنَينِ التاسعَ عشرَ والعشرين- كانَ في الواقعِ انحرافًا عن هدفِه؟»

- «نعم، تمامًا».

بعدئذ، لازمَ كلِانا الصمت. إلتفتَ الأبُ مكسيموس مُحدِّقًا من نافذةِ السيَّارة، بينما ارتفعتْ نسبةُ توتُّري ونحنُ نعبُرُ طريقًا ترابيًّا ضيِّقًا وخطِرًا. غيَّرْتُ السرعةَ إلى الترسِ الأوَّل، وراحَ المحرِّكُ يهدُرُ ويَئِنُّ مع بدءِ صعودِنا ببطءٍ منعطَفًا جبليًّا شديدَ الانحدار، يصِلُنا بطريقٍ أخرى. فقد شقَّتْ هيئةُ الأحراجِ

الكثيرَ من الطرقاتِ الترابيَّةِ المماثلة، على جبالِ ترودوس. قلتُ في نفسي، وأنا متوتِّرٌ، إنَّنا الآنَ في أمسّ الحاجةِ إلى صلاةِ أحدِ الرجالِ القدّيسين.

من المؤكَّدِ أنَّ قيادةَ السيَّارةِ في الظلامِ عبرَ طرقاتٍ جبليَّةٍ ضيِّقةٍ وغيرِ مُعَبَّدَة، على منحدراتٍ خطرة، يختلفُ تمامًا عن أخذِ الطريقِ ٩٥ الداخليِّ السفليِّ السريعِ في ولاية ماين. لكنَّ جلوسَ الأبِ مكسيموس بجانبي أعطاني شعورًا بالطمأنينة. فالسماءُ تسهَرُ علينا.

ومع نقليَ السرعةَ إلى الترسِ الثاني، التفتَ الأبُ مكسيموس نحوي وتابعَ حديثَه قائلًا: «لذا، حينَ نتلو دستورَ الإيمانِ أثناءَ القدَّاسِ الإلهيّ: 'أُؤمنُ بإلهٍ واحدٍ...'، نحنُ نحاولُ في الواقعِ أنْ ننتقلَ من الإيمانِ العقليِّ باللهِ إلى معاينةِ اللهِ الفعليَّة. حينذاك، يُصبحُ الإيمانُ هو المحبَّةَ في حدِّ ذاتِها. فدستورُ الإيمانِ يعني أنِّي أعيشُ في اتِّحادِ حبٍّ مع الله. هذا هو طريقُ القدِّيسين. حينذاك فقط، يمكنُنا أنْ نقولَ إنَّنا مسيحيُّونَ بالحقّ. هذا هو الإيمانُ الذي يمتلكُه القدِّيسونَ كخبرةٍ مباشرة. ولذلك، هم لا يخافون الموتَ، ولا الحربَ ولا المرضَ ولا أيَّ شيءٍ آخرَ في هذا العالم. هم بعيدونَ كلَّ البعدِ عن كُلِّ طموحاتِ المالِ والشُّهرةِ والسلطةِ والأمان، وما شابَه. أناسٌ كهؤلاءِ يتجاوزونَ فكرةَ الله، ويدخلونَ إلى فعلِ معرفةِ الله».

بنبرةِ شكوى، قلت: «لكنْ كمْ من الناسِ يُمكنهم أنْ يعرِفوا اللهَ حقًّا بهذِهِ الطريقة؟»

أجابَ الأبُ مكسيموس بلهجةٍ صارمة: «حسنًا، طالما نحنُ لا نعرفُ

اللّه بشكلٍ اختباريٍّ إذًا، على الأقلّ، يجبُ أنْ نُدرِكَ أنّنا ببساطةٍ مؤمنونَ أيديولوجيُّون. الشكلُ المثاليُّ والنهائيُّ للإيمانِ الحقيقيِّ يعني أنْ يكون لديكَ اختبارٌ مباشرٌ مع اللّهِ كحقيقةٍ مُعاشة».

تابعتُ مشيرًا إلى أنَّ اختبارَ اللّهِ قد يكونُ عبرَ أمورٍ 'بسيطة'، غيرِ معقَّدة، كمُعاينتِهِ في جمالِ الطبيعةِ وتناسُقِها البديع. وافقَ الأبُ مكسيموس على ما أشرْتُ إليه، لكنَّه مع ذلك، أشارَ بأنَّ الخبرةَ مع اللّه أمرٌ أعمقُ من ذلكَ بكثير، ويستحيلُ علينا حصرُها بكلماتٍ ومعانٍ شِعريَّة.

استنتجتُ: «إنْ صحَّ ذلك، فدستورُ الإيمانِ في التقليدِ المسيحيِّ لا يعني، ما يعتقدُهُ معظمُ الناس، أنَّه مجرَّدُ إيمانٍ أعمًى باللّهِ كفِكرة».

- «هذه مغالطةٌ شائعةٌ بكُلِّ عواقبِها الوخيمة. الإيمانُ الحقيقيُّ يعني أنَّني أعيشُ مع اللّه، أنا واحدٌ مع اللّه. تَعرَّفتُ إلى اللّه، ولذا، أَعْرِفُ أنَّه حقٌّ هو. اللّه يعيشُ بداخلي وهو غلبَ الموتَ وأنا أَتقدَّمُ معَهُ إلى الأمام. المنهجُ التامُّ للتقليدِ الصوفيِّ المسيحيِّ الأصيل، كما أوضحَه القدِّيسون، هو أنْ نصِلَ إلى تلك المرحلةِ حيثُ نُدرِكُ حقيقةَ اللّهِ في داخلِنا. وإلى أنْ نَصِلَ إلى تلكَ المرحلة، نبقى ببساطةٍ محصورينَ ضمنَ مجالِ الأفكار، لا ضمنَ جوهرِ الروحانيَّةِ المسيحيَّةِ التي هي المشاركةُ المباشرةُ معَ اللّه».

كانت هناكَ هالةُ قوّةٍ وسلطانٍ تُحيطُ بالأبِ مكسيموس لدى تلفُّظِهِ بتلكَ الكلمات. شَعرتُ بأنَّه تَكلَّمَ بالفرضيَّةِ الضمنيَّةِ أنَّه هو نفسُه تذوَّقَ اللّه، وما قالَه لي لم يكنْ فقط حصيلةَ كُتُبٍ درسَها واستيعابٍ ذهنيٍّ للتقليدِ الروحيِّ

الذي وَجَدَ نفسَه فيه.

* * *

بدأَ نورُ الصباحِ يخترقُ أشجارَ الصنوبر، بينما بدأتُ ألاحظُ على الأرضِ بقَعًا من الثلجِ قد خلَّفَها الشتاء. يقعُ ديرُ القدّيسةِ حنَّة على الجانبِ الغربيِّ لجبالِ ترودوس باتِّجاه مدينةِ بافوس وفوقَ قريةِ برودزوموس. لذا، كان لا بُدَّ أنْ نصعدَ إلى ارتفاعٍ أعلى، أقربَ إلى قمَّةِ أولمبُس حيثُ تتكاثرُ الثلوجُ عادةً أثناءَ أشهرِ فصلِ الشتاء، ثمَّ ننحدرَ إلى الجهةِ الأُخرى من الجبل.

قلتُ لافتًا نظرَ الأبِ مكسيموس: «قد يكونُ سؤالِيَ التالي ساذَجًا، لكنّي أحتاجُ لطرحِهِ بقصدِ الاستيضاح. عندما تقولُ: 'يُمكنُنا أنْ نعاينَ اللّه'، فأنتَ بالطبعِ لا تعني بأنَّنا يُمكنُ أنْ نرى اللّه كشخص، بِسِماتٍ وجهيَّة، كما يُصوَّرُ عادةً في الإيقوناتِ والصورِ الدينيَّة».

- «أوه، بالطبعِ لا. فهذا أمرٌ واضح. في ظروفٍ معيَّنة، قد يظهَرُ اللّه لنا في صورةِ إنسان. بالطبع، تاريخيًا، حدثَ ذلكَ بصورةٍ فائقةٍ في سرِّ التجسُّد. لكنَّ اللّه في جوهرِهِ لا شكلَ له، فهو فوقَ كلِّ تصوُّرٍ أو تشبيهٍ بشريّ. ليس لهُ ملامحُ وجه. لكنْ، في الوقتِ نفسِهِ اللّهُ هو شخصٌ، ولديهِ الإمكانيَّةُ والقوَّةُ للتواصلِ مع البشرِ على صعيدٍ شخصيّ. لهذا نزلَ إلينا في الجسدِ في صورةِ المسيحِ 'اللوغُس' (أي الكلمة)، كإلهٍ تامٍّ وإنسانٍ تامّ.

إنَّ المنهجَ الروحيَّ الذي طوَّرَه القدّيسون، يقصدُ هدايتَنا إلى إمكانيَّةِ معاينةِ اللّهِ على نحوٍ مباشر. عندما يَحْدُثُ ذلك، وكما سبقَ وقلتُ مرارًا، لا

تَعودُ المسألةُ مسألةَ إيمانٍ بوجودِ اللّه، بل فعلَ إدراكٍ مباشرٍ لعلاقةٍ أبديَّةٍ غيرِ منقطعةٍ قائمةٍ بينَ اللّه والإنسان.

وبالطبع، فجَوهرُ تلك العلاقةِ هو الحبُّ، الذي يَنبثِقُ أوّلًا منَ اللّه إلى البشر، ومن ثمَّ مِن البشرِ إلى اللّه. قد يبدو هذا مُخْزيًا لبعضِ الناس، لكنَّ الإزدهارَ الكاملَ لتلكَ العلاقةِ هو بلوغُ علاقةِ عشقٍ عميقةٍ مع اللّه، هي أبعدُ بكثيرٍ في عمقِها وامتدادِها من أيَّةِ نشوةِ عشقٍ مفرطٍ ملتهبٍ بينَ البشر. وحالةُ النشوةِ تلكَ هي ما أسماها القدِّيسُ مكسيموسُ المعترفُ الانجذابَ العشقيَّ eros maniakos (العِشقَ الإلهيّ). أتُدرِكُ ما أقول؟». والتفتَ نحوي مع نظرةٍ مُتسائلةٍ على وجهِه.

أجبتُ بهدوء: «يؤسفُني أنْ أقولَ لا. لا أعرفُ عمّا تتكلَّم». بما أنَّه أُنعِمَ عليَّ باختبارِ العشقِ البشريِّ فقط، فأنا لا أستطيعُ أنْ أُدركَ معنى العِشقِ الإلهيّ. يُمكنني أنْ أتصوَّرَه تصوُّرًا ذهنيًّا فقط. يمكنُني أنْ أَقبَل، على سبيل المثال، أنَّ كُلَّ علاقاتِ العشقِ في كلِّ مستوياتِ كثافتِه، من الفاضحِ القبيحِ إلى الأكثرِ رفعةً، ما هي إلاّ توضيحاتٌ مختلفةٌ للحبِّ المُحرِقِ غيرِ المحدودِ الذي للّه المُطْلَق. فهو كالشمسِ الباعثةِ أشعَّتَها. والعشقُ الإنسانيُّ هو اختبارٌ لتلكَ الشعاعاتِ الشمسيّة. فالعشقُ الإلهيُّ يَجِبُ أنْ يكونَ بوّابةَ الدخولِ إلى الشمسِ نفسِها.

أَتذكَّرُ ردَّةَ فعلي المرتبكةَ والمتحيِّرةَ حينَ صادفتُ للمرّةِ الأُولى هذه الفكرة. كيفَ يمكنُ للقدِّيسينَ المسيحيِّينَ الذين يُنكِرونَ العِشقَ في حياتِهم

الشخصيَّةِ أنْ يُقيموا انجذابًا عشقيًا مع اللّه؟ حينذاك، جاءَ جوابُ الأبِ مكسيموس بسيطًا للغاية. إنَّه أمرٌ يتطلَّبُ تحويلَ طاقتِكَ في اتِّجاهِ اللّه حصريًّا. بعدئذ، ومن خلالِ الصلاةِ الدائمةِ والتدريباتِ الروحيَّة، يبدأُ شيءٌ ما بالحدوثِ داخلَ وعيِ الشخصِ المُصلّي. وقدْ وصفَ أحدُ شيوخِ الأبِ مكسيموس الآثوسيّينَ هذه الحالةَ في إحدى كتاباتِه، كالتالي:

«عندما تنشَطُ النعمةُ في قلبِ المرءِ المصلّي، حينئذ، تفيضُ نارُ الحبِّ الإلهيِّ مُشعِلةً كيانَهُ بالكلّيّة، ولا يعودُ في وسعِه أنْ يحتملَ أكثر. من ثمَّ، يتحوَّلُ هذا الحبُّ العذبُ في داخلِه إلى محبَّةِ العالم، ومحبَّةِ الإنسان. يصبحُ حبُّهُ قويًّا جدًّا. لذا يطلبُ أنْ يحمِلَ هو أتعابَ الآخرينَ وأثقالَهم ليُخفِّفَ عنهم. يتألَّمُ كثيرًا مع كلِّ متألِّمٍ، حتَّى مع الحيوان، إلى حدِّ أنَّه يذرِفُ دموعًا مُرَّةً حينَ يعي آلامَهم. هذه هي خواصُّ المحبَّة. لكنْ يجبُ أنْ تتذكَّرَ أنَّ الصلاةَ هي التي تُنشِّطُ هذه المحبَّةَ العذبةَ وتُولِّدُها. لذا، من تَقدَّمَ في درجاتِ الصلاةِ لا يتوقَّفُ أبدًا عن الصلاةِ من أجلِ العالم[٢٩]».

عندما عدتُ إلى ماين، ناقشتُ هذه الفكرةَ مع مايك لويس، صديقيَ الفنّان، أثناءَ إحدى محادثاتِنا المشّائيَّة. حينذاك، اقترحَ مايك بأنَّ أفضلَ تصوُّرٍ فنِّيٍّ لتجربةِ الانجذابِ العشقيِّ هو، ربَّما، المنحوتةُ الرخاميَّةُ المشهورةُ لبرنيني، 'إنخطافُ القدّيسة تريزا'، والتي فيها يُشخِّصُ بحجرِ المرمرِ ملاكًا

[٢٩] الراهب يوسف الفاتوبيذي، سيرةُ الشيخ يوسف الهدوئيّ، صدر بالعربيّة في سيرة ورسائل الشيخ القدّيس يوسف الهدوئيّ الآثوسيّ، نقلَه إلى العربيّة الأرشمندريت الراهب توما، منشورات التراث الآبائيّ، ٢٠٠١.

واقفًا يَطعنُ القدّيسةَ بخنجرٍ، رمزًا للحبِّ الإلهيّ، وهي مُستسلِمةٌ بينَ ذراعَيهِ في حالِ انخطافٍ أو جذبٍ إلهيٍّ.

* * *

وصلْنا إلى بروذروموس مع بزوغِ الفجر، وبدأْنا بالهبوطِ سالكينَ المنحدرَ الغربيَّ لجبالِ ترودوس، وبقيَ أمامَنا الآنَ بضعةُ أميالٍ فقطْ لنصلَ إلى ديرِ القدّيسةِ حنَّة.

واصلْنا حوارَنا عن كيفيَّةِ معرفةِ اللّه، حيثُ صرّحَ الأبُ مكسيموس أنَّ أيَّ قلقٍ وجوديٍّ يُعاني منه البشرُ ويعذِّبُهم، ينتهي ما إنْ يُظهِرَ اللّه نفسَه في قلوبِهم. أيَّةُ شكوكٍ أو أسئلةٍ ومعضِلاتٍ فلسفيَّةٍ وتحيُّرٍ حولَ وجودِ اللّه، الذي هو أمرٌ 'طبيعيٌّ للحالةِ الساقطة'، يتبخَّرُ كلِّيًّا إثرَ اتِّصالٍ مباشرٍ كهذا. وأضافَ قائلًا: «لحسنِ الحظّ، تقليدُ القدّيسينَ ظلَّ حيًّا عبرَ القرون، موضِحًا لنا الطريقَ وشارِحًا لنا المنهجَ لمعرفةِ اللّه. زوَّدَنا القدّيسونَ بالأدواتِ اللازمةِ لتنقيةِ القلبِ من أمراضِه، لكيْ يتأهَّلَ لاختبارِ معاينةِ اللّه، ويصلَ إلى شفائِه المطلقِ والنهائيّ.

بعدَ انفصالِ الإنسانِ عن اللّه، أيْ بعدَ السقوط، غَزَتِ القلبَ الأمراض. هذا هو المعنى الحقيقيُّ للخطيئةِ الأصليَّة. فنحنُ كبشر، استنادًا إلى بشريَّتِنا الساقطة، نحملُ كإرث، هذه الأمراضَ التي هي جزءٌ قصاصيٌّ ملازمٌ لحالتِنا البشريَّةِ الساقطة».

وأشارَ إلى أنَّ الكنيسةَ، عليها أنْ تعملَ وأنْ يُنْظَرَ إليها كمستشفًى روحيٍّ

لمُعالجةِ أمراضِ القلبِ التي تُعيقُ رؤيتَنا لله. والكنيسةُ لدَيها، كبرهانٍ حيٍّ على فاعليّةِ الشفاءِ هذه، خبرةُ القدّيسين وحياتُهم؛ أولئك البشرِ الذين، من خلالِ جهاداتِهم الشاقّة، نَقّوا قلوبَهم وأضحى في مقدورِهم معالجةُ الانفصامِ الكائنِ بينَ ذواتِهم والله وشفاؤه. فالإنجيلُ وحدَه، غيرُ كافٍ ليقودَنا نحوَ الله. إذْ من دونِ خبرةِ القدّيسينَ في حقيقةِ الله وشهادتِهم، يكونُ الإنجيلُ 'رسالةً فارغةً'.

حينَ قالَ الأبُ مكسيموس هذه التعليقاتِ عن الكتابِ المقدَّس، أدركتُ كمْ أنَّ تقييمَهُ للكتابِ المقدَّسِ يختلِفُ جذريًّا عن تقييمِ الأصوليّين المتديّنين، وعن نظرةِ علماءِ الكتابِ المقدَّسِ العلمانيّين. فالأصوليّونَ يُحرّفُونَ النصَّ عنِ الحقيقة. بينما يُركّزُ العلماءُ بشكلٍ خاصٍّ على دقّةِ الكتابِ المقدَّسِ من الناحيةِ التاريخيّة، ولا يَكِلُّون البتّةَ عن اكتشافِ تناقضٍ بعدَ تناقضٍ بينَ الأناجيلِ الأربعة. لكن، وَفقًا للأبِ مكسيموس يجبُ أنْ يُنظرَ إلى الكتابِ المقدَّس، أوّلًا وقبلَ كلِّ شيء، كأداةٍ، كدليلٍ موجِّهٍ لكيفيّةِ إدارةِ حياتِنا وسلوكِها، ليُعينَنا في إستعادةِ علاقتِنا مع الله على أُسُسٍ صحيحة. ولقد استَشْهَدَ الأبُ مكسيموس مرّةً بمَثَلٍ أعطاه أستاذُه السابقُ في جامعةِ تسالونيكي، يوحنّا رومانيديس Romanides، وهو كاهنٌ أميركيُّ المولِدِ وأستاذُ لاهوتٍ مشهورٌ، يقول: 'إنْ رغبتَ بتقييمِ أهمّيّةِ نصٍّ طبّيٍّ في الجراحة، فلا تُعطِهِ إلى مجموعةِ قصّابين، بل عليكَ أنْ تُرسِلَه إلى أطبّاءِ جراحةٍ متمرّسين، فَهُمْ وحدَهم المؤهّلونَ لإعطاءِ أيِّ رأيٍ أو تقييمٍ إذ هم خبراءُ في هذا الحقل، ورأيُهم سيكونُ نابعًا من خبرتِهم الشخصيّة. بطريقةٍ مماثلة، يجبُ أنْ يُقيّمَ دورُ الكتابِ المقدَّسِ ويُدرَكَ كأداةٍ

علاجيَّةٍ لشفاءِ عُزلتِنا الوجوديَّةِ عن اللّٰه. فلا الأصوليُّونَ ولا المؤرِّخونَ يمكنُهم أنْ يَعرضوا رأيَهم ويقيِّموا الكتابَ المقدَّسَ كأداةٍ أو دليلٍ للاتِّحادِ مع اللّٰه، بل القدِّيسونَ الذين عاشوا معنى الكلمةِ المكتوبةِ، عمليًّا وفعليًّا، وأعلنوا حقيقتَها بشهاداتِهم وخبراتِهم الحيَّة'. وأضافَ الأبُ مكسيموس، علاوةً على ذلك، الكتابُ المقدَّسُ وحدَه ليس كافيًا كدليلٍ للبلوغِ إلى اللّٰه؛ فلا منفعةَ للكتابِ، إنْ فُصِلَ عن كاملِ خبرةِ الكنيسةِ وعن كاملِ التقليدِ الروحيِّ كما لُفِظَ بوضوحٍ في حياةِ القدِّيسينَ وحِكَمِهم ومواعظِهم ومناهجِهم الروحيَّةِ وشهاداتِهم المدوَّنة. وهذا التقليدُ اختُبِرَ وأُعيدَ اختبارُهُ من خلالِ خبرةِ القدِّيسين. وقدْ ذهبَ الشيخُ القدِّيسُ سِلوانُ الآثوسيُّ، الروسيُّ المولدِ وأحدُ أبطالِ الأبِ مكسيموس الروحيِّين، إلى حدِّ القولِ إنَّه حتَّى ولو فُقِدتْ كُلُّ الكُتُبِ المقدَّسةِ وسجلاَّتُ الدِّينِ المسيحيِّ المدوَّنةُ، بما فيها الكتابُ المقدَّس، بسببِ زلزالٍ أو نارٍ هائلة، فإعادةُ كتابتِها ممكنةٌ لأنَّها مُختزنَةٌ في أعماقِ قلوبِ القدِّيسينَ ويمكنُ إعادةُ تدوينِها في أيِّ وقتٍ، متى تُرفَعُ العوائقُ وتسنحُ لها الفرصة[٣٠].

وفيما كنتُ أقطعُ آخرَ منعطفٍ جبليٍّ، حيثُ بدا ديرُ القدِّيسةِ حنَّة أمامَنا مُحاطًا بغابةٍ كثيفةٍ من أشجارِ الصنوبر، قلتُ للأبِ مكسيموس: «أرغبُ في معرفةِ المزيدِ عمَّا تقصدُ بـ 'أمراضِ القلب'».

قال: «سأُجيبُكَ في وقتٍ لاحقٍ، ربَّما غدًا». أوقَفْتُ السيَّارةَ خارجَ بوَّابةِ

---

٣٠ الأرشمندريت صفرونيوس (سخاروف): القدّيس سلوان الآثوسي. نقلته إلى العربية الأمّ مريم (زكّا). منشورات التراث الآبائي، طبعة ثانية ١٩٩٩.

الديرِ الخشبيَّةِ الضخمةِ التي بدت عليها آثارُ العواملِ الطبيعيَّة، وكان ذلك بعدَ الساعةِ السادسةِ صباحًا بدقائقَ قليلة. كانت الأمُّ الرئيسةُ، بلباسِها الرهبانيِّ الأسود، مع راهبتَين شابَّتين، ينتظِرْنَ وصولَ الأبِ مكسيموس في باحةِ الديرِ الخارجيَّة. إستقبَلْنَنا والفرحُ بادٍ في عيونِهنَّ كالعادة، بحرارةٍ ودفء، بينما تابَعَتْ بقيَّةُ الراهباتِ في الداخلِ خِدْمَةَ الصلواتِ الصباحيَّةِ التي بدأتْ عندَ الرابعةِ فجرًا.

بما أنَّهُ أبوهُنَّ الروحيّ، وضعَ الأبُ مكسيموس للراهباتِ برنامجًا للجهاداتِ الروحيَّةِ مُطابِقًا لما هو متَّبعٌ في ديرِ الفائقةِ القداسة. فكما أخبرَني مرَّة، العملُ الروحيُّ يتطلَّبُ برنامجًا موافِقًا لظروفِ المرءِ وقدراتِهِ الذاتيَّة. فالبرنامجُ الروحيُّ للرهبانِ والراهباتِ يختلفُ عن أيِّ برنامجٍ للعلمانيِّينَ الذين يعيشونَ في العالمِ ويواجهونَ فيه تقلُّباتِ الحياةِ اليوميَّة. حتَّى بينَ الرهبانِ والراهباتِ هنالك خصوصيَّاتٌ مختلفةٌ لكلِّ فرد، وعلى الشيخِ المتمرِّسِ أنْ يأخذَها في الحسبان. وأوضحَ لي أنَّ فَرْضَ جهاداتٍ كثيرةٍ مكثَّفةٍ لمدَّةٍ طويلةٍ من الوقتِ قد يُؤدِّي إلى التخلِّي الكاملِ عن الجهادِ لمعرفةِ اللّهِ والاتِّحادِ به. وأنَّ المهمَّ في أيِّ برنامجٍ روحيٍّ حتَّى يُثمر، هو وجوبُ اتِّباعِه بجهدٍ وعناية، دونَ السماحِ أبدًا لأيِّ نشاطاتٍ أُخرى أو إهمالٍ للتدخُّلِ فيه وتعطيلِه.

⁜ ⁜ ⁜

قضى الأبُ مكسيموس اليومَ بكامِلِه، ما خلا استراحةَ غداءٍ قصيرة، في محادثةِ كُلِّ راهبةٍ على انفرادٍ للاعترافِ والاستشارة، ولضبطِ قوانينِهنَّ الروحيَّة. بينما قضَيتُ أنا معظمَ ساعاتِ ما قبلَ الظهرِ في مكتبةِ الديرِ حيثُ

تصفَّحتُ بعضَ الكتبِ، وفي الغابةِ حيثُ مشَيتُ لساعاتٍ طويلة. في فترةٍ ما بعدَ الظهر، أخذَتْني الراهبةُ أثناسيا، وهي عاملةٌ اجتماعيَّةٌ سابقةٌ من أثينا، في جولةٍ حولَ الديرِ وبساتينِ الخضارِ التي تؤمِّنُ جزءًا كبيرًا من غذاءِ الراهباتِ اليوميِّ، والذي، كما في ديرِ الفائقةِ القداسة، يتألَّفُ غالبًا من الخضارِ والفاكهةِ والخبز، وفي المناسباتِ الخاصَّةِ من السمك.

لم يُنْهِ الأبُ مكسيموس عملَه حتَّى الساعةِ الثامنةِ والنصفِ مساءً، أيْ ما مجموعُهُ أكثرُ من إثنتيْ عشْرةَ ساعةً متواصلةً من الإستشارةِ والنصحِ والإرشاد. وحينَ أوشَكْنا على المغادرة، تجمَّعتِ الراهباتُ كلُّهنَّ في ساحةِ الدير، والفرحُ يشعُّ من وجوههنَّ، وأحطْنَ بالأبِ مكسيموس لوداعِه. لنْ أنسى أبدًا ذلكَ المشهدَ الوداعيَّ المُعبِّرَ عن كلِّ مشاعرِ المحبَّةِ والإجلال. كانَ وكأنَّه قدِّيسٌ حيٌّ ماثلٌ في وسطهنَّ. كلُّهنَّ رافقنَه إلى السيَّارةِ حاملاتٍ عُلَبَ مأكولاتٍ وحلوياتٍ صنعنَها بأيديهنَّ لـ'إخوتهنَّ' رهبانِ ديرِ الفائقةِ القداسة. وبينما كنتُ أرتِّبُ العلبَ في صندوقِ السيَّارة، إقترَبَتْ منِّي الأمُّ الرئيسةُ وأعطَتْني كتابًا. فلقد نُهِيَ إليها خَبَرُ أنَّني أستاذٌ جامعيٌّ يَدْرُسُ الروحانيَّةَ الأرثوذكسيَّةَ، وأرادتْ أنْ تقدِّمَ لي هديَّةً صغيرة. قالتْ لي: «ستروقُ لك قراءةُ هذا الكتاب، هو مفيدٌ لبحثِك. إنَّه يتضمَّنُ السيرةَ الفائقةَ الطبيعةِ للشيخةِ غافريليا[٣١]». تصفَّحتُ الكتابَ المنشورَ حديثًا بإيجازٍ سريع، شكرْتُها جزيلًا، ثمَّ وضعتُه في مقعدِ السيَّارةِ الخلفيِّ، ووعدْتُها بقراءتِه.

---

[٣١] صدرَ قسمٌ من الكتابِ في: الأمّ غفرئيلا - إعداد وترجمة راهبات دير السيّدة (كفتون)- منشورات تعاونيّة النور الأرثوذكسيَّة للنشر والتوزيع ٢٠١٠.

بعدَ أنْ باركَ الأبُ مكسيموس كلَّ واحدةٍ منهنَّ، فتحتْ إحداهنَّ بابَ الديرِ الخارجيِّ لنعبر. وفيما كنتُ أُلوِّحُ لها مودِّعًا، إستدارَ الأبُ مكسيموس نحوي وتمتم: «هذه هي روزا». أسرعْتُ في دَوسِ المكابحِ لآخذَ نظرةً عن كثب، لكنَّ الأبَ مكسيموس ثَناني عن عَزْمِي وأشارَ عليَّ لأمضيَ في الطريق، وقال: «هي بخيرٍ الآن».

* * *

كانت الساعةُ تُقاربُ التاسعةَ مساءً حينَ بدأْنا رحلةَ العودةِ لِساعتَين من الزمنِ، لنصلَ إلى ديرِ الفائقةِ القداسة. بقِينا معظمَ الوقتِ صامتَينِ متمتِّعَينِ بالظلالِ التي يُحدِثُها القمرُ الصاعدُ والمتألِّقُ على أشجارِ الصنوبر. فالأبُ مكسيموس أمضى يومَهُ كلَّه يتكلَّم، ولمْ أُرِدْ إرهاقَهُ بشهيَّتي المفرِطة، التي لا تشبعُ ولا ترتوي، للأسئلةِ والمحادَثة. فهو في حاجةٍ إلى الراحةِ وهذا كان باديًا عليه.

أثناءَ العودة، خلا الطريقُ من أيَّةِ حركة، أو سيَّارةٍ أو أيِّ شخصٍ على مرمى البصر. بعدَ بضعةِ ملاحظاتٍ عاديَّة، أخرجَ الأبُ مكسيموس شريطَ تسجيلٍ من حقيبتِهِ ووَضَعَهُ في المسجِّلِ وضغطَ زرَّ التشغيل. وسمِعْنا لساعةٍ كاملةٍ تراتيلَ مسجَّلةً في ديرِ سيمونوبترا، أحدِ أشهرِ أديرةِ جبلِ آثوس، والمشهورِ بجوقتِه البيزنطيَّة. لكن، بعدَ دقائقَ قليلةٍ من انتهاءِ الشريطِ المسجَّل، إرتفع معدَّلُ نبضاتِ قلبِي وتبخَّرَ في لحظةٍ كُلُّ تأثيرِ السكونِ الذي أدخَلَتْه التراتيلُ فيَّ.

«ماذا! بحقِّ السماءِ ما هذا؟». دفَعْتُ المكابحَ بقوَّةٍ للتوقُّفِ أمامَ حاجزٍ

أقامَه مسلَّحون. فضوءُ كشَّافاتِهم القويُّ أعماني. قلتُ في نفسي، عصرُ فدائيِّي الجبلِ ولَّى منذُ مدَّةٍ طويلة، مفكِّرًا في أوجِ التمرُّدِ المُسلَّحِ ضدَّ البريطانيِّينَ في الخمسينيَّات. وتمتمتُ: «مَنْ يكونُ هؤلاءِ الرجال؟». أمسكَ الأبُ مكسيموس بِساعدِي وحاولَ تسكينَ قلقِي: «لا تخف. لا شيء. كانَ عليَّ أنْ أُنبِّهَك».

وقبْلَ أنْ يتمكَّنَ من توضيحِ الأمر، اقتربَ من السيَّارةِ شابٌّ غليظُ الهيئةِ، ذو شاربٍ أسودَ طويلٍ مجدولٍ وبطنٍ ناتِئ، وبندقيَّةٌ مُخيفةٌ في يدِه اليُمنى، واختلسَ نظرةً داخلَ السيَّارةِ لمعرفةِ من بداخلِها. ثمَّ، هتفَ معَ إبتسامةٍ عريضةٍ كاشِفًا عن سنٍّ ذهبيٍّ لامع: «أبتِ، أهذا أنت!». انخفضَ نبضُ قلبي إلى سرعةِ إيقاعِه الطبيعيَّة.

- «بحقِّ السماءِ ماذا تعملُ خارجًا في هذه الساعة؟»

أجابَ الأبُ مكسيموس بهدوء: «مساءُ الخيرِ يا باڤلو، نَسِيتُ تنبيهَ كيرياكوس أنَّكم يا شبابُ تقيمونَ أحيانًا نُقَطَ تفتيش».

أشارَ باڤلو إلى رفاقِه فأطفأوا أضواءَ كشَّافاتِهم. تقدَّمَ الشبابُ نحوَ السيَّارة، وحينَ اكتشفوا هويَّةَ الجالسِ بجانبي، بدا الفرحُ على وجوهِهم ومدُّوا أيديَهم بلهفةٍ لمُصافحتِه. وكما اتَّضحَ لي، أنَّ 'فدائيِّي' الجبلِ الحديثينَ هم شرطةٌ من شبابِ القُرى المجاورة، مهمَّتُهم حراسةُ المنطقةِ لمنعِ صيَّادي الأرانبِ البرِّيَّةِ من التسلُّلِ ليلًا. وما لا يدعو للاستغرابِ أنَّهم من زوَّارِ الديرِ المنتظِمينَ أيضًا، والأبُ مكسيموس هو أبوهم الروحيّ.

بعدَ انطلاقِنا، قالَ لي الأبُ مكسيموس: «اعتراكَ الخوفُ يا كيرياكو،

أليسَ كذلك؟»

- «تملَّكني الخوفُ للحظة. فلقدْ جلَبَ المشهدُ الكثيرَ من ذكرياتِ الماضي المؤلمة. حينذاك، كانَ ثمَّةَ الكثيرُ من الفدائيِّينَ المسلَّحينَ يجولونَ هذه الجبالَ ومحيطَها».

حادثةُ الحاجزِ النقَّالِ وشبابِ الأمنِ المسلَّحين، أنهَتْ صمتَنا وجعلَتْنا نتحدَّثُ عن المشاكلِ المُزمنةِ المستمرَّةِ مع الأتراك، التي سبَّبها تمرُّدُ المنظَّمةِ الوطنيَّةِ للمقاتلينَ القبارصةِ(E.O.K.A) في الخمسينيَّات. لفتَ نظري وأثارَ اهتمامي، خلافًا لمعظمِ من اجتمعتُ بهم في الجزيرة، أنَّ الأبَ مكسيموس الصادقَ مع خبرتِهِ وتقليدِهِ الآثوسيِّين، لم يُبْدِ البتَّةَ أيَّ قلقٍ أو انزعاجٍ بشأنِ الوضعِ السياسيِّ القبرصيِّ المتأزِّمِ وغيرِ المستقرّ. بالنسبةِ له، كُلُّ المشاكلِ والصعوباتِ التي نُواجه، شخصيَّةً كانتْ أو اجتماعيَّة، يجبُ ألاَّ تقودَنا أبدًا إلى المرارةِ واليأس، بل أنْ تُعتبَرَ فرصًا مُتاحةً للنموِّ الروحيّ. بالنسبةِ لي، من منظارٍ آخر، ليسَ بإمكاني أنْ أرى الأزمةَ السياسيَّةَ إلاَّ من موقعِ منظارِيَ الدنيويِّ؛ وكانتَ لديَّ صعوبةٌ في الإحجامِ عن الإنغماسِ في إبداءِ النقدِ اللاذعِ المُرِّ للشخصيَّاتِ والمؤسَّساتِ السياسيَّةِ التي اعتبَرْتُها مسؤولةً عن المأساة. وذاكَ الحدثُ الليليُّ أعطاني الفرصةَ لإظهارِ ما كانَ يجولُ في فكري فيما يتعلَّقُ بالدورِ السياسيِّ التدميريِّ الذي لعبتْهُ الكنيسةُ المحلِّيَّةُ ومطارنتُها.

بخلافِ إكليروسِ الجزيرة، على مختلفِ رُتبِهم، تجنَّبَ الأبُ مكسيموس السياسةَ المحلِّيَّة، وركَّزَ بشكلٍ حصريٍّ على مهمَّتِه الروحيَّة. فالسياسةُ هي من

أمورِ هذا العالَم، وكراهبٍ آثوسيّ، تعلَّمَ الأبُ مكسيموس وتدرَّبَ على بذلِ طاقاتِه في أمورٍ تتعدَّى حدودَ هذا العالَم، وعلى التوجُّهِ سعيًا لتحقيقِ أهدافٍ قيمتُها أبديَّة. لذا، عندما أبدَيْتُ وجهةَ نظرِي في الحالةِ السياسيَّةِ القائمة، وذلك قبلَ نهايةِ رحلةِ العودةِ بقليل، كنتُ أنا المتكلِّمَ بحماسٍ في معظمِ الوقت، وهو المستمعَ بصبرٍ جديرٍ بالإعجاب.

تأسَّفتُ على الحالةِ في قبرص وقلتُ، إنَّ وضعَ البلادِ كانَ سيختلفُ، وربمَّا سيكونُ أكثرَ سِلمًا، لو سادَتْ الروحانيَّةُ الآثوسيَّةُ على الكنيسةِ القبرصيَّة، خصوصًا أثناءَ تلكَ السنواتِ المضطربةِ من الخمسينيَّات. لكن، واحَسْرَتاه، لم يكنْ بينَ رجالِ الإكليروسِ بأعلى درجاتِهِ مَنْ يتمتَّعُ بهذه الروحيَّة. بل بالعكس، مكاريوس[٣٢] 'المغبوط' رئيسُ الأساقفةِ آنذاك، أصبحَ مُحارِبًا قوميًّا أكثرَ مِنْ رجلٍ لله، مُتجاهِلًا السماءَ كلِّيًا. لأسبابٍ تاريخيَّةٍ تعُودُ إلى قرونِ الحكمِ العُثمانيِّ الأربعةِ التي سبقَتِ الإستعمارَ البريطانيّ[٣٣]، لعِبَ رئيسُ الأساقفةِ آنذاكَ دورًا مزدوجًا، فمَعَ دورِهِ الأسقفيّ، كانَ القائدَ القوميّ (Ethnarch) أيضًا، أيِ الزعيمَ الوطنيَّ والدينيَّ للقبارصةِ اليونانيِّين. هذه مفارقةٌ تاريخيَّةٌ، وباستعادةِ الأحداثِ الماضيةِ، هو دورٌ تدميريٌّ أيضًا يُذكِّرُ ببَاباواتِ أوروبَّا المحارِبِينَ في القرونِ الوسطى. قادَ مكاريوس، إذْ هوَ الزعيمُ والقائدُ القوميُّ،

---

[٣٢] مكاريوس الثالث (ميخائيل خريستودلو موسكوس بحسب العالم، ١٩١٣- ١٩٧٧): قبرصيٌّ، سياسيٌّ ورئيسُ أساقفة. أوّل رئيس لجمهوريّة قبرص (١٩٥٩- ١٩٧٧). قاد قبل انتخابه لهذا المنصب نضال بلاده من أجل الاستقلال. أطاح به انقلابٌ عسكريّ خطّطتْ له حكومة اليونان العسكريّة عام ١٩٧٤. لكنّه سرعان ما استردَّ سلطته بعد بضعة أشهر وفي السنة نفسها.

[٣٣] احتلّ الأتراك العثمانيّون جزيرة قبرص عام ١٥٧١. وتخلت تركيّا عن إدارة الجزيرة لبريطانيا عام ١٨٧٨. ضمّها البريطانيّون إلى ممتلكاتهم عند اندلاع الحرب العالميّة الأولى عام ١٩١٤. أصبحت الجزيرة جمهوريّة مستقلّة عام ١٩٦٠ وانضمّت إلى الكومنولث البريطاني عام ١٩٦١.

حركةَ الاتّحادِ بينَ قبرص واليونان النضاليّةَ بحماسٍ مفرطٍ لكن، منْ دونِ أيِّ أثرٍ لروحِ المقاومةِ الغانديّةِ[٣٤] السّلميّة. والأسوأُ في كلِّ هذا، أنَّهُ تآمرَ بشكلٍ سرّيٍّ، متجاهلًا جوهرَ الرسالةِ المسيحيّة، فجلبَ إلى الجزيرةِ قائدًا عسكريًّا يونانيًّا قبرصيَّ المولدِ برُتبةِ عقيدٍ[٣٥] معروفًا بماضيهِ العنيف، لتأسيسِ المنظّمةِ الوطنيّةِ للمقاتلينَ القبارصةِ وشنِّ حربِ عصاباتٍ عنيفةٍ ضدَّ الحكومةِ الإستعماريّةِ البريطانيّة. وهذا كانَ الإرثَ الشرسَ والمفسدَ الذي فتحَ 'عُلبة بَنْدورا'[٣٦]، مُسمّمًا حياةَ أجيالٍ من القبارصة.

تابعتُ إطلاقَ عِنانِ نقدِي حولَ هذه الأمور، لا لأنّي كنتُ مرتبطًا عاطفيًّا وأكاديميًّا بمشكلةِ قبرصَ فقط، بل لأنّه في قرارةِ نفسي، تملّكَني شعورٌ أنَّ الأبَ مكسيموس قدْ يُدْعَى يومًا ما لِلَعبِ دورٍ مهمٍّ في الجزيرة، ربّما أكثرَ ممّا كانَ يتصوّرُه هو آنذاك. وإستنادًا إلى شعبيّتِهِ المتصاعدةِ بينَ الباحثينَ الروحيّينَ الساعِينَ لمعرفةِ الحقّ، تصوّرْتُ أنّه بذلك، سيُحوّلُ بؤرةَ تركيزِ طاقاتِ الكنيسةِ المحلّيّةِ وتطلّعاتِها المأساويّةِ الفاسِدَةِ سعيًا للسيطرةِ السياسيّةِ والثرواتِ المادّيّة، نحوَ جذورِها الروحيّةِ الأصيلة، جذورِ الشفاءِ والولادةِ الروحيّة. ربّما هذا هو سببُ إصرارِ الشيخِ بايسيوس على مغادرةِ الأبِ مكسيموس جبلَ آثوسَ والعودةِ إلى قبرص.

٣٤ نسبةً للزعيم الهنديّ غاندي.

٣٥ هو العقيد جورج غريفاس Grivas الذي اكتسب شهرة إبّان الحرب العالميّة الأولى ولاحقًا في الحرب الأهليّة اليونانيّة.

٣٦ في الميثولوجيا اليونانيّة، المرأةُ الأولى أرسلها زيوس إلى الأرض، كعقاب للجنس البشريّ، بعد سرقة بروميثيوس النارَ. وأعطاها علبة تُعرف بـ «علبة بندورا» Pandora's Box وحظّر عليها فتحَها. ولكنها فتَحَتْها بدافع من الفضول. فانطلقت منها صنوفٌ من الشرور والرزايا عمّت البشريّة كلّها ولم يَبْقَ في قعرها غير الأمل بوصفه عزاءً وسلوى للناس.

أنهَيتُ مناجاتي الطويلةَ وغيرَ الروحيَّةِ مباشرةً قبلَ وصولِنا إلى الدير، بينما حاولَ الأبُ مكسيموس تهدئتي. فراحَ يُذكِّرُني كم هو مهمٌّ تمييزُ الكنيسةِ وتعاليمِ القدِّيسينَ والشيوخِ حولَ كيفيَّةِ معرفةِ اللّٰه، عنْ الشخصيَّاتِ التي تُشكِّلُ البُنيةَ التنظيميَّةَ للكنيسةِ الدنيويَّة. كما ذَكَّرَني بوجوبِ التحلِّي بملءِ الثقةِ أنْ لا شيءَ يحدثُ في العالمِ خارجَ مشيئةِ اللّٰه، التي يجبُ أنْ تبقى وإلى الأبد، سرًّا يصعبُ على العقلِ البشريِّ إدراكُه.

كانتْ عقاربُ الساعةِ تقاربُ الحاديةَ عشرةَ قبلَ منتصفِ الليلِ عندما أدخلَ الأبُ مكسيموسَ مفتاحًا حديديًّا قديمًا طولُه ستَّةُ إنشاتٍ في ثقبِ قفلِ بوَّابةِ الديرِ الأماميَّةِ ليفتحَها. قطعَ صوتُ صريفِ البوَّابةِ الحادُّ الصمتَ الكلِّيَّ السائدَ في تلكَ الساعة. ألحَّ عليَّ الأبُ مكسيموس، آخِذًا في الإعتبار وصولَنا المتأخِّر، بأخذِ قسطٍ من النومِ وحلَّني من الاستيقاظِ للمشاركةِ في الصلاة. فوَفقَ قانونِ الدير، على كلِّ عضوٍ في الشركةِ الرهبانيَّةِ بما في ذلك زوَّارِ الدير، أن ينهضَ من النومِ في الساعةِ الثالثةِ والنصفِ فجرًا للإستعدادِ للمشاركةِ في الصلواتِ الصباحيَّةِ والتي تبدأُ تمامَ الرابعةِ فجرًا.

رغمَ ذلك، بالكادِ غفَوتُ في تلك الليلة، إذ إنَّ الأفكارَ والآراءَ التي ناقشناها في كيفيَّةِ معرفةِ اللّٰهِ راحتْ تجولُ في فكري، فقرَّرتُ قراءةَ الكتابِ الذي أعطَتْني إيَّاه رئيسةُ ديرِ القدِّيسةِ حنَّة. وما إنْ بدأتُ في قراءتِه، لم يَعُدْ باستطاعَتي التوقُّفُ وتابعتُ القراءة. فقصَّةُ الكتابِ تدورُ حولَ امرأةٍ يونانيَّةٍ استثنائيَّة، وهي عالِمةٌ مختصَّةٌ بالعنايةِ بالقَدَمِ البشريَّةِ ومعالجتِها، زاولَتْ مهنتَها في لندن أثناءَ الحربِ العالميَّةِ الثانية. وإثرَ دعوةٍ داخليَّة، سافرتْ إلى الهندِ

حيثُ اعتنتْ لِعدَّةِ سنواتٍ بالمصابينَ بداءِ الجذامْ (البَرَص). في عُمرِ السِّتين، عادتْ إلى أثينا، ترهَّبَت، وسرعانَ ما ذاعَ صيتُها كشيخةٍ روحيَّةٍ ممتلئةٍ بنعمةِ اللّه، كالشيوخِ المُعاصِرينَ مثلَ الشيخِ پاييسيوس.

قبلَ أن يتغلَّبَ عليَّ النومُ، دَوَّنتُ أحدَ لبابِ أقوالِ الشيخةِ غافريليا، إذْ له علاقةٌ بالحديثِ الذي دارَ بيني وبين الأبِ مكسيموس اليوم: «هناكَ شكلٌ تعليميٌّ أوحدُ وهو: معرفةُ اللّهِ ومحبَّتُه».

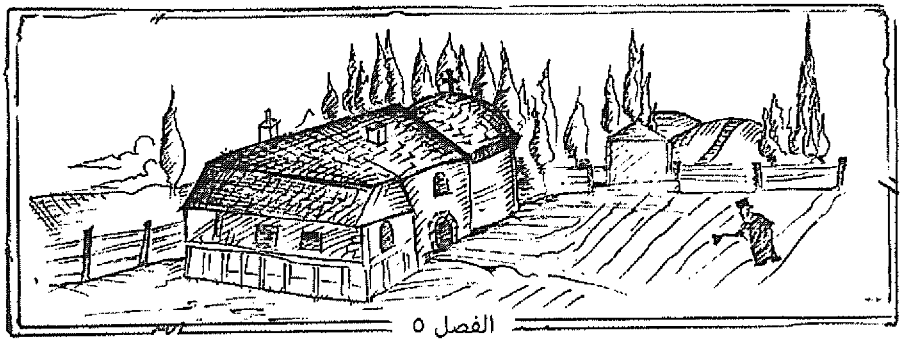

أمراضُ القلب

في صباحِ اليومِ التالي، وبعدَ إنتهاءِ الصلواتِ الصباحيَّة، ذكَّرتُ الأبَ مكسيموس أنَّ حديثَنا حولَ أمراضِ القلبِ لم ينتهِ بعد. فطمأنني أنَّه لم ينسَ، ودَعاني للجلوسِ بجانبِه على مقعدٍ خارجَ قلاَّيته للدردشة. وفيما هو يستمتعُ بدفءِ أشعَّةِ الشمس، راحَ يُجيبُ على أسئلتي بأسلوبِه المألوفِ البسيط، بينما تابعَ الرهبانُ الخِدمَ المُوْكَلَةَ إليهم. البعضُ عَمِلَ في المطبخ، آخرونَ عملوا في بساتينِ الخضار، البعضُ نظَّفَ الكنيسةَ وآخرون عملوا على الحاسوب في مكتبِ المحاسبة.

بدأَ الأبُ مكسيموس حديثَه، كالتالي: «المرضُ الأساسُ الذي يتحدَّثُ عنه الشيوخُ القدّيسون، هو الجهل. في لغتِهم، الجهلُ لا يعني فقرَ العِلمِ والمعرفة، بل هو، في الحقيقة، جهلُ القلبِ للّه. الافتقارُ إلى هذه التجربةِ المباشرةِ مع اللّه، يجعلُ البشرَ عاجزينَ عن معرفةِ معنى العيشِ بعيدًا عن اللّه. فَهُم، بالتالي، لا يُدرِكونَ عمقَ مأزِقِهم والحرمانَ الذي يقبعونَ فيه».

أضفتُ قائلًا: «أنتَ لا تفتقدُ ما تجهلُه. أَفترضُ أنَّ هذا يُشبهُ الناسَ القابعينَ برضًى في المدنِ الملوَّثة. فَهُم سعداءُ للغاية، لأنَّهم لم يختبِروا أبدًا الهواءَ النظيفَ النقيَّ في الجبالِ والأرياف».

- «هذا تشبيهٌ جيِّد. فأنا، كُلَّ مَرَّةٍ، أذهبُ إلى نيقوسيا أُعاني من مشكلةِ المياه. لا أستطيعُ الشربَ منها البتَّة. فمذاقُها لا يُقارنُ بمذاقِ ماءِ الجبلِ العذبِ عندَنا هنا. لكنْ، بالنسبةِ لأهلِ المدينة، مذاقُ الماءِ جيِّدٌ جدًّا. وهذا يُشبهُ علاقتَنا مع اللّٰه. فهناك مرحلةٌ في حياتِنا لا نختبرُ فيها اللّٰه مُطلقًا، وبالتالي، لا نفتقدُ إليه. ثمَّ، إثرَ إستنارةٍ مفاجئةٍ أو بعد ممارسةٍ طويلةٍ، نحصلُ على ومضاتٍ لحضورِه. خِبرتي المتواضعةُ عن اللّٰهِ ساعدَتْني في فهمِ ما عَناهُ السيِّدُ المسيحُ حقًّا بقولِه: 'أنا هو نورُ العالمِ'.

إذَّاك، أدركْتُ مقدارَ الظلمةِ التي كنتُ أعيشُ فيها حتَّى تلكَ المرحلة. كانتْ ظلمةً كثيفةً جدًّا بحيثُ يُمكنكَ أنْ تُمسكَها بيدَيك، بل حتَّى أنْ تقطعَها بسكِّين. نحنُ نَرضى العيشَ في الظلمةِ لأنَّنا نعيشُ في جهلٍ. فالمعرفةُ تبزغُ عندما نَختبِرُ النورَ، وليسَ قبْلَ ذلك. أتَرى، حينما نكونُ قابعينَ في الظلمة، نفترضُ أنَّها الحالةُ الطبيعيَّةُ للأشياء، لا بلْ نراها جميلةً أيضًا».

أخبرتُ الأبَ مكسيموس بأنَّ ما قالَه ذكَّرَني بمَثَلِ الكهفِ لأفلاطون. كتبَ أفلاطون أنَّ معظمَ الناسِ يعيشونَ في كهفٍ مُظلمٍ. وقد قُيِّدوا إلى أعمدةٍ، لا ينظرونَ إلاَّ الحائطَ أمامَهم. والنورُ الذي يأتي من مدخلِ الكهفِ يُحدِثُ ظلالًا على الحائط، لذا يحسَبونَها حقائقَ. ثمَّ يفترضُ أفلاطون أنَّ بضعَةَ أنفسٍ

شجاعةٍ إستطاعتْ أنْ تَحُلَّ أغلالَها، وبصعوبةٍ بالغةٍ وجهدٍ كبيرٍ، زحفتْ خارجًا واختبرتْ نورَ الشمس. هؤلاءِ المُحرَّرونَ أضحَوا مُنتشينَ باكتشافِهم. وقرَّروا العودةَ إلى الكهفِ معتبرينَ ذلك مهمَّةَ حياتِهم الأساسيَّةَ، ليُخبِروا أصدقاءَهم بالبشارةِ السارَّة، بأنَّ هنالكَ حياةً ونورًا خارجَ الكهفِ، وبأنَّه ليسَ من الضروريِّ أنْ يصرِفوا حياتَهم في الظلمة. رغمَ ذلك، عندما أعلَنوا عن اكتشافِهم، لم يصدِّقْهم أحد. فأَغلَبُ السجناءِ يُفضِّلونَ أنْ يبقَوا مقيَّدينَ في أغلال، مُعتبرينَ انعكاسَ ظلِّهم العالمَ الحقيقيَّ الوحيد.

أشارَ الأبُ مكسيموس: «نورُ أفلاطونَ خارجَ الكهفِ، هو في الواقعِ المسيحُ، والذين رأوا النورَ هم القدِّيسونَ الذين كانوا شهودًا للنورِ عبرَ الدهور. وساكنو الكهفِ الرافضونَ الاستجابةَ لنداءِ البشارة، هم أولئكَ الذين أغلقوا قلوبَهم، فلا يمكنُهم تلقِّي البشارةِ السارَّة. لذلك، ينصحُ الشيوخُ القدِّيسونَ أنَّه، قبلَ أنْ تتحدَّثَ مع الآخرِ عن اللّه، صلِّ أوَّلًا من أجلِه لكيْ تتقدَّمَكَ نعمةُ اللّهِ وتُهَيِّئَ أرضًا صالحةً لنقلِ البشارة[٣٧]. لكن، رغمَ ذلك، فالذين أُغلِقَتْ قلوبُهم، ليس في مستطاعِهم اختبارُ النورِ إطلاقًا».

وتابعَ الأبُ مكسيموس قائلًا إنَّ العلاجَ النهائيَّ والمطلقَ للقلبِ يَتطلَّبُ جهدًا بالغًا قبلَ أنْ يُمنحَ معرفةَ اللّه: «كما حدَّثْنا البارحة، معرفةُ اللّهِ لا تُكتسَبُ من خلالِ كتبِ اللاهوتِ والعقيدة. فبلوغُ معرفةِ اللّه، يتحقَّقُ فقط

٣٧ يجب الاَّ نبادر إلى التكلّم في الأمور الروحيّة من دون الإستنارة. الإستنارة التي ستحملنا على الكلام. فجيّد إذًا أن ننتظر دائمًا. لأنّه ليس أعجز من الفكر الذي يتفلسف خارج اللّه في أمور اللّه. (راجع القديس ذيادوخس: مائة مقالة في المعرفة الروحيّة. تعريب دير مار جرجس الحرف. ١٩٩٢). وأيضًا. «الربُّ الإله يُعطي الكلمة للذين يبشِّرون بها بقوَّةٍ كبيرة» (مز ٦٧: ١٠-١١).

بالجهاداتِ الروحيَّةِ الطويلةِ والشاقَّة».

راحَ الأبُ مكسيموس ينقلُ بينَ أصابعِ يدَيه، في صمتٍ، حبَّاتِ مسبحتِهِ التي لا تفارقُهُ أبدًا. وكأنَّها تُعطيهِ قوَّةً وطاقةً إضافيَّتين. ثمَّ تابعَ قائلًا: «فقَدْنا معرفةَ اللهِ لمَّا حوَّلْنا الكنيسةَ مِنْ خبرةٍ إلى علمِ اللاهوت، مِنْ حقيقةٍ حيَّةٍ إلى مبادئَ أخلاقيَّة، إلى قِيَمٍ صالحةٍ ومُثُلٍ عُليا. إذَّاك، صِرْنا مثلَ علبِ التنكِ الفارغة».

خرجتْ كلماتُ الأبِ مكسيموس بانفعالٍ وبغيرةِ التقوى. ما زلتُ أتذكَّرُ حادثةً سابقة، حيثُ وبَّخَ الأبُ مكسيموس ممازِحًا مجموعةً من الطلابِ الشبابِ حينَ قدِموا إلى الديرِ وعرَّفوا عن أنفسِهم بـ'لاهوتيِّين'. قالَ مستثيرًا ايَّاهم: «أنْ تدعوا أنفسَكم لاهوتيِّين، يعني أنَّكم أصبحتم متنعِّمينَ بمعرفةِ الله، مثلَ القدِّيسِ يوحنَّا اللاهوتيِّ أو القدِّيسِ باسيليوسَ الكبير. أليسَ كذلك؟ هل بإمكانِكم أنْ تَدْعوا حقًّا أنفسَكم لاهوتيِّينَ لمجرَّدِ أنَّكم قرأتم بعضَ الكتبِ ونلتمْ شهادةً جامعيَّةً في ما يُسمَّى 'علمَ اللاهوت'؟ ألا تعتقدُونَ أنَّ هذا تجاسرٌ كبيرٌ من ناحيَتِكم؟»

في ذاكَ اليوم، أوضحَ لهم الأبُ مكسيموس الفرقَ بين معرفةِ اللهِ من خلالِ دروسِ اللاهوت، وبينَ معرفةِ اللهِ عن طريقِ القلب. أخبرَهم أنَّ فلاَّحًا فقيرًا ومتواضِعًا قدْ يُصبِحُ قدِّيسًا، نتيجةَ جهادٍ روحيٍّ شاقٍّ وصلاةٍ دائمة، وبهذا يكتسبُ معرفةَ الله، بينما مَنْ يُصَدِّرُ مجلَّداتٍ في اللاهوتِ مِنَ العلماء، ويتفاخرُ بإنجازاتِهِ الزمنيَّة، قد يكونُ جاهلًا اللهَ تمامًا.

وتابعَ كلامَهُ قائلًا: «بعدَ الجهل، الذي هو أوّلُ أمراضِ القلب، يأتي مرضٌ آخرُ مرتبطٌ به، هو النسيان. فالقلبُ لا يتذكّرُ الله. نَسِيَ كيفَ يكونُ في حالةِ صلاة».

سألتُهُ متعجّبًا: «أيُعتبرُ مرضًا أنْ لا يكونَ القلبُ في حالةِ صلاة؟»

- «بالطبع. أوضحَ القدّيسونَ الحقيقةَ التاليةَ مرارًا عبرَ القرون، أنَّ الحالةَ الطبيعيَّةَ للإنسانِ هي التأمُّلُ وذكرُ الله. ولا أعني بذلكَ ذِكْرًا عقليًّا لله، بل ذِكْرًا يعمَلُ من داخلِ القلب».

- «كَيفَ ذلك؟ كيفَ يُمكن لي أنْ أذكُرَ الله في القلب؟ من السهلِ عليَّ أنْ أُومِئَ وأوافقَك الكلام. ولكنَّ كيفيَّةَ الوصولِ إلى حالةٍ كهذه لا تزالُ مبهمةً تمامًا بالنسبةِ لي».

- «دعني أوضِّح. إنَّ العقلَ هو شكلٌ من أشكالِ الطاقة، أليس كذلك؟ لذا، من الطبيعيّ القولُ إنَّ كلَّ ما نقومُ به من أعمال، أكانَ قراءةً أو كتابةً أو مسحَ الأرضِ أو طبخًا أو ما إلى ذلك من الأعمال، نُنجزُهُ عن طريقِ العقل. فالعقلُ في تلكَ الأثناءِ يعمل. أمّا بالنسبةِ لأولئكَ المُنشغلينَ في الجهاداتِ الروحيَّة، فالمركزُ الأكثرُ أهمّيَّةً، مركزُ القلب، هو الذي يعملُ في تلكَ الأثناءِ أيضًا. إذ، بينما يكونُ عقلُهم مُركّزًا على نشاطٍ مُحدَّد، كغسلِ الصحونِ مثلًا، يعملُ قلبُهم شيئًا آخرَ في الوقتِ نفسِه. أنا مُدرِكٌ تمامًا مدى صعوبةِ فهمِ هذا الأمر. لكنْ صدّقْني، إنَّه أمرٌ ممكن. فيما يكونُ المصلّي مشغولًا باهتماماتٍ دنيويَّة، يكون قلبُه ملتصقًا بالله، عائشًا معَه، عاملًا فيه، وفرِحًا لحضورِه الدائمِ

الثابت. حتَّى أثناءَ النوم، قلبُه يعملُ بنعمةِ الروحِ القدس».

قاطعْتُه قائلًا: «أظنُّ أنَّ ذلكَ يحدُثُ طبيعيًّا عندما يُتقِنُ المرءُ فَنَّ الصلاةِ وكيفِيَّةَ الصلاةِ دونَ انقطاع. هذا ما ذكرْتَهُ من قبل، أليس كذلك؟»

– «بالضبط. المنهجُ المتَّبَعُ ضمنَ التقليدِ الروحيِّ الآثوسيِّ، لبلوغِ هذه الحالةِ من الصلاةِ الدائمة، هو إتقانُ صلاةِ اسمِ الربِّ يسوعَ دونَ انقطاع: 'يا ربِّي يسوعُ المسيح، إبنَ الله، ارحَمْني أنا الخاطئ'. صلاةُ يسوع هي الطريقُ العمليُّ لتحريكِ آليَّةِ القلب، فتنكشفُ النعمةُ الإلهيَّة. أتَرى يا كيرياكو، قوَّةُ اللّه تكمُنُ في اسمِ يسوع. باستدعاءِ اسمِ يسوعَ بلا انقطاع، نحنُ ندعو النعمةَ الإلهيَّةَ لتملكَ على قلوبِنا وعقولِنا، وتحمينا من كلِّ التأثيراتِ المؤذية. فكما أوضحَ الشيخُ صفرونيوس، اسمُ يسوع القدُّوسُ هو للمؤمنِ سورُ قلعةٍ عالٍ، يُعطي النفسَ القوَّةَ لمقاومةِ كلِّ التأثيراتِ المؤذيةِ المُغيرةِ عليها من الخارج».

– «ليسَ من السهلِ إبقاءُ العقلِ مُركَّزًا على الصلاة. كيفَ يمكنُ لي أنْ أقرأ كتابًا، أو أُلقيَ محاضرةً وأكونَ في الوقتِ عينِهِ في حالةِ صلاة؟ أنا مشوَّشٌ ومحتارٌ في استيعابِ هذا الأمر. في الحقيقة، أتذكَّرُ ما قرأتُهُ في كتابٍ لأحدِ الشيوخِ حيثُ يقترحُ أنَّهُ على من لا خبرةَ لهم في الصلاة، ألاَّ يحاولوا الصلاةَ فيما يمارسون أعمالًا فكريَّةً مُجهِدة، كإلقاءِ محاضرةٍ أو قراءةِ كتابٍ أكاديميّ. فإذا حاولْنا ممارسةَ العملَينِ معًا، سننتهي بعملِ كِلَيهما بشكلٍ سيِّئ».

أجابَ الأبُ مكسيموس: «إنَّها نصيحةٌ حكيمةٌ بالتأكيد، فمنَ الأسهلِ في بدايةِ مرحلةِ التدريبِ أنْ تُردِّدَ كلماتِ الصلاةِ وأنتَ تعملُ بعضَ المهامِ

التي لا تتطلَّبُ تركيزًا، كغسلِ الصحونِ مثلًا. لكنَّ انعدامَ خبرتِكَ يجبُ ألاَّ يُثبِّطَ عزيمتَك. فهذا تحدٍّ يُمكنك أنْ تتغلَّبَ عليهِ معَ الوقت. تذكَّرْ أنَّك في مراحلِ التدريبِ الروحيِّ الأُولى، ليس عليكَ أنْ تهتمَّ لنوعيَّةِ الصلاة، أكانَ عقلُكَ مُركِّزًا على الصلاةِ أم لا. فمهما فعلتَ في تلكَ المرحلة، سيكونُ فكرُكَ شاردًا، لا مهربَ من ذلك. لكنَّ الصلاةَ لها قوَّتُها الخاصَّةُ وطاقتُها. فبتكرارِ هذه الصلاة، في عقلِك أو بشفتَيك، سيكونُ لها تأثيرُها التدريجيُّ داخلَ عالمِك الحسّيّ-الروحيّ. صدِّقني، إنَّها تعملُ كالجرَّافةِ التي تَشُقُّ الطريقَ بتكسيرِ الصخورِ تدريجيًّا، ثمَّ تدفعُها جانبًا. هكذا تعملُ الصلاة. فهي تفتحُ الطريقَ للنعمةِ الإلهيَّةِ لزيارةِ القلب. وما إنْ يحدثُ ذلك، حتَّى يعملَ القلبُ من تلقاءِ ذاتِهِ بمَعزلٍ عن أيِّ عملٍ آخرَ تقومُ به أنت. فالقلبُ يدخلُ في علاقةٍ متناميةٍ مع اللّه».

- «أفترضُ، أنَّ النسيانَ، مرضَ القلب، يضمحلُّ بهذه الطريقة».

- «تمامًا. فذِكْرُ اللّهِ الدائمُ يعودُ إلى القلب. هكذا يعودُ الإنسانُ إلى حالتِهِ الطبيعيّةِ قبلَ السقوط، بالضبطِ كما خُلِقَ على صورةِ اللّه. لِهذا سترى الرهبانَ بينما يُتابعونَ شتَّى الأعمال، صغيرةً كانتْ أمْ كبيرة، يُردِّدونَ الصلاةَ بلا انقطاع».

عندما زُرتُ جبلَ آثوس، وتعرَّفتُ بمنهجِ هذه الصلاةِ التي تُقالُ وتردَّدُ بتحريكِ الشفاه، أو تُردَّدُ فقطْ في العقل، صُدِمْتُ وبدا لي الأمرُ غريبًا للغاية. أثناءَ إقامتِي في ديرِ الفائقةِ القداسة، جلَسْتُ مع مجموعةٍ من الرهبانِ في حلقةٍ

دائريَّةٍ نُقشِّرُ البطاطا في صمت. تطوَّعْتُ لمساعدَتِهم، ووَجدْتُ نفسي أتناوَبُ في تلاوةِ الصلاةِ مرارًا بطريقةٍ جَهْرِيَّة. في ذلكَ الوقت، بعيدًا عن اعتباري ايَّاهُ أمرًا غريبًا، بدا لي هذا التدريبُ طبيعيًّا جدًّا واعتبرتُه شكلًا من أشكالِ التأمُّلِ الجماعيّ، وهو أمرٌ ما كنتُ لِأُحسَّ بالارتياحِ للقيامِ به أبدًا في جامعةِ ماين. بدأتُ أخيرًا بالتأقلمِ مع الحضارةِ الرهبانيَّة.

سألتُ الأبَ مكسيموس: «هل هذه الممارسةُ تلائمُ الرهبانَ والنسَّاكَ فقط؟»، وفي خلفيَّةِ ذهني اعتراضاتُ النقَّادِ العلمانيِّينَ حولَ الرهبانيَّة، في أنَّ كلَّ ما يعملُهُ الرهبانُ يعودُ لهم، وينطبِقُ عليهم، ولا علاقةَ له بالبشرِ العاديِّينَ العائشينَ في العالم.

أجابَ الأبُ بتأكيد: «كلَّا، أيُّ إنسان، أكانَ راهبًا أمْ علمانيًّا، يُمكنُهُ أنْ يتدرَّبَ على ممارسةِ الصلاة، ويَلمُسَ النتائجَ مع مرورِ الوقت. فالمشكلةُ تكمُنُ فقطْ في أنَّ الناسَ لا يرغبونَ في بذلِ الجهد، أو هم لا يؤمنونَ بأنَّ شيئًا سيحدُث. لكن، استنادًا إلى شهاداتِ القدِّيسينَ والشيوخِ العظماءِ وخبراتِهم المتراكمة، الصلاةُ المستمرَّةُ هي المفتاحُ إلى تنقيةِ القلب، لكي يتلقَّى مواهبَ الروحِ القدسِ والنعمةَ الإلهيَّة».

ونَصحَ الأبُ مكسيموس بأنْ يُردِّدَ الناسُ صلاةَ اسمِ الربِّ يسوعَ في كُلِّ فرصةٍ متاحةٍ لهم في حياتِهم اليوميَّة، أكان ذلك أثناءَ وقتِ فراغِهم أو أثناءَ قضائِهم عملَهمُ اليوميَّ الرتيبَ الذي لا يتطلَّبُ تركيزًا. علاوةً على ذلك، يمكنُ للعلمانيِّين تكريسُ بِضْعِ دقائقَ في الصباح، وبضعِ دقائقَ أُخرى في المساءِ

للتركيزِ حصريًّا على الصلاة. فمِن خلالِ الممارسةِ المطوَّلةِ والمنظَّمة، ستنشطُ الصلاةُ تلقائيًّا من ذاتِها، بغضِّ النظرِ عمَّا يعملُهُ المرء. وأصرَّ أنَّ منهجَ هذه الصلاةِ الدائمةِ قد وضعَه الرهبانُ والنسَّاكُ كأحدِ طرائقِ التدريبِ الروحيِّ لبلوغِ الكمال، لكنَّه، في الواقع، قابلٌ للتطبيقِ على البشرِ أجمعين.

توقَّفتُ، مضطرًّا، عن متابعةِ حديثي مع الأبِ مكسيموس، عندما جاءَتْ امرأةٌ للاعتراف. هي في منتصفِ الثلاثيناتِ من العمرِ، وكانتْ تلبسُ ثيابًا سوداء. لم يكنْ ذاكَ اليومُ مُخصَّصًا للاعتراف، لكنْ كما لاحظتُ مرَّةً بعدَ أُخرى، أنَّ الأبَ مكسيموس يخرقُ النظامَ لحالاتٍ طارئة. فالمرأةُ فقَدَتْ منذُ أيَّامٍ قليلةٍ زوجَها في حادث، وكانت في حالةِ اضطرابٍ عاطفيٍّ هائل.

بانتظارِ عودةِ الأبِ مكسيموس، رُحتُ أفكِّرُ في صلاةِ اسمِ الربِّ يسوع. فمنذُ بضعةِ أيَّام، قرأتُ كتابَ تيموثي وِير (المطران كاليستوس) «الكنيسةُ الأرثوذكسيَّة: إيمانٌ وعقيدة»، حيثُ يشرحُ قوَّةَ هذه الصلاةِ بالتحديدِ وتأثيرَها على حياةِ الناس. كتَبَ وِير:

> «تمتازُ صلاةُ يسوع بمرونةٍ رائعة. فهي ملائمةٌ جدًّا للمبتدئين، كما أنَّها تُعتبرُ الصلاةَ المؤدِّيةَ إلى أعمقِ أعماقِ الحياةِ التأمُّليَّة. ويُمكنُ لكلِّ إنسانٍ أنْ يستخدمَها، في أيِّ وقت، في أيِّ مكان: أثناءَ انتظارِه الباصَ أو القطار، وأثناءَ المشي، وخلالَ السفر، وفي العمل، وفي حالاتِ الأرق، وفي فتراتِ القلقِ الشديدِ حينَ لا يستطيعُ تركيزَ تفكيرِه في أيِّ شكلٍ من أشكالِ الصلاة»[٣٨].

٣٨ راجع: تيموثي وير، الكنيسة الأرثوذكسية: إيمان وعقيدة، منشورات النور، ١٩٨٢، ص. ١٣٩.

انتَشرَتْ صلاةُ يسوعَ، خارجَ الحضارةِ الرهبانيَّةِ الأرثوذكسيَّةِ الشرقيَّة، عن طريقِ الكتابِ الروسيِّ الكلاسيكيِّ «سائحٌ روسيٌّ على دروبِ الربّ»[٣٩] الصادرِ في القرنِ التاسعَ عشر. يروي هذا الكتابُ، المجهولُ مؤلِّفُه، عن المغامراتِ الروحيَّةِ لفلاَّحٍ روسيٍّ انطلقَ مشيًا على الأقدامِ في رحلةِ حجٍّ إلى الأماكنِ المقدَّسةِ والكنائسِ في جميعِ أنحاءِ روسيًا وهو يتلو بلا انقطاعٍ صلاةَ يسوع التي تَعلَّمَها من أحدِ الشيوخ. رسخَ في ذهني مقطعٌ مميَّزٌ من الكتابِ يُخبرُ عن التأثيرِ العميقِ لصلاةِ يسوعَ على حياةِ هذا السائح:

«وهكذا أَمضي الآن، مُردِّدًا بلا انقطاعٍ صلاةَ يسوع، وهي لي أثمنُ من أيِّ شيءٍ في الدنيا. أحيانًا أعبرُ مسافةَ أربعةٍ وأربعينَ ميلًا في اليومِ ولا أحسُّ بأنَّني أَمشي. أشعرُ فقط بأنِّي أتلو الصلاة. وحينَ يقرُصُني البردُ أتلو صلاتي بحماسةٍ أكبر، وسرعانَ ما أشعرُ بالحرارةِ تَسري في جسمي. وحينَ أشعرُ بالجوع، أعمَدُ إلى تردادِ اسمِ يسوعَ مرَّاتٍ عديدة، فأنسى رغبتي في تناولِ الطعام. وحينَ أكونُ طريحَ الفراشِ وأشعرُ بآلامٍ في ظهري وساقيَّ، أُركِّزُ كلَّ انتباهي على صلاةِ يسوعَ ولا أعودُ أحسُّ بآلامي. وإذا عمَدَ أحدٌ لإيذائي، يخطرُ ببالي فقطْ كم عذبةٌ هي صلاةُ يسوع، فيتبدَّدُ الألمُ والغضبُ وأنساهما تمامًا... وأشكرُ الله لأنَّني أُدرِكُ الآنَ معنى الكلماتِ التي سمعتُها في الرسالة: صلُّوا بلا انقطاع».

* * *

٣٩ سائحٌ روسيٌّ على دروبِ الربّ. نقلَه إلى العربيّة أنطوان جرجي - منشورات النور ١٩٨٢.

خرجتِ المرأةُ المضطربةُ منْ غرفةِ الاعترافِ وهي تمسحُ دموعَها ومضَت. مشى الأبُ مكسيموس إلى حيث كنتُ جالسًا أنتظرُه. ذكرْتُ له ما كنتُ أُفكِّرُ به فيما يتعلَّقُ بصلاةِ يسوع، فوعدَني بمناقشةِ هذا الموضوعِ البالغِ الأهمِّيَّةِ قبلَ مغادرتي إلى ماين. ثمَّ استأنفْنا مناقشتَنا حولَ أمراضِ القلب.

- «أبانا مكسيموس، لقدْ ميَّزْتَ حتَّى الآنَ إثنَينِ منْ أمراضِ القلبِ، هما الجهلُ والنسيان. أهُناك أمراضٌ أُخرى؟»

- «نعم. هناك مرضٌ آخر، يدعوه الآباءُ الشيوخُ 'القساوة' أو 'صلابةَ القلب'. قدْ يرغبُ شخصٌ ما بحرارةٍ في سماعِ كلمةِ اللّهِ وفي الاتّحادِ به، وأنْ يكونَ على اتّصالٍ بالحكمةِ التي تأتي منه، لكنَّ القلبَ عسرُ الاختراق. النعمةُ الإلهيّةُ لا تستطيعُ دخولَ جوهرِ ذاكَ الشخص. القلبُ لا يسمحُ لبذرةِ نعمةِ اللّهِ أنْ تُنشِئ جذورَها فيه. واستنادًا إلى خبرةِ القدّيسين، هذا مُعطًى لنا جميعًا. إنْ تصوَّرْنا أنفسَنا قطعةَ أرضٍ، وبدأْنا بحفْرِها وزراعَتِها بالصلاة، سنلاحظُ بادِئَ الأمرِ أنَّ التربةَ قدْ تكونُ ناعمةً وسهلةً نسبيًّا للحراثة. لكن، مع مواصلةِ عمليَّةِ الحفر، نصلُ إلى طبقةٍ مليئةٍ بالحجارة. ومتى تَعمَّقْنا أكثر، نصلُ إلى صخرةٍ صلبة. مثلَ البَذْرِ على الغرانيت. لا شيءَ يمكِنُ أنْ يخترِقَه».

بدا الأبُ مكسيموس جِدّيًا ومستغرقًا في التفكير، كَمَنْ يتكلَّمُ من نبعِ خبرةٍ مباشرة.

- «وماذا يحدثُ بعدَ ذلك؟»

أجابَ بنبرةٍ متجهّمةٍ: «تصبحُ القسوةُ منيعةً لدرجةٍ أكبر»، ثمَّ بقيَ جِدّيًا

بِضْعَ ثوانٍ أخرى.

- «وما سببُ ذلك؟»

رفعَ الأبُ أصابعَ يدِهِ اليُمنى الوسطى الثلاثة، وأجاب: «لأمورٍ ثلاث: الانشغالُ الزائدُ بالشؤونِ الدنيويَّة، التركيزُ على الملذّاتِ الجسديَّة، والهوسُ بجمعِ المال. هذه أهواءٌ ثلاثةٌ أساسيَّةٌ تُصلِّبُ القلب. فهي تَسلُبُهُ قوَّتَه، فيصعبُ عليه تحويلُ طاقتِهِ نحوَ اللّٰه. نحنُ نستهلِكُ هذه الطاقةَ الحيويَّةَ بالانشغالاتِ الدنيويَّةِ والإغراءاتِ المختلفةِ من حولِنا. ويصبحُ انتباهُنا مُجزَّأً، مُبعثرًا».

احتججْتُ قائلًا: «لكنْ يا أبانا مكسيموس، ليسَ في إمكانِ كُلِّ شخصٍ أنْ يصبحَ راهبًا أو أنْ يُقدِمَ على ذلك».

- «أنا لا أقترحُ ذلك. إنَّما أوضِّحُ فقطْ كيفَ يصيرُ القلبُ صلبًا، قاسيًا، بسببِ الاهتماماتِ والاغراءاتِ العالميَّة. نحنُ نحتاجُ فقط أن نعرفَ ذلك، ونبقى يَقِظين مركّزينَ ذهنَنا على ذكرِ اللّٰهِ دومًا، بغضِّ النظرِ عنْ كونِنا رهبانًا أمْ نسّاكًا، أو أُناسًا عاديِّينَ يَعيشونَ في العالم. على سبيلِ المثال، عندَ النهوضِ من النوم، يمكنُ لأيِّ شخصٍ أنْ يبدأَ يومَهُ بالصلاة. إذا فعلْتَ ذلك، أكنتَ راهبًا أم علمانيًّا، ستُلاحظُ ما يلي: عندما تهذِّبُ العقلَ لينشغلَ باللّٰهِ لحظةَ النهوضِ من النومِ كلَّ صباح، سينفتِحُ يومُكَ كزهرةٍ من نبعِ الصلاة، وسيجلُبُ لكَ ذلك سلامًا داخليًّا مُؤكَّدًا».

- «أهذا هو الطريقُ لبدءِ كَسْرِ حجرِ الغرانيت؟»

- «إنَّها خطوةٌ أُولى. فطَرْقُ تلكَ الصخرةِ الصلبةِ عبرَ الصلاة، يتطلَّبُ جهدًا وصبرًا عظيمَينِ وطلبَ العونِ من اللّهِ لتَفْتيتِها. لكنَّه عملٌ يستحقُّ الجهدَ والتعب. وهذا ما كتبَه الملكُ داودُ في أحدِ مزاميرِه: «القلبُ المنسحقُ والمتواضعُ لا يرذُله اللّه». هكذا يُصلِّي القدِّيسون. يسألونَ اللّه أنْ يسحقَ قلوبَهم».

ضحِكَ الأبُ مكسيموس، إذ تذكَّرَ حادثةً من حياةِ الشيخِ پاييسيوس: «قبْلَ التحاقِه بِجَبلِ آثوس، عاشَ الشيخُ پاييسيوس لفترةٍ من الوقتِ كناسكٍ متوحِّدٍ في مدينةٍ قربَ مسقطِ رأسِه في شمالِ اليونان. ومن أجلِ تناولِ القدساتِ كُلَّ يومِ أحد، كان يَمشي سيرًا على الأقدامِ مِنْ منسكِه إلى الكنيسة. ويبقى في الهيكلِ ليساعدَ الكاهنَ في خدمةِ القدّاسِ الإلهيّ. لم يكُنْ يستطيعُ أنْ يخدمَ القدّاسَ الإلهيَّ لأنّه لم يرسمْ كاهنًا».

- «أبدًا!؟ لماذا؟»

- «فضَّلَ الشيخُ پاييسيوس أنْ يكونَ مجرَّدَ راهبٍ يعيشُ حياةَ ناسكٍ بسيط، رافضًا الرسامةَ الكهنوتيّة. وكما تعلم، لا يُرسمُ كُلُّ الرهبانِ كهنة. على أيّةِ حال، ذاتَ أحد، وأثناءَ توجُّهِهِ إلى الكنيسة، طلبَ الشيخُ پاييسيوس من اللّهِ وهو يصلِّي أنْ يواضِعَهُ و«يَسْحَقَ» قلبَه. دخلَ مباشرةً إلى الهيكلِ لمساعدةِ الكاهن، منتظِرًا دورَهُ لتناولِ القُدُسات. وبينما كانَ الكاهنُ على وشكِ أنْ يناوِلَه، ومن دونِ أيِّ سبب، أطلقَ عِنانَ هجومٍ فتّاكٍ على الشيخِ پاييسيوس المسكين. أخبرَهُ أنَّهُ مُزعِجٌ وأنَّهُ سئِمَ رؤيتَهُ ووجودَهُ في الهيكلِ

أحدًا بعدَ أحد. اندهشَ الشيخُ باييسيوس إزاءَ هذا الموقفِ غيرِ المنتظَرِ وغيرِ المفهوم. ثمَّ تذكَّرَ ما صلَّى لأجلِهِ وهو في طريقِهِ إلى الكنيسة. بعدَ انتهاءِ خدمةِ القدّاسِ الإلهيّ، اقتربَ الكاهنُ منهُ واعتذرَ متأسِّفًا كثيرًا لانفجارِهِ المفاجِئ. فانحنى الكاهنُ أمامَ الشيخِ باييسيوس، قبَّلَ يدَه، سائلًا المغفرةَ وقالَ له شاكيًا: 'أنا لا أعرفُ ما الذي تملَّكَني ودفعَني لفعلِ ذلك'».

- «أَيَعني ذلك أنَّنا يجبُ أنْ نصلِّيَ ليمنحَنا اللّٰه قلبًا منسحقًا ومتواضعًا؟»

- «إنَّها إحدى الطرائق. لكن، بالطبع، يحدثُ ذلكَ عن طريقِ جهاداتٍ منتظِمة: بالصوم، والصلاةِ بلا انقطاع، بالسهرانيّات، بالعمل، وما شابه. والأهمُّ من ذلك، هو أنْ يتعلَّمَ البشرُ كيفَ يصبرونَ ويتحمَّلونَ الأحزانَ الكثيرةَ التي لا مفرَّ منها، والتي سيُصادفونَها في الحياة».

- «هذا التشديدُ على الصبر يعتبرُهُ نقّادُ الدِّينِ انحرافًا عن الاحتِجاجِ على الظلمِ الشخصيِّ والاجتماعيّ. بعضُ الناسِ يقولونَ إنَّهُ أيديولوجيَّةٌ تخدمُ مصالحَ السلطاتِ القائمة، مستخدِمينَ الدينَ كـ 'أفيونٍ للشعوب'».

لوَّحَ الأبُ مكسيموس بيدِهِ رافضًا الكلامَ برُمَّتِه: «هذا هُراء، تعلَّمْ كيفَ تتقبَّلُ الأحزانَ وحالاتِ الفشلِ الشخصيَّةَ ضمنًا، كعطيَّةٍ منَ اللّٰه. فمِنْ خلالِ تجاربِ الحزنِ والألم، تُتاحُ للبشرِ الفرصةُ لوضعِ حجارةِ قلبِهم في مطحنةٍ تفتِّتُها. يجبُ أنْ يختبروا تلكَ الأحزانَ القلبيَّة، فمِنْ خلالِ الأسى قدْ يخرجونَ مُنتصرين. الحياةُ نفسُها هي شكلٌ من أشكالِ الجهاد. الناسُ لا يُميِّزونَ ذلك فتَفتُرُ همَّتُهم

ويعكُفُونَ عن متابعةِ الجهاد».

اقتبستُ قولَ الفيلسوفِ الألمانيِّ فريدريخ نيتشه المشهور، وتمتمتُ: «ما لا يقتلُني يمنحُني القوّة».

وافقَ الأبُ مكسيموس مومِئًا برأسِه بالإيجاب. كنتُ متأكِّدًا تمامًا رغمَ موافقتِهِ أنَّهُ ما سبقَ له أنْ سمعَ بنيتشه.

ثمَّ تابعَ قائلًا: «لهذا، في سفرِ الرؤيا، يُشارُ إلى القدّيسين بـ 'الذين مرُّوا بأحزانٍ كثيرة'. فحياتُهم لمْ تكنْ سهلة».

قُلتُ موَضِّحًا: «هذهِ رسالةٌ لا تجذبُ مَنْ تعوَّدَ مِنَ الناسِ على الراحةِ وملذّاتِ هذه الحياة».

- «نعم، أعرفُ ذلك. لكنَّ الحزنَ جزءٌ منَ الحياةِ يستحيلُ تجنُّبُه، بغضِّ النظرِ عن المكانِ والزمانِ الذي تعيشُ فيهما. إنّه سمَةٌ تكامليّةٌ للوجودِ الإنسانيّ».

- «أفهمُ ما تقول، ففي عصرِنا الحديثِ، نرى وَفقَ الإحصائيّات، أنَّ نسبةَ الانتحارِ لم تنخفضْ بل ارتفعت. مع ذلك، رسالةُ الحزنِ والتضحيةِ لا تجذبُ العقلَ الحديث».

- «حسنًا، هذا جزءٌ من مشكلةِ العقلِ الحديث. وما تُعلِّمُهُ الكنيسةُ حولَ هذه الأمورِ مُعَدٌّ لِمَنْ لهم عيونٌ ليرَوا وآذانٌ ليسمعوا. على أيَّةِ حال، عندما أقولُ 'الحزن'، هذا لا يعني أنّنا نحتفلُ بالألمِ كما لو أنّه شيءٌ نتعلّقُ

به ونسعى إليه. بالأحرى، بقدرِ ما يستحيلُ تجنُّبه، نتقبّلُه كعطيَّةٍ من السماء. وهذا القبولُ سيكونُ له تأثيرٌ شفائيٌّ على قلبِك. أَدخِلْ في ذهنِك هذا التعريفَ الجديدَ، أنَّ الألمَ فرصةٌ للنموِّ الروحيّ، لأنَّه هو في الواقعِ كذلك. فنحنُ نحيا في عالمِ جهادٍ مستمرٍّ، سواءٌ أدرَكَ الناسُ ذلك أم لا. هل تتابعُ كلامي؟»

* * *

كلماتُ الأبِ مكسيموس في المعاناةِ والألمِ، ذكَّرتْني بإحدى عمَّاتِ إيميلي اللاجئةِ وبِفيكتور فرانكل Frankl، وهو طبيبٌ نفسانيٌّ من فيينا. كانتْ عمَّةُ إيميلي امرأةً غنيَّةً تعيشُ في فاماغوستا، المدينةِ السياحيَّةِ المزدهرةِ في قبرصَ والتي اجتاحَها الجيشُ التركيُّ عامَ ١٩٧٤. كلاجئةٍ مُجتَثَّةِ الجذورِ فقيرة، اكتشفتْ روحانيَّتَها وأصبحتْ نموذجًا لمحبَّةِ القريبِ والغريبِ وللترفُّعِ عن الذات، في زمنٍ ازدادتْ فيه مرارةُ الآخرينَ من حولِها واشتدَّ غضبُهم. كانتْ حالتُها تطبيقًا كلاسيكيًّا لكتابِ فرانكلَ المشهور، أحدِ الناجينَ من معتقلِ أوسشويتز Auschwitz، حولَ 'علاجِ الكلمة' 'logotherapy'[٤٠]. يُعلِّمُ فرانكل أنَّ أقوى الدوافعِ البشريَّةِ على الإطلاق، ليست 'الغريزةُ الجنسيَّةُ' كما يقولُ سيغموند فْرُويْد، ولا 'حبُّ السيطرة' كما يعتبرُ أَلْفرد أدلر، بل هي، بالأحرى، 'حبُّ معرفةِ القَصد'. لا ينتحرُ الناسُ أبدًا بسببِ الحرمانِ الجنسيِّ بل بسببِ الحرمانِ من معرفةِ معنى حياتِهم. طالما أنَّ المعاناةَ سمةٌ بشريَّةٌ يستحيلُ تجنُّبُها (الموت، المرض، خسارة الأحبَّاء)، فمنَ الممكنِ أنْ تكونَ مصدرًا يُحدِّدُ قصدَ الحياةِ ومعناها، بافتراضِ أنَّ المعاناةَ ليستْ مُنْزَلةً بالنفسِ ذاتيًّا. فعلاجُ الكلمةِ

40 Victor Frankl, Man's Search for Meaning (New York: Pocket Books, 1985).

هو منهجٌ علاجيٌّ نفسيٌّ يُمكِّنُ الإنسانَ من شفاءِ نفسِهِ باكتشافِ المعنى الفريدِ لحالتِهِ الوجوديَّة. فرانكل، نزيلُ معسكرِ الموت، اكتشفَ ما يعنيهِ حبُّ معرفةِ القصدِ من الحياة، أثناءَ محنتِهِ من خلالِ ذكرِهِ لزوجتِهِ (إشتياقِه لينجوَ ويتَّحدَ معَها ثانية) وأُمنيتِهِ الشديدةِ لإعادةِ كتابةِ كتابِهِ 'علاجُ الكلمة'، الذي صادرَهُ النازيُّونَ وأتلفوه عندَ دخولِهِ إلى المعتقل.

شرحتُ باختصارٍ للأبِ مكسيموس العناصرَ الأساسيَّةَ لنظريَّةِ فرانكل. فأَومَأ موافِقًا تمامًا على أفكارِ الطبيبِ النمساويِّ الأساسيَّة. في نَظَرِ الأبِ مكسيموس، كُلُّ كارثةٍ في حياةِ الإنسانِ هي فرصةٌ لاكتشافِ الله. إلَّا أنَّ كُلَّ نجاحٍ وحظٍّ سعيدٍ هو أيضًا فرصةٌ للإنسانِ ليكتشفَ الله. فالأحداثُ السلبيَّةُ كما الإيجابيَّةُ في حياتِنا، هي تجاربُ من عندِ اللهِ المُعينِ لدفعِ نموِّنا الروحيِّ. أمَّا تفاعُلُنا مع التجاربِ بطريقةٍ مفيدةٍ روحيًّا، فهذا عائدٌ كلِّيًّا لنا.

وقد لفتَ انتباهي شيخٌ آخرُ مِنْ قَبل، أنَّ لفظةَ 'تجربة' في اليونانيَّةِ 'peirasmos' تُفيد معنًى أكثرَ شموليَّة. فتُشيرُ أيضًا في اليونانيَّةِ إلى 'محاكمة' أو 'امتحان'. إذًا، باعتبارِ السياقِ الواردةِ فيه، تُشير إمَّا إلى الامتحانِ المرسَلِ من اللهِ إلى الإنسانِ لمساعدتِه على التقدُّمِ في المسارِ الروحيِّ، أو إلى الإيحاءِ الشيطانيِّ تحريضًا له لفعلِ الإثم.

* * *

وَفقَ المقياسِ الغربيِّ، لا يُحسَبُ الأبُ مكسيموس مثقَّفًا. فمعرفتُهُ بالأمورِ الوجوديَّةِ مستمدَّةٌ حصرًا منْ تجربتِهِ الخاصَّةِ ومِنْ دراستِهِ الإرثَ الروحيَّ الذي

خلّفَهُ شيوخُ المسيحيَّةِ القدّيسون. لغتُهُ والأفكارُ التي يستخدمُها لِفهمِ العالمِ تشتقُّ حصرًا من تلكَ الثروةِ الروحيَّة، أي من التقليدِ الآبائيّ. لذا، لم أدخلْ معَهُ مباشرةً في مناقشاتٍ حولَ المفكّرينَ الغربيّين، التي كانتْ لعقودٍ تُشكِّلُ غذائيَ الثقافيَّ الخاصّ. فاهتمامي كان منصبًّا، أوّلًا وقبلَ كلِّ شيء، في تعلُّمِ حكمةِ الأبِ مكسيموس الروحيَّة، لا في مناقشةِ فكرِهِ ومقارنتِهِ مع فكرِ نيتشه، أو فْرويد، أو فرانكل، وغيرِهم. إلاَّ أنّني، واصلتُ حوارًا مستمرًّا لكنْ صامتًا داخلَ فكري، مُقارِنًا تعاليمَ شيوخِ المسيحيَّةِ القدّيسينَ بتعاليمِ مفكّري الغربِ العلمانيّينِ بالإضافةِ إلى تعاليمِ البوذيَّةِ والهندوسيَّةِ الحِكميَّة. عندما تحدَّثَ الأبُ مكسيموس عن 'تنقيةِ القلب'، وجدْتُ صعوبةً في تَجنُّبِ مقارنتِهِ بما دعاهُ بوذا 'الطريقُ الثُمانيُّ النبيل'[٤١]. كنتُ مدرِكًا تمامًا نفورَ المسيحيّينَ الأتقياء، ورهبانِ آثوس ضمنَهم، من أيَّةِ مقارناتٍ بين الوحيِ المسيحيِّ وبينَ الصوفيَّةِ الشرقيَّةِ وممارساتِها الروحيَّة. ففي نظرِ هؤلاءِ المسيحيّين، مقارناتٌ كهذه قدْ تُقوِّضُ الإيمانَ بمركزيَّةِ الوحيِ المسيحيِّ وفرادتِهِ الإلهيَّة، وهذا قلقٌ وتخوُّفٌ ليس في استطاعتي أنا كأكاديميٍّ أنْ أُشاطِرَهم الرأيَ فيه. لذا، تجنَّبتُ إجمالًا الدخولَ في أيِّ نقاشٍ مقارنةٍ حولَ مفهومِ التجربة.

* * *

٤١ الطريق الثُماني النبيل Noble Eightfold path: الأساس الذي تقوم عليه قواعد الإنضباط في البوذية كما رسمها بوذا في عظته الأولى. وهذا الطريق، الذي يتحرر سالكُهُ من الألم ويبلغ آخر الأمر ما يُعرف بالنِّرفانا، يتألف من ثماني مراحل هي: (١) الفهم الصحيح (لتعاليم بوذا). (٢) التفكير الصحيح (المتمثل بعزم المرء على العمل وفقًا لتلك التعاليم). (٣) الكلام الصحيح (بالامتناع عن الكذب والثَّلب والسِّباب). (٤) السّلوك الصحيح (باجتناب القتل والسرقة ومزالق الشهوة الجنسية). (٥) المعيشة الصحيحة (من طريق رفض ممارسة المهن التي لا تتفق والمبادئ البوذية). (٦) الجهاد الصحيح (من أجل تعزيز الخير في نفس المرء واقتلاع جذور الشرّ منها). (٧) الوعي الصحيح (المنطوي على معرفة الذات والسيطرة على المشاعر والأفكار). (٨) والتأمل الصحيح (وفق مراتب تقليدية مُعَيَّنة). (منير بعلبكي، موسوعة المورد العربية، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٠) (المعرِّب).

وتابعَ الأبُ مكسيموس كلامَه قائلًا: «تحدثُ مفارقةٌ غريبةٌ جدًّا في قلوبِ القدّيسينَ الذين يواجهون، لسببٍ أو لآخَر، حزنًا عميقًا. إنّه سرُّ النعمةِ الإلهيّة. في لحظةٍ ما، وفيما هم مثقَلُونَ بالحزن، يحدثُ داخلَ قلوبِهم تحوُّلٌ مفاجِئٌ واستنارة. وعندَ ذاك، يصبحُ اختبارُ الحزنِ الكثيفِ الذي يُثقِلُ قلوبَهم سببًا لفيضٍ عظيمٍ من النعمة، إلى حدٍّ أنّ مرارةَ الحزنِ تزولُ بالكلّيّة. يتحوّلُ الحزنُ إلى فرحٍ لا يوصف. لا أعرفُ إنْ كنتَ تجدُ كلامي هذا معقولًا أم لا، لكنّه صحيح».

طَمْأنتُ الأبَ مكسيموس أنَّ كلامَهُ معقولٌ ومنطقيٌّ بالتأكيد. ثمّ، لازمَ كلانا الصمتَ لِبِضْع ثوانٍ، للتبصُّرِ في ما قيل.

ثمَّ قال الأبُ: «أنا أنصحُ الناس، بعدَ التدرُّبِ على الصبرِ في تحمُّلِ تجاربِ الحزنِ الصغيرةِ العابرةِ وتطبيقِ ذلكَ في حياتِهم اليوميّة، أنْ يتعلّموا تدريجيًّا كيفَ يَقْبَلونَ تجاربَ الألمِ العُظمى التي سيختبرونَها في حياتِهم، والتي لا مفرَّ منها. إذْ بالممارسةِ يتعلّمونَ الثباتَ وعدمَ التَيْهِ تحتَ ثِقلِ تجاربَ كهذه. قدْ يتقطّعُ قلبُهم ويتفتّتُ من الحزنِ والألم، لكنّهم، رغمَ ذلك لا يَتيهون. مشكلةُ الناسِ اليومَ هي عجزُهم عنِ التعامُلِ مع أبسطِ تجربةِ حزنٍ أو ألمٍ تُصادفُهم. وفي أغلبِ الأحيان، يُصابون بالانهيارِ أمامَها، ووحدةُ كيانِهم البشريِّ تتفسّخُ متحطّمة».

وتابعَ مُميّزًا المزيدَ من أمراضِ القلبِ التي تصيبُ الوجودَ الإنسانيّ: «يتحدّثُ الشيوخُ القدّيسون عن العمى والتلوُّثِ كمرَضَينِ من أمراضِ القلبِ

يرتبِطُ كلٌّ منهما بالآخَر. عندما يُعاني القلبُ منَ القسوةِ والتصلُّبِ يعجزُ عن التمييزِ بينَ الخيرِ والشرِّ، ويصيرُ غيرَ قادرٍ على إدراكِ حضورِ اللّٰهِ وسُكناهُ فيه. يُصابُ القلبُ بالعمى.

يسألُ المُشكِّكونَ أحيانًا: أينَ هوَ اللّٰه؟ لماذا لا أَراه؟ لماذا لا يُظهِرُ نفسَه لي لأؤمنَ به؟ أو قدْ يقولون: أعطني برهانًا حسّيًا لا يحتملُ الشكَّ أنَّ اللّٰه موجود. لكنْ كيفَ يمكنُ لأيِّ شخصٍ أنْ يقدِّمَ برهانًا إلى شخصٍ فاقدِ البصر؟ فحالُهم كحالِ رجلٍ فاقدِ البصرِ لا يُصدِّقُ أنَّ هنالكَ ثُريّاتٍ تشعُّ نورًا في وسطِ الظلام. مشكلَتُه تكمنُ فقط في كونِه أعمًى، لذا عيناه لا تُبصرانِ النور. لكنْ من لهم عيونٌ تُبصِرُ، يعلمونَ من خبرتِهم وتجربتِهم أنَّ اللّٰه نافذٌ في كلِّ مفاصلِ الحياةِ وواقعِها. هل تعرفُ كم يكونُ عذبًا شعورُك في تجربةٍ كهذه؟ أنْ تَحيا في الأرض، وتشعرَ بوجودِ اللّٰه في كلِّ مكان؟ إذ ذاك، تصبحُ الحياةُ مملوءةً بالفرح، ويتباركُ كُلُّ شيء. عندما لا تعرفُ نعمةَ اللّٰهِ بالخبرة، تنزِعُ إلى الانتقادِ إزاءَ أقلِّ تحريضٍ، وتلومُ الآخرينَ باستمرار، إذْ تجِدُ فيهم العيبَ دائمًا. في تلكَ الحالةِ الذهنيّة، كما يُعلِّمُ الشيوخُ القدّيسون، يجبُ أنْ تعتبرَ بديهيًا أنَّ المشكلةَ في الحقيقةِ كامنةٌ فيك. أُنظرْ حياةَ القدّيسين، أولئكَ الذين تَعرَّفوا باللّٰه. لنْ تسمعَهم أبدًا يشتكونَ على أحد. لا ينتقدونَ أحدًا، وصدِّقْ أو لا تصدِّق، في أغلبِ الأحيان، لا ينتقدونَ حتّى الشيطانَ ذاتَه».

قلتُ ممتعضًا: «من الصعبِ جدًّا التفكيرُ على هذا النحوِ والاستمرارُ في العيشِ في العالم».

- «إنَّه صعبٌ للغاية. لكنْ هذا هو معنى أنْ يكونَ المرءُ معاينَ اللّه[٤٢].

فحسُّ القدّيسينَ يتبدَّلُ بشكلٍ جذريٍّ نتيجةً لجهاداتٍ طويلةٍ وشاقَّة. خلافًا لنا، هم يُدرِكونَ الأشياءَ من حولِهم بشكلٍ مختلف. يَعُونَ أنَّ اللّه نافذٌ في الخليقة كلِّها، لذا، يرَوْن كُلَّ شيءٍ وكُلَّ شخصٍ في حالتِهِ الحقيقيَّة. يرَوْنَ كُلَّ شخصٍ ككائنٍ يحيا مشمولًا بالعنايةِ الإلهيَّة. لذا، لا شيءَ يُفهَمُ بالنسبةِ للقدّيسِ كواقعٍ عدائيّ. لهذا السبب، ليس لدى القدّيسين أيَّةُ مخاوفَ على الإطلاق. هل سبقَ أنْ تساءلتَ، لماذا نصنعُ نحن الرهبانَ مطّانيَّةً لبعضِنا البعض عندما نلتقي، ونُقبِّلُ أيدي بعضِنا البعض؟»

قلتُ مستغرقًا في التفكير: «إنَّه من وجهةِ نظري كشخصٍ لا ينتمي إلى الجماعةِ الرهبانيَّة، أجِدُ إلقاءَ التحيَّةِ على هذا النحوِ غريبًا للغاية».

قال الأبُ مكسيموس: «كان هذا شعوري تمامًا عندما زرتُ جبلَ آثوسَ للمرَّةِ الأُولى. أتذكَّرُ المرَّةَ الأُولى حينَ رأيتُ راهبَينِ يصنعانِ مطّانيَّةً ويُقبِّلُ الواحدُ يدَ الآخرِ أثناءَ عبورِهما في الطريق. بدا لي الأمرُ وقتذاكَ مُضحكًا جدًّا. بالكادِ سيطرتُ على ضحكي. بالطبع، تعلَّمتُ فيما بعدُ أنَّ هذا السلوكَ يستندُ على الإيمانِ أنَّكَ حينما تُقابلُ شخصًا ما في طريقِك، فأنتَ في الواقعِ تُقابلُ اللّه. وكما نُجِلُّ اللّهَ ونحترمُه، هكذا يجبُ أنْ نُجِلَّ هذا الإنسانَ، لأنَّ هذا الآخرَ العابرَ أمامَك هو حضورُ اللّه. فأنتَ لا تغيِّرُ طريقَ سيرِك لتتفادى اللقاءَ بشخصٍ لا تحبّ». وتردَّدَ لثوانٍ معدودةٍ، ثمَّ تابع قائلًا: «هذا ما أفعلُه عادةً أنا شخصيًّا».

٤٢ «طوبى لأنقياء القلوب فإنهم لله يعاينون» (متى ٥: ٨).

وراحَ يروي حادثةً أُخرى من حياةِ الشيخِ پاييسيوس كَمِثالٍ للسلوكِ الصحيحِ في مثلِ هذه الظروف: «في أحدِ الأيَّام، زارَ خمسةُ شبَّانٍ بغيضينَ ممتلئينَ غطرسةً وتكبُّرًا، منسكَ الشيخِ پاييسيوس البعيد. تحلَّى الشيخُ بالصبر، صارفًا ساعاتٍ عديدةً معَهم، مانحًا ايَّاهم انتباهًا خاصًّا. وكان حاضرًا أثناءَ ذلك أستاذٌ في اللاهوت، هذا لمَّا نفدَ صبرُه قالَ بعصبيَّةٍ شديدةٍ سائلًا الشيخَ: «لمَ تتحمَّلُهم؟»، فأجابَه الشيخُ پاييسيوس: «هلْ سبقَ أنْ تَساءلت لِمَ يتحمَّلُكَ اللّٰه؟»»

* * *

بعدَ تحدُّثِه عن بضعِ خبراتٍ إضافيَّةٍ من حياةِ شيخِهِ المحبوب، عادَ الأبُ مكسيموس ليتابعَ موضوعَ حديثِنا حولَ أمراضِ القلبِ: «عندما يعتادُ القلبُ على الأفكارِ الشرِّيرة، إذَّاكَ يُنتن».

قلت متسائلًا: «أتظنُّ أنَّه حينما تدخلُ الأفكارُ السلبيَّةُ العقلَ فإنَّها تلوِّثُ القلبَ كالڤيروسِ لا محالة؟»

- «ليسَ بالضرورة. فالواقعُ الذي لا مناصَ منه هو هجومُ الأفكارِ السلبيَّةِ علينا. ولكن تبدأُ المشكلةُ عندما نسمحُ لهذه الأفكارِ بدخولِ القلبِ والإقامةِ فيه. أيْ عندما تُصبحُ الأفكارُ الفاسدةُ مزروعةً داخلَ القلبِ ويَعتادُ عليها. ويضحي، في الحقيقة، مستسيغًا لتلكَ الأفكار، مُستمتِعًا بها».

- «إذَّاكَ، يصيرُ القلبُ رهينةً لهذا الإدمان».

- «نعم. يعتادُ القلبُ على استخلاصِ اللذَّةِ والسرورِ منْ إيحاءاتِها العَفِنَة.

ويستحيلُ لمثلِ هذا القلبِ ألَّا يتأثَّرَ بهذا الفسادِ المتنامي في داخلِه. فالاختلافُ بين القلوبِ النقيَّةِ والقلوبِ النتنةِ يَظهرُ في أنَّ القلوبَ النقيَّةَ تُضْحي عاجزةً عن التأمُّلِ في أيِّ فكرٍ فاسدٍ حتَّى لو حاولَت. بينما القلوبُ النتنةُ تعتادُ على إفسادِ وتحريفِ كلِّ ما هو نقيٌّ وطاهر. أتَرى ماذا يحدثُ؟»

أَومأتُ بالإيجاب، وتابعَ الأبُ قائلًا: «الحماقةُ هي من أمراضِ القلبِ أيضًا، وتعني أنَّ القلبَ يُضحي غيرَ مدركٍ ما هي مصالحُهُ الحقيقيَّةُ وما هو خيرُ نفسِه. خذْ على سبيلِ المثالِ رجُلًا يناهزُ الثمانينَ من العمرِ ويتمتَّعُ بثروةٍ كبيرة. فليسَ باستطاعتِهِ في هذا العمر، استعمالُ ثروتِه والاستفادةُ منها، حتَّى لو حاول. رغمَ ذلكَ لا يستطيعُ التوقُّفَ عن الاستغراقِ الكلِّيِّ في تكديسِ المزيدِ من الأموالِ التي ليسَ هو في حاجةٍ إليها».

قلتُ: «في مثلِ هذه الحالات، قدْ لا تكُون المشكلةُ هي الرغبةَ في امتلاكِ المزيدِ من المالِ والثروةِ بل الإبقاءَ على مركزِه أو نفوذِه الإجتماعيّ. على أيَّةِ حال، معظمُنا، نحن الذين نعيشُ في العالم، نُعاني منَ الحماقة». وما إنْ تلفَّظتُ بهذه الكلمات، حتَّى أومضَ عالمي الأكاديميُّ في فكري. قلتُ في نفسي، ما أحمقَ معظمَنا. فنحنُ نكدِّسُ مؤلَّفاتِنا وشهاداتِ التقدير، تمامًا كما يكدِّسُ هذا الثريُّ الذي يناهزُ الثمانينَ ثروتَه. نعملُ ونتصرَّفُ مع طلاَّبِنا في الصفِّ وفي اجتماعاتِ هيئةِ التدريسِ والإدارةِ في جامعاتِنا كما لو أنَّنا خالدون، ونادرًا ما نتوقَّفُ للتفكُّرِ في الأسبابِ الأكثرِ عمقًا لوجودِنا.

قالَ الأبُ مكسيموس: «أيًّا كانت الأسبابُ لسلوكٍ كهذا، فالفردُ لا

يدركُ أنّه غدًا يموتُ والدودُ يأكلُهُ، وأنَّ كُلَّ ثروتِه ومراكزَه الإجتماعيَّةَ تُضحي عديمةَ الفائدة. فهو لم يعتدْ على ذكرِ الموت. يصبحُ القلبُ أحمقَ».

***

أَتذكَّرُ ما تملَّكني، وأنا في جبلِ آثوسَ، من شعورٍ بالصدمةِ حين شهِدتُ أحدَ الطقوس، الذي قدْ يبدو منْ وجهةِ نظرِ الحياةِ العاديَّةِ مشهدًا رهيبًا ومُرعبًا. على نحوٍ منتظم، يسيرُ الرهبان في تطواف، حاملين الشموعَ في الليل، لزيارةِ مكانٍ يبدو مثلَ سردابِ موتى حيثُ تُحفظُ عظامُ الرهبانِ الراقدينَ في الربِّ منذُ أكثرِ من ثلاثِ سنوات. هناكَ يُصلُّونَ ويرتِّلونَ لإخوتِهم الراقدين. وقيلَ لي آنذاك، إنَّ هذا الطقسَ يدرِّبُ الرهبانَ على ذكرِ الموت، فيُعِدُّونَ أنفسَهم لمواجهتِه من دونِ أيِّ خوف. وكما أخبرني راهبٌ شابّ: «تملَّكني الذعرُ في بادِئِ الأمر، لكن فيما بعدُ، اعتدْتُ عليه، لا بلْ ساعدَني ذلكَ التدريبُ الروحيُّ في التغلُّبِ على كلِّ ما كان يتملَّكُني من خوفٍ من الموتِ أيضًا. علاوةً على ذلك، أنا أعرفُ الآنَ أينَ ستُحفظُ عظاميَ عندما أرقدُ». اعتقدتُ في ذلك الوقت، أنَّ هذا موقفٌ متمايزٌ كلِّيًا عن تفكيرِنا الدنيويِّ المعاصرِ الذي يميلُ إلى إنكارِ الموت، بإخفائِهِ في البيوتِ الجنائزيَّة.

تابعَ الأبُ مكسيموس قولَه: «كُلُّ أمراضِ القلبِ مترابطة. لكن، يبقى الجهلُ وعدمُ ذكرِ اللهِ المَرَضَينِ الأساسيَّينِ اللَّذين تنبعُ منهما كُلُّ الأمراضِ الأُخرى. وما إنْ يحتكَّ الإنسانُ بشخصِهِ الداخليِّ، ويكتشفُ الحقيقةَ الإلهيَّةَ التي فيه، يُشْفَى منْ كُلِّ أمراضِ القلبِ على نحو ذاتيِّ الحركةِ (أوتوماتيكيٍّ). هذا هو شِفَاءُ النفسِ الحقيقيّ».

غالبًا ما كان الأبُ مكسيموس يقولُ، إنَّ ناسكًا كالشيخِ پاييسيوس هو شخصٌ تغلَّبَ على الجهلِ ونسيانِ اللّٰه، اللذين يُصيبانِنا منذُ اليومِ الأوَّلِ لوجودِنا. فمِنْ خلالِ المعرفةِ وذكرِ اللّٰهِ شُفِيَ منْ قسوةِ القلبِ وكُلِّ الأمراضِ الأُخرى، ليُصبحَ منارةً روحيَّةً لجميعِنا. يتوقَّعُ المرءُ أنْ يكون هؤلاءِ النسّاك، الذين يصرفونَ كاملَ حياتِهم في البرِّيَّةِ للصلاةِ بلا انقطاعٍ ولخوضِ حياةٍ نسكيَّة، ذوي طبعٍ فظٍّ، خشنٍ ورديء. لكن، لا. «عرفتُ نسّاكًا عاشوا حياةَ زهدٍ لأربعينَ عامًا، بل لستّين عامًا وأكثر. هؤلاء، في الظروفِ العاديَّةِ، يجبُ أن يَظهروا ويتصرَّفوا كالوحوشِ البرِّيَّة. رغمَ ذلك، نسمعُ نقاءً في تعابيرِهم ولطافةً في طباعِهم يصعبُ وصفُها. يشعُّونَ محبَّةً إلى حدٍّ يصعبُ على زوّارِهم إدراكُها، فينذهلون. هم حرفيًّا مُعمَّدونَ بنارِ القداسة».

لو لمْ أكنْ قدِ التقيتُ شخصيًّا بالشيخِ پاييسيوس، لظننتُ أنَّ الأبَ مكسيموس يبالغُ في حديثِه أو أنَّه واسعُ الخيال.

* * *

إنتهى حوارُنا الصباحيُّ، عندما دخلتْ إلى ساحةِ الديرِ حافلةٌ محمَّلةٌ بِسُيَّاحٍ ألمانٍ وبريطانيِّينَ واسكندنافيِّينَ يتقدَّمُهم مرشدٌ سياحيٌّ قبرصيٌّ. شاهَدْنا منَ الرواقِ المفتوحِ في الطابقِ الثاني، حيث كُنّا نَجْلسُ، الفوضى التي تَجري أسفل. وقفَ الأبُ مكسيموس واتَّكأَ على الدرابزون وراحَ يلوّحُ إلى الضيوفِ غير المدعوِّين. لم يكنْ دومًا أمرًا سهلًا الحفاظُ على هدوءِ الدير. على خلافِ جبلِ آثوس، يسهلُ الوصولُ إلى ديرِ الفائقةِ القداسة بالسيَّارات، ونظرًا لأهميَّتِه التاريخيَّة، صارَ مكانًا جذّابًا للسياحةِ المُتناميةِ في قبرص. إلاّ أنَّ

الأبَ مكسيموس وضعَ عددًا من القواعدِ التنظيميَّةِ لوكلاءِ السياحةِ ومؤسَّساتِ السياحةِ القبرصيَّة، تُحدِّدُ مواعيدَ الزيارةِ واستقبالِ الحافلاتِ السياحيَّةِ والأماكنِ التي يمكنُ للسيَّاحِ الدخولُ إليها متى قَدِموا إلى الدير. فيُسمحُ لهم بزيارةِ الكنيسةِ وإضاءةِ الشموعِ والتنزُّهِ في حدائقِ الديرِ وزيارةِ مكتبةِ البيع، ولا يُسمحُ لهم الدخولُ بتاتًا إلى القسمِ الخاصّ بالرهبان. مكانُ وقوفِنا كانَ مُحرَّمًا على الزوّار، مَحلِّيّينَ كانوا أو أجانب.

إجتمعَ السيَّاحُ الأوروبيُّون حولَ دليلِهم، واستمعوا إلى نبذةٍ قصيرةٍ عن تاريخِ الدير. بإنكليزيَّةٍ مُلكننةٍ قالَ الدليل: «أُسِّسَ هذا الديرُ في السنواتِ الأخيرةِ من القرنِ الثاني عشرَ وهو من أهمِّ الأديارِ الأرثوذكسيَّةِ وأكثرِها حيويَّةً في قبرصَ اليوم. ويُعتَقدُ أنَّ إيقونةَ العذراءِ الفائقةِ القداسة، التي ستَرَونَها داخلَ الكنيسةِ بعدَ قليل، رسَمَها القدّيسُ لوقا الإنجيليّ. وقد أتى بها من آسيا الصغرى إلى قبرصَ ناسكٌ مجهولُ الهويَّةِ ليحفظَها هنا، في فترةِ تملُّكِ مضطهدي الإيقونات، ما بين القرنَين الثامنِ والتاسعِ ميلاديّ. لجأَ هذا الناسكُ إلى هذه الجبالِ وعاشَ في منسكٍ محجوبٍ عن الأنظار. بَقِيَتِ الإيقونةُ في المنسكِ من بعدِ موتِه، إلى أنْ اكتشفَها، إثرَ إعلانٍ إلهيّ، ناسكانِ آخرانِ عامَ ١١٤٥. في آخرِ الأمر، تمَّ تشييدُ هذا الديرِ في المكانِ نفسِه حيثُ وَجدا الإيقونة، بأموالٍ أُرسلَتْ من القُسطنطينيَّة، وذلك بعدَ الانتصارِ على مضطهدي الإيقونات. ومنذُ تأسيسِه في القرنِ الثاني عشر، احترقَ الديرُ كلّيًّا وأُعيدَ بناؤه ثلاثَ مرّات، كان آخرُها في نهايةِ القرنِ التاسعَ عشر».

حاولَ الأبُ مكسيموس الاستماع، ولكن، بسببِ عدمِ إلمامِه باللغةِ

الإنكليزيَّة، لم يتمكَّنْ من متابعةِ ما يقولُهُ المرشدُ السياحيّ. لذا ذكرتُ له الموضوعَ بصورةٍ عامَّة. وما إنْ بدأ في سردِ تاريخِ الديرِ أثناءَ فتراتِ حكمِ الفرنجةِ والبريطانيّين والعثمانيّين، دعاني الأبُ لمرافقتِهِ لمعاينةِ بعضِ أعمالِ البناءِ في مخزنٍ قديم، يقعُ تحتَ أرضِ الدير، يُهيَّأُ ليصبحَ غرفةً خاصَّةً لحفظِ الإيقوناتِ النادرةِ والأواني الكنسيَّةِ العائدةِ إلى الأزمنةِ البيزنطيَّة. حملْتُ مصباحًا كاشفًا، وسِرْتُ خلفَهُ ونحن ننزلُ سلالمَ المخزنِ المُظلِم، الذي استَعمَلَهُ اللصوصُ والقراصنةُ والجيوشُ المُغيرة، في القرونِ الماضيةِ، كملجإٍ للاختباء.

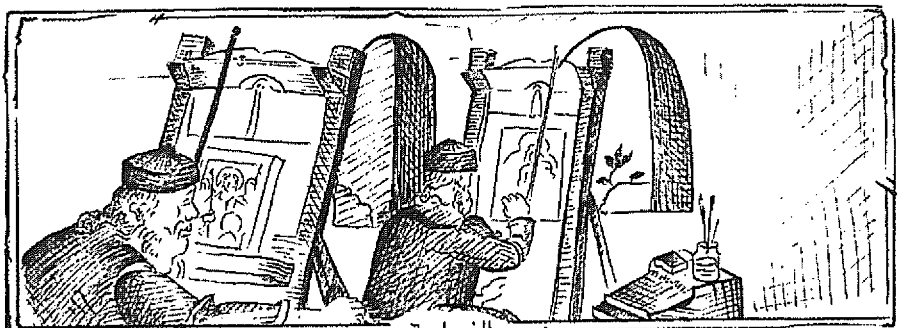

الفصل ٦

إيقونات وأصنام

كانَت صبيحةُ يومِ جمعة. وبعدَ الإنتهاءِ من تدوينِ بعضِ الملاحظاتِ في مفكّرتي، جلستُ على مقعدٍ خشبيٍّ خارجَ غرفتي المواجهةِ لساحةِ الديرِ المُشمسة. شاهدتُ الرهبانَ، بلباسِهم الأسود، في حركةِ ذهابٍ وإيابٍ متواصلةٍ يقضونَ مهمّاتِهم المختلفة، والحجّاجَ في حركةِ دخولٍ وخروجٍ من الكنيسةِ التي في وسطِ ساحةِ الدير، يُضيئونَ الشموعَ ويسجدونَ لإيقونةِ العذراءِ الكلّيّةِ القداسةِ العجائبيّة.

أغمضتُ عينيَّ لبضعِ دقائقَ مستمتعًا بأشعّةِ الشمس، واستغرقتُ متأمِّلًا الحياةَ في محيطِيَ الجديد. فَدَيْرُ الفائقةِ القداسةِ يختلفُ عن الأديارِ التي أَلِفتُها أثناءَ نشأتي في قبرص. في ذاك الوقت، كانَ عددُ الأديارِ المهجورةِ في الجزيرةِ كبيرًا. يَقطنُها بعضُ الرهبانِ المُسنّين، على الرغمِ من أنَّ قبرص، في الحقيقة، كانت قديمًا مِحورًا رهبانيًّا حيويًّا. والفضلُ في ذلك، يعودُ بصورةٍ أساسيّةٍ إلى قربِها الجغرافيِّ من الأرضِ المقدّسةِ وبراري مصر، حيثُ نشأتِ الرهبنةُ وازدهرتْ في القرونِ المسيحيّةِ الأُولى. وقد خرجَ من تلكَ الأديارِ آنذاكَ العديدُ من

القدّيسين، ممَّا دفعَ المؤمنينَ إلى اعتبارِ قبرصَ «جزيرةَ القدّيسين». بعضٌ منْ هؤلاءِ القدّيسين، مثلَ القدّيسِ اسبيريدون والقدّيسِ إبيفانيوس، لعبَ دورًا فاعلًا في صياغةِ أُولى التعاليمِ المسيحيَّة. لكن، بعدَ الحربِ العالميَّةِ الثانية، الأديارُ التي كانتْ لا تزالُ مأهولةً أصبحتْ أماكنَ للتسليةِ كالتنزُّهِ والمبيتِ المجّانيّ. ولم يكنِ التجديدُ الروحيُّ على قائمةِ اهتماماتِ معظمِ الرعاة. صارتِ الأديارُ مَراحاتٍ[٤٣] يقصدُها العلمانيُّونَ مع عائلاتِهم لإمضاءِ بضعةِ أيّامٍ للراحةِ والاستجمام، لا يُمارسونَ أيَّ نشاطٍ روحيٍّ سوى المشاركة، أحيانًا، في خدمةِ الصلاةِ الصباحيَّة. وبسببِ تواجُدِها في مناطقَ بعيدةٍ منعزلةٍ على سفوحِ الجبالِ أو بجانبِ البحر، أصبحتِ الأديارُ مواقعَ جغرافيَّةً مثاليَّةً مجّانيَّةً للمصطافين، مساويةً لنظامِ الحدائقِ العامَّةِ في أميركا. ومتى شُغِلَتِ الغرفُ المتوفِّرةُ في الديرِ على قاعدةِ أفضليَّةِ الخدمةِ للواصلينَ أوَّلًا (first-come-first-served) -ومعرفتُكَ برئيسِ الديرِ عاملٌ مساعدٌ بالتأكيد- كانَ الناسُ يُخيِّمونَ خارجَ الديرِ في الساحاتِ المشجَّرةِ المُحيطةِ بهِ ويستمتعونَ بوقتِهم في الهواءِ الطلق.

قبلَ وصولِ الأبِ مكسيموس إلى ديرِ الفائقةِ القداسة، كانَ وجودُ رهبانٍ في الديرِ أمرًا نادرًا. وتردُّدُ الزوّارِ على الدير، آنذاك، نادرًا ما كانَ يتعلَّقُ بخلاصِ نفوسِهم. في الحقيقة، كانَ الديرُ في ذلكَ الوقتِ المكانَ المفضَّلَ للفدائيّينَ الوطنيّينَ الذين كانوا يجتمعونَ سنويًّا في أرضِهِ لإحياءِ ذكرى شهيدٍ من شهداءِ الثوّارِ القبارصة، مِنَ الذين استُشهِدوا في منتصفِ الخمسينيّات، وهوَ يُحاربُ القوّاتِ البريطانيّةَ في منحدرٍ جبليٍّ مجاور. كما كانَ الديرُ الاستراحةَ

٤٣ المَراح: نُزُل يُستَراح أو يُباتُ فيه.

المفضَّلةَ للصيّادينَ أيضًا، فبعدَ الانتهاءِ من جَوَلانِهم في الجبالِ المحيطةِ لصيدِ الحِجَالِ والأرانبِ البرِّيَّةِ كانوا يتناولون غداءً شهيًّا في المطعمِ المجاورِ للدير.

بوصولِ الأبِ مكسيموس عامَ ١٩٩٣، تغيَّرَ كُلُّ شيءٍ. فالعددُ المتزايدُ للرهبانِ الشبابِ والمتعلِّمينَ، الذين انضمُّوا إلى ديرِ الفائقةِ القداسة -وذلك عائدٌ إلى جاذبيَّةِ رئيسِ الدير- أدخلَ حيويَّةً جديدةً إلى المكان، في وقتٍ افترضَ معظمُ الناس، وأنا واحدٌ منهم، أنَّ الرهبنةَ شيءٌ من الماضي. بدأتْ جموعٌ غفيرةٌ من الحجَّاجِ بالمجيءِ إلى الديرِ سعيًا للإرشادِ الروحيِّ والمشاركةِ في برنامجِ الديرِ من صومٍ وصلاةٍ وتأمُّلٍ، وسهرانيَّاتٍ طوالَ الليل، وغيرِها من الطقوس. شعرتُ بأنَّني كنتُ شاهدًا لثورةٍ رئيسيَّةٍ في تاريخِ الرهبانيَّةِ في الجزيرة، وربَّما أبعدَ من الجزيرة.

بعدَ إحيائِهِ الروحانيَّةَ في ديرِ الفائقةِ القداسةِ وتقويمِهِ حياةَ الشركةِ فيه، أخذَ الأبُ مكسيموس بعضَ الخطواتِ المتشدِّدَةِ للحفاظِ على الهدوءِ الضروريِّ للعملِ والتركيزِ الروحيِّ الجِدِّيّ. فتمَّ إغلاقُ المطعمِ المجاور، الذي كان الديرُ يؤجِّرُه للترفيهِ عن الزوَّار، على الرغمِ من الاعتراضِ الشديدِ والعنيفِ لمشغِّليهِ وزبائنِه المنتظِمين. أوضحَ لي الأبُ مكسيموس أنَّه لا يعقلُ أنْ تُجاهدَ للقيامِ بأيِّ عملٍ روحيّ، فيما خارجَ بوَّابةِ الديرِ هناك مصطافونَ فوضويُّون، يشربونَ ويرقصونَ في أجواءِ موسيقى عالية، ويستهلِكون كمِّيَّاتٍ كبيرةٍ من اللحمِ المشويّ، الذي تصلُ رائحتُهُ إلى أنوفِ الرهبانِ الصائمينَ في قلاَّياتِهم.

بمساعدةِ المؤمنينَ الأثرياءِ ومساهماتِ حجَّاجِ الديرِ النقديَّة، هدَمَ

الأبُ مكسيموس المطعمَ وشيَّدَ مكانَه بيتَ ضيافةٍ فسيحًا، يتَّسِعُ لمبيتِ عددٍ كبيرٍ من الحجَّاجِ، وألحَقَ المبنى الجديدَ بالدير. هناكَ، بعدَ الانتهاءِ من خدمةِ القدَّاسِ الإلهيِّ أيَّامَ الآحادِ وفي أيَّامِ الأعيادِ الكنسيَّةِ المقدَّسة، يقدِّمُ الرهبانُ لكلِّ الحجَّاجِ الشايَ والقهوةَ والمعجَّناتِ مجَّانًا. كما شيَّدَ الأبُ مكسيموسُ فوقَ مبنى بيتِ الضيافةِ كنيسةً صغيرةً إكرامًا للقدِّيسِ غريغوريوس بالاماس (القرن ١٤)، أسقفِ تسالونيكي الذي دافعَ بنجاحٍ عن أسلوبِ حياةِ الرهبانِ الآثوسيِّينَ وممارساتِهم الروحيَّة، في زمنٍ اشتدَّتْ فيه التيَّاراتُ العقلانيَّةُ داخلَ الكنيسةِ الشرقيَّةِ مهدِّدةً بتقويضِها. بتشييدِ الكنيسة، أرسلَ الأبُ مكسيموس رسالةً واضحةً حولَ ما كانَ يحاولُ أنْ يُرسيَهُ في ديرِ الفائقةِ القداسة: إنقاذُ الممارساتِ الصوفيَّةِ للكنيسةِ الأرثوذكسيَّةِ وصونُها.

هكذا، صارَ مُرحَّبًا الآنَ بالضيوفِ الراغبينَ في الإقامةِ لبضعةِ أيَّام، لا لإمضاءِ عطلةٍ مجَّانيَّةٍ بل سعيًا لجهادٍ روحيّ. لم يَعُدْ مسموحًا فيما بعدُ إجراءُ سِرَّيِ المعموديَّةِ والزواجِ في الدير، لِما تولِّدُه من احتفالاتٍ وصخبٍ يُهدِّدُ حلاوةَ الهدوءِ والسكينةِ في الدير.

* * *

سمِعْتُ استِفانوس يَدْعوني في الصباح: «يا كيرياكوس، لقد وصَلا. إنَّهما ينتظرانِنا في بيتِ الضيافة». باتَ استِفانوس ليلتَهُ في القلَّايةِ المُتاخِمةِ لقلَّايتي وبقِينا نتناقشُ في الروحانيَّةِ الآثوسيَّةِ لساعاتٍ طوال، بينما اعتكفَ الرهبانُ في قلَّاياتِهم يواصلونَ الصلاةَ غيرَ المنقطعة.

فَتَحْتُ عينيَّ، وأجبتُه: «حسنًا. آملُ أنْ يتمكَّنَ الأبُ مكسيموس من تخصيصِ بعضِ الوقتِ لنا هذا الصباح».

نزلْنا الدرجَ وتوجَّهْنا إلى بيتِ الضيافةِ حيثُ كانَ في انتظارِنا ثيوذوروس وزوجتُه إيليني. قدَّمتُهما إلى استِفانوس، وإلى الأبِ نيقوذيموس وهو راهبٌ في أوائلِ الثلاثيناتِ من العمرِ، وقد صدفَ وجودُه، وقتذاك، في غرفةِ استقبالِ الحجَّاج.

قالَ الأبُ نيقوذيموس: «الأبُ مكسيموس سيُوافيكم بعدَ قليل. في هذه الأثناء، يمكنُكم زيارةُ الكنيسةِ إنْ رغبْتُم بذلك».

وقفتْ إيليني على الفورِ وتقدَّمَتْنا نحوَ الكنيسة. إيليني، في منتصفِ الأربعيناتِ من العمرِ، هي ابنةُ عائلةٍ ثريَّةٍ من مدينةِ ليماسول. كانتْ تتعافى بنجاحٍ بعدَ صراعٍ مع مرضِ السرطانِ دامَ عشرَ سنوات. تدَّعي إيليني أنَّ هذه التجربةَ حوَّلتْ انتباهَها تدريجيًا نحوَ حسِّها الداخليّ، نحوَ اهتماماتٍ روحيَّةٍ أكثرَ عمقًا. أخبرَتْني إيليني: «عطيَّةُ مرضِ السرطانِ لي كانتْ الانفِتاحَ إلى حقيقةِ الله». ولم تكنْ هذه المرَّةَ الأُولى الَّتي أَسمعُ فيها أحدًا يُعلِنُ بإخلاصٍ وصدقٍ مطلقٍ أنَّ مرضًا خطِرًا مميتًا سمحَ له بالتعرُّفِ إلى الروحانيَّة. أتذكَّرُ قبلَ بضعِ سنواتٍ في فيرمونت، ذلكَ أثناءَ إدارتي لورشةِ عملٍ تعليميَّةٍ هناك، أنِ اقتربَ منِّي رجلٌ منْ نيويورك، يبدو عليهِ الإعياء، والدموعُ في عينَيه، وأفضى لي أنَّه لو لم يُصَبْ بالإيدز، لكانَ أمضى حياتَهُ كلَّها متجاهِلًا ما هو مهمٌّ حقًّا في الحياة. وأنَّه بتقبُّلِهِ لمرضِهِ المميتِ كعطيَّةٍ من السماء، وجدَ سلامَهُ الداخليّ.

لم يكن هناك ضوءٌ في الكنيسة، لذا أضْفَتِ الشموعُ القليلةُ المشتعلةُ مناخًا ميستيكيًّا ورعًا مماثِلًا للكنائسِ البيزنطيَّةِ القديمة. تقدَّمَتْنا إيليني في الدخولِ إلى الكنيسة، وبعدَ أنْ أضاءت شمعةً على مدخلِ الكنيسة، رسمتْ إشارةَ الصليبِ وسجدَتْ أمامَ الإيقونةِ العجائبيَّة لوالدةِ الإله، شفيعةِ الدير. ثمَّ تقدَّمتْ إلى الأمامِ نحوَ الإيقونسطاس، وهو جدارٌ مزيَّنٌ بالإيقوناتِ يفصلُ الهيكلَ عن صحنِ الكنيسة. وكانت على وشكِ أنْ تقومَ بالشيءِ نفسِه أمامَ إيقونةِ السيِّدِ المسيح، إلاَّ أنَّها بدأتْ ترتجفُ قليلًا وأدمعَتْ عيناها. وقالتْ بصوتٍ خافت: «إنَّها الإيقونةُ عينُها. إنَّها طبقُ الأصلِ».

قال زوجُها، وعلاماتُ التعجُّبِ والذهولِ باديةٌ على وجهِه: «أمرٌ مدهشٌ! يا لها من صدفةٍ مُدهِشة».

بقيَتْ إيليني مسمَّرةً في مكانِها أمامَ إيقونةِ السيِّدِ المسيح، بالكادِ تُسيطرُ على عواطفِها بينما الدموعُ تنهمرُ على وجهِها. كانتِ الإيقونةُ غيرَ عاديَّة، تُصوِّرُ السيِّدَ المسيحَ مكْتسيًا لباسًا ملوكيًّا، لابسًا تاجًا مرصَّعًا بالجواهرِ بدلًا من إكليلِ شوكٍ على رأسِه، مصوِّرةً لا المسيحَ المصلوب، بل المسيحَ الضابطَ الكلّ.

بعدَ مغادرةِ الكنيسة، ذهبْتُ مع ثيوذورس إلى خارجِ الديرِ حيثُ سيَّارتُهما متوقِّفةٌ، وساعدْتُه في حَمْلِ إيقونةٍ ثقيلةٍ كبيرةٍ إلى غرفةِ الضيوف. في الحقيقة، القصدُ الوحيدُ منْ زيارتِهم هو جَلْبُ تلكَ الإيقونةِ إلى الدير. بحرصٍ شديد، أسنَدْنا الإيقونةَ على الحائطِ في غرفةِ الحجَّاجِ ثمَّ قامَ الأبُ نيقوذيموس بإزالةِ

الغلافِ الأبيضِ عنها. في تلكَ اللحظة، أدرَكْتُ لماذا تأثّرتْ إيليني حينَ اقتربَتْ من إيقونةِ السيّدِ المسيحِ المعلّقةِ على إيقونسطاسِ كنيسةِ الدير. فالإيقونةُ التي كانا على وَشكِ أنْ يسلّماها إلى الأبِ مكسيموس كانت مطابقةً لإيقونةِ الدير. لفتَنا الأبُ نيقوذيموس، وهو عالمُ آثارٍ متمرّس، إلى تاريخِ ١٨٦٠ مكتوبٍ في إحدى زوايا الإيقونة: «هذه إيقونةٌ نادرة، ستكون في الحفظِ والصّونِ هنا». ثمّ راحَ يُعاينُها بدقّةٍ أكثر. وافترضَ أنّ الكنيسةَ التي كانت فيها هذه الإيقونة، لا بُدَّ أنّها تعرّضت إلى حريقٍ في الماضي لوجودِ أجزاءٍ محروقةٍ في جانبِها الخلفيّ. ما عدا ذلك، تُعتبرُ الإيقونةُ في حالةٍ ممتازة. أوضحَ الأبُ نيقوديموس وهو يتابعُ مُعاينتَهُ الدقيقةَ للإيقونة: «لا أعرفُ إذا كان مَنْ رسمَ إيقونةَ الديرِ هو نفسُه من رسمَ هذه الإيقونة، ولكنّ الأمرَ المؤكّدَ أنّهما تعودانِ إلى الحقبةِ نفسِها. أُدخِلَ هذا النمطُ الفنّيُّ إلى الجزيرةِ في القرنِ التاسعَ عشرَ ولفترةٍ وجيزةٍ جدًّا. وهو نمطٌ نادرٌ، دمجَ فيه أصحابُ هذه المدرسةِ الفنَّ البيزنطيَّ بالتأثيراتِ الغربيّة».

دخلَ الأبُ مكسيموس الغرفةَ بينما كنّا نستمتعُ بشربِ شايٍ معطّرٍ مركّبٍ من مجموعةِ أعشابٍ برّيّةٍ يجمعُها الرهبانُ من الجبل. اعتذَرَ عن التأخير، ثمّ صرفَ بِضْعَ دقائقَ مُحدِّقًا في الإيقونةِ فاحِصًا ايّاها بدقّةٍ وعناية، وقالَ مُطَمْئِنًا إيليني: «سنحفظُ الإيقونةَ ونعتني بها كثيرًا». جلسَ الجميعُ وبدأتْ إيليني تروي قصّةَ الإيقونة، وكيفَ صارتْ في حوزتِها، ولماذا قرّرتْ أنْ تُسلّمَها إلى الديرِ لتُحفظَ فيه.

فمنذُ حوالي خمسَ عشرَةَ سنة، وفي إحدى الليالي طَرَقَ رجلٌ غريبٌ

بابَهما، وناشدَهما إنقاذَ إيقونةٍ نادرة، كانتْ ستُهَرَّبُ خارجَ الجزيرةِ في الحقيبةِ الدبلوماسيَّةِ لإحدى السفاراتِ الأجنبيَّة. فأحدُ الدبلوماسيِّين الذي كانت لديهِ وسيلةُ وصولٍ إلى القطاعِ القبرصيِّ الواقعِ تحتَ الاحتلالِ التركيّ، كانَ مستعدًّا أنْ يبتاعَ إيقونةَ الضابطِ الكلِّ من شخصٍ تركيٍّ بمبلغِ ثلاثمائةِ جنيه قبرصيّ (ما يوازي حينذاك ٦٥٠ دولارًا أميركيًّا)، وأنَّ عمليَّةَ التسلُّمِ والتسليم، ستتمُّ بعدَ ساعاتٍ من الآن.

تعودُ الإيقونةُ إلى كنيسةٍ مجهولةٍ سُلِبتْ ونُهِبتْ بعدَ احتلالِ تركيًا للجزيرةِ عام ١٩٧٤. لم يكنِ المبلغُ المطلوبُ متوفِّرًا لدى إيليني وثيوذوروس تلكَ الليلة، لذا أسرعا يتنقَّلان بينَ بيوتِ أقربائِهما، ليجمعا المالَ المطلوبَ ويسلِّماه سريعًا للمهرِّبينَ، ذلك لإنقاذِ الإيقونةِ وحفظِها في قبرص. كانَ في نيَّةِ إيليني منذُ اليومِ الأوَّلِ أنْ تُسلِّمَ الإيقونةَ إلى السلطاتِ القبرصيَّة، لكنَّها أرجأتِ الأمر، وها قدْ مضى على الحادثةِ خمسَ عشْرَةَ سنة. وشعرَتْ إيليني بحملٍ عظيمٍ يُثقِلُ قلبَها خلالَ تلكَ السنواتِ لعدمِ مُبادرتِها بالقيامِ بأيِّ شيءٍ بخصوصِ الإيقونةِ سوى حفظِها مُخبَّأةً في خزانةِ غرفةِ نومِها. عرفَتْ إيليني منذُ البدايةِ أنَّ الإيقونةَ ليستْ مُلكًا لها. في الوقتِ نفسِه، آخذةً في الاعتبارِ انقضاءَ الزمن، تمنَّعَتْ إيليني عن تسليمِ الإيقونةِ إلى السلطاتِ الرسميَّةِ تجنُّبًا لأيَّةِ تعقيداتٍ قانونيَّةٍ محتمَلة. لذا، قرَّرَتْ تسليمَ الإيقونةِ إلى سلطةٍ تضمنُ سرِّيَّةَ هويَّتِها. علاوةً على ذلك، لمْ ترغبْ في إعطاءِ الإيقونةِ إلى الحكومةِ التي في أكثرِ تقديرٍ كانتْ ستضَعُها في متحف. أكَّدَت إيليني رغبتَها في أنْ ترى الإيقونةَ محفوظةً في مكانِ عبادة. وأخبرت الأبَ مكسيموس: «عندما تَكلَّمتُ مع كيرياكوس عبرَ

الهاتفِ قبلَ أيّام، اقترحَ عليَّ جلبَها إلى هنا».

قالَ الأبُ مكسيموس بكلماتٍ مُطمئنَةٍ: «حسنًا، سنعلّقُ الإيقونةَ في مكانٍ للعبادةِ العامَّةِ هنا في الديرِ إلى حينِ التحقُّقِ من الكنيسةِ التي سُلِبَتْ منها. على أنْ نُرجِعَها إليها بمشيئةِ الله عندما يغادرُ الجيشُ التركيُّ قبرص».

* * *

ثيوذوروس (معنى اسمِه 'هبةُ الله')، الذي التزمَ الصمتَ حتّى الآن، سألَ إنْ كانَ في إمكانِه طرحُ بضعةِ أسئلةٍ حولَ دورِ الإيقوناتِ في العبادةِ المسيحيَّة. في وقتٍ سابق، حذَّرَتْني إيليني أنَّ زوجَها، وهو رجلُ أعمالٍ واقعيٌّ ناجحٌ، كانَ مقاومًا للروحانيَّةِ المسيحيَّةِ ويَعتَبرُ تقبيلَ الإيقوناتِ أمرًا سخيفًا تمامًا. إقناعُ ثيوذوروس، لمُرافقتِها إلى الدير، تطلَّبَ من إيليني الكثيرَ من الحذاقةِ والكياسة. قلتُ في نفسي، ها نحنُ أمامَ 'توما' آخر.

عندما أومأ الأبُ مكسيموس إيجابًا بحركةِ رأسِه، أزاحَ عن عاتقِ ثيوذوروس كلَّ ثقل، فاطمأنَّتْ نفسُه مُعتبِرًا ذلكَ تصريحًا ليعبِّرَ عن رأيِه بصراحةٍ ومن دونِ تحفُّظ، رغمَ تكدُّرِ زوجتِه من الأمر.

سألَ ثيوذوروس باستفزاز: «لِمَ كلُّ هذا الهَوَسِ بالإيقوناتِ في الكنيسةِ الأرثوذكسيَّة؟ أليس هذا شكلًا من أشكالِ عبادةِ الأصنام؟»

إبتسمَ الأبُ مكسيموس عندَ سماعِهِ السؤالَ المطروحَ عليه. كنتُ متأكِّدًا أنّه واجهَ سؤالًا كهذا منذُ أنْ تركَ عزلةَ جبلِ آثوسَ وصمتَهُ، ودخلَ إلى العالمِ القبرصيِّ الصاخبِ الحديث. القضيَّةُ التي طرحَها ثيودوروس هي،

بالطبع، قضيَّةٌ قديمة.

أجابَ الأبُ مكسيموس: «يا صديقيَ العزيز، هذا نقدٌ نموذجيٌّ موجَّهٌ ضدَّ الكنيسة. لكن أوَّلًا، دعْني أَسْأَلْكَ سؤالًا. ألا تعتقدُ أنَّه سيكونُ من الحماقةِ للغايةِ إنْ لمْ تحفظِ الكنيسةُ الوصيَّةَ الثانية؟، أعني أنْ لا تحفظَ الحُرْمَ ضدَّ عبادةِ الأصنام؟ أتعتقدُ أنَّ الشيوخَ القدّيسين، وهم الذين فتَّشوا أسرارَ الكتابِ المقدَّسِ عبرَ العصورِ والأزمنةِ واختبروها أكثرَ من أيِّ شخصٍ آخر، غفَلوا عن وصيَّةِ الربِّ، ولمْ يدركوا معناها وأصرُّوا على استخدامِ الإيقوناتِ في العبادة؟»

إستمعَ ثيوذوروس دونَ أن يَنْبِسَ بِبِنْتِ شَفَة. وتابعَ الأبُ مكسيموس شارِحًا موقفَ القدّيسينَ والشيوخِ دفاعًا عن أهمِّيَّةِ الإيقونات: «أوَّلًا، وقبلَ كلِّ شيء، دعْنا نُوضِّحْ ماذا تعني لفظةُ 'صَنَم'».

نظرَ الأبُ مكسيموس إلى إيقونةِ المسيحِ الضابطِ الكلِّ المسنودةِ على الحائط، ثمَّ تابعَ كلامَه وهو يشيرُ بإصبعِه إليها قائلًا: «عبادةُ الأصنامِ تَعني أنْ نُخطِئَ فنحسبَ هذه الإيقونةَ المسيحَ ذاتَه. لكن، من جهةٍ أخرى، عندما أقولُ إنَّ هذه الإيقونةَ تُمثِّلُ صورةَ المسيح، فالأمرُ يصبحُ مختلفًا بالكامل. فما هو مُسنَدٌ إلى الحائطِ أمامَنا هو إيقونةٌ فقط. إذْ يجبُ أنْ تكونَ دوافعُنا ونوايانا واضحةً، عندما نقبّلُ الإيقونات. فنحنُ ببساطةٍ نكرِّمُ الإيقونات، لا أكثر. يجبُ ألاَّ نعبُدَها بتاتًا».

قالَ ثيوذوروس مُعانِدًا: «أنا لا أرى فرقًا في ذلك». أدرتُ نظري بسرعةٍ

نحوَ إيليني التي بدَتْ عليها علاماتُ عدمِ الرضى بسببِ لعبِ زوجِها دورَ محامي الشيطانِ بتبجُّح. أشرْتُ إليها أنْ تطمئنَّ ولا تكترث.

قالَ الأبُ مكسيموس بإصرارٍ وتصميم: «حسنًا. دعني أسألْكَ شيئًا، لديك آلةُ تصوير، أليس كذلك؟ هل تأخذُ صورًا لأشخاصٍ؟»

أجابَ ثيوذوروس متعجِّبًا: «نعم!»

- «أتأخذُ صورًا لأقرباءَ تحبُّهم، مثلَ الأولادِ أو الوالدَينِ والأجداد؟ وهل تُزيِّنُ بها جدرانَ بيتِك؟»

- «بالتأكيد!»

- «إفترضْ أنَّكَ قبَّلتَ صورةَ حبيبٍ لكَ فارقَ الحياة، أيكون هذا عبادةَ أصنام؟»

- «بالطبع، لا».

هزَّني الحوارُ الدائرُ بينَ الأبِ مكسيموس وثيوذوروس قليلًا وأعادَ إليَّ ذكرياتٍ مؤلمة. فأَبي لم يتمكَّنْ من التغلُّبِ على حزنِهِ على فراقِ أمِّي، التي أُصيبت بمرضِ سرطانِ الثدي وفارقَتِ الحياةَ في عمرِ الستَّةِ والثلاثين، ولمْ أكنْ بلغتُ الخامسةَ بعد. لم يتزوَّجْ ثانية. بدلًا من ذلك، احتفظَ بصورةِ أمِّي بجانبِ سريرِه، وكان يقبِّلُها كُلَّ ليلةٍ قبلَ أنْ يخلدَ إلى النوم. وداومَ على ذلكَ لخمسٍ وأربعينَ سنة، حتَّى مماتِه. لكنِّي مع ذلك، لم أفترضْ يومًا أنَّهُ يعبدُ الصورة.

وتابعَ الأبُ مكسيموس قائلًا: «إفترضْ أنَّ يسوعَ كانَ هنا اليومَ وأنتَ

قمتَ بالتقاطِ صورةٍ له، ووضعتَها في بيتِك، وقبّلتَها كُلَّ يوم. أيكُون هذا عبادةَ أصنام؟»

قال ثيوذوروس متردِّدًا: «لا أعتقدُ ذلك».

وبنظرةٍ مُمتَحِنَةٍ قالَ الأبُ: «اللّه هو مَنْ أمرَ موسى بأنْ يُظلِّلَ تابوتَ العهدِ بملاكَين خشبيَّين. أتعتقدُ أنَّ اللّه ينتهكُ وصيَّتَه؟»

أَومأَ ثيوذوروس برأسِه، موحِيًا إلى الأبِ مكسيموس أنَّ الرسالةَ قد وَصَلَت.

تعاطفتُ مع معضلةِ ثيوذوروس وحيرتِه في تقبُّلِ مسألةِ تكريمِ الإيقونات. فأثناءَ مرحلةِ اللاأدْريَّة، وإنْ لمْ أكنْ أعتبرُ طقسَ الانحناءِ أمامَ الإيقوناتِ وتقبيلِها بعدَ رسمِ إشارةِ الصليبِ عبادةَ أصنامٍ وطقسًا سخيفًا، إلاَّ أنّه بدا لي حينذاكَ خاليًا بالتأكيدِ من كلِّ معنًى. في الحقيقة، إنَّ إمبراطورًا[٤٤] بيزنطيًّا 'محارِبًا للإيقوناتِ' أصدرَ مرسومًا حرَّمَ فيه استخدامَ الإيقوناتِ في العبادة، خوفًا من أنْ يكونَ هذا التكريمُ شكلًا من أشكالِ عبادةِ الأصنامِ وانتهاكًا لوصيَّةِ اللّه الثانية. ولاعتقادِهِ أنَّ الهزائمَ العسكريَّةَ التي مُنِيَتْ بها إمبراطوريَّتُهُ على يدِ الإسلامِ كانت عقابًا لهُ منَ اللّهِ لممارسةِ عبادةِ الأصنام، أطلقَ عِنانَ قوَّاتِهِ ضدَّ الكنائسِ لمُصادرةِ الإيقوناتِ وحرقِها، قاضيًا بذلكَ على عددٍ كبيرٍ من القِطعِ الفنّيَّةِ الثمينة. لكنَّ مقاومةَ الرهبانِ العنيفةَ ضدَّ هذا الإضطهادِ بمؤازرةِ نساءٍ نافذاتٍ انتهت باستعادةِ الإيقونةِ المقدَّسةِ كأداةٍ مركزيَّةٍ في العبادة. أمّا في

٤٤ هو الإمبراطور لاون الثالث الإيصوري. وذلك في مطلع القرن الثامن. أُنظر: القدّيس يوحنّا الدمشقي: "الدفاع عن الإيقونات المقدّسة"، منشورات دير سيّدة حمَطوره - كوسبا - ١٩٩٧.

الغرب، خصوصًا في الدوائرِ البروتستانتيَّة، فبَقِيتْ فكرةُ الربطِ بينَ الإيقوناتِ وعبادةِ الأصنامِ قائمة.

بالنسبةِ لي، استعدْتُ قناعتي بأهمِّيَّةِ الإيقوناتِ في العبادةِ المسيحيَّةِ أثناءَ زيارتي إلى جبلِ آثوس، حيثُ أوضحَ لي عدَّةُ شيوخ، أمثالُ الأبِ مكسيموس، ماهيَّةَ الإيقونةِ والسلوكَ اللائقَ بها: فهي أداةٌ مساعِدةٌ للتركيزِ والعملِ الروحيِّ، لا أكثر. ثمَّ أدركتُ أنَّ كُلَّ الأديان، بما في ذلك، البوذيَّةِ والهندوسيَّة، تستخدمُ في عباداتِها أدواتٍ مشابهةً للإيقوناتِ لأهدافٍ روحيَّةٍ على نحوٍ يُذَكِّرُ بالرهبانيَّةِ الآثوسيَّة. لكنِ اتَّضحَ لي أيضًا كمْ سهلٌ أنْ يُنسى المعنى الداخليُّ لمثلِ هذه الممارساتِ، فتتحوَّلَ من وسيلةٍ إلى غاية، من إيقونةٍ إلى صنم. تساءَلتُ في نفسي إنْ كانَ قرارُ المُصلِحينَ البروتستانت القاضي بإلغاءِ الإيقوناتِ كلِّيًّا منَ العبادة، هو تفاديًا لاحتمالِ الوقوعِ في هذا الخطإِ المحظور. أتذكَّرُ شعوري أثناءَ زيارتي إلى كاتدرائيَّةِ القدِّيسِ يوحنَّا اللاهوتيِّ في نيويورك، عندما شاهدْتُ عِدَّةَ إيقوناتٍ بيزنطيَّةٍ كبيرةٍ تُزيِّنُ مدخلَ الكنيسة، قلتُ في نفسي وقتذاك، هذا تجديدٌ راشدٌ هامٌّ. لكنِّي سرعانَ ما لاحظتُ أنَّ الإيقوناتِ وُضِعتْ عاليةً لمنعِ المصلِّينَ من لمسِها أو تقبيلِها.

* * *

ثمَّ طرحتُ سؤالًا: «بما أنَّنا نناقشُ ماهيَّةَ الإيقوناتِ وأهمِّيَّتَها، هلْ يمكنك أنْ تُوضحَ لنا الفرقَ بينَ الإيقونةِ العاديَّةِ والإيقونةِ العجائبيَّة؟»

أجابَ الأبُ مكسيموس: «كُلُّ الإيقوناتِ هي، في الحقيقة، إيقوناتٌ عجائبيَّةٌ

إنْ كانتْ تُصوّرُ شخصًا. فالعجائبُ تحدُثُ بنعمةِ الروحِ القدس، بنعمةِ المسيحِ الربّ. أحيانًا، تُعتبَرُ إيقونةٌ معيَّنةٌ عجائبيَّةً بسببِ ارتباطِها بالتحديدِ بحادثةٍ تاريخيَّة، كحادثةِ شفاءٍ عجائبيٍّ مثلًا. لكن، مَنْ أحدَثَ المعجزة؟ لا الإيقونة، لا الخشبُ ولا الطلاءُ، بل الشخصُ المصوَّرُ في الإيقونةِ هو من أحدثَ ذاكَ العملَ العجائبيَّ بنعمةِ المسيح، وبسببِ إيمانِ طالبِ الشفاء. وكما هو مكتوبٌ في سفرِ أعمالِ الرُّسل، ظِلُّ بطرسَ الرسولِ صنعَ أشفية[٤٥]. هلْ كانت تلك الظاهرةُ الطبيعيَّة، أيْ ظِلُّ بطرس، هي السببَ وراءَ تلكَ الآياتِ والعجائب؟ بالطبعِ لا. هل السببُ هو بطرسُ شخصيًّا؟ الجوابُ ثانيةً لا. فنعمةُ المسيحِ الربِّ الفاعلةُ من خلالِ بطرس، هي التي أحدثَتْ تلك العجائب. لذا على وجهِ التحديد، نحنُ لا نستطيعُ التمييزَ بينَ إيقوناتٍ عجائبيَّةٍ وإيقوناتٍ عاديَّةٍ غيرِ عجائبيَّة. فالمسيحُ الربُّ هو الذي يُظهِرُ المعجزات. أعلَمُ أنَّ إيقوناتٍ كثيرةً حدثتْ من خلالِها معجزاتٌ وهي مجرَّدُ إيقوناتٍ ورقيَّةٍ منسوخةٍ عن إيقونةٍ أصليَّة».

وتابعَ الأبُ كلامَهُ عن خبرةِ أحدِ النسَّاكِ الذي وَجَد، بينما كان ينظِّفُ منسكَهُ، نسخةً ورقيَّةً قديمةً لإيقونةِ ميخائيلَ رئيسِ الملائكة. فكَّرَ الناسكُ بحرقِها مع أوراقٍ أُخرى باعتبارِها ورقةً باليةً لا تحملُ أيَّةَ قيمةٍ فعليَّة. إلاَّ أنَّه غيَّرَ رأيَهُ في اللَّحظةِ الأخيرةِ وعلَّقَها خارجَ بابِ منسكِه. في اليومِ التالي، لدى عودتِه إلى المنسك، وَجدَ رجلًا غريبًا يشعُّ نورًا في الداخل. عرَّفَ الغريبُ عن نفسِه أنَّه ميخائيلُ رئيسُ الملائكة، وأنَّه جاءَ ليساعدَ الناسكَ في شؤونٍ روحيَّة.

٤٥ أُنظر أع ١٥: ٥: ١٢: ١٩. و متّى ٢١: ٩.

وشدَّدَ الأبُ مكسيموس أنَّ ظهورَ القدِّيسينَ والملائكةِ ورؤيتَهم بالعينِ المجرَّدةِ حصلَ لكثيرينَ من الرهبانِ والنسَّاكِ عبرَ التاريخ. لذا، أصرَّ، أنَّه من الحماقةِ أنْ نرفضَ هذه الاختباراتِ وننبُذَها على اعتبارِ أنَّها مجرَّدُ هَلْوَسات.

سألَتْ إيليني: «إنْ لم يكنْ هنالِكَ فارقٌ بين الإيقونات، إذًا لماذا نرى إيقوناتٍ تدمعُ وأُخرى لا؟»، مشيرةً إلى الظواهرِ الغريبةِ التي حَدثتْ مؤخَّرًا في قبرص.

-«لأنَّنا، يا عزيزتي، ضعفاءُ ونَحتاجُ إلى ظواهرَ خارقةٍ للطبيعةِ لتَقْويةِ إيمانِنا. لكنَّ إيقوناتِ العذراءِ الفائقةِ القداسةِ أو السيِّدِ المسيحِ هي مجرَّدُ إيقونات. نحنُ نكرِّمُ إيقونةً معيَّنةً أكثرَ من إيقونةٍ أُخرى بسببِ ضعفاتِنا وعدمِ كمالِنا فقط. فشخصُ السيِّدِ المسيحِ الظاهرِ في كلِّ الإيقوناتِ هو ذاتُه. أبقُوا في ذهنِكم دائمًا، أنَّ الإيقونةَ ليستْ صورةً فوتوغرافيَّةً للوجهِ الطبيعيّ. على سبيلِ المثال، تُمثِّلُ إيقونةُ شخصِ السيِّدِ المسيحِ طبيعتَيهِ الإلهيَّةَ والبشريَّة. وتُمثِّلُ إيقوناتُ القدِّيسينَ طبيعتَهم البشريَّةَ المتألِّهة، أيْ بعدَ اتِّحادِ طبيعتِهم البشريَّةِ باللّه. لذا، لا يهتمُّ رسَّامُ الإيقونةِ بتصويرِ خصائصِ وجهِ القدِّيسِ الطبيعيَّةِ بل الخصائصُ الروحيَّةُ للقدِّيسِ المتألِّهِ أو المعاينِ اللّه».

قُلتُ معلِّقًا: «بمعنًى آخر، يُصوِّرونَ النموذجَ الأصليّ».

- «لكنْ يجبُ علينا أنْ نكونَ حذِرين. فالسماتُ الشخصيَّةُ للقدِّيسِ تُصان، ولكن تُصوَّرُ في شكلِها المتجلِّي».

سَألَتْ إيليني: «ماذا تَعْني بذلك؟»

- «إنْ دقَّقْنا مثلًا في إيقونةِ القدِّيسِ البارِّ سيرافيم ساروفسكي، سنرى أنَّها لا تتطابقُ تمامًا مع إيقونةِ القدِّيسِ المعاصرِ نكتاريوس أسقفِ المدنِ الخمس. السماتُ الشخصيَّةُ لكلَيهما معروفةٌ لنا: في حالةِ القدِّيسِ سيرافيم من الصورِ الفنِّيَّة؛ وفي حالةِ القدِّيسِ نكتاريوسَ من الصورِ الفوتوغرافيَّة. أتفهمونَ معنى كلامي؟ على أيَّةِ حال، ما يجبُ علينا أنْ نأخذَهُ في الاعتبارِ هو أنَّ معنى الإيقونةِ ومغزاها هو مساعدتُنا في الوصولِ إلى المسيحِ الربّ. لكنَّ تثبيتَ نظرِنا على الإيقونةِ بذاتِها فقط، هو بالتأكيدِ شكلٌ من عبادةِ الأصنام».

قُلتُ مقترحًا: «إستنادًا لهذا التوضيح، عبادةُ الأصنامِ هي كلُّ شيءٍ نبتدعُهُ نحنُ البشرَ ومن ثمَّ نعبدُه، ومع مرورِ الوقت، ننسى أنَّنا أصحابُ هذه البدعة. هذا جزءٌ من غُربتِنا عن طبيعتِنا الإلهيَّة».

وافقَ الأبُ مكسيموس قائلًا: «هذا وصفٌ صحيحٌ ودقيقٌ».

أضفْتُ: «هذا يعني أنَّ العقائدَ التي تُحرِّكُ أعدادًا واسعةً منَ البشر، قوميَّةً كانت أم شيوعيَّة، وطنيَّة، أصوليَّةً دينيَّة، رأسماليَّة، أو أيَّةَ مذهبيَّةٍ أُخرى، هي في الواقعِ صنمٌ نعبدُه. في البداية، نُنْشِئها جماعيًّا، من ثمَّ تصبحُ حالةً فعليَّة. فنحنُ نخلقُ تلكَ الوقائعَ والحالاتِ بأنفسِنا، وسرعانَ ما ننسى أنَّنا صانعوها. ثمَّ نتبنَّى تلكَ الأصنامَ التي تستحوذُ على قلوبِنا وعقولِنا، ونَسْجدُ أمامَها ونَعْبدُها كما لو أنَّها آلهةٌ حقيقيَّة». تابعتُ كلامي كعالمِ اجتماع: «وكمثالٍ بسيط، لنأخذْ عبادةَ أعلامِ الأممِ المختلفةِ التي تؤجِّجُ فينا شعورًا قوميًّا مفرِطًا. فالناسُ على استعدادٍ ليُقتَلوا ويَقتُلوا فداءً لتلكَ الأصنام، بالطريقةِ نفسِها حيثُ اقتتلَ

الناسُ عبرَ العصورِ فداءً لأصنامِهم الدينيَّة».

قالَ الأبُ مكسيموس: «كلُّ شيءٍ نَعْبُدُهُ سوى اللّٰه، هو شكلٌ من أشكالِ عبادةِ الأصنام. حينما نُعطي أهمِّيَّةً مطلقةً لشيءٍ ما، سواءٌ كانَ عقيدةً أو مالًا، أو معرفةً علميَّة، نكونُ في الحقيقةِ عابدي أصنام. والوصيَّةُ الثانيةُ هي تحذيرٌ من كُلِّ ذلك. لسوءِ الحظّ، يسقطُ المسيحيُّون، في أغلبِ الأحيان، في فخِّ عبادةِ الأصنام. يخلقونَ صنمًا للسيِّدِ المسيحِ ويعبدونَه، صنمًا لا علاقةَ له بالمسيحِ الحقيقيّ».

قلتُ مُضيفًا: «مثلَ 'مسيحِ' محاكمِ التفتيشِ الكاثوليكيَّة».

- «هذا أمرٌ واضح. لكنْ هل تعرفُ أنَّ بعضَ المسيحيِّينَ يقعونَ في أشكالٍ أُخرى من عبادةِ الأصنامِ أكثرَ خباثةً؟ قدْ يعتبرُ الناسُ أنفسَهم مسيحيِّين أتقياء، لكنَّ أفكارَهم عن المسيح، لا صلةَ لها بتاتًا بالمسيحِ نفسِه. هذا شكلٌ من أشكالِ المرض، مرضٌ آخرُ من أمراضِ القلبِ التي تَحدَّثنا عنها قبلًا. وبشكلٍ خاصّ، نحنُ الإكليريكيِّين، نكونُ عُرضةً لعبادةِ صنمٍ للمسيحِ، نخلقُهُ في عقولِنا بدلًا من السيِّدِ المسيحِ نفسِه. كما لو أنَّنا نَخلُقُ إلهَنا الخاصّ، صنمًا ندعوهُ 'المسيحَ' وبعدَ ذلك نركَعُ له ونَعْبدُه. على سبيلِ المثال، قدْ يَعتبرُ الناسُ أنفسَهم مسيحيِّينَ إلى أنْ تطلبَ منهم أمرًا ما يتعارضُ مع مصالحِهم ورغباتِهم».

سألتْ إيليني: «ما أساسُ هذه المشكلة؟ لماذا يسقطُ الإكليريكيُّونَ والعلمانيُّونَ ضحيَّةَ هذا الشكلِ من عبادةِ الأصنام؟»

أجابَ الأبُ مكسيموس: «يحدثُ ذلكَ عادةً، عندما نبني مناخَنا الروحيَّ من دونِ توجيهٍ حقيقيٍّ، من دونِ تربيةٍ روحيَّة من شيخٍ مختبر. إذَّاك، نسقطُ ضحيَّةَ الأفكارِ التي نبتدِعُها بشكلٍ مستمرٍّ في عقولِنا، ونقعُ في شَرَكِ صورةٍ للسيِّدِ المسيحِ خاصَّةٍ بنا، معبودٍ نخلُقُهُ نحنُ في عقولِنا».

قُلتُ مُضيفًا: «أفترضُ أنَّه سيكونُ أمرًا مماثِلًا إنْ حاولَ شخصٌ ما تعَلُّمَ الكيمياءَ لوحدِه دونَ توجيهِ عالِمِ كيمياءٍ متمرِّس، كمعلِّمٍ له».

أومَأ الأبُ مكسيموس برأسِه موافِقًا، ثمَّ كرَّرَ ثانيةً ما قدْ قالَه في مرَّةٍ سابقة، وهو أنَّ الشيوخَ القدِّيسينَ كانوا علماءَ ذوي خبرةٍ عاليةٍ في البحثِ عن اللّه. والمناهجُ المستخدَمةُ في بعضِ الأديار، كالتي في جبلِ آثوسَ مثلًا، هي في الحقيقةِ مناهجُ عِلْمٍ روحيّ.

أمَّا ثيودوروس، الذي لم يتفوَّهْ بكلمةٍ واحدةٍ أثناءَ تفسيرِ الأبِ مكسيموس لموقفِ الشيوخِ القدِّيسينَ غيرِ الوثنيِّ بالنسبةِ للإيقوناتِ، فبادرَ بطرحِ سؤالٍ آخر: «هلِ الإيقوناتُ ضروريَّة؟»

إبتسمَ الأبُ مكسيموس وقال: «في سياقِ إيمانٍ كامل، من الواضحِ أنَّه لا حاجةَ للإيقوناتِ أو للذخائرِ أو لأيَّةِ أداةٍ دينيَّةٍ أُخرى في العبادة. لذا في الحقيقة، يُرشِدُنا الشيوخُ القدِّيسونَ إلى الامتناعِ عن تصوُّرِ أيَّةِ إيقونة، مثلَ إيقونةِ السيِّدِ أو والدةِ الإله، في ذهنِنا أثناءَ الصلاة. وهذا مبدأٌ مرتبطٌ بما نسمِّيه «الصلاةَ النقيَّة». بالأحرى، مطلوبٌ منَّا أنْ نصلِّيَ بإقامةِ اتِّصالٍ مباشرٍ بروحِ اللّه».

قُلتُ مشيرًا إلى ثيودوروس: «إذا كانَ الأمرُ كذلك، إذًا ما فائدةُ الإيقوناتِ في العبادة؟ أعتقدُ أنَّ هذا ما يُحيِّرُه»[٤٦].

بعدَ الاستغراقِ في التفكيرِ لثوانٍ، أجابَ الأبُ مكسيموس قائلًا: «هناك مراحلُ للنموِّ الروحيِّ في الكنيسة. يُمكنُ للإيقوناتِ أنْ تكُونَ أداةً مفيدةً في الاعتلاءِ نحوَ اللّهِ للمبتدئينَ في الحياةِ الروحيَّة».

سَألَ ثيودوروس ثانيةً: «لكن لماذا؟»

- «لأنَّ حواسَّنا يمكنُ أنْ تكونَ عاملًا مساعِدًا في جهادِنا الروحيّ. فكَما تُهاجِمُ الصُوَرُ الفاسدةُ حواسَّنا، مثيرةً فينا أهواءَ فاسدة، كذلك يكونُ تأثيرُ الإيقوناتِ على حواسِّنا، ولكن، على نحوٍ معاكس. عندما نتأمَّلُ الإيقونات، تتولَّدُ في داخلِنا معانٍ مقدَّسةٌ خيِّرة. فالكائنُ البشريُّ لا يتكوَّنُ من نفسٍ وروحٍ فقط، لكن من عقلٍ وخيالٍ ومشاعرَ وأحاسيسَ أيضًا. الفردُ هو وحدةٌ كيانيَّةٌ كاملة. هدفُ الكنيسةِ وغايتُها هو تأليهُ الشخصِ بكلِّيَّتِه. فالشخصُ بكلِّيَّتِه هو الذي يُجاهِدُ للوصولِ إلى اللّه. لهذا، تضعُ الكنيسةُ تمارينَ تَتعلَّقُ بالجسد، مثلَ الصومِ والسجودِ والوقوفِ لساعاتٍ طويلةٍ في السهرانيَّات، وكُلِّ التمارينِ الروحيَّةِ التي مارسَها القدِّيسونَ عبرَ العصور».

أشارَ ثيودوروس: «هذه تمارينُ جسديَّة. لماذا يُعاقَبُ الجسدُ ويُحرَمُ من الراحةِ العاديَّة؟»، وبنبرةٍ ساخرةٍ تابعَ سائلًا: «لا أفترِضُ أنَّها تمارينُ من أجلِ

46 See Henri J. M. Mouwen, Behold the Beauty of the Lord: Praying with Icons (Notre Dame, IN: Ave Maria Press, 1987); Richard Temple, Icons and the Mystical Origins of Christianity (Rockport, MA: Element, 1992).

اللياقةِ البدنيّة؟»

أجابَ الأبُ مكسيموس: «بالطبعِ لا. يَهدفُ الجهادُ إلى توجيهِ الإنسانِ بكلِّيَّته، روحًا وعقلًا وجسدًا، نحوَ اللّهِ ليتألّه. أتَرى يا صديقيَ العزيز، مثلَما لدينا شهواتٌ نفسيَّةٌ كالغرورِ والغيرةِ والمكرِ، وهلمّ جرًّا، كذلك لدينا شهواتٌ جسديَّةٌ أيضًا مثلَ الشرهِ والإشباعِ الجنسيّ والإدمانِ على أنواعِه، مثلَ الكحولِ والمخدِّراتِ، واللائحةُ طويلة. للتغلُّبِ على هذه الأمراض، نحنُ نحتاجُ إلى هذه التمارين. والإيقوناتُ يمكنُ أنْ تساعدَنا في جهادِنا ضدَّ مثلِ هذه الأهواءِ المُدَمِّرَةِ التي تُبقينا منفصلينَ عن اللّه.

لا يحتاجُ الإنسانُ الفائقُ النقاوةِ إلى الإيقوناتِ ولا التراتيلِ ولا إلى الخِدَمِ الليتورجيَّة. لكن، إذْ نحنُ نفتقدُ الكمال، نحتاجُ لوسائلَ مُساعِدَةٍ مثلِ الإيقوناتِ والمزاميرِ والتراتيل، وما شابه. نجدُ هذه المساعداتِ في العهدِ القديمِ وكذلك في العهدِ الجديدِ وهي دومًا متوفِّرةٌ طالما أنّنا لم نَصِلْ إلى غايتِنا في الاتّحاد باللّه».

* * *

ذكَّرني النقاشُ الذي دارَ حولَ الإيقوناتِ بإحدى نسيباتيَ العزيزات، التي اكتشفَتْ أنّها مصابةٌ بداءِ الذئبة[47]، وهو مرضٌ خطرٌ مميت. قرّرتْ تركَ عملِها وتوجيهَ كلِّ طاقاتِها نحوَ شفاءِ نفسِها. ومن أكثرِ التأثيراتِ المثمرةِ التي اختبرتْها، كانَ متابعتَها دروسًا في رسمِ الإيقوناتِ على يدِ رسّامينَ محلّيّين. مع الوقت،

٤٧ داءٌ جلديّ.

أبدَعَتْ بمهارةٍ فائقةٍ وعُلِّقَتْ إيقوناتٌ من عملِها في الكنائسِ المحلِّيَّة. واعتبَرَتْ هِوايتَها الجديدةَ دواءً لا يوصفُ، ساعدَها على تحمُّلِ مشكلتِها، إذْ منحَها مَخرَجًا روحيًّا كانَ مغلقًا أمامَها قبلاً. ولقد أخبرَتْني مرَّة: «كلَّما أرى الإيقونةَ تأخذُ شكلَها النهائيَّ أمامي، أختبرُ شعورًا فائقًا من الهدوءِ والبركة، يملأُني بالكلِّيَّة. أشعرُ بطاقةٍ شافيةٍ تنبثقُ من الإيقونة، وتغطِّي كاملَ جسمي».

* * *

إستعدَّ ثيودوروس وإيليني لمغادرةِ الديرِ والعودةِ إلى ليماسول راضيَينِ عن لقائِهما بالأبِ مكسيموس، وفرحَينِ بمصيرِ إيقونةِ السيِّدِ المسيحِ الضابطِ الكلّ. وفيما كانتْ إيليني على وشكِ الخروجِ من الغرفة، سألتْ، متردِّدةً، إنْ كانَ في وِسْعِها الإنفرادُ بالأبِ مكسيموس لبضعِ دقائق. رافقَتْ ثيودوروس خارجَ بابِ الديرِ الرئيسيِّ في انتظارِ إيليني، ليُشعِلَ سيجارة، وهو أمرٌ ممنوعٌ في حَرَمِ الدير.

بعدَ عشرينَ دقيقة، خرجتْ إيليني من غرفةِ الاعترافِ وهي تمسحُ دموعَها. وقالتْ بصوتٍ خافت: «ليسَ في استطاعتِكَ أنْ تتصوَّرَ الثقلَ الذي نزلَ عن كاهلي». كانتْ هذه هي المرَّةَ الأُولى لإيليني في اختبارِ سرِّ الاعتراف[٤٨].

قالَ الأبُ مكسيموس، وهو يُرافقُ إيليني وثيودوروس إلى سيَّارتِهما خارجَ الدير: «تذكَّرا أنَّ كلَّ ما يحدثُ لنا في الحياةِ، خَيْرًا كان أم سوءًا، له غايةٌ

٤٨ بحسب طقس الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية يجلس الأب المعرف وجهًا لوجه مع الإبن المعترف. تمامًا كما في أي جلسة إستشارية بين محام وموكله. وفي نهاية اللقاء بينهما ووفقًا للسلطة الممنوحة له من الكنيسة يضع الأب المعرف بطرشيله على رأس المعترف ويقرأ صلاة الحلّ.

واحدةٌ وهي إيقاظُنا على حقيقةِ اللّهِ ومُساعدَتُنا في الطريقِ نحوَ الاتِّحادِ به. صدِّقوني، ليس هنالِكَ سببٌ آخرُ لوجودِنا على هذا الكوكب. يعودُ الأمرُ لنا أنْ نستفيدَ مِن تلكَ النداءاتِ المنبِّهَةِ أم لا».

إبتسمتْ إيليني وتنهَّدَتْ وكأنَّها تتنفَّسُ الصُّعَداء. فصِراعُها مع مرضِ السرطان، الذي دامَ عشرَ سنواتٍ، كان النداءَ الموقِظَ لها.

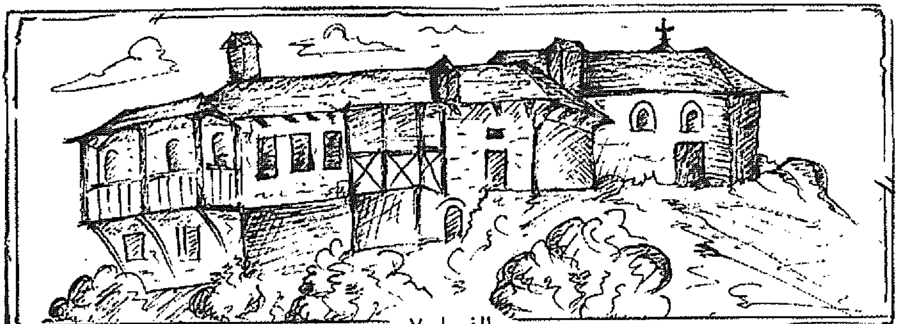
الفصل ٧

علاماتٌ وعجائبُ

طلبَ الأبُ مكسيموس من استِفانوس مُرافقتَنا في رحلتِنا إلى مدينةِ ليماسول الساحليَّة، ومن هناكَ إلى قريةِ لانِيا غيرِ البعيدةِ عن ليماسول عندَ المنحدرِ الجنوبيِّ لجبالِ ترودوس. لم يرغَبِ الأبُ مكسيموس بذهابِ استِفانوسَ معَنا لأنه رفيقُ طريقٍ جيِّدٌ فحسب، بل لأنَّه مُستشارُهُ الرئيسيُّ في كلِّ الأمورِ التي تتعلَّقُ بالعالمِ العلمانيِّ خارجَ الديرِ أيضًا. منذُ لقائِهما الأوَّل، نشأتْ صداقةٌ رائعةٌ بينَ الأبِ مكسيموس، واستِفانوس البالغِ الستينَ من العمر. ساعدَ هذا الأخيرُ الأبَ مكسيموسَ في شؤونِ هذا العالم، بينما درَّبَه الأبُ مكسيموسُ في شؤونِ ما بعدَ هذا العالم. وكُنْتُ أنا المستفيدَ السعيدَ مِنْ علاقتِهما. فمَعَ استِفانوس، صديقيَ الحميمِ والمؤتمَنِ على أسراري، كنتُ أُمضي ساعاتٍ طويلةً نتناقشُ متبادلَينِ الملاحظاتِ عن العالمِ الاستثنائيِّ، عالمِ الأبِ مكسيموسَ والآباءِ والإخوةِ الآخرينَ في ديرِ الفائقةِ القداسة. وكانَ استِفانوس أيضًا المُخْبِرَ العلمانيَّ الوحيدَ لي داخلَ الدير، فيُطلِعُني على كلِّ ما يجري فيه من أحداثٍ هامَّةٍ أثناءَ فتراتِ غيابي. لذا، سُرِرْتُ بدعوةِ الأبِ مكسيموسَ له لمرافقتِنا.

فبالتأكيدِ سينشأُ نقاشٌ مُثمرٌ بينَنا أثناءَ هذه الرحلة.

* * *

دَعَتِ الإدارةُ المحلِّيَّةُ في قريةِ لانيّا الأبَ مكسيموس لحضورِ اجتماعِ مجلسِها البلديِّ المخصَّصِ لدراسةِ إمكانيَّةِ تشييدِ ديرٍ في النَّجْدِ[٤٩] المطلِّ على بلدتِهم. فمنذُ عامَين، تمَّ اكتشافُ إيقونةٍ للسيِّدةِ العذراءِ تعودُ إلى القرنِ الثاني عشرَ مخبَّأةً في كهفٍ قربَ ذلكَ النجد. وتقولُ الروايةُ إنَّ فلاَّحًا من أبناءِ البلدةِ كُشِفَ له في حلمٍ مكانُ الكهف، فذهبَ وَحَفَرَ في المكانِ فوجَدَ الإيقونة. اعتبرَ أهلُ القريةِ الرؤيةَ والاكتشافَ علامةً إلهيَّةً لبناءِ ديرٍ هناكَ تكريمًا للسيِّدةِ العذراءِ الفائقةِ القداسة. لذلك، طلبوا من أحدِ أبناءِ القريةِ، وهو راهبٌ في جبلِ آثوس، أنْ يعودَ لأجلِ هذا الغرض. لكنَّهم رغبوا أيضًا بالاستماعِ إلى وجهةِ نظرِ الأبِ مكسيموسَ ونصيحتِه في الأمر، كونَه الراهبَ المتقدِّمَ في الجزيرة، والذي له ارتباطاتٌ وثيقةٌ بالجبلِ المقدَّس. رغبتُهم بذلك علامةٌ أُخرى تشيرُ إلى تأثيرِ الأبِ مكسيموس في إحياءِ الحياةِ الرهبانيَّةِ في قبرص.

إنطلقْنا من الديرِ عندَ الثامنةِ صباحًا، مباشرةً بعدَ انتهاءِ خدمةِ الصباح، وكانتِ الشمسُ تنشرُ تألُّقَها بسخاءٍ على الجبالِ، مُتوجِّهينَ إلى ليماسولَ أوَّلًا لزيارةٍ قصيرةٍ لوالدةِ الأبِ مكسيموسَ ورابِّه[٥٠]، ومن ثمَّ إلى لانيا لحضورِ اجتماعِ البلدة.

جَلسَ استِفانوس في المقعدِ الخلفيِّ، والأبُ مكسيموسُ في المقعدِ

٤٩ النَّجْد: السهل الواسع والمرتفع: الهضبة.

٥٠ الرابُّ: زوج الأم.

الأماميِّ بجانبِ سائقِهِ المؤقَّت، أيْ بجانبي. وما إنْ عبَرْنا بابَ الديرِ الخارجيِّ، حتَّى ضغَطتُ على زرِّ مسجِّلِي وطرحْتُ سؤاليَ الأوَّلَ إشارةً لبدءِ محادثاتِنا. بدَتِ ابتسامةٌ عريضةٌ على وجهِ الأبِ مكسيموسَ الذي اعتادَ إلى الآنَ على طريقةِ عملِي.

- «أبانا مكسيموس، ما أكثرُ حدثٍ استثنائيٍّ اختبرتَهُ كتلميذٍ للشيخِ بابيسيوس؟»

منذُ رقادِهِ في الربِّ، أيْ منذُ عامَين، أضحى الشيخُ بابيسيوس أسطورةً بين أتباعِ الروحانيّةِ الآثوسيَّة. ونُشِرَتْ عدَّةُ كتبٍ تروي سيرةَ هذا الراهبِ الآثوسيِّ الإستثنائيِّ والقدِّيسِ المعاصر. وبما أنَّ الأبَ مكسيموس هو أحدُ تلاميذِهِ المقرَّبين، فلَهُ بالتأكيدِ معرفةٌ دقيقةٌ عن الشيخِ بابيسيوس. وهذا أمرٌ كانَ الأبُ مكسيموسُ مستعدًّا دومًا لتداولِهِ مع تلاميذِهِ وأولادِهِ الروحيِّين، خاصَّةً الآنَ بعدَ رقادِ الشيخِ بابيسيوس في الربّ. كانَ الأبُ مكسيموسُ يحثُّ تلاميذَه دائمًا على أنَّه، إضافةً إلى قراءةِ الكتابِ المقدَّسِ وممارسةِ الصلاةِ غيرِ المنقطعة، أمرٌ ضروريٌّ للحياةِ الروحيَّة أن نقرأ سِيَرَ القدِّيسين. فهي كالمنارةِ للنفسِ التوَّاقةِ للكمال. القدِّيسونَ، كما يقول، هم المُثُلُ العُليا لِما قَدْ نَكُونُه. وحضورُهم بينَنا يؤمِّنُ شهادةً حيَّةً لفعاليَّةِ الإنجيل، تمامًا كما يُزوِّدُ حضورُ العلماءِ وأعمالُهم دليلًا مؤكَّدًا لقيمةِ الكتبِ العلميَّةِ وفعاليَّتِها.

أَخذَ الأبُ مكسيموسُ نفَسًا عميقًا، بَدا كتنهُّدٍ، وردَّ على سؤالي. قال إنّه شَهِدَ العديدَ من الظواهرِ الفائقةِ الطبيعةَ حولَ الشيخِ بابيسيوس، ولا

يَعرفُ من أينَ يَبْدأ.

إقترحَ استِفانوس: «ربَّما، يمكنُكَ أنْ تُخبرَ كرياكوسَ عن حادثةِ الشموعِ المتحرِّكة. فهي مميَّزة». نظرتُ في مرآةِ السيَّارةِ بلمحةٍ سريعة، وأَومأتُ شاكرًا صديقِيَ الأشيبَ الشعر. فاستِفانوسُ كانَ مهتمًّا جدًّا ببحثي. وبإمكاني الاعتمادُ عليهِ دائمًا، لِكي يَكُونَ محفِّزًا لتَنْشيطِ المحادثات.

أجابَ الأبُ مكسيموس: «آه، تلك الحادثة. كانتْ واحدةً بينَ اختباراتٍ عديدةٍ لَنْ أَنْساها أبدًا. ألمْ نَتحدَّثْ عنها قبلًا؟»

وإذْ أدرَكَ تعطُّشيَ لسماعِ المزيدِ من التفاصيلِ حولَ تلك الحادثةِ التي كانَ قدْ أشارَ إليها بإيجازٍ في حديثٍ سابقٍ معي قبلَ سنواتٍ عدَّة، تابعَ الأبُ مكسيموسُ كلامَه قائلًا: «كما ذَكرتُ في وقتٍ سابقٍ، ولا أخالُني مبالِغًا إذا قلتُ إنَّ الشيخَ باييسيوس لمْ يكنْ ينامُ إلاَّ نادرًا. في الحقيقةِ، كانَ ينامُ ساعةً أو ساعتَين في اليوم. إعتادَ أنْ يقضيَ الليلَ كلَّهُ في الصلاة. في منسكِه، إلتزمَ ببرنامجِ الخِدمِ الليتورجيَّةِ والصلواتِ اليوميَّةِ كما تُقامُ في أديارِ الشركة. إضافةً إلى ذلك، كانَ يقيمُ سهرانيَّةً كُلَّ لَيلةٍ مِنَ الغروبِ حتَّى شروقِ الشمس، يُصلِّي من أجلِ الآخرين، من أجلِ كلِّ العالم. كلَّ مرَّةٍ كنتُ في صُحبَتِه، كنتُ شاهدًا على صلاتِهِ غيرِ المنقطعة. كانَ يُصلِّي ساعةً لكلِّ فئةٍ من الناس، ساعةً من أجلِ الأيتام، وأُخرى من أجلِ الأرامل، للّاجئينَ والذين لا مأوَى لهم، لِمَنْ هم على وشكِ التعرُّضِ لخطرِ حادثٍ ما، للجنودِ في الحرب، ولآخرينَ ممَّن

٥١ تشيرُ السهرانيّة إلى الخدمةِ الكنسيَّة التي تُقامُ طوالَ الليل في الأعياد السيّديَّة والوالديَّة وأعياد القدّيسين الممتازة. وأيضًا إلى صلاةِ الراهب الشخصيّة التي تستمرُّ ساعاتٍ طويلة خلالَ الليل.

يحتاجونَ إلى الصلاة». [٥٢]

أبقَيتُ عينيَّ مركَّزتَين على الطريق، وقاطعتُهُ قائلًا: «بصراحة، من الصعبِ تخيُّلُ إنسانٍ يصرفُ كاملَ حياتِه في جبلٍ بعيد، لا يفعلُ شيئًا سوى الصلاة».

أجابَ الأبُ مكسيموس، وابتسامةٌ عريضةٌ على وجهِه المستدير: «بصراحةٍ، كانَ الشيخُ پاييسيوسُ يتعجَّبُ دائمًا كيفَ يستطيعُ الناسُ أنْ يعيشوا حياتَهم دونَ أنْ يكونوا في حالةِ صلاةٍ دائمة. فلْأُعطِكَ، للتوضيح، مثالًا عن أهمّيَّةِ الصلاةِ بالنسبةِ له. أثناءَ حربِ الخليج، حَبَسَ نفسَهُ في قلّايتِه، قاطعًا كُلَّ اتّصالٍ مَعَ زوّارِه. ومكَثَ هكذا طيلةَ فترةِ الحرب. في الحقيقة، أخبرَني هو لاحقًا أنَّهُ أكثَرَ من الصلاةِ كيْ لا تخرجَ الحربُ عن السيطرةِ وتُصبحَ هدّامةً أكثرَ ممّا هي عليه».

سَألتُ مندهِشًا: «أكانَ حقًّا يؤمنُ أنَّ صلاتَه قد تُغيِّرُ شيئًا؟ أنَّها قد تؤثِّرُ حقًّا على مسارِ الحربِ في الخليج؟». فعلى الرغمِ مِنَ السنواتِ العديدةِ التي أمضَيتُها بين الصوفيِّينَ والمعالجِينَ الروحيِّينَ والنسّاك، وبالرغم مِنْ أنّي كنتُ شاهدًا لظواهرَ شفائيَّةٍ خارقةٍ للطبيعة، وبالرغم مِنَ البحوثِ العلميَّةِ الأخيرةِ التي تشيرُ إلى الفعاليَّةِ المحتمَلةِ «لصلاة الشفاعة» [٥٣]، كانتْ نزعَتي إلى الشكِّ الدائمِ، كأكاديميٍّ، متربِّصَةً دائمًا في خلفيَّةِ ذهني، حاضرةً أبدًا للتعبيرِ عن الشكِّ والارتياب.

---

٥٢ أنظر: الأب اسحق الآثوسي: حياة الشيخ پاييسيوس الآثوسي. منشورات الجبل المقدّس. آثوس ٢٠٠٦. ص. ٣٦٧-٣٧٠؛ ٤٠٨-٤٠٢.

53 See: Larry Dossey, Healing Words: The Power of Prayer and the Practice of Med - cine (New York: HarperCollins, 1993).

أجابَ الأَبُ مكسيموسُ بجِدِّيَّة، مُشيرًا ضِمنًا إلى أنَّه يُفترَضُ عليَّ الآنَ أنْ أكونَ قدْ أدركتُ قوَّةَ الصلاة: «لكنْ بالطبعِ، يا كيرياكو! لِأجلِ هذا يصلّي رجالُ اللّهِ الأتقياء، مثلَ الشيخِ پاييسيوس، بلا انقطاع. أتعتقدُ أنَّهم بُلَهاءُ حمقى؟ لماذا يفاجئُكَ ذلك؟ سواءٌ أدركَ الناسُ هذه الحقيقةَ أم لا، فصلواتُ القدّيسينَ، من أجلِ خيرِ العالمِ، لها قيمةٌ كبيرةٌ وفاعليَّةٌ فائقة».

قالَ استِفانوس من المقعدِ الخلفيِّ: «اللّهُ يَستمعُ إلى قدّيسيه».

وَفقًا للتقليدِ الروحيِّ الآثوسيِّ، عندما يستأصلُ الإنسانُ رغباتِهِ الشخصيَّة، ويصِلُ إلى حالةِ اللاهوى، يصيرُ 'إناءً للروحِ القدس'. عندئذٍ، كلُّ ما يطلُبُه ذاكَ الإنسانُ يُعطى له، لأنْ هذا ما يشاؤه الربّ. إدراكُ القدّيسِ يصيرُ في تناغمٍ كلّيٍّ مع روحِ اللّه.

* * *

كنّا نجتازُ آنذاكَ قريةَ 'كالو خوريو' (القريةُ الصالحة)، المحاطةَ بأشجارِ الكرزِ والتفّاحِ واللوزِ المُزهرة. بعدَ التأمُّلِ بإعجابٍ شديدٍ في لوحةِ الربيعِ التي أمامَنا، بألوانِها ومَشاهدِها البديعةِ لثوانٍ معدودة، راحَ الأبُ مكسيموسُ يروي القصَّةَ التي كنتُ قد قاطَعْتُها بسؤالِيَ المشكّك:

«أتذكَّرُ أنَّ الحادثةَ وقعَتْ في صيفِ ١٩٧٧، عندما ذَهبتُ لقضاءِ بضعةِ أيّامٍ مَع الشيخِ پاييسيوس في منسكِه. وصادفَ ذلك أيضًا عشيَّةَ الاحتفالِ بعيدِ الصليبِ الكريمِ المقدَّس. وطلبَ منّي في تلك الليلةِ أنْ أُشاركَهُ خدمةَ السهرانيَّةِ التي ستدومُ حتّى شروقِ الشمس.

في تمامِ الساعةِ الرابعةِ من بعدِ ظهرِ ذاك اليوم، استدعاني لمشاركتِهِ في صلاةِ الغروبِ وصلاةِ يسوع. بعدَ الإنتهاءِ من صلاةِ الغروب، بدأْنا بتلاوةِ صلاةِ اسمِ يسوعَ معًا، مُردِّدَينِ دونَ انقطاعٍ 'أيُّها الربُّ يسوعُ المسيحُ، ابنَ اللّه، ارحَمْني أنا الخاطئ'. في الساعةِ السادسة، مباشرةً بعدَ مغيبِ الشمس، أخذْنا استراحةً قصيرةً، فتناولْنا كوبًا من الشاي، ثمَّ توجَّهَ كلٌّ منَّا إلى قلاَّيتِه، وهي عبارةٌ عن غرفةٍ صغيرةٍ وضيِّقة، على أنْ نستمرَّ، بحسبِ طلبِ الشيخِ باييسيوس، في مواصلةِ صلاةِ يسوعَ كُلًّا بمفردِهِ مُستعينَينِ هذه المرَّةَ بالمسبحة. وأعطاني إرشاداتٍ خاصَّةً عن الوضعيَّةِ الجسديَّةِ التي يجبُ الحفاظُ عليها أثناءَ الصلاة، عن كيفيَّةِ التنفُّسِ فيما أُردِّدُ صلاةَ يسوع، وما إلى ذلك. وهو سيدعُوني عندَ الواحدةِ بعدَ منتصفِ الليلِ لنُقيمَ خدمةَ السحَريَّةِ ونقرأَ المطالبسي الإلهيَّ، ثمَّ نتابعَ من جديدٍ صلاةَ المسبحةِ حتَّى انبلاجِ الصبح.

قلتُ متعجِّبًا: «يا له من نظامٍ صارم!»

وتابعَ الأبُ: «جاهدْتُ أنْ أعمَلَ بإرشاداتِهِ حرفيًّا، وأثناءَ ذلك، كنتُ أسمعُ صوتَ سجودِهِ وقيامِه، مصلِّيًا ومتنهِّدًا باستمرار. كان اختبارًا رهيبًا».

- «رهيبًا؟»

- «نعم. كنتُ شابًّا مبتدئًا وأخافُ من وجوديَ في وسطِ تلكَ البرِّيَّةِ التي لا يحيطُها شيءٌ سوى الظلامِ والأشجار، والحيواناتِ المفترسة. ولم يعزِّني وسطَ كلِّ ذلك سوى وجودِ الشيخِ باييسيوس مصلِّيًا بالقربِ منِّي. كانَ ذلكَ مثلَ دعامةِ أمانٍ لي.

كلَّ ساعتَين، كانَ الشيخُ پاييسيوسُ ينقرُ على الحائطِ الفاصلِ بينَنا، ليُطمئِنني أنَّهُ موجودٌ هناكَ في الجانبِ الآخر. كانَ يريدُ التأكُّدَ من أنّي يقظٌ في صلاتي. هذا الحائطُ الفاصلُ، لم يكنْ حائطًا صلبًا وفي مستطاعِ أيٍّ منّا أنْ يُسقِطَهُ بركلةٍ واحدة. وعندَ الساعةِ الواحدةِ من بعدِ منتصفِ الليل، دخلْنا معًا إلى كنيسةِ المنسك. وهي كنيسةٌ صغيرةٌ ضيِّقةٌ، إيقونسطاسُها يحوي خمسَ إيقوناتٍ وفيها مقعدٌ واحدٌ ذو سواعد[٥٤]. طلبَ منّي الوقوفَ في المقعدِ ووقَفَ هو بالقربِ منّي. بدأتُ بتلاوةِ خدمةِ المطالبسي الإلهيّ، وبدأَ الشيخُ پاييسيوسُ يردِّدُ الاستيخن 'المجدُ لكَ يا إلهَنا، المجدُ لك'، ومن ثمَّ 'أيَّتها الفائقُ قُدسُها، والدةُ الإله، خلِّصينا'. وكلَّما قرأتُ قطعةً كان يعملُ مطّانيّة. تابعتُ قراءةَ الأودياتِ حامِلًا شمعةً في يديَ اليُسرى. وعندما وصلْتُ إلى الأوديةِ الخامسة، وبالتحديدِ قبلَ الطروباريّة «يا مريمُ أُمَّ الإله، يا مَسكِنَ الطِّيبِ المُوقَّر...»، ردَّدَ الشيخُ پاييسيوس، بنبرةِ خشوعٍ وتقوًى، الاستيخن 'أيَّتها الفائقُ قدسُها، والدة الإله، خلِّصينا'، وفيما كنتُ على وشكِ قراءةِ الطروبارية «يا مريمُ أُمَّ الإله ...»، تجلَّى فجأةً كُلُّ شيءٍ من حولِنا. تَغيَّرَ كُلُّ شيءٍ بشكلٍ مفاجئٍ ودراميتيكيٍّ، فوجدْتُ نفسيَ عاجزًا عن فهمِ ما يحدثُ من حولي».

استغرقَ الأبُ مكسيموسُ في التأمُّل. نظرتُ إليه، وعلاماتُ اللهفةِ على وجهي، وقلتُ: «حَسنًا، ماذا جرى؟»

قالَ مُكرِّرًا: «فجأةً تَغيَّرَ كُلّ شيء». وأشارَ أنَّ ظواهرَ حدثتْ، لا يَستطيعُ

---

٥٤ هو مقعد خشبيٌّ مع ظهر عالٍ ومسندَين مرتفعَين على مستوى المرء يتواجدُ في الكنائس، ليقف في إطارِه المصلّي، يتّكئ عليه بساعدَيه أو يجلس.

أَنْ يَكْشِفَ عنها بالكامل. إلاَّ أنَّه تابعَ ببعضِ التوضيحاتِ قائلًا: «على الرغمِ من أنَّ البابَ والنوافذَ كانتْ مغلقةً بإحكامٍ، نفذتْ رياحٌ خفيفةٌ إلى الكنيسة، وامتلأتِ الكنيسةُ على الفورِ بنورٍ أبيضَ لامعٍ، وبدأ القنديلُ المضاءُ أمامَ إيقونةِ العذراءِ الكلِّيَّةِ القداسةِ يتأرجح دونَ القناديلِ الأُخرى المشتعلةِ أمامَ الإيقونات. وحدَه قنديلُ إيقونةِ العذراءِ أخذَ في التمايلِ».

سألتُه: «هَلْ شعرتَ بالخوف؟»

أجاب الأبُ مكسيموسُ: «في الحقيقة، لمْ يعترِني أيُّ شعورٍ، لا بالخوفِ ولا بالابتهاج. ببساطةٍ، شاهدتُ تلكَ الأحداثَ كَدَخيل. أدرْتُ نظري نحوَ الشيخِ بايبسيوس والفضولُ يملأُني محاوِلًا فهمَ ما يحصلُ أمامي. أشارَ إليَّ بالتزامِ الصمتِ، وسجَدَ إلى أنْ لامسَ جبينُه الأرضَ ومكثَ في الوضعيَّةِ هذه لبعْض الوقت بينما وَقفتُ أنا في مكاني مرتبِكًا، حاملًا الشمعةَ في يدي، وكانَ لا يزالُ ذاكَ الحدثُ العجيبُ يحصلُ من حولي. بعدَ ما يقاربُ نِصْفَ الساعة، وبينما القنديلُ أمامَ إيقونةِ العذراءِ الكلِّيَّةِ القداسةِ يواصِلُ حركةَ تمايُله، استأنفْتُ قراءةَ الخدمة. عندما وَصَلتُ إلى الإفشينِ السابعِ، للقدّيسِ سمعانَ اللاهوتيِّ، توقَّفَ القنديلُ شيئًا فشيئًا عن الحركة، واختفى ذاكَ النورُ الأبيضُ العجيبُ الذي ملأَ الكنيسةَ بلمعانِه وعادَ كلُّ شيءٍ إلى وضعِه الطبيعيّ. نهضَ الشيخُ بايبسيوس وأومأ إليَّ برأسِه للَّحاقِ به خارجَ الكنيسةِ لاستنشاقِ الهواءِ النقيّ. سألتُه:

ماذا حدث، فسِّرْ لي ما كان كلُّ هذا؟

أجابَ ووجهُه مليءٌ بأماراتِ الاستغراب، وكأنَّ شيئًا لمْ يحدث:

- ماذا؟

- تلكَ الظاهرةُ العجيبةُ في الكنيسة، ماذا حَدثَ، حقًّا؟

سَألَني ثانيةً: «ماذا رَأيتَ؟»، فأخبرتُه أنّني رَأيتُ القنديلَ المضاءَ أمامَ إيقونةِ العذراءِ الكلِّيَّةِ القداسةِ يتمايلُ يَمنةً ويَسرة. ووصفتُ كلَّ شيءٍ آخرَ حصلَ أمامي. عادَ وسألَ: «هل شاهدتَ أيَّ شيءٍ آخَرَ؟»، قُلتُ لا.

قالَ ملوِّحًا بيَدِه: «أوه، إذًا كانَ لا شيءَ، كانَ لا شيء. ألستَ على علمٍ أنَّ الكلِّيَّةَ القداسةِ تطوفُ في الجبلِ المقدَّسِ من ديرٍ إلى ديرٍ، من منسكٍ إلى منسكٍ، لتتفقَّدَنا نحن الرهبانَ وترى ماذا نفعل؟ مرَّتْ من هنا أيضًا ووجدَتْ شخصينِ أحمقَين يصلّيانِ، فحرَّكتْ قنديلَها كعلامةٍ تأكيدٍ، أنّها توقَّفتْ وخصَّصتْنا بزيارة». وما إنْ أنهى كلامَه ضحِكَ من صميمِ قلبِه[55]».

قلتُ معلّقًا: «ما لفتَني أثناءَ زيارتي الأُولى إلى الجبلِ المقدَّسِ ولقائيَ القصيرِ بالشيخِ باييسيوس، هو روحُهُ المرحةُ المبتهجةُ دائمًا وضحكتُه العفويَّةُ».

- «هكذا هو الشيخُ باييسيوس. فاختباراتٌ حادَّةٌ مربِكةٌ كهذه كان يُمكنُ أَنْ تَكُونَ سببًا ليضحَكَ من صميمِ قلبِه. القدِّيسون، كَسائرِ البشر، لَهُم صفاتٌ خاصَّةٌ تُميِّزُ شخصيَّتَهم. طبيعةُ البعضِ اجتماعيَّةٌ، مرحةٌ ومبتهجة، كالشيخِ باييسيوس، وطبيعةُ آخرينَ متجهِّمةٌ، عابسةٌ وانطوائيَّة، ولقد عرفتُ كِلا النموذجَين. فتحقيقُ مرتبةِ القداسة، كما ترى، لا يجعلُ القدِّيسينَ شخصيَّاتٍ

---

٥٥ أُنظر: الأب إسحق الآثوسيّ، حياة الشيخ باييسيوس الآثوسيّ، منشورات الجبل المقدّس، آثوس ٢٠٠٦، ص. ١٨٣ و ١٨٤.

متطابقةً».

علَّقَ استِفانوس من مقعدِه الخلفيِّ: «كلُّ كائنٍ بشريٍّ فريدٌ، ويَبقى فريدًا في جهادِه لتحقيقِ اتِّحادِه باللّٰه Theosis».

أجابَ الأبُ مكسيموس: «تمامًا». وضحِكَ إذ تذكَّرَ لقاءَه الأوَّلَ مَع الشيخِ پاييسيوس في أيلولَ ١٩٧٦: «ذهبتُ لرؤيتِه مع اثنَينِ مِنْ زملائِي وكنتُ آنذاكَ طالبَ لاهوتٍ في جامعةِ تسالونيكي. كنّا قد سمعْنا الكثيرَ من الأخبارِ عن عجائبَ صَنَعها الشيخُ پاييسيوس، فاندفعْنا بفضولٍ للتعرُّفِ بِه. تَوقَّعْنا ملاقاةَ ناسكٍ متوحِّدٍ مُخيفٍ، بشعِ المنظرِ، أو كائنٍ من خارجِ الأرضِ. وإذا بنا نُفاجأُ بشيخٍ طاعنٍ في السنِّ متواضعٍ وبسيطٍ، يخبرُ زوّارَهُ نُكتةً تلوَ الأُخرى، دافعًا ايّاهم إلى الضحكِ من صميمِ قلوبِهم. وفيما هو يتابعُ نوادرَهُ، فجأةً، نزعَ الشيخُ پاييسيوسُ حذاءَه، وبدأَ في القفزِ نزولًا وصعودًا على فراشِه، تمامًا كمهرِّجٍ. كان لقاءً مرحًا لكنْ في نفسِ الوقتِ مُخيِّبًا للآمالِ جدًّا، إذْ ساورَني الشكُّ أن يكونَ هذا الشخصُ، في الحقيقةِ، قدّيسًا. قلتُ في نفسي، على الأغلبِ، هو رجلٌ مسنٌّ نِصْفُ مجنونٍ».

أشارَ استِفانوس: «حاولَ الشيخُ أنْ يزيلَ من ذهنِكَ تصوُّراتِكَ المُسبقةَ أنَّهُ قدّيسٌ».

- «بالضبطِ، لكنّي في ذَلِك الوَقت، لم أكنْ مدرِكًا مسالِكَ القدّيسين. آنذاك، اعتقدتُ أنه مجنونٌ بالفعلِ، لا أنَّه يتظاهرُ بالجنون. بالطبعِ، بعدَ فترةٍ زمنيَّةٍ قصيرةٍ، أدركْتُ أنَّ الشيخَ پاييسيوس أخفى في داخلِهِ كلَّ عِظَمِ مواهبِ

الروحِ القدس».

علمتُ لاحقًا عن وجودِ تقاريرَ موثَّقةٍ عن حياةِ 'آباءِ البرِّيّة'، آباءِ الكنيسةِ الأوائل، تروي عن أعمالِهم العجائبيَّةِ وحياتِهم المليئةِ بروحِ الفكاهةِ والمرح. وأحدُ تلكَ التقاريرِ يذكر: «كثيرٌ من الرواياتِ والتقاريرِ البيانيَّةِ حولَ آباءِ البرِّيَّةِ مصدرُها مؤرِّخون كنسيُّونَ علماءُ، وضعوها لتُضفيَ المزيدَ من الصدقيَّةِ والعقلانيَّة... التقاريرُ عن آباء الصحراءِ التي وضعَها هؤلاءِ الأشخاصُ بدقَّةٍ وبحثٍ أمينٍ وبمراجعةِ المخطوطاتِ القديمةِ المحفوظةِ عن سيَرِ رهبانِ الصحراء، تُزوِّدُنا بواقعيَّةِ الأخبارِ عن الآباء، وعن صبرِهم على التجاربِ والضيقاتِ من أجلِ الله، عن سموِّهم فوقَ الآلامِ والمشقَّات، عن تقشُّفِهم في المأكلِ، وسهرانيَّاتِهم المتواصلة، عن طولِ عمرِهم، عن هدوئهم، وعن مواهبِهم الشفائيَّة، وحيويَّتِهم المُعدية»[56]. وتنطبقُ هذه الصفاتُ مع الصورةِ التي رسمَها الأبُ مكسيموسُ عنِ الشيخِ بايسيوس وتتطابقُ كذلكَ مع اختباريَ الشخصيِّ القصيرِ مع راهبِ البرِّيَّةِ المعاصرِ هذا.

تابعَ الأبُ مكسيموس: «على أيَّةِ حالٍ، شكَّلَتْ حادثةُ القنديلِ نقطةَ تحوُّلٍ في علاقتِنا. في الواقع، حرَّكتْ تلكَ الحادثةُ بصورةٍ خاصَّةٍ نفْسَ الشيخِ بايسيوس من أعماقِها، ومنذُ ذلكَ الحين، توطَّدتْ علاقتُنا أكثرَ فأكثر. وفي مناسباتٍ عديدةٍ، إئتمنني على أحداثٍ أُخرى مِنْ حياتِه».

* * *

56 Michael Murphy, The Future of the Body: Exploration into the Further Evolution of Human Nature (New York: Jeremy P. Tarcher, 1993), p. 446.

صمتَ الأبُ مكسيموسُ عِدَّةَ دقائق، بينما كنا نصعدُ بالسيَّارةِ إلى ارتفاعٍ أعلى، نجتازُ قريةَ باليوخوري (أي القريةُ القديمة) المميَّزةَ بكرومِ العنبِ، وبيوتِها الحجريَّةِ، والحمارِ المحمَّلِ بالحطبِ الذي قد تصادفُه أحيانًا وأنتَ تعبرُ بسيَّارتِكَ شوارعَ القريةِ الضيِّقة. من ثمَّ، راحَ يُخبرُنا عن حادثةٍ عجائبيَّةٍ أُخرى رواها له الشيخُ پاييسيوس في الليلةِ ذاتِها بعدَ حادثةِ القنديلِ حينَ جلسا معًا خارجَ المنسكِ يتحادثان حتَّى الصباح. وقعتْ تلكَ الحادثةُ عندَ عودةِ الشيخِ پاييسيوس من تسالونيكي، حيثُ كان لديه بعضُ المشاكلِ مع الأسقفِ هناك، وهي ظاهرةٌ مألوفةٌ بينَ الرهبانِ والمؤسَّسةِ الإكليريكيَّة.

ذاتَ مساءٍ، وبحسبِ الرواية، قرعتِ القدِّيسةُ إيفيمية[٥٧]، وهي من شهيداتِ الكنيسةِ الأوائلِ، على بابِ قلاَّيةِ الشيخ. بعدَ حوارٍ دامَ بعضَ الوقتِ، تحقَّقَ الشيخُ پاييسيوس أنَّها ليست الشيطانَ متنكِّرًا في هيئةِ قدِّيسةٍ، بل هي حقًّا القدِّيسةُ إيفيمية، واقفةً على بابِ قلاَّيتِه في منتصفِ ذاكَ الليلِ في هيئةٍ متجسِّدة. «كانَ في صحبةِ القدِّيسةِ إيفيمية في تلكَ الليلةِ، والدةُ الإلهِ الفائقةُ القداسةِ والرسولُ يوحنَّا الإنجيليُّ أيضًا. وقبلَ أنْ يتسنَّى له الوقتُ لفتحِ البابِ رأى زوَّارَه الثلاثةَ داخلَ قلاَّيتِه».

ألقَيتُ نظرةً خاطفةً على الأبِ مكسيموسَ، وسألتُه: «أكانَ الشيخُ في حالةِ انخطافٍ أو انجذابٍ إلهيٍّ وقتذاك؟»، مفترِضًا أنَّه، ربَّما، كانَ يختبرُ رؤيا، أو ما يدعوهُ علماءُ النفسِ المؤمنونَ بالحسِّ الإنسانيِّ الماورائيِّ بـ"حالةِ وعيٍ متبدِّلة"،

٥٧ تعيِّد الكنيسةُ لذكرى استشهاد القدِّيسة إيفيمية في ١٦ أيلول من كلِّ عامٍ ولذكراها لمَّا قدَّمت حدَّ الإيمان لآباءِ المجمعِ الرابع في ١١ من تمّوز.

والتي يبلغُها المرءُ نتيجةً لصلواتِه وأصوامِه المستمرَّة. أكَّدَ لِيَ الأبُ مكسيموسُ على نحوٍ قاطعٍ أَنَّ شيخَهُ لمْ يكنْ آنذاك في حالةٍ مماثلة، ولم يكن اختبارُه ذهنيًّا، بل رَأى القدّيسةَ إيفيمية، والقدّيسَ يوحنّا الإنجيليَّ البشيرَ، والعذراءَ مريمَ الفائقةَ القداسةِ بعينَيه الجسديَّتَين. لقد مَثَلوا أمامَه في الجسدِ على نحوٍ مشابهٍ لمثولِ المسيحِ الربِّ أمامَ مريمَ المجدليَّةِ والتلاميذِ بعدَ القيامة.

قالَ الأبُ مكسيموسُ متابعًا سردَ تفاصيلِ الحادثةِ كما رواها له شيخُهُ المحبوبُ: «دخلَتْ أوّلًا العذراءُ مريمُ الفائقةُ القداسةِ من البابِ المُغلق. وما إنْ رآها الشيخُ أمامَه، للحالِ سجدَ وقبَّلَ يدَها وهي بدورِها وضعتْ يدَها على رأسِه. تبِعَها القدّيسُ يوحنّا، ومرّةً ثانيةً خرَّ الشيخُ على الأرضِ ساجدًا وقبَّلَ يدَه. مباشرةً، ومن دونِ التفوّهِ بأيِّ كلمةٍ، توجَّهت العذراءُ مريمُ مع القدّيسِ يوحنّا إلى كنيسةِ المنسكِ الصغيرةِ فيما بقيتِ القدّيسةُ إيفيمية وراءَهما لتتحدَّثَ مع الشيخِ بايسيوس. لثماني ساعاتٍ متواصلةٍ، تناقشا معًا في أمورٍ وقضايا كثيرة؛ بعضُها يتعلَّقُ بحياتِها الشخصيَّةِ والبعضُ الآخرُ تناولَ أمورًا لاهوتيّة. وقد علَّقَ الشيخُ بايسيوسُ وهو يروي لي تفاصيلَ الحدثِ أنَّه أثناءَ سماعِهِ القدّيسةَ إيفيميةَ تسردُ قصَّةَ حياتِها، حسِبَ نفسَهُ يتابعُ أحداثَ فيلمٍ سينمائيٍّ. كلُّ حوادثِ حياتِها كانت تُستعرَضُ أمامَ عينَيه بصورةٍ حيَّة، بكُلِّ دقَّةِ تفاصيلِها. وبَعْدَ أَنْ شَهِدَ آلامَها وعذاباتِها، تَنهَّدَ الشيخُ وسألَها كيفَ يمكنُ لامرأةٍ في ريعانِ شبابِها أنْ تتحمَّلَ هذا القدرَ من الآلام. فأجابتْه قائلة: 'يا أبتي، من أجلِ ملكوتِ السماواتِ، ليس هذا بشيء. لو كنتُ أعلمُ أيَّ مجدٍ ينتظرُ القدّيسينَ، لبذلتُ كلَّ ما بوسعي لأتحمَّلَ أضعافَ ما تحمَّلتُهُ من آلامٍ وعذاباتٍ'.

في تلكَ الليلة، ساعدتْه القدّيسةُ إيفيمية لحلّ مشاكلِه العالقةِ مع أسقفِ تسالونيكي. وبعدَ مغادرتِها، فاحَ في قلاّيتِه عطرُ طيبٍ ذكيّ الرائحةِ لعشرةِ أيّامٍ متتالية، لم يتمكّنْ خلالَها الشيخُ بايسيوسُ منَ النومِ أو منَ الأكلِ، ولمْ يستقبلْ أحدًا، وبَقيَ في حالةِ صلاةٍ وتأمّل. فقدِ اقتبلَ الشيخُ نعمةً إلهيّةً عظيمةً بزيارةِ القدّيسةِ إيفيمية له في تلكَ الليلة. ومنذُ ذلكَ اليومِ حتّى نهايةِ حياتِه وتعبيرًا عن شكرِه للزيارةِ التي خصّتْهُ بها القدّيسةُ إيفيمية وتكريمًا لها، كان يُحيي الشيخُ عيدَها كلَّ عامٍ مع زوّارِه من حجّاجِ الجبلِ المقدّسِ».

توقّفَ الأبُ مكسيموس لثوانٍ متفكّرًا في حياةِ الشيخِ بايسيوس، ثمّ تابعَ قائلًا: «كانت حياتُه برُمّتِها سلسلةً من الإعلاناتِ المتلاحقةِ عن الحقائقِ الإلهيّة. عاشَ بينَنا في جسدِهِ الهيوليّ (الماديّ) إلاّ أنّه، في الوقتِ نفسِه، كانَ يعيشُ بينَ القدّيسينَ في السماء».

❊ ❊ ❊

لوْ أنّي سَمعتُ مثلَ هذه القصصِ، قَبْلَ البدءِ في الغوصِ لاستكشافِ عالمِ الصوفيّينَ والمعالجينَ الروحيّين، لكنتُ تجاهلتُ الأمرَ وصدّيتُه بخشونةٍ، واعتبرتُه اختلاقًا نابعًا من مخيّلةٍ مضطربة، بل مختلّةٍ عقليًا. في أفضلِ الأحوال، كُنْتُ سَأَفترضُ أنّ اختباراتِ الشيخِ بايسيوس مع القدّيسينَ الراقدين، مثلَ العذراءِ مريمَ وما شابه، كانتْ مجرّدَ هلوسةٍ ناتجة، ربّما عن عدمِ النومِ، وعن الممارساتِ النسكيّةِ المفرطة. لكنّ أبحاثيَ الميدانيّةَ، علّمتْني خلالَ العشرينَ سنةً الأخيرة، أنْ أجتنبَ الإسراعَ في استخلاصِ الإستنتاجات، الناتجةِ عن تدريبيَ الأكاديميِّ-العقلانيِّ المحضِ وتخيُّلاتيَ الخاصّة. تعلّمتُ حفظَ سلوكٍ ومقاربةٍ

فينومينولوجيّة[٥٨] في مواجهةِ العجائب. لم أعُدْ أرْفض، كما في السابق، التقاريرَ عن تجاربِ الآخرينَ واختباراتِهم الخارقةِ للنواميسِ الطبيعيّةِ، معتبرًا ايَّاها لا شيءَ إلاّ أوهامًا. إذْ أدركتُ، أنَّ مثلَ هذه المواقفِ السلبيّةِ، لا تَخْدمُنا بصورةٍ صحيحةٍ في مساعينا لفَهْمٍ أكثرَ كمالاً للحقيقة.

في الحقيقةِ، أحدُ التعاليمِ الجوهريّةِ في الروحانيّةِ الآثوسيّةِ هو التدرُّبُ على اقتناءِ موهبةِ التمييز، لكي يَكُونَ المرءُ قادرًا على التَمييزِ بينَ ما هو مِنَ اللّهِ وما هو مِنَ الشيطانِ الذي يُحاولُ تضليلَ كلِّ نفسٍ توّاقةٍ للكمال. إختباراتُ الشيخِ باييسيوس مع الكائناتِ الروحيّةِ الموقّرة، والتي تتشابَه معَ قصصٍ أُخرى قَرأتُها أَو سَمعتُها عن حياةِ القدّيسينَ والأنبياءِ العظماءِ، لا تصنَّفُ كَهلوسة، إذْ إنَّ الهلوسةَ لَيستْ مِنَ اللّه. ومَنْ يقعُ منّا فريسةَ الهلوسةِ ظانًّا أنَّها رؤًى وظهوراتٌ من اللّه، يُدرِكُ لاحقًا أنَّها في حقيقتِها لا شيءَ سوى هلوسة. الزياراتُ التي خصَّ بها القدّيسونَ الشيخَ باييسيوس، كانتْ أحداثًا حقيقيّةً ومُدرَكَةً بالحواس، تمامًا كتكلُّمِه مع عامّةِ الزوّارِ والحجّاج. إذْ إنَّ الهلوسةَ تَتضمَّنُ عادةً تشويشًا وتشويهًا حادًّا للواقعِ ويصعبُ على المرءِ فهمُها، لكنَّ اختباراتِ الشيخِ باييسيوس، أو غيرَها من الشهاداتِ الموثّقةِ المماثلة، كانتْ تتميّزُ بالشفافيّةِ، والمنهجيّةِ، والترابطِ المنطقيّ. الهلوسةُ تكونُ مصحوبةً بالقلقِ والاضطرابِ العقليّ[٥٩]، وهي حالةٌ بعيدةٌ كلَّ البعدِ عن حالةِ هذا الناسكِ المعاصر. فهذهِ

٥٨ الفينومينولوجيا هي علم الظاهرات، الذي يبحث في وصف الظواهر وتصنيفها علميًّا مع إجتناب كلّ تأويل أو شرح أو تقييم.

59 Patrick Glynn, God: The Evidence. The Reconciliation of Faith and Reason in a Post-Secular World (Rocklin, CA: Forum, 1977), p. 123.

الاختباراتُ الاستثنائيَّةُ أدخلَتْ فيه مشاعرَ سلامٍ وفرحٍ روحيٍّ لا يوصفُ، وكانَ لها آثارٌ تحويليَّةٌ كبيرةٌ على حياتِه.

تستحضرُني هنا ردَّةُ فعلِ البروفسورِ جون روزنر، في مؤتمرٍ في مونتريالَ حولَ الحدودِ المشتركةِ بينَ العلمِ والإيمان. إذْ بَعْدَ انتهائي من سردِ بعضِ القصصِ والأحداثِ المماثلةِ من جبلِ آثوسَ، وبصفتِه رئيسًا للجلسةِ، وتعقيبًا على كلامي، هبَّ منتصبًا، وبنبرةٍ قويَّةٍ واثقةٍ قدَّمَ بعضَ الملاحظاتِ اللَّاذعةِ للحضورِ، قال:

«ما قُلتَه الآنَ عن أحداثٍ عجائبيَّةٍ في جبلِ آثوسَ وأديرةٍ أُخرى، عن مثولِ القدِّيسينَ الراقدينَ أمامَ الأحياءِ وما نحوَ ذلك، هوَ موضوعٌ مهمٌّ للغاية. فهذا ما أشارتْ إليه الكنيسةُ الأُولى والمؤرِّخونَ الرومان، ومن بينِهم حتَّى «غيبون» المشكِّكِ في القرنِ الثامنَ عشرَ، في قولِهم: إنَّ أدبيَّاتِ الكنيسةِ الأُولى تزعمُ أنَّ الفضلَ في إنتشارِ المسيحيَّةِ آنذاك لا يعودُ إلى التعاليمِ والوعظِ —إذْ كانَ ذلكَ محظورًا وممنوعًا بأمرِ القانون— بلْ إلى ما كانَ يختبرُهُ المؤمنُون من أحداثٍ ميستيكيَّةٍ حيثُ عاينوا قدِّيسينَ راقدينَ وشهداءَ، مثَلوا أمامهم وعلَّموهم حقائقَ العالمِ الروحيّ. ليسَ في مستطاعِ المسيحيَّةِ المعاصرةِ، بالطبعِ، أنْ تفهمَ هذا الأمر. تلك الأديرةُ وغيرُها من الأماكنِ البعيدةِ تُعَدُّ حقًّا محميَّاتٍ من التاريخ. وكما قالَ كيرياكوس، محاولةُ استرجاعِ ذاكَ التقليدِ الروحيِّ، هي مثلُ محاولةِ استخراجِ كنزٍ مفقودٍ من قاعِ المحيط... في الحقيقةِ،

٦٠ إدوارد غيبون (١٧٣٧- ١٧٩٤): مؤرخ إنكليزيّ. يُعتبر أعظم المؤرخين الإنكليز في القرن الثامن عشر. أشهر آثاره كتابه الضخم «تاريخ انحطاط الإمبراطوريّة الرومانيّة وسقوطها» The History of the Decline and Fall of the Roman Empire الذي يقع في ستة مجلّدات.

هذا النوعُ من الأحداثِ العجائبيَّةِ، لا يزالُ جزءًا لا يتجزَّأ من حياةِ نسَّاكِ ورهبانِ المسيحيَّةِ الشرقيَّةِ المعاصرينَ وتقليدِهم. ونحنُ لا نعلمُ أنَّ هذا الكنزَ موجودٌ هناك. إنْ بذلتَ جهدًا ستجدُ معلوماتٍ مدوَّنةً عنه في كتبِ التاريخ. لكنَّ المشكلةَ تكمُنُ في أنَّ لاهوتيّي الغربِ لم يكتسبوا تعليمًا كافيًا في التاريخِ ليجدُوه. وهم لا يميِّزونَ أنَّ أصولَ الحركةِ المسيحيَّةِ كَانتْ روحيَّةً وظواهريَّةً (أيْ مستندةً على الإعلاناتِ والظواهرِ العجائبيَّة). وإذْ يُصادفونَ ظواهرَ مماثلةً في أماكنَ مثلَ جبلِ آثوسَ أَو قُرًى صغيرةٍ في روسيا أَو اليونان، يصعبُ عليهم فهمُها. يعسرُ عليهم فهمُ المعنى العميقِ لأنْ تُحسَبَ إمرأةٌ عجوزٌ قدّيسةً، ويجلسُ راكعًا تحتَ قدمَيها رئيسُ الأساقفةِ في هذه القريةِ أو تلك، ذلك لأنَّها عايَنتْ قدّيسينَ راقدينَ وملائكةً مثلوا أمامَها. ومن ثمَّ أصبحتْ قناةَ تواصلٍ بينَ السماءِ والأرض. يصعبُ عليهم إدراكُ أنَّ هذه هي الطريقُ التي تتواصلُ فيها السماءُ مع الأحياء».

* * *

كانَ الأبُ مكسيموسُ مؤمِنًا إيمانًا لا ريبَ فيه، أنَّ خبراتِ الشيخِ بايسيوس وتجاربَه كَانتْ تجسيدًا حسّيًا للحقائقِ الإلهيّةِ التي تفوقُ الإدراكَ الحسّيّ. في ذلكَ اليوم، كنتُ مسرورًا لحماسِ الأبِ مكسيموسَ في روايةِ المزيدِ من اللمحاتِ الموجزةِ عن حياةِ شيخِهِ الراقد.

وتابعَ الأبُ مكسيموس: «ذاتَ يومٍ، وافى الشيخَ بايسيوس كثيرٌ من الزوّارِ والحجّاج. لمْ أكنْ شخصيًا حاضرًا معَه، ولكنّه روى لي ما حدثَ في ذاكَ اليوم، قال:

'كنتُ مُتعَبًا، وتملَّكني آنذاك، شعورٌ بالإحباطِ والتعجُّب: أيُّ نوعٍ من النسَّاكِ أنا. جاءَ لزيارتي أكثرُ من مائةِ شخصٍ ولم يتسنَّ لي يومذاكَ أنْ أُتمَّ صلاةَ الغروب. بلْ وأكثرُ من ذلك، لمْ أعرفِ اسمَ القدّيسِ الذي سنحتفلُ بذكراهُ في اليومِ التالي. الوضعُ برمَّتِه لا يحتمل'.

إذْ كانَ الشيخُ پاييسيوس مُنهَكًا، اختلى مع نفسِهِ في قلاّيتِهِ شاعرًا بالضياع، لا يعلمُ ما السبيلُ لحلِّ تلكَ المعضلة. وكانَ قد أخبرَني مرّة: 'أبانا مكسيموس، عدوّيَ الأعظمُ هو شهرتي. ويلٌ للراهبِ الذي يذيعُ صيتُهُ ويصبحُ شهيرًا. إذْ، سيفقدُ سلامَ فكرِهِ وراحةَ بالِه. سيبدأُ الناسُ في نَسْجِ كُلِّ أنواعِ القصصِ والرواياتِ عنه، والتي غالبًا ما تكونُ غيرَ واقعيّة. وقَبْلَ أَنْ يُدرِك، سيَجِدُ نفسَه واقعًا في مواقفَ متنوّعة'. ذاعَ صيتُه إلى حدٍّ دفعَ كلَّ زائرٍ وحاجٍّ إلى الجبلِ المقدّسِ إلى محاولةِ التعرُّفِ إليه. وأضحى منسكُهُ محطّةً أُولى لحجّاجِ الجبلِ المقدّس».

وتابعَ الأبُ مكسيموسُ تفاصيلَ الحادثة: «جَلسَ الشيخُ پاييسيوسُ والدموعُ تنهمرُ من عينَيه، مضطرِبًا وشاعرًا باليأس. فجأةً، وبينما هو على تلكَ الحالة، لاحظَ كاهنًا طويلَ القامةِ واقفًا عندَ مدخَلِ قلاّيته. بادرَ الغريبُ بإلقاءِ التحيّةِ عليه. فوجِئَ الشيخُ پاييسيوس بزائرِه غيرِ المنتظرِ وسألَه: 'مَنْ أنت؟'. أجابَ الغريبُ: 'أَنا القدّيسُ الشهيدُ لوكِلْيانوس، والكنيسةُ تحتفلُ بعيدي غدًا[٦١]. وبما أنّكَ لا تَتذكّرُ أيَّ قدّيسٍ تُعيِّدُ له الكنيسةُ في الغد، جِئتُ لأُعلمَكَ بنفسي. وطُلِبَ منّي أن أخبِرَكَ ألاَّ تستسلم. بل عليكَ أنْ تقومَ بعملِك، أنْ

٦١ تعيّدُ له الكنيسة المقدّسة في ٣ حزيران.

تستقبلَ الناسَ وتريحَهم من أثقالِهم وتعزِّيهم. فهذه مشيئةُ اللّه'».

وأضافَ الأبُ مكسيموس: «كانتْ حياةُ الشيخِ پاييسيوس مليئةً بخبراتٍ سماويَّةٍ متنوِّعةٍ حَرِصَ أنْ يبقيَها سرِّيَّة. ولكنْ ويلٌ لكَ، فخسارتُكَ عظيمةٌ إنْ إئتمنَكَ على سرِّهْ، وعلِمَ فيما بعدُ أنَّكَ أخبرتَهُ إلى آخرَ».

قُلتُ مؤكِّدًا على كلامِ الأبِ مكسيموس: «ذاعَ صيتُهُ حتَّى إلى أميركا». أتذكَّرُ أنَّني أوَّلَ مرَّةٍ سَمعتُ عن الشيخِ پاييسيوس كانَ في حديثٍ لكاهنِ مدينةِ بانغورَ الأرثوذكسيِّ في ولايةِ ماين، في عام ١٩٩٠. يومذاك لقَّبَه بـ 'أسدِ الجبلِ المقدَّس'.

بنبرةِ حنينٍ إلى الماضي، بَدأَ الأبُ مكسيموس بِروايةِ حادثةٍ أُخرى مِنْ ذلك 'العصرِ الذهبيِّ' من حياتِهِ الرهبانيَّةِ:

«ما زِلتُ أَذكُرُ تلكَ الليلة، ففي عشيَّةِ عيدِ الميلادِ المجيدِ عامَ ١٩٨١، أقمْنا معًا سهرانيَّةَ العيد، وأثناءَ استراحةٍ قصيرة، جلسْنا خارجَ كنيسةِ المنسكِ وتبادَلْنا الحديثَ لبضعِ دقائق. فأخبرَني عن محبَّةِ اللّه، عنْ عظَمَةِ تلكَ الهبةِ لنا، وعن سُكناها بداخلِنا نحنُ البشر، كَلُهُبِ نارٍ مشتعل. قال: 'ذاتَ يومٍ، إنسكبتْ نعمةُ اللّه عليَّ بغزارةٍ حتَّى إنِّي لم أستطعْ أنْ أمشي. خرَرْتُ على الأرضِ وحرِصتُ ألاَّ يراني أحدٌ في هذا الوضعِ المُقلقِ فيعتقدَ أنِّي متوعِّك'. كانَ حبُّ المسيحِ يشتعلُ بداخلِهِ بغزارةٍ إلى حدٍّ شعرَ وكأنَّ عظامَه تذوبُ كشمعةِ عسلٍ صاف. من ثمَّ قالَ: 'الحبُّ العظيمُ الذي اختبرْتُهُ ذلكَ اليومَ أدخلَني في حزنٍ عميقٍ على العالم'.

بَدا لي أنَّ مثلَ هذهِ التجاربِ حوَّلتِ الشيخَ پاييسيوس إلى مستودعٍ للنعمةِ الإلهيَّة. منذُ ذلكَ الحين، كرَّسَ نفسَهُ كليًّا للمُسَاعَدَةِ في تَخفيفِ معاناةِ العالمِ وأحزانِه».

عندما سَألتُ الأبَ مكسيموس إنْ كانَ لا يزالُ يعتبرُ الشيخَ پاييسيوس إلى اليومِ مرشدًا له، أجابَ أنَّه، في الحقيقةِ، أقربُ إليه الآنَ منْ أيِّ وقتٍ مضى، وأنَّه مرشِدُهُ أبدًا. وإذْ كانَ مأخوذًا بذكرياتِه، أضافَ لنا الأبُ مكسيموس بعضَ التوضيحاتِ عن نهايةِ لقائهِ الأوَّلِ مَعَ الشيخِ حينَ قصدَهُ للتعرُّفِ إليه للمرَّةِ الأُولى وهو بعدُ طالبٌ جامعيٌّ:

«خَرجْنَا مِنْ منسكِهِ وبَدأْنَا في تبادلِ عباراتِ الوداع. عندما تَناوبْنَا، أنا وزميلَيَّ، على تقبيلِ يدَيهِ آخذِينَ البركةَ قبلَ المغادرة، إبتدأتْ رائحةُ طيبٍ قويَّةٌ لا يمكنُ وصفُها تعبقُ وتملأُ المكان. أدركَ الشيخُ پاييسيوسُ ما يحصلُ وأمَرَنا بالمغادرةِ للحال. وطلبَ منَّا أنْ نعجِّلَ خارجَ المنسكِ وألاَّ نتكلَّمَ عمَّا اختبرْنا مع أيِّ إنسان».

سألتُه متعجِّبًا: «لماذا ألزمَكَ بالإسراع؟»

- «لأنَّه لَمْ يُرِدْ أنْ يتحدَّثَ الناسُ عمَّا يحدثُ حولَهُ من ظواهر. على أيَّةِ حال، بَدأْنَا بالرَّكْضِ نحو كارييس، العاصمةِ الإداريَّةِ لجبلِ آثوس، عاجزينَ عن فهمِ ما حصلَ أمامَنا. وتملَّكَنا شعورُ فرحٍ عظيم، شعورٌ لا يوصفُ ولا يُدرك. لم يكنْ في استطاعتِنا أنْ نفهمَ كيفَ حلَّ فينا هذا الشعورُ بالفرحِ المطلقِ والنعمة. لم يكنْ في استطاعتِنا أنْ نفهمَ لماذا رائحةُ الطيبِ القويَّةُ تعبَقُ وتملأُ كلَّ شيءٍ

من حولنا، الجبال، الهواء، الصخور، الأشجار، كُلّ شيء».

قالَ استِفانوسُ متأمِّلًا: «علاماتٌ مِنَ السماءِ».

٭٭٭

كنّا قدْ وصَلْنا إلى أعلى نقطةٍ جبليّةٍ بعدَ قريةِ باليوخوري وبَدأْنا بالنزُولِ نحوَ ليماسول. مِنْ تلك النقطةِ العالية، يُمْكِنُ أَنْ نَرى قريةَ آغروس على منحدرِ الجبلِ المقابل، تُظلِّلُها كرومُ العنبِ وأشجارُ اللوزِ المُزهِرة. تأجّجتْ عواطفي للحظاتٍ وتذكّرتُ أيّامَ طفولتي، حينما كان أبي يرسِلُني مع إخوتي أثناءَ أشهرِ الصيفِ لقضاءِ بضعةِ أسابيعَ مع الأقاربِ هناك. آغروسُ هي مسقطُ رأسِ أبي، وقد تركَها وهو في الثانيةَ عشرَةَ من العمرِ عندما أصبحَ جَدّي غيرَ قادرٍ على إعالةِ عائلةٍ كبيرة، فأرسلَهُ إلى نيقوسيا، على بُعدِ ستّينَ ميلًا، مشيًا على الأقدامِ -ولم تكنْ هناكَ طرقٌ معبّدةٌ في ذلك الوقت- ليبدأَ في تأسيسِ حياتِهِ بنفسِه.

قَبْلَ أنْ نصِلَ إلى ليماسول، بدأَ الأبُ مكسيموسُ يُطلِعُنا على بعضِ تفاصيلِ حياةِ شيخِهِ الراحلِ:

«وُلِدَ عام ١٩٢٤، في فاراسا، وهي بلدةٌ صغيرةٌ في آسيا الصغرى، في منطقةِ كبّادوكيا ذاتِها التي انحدرَ منها عددٌ من آباءِ الكنيسةِ الأُولى. عمّدَه الشيخُ أرسانيوسُ، كاهنُ القريةِ آنذاك، الذي أنعَمَ عليه اللّه أيضًا بمواهبَ إلهيّة، ويُعتَبرُ أحدَ أعظمِ قدّيسي القرنِ العشرينَ في كنيستِنا[٦٢]. كانَت معموديّتُهُ قبلَ

٦٢ أنظر: الراهب بايسيوس الآثوسيّ- القدّيس أرسانيوس الكبادوكيّ، نقله إلى العربيّة الأرشمندريت بولس يازجي(متروبوليت حلب الحاليّ) - منشورات دير سيّدة البلمند البطريركي ١٩٩٤.

أيّامٍ قَليلةٍ من نزوحِ يونانيّي آسيا الصغرى قسريًّا عن مساكنِ أجدادِهم في تبادلِ السكّانِ الذي تمّ إثرَ حربِ عامِ ١٩٢٢ المريرةِ بينَ اليونانِ وتركيا. ولقدْ جرى حدثٌ مثيرٌ أثناءَ خدمةِ سرِّ المعموديّة، فعندما وصلَ الشيخُ أرسانيوسُ إلى المقطعِ الذي يُعطى فيه المعمَّدُ اسمًا، أدركَ الكاهنُ البارُّ أنَّ الرضيعَ الذي بينَ ذراعيهِ غيرُ عاديّ. رفعَهُ عاليًا، متبصّرًا بعينَيْ نفسِه الحسّيّتَينِ وقالَ إنَّ هذا الطفلَ مُعدٌّ ليكونَ إناءً للروحِ القدسِ وسيسيرُ على خطايَ وسيصيرُ راهبًا مثلي».

علّقَ استِفانوس من الخلف: «حقًّا، سَدَّ[٦٣] في قولِه».

قالَ الأبُ مكسيموس: «تمامًا».

عندما أخبرَنا الأبُ مكسيموسُ هذه الحادثةَ، خطرَ في ذِهني فكرٌ غيرُ أرثوذكسيّ. أَيعني ذلكَ أنَّ الرضيعَ الذي عمّدَهُ القدّيسُ أرسانيوسُ كانَ روحَ قدّيسٍ عظيمٍ وُلِدَ في ذَلِك الوَقتِ لمهمّةٍ إلهيّةٍ خاصّة؟ أيَعْني ذلك أَنَّ هذهِ الحادثةَ تَدْعمُ الإعتقادَ الذي سادَ بينَ بعضِ المفكّرينَ المسيحيّينَ الأوّلينَ مثلَ أوريجانس حولَ «أزليّةِ النفسِ؟»[٦٤]. وإذا لمْ يكنْ الرضيعُ موجودًا من قبلُ كروحٍ، وإذا أخذْنا في الإعتبارِ ما أعلنَهُ القدّيسُ أرسانيوس، أيعني ذلكَ أنَّ الله يحدِّدُ مُسبقًا من سيصيرُ قدّيسًا ومن سيكونُ خاطئًا؟ فمُنذُ أنْ شَجَبَ الإمبراطورُ يوستنيانوس مثلَ هذه التعاليمِ «الأوريجانيّة»، أصبحتْ هذه المواضيعُ محرّمةً لا

---

٦٣ سَدَّ: كان سَدِيدًا.

٦٤ شطّ العلّامة أوريجانس في التفكير، فربط بين أزليّة الله والخليقة. فالخليقة لا بدّ أن تكون أزليّة مع أزليّة الله. وقاده هذا المفهوم الخاطئ إلى القول بأزليّة النفس أيضًا (كطبيعة ثابتة فيها). حرمَتْهُ الكنيسةُ بعدَ ثلاثمائةِ سنةٍ من وفاتِه بأمرٍ من الإمبراطورِ يوستنيانوس.

تناقشُ في المسيحيَّة. بالطبعِ، يُمْكِنُ لأحدِنا أَنْ يُثبِتَ أنَّ القدِّيسَ أرسانيوس، بما أُعطيَ من مواهبَ روحيَّةٍ وقداسة، رأى مسبقًا أنَّ الشيخَ پاييسيوس سيصيرُ إناءً للروحِ القدسِ وراهبًا كمثلِه. ففي كلماتِ إعلانِه، ليس هناك ما يشيرُ إلى أنَّ روحَ الشيخِ پاييسيوس سَبقتْ ولادتَه. على أيَّةِ حال، هذا التفسيرُ السائدُ أغرقَني في شكوكٍ عظيمة. أينَ عدلُ اللهِ المُطلق، إنْ كانَ اللهُ سبقَ فحدَّدَ لرضيعٍ، منذُ لحظاتِ ميلادِه، أنْ يصبحَ قدِّيسًا عظيمًا؟ وبما أنَّني لمْ أرغبْ في مقاطعةِ سيلِ ذكرياتِ الأبِ مكسيموس، أبقَيتُ أفكاريَ الجداليَّةَ المشكِّكةَ لنفسي. وقرَّرتُ أنْ أُكثِّفَ قراءَتي حولَ هذا الموضوعِ عندَ عودتي إلى ماين.

تابع الأبُ مكسيموسُ قائلًا: «حسنًا، بدأ پاييسيوس الشابُّ يُظهرُ علاماتِ تقوى عميقةً منذ طفولتِه، إذ استهلَّ بثباتٍ أسرارَ الروحانيَّةِ المسيحيَّة. منذُ طفولتِه، بدأ يصومُ بشكلٍ منتظمٍ ويلتزمُ بالصلاةِ لساعاتٍ طويلة».

قُلتُ مقترِحًا: «لا بدَّ أنَّه حظيَ بتلكِ النزعةِ منذُ ولادتِه، كما أعلنَ القدِّيسُ أرساينوس».

قالَ الأبُ مكسيموس: «النعمةُ الإلهيَّةُ مَنحتِ القدِّيسَ أرسانيوس موهبةَ النبوءة. لذا، عرفَ ما سيحدثُ في المستقبل».

وتابعَ: «دَعْني أُطلعْكَ على حادثةٍ وقعتْ في ريعانِ شبابِ الشيخِ پاييسيوس. في الخامسةَ عشرَةَ، بدأ عادةً غيرَ مألوفة. كُلَّ عصرٍ، ينسحبُ داخلَ غابةٍ قربَ قريتِه، ليصلِّيَ لساعاتٍ طويلة، والدموعُ تسيلُ من عينَيه. بسببِ صغرِ عمرِه وقلَّةِ خبرتِه، لم يدرِكْ أنَّ دموعَهُ كانتِ الوسيلةَ التي من خلالِها تعملُ قوى

النعمةِ الإلهيَّةِ في داخلِه. شعرَ فقطْ بهذه العذوبةِ التي لا توصفُ عندَما كانَ يصَلّي للمسيحِ والدموعُ في عينَيه. لكنِ ازدادَ قلقُ أهلِه عليه وتخوَّفوا من أنْ يكونَ سلوكُه غيرَ طبيعيّ».

- «هذا ليس مفاجئًا».

- «حاوَلوا دونَ جدوى إقْناعَه، على الأقلّ لتَقليلِ الساعاتِ التي كان يُمضيها وحدَه في الغابة. عندما جاءَ ابنُ عمٍّ له من أثينا لزيارةِ القرية، إعتقدَ والداه، القلقَانِ على ابنِهما، أنَّ الزائرَ قدْ يُدخِلُ بعضَ التعقُّلِ في ممارساتِ ابنِهما الشابّ. أتى ابنُ العمِّ وشرحَ لپاييسيوس الشابّ أنَّ يسوعَ المسيحَ كانَ إنسانًا فاضلًا جدًّا مثلَ الفلاسِفةِ القدماء، ولكنْ معَ ذلكَ، فهو إنسانٌ فقط. لذا، فالتضرُّعُ والصلاةُ إليه يُعدّانِ حماقةً ولا يخدمانِ أيَّ هدف.

تزعزعَ پاييسيوسُ الشابُّ لسماعِه هذا، وشعرَ بالانهزام. فابنُ عمِّه، كانَ مِنْ أثينا ومتعلِّمًا، بينما هو ليسَ إلاّ ابنَ قريةٍ فقيرًا. بحُزنٍ وأسًى كبيرَين وافقَ على البَقاءِ بعيدًا عن الغابة. لكنْ بَعْدَ شهرَين من مغادرةِ ابنِ عمِّه القريةَ تملَّكه القلقُ والاضطرابُ مرَّةً أُخرى. ففي داخلِه اشتعلَت نارُ الإيمانِ بالمسيح. عادَ إلى خلواتِهِ واستأنَفَ جهادَهُ الروحيَّ. كانتْ روحُهُ تَشتهي الاتِّحادَ باللّه. وأخبرَني الشيخُ پاييسيوسُ ممازحًا: 'حَسنًا، قُلتُ لنفسي، لا يَهمُّ إنْ كانَ المسيحُ هو اللّه أَم لا. على الأقلّ، كانَ إنسانًا فاضلًا. وكنتُ أشعرُ بالسعادةِ وأنا أصلّي إليه'. مع ذلك، كلماتُ ابنِ عمِّهِ زَرعتِ الشكَّ في قلبِه. وفي أحدِ الأيّامِ عندَ العصر، حدثَ شيءٌ غيرُ عاديٍّ. فبينما كان يُصلّي، رأى المسيحَ واقِفًا أمامَه في

الغابة».

سَألتُه: «أكانت رؤيا؟»

- «لا. أكَّدَ ليَ الشيخُ پاييسيوسُ أنَّ المسيحَ نفسَه كانَ حاضرًا أمامَه. تراءى له بجسمٍ ماديٍّ والشيخُ رآه عِيانًا. كانَ اختبارًا حيًّا، مثلَ اختباراتِهِ اللاحقةِ مع القدّيسينَ الراقدين. في هذا الظهورِ الجليِّ وقفَ المسيحُ حَامِلًا إنجيلًا مَفْتُوحًا وتوجَّهَ إلى پاييسيوس الشابِّ بِاسمِهِ وقالَ بصوتٍ مسموعٍ ما كانَ مكتوبًا حرفيًّا في صفحةِ الإنجيلِ المفتوحةِ بينَ يدَيه: 'أنا هو القيامةُ والحياة. مَنْ يُؤمنْ بي وإنْ ماتَ فسيحيا'.

على حدِّ عِلمي، كانَ هذا الاختبارُ المباشرُ مع المسيحِ المَدخلَ الأوَّلَ لپاييسيوس الشابِّ إلى عالمِ الإعلاناتِ الإلهيّةِ الفائقةِ الطبيعةِ، وكانَ نقطةَ تحوُّلٍ على الطريقِ نحوَ الحياةِ الرهبانيّة».

من ثمَّ روى لنا الأبُ مكسيموسُ مزيدًا من التفاصيلِ مِنْ سِنِي حداثةِ شيخِه المحبوب. لم يُكملِ الشيخُ پاييسيوسُ أكثرَ من مستوى المرحلةِ الابتدائيَّةِ في تعليمِهِ الرسميّ، لكنَّ ذلكَ لم يَمْنعْهُ أثناءَ حياتِهِ النسكيّةِ أن يكتبَ، مثلَ القدّيسِ بولس، رسائلَ[٦٥] إلى تلاميذِهِ لإرشادِهم في مختلفِ الأمورِ الروحيّة، والتي تمَّ نشرُها مع غيرِها من الوثائقِ بعدَ وفاتِه. أثناءَ الحربِ العالميّةِ الثانيةِ عندما غَزا الألمانُ اليونانَ، استُدعِيَ پاييسيوس الشابُّ للخدمةِ العسكريّةِ وخدمَ في قسمِ الاتِّصالات. من بعدِ الحرب، هجرَ العالمَ وسَافَرَ إلى الجبلِ

٦٥ رسائل الشيخ المغبوط الذكر الراهب پاييسيوس الآثوسي. نقلَها إلى العربيَّة المتوحّد إسحق (عطاالله) الآثوسيّ - منشورات دير الشفيعة الحارَّة - بدبًّا - الكورة- ٢٠٠٠.

المقدَّسِ ليصيرَ راهبًا.

تابعَ الأبُ مكسيموس: «منذُ لحظةِ وصولِه، امتلكَه شغفٌ شديدٌ لمُقابَلَةِ قدّيسينَ أحياء. لذا، بتأنٍّ وإصرار، نقَّبَ جبلَ آثوسَ بحثًا عن شيوخٍ معاينينَ للّه».

سَألتُه: «أَوَجَدَ أحدًا منهم؟»

– «نعم، إلتقى وتعرَّفَ على العديدِين». ثمّ راحَ يخبرُنا أنَّ أهمَّ شيخٍ تعرَّفَ به هو الشيخُ الروسيُّ تيخن، قدّيسٌ مكرَّمٌ، 'حضرةٌ ملائكيَّةٌ'، تقدَّسَ في جبلِ آثوس. لكنْ، قبلَ لقائِه بالشيخِ تيخن، إرتحلَ الشيخُ پاييسيوسُ إلى مصرَ، وعاشَ قُرْبَ ديرِ القدّيسةِ كاترينا العريقِ عندَ سفحِ جبلِ سيناء، حيثُ استلمَ موسى معاينُ اللّه لَوْحَيِ الوصايا العشرِ من الربّ. قلاّيتُهُ تبعدُ عن الديرِ ساعةً مشيًا على الأقدام.

قالَ الأبُ مكسيموس: «بحسبِ ما أخبرني، منذُ لحظةِ وصولِه إلى سيناءَ، أحسَّ برغبةٍ عارمةٍ لعيشِ حياةٍ نسكيَّةٍ هناك، حتّى إنّه لم يحضرْ معَه إلاّ قطعةَ خبزٍ يابسٍ ومقصًّا. وقد فصَلَ شفرتَيِ المقصِّ عن بعضِهما وحوَّلهما إلى سكاكينَ واستعملَهما لحفرِ صلبانٍ صغيرةٍ وإيقونات، كان يقدِّمُها هديَّةً إلى بدوِ الصحراءِ هناك، الذين كانوا يؤمِّنونَ له ما يحتاجُه من الزادِ القليل. بَقِيَ في الصحراءِ وحيدًا لسنتَين كاملتَين، ونادرًا ما التقى بأحدٍ، كانَ لا يقومُ بأيِّ عملٍ سوى الصلاة. بعدَ ذلكَ عادَ إلى جبلِ آثوس، إلى ديرِ ستافرونيكيتا، وصارَ تلميذًا للشيخِ تيخن. وبعدَ رقادِ شيخِه، وجَدَ نفسَه مرَّةً أُخرى وحيدًا مصلّيًا في

المنسكِ حيثُ قضى بقيَّةَ حياتِه، أيْ حيثُ التقَيْتَ بِه، يا كيرياكو».

سألتُ: «سمعتُ الكثيرَ من القصصِ حولَ علاقةِ الشيخِ بإييسيوس بالحيواناتِ المفترسةِ وتعايشِهِ معَها. أصحيحٌ هذا؟»

أومأَ الأبُ مكسيموسُ برأسِه في إشارةٍ تأكيدٍ على صحَّةِ ما قيل. وأكَّدَ أنَّ هذا ما جعلَهُ غيرَ خائفٍ أثناءَ تواجُدِهِ لوحدِه مع الشيخِ بإييسيوس ليلًا في منطقةٍ مُحاطةٍ بالخنازيرِ البرِّيَّةِ، والذئابِ، والأفاعي على أنواعِها، لِعلمِهِ أنَّها على صداقةٍ مع الشيخِ بإييسيوس. من ثمَّ أضافَ بعضَ التوضيحاتِ لإدراكِ عمقِ الموهبةِ التي أُعطيَتْ للشيخِ في علاقتِهِ مع مملكةِ الحيواناتِ المفترسة:

«عندما يبلغُ الإنسانُ مرحلةً يصبحُ فيها مستودعًا للنعمةِ الإلهيَّةِ، تميِّزُ الحيواناتُ بغريزتِها تلكَ الحالةَ المفقودةَ، حالةَ الإنسانِ الأوَّلِ قبل السقوط. وتُستعادُ علاقةُ الصداقةِ بينَ البشرِ والطبيعة. في تلكَ الحالة، أَشْرَسُ الحيواناتِ على الأرضِ لا يعودُ في مستطاعِه أن يُؤذيَك. هَلْ تَعي ما أَقول؟»

أجبتُ: «أعتقدُ ذلك». وتفكَّرتُ في النتائجِ البيئيَّةِ المحتملةِ لما قالَه توًّا. من ثمَّ سَألَ استِفانوسُ إنْ كانَ بلوغُ القداسةِ يُنهي الحربَ القديمةَ، التي بدأتْ منذُ السقوطِ بين البشرِ والطبيعةِ والتي دمَّرَتْ بيئةَ كوكبِنا.

أجابَ الأبُ مكسيموسُ أنَّه في الحقيقة، لا أملَ من دونِ ذلك، فهذا مطلبٌ أساسيٌّ لنجاةِ البيئة. وحياةُ القدِّيسينَ نظيرَ الشيخِ بإييسيوس، خيرُ دليلٍ على ذلك:

«لنا، عبرَ العصورِ، كثيرٌ من الأمثلةِ عن تلكَ الظاهرةِ في سِيَرِ القدّيسينَ العظماء. فبعضُهم عاشَ مع الأُسودِ دونَ أن تؤذيَه. أتذكَّرُ أنّي، في بداياتِ لقائي مع الشيخِ پاييسيوس، سَألتُه بِسَذاجةٍ أينَ يُبقي الحيَّات، لأنَّني كنتُ قدْ سمعتُ الكثيرَ من الرواياتِ عن محبَّتِهِ لها. أتعرفُ ماذا أخبرَني؟»

ضحِكَ الأبُ مكسيموس وقال: «أشارَ إلى قلبِه وقال: 'إنَّها تعيشُ هنا، وعندما تصبحُ أبًا روحيًّا، تعالَ لأخبرَكَ كلَّ شيءٍ عنها'».[٦٦]

سألتُ فيما كنَّا نشارفُ ضواحيَ مدينةِ ليماسول، وبدا البحرُ أمامَنا: «هَلْ رأيتَ أيَّةَ حيَّةٍ حقيقيَّة؟»

«بالطبع. تملَّكَني الفزعُ ذاتَ يومٍ حينَ رأيتُ حيَّةً ضخمةً تقومُ بحركاتٍ بهلوانيَّةٍ على عارضةٍ من الخشبِ داخلَ قلاَّيتِه. أَخذَها في يدَيه، وَوضعَها خارجًا وقالَ، 'إذهبي الآن. عِنْدَنا ضيوفٌ ولا يَجِبُ أنْ تُزعجِيهم'.

وفي أحدِ الأيَّام، رحَّبَ بأحدِ الحجَّاجِ بتوبيخٍ وعتابٍ شديد، قائلًا له: 'ما الذي اقترفتُهُ ضدَّكَ حتَّى آذيتَني بهذا القدرِ الكبيرِ اليومَ؟'. فاندهشَ كلُّ الحجَّاج. وردَّ الزائر:

- أبانا، كيف يمكنُ أنْ أؤذيَكَ وهذه أوَّلُ مرَّةٍ أقابلُك في حياتي؟

- لقد ارتكبتَ عملًا فظيعًا اليوم. لقد آذيتَني بعمق.

- لكنْ يا أبتِ، قلْ لي ماذا ارتكبتُ من ذنب؟

---

٦٦ يشير هنا إلى الأهواء.

- قَتلتَ صديقي.

- صديقَك!؟

- نعم، صديقيَ الأفعوان.

أتعرِفُ ماذا حصل؟ في طريقِهم إلى منسكِ الشيخ، رأى هؤلاءِ الحجَّاجُ أفعًى تَعْبرُ الطريقَ فقتلَها واحدٌ منهم بعصا. والشيخُ باييسيوسُ، الممتلئُ بمواهبِ الروحِ القدسِ، رأى بعينِ نفسِه ما فعلَه الحاجُّ».

أشارَ استِفانوس: «امتلَكَ موهبةَ معرفةِ المستقبل».

أضافَ الأبُ مكسيموس: «من بينِ مواهبَ عديدةٍ أُخرى».

في أكثرِ من مناسبةٍ، تمَّ تداولُ كثيرٍ من الرواياتِ حولَ رؤيةِ الشيخِ باييسيوس في مكانَين في الوقتِ نفسِه، وهي ظاهرةٌ تُعرفُ بـ«الثنائيّة المكانيّة» bilocation [٦٧]. واشتُهرَ بتحدُّثِه وتواصلِه مع زوّارٍ فرنسيّينَ رغمَ عدمِ معرفتِه بلغتِهم، وشفائِه كثيرين من أمراضٍ مستعصية، وظهورِه بغتةً وبصورةٍ عجائبيَّةٍ في أماكنِ حصولِ حوادثَ لإنقاذِ الناس. عندما كان يُطلَبُ من الشيخِ باييسيوس تأكيدُ هذه الإشاعاتِ، كان يُنكرُ كُلَّ شيءٍ ويدَّعي أنَّ كلَّ تلك الأحداثِ العجائبيَّةِ التي ينسبُها الناسُ إليه هي في الحقيقةِ من عملِ الروحِ القدس. يرفضُ بشدَّةٍ أيَّ فضلٍ يُنسبُ إليه. ويوضِحُ أنَّ الروحَ القدسَ أحيانًا كثيرةً،

٦٧ فيما كان الشيخ موجودًا في الجبل المقدّس في قلاّيته، كان يذهب بعيدًا جدًّا، ليساعد انسانًا في خطر يهدده أو لسبب آخر. يراقب ويتابع ويعلم ما يحلّ بشخص، بعائلة أو بديرٍ ما. (أنظر: الأب أسحق الأثوسي، المصدر السابق، ص. ٤٣٣).

كان يتّخذُ صورتَهُ ويُؤدّي تلكَ المعجزاتِ التي ينسبُها الناسُ إليه. في الحقيقة، كلُّ ما يفعلُه هو البقاءُ في حالةِ صلاةٍ دائمةٍ داخلَ قلّايتِه، لذا لا يمكنُ أنْ يكونَ حاضرًا في الأمكنةِ حيثُ يدّعي الناسُ أنّهم رأَوه. من خلالِ تجربتِهِ الذاتيّة، قال إنَّ ما نسبَهُ الناسُ إليه من حوادثَ، لم تكنْ أكثرَ منْ صورٍ صافيةٍ، ظهرتْ في ذهنِه، فيما جَرَتْ هذه الأحداث. وأنَّ الروحَ القدسَ كانَ يصنعُ هذه الآيات، وكما يبدو، متجلّيًا بهيئةِ الشيخِ الخارجيَّة.

هناكَ كثيرٌ من القصصِ في التقليدِ الآثوسيِّ عنِ انتقالِ قدّيسينَ من مكانٍ إلى آخرَ بصورةٍ عجائبيّة. ووفقًا للأبِ يوسف، وهو شيخٌ آخرُ التقيتُ به في جبلِ آثوس، فحينَ يبلغُ الإنسانُ مرتبةً من التنقية، يكشفُ له الروحُ القدسُ '... أسرارًا خفيّةً وغيرَ معروفةٍ من خلالِ تدخّلاتٍ وأحداثٍ خارقةٍ لنواميسِ الطبيعة... يكشفُ له أسرارَ الطبيعةِ وأسرارَ ملكوتِه. يَشفيه مِنَ الأمراضِ ويَنْقلُهُ بلحظةٍ إلى أماكنَ بعيدةٍ ليُشاهدَ حوادثَ مُختلِفةً مِنَ الماضي والمستقبل. وقبلَ كلِّ شيءٍ يُساعدُه، في نموِّه الروحيِّ، ويَرْفعُه إلى حياةٍ تتلاءمُ وطبيعتَه الحقيقيّةَ'.[٦٨]

قالَ الأبُ مكسيموس: «إليكَ حادثةً أُخرى عن علاقتِهِ بالحيوانات، حضرَتْ في ذاكرَتي الآن. عاشَ الشيخُ پاييسيوس فترةً من الزمنِ في ديرِ ستوميو قربَ كونيتسا، وهي قريةٌ جبليّةٌ بعيدةٌ تقعُ في شمالِ اليونان. ذاتَ يومٍ، خرجَ من الديرِ البعيدِ عن القرية، متوجّهًا مشيًا على الأقدامِ نحوَ القريةِ وكانَ لا بدَّ أنْ يعبرَ في غابةٍ موحشةٍ تفصلُ بينَ الديرِ والقرية. وكانَت لا تزالُ تعيشُ في

68 Markides, Riding with the Lion, p. 301.

الغابةِ آنذاكَ دببةٌ، فاعترضَ إثنانِ منها طريقَه. ولكن ما إنْ وقعَ نظرُهما عليه حتّى جمدا بشكلٍ غامض. كانَ في جَيبِ الشيخِ قطعةُ بروتي[٦٩]، قَسَمَها نصفَين وأعطى الدبَّين. ثمَّ أمسكَ كُلًّا منهما بأُذُنِه، الأوّلُ عن يمينِه والآخرُ عن يسارِهِ ومَشى هكذا إلى البلدة. شاهدَ القرويُّون ذلكَ ولم يصدِّقوا ما يرون. ثمَّ قرَّرَ الشيخُ بايسيوس أنْ يُسخِّرَ الدبَّينِ للعمل. فحمَّلَهما بالمؤن، وقادَهما ثانيةً إلى الديرِ لإفراغِ الحمولة، ماسِكًا أُذنَ كلٍّ واحدٍ منهما».

* * *

عندما دخَلْنا ليماسول، توقَّفَ الحديث. فالأبُ مكسيموس واستِفانوس اللَّذانِ وُلدا وترعرعا في هذه المدينةِ، بكَيا للنموِّ السريعِ الذي شهدَتْهُ إثرَ الإجتياحِ التركيِّ لقبرصَ، فَحَلَّتْ محلَّ مدينةِ فاماغوستا المحتلّة، كمرفإٍ بحريٍّ للجزيرةِ وكأهمِّ مدينةٍ سياحيَّة.

سألتُ: «أبانا مكسيموس، قَبْلَ أَنْ نُقابِلَ والدتَكَ، عندي سؤالٌ أخيرٌ عن الشيخِ بايسيوس: لماذا طلبَ وهو على فراشِ الموتِ أنْ يُدفنَ في ديرِ السوروتي؟». وهو ديرٌ للراهباتِ خارجَ الجبلِ المقدَّس.

إبتسمَ الأبُ مكسيموس ابتسامةً عريضةً وأوضحَ أنَّ الشيخَ بايسيوس كانَ الأبَ الروحيَّ لراهباتِ هذا الدير، وكانَ يحبُّهنَّ كثيرًا. فطوالَ حياتِه، وبشكلٍ دوريٍّ، كانَ يتركُ منسَكَهُ ويسافرُ إلى ديرِ السوروتي لإرشادِ الراهبات. وبنبرةٍ ساخرةٍ ظريفةٍ قال، إنَّ بعضَ الرهبانِ الآثوسيِّينَ صُدِموا حينَ سَمِعوا

---

٦٩ قطعةٌ من القربان، تُقدَّسُ أثناءَ القدّاسِ الإلهيِّ وتوزَّعُ على المؤمنينَ بعدَ المناولةِ المقدَّسة.

أنَّ الشيخَ بايسيوس يشاءُ أنْ يُدفنَ في ديرٍ للراهبات. رغبوا أَنْ يَبْقى الشيخُ في جبلِ آثوسَ إلى الأبد. «لكنَّ الشيخَ بايسيوس كانَ فوقَ الأعراف!»

وأشارَ الأبُ مكسيموس أنَّ هناك قصصًا مماثلةً عن نسَّاكٍ آخرينَ عَرفَهم في الفترةِ التي أمضاها في جبلِ آثوس. وفيما كنَّا نترجَّلُ من السيَّارة، قال: «ذكِّرْني، أنْ أخبِرَكَ في وقتٍ لاحقٍ عن الشيخِ بورفيريوس».

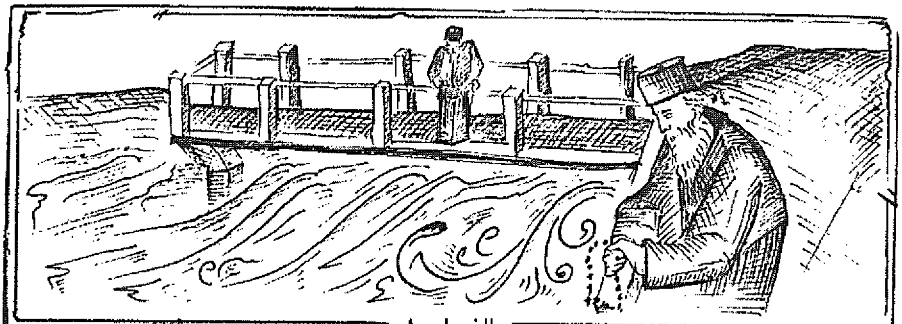

الفصل ٨

ملائكةٌ وشياطين

تقطُنُ والدةُ الأبِ مكسيموس مع زوجِها في حيٍّ شعبيٍّ-عمّاليّ، على مسافةٍ قريبةٍ جدًّا من مرفأِ ليماسول. هناكَ ترعرعَ الأبُ مكسيموس. كانَ من المفترضِ أنْ نبقى هناكَ ساعةً أوْ أكثرَ قبلَ التَوجُّهِ إلى المكانِ المقصودِ، أيْ بلدةِ لانيّا. وفيما كنَّا نصعدُ درجَ المبنى إلى الطابقِ الثالث، حيثُ كانت والدتُه في انتظارِنا، سألتُ الأبَ مكسيموس: «أبانا، كيفَ انتهى بكَ الأمرُ إلى إنسانٍ خادمٍ لله، رغمَ نشأتِكَ بينَ والدَينِ التزما الإلحاد؟». ضحكَ الأبُ مكسيموس وقالَ: «بالطبعِ، كانَ ذلكَ تدبيرَ العنايةِ الإلهيَّة. فجدَّتي، بالتحديد، عندما كنتُ بعدُ ولدًا، كانت تصطحبُني خِفيةً إلى الكنيسةِ لتُعرِّفني بأسرارِها المقدَّسة».

لقد سنحتْ لِيَ الفرصةُ في أكثرَ من مناسبةٍ أنْ أتحدَّثَ عن فترةِ شبابِ الأبِ مكسيموس مع والدتِه، النشيطةِ والمنفتحة. واستنادًا لتلكَ المحادثات، بالإضافةِ إلى ما جمعْنا، أنا واستِفانوس، من معلوماتٍ خلالَ أحاديثِنا مع الأبِ مكسيموس، بدأتُ أُكوِّنُ لمحةً تاريخيَّةً عن سِنِي طفولةِ هذا الرئيس.

فمرَّةً، عندما كانَ في الثالثةِ من عمرِه تقريبًا، التحفَ الأبُ مكسيموسُ بلباسٍ أسودَ يَخصُّ جدَّتَه، وتوجَّهَ إلى حيثُ كانت والدتُهُ مجتمعةً مع صديقاتِها في غرفةِ الجلوس، وما إنْ دخلَ، مدَّ يدَهُ اليُمنى نحوهنَّ وطلبَ منهنَّ تَقبيلَها. وبثقةٍ، قالَ لهنَّ إنَّه سيصبحُ يومًا ما أسقفًا. في ذلكَ اليوم، ذهلتْ والدتُهُ إذِ اكتشفتْ أنَّ ولدَها الصغيرَ بَنَى مذبحًا في عُلِّيَّةِ المنزل، وأنَّه يقيمُ الليتورجيا سرًّا مع رفيقٍ له، على نحوٍ منتظمٍ، مُستعينًا بإيقوناتٍ ورقيَّةٍ ومبخرةٍ صنعَها من علبةٍ معدنيَّة(تنكة). انفجرَ والداه غضبًا، فرَميا كُلَّ شيءٍ خارجًا، ومَنعَاه من الدخولِ إلى الكنيسةِ بشكلٍ نهائيّ. وما زادَ الأمورَ ألمًا، هو أنَّ كِلاهما حَمَلا بطاقةَ عضويَّةٍ في الحزبِ الشيوعيّ، على الأخصّ والدُهُ الذي كانَ عضوًا فاعلًا وناشطًا في الحزب.

في سنِي حداثتِه، كانَ الأبُ مكسيموس ينسلُّ إلى الكنيسةِ والخوفُ في قلبِه. ذاتَ يومٍ، علِمَ أبوهُ من أحدِ الأصدقاء، أنَّ ابنَه الوحيدَ يُشارِكُ في خدمةٍ دينيَّة. فأسرعَ بشكلٍ مسعورٍ إلى الكنيسةِ، أمسَكَ ولدَه ذا الثلاثةَ عشرَ عامًا من أُذنِهِ وأخرجَه مُعيدًا ايَّاه إلى المنزل. هدَّدَه بإنزالِ أقسى العقوباتِ به إنِ استمرَّ يلوِّثُ فكرَه بتعاليمِ 'أفيونِ الشعوب'. كانَت لدى الوالدِ آمالٌ كبيرةٌ أنْ يدرسَ ابنُه يومًا ما الهندسةَ في انكلترا حيثُ يعيشُ أقرباءٌ له، والأفضلُ أنْ ينالَ منحةً دراسيَّةً مِن الحزبِ ليَدْرسَ في روسيا. كانَ أملُهُ أنْ يرى ابنَهُ يتخرَّجُ من جامعةِ موسكو، متعمِّقًا في تعاليمِ ماركس ولينين الحكيمة؛ وأكثرَ من ذلك، كانَ أمَلُهُ أنْ يلعبَ ابنُه يومًا ما دورًا طليعيًّا في الثورةِ العمَّاليَّةِ الكُبرى المستمرَّة.

بعدَ موتِ الوالدِ في حادثٍ غريبٍ نتيجةَ إعصارٍ غيرِ مرتقبٍ اجتاحَ ليماسول مُدمِّرًا، تابعَ الأبُ مكسيموس الشابُّ علاقةَ حبِّهِ للكنيسةِ بانتظام، مع بعضِ العوائقِ غيرِ الثقيلةِ نسبيًّا. وكانَ ذلك بدايةَ خوضِهِ الحقلَ الرهبانيّ، الأمرَ الذي عارضَتْهُ أمُّه بشدَّةٍ إلى حدِّ أنّها لجأتْ إلى متروبوليت ليماسول آنذاك ليساعدَها. فنصحَها: 'إصفعيهِ ووبِّخيهِ بشدَّةٍ، واحبُسيهِ في غرفتِه'. لكنْ عبثًا فعلتِ الأمُّ، فذهبتْ إلى مديرِ مدرسةِ ابنِها طلبًا للمساعدة، فحثَّها أنْ تعرضَهُ على طبيبٍ نفسانيٍّ. في النهايةِ، تعلَّمتْ أنْ تتقبّلَ الأمر.

عندما عادَ الأبُ مكسيموس إلى قبرصَ كراهبٍ وعُيِّنَ رئيسًا لديرِ الفائقةِ القداسة، أصبحَتْ أمُّهُ وصديقاتُها من زوّارِه المنتظمين، يتْبَعْنَ الحشودَ المتقدِّمةَ للاعترافِ والمناولةِ المقدَّسة، ويقبِّلْنَ يَدَ رئيسِ الديرِ وفقًا للعادةِ المتَّبعة. صُوَرُ ماركس ولينين القديمةُ التي كانت تُزيِّنُ غرفةَ جلوسِ بيتِ أمِّهِ أُزيلَتْ واستُبدِلَتْ بإيقوناتِ العذراءِ مريمَ والسيِّدِ المسيح، وعددٍ من القدِّيسينَ الشفعاء.

مرَّة، أخبرَتْني أمُّهُ: «في أحدِ الأيّام، ذَهبتُ لرؤيةِ أعضاءِ الحزب. كانوا كلُّهم أصدقاءَ زوجِيَ الراحلِ وعَرفوا ابنِي منذُ صغرِه. سَألتُهم لماذا يُهاجمونَ الأبَ مكسيموس ويكتُبونَ ضدَّهُ مقالاتٍ مسيئةً في صُحُفِهم ومنشوراتِهم. فتعجَّبوا وسألُوني بوجوهٍ باردةٍ: 'ولماذا تَهتمِّين؟'، سَألتُهم: 'هَلْ تَعْرِفُون مَنْ يكون؟'، ولمَّا علِموا أنَّ الأبَ مكسيموسَ هو في الحقيقةِ أندريكوس- هكذا عَرفوا ابني كَفَتّي- صُعقوا. ووَعدُوني بإيقافِ مقالاتِهم الافتتاحيَّةِ ضدَّه. لكنّي أقسمتُ يومذاك ألّا أُصوِّتَ لصالحِهم في الانتخاباتِ فيما بعد».

* * *

كما كانَ مُقرَّرًا، دامتْ زيارتُنا ما يقاربُ الساعةَ تقريبًا، تبادلْنا الحديثَ مع الأمِّ وزوجِها وتصفَّحْنا صورًا قديمةً للعائلة. لاحقًا، انضمَّتْ إلينا أختُه، التي تقطنُ في الشقَّةِ المجاورة. كانوا جميعُهم فخورينَ به كثيرًا. وكلَّما تذكَّروا حادثةً من الماضي، كانَ الأبُ مكسيموس يُعلِّقُ بكثيرٍ من المرحِ والضحكِ بكلماتٍ توضحُ عمقَ ارتباطِه ومحبَّتِه لأُسرتِه. وجودُهُ معهم كانَ استراحةً قصيرةً مِن مهامِه ومسؤوليَّاتِه الأكثرِ جِدِّيَّةً والتي لا تنقطع. قبلَ مغادرةِ المنزل، سلَّمتْنا والدتُهُ علبًا معبَّأةً بأنواعٍ مختلفةٍ من المعجَّنات، أعدَّتْها بنفسِها للإخوةِ الرهبانِ في الدير. من ثمَّ إستأنَفْنا رحلتَنا إلى لانيًا لحُضورِ اجتماعِ البلدة.

* * *

تقعُ لانيًا على مسافةِ خمسٍ وأربعينَ دقيقةً تقريبًا صعودًا شمالي ليماسول، في وسطِ المسافةِ بينَ مدينةِ ليماسول الساحليَّةِ وقمَّةِ جبالِ ترودوس. كانَ نهارًا صافيًا، ونحنُ نصعدُ الطريقَ الجبليَّةَ بالسيَّارة، واستطَعنا أَنْ نَرى عن يسارِنا، شبهَ جزيرةِ أكروتيري وبحيرَتَها المالحةَ الكائنةَ في وسطِها. تبرزُ أكروتيري من جوفِ الجزيرةِ القبرصيَّةِ وتمتدُّ إلى البحرِ المتوسِّطِ في شكلِ حذاء، وهي جزءٌ من القواعدِ البريطانيَّةِ التي أُنشِئت عامَ ١٩٦٠، كنتيجةٍ للإتفاقيَّاتِ التي حوَّلتِ المستعمرةَ البريطانيَّةَ السابقةَ إلى جمهوريَّةٍ مستقلَّة. ليسَ بعيدًا عنْ أكروتيري، يُمْكِنُنا أَنْ نَرى قريةَ كولوسي المظلَّلَةَ ببساتينِ البرتقالِ وكرومِ العنب، والتي تستقطبُ الكثيرَ من السيَّاحِ بفضلِ قلعتِها المشهورةِ التي تعودُ إلى القرون الوسطى. يُروى أنَّه في ذلكَ المكان، عامَ ١١٩١، أمضى الملكُ ريتشارد ’قلبُ الأسد‘ ليلَةَ زفافِهِ مع عروسِه برينغاريا، في رحلةِ عودتِه مِن الحملةِ الصليبيَّة.

فحاكمُ الجزيرةِ البيزنطيُّ وقتذاك، كانَ مستبدًّا تافهًا، وقدِ احتجزَ خطيبةَ الملكِ الإنجليزيِّ رهينةً، عندما جنحَتِ السفينةُ التي كانت تقلُّها، بسببِ رداءةِ الطقسِ ورَسَتْ في ليماسول. ووفقًا للسجلاَّتِ المؤرِّخة، زأرَ الملكُ ريتشاردُ كالأسدِ عندما علمَ بالأمرِ وتقدَّمَ مجتاحًا قبرصَ ببضعةِ مئاتٍ من رُماتِه، فسيطرَ عليها وسجَنَ حاكمَها البيزنطيَّ إسحق كومنينوس، وتَزوَّجَ ملكَتَهُ في قلعةِ كولوسي. لم يكنِ الملكُ ريتشارد مهتمًّا بالاحتفاظِ بالجزيرة، لذا، سلَّمَها إلى فرسانِ الهيكل[٧٠]. هؤلاءِ أدخلوا إلى الجزيرةِ المؤسَّساتِ الإقطاعيَّةَ الأوروبيَّةَ التي دامتْ حتَّى سقوطِ قبرصَ في يدِ الأتراكِ العُثمانيِّين في القرنِ السادسَ عشر. ويُروى أيضًا أنَّه قبلَ مغادرةِ الملكِ ريتشارد الجزيرةَ تذوَّقَ عيِّناتٍ من العنبِ القبرصيِّ، وميَّزَ نوعًا واحدًا أنَّه «جيِّدٌ جدًّا» «very good» بالإنجليزيَّة. ومنذُ ذلكَ الحين، سمَّى السكَّانُ ذاكَ النوعَ من العنبِ الذي فضَّلَهُ الملكُ الإنجليزيُّ بعنبِ فيريغو verygo. مغامراتُ ريتشارد قلبِ الأسدِ في قبرص، كَانتْ بِدايةً لعلاقةٍ رومانسيَّةٍ بينَ إنكلترا وقبرص، إلى حدٍّ أنَّ شيكسبير اتَّخذَها كمكانٍ لمَشاهِدِ أحداثِ مسرحيَّتِهِ الشهيرةِ «أوثيللو» في قلعةٍ مهيبةٍ أُخرى من القرونِ الوسطى أيضًا، في مدينةِ فاماغوستا -الواقعةِ في الجانبِ التركيِّ المحتلّ، مسقطِ رأسِ إيميلي- المدينةِ المنسيَّةِ الوحيدةِ في العالمِ التي لا تزالُ تلفُّها الأسلاكُ الشائكةُ إلى يومِنا هذا.

٧٠ فرسان الهيكل أو فرسان الدّاويّة: منظمّة عسكريّة دينيّة أنشأها في فلسطين عام ١١١٩. خلال الحروب الصليبيّة. نفرٌ من الفرسان الفرنسيّين ابتغاء حماية الحجّاج الوافدينٍ إلى بيت المقدس. وبعد سقوط عكا (١٢٩١) انسحب فرسان الهيكل من فلسطين إلى قبرص التي سلَّمها لهم الملك ريتشارد قلب الأسد. وفي عام ١٣١٢ عمد البابا كليمنديوس الخامس إلى حلّ هذه المنظمة نزولًا عند رغبة فيليب الرابع ملك فرنسا.

في لانيّا، تلكَ البلدةِ الجبليّةِ السياحيّة، بمقاهيها التقليديَّةِ وشوارعِها المرصوفةِ الضيِّقة، انتظَرَنا حشدٌ صغيرٌ من أبنائِها. رَأيتُ علاماتِ الدهشِ على وجهِ الأبِ مكسيموسَ حينَ بدأَ أحدُ أبناءِ البلدةِ بقرعِ الأجراسِ ما إنِ اقترَبْنا من الكنيسة، وقامَتْ نساءُ البلدةِ برشِّ أوراقِ الوردِ على رأسِه وهو داخلٌ إليها. بعدَ صلاةٍ قصيرة، رحَّبَ كاهنُ البلدةِ بالأبِ مكسيموسَ وألقى كلمةً قصيرةً، قالَ إنَّ زيارةَ راهبٍ من جبلِ آثوسَ في مكانةِ الأبِ مكسيموس وصِيتِهِ الرفيعِ إلى بلدتِهم ووجودَه بينَهم، هوَ شرفٌ وبركة. من ثمَّ شاهدَ الأبُ مكسيموس الإيقونةَ القديمةَ التي اكتُشِفَتْ مؤخَّرًا قُرْبَ قريتِهم. فسجدَ أمامَها إلى الأرضِ ورسَمَ إشارةَ الصليب، ثمَّ وقفَ وقبَّلها. قبلَ مغادرةِ الكنيسة، اقترحَ على كاهنِ البلدةِ أنْ يضعَ قنديلًا أمامَ الإيقونةِ ويبقيَهُ مشتعلًا كلَّ الوقت. وذكَّرَه قائلًا: «يُحبُّ القدّيسون، أنْ نُسرِجَ قنديلًا أمامِ إيقوناتِهم بشكلٍ مستمرّ». من ثمَّ مشَينا والحشدَ إلى مقهًى قريبٍ من الكنيسةِ لتناولِ المرطّباتِ المحلّيّةِ ومناقشةِ بعضِ الأعمال.

تَمنَّى سكّانُ البلدةِ إعادةَ إنشاءِ الديرِ الذي، قبلَ قرونٍ خلتْ، كانَ قائمًا في البقعةِ ذاتِها حيثُ تمَّ اكتشافُ الإيقونة. لذلك، تمَّ إستدعاءُ الأبَ كالّينيكوس أيضًا من جبلِ آثوسَ ليكونَ رئيسًا لهذا الديرِ الجديد. الأبُ كالينيكوس هو راهبٌ في الستّيناتِ من عمرِه، امتهنَ الهندسةَ المعماريَّةَ ببراعة، لكنَّه يومًا ما قرَّرَ تركَ العالمِ والتحقَ بالجبلِ المقدّسِ بحثًا عن الله. كانَ صديقًا قديمًا للأبِ مكسيموس، وسُرَّا كثيرًا بالتلاقي من جديدٍ بعدَ طولِ غياب.

كانَت لدى الأبِ مكسيموس أفكارٌ مغايرةٌ عن الديرِ الذي سيُنشأُ في

القرية. وبعدَ استماعِهِ لتفاصيلِ اكتشافِ الإيقونةِ وقرارِ أهلِ البلدةِ بإنشاءِ صندوقٍ للتبرُّعاتِ لجَمْعِ بضعةِ آلافٍ من الجنيهاتِ لتكونَ نواةً لبدءِ بناءِ الديرِ، اقترحَ زيارةَ المكانِ لمشاهدتِهِ عن كثب. يبعدُ الموقعُ عن وسطِ القريةِ، حوالي خمسةَ عشَرَ دقيقةً بالسيَّارةِ صعودًا عبرَ طريقٍ ترابيَّة.

عندما وصلْنا إلى قمَّةِ الهضبةِ حيثُ كنيسةٌ صغيرةٌ تشرفُ على القرية، تجوَّلَ الأبُ مستكشِفًا المنطقة، وسألَ عن مالكِ كرومِ العنبِ المحيطةِ بالهضبة. من ثمَّ ألقى كلمةً حماسيَّةً مشجِّعةً في أبناءِ القريةِ الذين رافقوه إلى هناك، وكانَ عددُهم ما يقاربُ الثلاثين. هنَّأهُم أوَّلًا على مساعيهم ومبادرتِهم المباركةِ لتشييدِ دير، ثمَّ مضَى يوضحُ لهم أهمِّيَّةَ وجودِ ديرٍ قريبٍ من القرية. أخبرَهم عن منافعِه الروحيَّةِ للقرويِّين، وعنْ أنَّه يَبعثُ طاقاتٍ إيجابيَّةً ملائكيَّةً تُظلِّلُ المنطقةَ بأسرِها، ويعطي الفرصةَ لأبناءِ القريةِ للخَوضِ في العملِ الروحيِّ بأنفسِهم. وقالَ إنَّ هذا ما يَحْدثُ عندما تُبنى، قُربَ القُرى أو البلداتِ، الأديرةُ التي عادةً تكونُ في مناطقَ معزولةٍ بعيدة. فالديرُ يصبحُ مثلَ مبنًى جامعيٍّ روحيٍّ يتعلَّمُ فيه الناسُ عن حقيقةِ اللّهِ بشكلٍ اختباريٍّ.

قالَ الأبُ مكسيموسُ للحشدِ الصغيرِ الملتفِّ حولَه من نساءٍ ورجال: «لكنْ بالإضافةِ إلى المنافعِ الروحيَّةِ الواضحة، يجلبُ الديرُ إلى المنطقةِ المحيطةِ به منافعَ مُفيدةً أُخرى، ثقافيَّةً وإقتصاديَّة. إذْ قدْ يصبحُ الديرُ مركزًا للحجِّ مستقطِبًا عددًا كبيرًا من السيَّاحِ والمؤمنين». وفيما هو يقولُ كلمتَه، بدَتْ سماتُ الرضى واضحةً على وجوهِ كلِّ الحضور.

ثمَّ أضافَ: «لكنَّ هذا المكانَ مناسبٌ بالأكثرِ لبناءِ ديرٍ للراهبات».

لاحظتُ وجوهَ الرجالِ من حولِنا تتغيَّرُ وكأنَّهم أُصيبوا بخيبةِ أمل. أخذَ الأبُ مكسيموس نفَسًا عميقًا، تركَ البعضَ منهم يُبدي معارضتَه، من ثمَّ استمرَّ في إقْناعِهم أنَّ ديرًا للراهباتِ قريبًا من قريتِهم هوَ في الحقيقةِ خيارٌ أكثرُ فعاليَّة. لاحقًا، أوضحَ لنا الأبُ مكسيموس أنَّه منَ الأفضلِ إقامةُ أديارِ الراهباتِ على مسافةٍ قريبةٍ من القرى، لأنَّ أبناءَ القريةِ يوفِّرونَ الحمايةَ من الدخلاءِ واللصوصِ المحتمَلين، ويساعدونَ الراهباتِ أيضًا في بعضِ الأعمالِ التي عادةً توكَلُ للرجال، مثلَ حِراثَةِ الحقولِ وأعمالِ السباكة. أمَّا فيما يختصُّ بالأبِ كالِّينيكوس، فكانت لدى الأبِ مكسيموس أفكارٌ مغايرةٌ لما يبتغيه أهلُ البلدة، إذِ ارتأى أنْ يوكِلَ له رئاسةَ ديرٍ مهجورٍ آخرَ في منطقةِ ميسابوتاموس(النهرِ الداخليّ)، وهي منطقةٌ بعيدةٌ ومعزولةٌ تقعُ في عمقِ غاباتِ جبالِ ترودوس. فلقدْ تعهَّدَ أحدُ الأثرياءِ القبارصة، وهو رجلٌ مؤمنٌ ملتزمٌ، بِدَفْعِ سبعةِ ملايينِ دولارٍ أميريكيٍّ لإعادةِ بناءِ ذاكَ الديرِ المهجور.

قَبْلَ مغادرةِ القرية، وَعدَ الأبُ مكسيموس رئيسَ البلديَّةِ وأعضاءَ مجلسِه بأنَّ الديرَ سيكونُ مُشادًا وجاهزًا معَ بداياتِ الربيعِ القادم. «كُلُّ ما هو مطلوبٌ منكم هو بناءُ أربعِ أو خمسِ قلَّاياتٍ للراهبات. فإنطلاقًا من موقعِ الكنيسةِ الموجودِ أصلًا على قمَّةِ الهضبةِ، لنْ يجدَ المصمِّمُ المعماريُّ صعوبةً في رسمِ خرائطَ أوَّليَّة. وما إنْ يرى الناسُ المرحلةَ الأُولى من البناءِ والتصميمَ المعماريَّ للمرحلةِ المستقبليَّة، سيُساهمونَ بسخاءٍ أكبر. هكذا تتمُّ الأمورُ وتنجَزُ مراحلُ البناءِ عادةً». كانَ الأبُ مكسيموسُ يتكلَّمُ استنادًا لخبرتِه في

مثلِ هذه الأمور.

سألَه رئيسُ البلدية: «أينَ لنا أنْ نَجِدَ راهباتٍ يشغلْنَ القلّايات؟»

وبنبرةِ ثقةٍ واطمئنان، أجابَ الأبُ مكسيموس: «لا تقلقْ بشأنِ ذلك. هذا نطاقُ مسؤوليّاتي. سأُساعدُك في إيجادهنَّ».

عندما ركِبنا السيّارةَ لاستئنافِ رحلةِ العودةِ إلى ديرِ الفائقةِ القداسةِ، مودِّعينَ القرويّينَ وملوّحينَ لهم، أدرْتُ رأسي نحوَ الأبِ مكسيموس وقلتُ متمتمًا: «اليومَ عرفتُ لماذا يطاردُكَ بعضُ الأهالي». فورَ سماعِ تعليقي، بدأ استِفانوسُ الجالسُ في المقعدِ الخلفيِّ، بالضحكِ، كاسِرًا الصمتَ الذي غلَّفَهُ أثناءَ ساعاتِ مغامرتِنا في لانيّا.

* * *

في صباحِ اليومِ التالي، استدعانا الأبُ مكسيموس إلى مكتبِه لاستِئْنافِ الحديثِ الذي بَدأْناه أمس، أثناءَ رحلةِ العودةِ من بلدةِ لانيّا إلى الدير. وكان حولَ قوى الشياطينِ والملائكة، وكيفَ أنَّ تلك القوى تُعتَبَرُ في حياةِ رهبانِ آثوسَ أمرًا بديهيًّا مُختبَرًا ومُجرَّبًا كحقيقة، وأنّها ليست هلوسة.

طُرِحَ الموضوعُ ذاتُه، عندما ذكرَ الأبُ مكسيموس في نهايةِ حديثِنا بالأمسِ اسمَ الشيخِ پورفيريوس[٧١]، الشيخِ الراحلِ صانعِ العجائبِ ذي المواهبِ النادرة، والذي كان راهبًا آثوسيًّا ثمَّ غادرَ الجبلَ المقدَّسَ ليخدمَ ككاهنِ رعيَّةٍ

٧١ هو الشيخ پورفيريوس الرائيّ ١٩٠٦-١٩٩١. أُنظر: الشيخ پورفيريوس الرائيّ: سيرة وأقوال. ترجمة ونشر راهبات دير السيدة - بلمّانا، ٢٠٠٥.

في ضواحي أثينا. أُطلقَ النقاشُ حولَ موضوعِ الملائكةِ والشياطينِ مباشرةً بعدَ أنْ طَرحتُ على الأبِ مكسيموس عددًا من الأسئلةِ عن حياةِ الشيخِ بورڤيريوس. وبدأَ الأبُ مكسيموس الذي عَرفَ الشيخَ بورڤيريوس شخصيًّا، بروايةِ حادثةٍ مِنْ حياةِ هذا الشيخِ الصانعِ العجائبِ.

قال: «ذاتَ ليلة، فيما كانَ راهبٌ صديقٌ لي من جبلِ آثوس يُصلّي، هاجَمَهُ الشيطان. أمسكَ الراهبَ من رقبتِهِ محاولًا خنقَه. تصارعا على الأرض، وقبلَ أنْ يتمكّنَ الراهبُ من حَلّ نفسِه من قبضةِ الشيطان، ضَربَه هذا الأخيرُ بقبضةِ يدِه، هنا، على صدرِه». (شدَّ الأبُ مكسيموس قبضتَهُ وأشارَ إلى مركزِ صدرِه مُحدِّدًا مكانَ الضربةِ التي تلقّاها صديقُه الراهبُ من الشيطان).

وتابعَ: «شعرَ صديقيَ الراهبُ بألمٍ شديدٍ في صدرِه، لكنّهُ حسِبَ الألمَ عابرًا، لا أكثر. لم يكنِ الشيخُ بورڤيريوس وصَدِيقي قد تعارَفا سابقًا ولا التقيا أبدًا. ولم تكنْ تجمعُهما أيّةُ علاقةٍ مطلقًا. علاوةً على ذلك، لَمْ يُخبرْ صديقي أحدًا عن تجربتِه. لا يُمكنُكَ أنْ تتخيّلَ مفاجأتَهُ عندما تلقّى صباحَ اليومِ التالي، مكالمةً خارجيّةً من الشيخِ بورڤيريوس، قائلًا له: 'أبانا، لقد تدبّرتَ أمرَكَ معَه على نحوٍ حسنٍ ليلةَ أمس، لكنْ لا تُهمِلِ الأمر، لأنَّ اللكمةَ التي أصابَكَ بها، أحدثَتْ أذًى في الجزءِ العلويِّ من الرئة، وعليكَ أنْ تعرضَ الأمرَ على طبيبٍ مختصٍّ'. وهذا ما فعلَهُ الراهبُ بالضبط. زارَ طبيبًا في تسالونيكي، وأكّدَ الفحصُ الطبّيُّ وجودَ عطبٍ في الجزءِ العلويِّ من الرئة، تمامًا كما حدّدَ الشيخُ بورڤيريوس. كيفَ له أنْ يعرفَ؟»

سَألتُ: «أبانا مكسيموس، لماذا هاجمَ الشيطانُ صديقَكَ هكذا، مسبِّبًا له أذًى جسديًّا؟»

– «ربَّما لأنَّهُ كانَ يتلو صلاةَ المسبحة».

في ردَّةِ فعلٍ فوريَّةٍ قلت: «لا أفهم، أيَعني ذلك أنَّك بقدرِ ما تقتربُ من اللّه بواسطةِ الصلاة، يزدادُ احتمالُ تعرُّضِك لهجماتِ الشيطان؟»

– «إفهمْ هذا. كُلُّ هذه الأمورِ تتجلَّى لنا من لدنِ اللّه، من النعمةِ الإلهيَّة. إنَّها تمارينُ روحيَّة، تَحدُثُ لكي لا نغفلَ ولا لحظةً واحدة، أنَّ الشرِّيرَ الذي نتعاملُ معَه هو كيانٌ موجود. فنحنُ لا نَتعاملُ مع الشرِّ بصورةٍ مجرَّدةٍ كما يفترضُ العديدُ من الناسِ ويعتقدون. كيف لِيَ أنْ أُوضحَ لك ذلك؟»

سألَهُ استِفانوس: «أعلينا الافتراضُ أنَّ الشيطانَ هو شخصٌ؟»

أجابَ الأبُ مكسيموس جازمًا: «شخصٌ، لا. فاللّهُ وحدَهُ شخص. رغمَ ذلك، مع أنَّنا لا نعتبرُ الشيطانَ شخصًا، إلاَّ أنَّنا لا نعتبرُهُ أيضًا شرًّا مجرَّدًا، شرًّا نظريًّا غيرَ ملموس. فهو ملاكٌ ساقطٌ، كيانٌ موجودٌ، في صورةِ قوًى موضوعيَّةٍ حقيقيَّةٍ يُمْكِنُ أَنْ تُسبِّبَ الكثيرَ من الأذى. يستهدفُ الشيطانُ الرهبانَ المبتدِئين. وتتركَّزُ هجماتُه عليهم خلالَ الشهرِ الأوَّلِ من حياتِهم الرهبانيَّة. وهذا ما حَدَثَ لي. فحينَ كنتُ بعدُ مبتدئًا، كان شيطانٌ يهاجمُني ممسكًا ايَّايَ من رقبتي لِيخيفَني. فكنتُ أركضُ فورًا إلى الشيخِ باييسيوس لينصحَني. كان يرشِدُني ألاَّ أخاف، وألاَّ أستمعَ إلى ما يقولُهُ لِيَ الشيطانُ، وألَّا أُجيبَه مهما عَلا صراخُهُ لإخافَتي ولتهديدي بالموت. كانَ الشيطانُ كلَّ مرَّةٍ يعِدُ أنَّه سيذبَحُني

مثلَ الخروف».

وإذْ تذكَّرَ الأبُ مكسيموس هذه الأحداث، ضحِكَ من صميمِ قلبِه وقال: «ذاتَ يوم، لَكَمَ الشيخُ باييسيوس الشيطانَ لكمةً قويَّةً مباشرةً في وجهِه، وندِمَ على فِعلتِه. يومذاك، لم يتناولِ الشيخُ باييسيوس القربانَ المقدَّس، أصدَّقْتَ ذلك أم لا؟ لأنَّهُ شعَرَ بأسفٍ تُجاهَ الشيطانِ الذي تأوَّهَ متألِّمًا لمّا ضربَهُ العجوزُ باييسيوس. كانَ يسمِّيه: 'الزميلُ المسكين'».

بعدَ أنْ هدأْنا من الضحك، قالَ استِفانوس معلِّقًا: «يبدو لي أنَّ الشيطانَ ضعيفٌ في الواقع، لا يقدرُ على إصابةِ الإنسانِ بأيِّ ضررٍ دائم».

أجابَ الأبُ مكسيموس: «ليسَ بالضرورة، يمكنُ للشياطينِ أَنْ تُسبِّبَ مشاكلَ خطيرةً للإنسان».

قُلتُ مُقاطعًا: «تقصدُ الرهبان».

- «لا، ليس فقطِ الرهبان. منذُ أيّامٍ قليلة، واجهْنا مشكلةً مماثلةً في إحدى القُرى السياحيَّةِ هنا في قبرص. فقد هاجمتْ قوَّةٌ شيطانيَّةٌ زوجَينِ روسيَّينِ في العقدِ الثاني من العمرِ يقيمانِ في الجزيرة، وأمسكتْ بهما ورمتْهما خارجَ بيتِهما. ولقد واجها التجربةَ عينَها مرَّتينِ حتّى الآنَ، بالرغمِ من أنْ لا علاقةَ لهما بالكنيسةِ أو بالحياةِ الرهبانيّة. وهما لا يؤمنانِ باللّه ولا بالشيطان. معَ ذلك، واجها هذا الهجومَ الشيطانيَّ، ليسَ في حلمٍ أو خيالٍ إنّما في حالةِ يقظةٍ كاملة. وكانت تجربةً قاسيةً عليهِما».

شدَّدَ الأبُ مكسيموس على خطورةِ أنْ يؤسْطَرَ الشيطانُ (أي أنْ يصنَّفَ أسطورةً)، ويُعتَبَرَ لا شيء، أو من نسجِ خيالِ الناسِ، أو مجرَّدَ قوى شرِّيرة. وأصرَّ أنَّ الشياطينَ كائناتٌ حقيقيَّة. قال: «تَحْضُرُني هنا حادثةٌ مِنْ حياةِ الشيخِ يوسفَ الهدوئيّ[٧٢]. تنسَّكَ الشيخُ في أحدِ كهوفِ جبلِ آثوس. في أحدِ الأيَّام، جاءَ لزيارتِه صديقٌ له برفقةِ رجلٍ آخرَ. كان المكانُ يحوي غرفتَينِ صغيرتَين جدًّا وَسريرَين، لذا قرَّرَ الشيخُ أنْ يقدِّمَ سريرَه الخاصَّ إلى صديقِهِ والغرفةَ الأُخرى إلى الحاجِّ المرافق. واختارَ لنفسِه الخلاءَ وقرَّرَ أنْ يقيمَ سهرانيَّة . أمضى الشيخُ يوسفُ الليلَ كلَّهُ خارجًا يصلِّي بينما نامَ صديقُهُ على سريرِه في الداخل. لسوءِ الحظِّ، هاجمتِ الشياطينُ غرفةَ الشيخِ يوسفَ أثناءَ اللَّيلِ وضَربتْ صديقَهُ ضربًا مبرِّحًا. مع حلولِ الصباح، كان مثخنًا بالكدمات. عندما عادَ الشيخُ ورأى ما حدثَ، حاولَ تهدئةَ ضيفِه: 'لا تخفْ. فأنا المستهدفُ بذلك الضربِ المبرِّح، لكنَّ الشياطينَ أخطأَتْ ظانَّةً النائمَ في السريرِ هو أنا، فهاجمتْك'».

ضحكَ الأبُ مكسيموس عندما أنهىَ قصَّتَه، وقال: «تكونُ هذه الأمور، أحيانًا، مُسَلِّيَّةً جدًّا». ثمَّ وبنبرةٍ أكثرَ جدِّيَّةً، تابعَ مضيفًا أنَّه في التحليلِ النهائيِّ، لا يملكُ الشيطانُ أيَّ سلطانٍ علينا، والطريقَةُ الوحيدةُ لإيذائِنا هي في ترويعِنا. لذا، التكتيكُ الأنجحُ هو في تجاهلِهِ بشكلٍ تامٍّ.

أشرتُ هنا إلى أنَّ القصصَ والرواياتِ عن الهجماتِ الشيطانيَّةِ تتناقضُ وطرائقَ الفكرِ الحديث، لذا يصعبُ على الإنسانِ المعاصرِ المثقَّفِ والمتعلِّمِ

---

٧٢ أُنظر: سيرة ورسائل الشيخ يوسف الهدوئيّ الآثوسيّ. نقلَها إلى العربيَّة الراهب الأرشمندريت توما (بيطار). منشورات التراث الآبائيّ- ٢٠٠١.

أَنْ يُؤمنَ بحقيقةِ وجودِ الشياطين. فقالَ الأبُ مكسيموس إنَّ هذا أعظمُ انتصارٍ يُحقّقهُ الشيطان، أي إقناعَ جميعِ الناسِ بأنَّه غيرُ موجود. لكنَّ أصحابَ الخبرةِ الروحيَّةِ يُدركون كلَّ الإدراكِ حقيقةَ وجودِه ويَعُونَ الأسى الذي يخلّفُه في كلِّ مكان.

أَتذكَّرُ كم كانَ صعبًا على إيميلي قَبولُ مثلِ هذه الفكرة، إذِ اعتبرَتْها وجهةَ نظرٍ بدائيَّةً لمفهومِ الشرّ. ففي إحدى مناقشاتِنا، ونحن نتمشّى معًا على ضفافِ نهرِ ستيل ووتر Stillwater الذي يجري أمامَ بيتِنا في ولايةِ ماين، سَألتُها إنْ كانتْ تؤمنُ بوجودِ الطاقة. أجابَت: 'بالطبع'. في الواقع، لا يمكنُ أن ننسى أنَّ أطروحتَها لنيلِ الدكتوراه كانت حولَ العلاجاتِ عبرَ الطاقة. من ثمَّ سألتُها: 'أتقْبَلين بوجودِ طاقةٍ إيجابيَّةٍ وأُخرى سلبيَّة؟ لأنَّه في حالِ تقبُّلِكِ ذلك، هَلْ يُمْكِنُكِ أن تقبلي أيضًا أنَّ مثلَ هذه الطاقاتِ السلبيَّةِ يُمْكِنُ أَنْ تتشكَّلَ بما يتوافقُ مع معتقداتِنا الثقافيَّة، و'حَكاواتِنا'[٧٣] وتصوُّراتِنا الأوَّليَّةِ السابقة؟'، وجاءَ ردُّ إيميلي: 'إنْ وضَعْتَ الأمرَ في هذا الإطارِ المحدَّدِ الذي طرحتَ، يسهلُ عليَّ أخذُها في الاعتبار. ولكنْ أرجوك، لا تدعوه «شيطانًا»'.

* * *

واقعُ وجودِ الشياطينِ والملائكةِ أو عدمِه، قَدْ يكون، في الحقيقة، سؤالًا تجريبيًّا لا للّاهوتيّينَ فقط، بل للعلماءِ أيضًا. ولكي أُوضِحَ وجهةَ نظري، حولَ

٧٣ الحكاوة هي: "لغة أو تعبير يعتمد الرواية أسلوبًا لصياغة فلسفة الإنسان الأوّلية. أو قل نظرته العميقة إلى الوجود. انطلاقًا من رمزية جامعة منبثّة في كيانه بالفطرة". الأرشمندريت توما (بيطار). "الكتاب المقدس بين الواقعية التاريخية والواقعية الإيمانية". سلسلة أوراق ديرية. رقم (٩). عائلة الثالوث القدّوس. دوما. ٢٠٠٤) (المعرّب).

هذه النقطةِ الجداليّةِ تحديدًا، جَلبتُ معي إلى ماين بعضَ التقاريرِ التي نُشرَت في صحيفة «نيويورك تايمز» عن حادثةٍ جرتْ في إحدى القرى الفرنسيَّة، وقرأتُ لإيميلي ما نشرَتْهُ الصحيفة:

> استُدعِيَ أحدُ رجالِ الدِّينِ المتخصِّصينَ في طردِ الأرواحِ الشرِّيرة، إلى كنيسةِ قريةِ دُلان Delain الفرنسيَّةِ لطردِ الشياطينِ منها، التي بحسبِ قولِهِ جعلتِ الشموعَ المشتعلةَ تطيرُ عاليًا في الكنيسة، ما أجبرَ السلطاتِ الكنسيَّةَ على إغلاقِها حتّى إشعارٍ آخرَ... وقالَ شهودُ عِيان ... إنَّهم شهِدوا شمعةً تطيرُ في الكنيسة، وتنشقُّ إلى نصفَين، وأنَّ التماثيلَ الصغيرةَ والزهريَّاتِ تحطَّمتْ بشكلٍ غيرِ قابلٍ للتفسير. وأنَّ مذبحَ الكنيسةِ انتقلَ من مكانِه أربعَ بوصات، على ما يبدو، من تلقاءِ نفسِه، من دونِ أيّةِ مساعدةٍ خارجيَّة. وقالَ رئيسُ البلدة، تياري مارسو: 'لا يمكنُ أن نعتبرَ ذلكَ هلوسةً جَماعيَّة، وإلاَّ يَجبُ أنْ نرسلَ خمسينَ شاهدًا من أهلِ البلدةِ إلى مستشفى المجانين'.... الكنيسةُ الكاثوليكيَّةُ الرومانيَّة، كالعديدِ مِنَ الكنائسِ المسيحيَّةِ الأُخرى، تؤكِّدُ في تعاليمِها على حقيقةِ الشيطانِ ووجودِ الأرواحِ الشرِّيرة. لكنَّ علماءَ اللاهوتِ المعاصرين، وبعدَ تقبُّلِهم نظريَّاتِ علمِ النفسِ والطبِّ النفسيِّ حولَ السلوكِ الشاذِّ abnormal behavior، بدأوا في التقليلِ من شأنِ الشيطانِ وتأثيرِه[٧٤].

قلتُ لإيميلي إنَّ المرءَ يظنُّ أنَّ العلماءَ سيتوافدونَ إلى تلكَ القريةِ لدِراسَةِ

74 "Candlesticks Fly, So French Call Exorcist," New York Times, October 22, 1998.

تلكَ الظاهرة. لكن، مَنْ سيُخاطرُ بسُمعَتِه فيذهبُ لتَحرّي مثلَ هذا الأمر؟ فإهمالُهُ أو اعتبارُهُ ظاهرةً غيرَ حقيقيَّة، وبالتالي غيرَ جديرةٍ للبحثِ العلميِّ، يكونُ أضمنَ لهم. لكنْ ماذا لو أنَّها ظواهرُ حقيقيَّة؟ أيَعْني ذلك أنَّ ما يقولُه الأبُ مكسيموس والذي تُعلِّمُه الكنيسةُ عن حقيقةِ الملائكةِ والشياطينِ مستندٌ إلى وقائعَ تجريبيَّة، وليسَ فقط إلى حصيلةِ تصويرٍ أسطوريٍّ للخيرِ والشرّ؟

* * *

سَألتُ الأبَ مكسيموس إنْ كانَ في إمكانِ 'قوى الشرّ' أن تأخذَ شكلًا مرئيًّا وتتجسَّدَ ضمنَ سياقِ تصوُّراتِنا الثقافيَّةِ المسبقةِ على أساسِ ما نتخيَّلُهُ موضوعيًّا عن شكلِ هذه القوى أو ماهيَّتِها.

أجابَ الأبُ مكسيموس: «صحيحٌ أنَّ المسيحيِّينَ الأوائلَ في أوروبَّا صوَّروا الشيطانَ كالسَّاطيرِ[٧٥] أسودَ اللونِ مع ذيلٍ وقرون، بينما صوَّرَهُ مسيحيُّو أفريقيا في إيقوناتِهم بالمواصفاتِ نفسِها إنَّما أبيضَ البشرة، إلاَّ أنَّ الأمرَ ليسَ بهذه البساطة».

سألتُ: «لكنْ ألا تُوفِّرُ لنا ثقافتُنا الصورةَ، أو إنْ شئتَ المواصفات، التي بها نُدرِكُ عقليًّا تلكَ الطاقةَ أو القوَّةَ الشرِّيرة؟»

– «لكن يا كرياكوس، ليس لدى هذا الكيانِ صورةٌ ثابتةٌ مستقرَّة. يُغيِّرُ الشيطانُ صورتَهُ بشكلٍ مستمرٍّ لإخافتِنا وخداعِنا».

٧٥ السّاطير satyr: إله من آلهة الغابات عند الإغريق، له ذيل وأذُنَا فرَس، وكان يتميز بولعه الشديد بالقصف المعربد وبانغماسه بالملذّات.

ردُّ الأبِ مكسيموس ذكَّرَني بتجاربِ الربِّ يسوعَ في البرِّيَّةِ ومحاولاتِ الشيطانِ المتكرِّرةِ لتضليلِه. كذلك فكَّرتُ بلَجيئون (جحافل) الشياطينِ التي هاجمتِ 'الفيلسوفَ الهنديَّ غوتاما بوذا' لتُشتِّتَ أفكارَهُ بينما كانَ جالسًا تحتَ شجرةِ بوذي Bodhi [٧٦] التاريخيَّةِ مُستغرقًا في التأمُّلِ العميقِ سعيًا إلى التنوُّر. ولتوضيحِ وجهةِ نظري قلت: «ما قصدتُ قولَهُ هو أنَّ معتقداتِنا الثقافيَّةَ الخاصَّةَ تُحدِّدُ كيفيَّةَ ظهورِ الشيطانِ لنا».

- «حسنًا. لكنْ تذكَّرْ دائمًا أنَّ الشيطانَ، بالرغمِ منْ أنَّه لَيسَ شخصًا، إلَّا أنَّه كيانٌ حقيقيٌّ، وبِقَصدِ خداعِنا، لا يَبقى في صورةٍ مستقرَّةٍ ثابتة. عندما يظهرُ للبشرِ في صورةٍ مرئيَّة، يغيِّرُ مظهرَه باستمرار، فليسَ له شكلٌ دائم. هذه إحدى العلاماتِ التي نستعينُ بها للتمييزِ بينَ ما إذا كانتِ الرؤيا التي نشاهدُها هي من اللّه أو من الشرِّير. فالأشياءُ التي مِنَ اللّهِ لا تَتغيَّرُ في الشكلِ أو المظهرِ بقصدِ إخافتِنا وإرباكِنا. عندما يظهرُ لكَ قدِّيسٌ، على سبيلِ المثالِ، أو السيِّدةُ العذراءُ مريم، أو السيِّدُ المسيحُ يَبْقى شكلُهم ثابتًا وهم حاضرونَ أمامَكَ فيما يُعرِّفُونَ عن أنفسِهم. أتذكُرُ كيفَ أمضى الشيخُ پاييسيوس ثماني ساعاتٍ يتحدَّثُ مع القدِّيسةِ إيفيميَّة؟ لم تُغيِّرْ مظهرَها أبدًا أثناءَ وجودِها معَه. بينما يتغيَّرُ الشيطانُ في ظهورِه من شكلٍ إلى آخرَ ولا يستقرُّ على صورةٍ واحدةٍ أبدًا، لأنَّ هدفَه هو تشويشُنا وخداعُنا».

---

٧٦ وفقًا للتقليد البوذيّ، شجرة بودي التاريخيّة - والتي هي نموذج ضخم بالحجم لنوع أشجار قديم جدًّا يُعرف بإسم التين المقدّس Ficus religiosa والمعروف كذلك بإسم بيبول (Pipul, Peepal)، أو أشّجار Ashwattha، التي يقدّسها الهندوس، واليانيّون (دين هنديّ نشأ في القرن السادس)، والبوذيّون - جلس تحتّها بوذا قبل حوالي ٢٥٠٠ عامًا واستغرقَ في التأمّل العميق المفضي إلى التنوّر.

ولإيضاحٍ أكثرَ حولَ هذه النقطةِ، روى لنا الأبُ مكسيموس قصَّةَ شابٍّ شاهدَ رؤًى عديدةً للسيِّدِ المسيح. إلاَّ أنَّه، مِنْ بعدِ إستشارةٍ روحيَّة، تبيَّنَ لاحقًا أنَّ 'المسيحَ' الذي كانَ يتواصَلُ معَهُ هو في الحقيقةِ روحٌ شرّيرٌ متنكِّرٌ بهيئةِ المسيح، مسبِّبًا له الكثيرَ من الإرباكِ والحزن.

من ثمَّ سألتُه، إنْ كانَ الشيطانُ بهذا القدرِ من الدهاءِ أيغفَلُ عليه أنَّ تغيُّرَه المستمرَّ يفضحُه ويكشفُ أمرَه؟ ألا يمكنُه الإبقاءُ على شكلٍ واحدٍ ليزيدَ من فعاليَّةِ تضليلِه لنا؟ أومأَ الأبُ مكسيموس برأسِه موافقًا لكنَّهُ تابعَ فقالَ إنَّ هدفَ الشيطان، أوَّلًا وأخيرًا، هو تشويشُ أفكارِنا بكلِّ ما أوتيَ. لذلك نحنُ في حاجةٍ إلى مرشدٍ روحيٍّ ليُساعدَنا في تخطِّي مثلِ هذه الصعوبات. على أيَّةِ حال، استنادًا إلى خبرةِ الأبِ مكسيموس الخاصَّةِ وبحسبِ ما تَعلَّمَه مِنَ الشيوخ، فالشيطانُ يحاولُ أن يغيِّرَ دائمًا في مظهرِه لتضليلِنا.

***

وما إنْ أنهى الأبُ مكسيموس كلامَه، حتَّى دخلَ أحدُ الرهبانِ الغرفةَ حيثُ كنَّا مجتمعين. تقدَّمَ الراهبُ نحوَ الأبِ مكسيموس، ضربَ له مطَّانيَّة، وأعلَمَهُ بوصولِ المهندسِ المُشرفِ على بعضِ الإصلاحاتِ المُصمَّمةِ عندَ مدخلِ الدير، وأنَّهُ ينتظرُه في غرفةِ الإستقبالِ في بيتِ الضيافة.

قالَ الأبُ مكسيموس بنبرةٍ، أوحتْ بأنَّه تمنَّى لو لم ينتهِ حديثُنا: «أَعلِمْه، من فضلِك، أنَّني سأُوافيه بعدَ قليل».

سألَ استِفانوس: «أبانا مكسيموس، أهنالِك، برأيِكَ، أماكنُ معيَّنةٌ

مشحونةٌ بطاقاتِ الشرّ؟»

- «بالتأكيد. أدركتُ هذه الحقيقةَ بعدَ شهرَين من رسامتِي». توقّفَ الأبُ مكسيموس بضعَ ثوانٍ، ثمَّ تابعَ قائلًا: «كُنْتُ في الثالثةِ والعشرينَ من العمرِ حينَ تركتُ الجبلَ المقدَّسَ لفترةٍ وجيزةٍ مؤقّتةٍ وذهبتُ إلى تسالونيكي. في تلكَ الفترةِ من عمري، كنتُ أمشي كثيرًا، بخطواتٍ سريعةٍ منتظمة، فيما أتلو الصلاةَ القلبيّة. أركّزُ نظري على الأرصفةِ والممرّات، وعلى أقدامِ المشاةِ الآخرين، فلا أَضطرُّ لقطعِ صلاتيَ القلبيّة.

في أحدِ الأيّام، توقّفتُ مجبَرًا عندَ إشارةِ سيرِ المشاةِ الحمراء. وما إنِ اقتربتُ من ذاك التقاطع، في انتظارِ تغييرِ لونِ الإشارة، حتّى شعرتُ بطاقةٍ غيرِ عاديّة، طاقةٍ شيطانيّة، تغمرُني. لمْ أدركْ ما كانت عليه. ولكنْ ما إنْ استدرْتُ لاحظتُ أنّها تخرجُ من طابقٍ سفليٍّ كانَ سابقًا ملهًى ليليًّا. أصابَتْني القشعريرةُ التي عادةً تصيبُ مَن يكونُ حاضرًا في محيطٍ من هذا النوع. وكنتُ متأكّدًا أنَّ هجومَ طاقةِ الشرِّ هذه كان مصدرُه هذا الطابق».

قالَ استِفانوس مقترحًا: «رُبّما كانَ مكانًا لتعاطي المخدّراتِ وممارسةِ الدعارة».

- «رُبّما. فحيثُ تُرتكَبُ الخطايا، يُصبحُ محيطُ المكانِ مشحونًا بالقوى الشيطانيّة. وهذه القوى لها تأثيرٌ مباشرٌ وفعّالٌ على كلِّ روّادِ المكان. يجبُ، بل من المهمّ جدًّا، أنْ نعيَ ذلكَ ونتذكّرَه دائمًا».

وتابعَ الأبُ مكسيموس مُحذِّرًا: «لهذا تُزيِّنُ جدرانُ الكنائسِ بالإيقونات،

فمنْها تشعُّ قوى ملائكيَّةٌ فتؤثِّرُ علينا إيجابًا».

سألَ استِفانوس ثانيةً: «أبانا مكسيموس، أمِنَ الممكنِ أنْ يتحوَّلَ مكانٌ ما، من مكانٍ مشحونٍ بِطاقاتٍ سلبيَّةٍ إلى مكانٍ يشعُّ بِطاقاتٍ إيجابيَّةٍ؟»

– «بالطبع! ألمْ نعملْ ذلكَ على المركبِ الذي أقلَّنا إلى جزيرةِ بطمس Patmos[٧٧]؟». هنا كانَ الأبُ مكسيموس يشيرُ إلى رحلةِ الحجِّ في الصيفِ الماضي إلى تلكَ الجزيرةِ الإيجيَّةِ المشهورة. يُعرفُ أنَّ القدِّيسَ يوحنَّا الإنجيليَّ تلقَّى إعلانَ الربِّ عنْ آخرِ الأزمنةِ هناك ودوَّنَه في سفرِ الرؤيا. تمَّ استئجارُ المركبِ من قبرصَ في رحلةِ حجٍّ خاصَّةٍ إلى الجزيرةِ في سَفرٍ لثلاثةِ أيَّام، وعلى متنِه سبعمائةٍ منْ تلاميذِ الأبِ مكسيموس من بينِهم استِفانوس وإيراتو. وللأسف، صديقي استِفانوس، ذو البنيةِ الضعيفةِ، رأى 'رؤيا' صغيرةً على طريقتِه الخاصَّة: فطيلةَ الرحلةِ إلى بطمس، ذهابًا وإيابًا، عانى من دوارِ البحر.

– «ما إنِ انتهَينا من خدمةِ صلاةِ تقديسِ الماء، حتَّى تحوَّلتْ قاعةُ الرقصِ على المركبِ، حيثُ تُقامُ حفلاتُ الرقصِ والسكر، تحوَّلتْ تلكَ القاعةُ المدجَّجةُ بطاقاتٍ سلبيَّةٍ إلى 'الجبلِ المقدَّس'. وضعْنا في القاعةِ إيقوناتٍ للسيِّدِ المسيحِ والعذراءِ مريم، كنَّا قد جلبناها معَنا. أقمْنا مذبحًا، وبدأْنا خدمةَ القدَّاسِ الإلهيِّ. مباشرةً، تقدَّسَ ذاكَ المكانُ وتحوَّلَ من ملهًى ليليٍّ إلى كنيسةٍ مقدَّسة. وقد أحسَّ الكلُّ بذلك».

---

٧٧ هي جزيرة صغيرة تقع في بحر إيجة على بعد حوالي ٤٥ ميلًا من شواطئ آسيا الصغرى (تركيا الحديثة). كانت في أيّام الرومان منفى للمجرمين والمسيحيّين الرافضين عبادة الأوثان. وقد نُفيَ الرسول يوحنّا الحبيب بأمر الإمبراطور دومتيانوس إليها. وفيها شاهد رؤياه وسجّلَها في سفر الرؤيا آخرِ أسفار الكتاب المقدس. وثمَّةَ كهفٌ في الجزيرة يُقالُ إنّه مسكن الرسول أثناء نفيه.

قالَ استِفانوس بنبرةٍ آسِفة: «ما عدايَ».

سألتُ: «تلكَ الأماكنُ التي تقدَّستْ، أتحتفظُ بالطاقاتِ الملائكيّةِ؟ إذْ، في احتسابي، أنَّ إقامةَ الخِدَمِ المقدَّسةِ مرارًا في مكانٍ معيَّن، يزيدُ من تأثيرِ هذه الطاقاتِ الإيجابيَّة، كما هو الحالُ في الكنائسِ وأماكنِ العبادة».

وافقَ الأبُ مكسيموس: «نعم، بالضبط. هذا على وجهِ الخصوصِ هو حالُ الأمكنةِ المكرَّسةِ للربّ. تصبحُ هذه الأماكنُ معروفةً كنتيجةٍ للمعجزاتِ الشافيةِ التي تَحْدُثُ في ربوعِها. حتّى في تلكَ الأماكنِ حيثُ لم يَعُدْ للكنيسةِ وجودٌ فعليٌّ، يمكنُ أنْ يُحَسَّ بالتأثيرِ لسنَوات، وحتّى لعقودٍ لاحقة. هناكَ كثيرٌ من الأمثلةِ هنا في قبرص، حتّى في تركيّا. كما تعلم، أثناءَ الزمنِ البيزنطيِّ كانت آسيا الصغرى، 'تركيّا' اليومَ، مليئةً بالكنائسِ والأديرةِ المسيحيَّة. وكانت كبّادوكيا، مدينةُ القدّيسِ باسيليوسَ الكبيرِ والشيخِ باييسيوس، مشهورةً بصوامعِ نسّاكِها الملأى بالإيقوناتِ الجداريَّة، وبكهوفِها حيثُ أمضى القدّيسونَ سِني حياتِهم التي عاشوها على الأرض. وحتّى اليوم، يقولُ الأتراكُ المسلمونَ القاطنونَ في منطقةِ كبّادوكيا أنّهم شاهدوا ظواهرَ غيرَ اعتياديَّةٍ تحدثُ في المنطقة. في الحقيقة، قبلَ بضعِ سنواتٍ، زارَ شيخٌ من جبلِ آثوسَ مسقطَ رأسِه في كبّادوكيا. هناك، بحثَ الشيخُ عن المكانِ الذي قامتْ فيه كنيسةُ البلدةِ في الماضي. وللأسف، اكتشفَ أنّ الكنيسةَ، التي على اسمِ القدّيسِ يوحنّا المعمدان، قد هُدِمَت. فتَنهَّدَ الشيخُ وتمتمَ باليونانيّةِ: 'آه، أيُّها النبيُّ السابقُ الحبيبُ، رحلْنا من هنا ورحلتَ أنتَ معَنا'.

وكانَ برفقتِه أثناءَ تلكَ الزيارةِ لبلدتِه عددٌ من الأتراك. واحدٌ منهم كان مُلمًّا ببعضِ اليونانيّة، فعندَ سماعِه ما تمتمَه الشيخُ قالَ بحماسٍ: 'كلاًّ، هذا ليسَ صحيحًا. رحلتَ أنتَ، لكنْ بقيَ هو. ففي شهرِ آبَ من كلِّ سنةٍ[٧٨]، نسمعُ قرعَ أجراسٍ وتراتيلَ ونَشتمُّ رائحةَ بخورٍ تملأُ المكانَ بأسرِه'».

وأصرَّ الأبُ مكسيموس: «هذه الظواهرُ ليستْ تخيُّلاتٍ أو هلوسة. إنَّها حقيقة. حياةُ القدّيسينَ مملوءةٌ بمثلِ هذه الأحداثِ العجائبيَّة. وهذا يعني أنَّ الأماكنَ المادِّيَّةَ قد تُهدَمُ وتختفي، لكنَّ القوى الملائكيَّةَ لكنيسةٍ أو ديرٍ ما والتي تأخذُ شكلَ الملاكِ الحارسِ تبقى وتستمرُّ في المكان».

قاطعَه استِفانوس: «أبانا مكسيموس، أريدُ أنْ أطرحَ عليك سؤالًا، هلْ يبدأُ الشيطانُ في مهاجمتِكَ جسديًّا من بعدِ عجزِهِ وفشلِه المتكرِّرِ لتدميرِك روحيًّا؟ فأنا أستخلصُ من كلِّ ما سمعْتُ أنَّه، لكي يتمكَّنَ الشيطانُ من إيذائِكَ فعليًّا، يجبُ أنْ يُهاجمَكَ أوَّلًا روحيًّا. وفقطْ عندما يفشلُ على المستوى الروحيِّ، يبدأُ بمهاجمتِكَ وإيذائِكَ جسديًّا».

أجابَ الأبُ بنبرةِ تردُّدٍ واضحة: «نعم، هذا صحيح. معَ ذلك، علينا توخِّي أقصى درجاتِ الحذرِ في استنتاجاتِنا حولَ مثلِ هذه الظواهر. فرؤيةُ الشيطانِ أو الاشتراكُ في معركةٍ معَهُ لا يعني بالضرورةِ علامةَ فضيلة. قد تخدعُكَ تجربةٌ من هذا النوع. وقدْ تبدأُ بتخيُّلِ أنَّكَ على طريقِ القداسة، فتحاكي نفسَكَ وتقول، 'آ، بما أنَّ الشياطينَ هاجمتْني وصارعتْني، إذًا، لا بدَّ

٧٨ تعيِّدُ الكنيسةُ الأرثوذكسيةُ ذكرى قطعِ رأسِ القدّيسِ يوحنّا المعمدان في ٢٩ آب.

أنِّي بلغتُ إلى ارتقاءاتٍ روحيَّة". لكنَّ هذا ليس بالضرورةِ صحيحًا».

بالحقيقة، عانى الأبُ مكسيموس نفسُه من هجماتٍ مماثلة. فلقد أفضى إلى استِفانوس عن عراكٍ بينَه وبينَ الشيطانِ حدثَ في وقتٍ سابق، حاولَ قضمَ قطعةِ لحمٍ مِن ساقِه، وفرَّ تاركًا نُدُبًا دائمةً فيها. وفي حادثةٍ أُخرى، دفعَه الشيطانُ بقوَّةٍ عمْدًا من أعلى الدرجِ إلى أسفلِه. ويبدو أنَّ مثلَ هذه الحوادثِ والتجاربِ مع الشيطانِ شائعةٌ في دائرةِ رهبانِ آثوسَ ونسَّاكِه.

وتابعَ الأبُ مكسيموس: «والسَّحرةُ أيضًا، يعيشونَ تجاربَ مماثلة، مثلَ رؤيةِ الشياطين، ومصارعتِهم، وما إلى ذلك. فإنْ حثَّ أولئكَ السحرةُ الشياطينَ لإنجازِ بعضِ الأعمالِ لهم وفشلوا، ينقلبُ الشياطينُ على السحرةِ الذين استدعُوهم. فليسَت علامةَ فضيلةٍ أن تتعاركَ معَ الشياطين.

يجبُ ألاَّ نستخفَّ بمسألةِ الشيطان، فهي ليسَتْ أمرًا تافهًا يمكنُ صرفُ النظرِ عنه بسهولة. أنتَ لا تستطيعُ تفَهُّمَ الروحانيَّةِ الحقَّانيَّةِ ما لمْ تُدرِكْ طرائقَ الشيطان. وكما قُلتُ منذُ قليل، أكرِّرُ: هو ليسَ شرًّا مجرَّدًا فقط. الشيطانُ يَكْرهُ اللّه. شغَفُه الأوحدُ هو الدمار. وكلَّما ازدادَ عددُ أتباعِه من البشر، ازدادَ جحيمُه، ممَّا يجعلُ خلاصَه مستحيلًا عمليًّا».

سألَ استِفانوس: «أبانا مكسيموس، هل من المحتملِ أنْ يكرَه إنسانٌ اللّهَ كما يكرهُهُ الشيطان؟»

- «آ، نعم، بالتأكيد. لقدِ التقيْتُ وتعرَّفتُ شخصيًّا بمثلِ هؤلاءِ الأشخاص. صَدِّق أو لا تُصَدِّق، من بينهم شبابٌ يحبُّونَ الشيطانَ، بل وأكثرَ من ذلك

يشعرونَ بجذبٍ عشقيٍّ نحوَه، ويتعبَّدون له. ذاتَ يومٍ، زارني أحدُ زملائيَ الشبابِ من تسالونيكي، وهو، في الحقيقة، شابٌّ لطيفٌ للغاية، إلاّ أنّه كانَ من عابدي الشيطان، وسألَني: 'مَنِ الأقوى، اللّهُ أمِ الشيطان؟ مَنْ حاكِمُ هذا العالمِ وسيِّدُه؟ ليسَ اللّه، بالتأكيد!'

تَحدَّيتُه قائلًا: 'سأتلو لكَ بعضَ الصلواتِ ولنرَ تأثيرَها عليك'. بالحقيقة، تفاجأتُ عندما رأيتُه يخرُّ ساجدًا أمامي. ثمَّ بدأتُ أقرأُ عليه بعضَ الأفاشينِ والاستقساماتِ للقدّيسِ يوحنّا الذهبيِّ الفمِ لطردِ الأرواحِ الشرّيرة. وما إنْ شرَعْتُ في القراءة، حتّى بدأَ يتشنَّجُ بحِدَّة، ثمَّ هوى على الأرضِ مغمًى عليه وبدأَ يُرغي ويُزبِد. تملَّكَني الخوفُ حقًّا وارتجفتُ عندَ مشاهدتي ما يحصلُ أمامي إذْ مضَتْ سنواتٌ طويلةٌ مذْ قمتُ بذلك. رُحتُ أرتجفُ بالأكثرِ إلى حدّ أنّي لمْ أعدْ قادرًا على التركيزِ على القراءة. كانَ هناكَ ثلاثةُ أشخاصٍ آخرينَ حاضرينَ معي، أحدُهم طبيب. هذا حثَّني قائلًا: 'تابعْ يا أبتِ، تابعْ قراءتَك'».

قاطعتُ حديثَ الأبِ مكسيموس مقترحًا أنه ربّما كانَ الرجلُ مصابًا بداءِ الصرعِ وأصابتْه وقتذاك نوبة. لكنَّ الأبَ أكَّدَ على نحوٍ قاطعٍ أنّها لم تكنْ نوبةَ صرعٍ، بل حالةُ تملُّكٍ شيطانيٍّ.

ثمَّ تابعَ حديثَه قائلًا: «مِنْ بعدِ تلكَ التجربة، أقنعتُ هذا الزميلَ أنْ يأتيَ للاعترافِ ووضعتُ له قانونًا حتّى يتركَه الروحُ الشرّير. طلبتُ منه أنْ يرتّلَ كُلَّ ليلةٍ طروباريّةَ رئيسِ الملائكةِ ميخائيل، الذي له سلطانٌ على الشيطان والتي نقولُ فيها: 'حيث تمتدُّ نعمتُكَ، يا رئيسَ الملائكةِ ميخائيل، تبادُ قوّةُ

الشيطان...'

شفاءُ هذا الإنسانِ من سُكنى الشيطانِ فيه، لم يكنْ مهمّةً سهلةً، بل كانَ صِراعًا شاقًّا. علّمتُهُ أنْ يردّدَ صلاةَ اسمِ يسوعَ: 'ربّي يسوعُ المسيح، ابنَ اللّه، ارحمني أنا الخاطئ'. لكنَّ المسكينَ لمْ يقدرْ أنْ يذكرَ اسمَ المسيح. كانَ يغصُّ ويختنقُ ما إنْ يبدأُ بلفظِ 'ربّي' ويعجزُ عن المتابعة. فالشيطانُ المتملّكُ عليه كانَ يمنعُهُ من لفظِ اسمِ يسوعَ المسيح. واشتكى لي قائلًا: 'أبتِ، لا أستطيعُ المتابعة. أشعرُ وكأنّي أحترقُ'».

سألتُ: «ماذا حلَّ به؟»

- «إنّهُ بخيرٍ الآن. تعافى أخيرًا. هو الآنَ طالبٌ في جامعةِ أثينا».

قالَ استِفانوس بنبرةِ تأمُّل: «يبدو لي أنَّ هذا الشابَّ تورّطَ مع عابدي الشيطان».

- «بالطبع. مثلُ هذه المشاكلِ لا تَحْدثُ بغتةً من حيثُ لا ندري. فلقد أفضى لي هذا الشابُّ مرّةً قائلًا: 'يداخلُني شعورٌ جارفٌ أن أُمسِكَ كاهنًا بتحكُّمٍ فأقطعَ لسانَه وأقتلعَ عينيه'».

وتابعَ الأبُ مكسيموس ضاحكًا: «كانَ مهووسًا بهذه الرغبةِ الجارفةِ لتعذيبِ كاهنٍ ما وذبحِه».

اقترحتُ: «ربّما كثيرٌ من جرائمِ الرعبِ غيرِ القابلةِ لأيِّ تفسيرٍ منطقيٍّ والتي نطالعُها في صفحاتِ الجرائدِ يوميًا سببُها المباشرُ تجاربُ كهذه».

أجابَ الأبُ مكسيموس: «أجل. هذه هي حقيقةُ تلكَ الحوادث. أتَعلمون، كنتُ في طبعي شكّاكًا للغايةِ في مثلِ هذه القصص. ولكن، بدأتُ بتغييرِ رأيي بعدَ سماعي أثناءَ الاعترافِ تجاربَ أُناسٍ واقعينَ تحتَ وطأةِ قوى شيطانيّة. وكقاعدةٍ عامّة، واجَهوا مثلَ هذه المشاكلِ بسببِ تورُّطِهم بالسِّحْرِ الأسود».

سَألتُ: «أتسمعُ مِرارًا عن حالاتٍ مماثلة؟»

أجابَ الأبُ رافعًا أربعةً منْ أصابعِ يدِه اليمنى: «منذُ مجيئي إلى قبرص، تعاطيتُ مع أربعةِ حالاتٍ من هذا النوع. لا يمكنُكَ أنْ تتصوّرَ الأمورَ التي أطلعوني عليها! آخرُ شخصٍ تقدّمَ للاعترافِ من بينِ تلكَ الحالاتِ الأربعِ، أرسَلَه إليَّ الشيخُ باييسيوس قبلَ رقادِه بقليل. ذهبَ هذا الشخصُ إلى جبلِ آثوسَ طلَبًا للمساعدةِ بعدما انقلبَتْ عليه الأرواحُ التي كانَ يستدعيها للقيامِ بأعمالِ سحرٍ وشعوذة، وبدأَتْ بمهاجمتِه. كانَ صيتُه شائعًا في اليونانِ كـ'وسيطٍ' فعّالٍ مقتدر. ولقدْ تعلّمَ مهنتَه، بعدَ تورُّطِه في إحدى العباداتِ البرازيليّةِ وانغماسِه فيها.

بدأَ هذا الشابُّ حياتَهُ كبحّارٍ في أسطولِ السفنِ التجاريّةِ اليونانيّة. وفي إحدى رحلاتِهِ إلى البرازيل، إلتقى أُناسًا أدخلوهُ في دوائرِ عباداتِ السِّحرِ والشعوذة. وفي إحدى الليالي، مارسَ معهم رقصةً من رقصاتِهم التي يتخلّلُها الكثيرُ من الهياجِ والصخبِ فتسمّمَ كيانُه. بعد ذلك، مكثَ في البرازيل عِدّةَ سنَوات، تعلّمَ خلالَها فنونَ السِّحرِ الأسود، ثمّ عادَ إلى اليونانِ وراحَ يُزاوِلُ

مهنتَه الجديدةَ بنجاحٍ وتفوُّقٍ كبيرَين، في بلدةٍ قربَ تسالونيكي. كانَ يقرأُ كُلَّ ليلةٍ نصوصًا سِحريَّةً ويستدعي أرواحًا لتنفيذِ أعمالِ زبائنِه وطلباتِهم. لكنْ في أحدِ الأيّامِ، انقلبَ السِّحرُ على الساحرِ، إذْ فقَدَ السيطرةَ على الأرواحِ، التي هي شياطينُ في حقيقتِها، فانقلبَتْ ضدَّه. وبعدَ صراعٍ مريرٍ معَها، قرَّرَ يومًا أنْ يذهبَ إلى الكنيسةِ لتناولِ القربانِ المقدَّسِ دونَ أنْ يتقدَّمَ أوَّلًا ويعترفَ بتورُّطِه مع تلكَ الأرواحِ. وفي لحظةِ تناولِهِ القربانَ المقدَّسَ بَطَحَتْهُ أرضًا نوبةٌ عصبيَّةٌ تشنُّجيَّةٌ شديدةٌ، وبدأَ يُرغي ويزيدُ. من بعدِ هذه الحادثةِ، أرسلَه الشيخُ بايبسيوس، الذي كان يستعدُّ لرقادِهِ، إلى قبرص، أمَلًا في مساعدةِ هذا المسكين».

سألَ استِفانوس: «أبانا، هل في إمكانِ شخصٍ كهذا أنْ يستدعيَ شياطينَ فتساعدُهُ في شفاءِ الناس؟»

- «نعم، أحيانًا هذا ممكن. ليسَ من السهلِ دائمًا التمييزُ بينَ ما هو من اللّهِ وما هو من الشيطان. وكما كتبَ القدّيسُ بولس، إنَّ الشيطانَ كثيرًا ما يظهرُ بهيئةِ ملاكِ نور. وكما قُلتُ سابقًا، أحدُ خاصّيّاتِ الأرواحِ الشرّيرةِ هي قدراتُها المتعدّدةُ في الخداع. ولِكَوْنِها أرواحَ خداعٍ وتضليل، يمكنُها أنْ تُقلِّدَ عملَ النعمةِ الإلهيّة، ما يجعلُ تأثيرَها الخدّاعَ سريعًا وسهلًا، مُستقطبةً في شباكِها البسطاءَ وقليلي الخبرة».

أشرتُ هنا أنّه كانَ من الصعبِ جدًّا عليَّ شخصيًّا قَبولُ فكرةِ أنَّ رُوحًا شرّيرةً يمكنُ أنْ تُؤدّيَ ظواهرَ شفائيّةً حقيقيّة، نظرًا إلى أنَّ الشفاء، وفقًا

للتعريف، يجبُ أنْ يأتيَ من اللّه. أوضحَ الأبُ مكسيموس أنَّ هذه أسرارٌ أرفعُ من مستوى إدراكِنا البشريِّ وليسَ لنا أنْ نبحثَ فيها، وأنَّ كلَّ ما في السماءِ وما على الأرضِ تتحكَّمُ به العنايةُ الإلهيَّة. واللّه يسمحُ بأحداثٍ وتجاربَ كهذه لإعطائِنا دروسًا نَحتاجُها لنتعلَّم.

وتابعَ كلامَه: «لسوءِ الحظّ، في هذه الأزمنةِ المضطربةِ نرى الكثيرَ من الأمثلةِ لأُناسٍ سُذَّج، يخدعُهم آخرونَ جعَلوا ذواتِهم قدّيسينَ وصانعي عجائب. هؤلاءِ بمساعدةِ أرواحٍ شرِّيرة، يقومون بأعمالٍ تفوقُ مستوى الإدراكِ البشريِّ، تُخلِّفُ في نفوسِ السذَّجِ تأثيراتٍ قويَّة. والشيطانُ أيضًا قادرٌ على صنعِ المُعجزات. بعدَ ظهرِ أمس، جاءَ إلى الديرِ ثلاثةُ شبّانٍ منْ ليماسول مع شخص، اعتقدوا أنَّهُ قدّيسٌ حيٌّ. أحبَّ أولئكَ الشبّانُ الثلاثةُ أنْ يعرِّفوني بهذا الرجلِ القادمِ من بلدانِ أوروبّا الشرقيّةِ والذي، كما يزعمون، يَشفي الأمراضَ ويصنعُ العجائب. أدركتُ بالحدسِ أنّها حالةُ خداعٍ واحتيال، مع ذلك لم أقلْ شيئًا إلى أنِ التقيتُ به. بصراحة، لم يسبقْ لي أنْ رأيتُ شبيهًا لهذا القدّيسِ من قبلُ. السلاسلُ الذهبيَّةُ تلتفُّ حولَ مِعصمَيه، ويلبسُ الأقراط، ويتدلَّى من عنقِه العديدُ من القلادات، كلٌّ منها يحملُ رمزًا عباديًّا سِحريًّا مختلفًا، وما شابه. وأيضًا، كانَ الرجلُ يرتدي قميصًا أزرقَ لمّاعًا جدًّا، ليسامحْني الربُّ على ما أقول. تحدَّيتُ 'قداستَه'، وسألتُه: 'هل أنتَ صانعُ الآياتِ والعجائبِ الذي يعتبرُه الكثيرُ من الناسِ قدّيسًا؟'، أجابَ، 'نعم، أنا هو'.

ما صدمَني حقًّا، هو سهولةُ انخداعِ أولئكَ الشبابِ المتخرِّجينَ من جامعاتٍ أميركيّةٍ وانزلاقِهم في شباكِ دجّالٍ كهذا. وما إنْ بدأتُ في استِجْوابِهِ للتأكُّدِ

من قداستِه، بدَتْ علاماتُ التوتُّرِ والانزعاجِ على وجهِه، وتشنَّجَ. وعندما أشرتُ بأنَّ القدِّيسينَ لا يتصرَّفونَ هكذا، انزعجَ حقًّا وخرجَ من الغرفة». وأوضحَ الأبُ مكسيموس: «بالحقيقة، أبرزُ خصائصِ روحِ الخداعِ هي الأنانيَّةُ والكبرياءُ».

أشارَ استِفانوس: «القدِّيسونَ لا يَدْعونَ أنفسَهم قدِّيسينَ أبدًا».

- «لا يكُونونَ قدِّيسينَ إنْ فعلوا ذلك. لنقَارنْ تلكَ الحالةَ بسيرةِ القدِّيسِ سمعانَ العموديّ. عندما قرَّرَ ممارسةَ الحياةِ النسكيَّةِ صعدَ عمودًا وقضى أيَّامَه مبتعدًا عن الناسِ في الصلاة. وإذْ لم يكنْ هناك سابقةٌ لهذا الشكلِ النسكيِّ من قبلُ، تساءلَ الشيوخُ إنْ كانَ سلوكُهُ الغريبُ هذا هو من اللّٰه أمْ من الشيطان. فوجدوا أنفسَهم أمامَ معضلةٍ: إنْ كانَ هذا الشكلُ النسكيُّ الذي اتَّخذَه سمعانُ إلهامًا من اللّٰه، فأَنْ تأمُرَه بالنزولِ عن عمودِه يعني مَنْعَه من مواصلةِ جهادِهِ الروحيِّ في الوصولِ إلى اللّٰه. فاجتمَعوا للبتِّ فيما يفعلون. وللتأكُّدِ من تصرُّفِه، قرَّروا أنْ يذهبوا إلى سمعانَ لإثارتِهِ وحثِّهِ على النزول، متَّهمينَهُ أنَّهُ سقطَ في خداعِ شيطانٍ جعلَهُ يجلسُ كمجنونٍ فوقَ عمودٍ كأنَّهُ قدِّيس. وبناءً على ردَّةِ فعلِه، يقرِّرون. فذهبوا إليه واجتمعُوا حولَ قاعدةِ العمودِ وبدأوا يصرخونَ آمِرينَهُ بالنزول. على الفور، نزل، وعملَ مطَّانيَّةً لهم، طلبَ المسامحةَ والغفران. فلمَّا رأَوا تواضعَه، رجَوه أنْ يعودَ إلى عمودِه ويتابعَ جهادَه النسكيَّ. فقد تأكَّدوا أنَّ سلوكَه ليسَ بإيحاءٍ من روحِ الخداعِ والكذبِ بل من اللّٰه».

وكرَّر الأبُ مكسيموس وهو يُتْكِئُ ظهرَه على الكرسيِّ: «الخاصِّيَّةُ الأُولى للقداسةِ هي التواضع. المُتَبَجِّحونَ العاجزونَ عن قَبُولِ أيِّ نقدٍ شخصيٍّ، لا يُمكنُ أنْ يكُونوا قدِّيسين».

أشارَ استِفانوس: «القدِّيسُ الحقيقيُّ هو مَن يمتنعُ عن تزكيةِ ذاتِه، ويشكِّكُ في قداسةِ نفسِه».

- «تمامًا. مَنْ يعتبرُ نفسَه قدِّيسًا، هو متوهِّم. وهو واقعٌ تحتَ تأثيرِ روحِ الخداعِ لا روحِ الله. هذه إشارةٌ واضحةٌ يلزمُ أنْ نتذكَّرَها دائمًا. فمجرَّدُ السماحِ لذهننا بتقبُّلِ فكرِ اعتقادِ أنفسِنا قدِّيسين، دلالةٌ قاطعةٌ على أنَّنا متوهِّمون».

منْ ثمَّ عبَّرَ الأبُ مكسيموس عن تفاجئهِ حينَ عَلِمَ بعددِ الناسِ الذين سقطوا، في زمنِنا هذا، ضحايا لدجَّالينَ مثلَ هذا. وذكرَ أنَّ التطوُّرَ الأكثرَ إزعاجًا، هو أنَّ الكثيرينَ يعتبرونَهُ شخصيًّا (أيْ الأبَ مكسيموس) ساحرًا.

- «يأتونَ إلى الديرِ ليكتشِفوا إنْ كانَ أحدٌ قد صنَعَ تعويذةً بهدفِ إيذائِهم، أو لِمعرفةِ السببِ وراءَ هجرانِ حبيبٍ أو زوجٍ لهم، وما إلى ذلك. في بادئ الأمر، لم يكنْ واضحًا لي سببُ مجيئِهم إليَّ طلبًا للمساعدةِ في حَلِّ مشاكلَ كهذِه. لكن سرعانَ ما أدركتُ أنَّهم يعتبرونَني بمثابةِ ساحرٍ قادرٍ على فَكِّ التَّعْويذة».

وإذْ قالَ الأبُ مكسيموس ذلك، ضحكَ كعادتِه بخُفوت، هَازًّا رأسَه.

سَألتُه: «ماذا تقولُ لهم في مثلِ هذه الحالات؟»

- «برأيِكَ، ماذا يمكنُ أنْ أقولَ؟ كنتُ أقولُ لهم إنَّ حلَّ مشاكلِهم لا يأتي عن طريقِ السّحرِ وأنَّه يجبُ عليهم القيامُ بأعمالٍ روحيَّة. أقولُ لهم إنْ كانت معاناتُهم ومشاكلُهم هي معَ الأرواحِ الشرّيرةِ والأبالسة، فيمكنُهم اتّباعُ وصفةِ الكنيسةِ الطبّيَّةِ للشفاء، وهي: الاعتراف، والمشاركةُ في الأسرارِ المقدَّسة، والصوم، والعطاء، والصلاة، وكلُّ الجهاداتِ النسكيَّةِ بعامَّة. هذه هي العلاجاتُ الشفائيَّة».

قلتُ: «إذًا، هذه هي وصفتُك لهم لفكِّ التعويذات. لكن يبقى السؤال، هل تجاوبوا معَك؟»

- «بالكادِ، القليلُ منهم يستجيب. أمَّا غالبيَّةُ الناسِ فترغَبُ بعلاجٍ سريع. معظمُهم كسالى، لا رغبةَ لهم في استثمارِ أيِّ جهدٍ من ناحيتِهم. يفترضونَ أنَّه إذا تَلَوْتَ بعضَ النصوصِ السّحْريَّةِ على رؤوسِهم، ستختفي مشاكلُهم. لا حاجةَ بالنسبةِ إليهم لتَغييرِ مسلكِهم. لا حاجةَ لهم إلى الإلتزامِ بصلواتٍ وجهاداتٍ نسكيَّةٍ منتظمة. لكنْ، بالطبع، البعضُ يَتْبَعُ تعليماتِ الكنيسةِ العلاجيَّةَ ويلمسُ النتائج».

* * *

مرَّةً أُخرى، قطعَ حديثَنا قرعٌ على الباب، إذْ عادَ الراهبُ ليذكّرَ الأبَ مكسيموس أنَّ المهندسَ ما زالَ ينتظرُه في غرفةِ الإستقبال. إعتذرَ الأبُ مكسيموس وطلبَ مِنَّا الانتظارَ في الغرفةِ لأنَّ لقاءَه والمهندسَ لنْ يطولَ كثيرًا،

فالخرائطُ المطلوبةُ لبدءِ المشروعِ الجديدِ جاهزةٌ للتنفيذ. والمشروعُ يتضمَّنُ مكتبةً ومتحفًا لحفظِ القطعِ الفنِّيَّةِ النادرةِ الموجودةِ في الديرِ منذُ مئاتِ السنين. ولقدْ تبرَّعَ رجلُ أعمالٍ ومحسنٌ معروفٌ بكلفةِ المشروع، المقدَّرةِ بأكثرِ من مائتيْ ألفِ دولارٍ أميركيّ.

لَغَوْنا استِفانوس وأنا نصفَ ساعة. تمشَّيْنا خارجًا متمتِّعَين بأشعَّةِ الشمسِ في انتظارِ عودةِ الأبِ مكسيموس. وفورَ عودتِه، إلى المكتبِ تحوَّلَ حديثُنا إلى الملاكِ الحارس. وهو موضوعٌ جوهريٌّ آخرُ كموضوعِ الشياطينِ يقعُ في قلبِ الروحانيَّةِ الآثوسيَّةِ أيضًا.

* * *

– «وفقًا لمعتقدِنا الإيمانيّ، هناك أرواحٌ مرسلةٌ من الله لتنفِّذَ أعمالَه. وهذه الأرواحُ الصالحةُ ترافقُنا في هذا العالم، تحمينا وتساندُنا. إنَّها أرواحٌ مرشدة. ووفقَ الإعلانِ الإلهيّ المدوَّنِ في الكتابِ المقدَّس، كما أنَّ كلَّ إنسانٍ منَّا على الأرضِ له ملاكُهُ الحارسُ الخاصُّ به، كذلكَ كلُّ أمَّةٍ من أممِ الأرضِ لها ملاكُها الحارسُ أيضًا».

– «كلُّ أمَّة؟»

– «نعم، بالطبع. ففي العهدِ القديم، على سبيلِ المثال، أعلمَ اللهُ النبيَّ دانيال أنَّه كما أنَّ لإسرائيلَ ملاكًا حارسًا كذلكَ أمَّةُ فارسَ لها ملاكُها الحارسُ الخاصُّ بها[٧٩]. وليسَ فقط لكلِّ أمَّةٍ ملاكٌ حارسٌ، بل لكلِّ مدينة، لكلِّ بلدة،

---

٧٩ راجع الأصحاح العاشر من سفر دانيال النبيّ.

لكلِّ موضعٍ، وعلى وجهِ الخصوص، لكلِّ هيكلٍ مكرَّسٍ لعبادةِ اللّٰه».

قُلتُ للتأكُّد: «بهذا المعنى، ملخَّصُ قولِكَ أنَّه ليسَ من أمَّةٍ على وجهِ الأرضِ لا تحظى بعنايةِ اللّٰه».

- «إنْ لم يكنْ هذا واقعَ الحال، إذًا اللّٰهُ ليس هو اللّٰه».

وأشارَ استِفانوس: «إنَّ حقيقةَ الملائكةِ مؤكَّدةٌ أيضًا منذُ بدءِ المسيحيَّة، من خلالِ خبرةِ القدِّيسين».

ولمزيدٍ من التأكيد، قلتُ: «ومن خلالِ أُناسٍ عاديِّينَ أيضًا، ففي أميركا مثلًا، الناسُ مُفتنونَ بالملائكةِ واختباراتُ العديدِ من الناسِ معَهم تُتَداولُ بشغفٍ ولهفةٍ على صعيدٍ وطنيٍّ عامّ».

قالَ الأبُ مكسيموس، بنبرةِ التأكيدِ التي تميِّزُ حديثَهُ حينَ يتطرَّقُ إلى عمقِ الأمورِ الروحيَّة: «الملائكةُ مخلوقاتٌ كلِّيَّةُ الوجود[٨٠]. فالعديدُ من قدِّيسي الكنيسةِ وشيوخِها بلغوا مرتبةً روحيَّةً وتمكَّنوا لا أنْ يشعروا بحضورِ ملاكِهم الحارسِ وحسب، بلْ أنْ يُشاهدوهُ عِيانًا ويتحدَّثوا معَهُ أيضًا. لقد قرأتُ سيرةَ أحدِ القدِّيسينَ الذي اقتنى حميميَّةً مع ملاكِه الحارسِ إلى حدِّ أنَّه كانَ يفسحُ المجالَ لملاكِهِ ليتقدَّم في الدخولِ أوَّلًا قبلَهُ كلَّ مرَّةٍ يزورُ فيها أحدَ المنازل. لا أعلمُ إنْ سنحتِ الفرصةُ لأحدِكُما أنْ قرأَ سيرةَ حياةِ الأبِ يعقوب؟»

كلانا لمْ يكن قد سمعَ به من قبل.

---

٨٠ دائمةُ الوجودِ في كلِّ مكان وفي كلِّ الأوقات.

- «حسنًا، كانَ يعقوبُ كاهنًا متواضعًا من جزيرةِ آيفيا، تميَّزَ ببراءةِ الأطفالِ وبحديثِه العلنيِّ عن تجاربِه. ذاتَ يوم، فيما كانَ يخدمُ القدّاسَ الإلهيَّ، إنفتحتْ أعينُ نفسِه فرأى الهيكل، قُدْسَ الأقداسِ، مكتظًّا بالطغماتِ الملائكيّة. إلى حدٍّ جعلَ حركةَ تنقُّلِه داخلَ المكانِ صعبة. فطَلَبَ بلطفٍ منهم إفساحَ المجالِ له للتنقُّلِ داخلَ الهيكلِ لمتابعةِ القدّاسِ الإلهيّ».

ثمَّ تابعَ الأبُ مكسيموس كلامَه وروى لنا المزيدَ عن علاقةِ الملائكةِ بحياةِ هذا القدّيسِ المُعاصر. وأضافَ بأنَّه من الممكنِ للمسيحيّينَ الاعتيادُ على حضورِ الملائكة. واقترحَ أنّه من الحكمةِ والمفيدِ روحيًّا أنْ نتواصلَ بوعيٍ مع ملاكِنا الحارسِ عبرَ الصلاةِ والجهاد.

- «وأيضًا، في ساعةِ الموت، يكونُ الملائكةُ الحرسةُ معَنا، لمرافقةِ أرواحِنا عندَ خروجِها من الجسدِ المادّيّ. سيكونونَ معنا هناك، لمواساتِنا ودعمِنا في تلكَ الحالةِ الإنتقاليّةِ الصعبة، ومن ثمَّ لمساعدتِنا على التأقلمِ مع عالمِ الروحِ حيثُ تتوجّهُ أرواحُنا نحوَ الله. ففي تلكَ اللحظةِ، تعي الروحُ حالتَها الأبديَّة.

لذا، فالكنيسةُ التي أدركَتْ حقيقةَ الملائكةِ من خلال شهاداتِ القدّيسينَ وتعاليمِ الكتابِ المقدّس، أدخلتْ صلواتٍ خاصَّةً في صميمِ الخدمِ الليتورجيَّةِ لدعوةِ تلكَ الأرواحِ الملائكيَّةِ لمنفعةِ أرواحِنا. كما تلاحظونَ يرفعُ الكاهنُ بين الطلباتِ إلى اللهِ في القدّاسِ الإلهيّ، طلبةَ توسُّلٍ: 'ملاكَ سلامٍ مرشدًا أمينًا حافظًا لنفوسِنا وأجسادِنا الربَّ نسأل'».

تدخَّلتُ هنا مقاطعًا: «أفهمُ من كلامِك، بأنَّ استعدادَ ملاكِنا الحارسِ

وحضورَهُ لمساعدتِنا يستندُ إلى تجاوبِنا معَ حقيقةِ وجودِهِ في حياتِنا؟»

أجابَ الأب: «هذا تحصيلٌ حاصل، فثمَّةَ ملائكةٌ وهناك شياطين. تفعيلُ دورِها في حياتِنا يرتبطُ بمدى تعاونِنا. والأمرُ ذاتُه يصيرُ مع النعمة الإلهيَّة. فحين يُبدي الإنسانُ استعدادًا للتعاونِ مع الله، إذَّاك، يخترقُ الروحُ القدسُ قلبَهُ ويقدِّسُه. وبطريقةٍ مماثلة، حينَ يرفضُ الإنسانُ الله ويتعاونُ مع الشيطان، يصبحُ أداةً مسيَّرةً لهذا الأخيرِ وتخترقُ الطاقاتُ الشيطانيَّةُ قلبَه كالسُّمّ.

رُبَما لاحظتُما في خدمةِ المعموديَّةِ أنّنا، قبلَ التغطيس، نتلو كثيرًا من الصلواتِ على رأسِ المزمعِ أنْ يُعَمَّدَ في الماءِ المقدَّس. ويباركُ الكاهنُ بإشارةِ الصليبِ المزمعَ أنْ يُعَمَّدَ، ليصيرَ قادرًا على قهرِ القوّاتِ الشيطانيّة. ويطلبُ الكاهنُ ممَّنْ سيُعَمَّدُ- أو منْ عرّابه إنْ كان طفلًا- أنْ يجحدَ الشيطانَ وكلَّ أعمالِه ثلاثَ مرَّاتٍ وأنْ يبصقَ رمزيًّا على الشيطانِ ثلاثَ مرَّاتٍ أيضًا. ومن ثمَّ يعترفُ أنَّه من الآنَ فصاعدًا، سيتبعُ المسيحَ وتعاليمَ الكنيسة[٨١].

رسمُ الذاتِ بإشارةِ الصليبِ طقسٌ جوهريٌّ في سرِّ المعموديَّة. يجبُ أنْ تدرِكَا أنَّ إشارةَ الصليبِ هي بامتيازٍ أكثرُ الأسلحةِ الفعَّالةِ ضدَّ القوى الشيطانيَّة. أنا راهبٌ منذُ أكثرَ من عشرينَ عامًا ويمكنُ لي أنْ أشهدَ على ذلك. واستنادًا لخبرتي القصيرةِ نسبيًّا، كنتُ مِرارًا شاهدًا على قوَّةِ الصليبِ الرهيبة».

سَألتُ إنْ أمكنَه إخبارَنا عن حادثةٍ شهِدَ فيها لقوَّةِ علامةِ الصليب. فأجابَ أنَّ هناكَ الكثير، ولكنْ استحضرَتْه الحادثةُ التالية:

---

٨١ فالاعترافُ بالإيمان سابق لمعموديّةِ الماءِ والروح. «من آمن واعتمد يَخْلَص». (مرقس ١٦:١٦).

- «وقعتْ تلكَ الحادثةُ صباحَ يومِ أحدٍ في إحدى كنائسِ تسالونيكي. كنتُ في المدينةِ ذلكَ اليومِ لتنفيذِ بعضِ المهمَّاتِ لديرِنا ثمَّ أعودُ إلى الجبلِ المقدَّس. لم يكنْ أحدٌ يعرفُني في تلك الكنيسةِ ولكنْ شاءَت الصُّدفُ أنْ أقصدَها ذلكَ الأحد. كنتُ في الهيكلِ أساعدُ الكاهنَ ببعضِ الترتيباتِ حينَ سمعتُ ضجَّةً عاليةً في وسطِ الكنيسة. رأيتُ العديدَ منَ الناسِ متجمّعينَ حولَ امرأةٍ فقدَتِ السيطرةَ تمامًا على نفسِها وكأنَّها في حالةِ جنون. إذْ أخذَتْ تصرخُ بصوتٍ عالٍ جدًّا أقربَ إلى العويل، وما إنِ اقتربَ منها عدَّةُ أشخاصٍ للإمساكِ بها ومحاولةِ تهدئتِها، حتَّى اشتدَّتْ حدَّةُ عويلِها وصراخِها، رفسَتْهم وركلَتْهم بقوَّة، وبدأتْ تَرغي وتُزبِد. خرجتُ من الهيكلِ وتوجَّهتُ نحوَ الجمعِ لرؤيةِ ما يحدث. وقبلَ أنْ تقعْ عيناها عليَّ، ولم يكنْ أحدٌ يعرفُ من أنا، بدأتْ تنهالُ عليَّ بالشتائمِ والإهانات. ثمَّ على نحوٍ مفاجئٍ، تحوَّلَ العويلُ الخشنُ إلى صوتٍ طفوليٍّ ناعمٍ وبدأتْ بمُخَاطَبَتي بِاسْمِي».

سَألتُ: «كيف ذلك؟»

إبتسمَ الأبُ مكسيموس ابتسامةً عريضةً وقلَّدَ صوتَ الامرأةِ قال: «دَعتْني: 'ماكسيماكي[٨٢]، ماكسيماكي، تعالَ إليَّ يا صغيري....'. دَبَّ فيَّ الذعرُ، إذْ أدركْتُ أنَّني في مواجهةٍ مع قوَّةٍ شيطانيَّةٍ نافذةٍ استحوذَتْ على تلكَ المرأةِ المسكينة. من المستحيلِ أنْ تعرفَ اسمي لكنَّ الروحَ الشرّيرةَ الساكنةَ فيها هي التي تعرَّفتْ عليَّ ونادَتْني بِاسْمِي. على الفورِ، وقَبْلَ أن أدنوَ منها، وَضعتُ يَدِي تحتَ جبَّتي وسحبتُ الصليبَ الذي أحملُه معي دائمًا. كنتُ قدْ وضعتُ فيه

٨٢ تصغير اسم مكسيموس.

قطعةً صغيرةً من بقايا القدّيسِ أرسانيوس، ذخيرةً منحَها ليَ الشيخُ باييسوسُ لحفظي ومباركتي. ولحظةَ أمسكتُ الصليبَ، شرعَتِ المرأةُ بالصراخِ وقَذْفِ الإهاناتِ والشتائم. تملّكَتْها نوباتُ تشنُّجٍ واستمرَّتْ في الصراخِ قائلة: 'لا تَلمسْ هذا، لا تلمسْه، فأنتَ تُحرِقُني'. أبقَيْتُ يدي على الصليبِ واقتربتُ منها، فيما تمكَّنَ آخرونَ أنْ يُقيّدوا حركَتَها، وبَدأتُ أُصلّي. وسرعانَ ما هدأتِ المرأةُ المسكينةُ وشيئًا فشيئًا، عادتْ إلى صوابِها. نَظَرَتْ من حولِها مُحْرَجة، وتوجَّهَتْ إليَّ مُعتذرة. لم تكنْ على درايةٍ بما حلَّ بها خلالَ الدقائقِ الماضيةِ ولم تتذكَّرْ أيَّةَ كلمةٍ ممَّا تلفَّظتْ به».

سألَ استِفانوس بنبرةٍ فضوليَّة: «هَلْ شُفيَت؟»

- «أثناءَ تلكَ الحادثة، غادرتْها الروحُ النجسةُ بسببِ احتراقِها بقوّةِ الصليب، وشعرَتْ بالراحةِ التامَّة. ولكنْ، في حالاتٍ مماثلة، ليسَ من السَّهلِ إقْناعُ الروحِ الشرِّيرةِ بتَرْكِ ضحيَّتِها نهائيًا. فلقدْ تَطلَّبَ ذلك جهدًا كبيرًا إلى أنْ تخلَّصتْ تلكَ المرأةُ نهائيًا من سكنى قوى الشرِّير فيها. وما كانَ ممكنًا أَنْ تُشفى، دونَ قوّةِ الصليب».

اتّكأَ الأبُ مكسيموس على كرسيِّهِ وأضافَ: «لذا على المسيحيِّينَ أنْ يعُوا قوّةَ الصليبِ المقدّسِ الفائقةَ الطبيعةِ كرمزٍ للحمايةِ الروحيَّة. فلا شيءَ يقفُ في وجهِ صليبِ السيِّدِ المسيح. لقدِ اختبرتُ قوّةَ الصليبِ مرارًا. لا يُمْكِنُ أنْ يقاومَك أيُّ شيطانٍ وأنتَ حاملٌ الصليبَ المقدَّسَ وتذكرُ إسمَ الربِّ يسوعَ المسيح. إذّاك، قوّةُ الشياطينِ تُباد. لهذا يجبُ أنْ نتعلَّم كيفَ نرسمُ أنفسَنا

بعلامةِ الصليبِ بشكلٍ صحيحٍ، وألاّ نفعلَ ذلكَ آليًّا[٨٣]. عندما نعتادُ أن نرسُمَ إشارةَ الصليبِ قبلَ شروعِنا بأيِّ عملٍ، وفي كلِّ مناسبةٍ، نمتلئُ بطاقةٍ قويَّةٍ تقودُ خُطانا حافظةً ايّانا طولَ الطريقِ. بواسطةِ الصليبِ، تحرسُنا النعمةُ الإلهيَّةُ وتعضدُنا. هكذا نفسحُ المجالَ أمامَ ملائكةِ اللّٰه القدّيسينَ لإعانتِنا وتقديسِنا[٨٤]، فيَستحيلُ على الأرواحِ الشيطانيَّةِ أنْ تمسَّنا وتسبِّبَ لنا الأذى».

وبعدَ حديثٍ مُسهَبٍ حولَ قوّةِ الصليبِ في تقويضِ القوى الشيطانيَّةِ وطردِها، سَألتُ: «أبانا، بحسبِ التقليدِ الروحيِّ المسيحيِّ، منْ أينَ أتى الشيطان؟»

أجابَ الأبُ مكسيموس، بشواهدَ إنجيليَّةٍ وتفسيراتٍ لآباءِ الكنيسة، مفادُها أنَّ الشيطانَ هو ملاكٌ ساقط. «الكتابُ المقدَّسُ لا يكشفُ لنا بالضبطِ سرَّ خلقِ الملائكة، لا متى ولا كيف. يذكرُ فقط أنَّها وُجدَتْ قبلَ خلقِ العالم. فوَفقًا للكتاباتِ المقدَّسة، الملائكةُ هم مخلوقاتٌ روحيَّةٌ مرسلةٌ من اللّٰه لإعانةِ البشر. تُقسمُ المخلوقاتُ الملائكيَّةُ إلى عشرِ طغمات. أحدُ تلكَ المراتبِ الملائكيَّةِ المقدَّسةِ سقطَ وانفصلَ عن اللّٰه. كيف؟ لا نعلمُ بالضبط. ولكن بالاستنادِ إلى شهاداتِ بعضِ القدّيسينَ وبعضِ الاستخلاصاتِ من الكتبِ المقدَّسة، نستنتجُ أنَّ السقوطَ صارَ بسببِ الكبرياء. فالشيطانُ –قبلَ أنْ يصبحَ رئيسَ العالمِ السفليِّ– أرادَ أنْ يصبحَ اللّٰه من دونِ اللّٰه. وبفعلِه هذا، انسحبتْ

٨٣ حسبَ آباء الكنيسة، إنَّ الذي يرسم علامة الصليب في عجلة بلا اهتمام أو ترتيب، يُفرحُ الشياطين. أمّا الذي يفعل ذلك برويّة وثبات من رأسه إلى بطنه ثم من كتفه الأيمن إلى الأيسر، هذا تحلّ عليه قوة الصليب وتفرح به الملائكة.

٨٤ الصليب هو قوة المسيح للخلاص والملائكة يخضعون لقوته ويتبعونه حيثما شاهدوا رسمه ليعينوا الملتجىء إليه. ولا تحصل تخلية لمن حمل الصليب إلا للذي ضعفَ إيمانُه فيه. (القدّيس أثناسيوس).

منه النعمةُ الإلهيَّةُ كلِّيًا. فيما بقيَتِ الطغماتُ التسعُ الأُخرى مُخلِصةً للخالقِ ومنها: الشاروفيم والسارافيم، والعروش ورؤساء الملائكة...».

ثمَّ أشارَ الأبُ مكسيموس أنَّه وَفقًا للتقليدِ المقدَّس، احتلَّتِ الرهبنةُ المرتبةَ العاشرة، التي فرغَتْ بسقوطِ الشيطان. لذا تدعو الكنيسةُ الرهبنةَ الرتبةَ الملائكيَّة. وحينَ يترهَّبُ شخصٌ ما، يُقال إنَّهُ تطوَّعَ في السلكِ الملائكيِّ الرهبانيّ. ثمَّ أوضحَ أنَّه في الواقع، مَنْ بلغَ مرحلةَ نموٍّ روحيٍّ عاليةً مِنَ الرهبانِ والراهباتِ هو فقط يُعتبَرُ منتميًا إلى السلكِ الملائكيّ. فالثوبُ الرهبانيُّ كزِيٍّ غيرُ كافٍ».

سألتُ: «هل يمكنُ لملاكٍ سَاقِطٍ أنْ يتوبَ ويعودَ إلى حضنِ اللّٰه؟»

- «لسوءِ الحظّ، يبدو ذلك مُستبعَدًا جدًّا. لا لأنَّ اللّٰهَ لا يشاءُ عودةَ أولئكَ الملائكةِ بلْ لأنَّهم أنفسَهم لا يرغبونَ في ذلك. يبدو أنَّهم بلغوا مرحلةً لا عودةَ منها، إذا جازَ القول. أبغَضوا اللّٰه حتَّى إنَّهم فَقَدوا الطاقةَ اللازمةَ والزخمَ الكافي لرحلةِ العودةِ إلى اللّٰه. هذا هو جوهرُ الجحيم. يبدو أنَّه بسقوطِ الإنسانيَّةِ ترسَّختْ حالتُهم».

فتَحْتُ الموضوعَ مرَّةً أُخرى، وسألتُ: «تتكلَّمُ على الشياطينِ كما لو أنَّهم أشخاص. لكن أَهُمْ حقًّا كذلك؟»

- «كما سبقَ وذكرتُ منذُ قليل، الشياطينُ ليسوا فقط شرًّا مجرَّدًا. هم كياناتٌ قائمةٌ بذاتِها غيرُ مادّيَّةٍ حرَّةٌ في ذاتِها لكنَّها ليستْ أشخاصًا. لهذا لا يَجِبُ أبَدًا أنْ نُفكِّرَ أنَّ هذا الإنسانَ شيطان، أو ندعوَه كذلك. فإنْ تعرَّضْنا

لِأذى أو عدائيَّةِ إنسانٍ ما، يجبُ ألاَّ ندعوَه شيطانًا بل نتذكَّرُ دائمًا أنَّه مخلوقٌ على صورةِ اللّٰه. الناسُ هم إخوتُنا وأخواتُنا، وعداوتُهم نحوَنا قدْ تكونُ بسببِ قوى شرِّيرة. لكن، علينا أن نَفْصِلَ بينَ الشخصِ وتلكَ القوى النجسة».

* * *

كعادتِه المميَّزة، روى لنا الأبُ مكسيموس قصَّةً من سيرةِ حياةِ آفا ثاوذورس، وهو أحدُ آباءِ البرِّيَّةِ، ليضفيَ المزيدَ من الوضوحِ حولَ هذا الموضوع: «جاءَ يومًا أحدُ تلاميذِ آفا ثاوذورس يشتكي له راهبَين آخرَينِ تعدَّيا عليه بكلامٍ مُهين. ولقد أبدى هذا الراهبُ صبرًا كبيرًا ولمْ يَردَّ على هذه الاستفزازات. موقفُ الراهبِ التلميذِ أثارَ إعجابَ آفا ثاوذورس، فطلبَ منه أنْ يوضحَ له كيفَ استطاعَ أن يبقى هادئًا رغمَ المضايقاتِ والإهانات. فأجابَ الراهبُ: 'وهلْ أُعطي اهتمامًا لأولئك الحيوانات؟'. وما إنْ سمعَ آفا ثاوذورس ذلك، قامَ على الفورِ إلى قلاَّيتِه وذرفَ دموعًا مريرةً لسقوطِ الراهبِ سقوطًا روحيًّا. فهو يبدو من الخارجِ تقيًّا متحلِّيًا بالصبرِ والتواضعِ فيما قلبُه مفسودٌ بالكلِّيَّة».

وكَردَّةِ فعلٍ على ما سمعتُ سألتُ: «لكن، أمَا كانَ شعورُ الراهبِ طبيعيًّا؟»

– «لا عُذرَ ولا مبرِّرَ لمثلِ هذه الأفكارِ لا للرهبان، ولا لأيِّ شخصٍ آخر. يجِبُ أنْ نَرى إخوتَنا في الإنسانيَّةِ صورةً للّٰه، لا شيءَ آخرَ عدا ذلك. يُتَوقَّعُ من الرهبانِ رؤيةُ وجهِ المسيحِ في كلِّ شخصٍ يلتقونَ به. يَجِبُ ألاَّ نرى أبدًا بني البشرِ كشياطين، كحميرٍ، ككلابٍ، أو أيِّ شيءٍ آخر، بغضِّ النظرِ عن سلوكِهم

نحوَنا أو مقدارِ الأذى الذي تكبَّدْناه بسببِهم. لهذا السبب، اعتادَ الرهبانُ أنْ يُقبِّلُوا يَدَ بعضِهم البعضِ حين يلتقون. فهذا طقسٌ يذكِّرُنا دائمًا أنَّ الشخصَ الماثلَ أمامَنا هو اللهُ بذاته».

قلتُ متمتِمًا: «من الصعبِ عليَّ أنْ أُحافظَ على هدوئي إذا ما تعرَّضتُ لموقفٍ مماثل. كيفَ يجبُ أن تكونَ ردَّةُ فعلِ المرءِ إثرَ موقفٍ كهذا؟»

- «يقدِّمُ لنا القدِّيسُ سِلوان[٨٥] السلوكَ الروحيَّ الأكثرَ أمانةً. يُعلِّمُنا: عندما يلعنُكَ أحدُهم، قُلْ في نفسِك ما يلي: 'إنِّي المسؤولُ عن ردَّةِ الفعلِ هذه، جَلبتُها على نفسي، أنا هو المستحقُّ هذه اللعنة'. تعرفانِ أنَّ هذا الفكرَ، يُسبِّبُ سلامًا داخليًا وفيرًا. ويقولُ القدِّيسُ إسحقُ السريانيُّ إنَّ مَن يحفظُ ذهنَه والفكرَ في حالةٍ كهذه، يمكنُه أنْ يتعاملَ مع أسْوَإ أعدائِه بسهولةٍ[٨٦]. هذا حقيقيٌّ وعليكَ أنْ تختبرَه بنفسِكَ».

سألتُ: «ألا يمكنُ أنْ يُفسَّرَ هذا السلوكُ كحالةٍ مَرَضيَّةٍ؟»

- «يكونُ كذلك إنْ لم يكنْ نابعًا من إقتناعٍ حقيقيٍّ، لأنَّكَ لم تبلغْ بعدُ حالةَ الإدراكِ وإنكارِ الذَّات. لكن، إنْ كنتَ صادقًا، فهذه علامةٌ حقَّةٌ لصحَّةِ حالتِك الروحيَّة. هذا الفكرُ الإيجابيُّ يُسلِّحُ الفردَ بقوى روحيَّةٍ خارقة. إنْ شعرْتَ بعدمِ الإرتياحِ والقلقِ في حضورِ بعضِ الناس، هذا، في الحقيقةِ، علامةٌ

٨٥ الأرشمندريت صفرونيوس (سخاروف): القدّيس سلوان الآثوسيّ. نقلته إلى العربية الأمّ مريم (زكّا). منشورات التراث الآبائي. طبعة ثانية ١٩٩٩.

٨٦ القدّيس إسحق السريانيّ: نسكيّات. نقله إلى العربيّة الأبُ إسحق عطاالله الآثوسيّ. منشورات النور ١٩٩٠.

واضحةٌ لضعفِ حالِكَ الروحيّ. علينا أنْ نكرِّرَ لأنفسِنا أنَّ المشكلةَ تكمنُ فينا، لا في الآخرين».

سألتُ، غيرَ متوقِّعٍ جوابًا: «لكن مَنْ منَّا كاملٌ؟»

- «مَنْ اكتسبَ الكمالَ هو الشخصُ الذي جعلَ في قلبِه مكانًا للجميع. يُعلِّمُنا القدّيسُ إسحقُ السريانيُّ أنَّ الحبَّ الكاملَ الحقيقيَّ يظهرُ في الشخصِ الذي يُصلِّي حتَّى من أجلِ الشياطينِ ويذرفُ الدموعَ متفكِّرًا أنَّهم كائناتٌ سقطتْ وانفصلتْ عن الله. أَهناكَ شرٌّ أعظمُ ممَّا تُسبِّبُه الشياطين؟ مستحيل. مع ذلك، أحبَّ الشيوخُ العظماءُ حتَّى الأبالسة، لا لأنَّها كائناتٌ شرِّيرةٌ بل كائناتٌ معذَّبةٌ متألِّمة».

وتابعَ الأبُ مكسيموس حديثَهُ معَنا بمزيدٍ من الملاحظاتِ على عملِ الشياطينِ في العالمِ المخلوق: «لدى الأبالسةِ سلطةُ التصرُّفِ بحرِّيَّةٍ ضمنَ العالمِ المادِّيِّ المخلوق. ولكنَّ حرِّيَّتَهم للتأثيرِ فينا لا تعتمدُ إلَّا على مدى سماحِنا لهم. فليسَ لديهم السلطانُ المطلقُ لفعلِ كلِّ ما يرغبونَ فيه. الويلُ لنا إنْ كانَ الأمرُ كذلك، لَمَا كنَّا بعدُ موجودين. يُمكنُ للسحرةِ أنْ يتحدَّثوا مع الشياطين، ويستخدموا قوَاهم الشرِّيرة. يُمكن أن يَجلبَ الساحرُ أيَّ غرضٍ مادِّيٍّ، ومن خلالِ القوى الشيطانيَّةِ، يشحنُهُ بطاقاتِهم. بطريقةٍ مماثلة، إنَّما من الاتِّجاهِ المعاكسِ تمامًا، يمكنُ لأيِّ كاهنٍ أنْ يأتيَ بكوبِ ماءٍ وبتلاوةِ بعضِ الصلواتِ الكنسيَّة، يقدِّسُ الماءَ ويشحنُهُ بقوى الروحِ القدس. من ثمَّ يمكنُ أنْ نستَعمِلَ ذلك الماءَ لتَقديسِ بيوتِنا. الرموزُ لها قوَّةٌ هائلةٌ لا يدرِكُها عادةً العلمانيُّون.

وهذا أيضًا هو سببُ منحِ الصليبِ لنا حمايةً فعَّالةً ضدَّ القوى الشيطانيَّة».

لتَوضيحِ هذه النقطةِ، راحَ الأبُ مكسيموس بطريقتِهِ المعتادةِ يروي لنا حادثةً أُخرى من حياةِ الشيخِ پاييسيوس. جاءَ يومًا، لزيارةِ هذا الأخير، رجلٌ ذاعَ صيتُه لامتِلاكِه قدراتٍ خارقةً للطبيعة، تعلَّمَها بعضويَّتِه في إحدى جماعاتِ السِّحر. أثناءَ الزيارة، قامَ بعرضِ قوَّتِه فأخذَ حجرًا بحجمِ قبضةِ اليدِ وحوَّلَهُ إلى غبارٍ باستخدامِ قوَّةِ التركيزِ فقط. وتمكَّنَ من فعلِ ذلكَ باستِدْعاءِ الأرواحِ الشيطانيَّة. بعدَ مشاهدةِ هذا العملِ الفذّ، أمسكَ الشيخُ پاييسيوس حفنةً من الترابِ في قبضةِ يدِهِ وأشبعَها بلعابِه ومزجَها بشكلِ كرةٍ بحجمِ قبضتِه. ثمَّ ختمَها بعلامةِ الصليبِ وطلبَ من الساحرِ متحدِّيًا ايَّاه أنْ يُعيدَ ما فَعل. بحسبِ ما روى الأبُ مكسيموس، الذي صادفَ وجودُه في ذلك اليوم، لم يتمكَّنِ الساحرُ من إعادةِ عملِه السحريِّ الفذّ. فقَدْ شُلَّتْ قِواه وتبدَّدتْ أمامَ قوَّةِ الصليب.

لازَمَ الأبُ مكسيموس الصمتَ لبِضْعِ دقائقَ متفكِّرًا، لكي يمنحَنا الوقتَ لتأمُّلٍ سريعٍ في كلِّ ما سمعناه وتحادَثْنا فيه. من ثمَّ، بنبرةٍ فيها بعضَ التردُّدِ قال: «أعرفُ أنَّ كلَّ ما بحثْنا فيه اليومَ خياليٌّ جدًّا من المنظارِ العقلانيِّ المتفشّي في هذه الأيَّام، ولا يستوعبُهُ العقلُ -لأنَّ إنسانَ اليومِ يستخفُّ ويشكُّ بكلِّ ما ليسَ يقينيًّا. رغمَ ذلك، نجدُ هذه الحقائقَ الفائقةَ المنطقَ والطبيعة، مؤكَّدةً في حياةِ القدِّيسينَ وشهاداتِهم المختبَرة[٨٧] منذُ بدءِ التاريخِ المسيحيِّ إلى اليوم. وتُكشفُ أيضًا لكلِّ منْ يبحثُ بجِدٍّ عن الله».

٨٧ وخبرةُ القدّيسينَ صحيحةٌ دائمًا لأنَّ الله ذاته صادقٌ بالنسبة إلى ذاته في قدّيسيه. (القدّيس نيقولاوس فيليميروفِتش، الذهبيّ الفم الصربيّ).

الفصل ٩

دخلاء غير منظورين

كان الأبُ مكسيموس جالسًا في صدرِ المائدةِ في غرفةِ الطعام، ولمّا لاحظَ أنَّ آخرَ المستمرّينَ في الأكلِ إبتلعَ لُقمتَه الأخيرة، أخذَ ملعقةً ودقَّ بها بلطفٍ على كوبٍ زجاجيٍّ فارغ، إشارةً إلى انتهاءِ وجبةِ الطعامِ المسائيّة. على الفور، وقفَ الرهبانُ والحجّاجُ بينما نزلَ الراهبُ المكلَّفُ بالقراءةِ في ذلك اليومِ عن المنصّةِ وتوجّهَ نحوَ الرئيس. وفقًا للتقليدِ الآثوسيّ، أثناءَ وجباتِ الطعام، يقرأُ أحدُ الرهبانِ نصًّا روحيًّا من سيرةِ أحدِ القدّيسينَ فيما الكلُّ يأكلُ بصمتٍ وإصغاء.

انحنى القارئُ، وهو راهبٌ مبتدِئٌ، أمامَ شيخِه الروحيّ، فباركَهُ الأخيرُ برسمِ إشارةِ الصليبِ على رأسِه. ثمَّ أخذَ الأبُ مكسيموس قطعةَ خبزٍ وباركَها بعلامةِ الصليبِ وناولَها للقارئ، فأخذَها هذا الأخيرُ وقبّلَها ثمَّ قبّلَ يدَ الرئيسِ وتوجّهَ وحدَهُ في صمتٍ نحوَ المطبخِ ليتناولَ وجبتَه. وفيما كانَ الجميعُ واقفينَ يرسمونَ إشارةَ الصليب، تَلا الأبُ مكسيموس صلاةَ شكرٍ قصيرةً بصوتٍ خافتٍ وبارَكَ فضلاتِ المائدة. ثمَّ خرجَ الأبُ إلى الممرِّ الخارجيِّ الطويلِ المُطلِّ على

باحةِ الدير. هناكَ اصطفَّ الرهبانُ ليأخذَ كلُّ واحدٍ بدورِه بركةَ الرئيس. وبانتهاء هذا الطقسِ الديريّ، مضى جميعُهم لإكمالِ مهامِهم لسيرِ العملِ في الشركةِ الديريَّة؛ على أنْ يجتمعوا بعدَ ساعةٍ من الزمنِ لصلاةِ النومِ وهي الخدمةُ الأخيرةُ في الدورةِ اليوميَّة. إذْ من بعدِ الصلاةِ ينسحبُ الراهبُ إلى قلاَّيتِه، وقبلَ النوم، يمارسُ تدريباتٍ روحيَّةً خاصَّةً به، سبقَ فحدَّدَها له الأبُ مكسيموس. كُلُّ شيءٍ حسنُ التنظيمِ ومستنِدٌ على تقليدٍ مؤسَّسٍ منذُ زمنٍ طويل. كان ملفِتًا مشاهدةُ أولئكَ الرهبانِ يَمضونَ في تلكَ الحلقةِ الديريَّةِ اليوميَّةِ دونَ أيِّ شكوى أو تذمُّر، إذا ما أخذْنا في الحسبانِ أنَّ كلَّ واحدٍ منهم، قبلَ أنْ يرتديَ ثيابَهُ الرهبانيَّةَ السوداءَ كانَ يعيشُ في العالم. فَهُم، يكرِّرونَ هذه الترتيباتِ الديريَّةَ يَومًا بعدَ يَوم، سنةً بعدَ سنة، دونَ أيِّ إشارةٍ ملل، دونَ إبداءِ أيِّ رغبةٍ لمغادرةِ الديرِ والعودةِ إلى الحياةِ في العالمِ الذي تركوه خلفَهم. جوابُ الأبِ مكسيموس بسيط: «لقد وجدوا من يبحثونَ عنه، اللهَ الساكنَ فينا. فلماذا يتركون؟»

* * *

وبعدَ أنْ نالَ آخرُ راهبٍ البركة، ناداني الأبُ مكسيموس: «تعالَ يا كيرياكوس، أُتركْ مهمَّةَ غسلِ الصحونِ لغيرِكَ من الإخوةِ ورافقْني في نزهة».

كنتُ قد تَطوَّعْتُ في ذلكَ الحينِ لمُسَاعَدَةِ الأبوَينِ نيقولاوس ونكتاريوس في المطبخ، لكنَّهما حَثَّاني لتَرْكِ كُلِّ شيءٍ لهما ومرافقةِ شيخِهما في نزهة. دخلَ الأبُ مكسيموس إلى مكتبِه لثوانٍ وجلبَ معَه عصَوَين طويلتَين للمشي،

فأعطاني واحدةً وانطلقنا. فقدِ اعتادَ الأبُ مكسيموس حملَ عصا للمشي في الجبالِ أثناءَ وجودِه في الجبلِ المقدّسِ حيثُ كانَ يقطعُ مسافاتٍ طويلةً في أماكنَ جبليّةٍ وعرة.

وإذِ اجتزْنا بابَ الديرِ الرئيسيّ، قالَ الأبُ مكسيموس متشكّيًا: «حقًّا، إنّي أَهوى المشي في الجبال. لكنْ، لسوءِ الحظّ، ليست لديَّ هنا في قبرصَ فرصٌ عديدةٌ لذلك. في جبلِ آثوس، كنتُ أسيرُ من ديرٍ إلى آخرَ لساعاتٍ وساعات. كانَ ذلكَ مصدرَ بهجةٍ لي. أمّا هنا فلديَّ الكثيرُ من المسؤوليّات. لذا، للأسف، المشيُ رفاهيّةٌ لا أستطيعُ ممارستَها. أُنظرْ كم أصبحتُ بدينًا». ثمّ أضافَ ضاحكًا أنَّ للبدانةِ فائدةً مؤكّدة.

فسألتُه متعجّبًا: «ماذا تقصد؟»

أجابَ الأبُ مكسيموس ممازِحًا: «لكي لا يظنَّ الناسُ أنّي ناسكٌ أو يتوهّموا أعظمَ من ذلك، أنّي قدّيس».

مَشينا في صمتٍ لِبضعِ دقائق، مستمتعَين بلمحاتِ نورِ الشمسِ الأخيرة، نستنشقُ هواءَ الجبلِ النظيف. كانَ عبيرُ عطرٍ رائعٍ يفوحُ من الأرضِ المبلّلةِ بسببِ هطولِ المطرِ عصرَ ذلكَ اليوم. قذفَتِ الرياحُ بآخِرِ السحبِ المتجمّعة، وبدأْنا نلاحظُ نورَ بعضِ النجومِ المرتجفَ فيما بدأَ الليلُ يُلقي ظلَّه. صعدْنا الجبلَ عبرَ ممرٍّ حرجيٍّ طويل، وانعطفْنا إلى الجهةِ المقابلةِ من الجبلِ حيثُ لمْ نعدْ نرى أضواءَ الديرِ القليلة. وتفاديًا لأيِّ ضلالٍ في ظلامِ الليل، لازَمْنا الطريقَ الرئيسيَّ في نزهتِنا.

وفيما كنّا نسيرُ وسطَ الطريق، سألتُ الأبَ مكسيموس: «أبانا، قبلَ أيام، تحدَّثتَ عن أمرٍ حيَّرَني».

- «وماذا قُلتُ؟»

- «قلتَ إنَّ الكنيسةَ هي ساحةٌ لمعركةٍ مستمرَّةٍ، لحربٍ مستمرَّةٍ، حربٍ روحيَّةٍ، كما أسميتَها. هذه لغةٌ عسكريَّة».

- «لماذا حيَّرَكَ هذا الكلام؟»

- «لأنَّهُ لطالما كان لِيَ الانطباعُ أنَّ الكنيسةَ هي ميناءٌ للسلامِ والشفاءِ، لا ساحةَ معارك».

- «بالطبع هي ميناءُ سلامٍ ومشفى. دعْني أُوضِّحْ لكَ الأمرَ كي لا ترتبِك. يَجِبُ أَنْ تُدركَ أنَّ الكنيسةَ هي أداةُ نقلٍ، فُلْكٌ لخلاصِنا. والسعيُ وراءَ الخلاصِ يقتضي ضمنًا صراعًا مع تلك القوى التي لا تكِلُّ لإعاقةِ ارتقائِنا نحوَ اللّه».

- «أَفترِضُ أنَّك تَعْني هنا القوى الشيطانيَّة».

- «وهل مِنْ قِوى غيرِها؟ علينا أنْ نتعلَّمَ كيفَ نقاتِلُ في هذه الحربِ الروحيَّةِ لكيْ نمنعَ تلكَ القوى العدوَّةَ من تخريبِ ارتقاءاتِنا نحو اللّه. هذا ما علَّمَنا إيّاهُ بولسُ الرسولُ وآخرونَ غيرَه من آباءِ الكنيسةِ وشيوخِها، وهو أنَّنا نَحتاجُ أَنْ نُصبحَ مُحاربينَ مختبَرينَ، في هذا الكفاحِ الروحيِّ القاسي».

خطا الأبُ مكسيموس بضعَ خُطَواتٍ ثمَّ أضافَ: «يلزمُ أنْ ندرِكَ مكائدَ

هذه القوى ومسالِكَها المضلِّلَة، لكي لا نقعَ في شباكِها فينتهيَ بنا الأمرُ ضحايا للشياطين».

استغرقَ الأبُ مكسيموس في التفكيرِ لثوانٍ، ثمّ بَدَا أنّهُ غيّرَ موضوعَ حديثِنا فقال: «الناسُ مشوَّشون. يعتقدونَ أنّ غايةَ وجودِنا هي أنْ نصبحَ أوّلًا، وقبلَ كلّ شيء، أُناسًا صالحينَ، أو بمعنًى آخرَ أُناسًا ذوي خُلقٍ، منضبطينَ اجتماعيًّا، وأنْ نتمتَّعَ بشخصيّةٍ متوازنة».

- «لطالما اعتقدتُ أنّ غايةَ الكنيسةِ هي أنْ يصبحَ البشرُ صالحينَ».

أجابَ الأبُ مكسيموس مؤكِّدًا: «لا، ليسَ هذا فقط. لا يقتصرُ وجودُ الكنيسةِ وغايتُها على فكرةٍ تَقَويّةٍ كهذه. هذا اعتقادٌ خاطئٌ وعواقبُهُ خطيرة. ما تُعلّمُهُ الكنيسةُ أوّلًا، هي الوسائلُ التي من خلالِها تبلغُ نفسُ الإنسانِ المسيحانيّةَ والقداسةَ والاتّحادَ بالله. فالغايةُ الأُولى هي أنْ يصيرَ الإنسانُ كاملًا كما أنّ الآبَ السماويَّ كاملٌ هو، وأنْ يصيرَ واحدًا والآب. فالمسيحُ لمْ يأتِ إلى العالم، ليُعلّمَنا كيفَ نُصبحُ أُناسًا صالحين في المجتمع، وكيفَ نتصرّفُ على نحوٍ موافق، أو ليُعلّمَنا كيفَ نعيشُ حياةً مستقيمةً في هذا العالمِ الدهريّ. كما أنّه لم يأتِ ليُسلّمَنا كتابًا نقرأُه، حتّى وإنْ لُقّبَ هذا الكتابُ، بالإنجيلِ أو العهدِ الجديد».

قلتُ متقصّيًا: «حَسنًا؟»، بينما وقفَ الأبُ مكسيموس بلا حراكٍ لبِضْعِ ثوانٍ ناظرًا إلى أعلى، نحوَ السماء، متأمّلًا في أنوارِ مجرّةِ دربِ التبّانة. بغيابِ القمرِ وانعدامِ أيِّ ضوءٍ اصطناعيٍّ في الجوار، كانَ الليلُ ساكنًا لا يُعكّرُ صفاءَهُ شيء.

بقيَ الأبُ مكسيموس صامتًا بضعَ دقائقَ وتابع: «جاءَ إلى العالمِ واهبًا نفسَه لنا. جاءَ ليُرينا طريقَ الخلاص. ألا تذكرُ قولَ القدّيسِ أثناسيوسَ الكبير: ’تأنّسَ اللّهُ ليتألّهَ الإنسان‘؟»

بِردّةِ فعلٍ سريعةٍ أجبتُ: «أجل، أجل، أَعْرفُ ذلك. فهوَ شعارُ الروحانيّةِ الأرثوذكسيّةِ الشرقيّة. تجسّدَ المسيحُ ليريَنا السبيلَ نحوَ اللّهِ في حينِ أنّ الشيطانَ هو القوّةُ التي تحاولُ دائمًا منعَنا من بلوغِ مقصدِنا. ولكنْ، يبقى السؤالُ المطروح: كيفَ يصيرُ ذلك؟ ما هي طرائقُ الشيطانِ ووسائلُه؟»

أجابَ الأبُ: «عبرَ ما يدعوه الآباءُ ’اللوييزموس logismos‘».

– «أتَعْني الأفكار؟»

– «الأفكار logismoi، عندَ آباءِ كنيستِنا القدّيسينَ ليستْ مجرّدَ أفكارٍ ideas. فهي تدخلُ إلى عمقِ الكائنِ البشريّ. لها قوّةٌ عظيمة. إنّ فكرًا بسيطًا هو لوييزموس ضعيف. مع ذلك، يجبُ أنْ ندركَ أنّ بعضَ الأفكار، ما إنْ تنفذُ إلى داخلِ الإنسان، يُمْكِنُها أنْ تُقوّضَ كُلَّ أثرٍ للحياةِ الروحيّة. الناسُ الذين يَعيشونَ في العالمِ لا يَعْرفونَ طبيعةَ تلكَ الأفكارِ وقوّتَها، إذْ إنّهم لم يختبروا حقيقتَها. لكنْ ما إنْ يَمْضوا في جهادِهم الروحيّ، وخاصّةً في الصلاةِ المنتظَمة، حتّى يُدركوا معنى هذه الحقيقةِ وقوّتَها».

* * *

أدركتُ هنا أنّ الأبَ مكسيموس كانَ يتحدّثُ عن ظاهرةٍ مشابهةٍ

جدًّا لفكرةِ العناصريَّةِ [٨٨] التي كَتبتُ عنها بإسهابٍ في كتابيَ السابق. صادفتُ هذا التعبيرَ في تقاليدَ روحيَّةٍ أُخرى إنَّما تحتَ أسماءَ مختلفةٍ، كـ'أشكالِ الفكر' مثلاً[٨٩]. وتستندُ نظريَّةُ العناصريَّةِ أَو «أشكالُ الفكر»، على فرضيَّةِ أنَّ الأفكارَ والمشاعرَ هي أشكالٌ لطاقةٍ ذهنيَّةٍ حادَّةٍ وواقعيَّة، نُنتِجُها بشكلٍ دائمٍ، وتؤثِّرُ في المرءِ نفسِه وفي الآخرينَ من حولِه في آنٍ معًا. على النمطِ نفسِه، نَتأثَّرُ نحنُ بأشكالِ الفكرِ أو العناصريَّة، التي يُنتجُها الآخرونَ على نحوٍ مستمرٍّ بشكلٍ منفردٍ أَو جماعيٍّ، والتي تطوفُ في المحيط. بهذا المعنى، العناصريَّةُ لها وجودٌ أُندولوجيٌّ فهي ليست مجرَّدَ حالاتٍ ذهنيَّةٍ ذاتيَّةٍ وهميَّةٍ بل 'أشياءُ' حقيقيَّةٌ موضوعيَّةٌ مُدْرَكَةٌ بالحواس. هذه الطاقاتُ، إيجابيَّةً كانت أم سلبيَّة، تُؤثِّرُ فينا بشكلٍ مستمرٍّ كطاقاتٍ حقيقيَّة. ويمكنُ اعتبارُ العناصريَّةِ السلبيَّةِ كرديفٍ للشياطينِ التقليديِّين، الذينَ يَظْهرونَ آخذينَ شكلًا معيَّنًا، مطبوعًا في خيالِ بيئةٍ ثقافيَّةٍ معيَّنة.

قرَّرتُ ألاَّ أُثيرَ هذه القضيَّةَ معَ الأبِ مكسيموس إذْ إنَّ هدفي هو أنْ أتعلَّمَ منه كلَّ شيءٍ عن التقليدِ الروحيِّ الآثوسيِّ، لا الدخولَ معَه في مناقشاتٍ حولَ التقاليدِ الروحيَّةِ المقارَنةِ والماورائيَّات. عوضًا عن ذلك، سألتُه التوَسُّعَ في مفهومِ 'الفكرِ' عندَ الشيوخِ الآثوسيِّين. كانَ لديَّ حَدْسٌ أنَّ إيضاحاتِ الأبِ مكسيموس ستُضفي بصائرَ جديدةً ومعمَّقةً حولَ هذه المسألةِ البالغةِ الأهمِّيَّةِ لا للمتعطِّشينَ الباحثينَ عن اللّه فقط، بل لِعلماءِ النفسِ المتخصِّصينَ الذين يتعاطَون مشاكلَ مرضاهُم النفسيَّة. ذُهِلتُ حقًّا حينَ اكتشفتُ أنَّ فكرةَ

---

٨٨ عناصريّ: متعلّق أو شبيه بقوة عظمى من قوى الطبيعة.

89 Markides, Riding with the Lion, pp. 47-60.

'أشكالِ الفكر' موجودةٌ في قلبِ الحياةِ الروحيّةِ الرهبانيّةِ وسائدةٌ في التقليدِ المسيحيِّ الشرقيّ.

* * *

وتابعَ الأبُ مكسيموس: «في الحقيقة، عندما سَمعتُ للمرَّةِ الأُولى عن مفهومِ الأفكار، أثناءَ إحدى زياراتي للجبلِ المقدَّسِ كحاجٍّ علمانيّ، ذُهِلتُ مثلَك تمامًا. في ذلك الديرِ الذي زرتُ اعتادَ الرهبانُ أنْ يصلُّوا لستِّ ساعاتٍ متواصلة، من الغروبِ إلى ما بعدَ منتصفِ الليل، من ثمَّ، يُقيمونَ الذبيحةَ الإلهيَّةَ لساعةٍ أو ساعتَين إضافيَّتَين. ولاحظتُ أنّه معَ اقترابِ الساعةِ الواحدةِ فجرًا، كانَ عشرةُ رهبانٍ يصطفُّونَ خارجَ قلّايةِ شيخِهم الروحيّ. عندما استفسرتُ عن الأمر، قيلَ لي إنّهم ينتظرونَ دورَهم للاعترافِ بأفكارِهم. تعجَّبتُ وتساءلتُ، كيف يُمكنُ لأولئكَ الرهبانِ أن يفعلوا ذلك! كنتُ أفترضُ حينذاك أنَّ الأفكارَ هي أفكارٌ إعتياديَّة، وبما أنَّهُ يدورُ في ذهنِنا آلافٌ من الأفكارِ كلَّ يومٍ، فكيفَ بمقدورِ أولئكَ الرهبانِ أنْ يعترفوا بها!»

أخبرتُ الأبَ مكسيموس أنَّ ما يجدُه هو محيِّرًا يبدو لي معقولًا. وأوضحتُ أنّه استنادًا لبَعْضِ الأبحاثِ التي أُجريتْ في جامعةِ مينيسوتا، يُراودُ الإنسانَ، كمعدَّلٍ متوسّط، حوالي أربعةَ آلافِ فكرٍ مُختلفٍ كلَّ ستَّ عشرَةَ ساعة. هذا يعني أنَّ الأفكارَ التي دارتْ في ذهنِ إنسانٍ بلغَ السبعينَ من العمرِ مثلًا، تبلغُ ما مجموعُه حواليْ مائةَ مليونِ فكرٍ!»[٩٠]

90 Georg Feuerstein, Lucid Waking: Mindfulness and the Spiritual Potential of Humanity (Rochester, VT: Inner Traditions International, 1997), p. 84.

توقَّفَ الأبُ مكسيموس لثوانٍ عندَ سماعِه ذلك، وسألَ متعجِّبًا: «أتقصدُ أنَّ قياسَ الأفكارِ أمرٌ ممكنٌ؟». أكَّدتُ له أنَّ أبحاثَ علمِ النفسِ المعاصرِ يمكنُها قياسَ مثلَ تلكَ الأفكارِ وما شابَه وتؤكِّدُها.

أسرعْنا الخُطى للتنشُّط، وتابعَ الأبُ مكسيموس قائلًا: «لاحقًا، بعدَ أنِ التحقتُ بالحياةِ الرهبانيّةِ وصرتُ تحتَ نفوذِ تلكَ الأفكار، فهمتُ ما كانَ يفعلُهُ أولئكَ الرهبان. فالحربُ الروحيَّةُ التي تدورُ دونَ أن يكتشِفَها الناسُ العاديُّون، تُنفِّذُها الأفكارُ التي تهاجِمُ قلوبَنا وأذهانَنا باستمرار. هذه هي القوى التي تُعيقُنا عن اختبارِ حقيقةِ اللّٰه».

وأضافَ موضِحًا أنْ الأفكارَ ليست كلُّها سلبيَّةً، فهناكَ الأفكارُ الصالحةُ التي يرسلُها اللّٰهُ لنا. ونستطيعُ أنْ نميِّزَ بينَ الواحدةِ والأُخرى عن طريقِ الإرشادِ الروحيِّ لآباءٍ مختبَرينَ يتمتَّعونَ بفضيلةِ التمييز.

عدتُ وسألتُ مصرًّا: «لكنْ كيفَ تعملُ الأفكارُ بالضبطِ لِتُبعدَنا عن اللّٰه؟»

أجابَ الأبُ مكسيموس: «لننقلْ أنَّ اللوييزموس هو فكرٌ من نوعيَّةٍ خاصَّةٍ وطاقةٍ حادَّة. هناكَ شيءٌ غامضٌ حولَ الأفكار. فتأثيرُها مشابِهٌ لوخزةِ إبرةِ طبيب. عندما تتمكَّنُ الأفكارُ السلبيَّةُ من النفاذِ إلى مجرى دمِكَ الروحيِّ يكونُ تأثيرُها مماثلًا لتأثيرِ إبرةٍ مليئةٍ بالسُّمّ، تخترقُكَ وتنشرُ المادَّةَ القاتلةَ في كافَّةِ أنحاءِ جسمِك. يصبحُ عالمُكَ الروحيُّ ملوَّثًا وتصابُ في عمقِك. صَرْحُكَ الروحيُّ بأكملِه يمكنُ أنْ يهتزَّ من أساساتِه. وأحيانًا، تكونُ حِدَّةُ فكرٍ واحدٍ عظيمةً جدًّا، فيجدُ المرءُ نفسَهُ تحتَ تأثيرِها عاجزًا بالكلِّيّة، لا حَوْلَ له. يجمعُ

كلَّ قواهُ للدفاعِ عن نفسِه ضدَّ هذا الدخيل، لكن دونَ جدوى».

سَألتُ: «أيعاني القدّيسونَ من مثلِ هذه الأفكار؟ أفترضُ أنّهم مُعفَونَ من مثلِ هذه الهجمات، إذْ هم على عتبةِ التألُّه».

- «بالعكس. يتواجهونَ هم أيضًا معها، لَكنَّهم يسودونَ عليها. في الحقيقة، تهاجمُ الأفكارُ القدّيسينَ على الدوام، لكنَّهم لا يسمحونَ لها أنْ تستقرَّ في نفوسِهم».

في وقتٍ لاحق، عندما ناقشتُ هذا الموضوعَ معَ صديقتي إيراتو Erato (زوجةِ استِفانوس) التي كانتْ واسعةَ الإطّلاعِ على سِيَرِ القدّيسين، أشارتْ إلى قولٍ للشيخةِ غاڤريليا أنَّ الأفكارَ بالنسبةِ للقدّيسينَ هي مثلُ الذُّبابِ الذي يدخلُ غرفةً فارغة. لا شيءَ هناكَ ليحطَّ عليه، لا شيءَ يجذبُه، فيغادر.

تابعْنا السيرَ في صمتٍ لبضعِ دقائق، فيما كانَ الأبُ مكسيموس يتنفَّسُ بعمق. كانَ مستمتعًا للغايةِ بالنزهة، وشعرتُ بالارتياحِ إذْ كنتُ الذريعةَ لمثلِ هذه الإستراحةِ الطويلةِ منْ جدولِه المُثقَل. يبدو أن محادثتَنا نشَّطتْه.

كسرَ الأبُ مكسيموس الصمتَ قائلًا: «لاحظتُ أنَّ بعضَ الناسِ، وخاصَّةً الشبابَ ذوي النفوسِ الشديدةِ الحساسيَّة، يعانونَ كثيرًا من هذه الأفكار، وأنَّها غالبًا ما تُخلِّفُ نتائجَ مَرَضيَّةً نفسيَّة. يبلغونَ ولو جزئيًّا إلى هذا المستوى من الضررِ النفسيِّ بسببِ جهلِهم لطبيعةِ الأفكار. مثلُ أولئكَ الأشخاصِ الذين قد يُهاجمهم فكرٌ مُفسِد، أو لنقلْ فكرٌ أثيمٌ، لا يدركونَ أنَّ هذه الأفكارَ لا تنبثقُ بالضرورةِ من داخلِهم، بل هي موجَّهةٌ نحوَهم من الخارج. وبسببِ جهلِهم

يشعرونَ بالذنبِ ويُثقِلونَ كاهلَهم بهذا الشعورِ ويصيرونَ إلى حالةٍ اعتادَ أنْ يسمِّيَها الشيخُ پاييسيوس 'تكرارُ لِمَاذَات (لماذا...، لماذا...)'. تستحوذُ عليهم الأفكار. وذوو الإحساسِ المُفرطِ يتحسَّسونَ أكثرَ ويلومون أنفسَهم بالكثيرِ من الأسئلة: 'لماذا عندي مثلُ هذه الأفكار، لماذا؟'. أولئك الناسُ هم في حاجةٍ ملحَّةٍ لتوجيهٍ وإرشادٍ صحيحَين في كيفيَّةِ التعاملِ مع الأفكار».

وقالَ إنَّ أخطرَ الأفكارِ هي تلكَ التي يرسلُها الشيطانُ والتي تجدُ دعمًا وتصبحُ فاعلةً عن طريقِ أهوائِنا وشهواتِنا الخاصَّة. فالأفكارُ التي تبذُرُها الشياطينُ خبيثةٌ ومضلِّلةٌ جدًّا.

«في حالةِ راحةٍ وتراخي، تُرسِلُ لنا الشياطين فكرًا، كي تدْفعَنا نحوَ فعلِ الخطيئة. وتنقلُ رسالةً أنَّهُ لا بأسَ من ارتكابِ هذا الفعلِ أو ذاكَ لأنَّ اللّٰه عطوفٌ ورحيمٌ فسَيغْفِرُ لنا على أيَّةِ حال. وما إنْ نرتكبُ الإثمَ يهاجمُنا فكرٌ أنَّ اللّٰه أبٌ مؤدِّبٌ قاسٍ، قاضٍ لا يرحمُ، وسيرمي بنا في نيرانِ جهنَّم. لقدْ لاحظتُ أنَّ العديدَ من الحالاتِ المرَضيَّةِ العقليَّةِ والانهياراتِ العصبيَّةِ التي يُعاني منها الناس، تأتي كنتيجةٍ مباشرةٍ لمثلِ هذه الأفكارِ التدميريَّة. لا بل أنا مستعدٌّ لمناقشةِ الأمرِ لأُبرهنَ أنْ حتَّى أولئكَ الذين يعانونَ مِنْ داءِ الفصام(Schizophrenia) ومن اضطراباتٍ خطيرةٍ مماثلةٍ هم ضحايا لأفكارٍ حادَّةٍ استحوذَتْ عليهم وأتلفَتْ مقاومتَهم، فلم يعودوا قادرينَ على التحرُّرِ منها.

وصفَ لنا الشيوخُ القدّيسونَ، إذ هم محارِبُونَ روحيُّونَ مختبَرون، طبيعةَ هذا الصراعِ وحدَّدوها بالتفاصيل. ووضعوا لنا منهجيَّةً للتعاملِ مع تلكَ الأفكارِ التي لا مفرَّ من أنْ يجابهَها كلُّ إنسانٍ بما في ذلك القدّيسون».

توقَّفنَا وجلسنَا بجانبِ الطريقِ على أحدِ المقاعدِ الخشبيَّةِ التي أقامتْها هيئةُ الغاباتِ في أماكنَ مختلفةٍ لتأمينِ الراحةِ للمتنزِّهينَ ومحبِّي الطبيعة. بدا أمامَنا امتدادُ الجبالِ المعتِمة، الساكنةِ والشامخة، ومن فوقِنا السماءُ المليئةُ بالنجوم. على غيرِ العادة، كانتِ الليلةُ دافئةً، فجلسْنا لبعضِ الوقتِ نحدِّقُ في المنحدرِ تحتَنا. كانَ الأبُ مكسيموس ينقلُ حبَّاتِ مسبحتِهِ بينَ أصابعِ يدِه اليُمنى وبدا مستغرِقًا في تأمُّلٍ أو ربَّما في الصلاة. كالعادة، كَسَرْتُ الصمتَ بطرحِ أسئلتي: «حسنًا، ما هو المنهجُ الذي وضعَه الشيوخُ القدِّيسونَ ليسودَ المرءُ على أفكارِه؟»

أحنى الأبُ مكسيموس رأسَه وتفكَّرَ لثوانٍ ثمَّ أجابَ قائلًا: «قبلَ الدخولِ في تفاصيلِ المنهجيَّة، يجبُ أنْ نضعَ في ذهنِنا الوضعَ الحاليَّ لمأزقِنا الوجوديّ. كما سبقَ وناقشْنا، كان زمنٌ حيثُ عاشَ البشرُ الأُوَلُ، وَفقَ طبيعتِهم الأصليَّةِ الحقيقيَّة. وفي حالتِهم الأُولى، كانت كلُّ طاقتِهم، كُلُّ قواهُم، منسجمةً كلِّيًا مركَّزَةً في حركةٍ واحدةٍ، حركةٍ نحوَ الله. فَنُوسهم (ذهنُهم)، أيْ قلبُهم وعقلُهم، كان شاغلَها الوحيدَ والكلِّيَّ الصلاةُ الدائمةُ غيرُ المنقطعة. في تلك الحالة، تجربتُهم الوحيدةُ وبؤرةُ تركيزِهم كانتْ ما يَدْعوه الشيوخُ الثاوريا Theoria، أي معاينةَ الله.

آدمُ وحواء، الكائنانِ البشريَّانِ الأوَّلان، قطعا علاقةَ الاتِّحادِ باللّٰه هذه بالسقوط. وبالتالي، سقطا في الشركِ وأصبحا أسيرَينِ في عالمِ الأبعادِ الثلاثةِ هذا، عالمِ المادَّةِ والشهواتِ الأنانيَّة، عالمِ الخطيئة. لم يعودا في حالةِ صلاةٍ دائمة، التي هي عملُهما الجوهريُّ والحقيقيُّ بالطبيعة. وبسببِ هذا الانفصالِ بينَ

الإنسانيَّةِ واللّٰه، تألَّمتِ الخليقةُ كلُّها».

وتابع مُضيفًا المزيدَ من الإيضاحات: «وهكذا، بدلًا منْ حالةِ الصلاةِ الدائمة، نعيشُ الآنَ في ظاهرةِ الإنتاجِ الدائمِ للأفكار. والأفكارُ ظاهرةٌ غريبةٌ عن طبيعتِنا الأصليَّة، غريبةٌ عن عملِ النوسِ الأصليّ. ففي اللحظةِ التي قُطِعنَا فيها عنِ اللّٰه، دَخلنَا إلى حالةِ وجودٍ تسيطرُ عليها اهتماماتٌ دنيويَّة، تسيطرُ عليها الأفكار. أصبحَ ذهنُنا مشتَّتًا في شؤونِ هذا العالم».

- «أَفْهَمُ من كلامِك هذا، أنَّ الإنسانَ في أعماقِ طبيعتِهِ الحقيقيَّة، في جوهرِهِ الحقيقيِّ، لا يتشوَّشُ ولا يضطربُ من أيِّ فكرٍ».

- «نعم، هذا صحيح. بحسبِ الطبيعة، عملُ النوسِ الحقيقيُّ هو الانشغالُ في الصلاةِ الدائمة، التي هي حالةُ التأمُّلِ المستمرِّ في اللّٰه. فكُلُّ الأفكارِ التي نُولِّدُها بشكلٍ دائم، ليستْ في الواقعِ فطريَّةً بل مكتسبةً منذُ السقوط. فهي أعراضٌ وإظهاراتٌ لِبُعدِنا عن اللّٰه. في الحقيقة، الأفكارُ هي التي تُبقِينا في انفصالٍ عنِ اللّٰه.

نحنُ البشرَ كلّنا نعاني من مرضِ السقوط، هذا المرضِ الأصليِّ والموروث. هذا معنى ما يسمَّى بالخطيئةِ الأصليَّة. وراثةُ هذا الإنفساخِ عن اللّٰه، فتحَتِ الطريقَ أمامَ الأفكارِ لتغزوَ قلوبَنا وعقولَنا على نحوٍ مستمرٍّ لا هوادةَ فيه».

في عدَّةِ مناسبات، شدَّدَ الأبُ مكسيموس أنَّ فهمَ الخطيئةِ الأصليَّةِ كانتهاكٍ لمحرَّمٍ أخلاقيٍّ، هو طريقةُ تفكيرٍ طفوليَّةٌ حولَ هذه القضيَّة. فَوَفقًا لتقليدِ الشيوخِ القدّيسينِ المختبَر، الخطيئةُ الأصليَّةُ تعني الإنفصالَ الأصليَّ

والابتعادَ الكاملَ للجنسِ البشريِّ عنِ اللّٰه.

* * *

هذا النقاشُ عنِ الخطيئةِ الأصليَّةِ وحالةِ البشرِ الأُولِ الفردوسيَّةِ قبلَ السقوط، ذكَّرَني بحلقةِ نقاشٍ حولَ طبيعةِ الحكاوةِ myth [٩١]، شاركتُ فيها في جامعتِي قبلَ أيَّامٍ قليلةٍ من سفري إلى قبرص. نظَّمتِ الحلقةَ مجموعةٌ من الزملاءِ الماركسيِّين. كانَ الموضوع، نموذجيًّا لتوجُّهاتِ الماركسيِّينَ واهتماماتِهم، حولَ إذا ما كانت الحكاواتُ هي في طبيعتِها الأساسيَّةِ 'رجعيَّة'. كنتُ متأكِّدًا أنّي دُعيتُ للمشاركةِ لكي أُدخلَ بعضَ التوازنِ لِما كانَ متوقَّعًا أنْ يُقالَ ويُعرضَ في تلك الحلقة. فالموقفُ الماركسيُّ التقليديُّ، والذي لا يتوافَقُ عليه زملائِيَ الماركسيُّونَ بشكلٍ كامل، كانَ أنَّ الحكاوات، وخاصَّةً الحكاواتِ الإيمانيَّةَ (الدينيَّة)، هي أشكالُ ألغازٍ تُعمي الإنسانَ عن فهمِ مرتبتِهِ الحقيقيَّةِ في المجتمع. فالحكاواتُ يعتبرُها الماركسيُّونَ التقليديُّونَ شكلًا من أشكالِ «الوعيِ المخدوع»، والذي حتمًا، مثلَ الدِّينِ، يندثرُ ما إنْ يبلغُ المرءُ الشيوعيَّةَ الكاملةَ والناضجة. فلا يعودُ البشرُ في حاجةٍ إلى الحكاوات، كونَها ليست إلاَّ مظاهرَ استغلالِ طبقةٍ إجتماعيَّةٍ دنيا مِنْ قِبَلِ طبقةٍ أعلى منها.

أذكرُ افتتاحيَّةَ مداخَلتي الموجزةِ أثناءَ تلكَ الحلقة، حيثُ أشرتُ أنَّني أبدأُ مناقشتي، خلافًا للماركسيِّين، من مسلَّمةٍ مختلفة. فمن تحصيلِ القول، فَهْمُنا للحقيقةِ المطلقةِ يستندُ على حكاوات، لأنَّ المنطقَ لا يُمْكِنُه أبدًا تزويدَنا

---

٩١ لأجل نظرة مفصّلة أنظر: "الكتاب المقدّس بين الواقعيّة التاريخيّة والواقعيّة الإيمانيّة"، للأرشمندريت توما (بيطار)، ٢٠٠٤. رقم (٩) من سلسلة أوراق ديريّة.

بأجوبةٍ مُقنعةٍ حولَ لُغزِ وجودِنا البشريّ. فنحنُ لا يُمْكِنُنا أبدًا استخدامَ قدراتِنا العقلانيّةِ للذهابِ أبعدَ من 'الإنفجارِ العظيم'، الذي أنشأَ الكونَ وَفقًا للنظريّاتِ العلميّة. لذا فالمعرفةُ البشريّةُ بما في ذلكَ العلومُ والفلسفة، تستندُ في أساسِها، على حكاواتٍ لا بل على أسسٍ غامضة[٩٢]. فالمنهجيّةُ الصحيحةُ لتقييمِ تلك الحكاوات، لا يجبُ أنْ تقومَ على أساسِ إنْ كانتْ صحيحةً أم لا، رجعيّةً أم لا، بلْ إنْ كانتْ تُعزّزُ الحياةَ أمْ تُدمّرُها. على سبيلِ المثال، الأساطيرُ النازيّة، تُعدُّ بشكلٍ واضح، أساطيرَ محطّمةً للحياة. بينما الأساطيرُ الثقافيّةُ التي تساعدُ الإنسانَ كي يعالجَ، على نحوٍ خلّاقٍ، ضروراتِ الوجودِ الإنسانيِّ عن طريقِ زرعِ المحبّةِ والرحمة، تُعتبرُ بنّاءة، تُعزّزُ الحياةَ وتَزيدُها قيمة.

خطرتْ كلُّ تلكَ الأفكارِ في ذهني أثناءَ حديثِ الأبِ مكسيموس عن آدم وحواء، والسقوط. إذْ فكّرتُ أنّه يجبُ النظرُ إلى تلكَ الحكاوات على أنّها كِناياتٌ لحقائقَ عظيمةٍ للوجودِ الإنسانيّ، لحقائقَ لا يُمْكن أنْ تُحدَّ بصياغاتٍ عقلانيّة، أكانت ماركسيّةً أم لا. فبحسبِ استنتاجيَ المنطقيّ، مفهومُ السقوطِ وَفقًا للتقليدِ الآثوسيّ كما عرضَهُ الأبُ مكسيموس، هو مفهومٌ معزّزٌ للحياة، طالما أنّهُ يُساعدُ أفرادًا في تقدُّمِهم نحوَ الله. فهذا المفهومُ حثَّ أفرادًا مثلَ رهبانِ ديرِ الفائقةِ القداسةِ على تركيزِ طاقاتِهم بصدقٍ في اتّجاهِ معالجةِ الصدعِ الفاصلِ بينَهم وبينَ الله. مع ذلك، لم أكنْ مُتأكّدًا من موافقةِ الأبِ مكسيموس على الرأيِ الذي عرضتُهُ في حلقةِ النقاشِ الأكاديميّة. فالكنيسةُ اعتادَتِ التعاملَ

---

٩٢ نُقلَتْ شفهيًّا من فمِ الإنسانِ البدائيّ. ثمّ تناقلتها الأفمّة عبر الأزمنة. وفيما بعدُ دوّنتها. ثمّ طوّرتها إلى فلسفاتٍ وعلوم.(المعَرّب)

مع حكاواتِ الخلقِ البدائيَّةِ كحقائقَ تاريخيَّةٍ واقعيَّة. وهذا موقفٌ صعب، بل مستحيلٌ أنْ يقبَلَهُ امرؤٌ متعمِّقٌ في الفكرِ الحديث. يُشبهُ الأمرُ أنْ تُصدِّقَ، كحدثٍ تاريخيٍّ مختبَر، أنَّ عمليَّةَ الخلقِ تمَّتْ قبلَ بضعِ آلافِ السنين، أو أنَّ الربَّ احتاجَ للراحةِ في اليومِ السابعِ لأنَّه تعبَ من العملِ ستَّةَ أيَّامٍ كاملة. لكن، في تلكَ المرحلةِ من حياتي، لم يكنْ يهمُّني، سواءٌ اعتبَرَ الأبُ مكسيموس هذه القصصَ الكتابيَّةَ أحداثًا تاريخيَّةً واقعيَّةً أو كناياتٍ عن حقائقَ أعمق. ما كان يهمُّني، ولم يكنْ يعنيه، هو أنَّ أولئكَ الأفرادَ الذين يستعينونَ بتلكَ القصصِ كأُطُرٍ توجيهيَّةٍ للارتقاءِ الذاتيِّ والاتِّحادِ باللّٰه، هم القدّيسونَ العظماءُ والأنبياءُ على مرِّ أزمنةِ الخبرةِ اليهوديَّة-المسيحيَّة. فحياتُهم وإرتقاءاتُهم الروحيَّةُ تُثبتُ قيمةَ مفهومِ السقوطِ والإنفصالِ عنِ اللّٰه، كإطارٍ توجيهيٍّ في الجهادِ الروحيِّ والنسك.

* * *

استرجعتُ فكري وسألتُ الأبَ مكسيموس ثانيةً: «ما هو أفضلُ سبيلٍ للتغلُّبِ على الأفكارِ وإعادةِ الاتِّحادِ الأصليِّ مع اللّٰه؟ أيُمكنُ أَنْ يَكُون عن طريقِ الصلاةِ الدائمة؟»

- «نعم، إلى حدٍّ ما هذا صحيح، لكن، هناكَ أكثرُ من ذلك. علَّمَنا الشيوخُ القدّيسون، علماءُ الممارسةِ الروحيَّة، استنادًا لخبراتِهم وتجاربِهم، كيفَ نُدبِّرُ أمرَ هجماتِ الأفكارِ المستمرَّةِ على قلوبِنا وعقولِنا».

ودونَ أيَّةِ إيضاحاتٍ أُخرى، وقفَ الأبُ مكسيموس فجأةً وقالَ: «يجبُ أنْ

نعودَ أدراجَنا على ما أعتقد». شعرتُ بقلقٍ في نبرةِ صوتِهِ لأنّنا تأخّرْنا. أسرَعنا الخُطى. كانَ ضوءُ النجومِ كافيًا لنبقى سائرَينِ على الطريقِ الرئيسيّ، دونَ التّيهِ في الغاباتِ أو الانزلاقِ من على الجرف.

فجأةً، أضاءتِ الطريقَ أمامَنا مصابيحُ شاحنةٍ توقّفتْ بجانبِنا. كانَ هذا الأبَ إفستاثيوس، أحدَ رهبانِ الديرِ المتقدّمينَ في السنّ، عائدًا من باڤوس، التي قصدَها باكرًا في ذلك اليومِ لشراءِ زوّادةِ سنةٍ كاملةٍ من اللوزِ للديرِ من تجّارِ الجملة. فبسببِ الجفاف، سَرَتِ الإشاعاتُ والمخاوفُ عن ارتفاعِ سعرِ اللوزِ إلى حدٍّ باهظ. وبما أنّ ديرَ الفائقةِ القداسةِ اشتُهرَ بصنعِ وبيعِ حلوى خاصّةٍ مصنوعةٍ من اللوز، واستباقًا لحركةِ الغلاء، وجبَ شراءُ تلكَ المادّةِ الأوّليّةِ قبلَ ارتفاعِ الأسعار. فُوجِئَ الأبُ إفستاثيوس بوجودِنا على الطريقِ في تلكَ الساعةِ المتأخّرةِ من الليل، وسَألَ إنْ كنّا في حاجةٍ إلى وسيلةِ نقلٍ للعودةِ إلى الدير. غيرَ أنّ الأبَ مكسيموس فضّلَ أنْ نُواصلَ مشيَنا، إذْ كنّا على مسافةِ أربعينَ دقيقةً فقط عن الديرِ سيرًا على الأقدام.

وبينما تلاشى ضوءُ مصابيحِ شاحنةِ الأبِ إفستاثيوس عندَ أوّلِ منعطفٍ، وبانَتْ أضواءُ الديرِ في الأسفل، سألتُ: «حسنًا، إضافةً إلى الصلاة، ماذا يعلّمُ الشيوخُ القدّيسونَ حولَ كيفيّةِ التعاملِ مع الأفكار؟»

فكّرَ الأبُ مكسيموس للحظاتٍ ثمّ وضّحَ: «ميّزَ الشيوخُ القدّيسونَ خمسَ مراحلَ في تطوّرِ الفكر. بالطبع، أتكلّمُ هنا على الفكرِ الذي يتعارضُ ونواميسَ اللّه. أولى المراحلِ هي الإنقضاضُ أي عندما يهاجمُ الفكرُ عقولَنا».

- «كَيفَ يَحْدثُ ذلك؟»

- «فلأُعطِك مثلًا. تدخلُ الأفكارُ إلى العقلِ البشريِّ في شكلِ إقتراحٍ ما، وتحثُّنا، على سبيل المثالِ، كي نسرق. وكأنَّ الفكرَ يقرعُ البابَ ويقولُ لنا: 'أُنظرْ إلى هذا الكمّ من المالِ. خُذْه، فلا أحدَ يراك...'. إذْ يهاجمُنا فكرٌ مماثلٌ، مهما تكنْ درجةُ نجاستِه، لا نُحسبُ مسؤولينَ عنه. فحالتُنا الروحيَّةُ لا تُقيَّمُ على أساسِ هذه الهجمات. بِلُغةٍ بسيطة، نحنُ لمْ نخطِئ. جُرِّبَ الشيوخُ القدّيسونَ عبرَ العصورِ وهوجموا بقسوةٍ من أفكارٍ مماثلةٍ لا بل أردأ منها».

قلتُ مقاطعًا: «يسوعُ المسيحُ نفسُه جَرَّبَهُ الشيطانُ أثناءَ خلوتِه في البرِّيَّة».

- «بالضبط. هذا دليلٌ على أنَّهُ متى هاجمتِ الإنسانَ أفكارٌ مماثلة، يجبُ ألاَّ يشعرَ بالذنبِ مطلقًا. فهو بريءٌ كلِّيًا وليس مسؤولًا عن تلك الأفكار. واجهَ القدّيسونُ العظماءُ جمًّا من الأفكارِ السلبيّة. لم يَحْيَ أيُّ كائنٍ بشريٍّ دونَ أنْ تهاجمَه آلافُ آلافِ الأفكار. وحدَهم الأمواتُ تحرَّروا من وطأتها».

قلتُ ممازِحًا ومن دونِ تفكيرٍ: «لستُ واثقًا من ذلك بخصوصِهم؟». ثمَّ سألتُ: «هل أنتَ شخصيًا عرضةٌ للأفكار؟»

- «على نحوٍ دائم. صدِّقْني تهاجمُني أكثرُ الأفكار جنونًا وغرابةً، أفكارٌ غيرُ منطقيَّة. نعم، تُهاجمني كلُّ الأفكار».

وتابع: «أفكارٌ مماثلة، لا علاقةَ لها إطلاقًا بخاصِّيَّةِ نفوسِنا. هي أعراضُ

السقوطِ التي يصعبُ علينا تجنُّبُها. يرتعبُ الناسُ، في أغلبِ الأحيانِ، ويفزعونَ من طبيعةِ الأفكارِ المهاجِمةِ ومن كثافتِها، وتستحوذُ عليهم تساؤلاتٌ كالتالية: 'لماذا تهاجمني هذه الأفكارُ؟ لماذا أنا؟'. وعندما يتَّخِذونَ هذه الحالة، يبدأُ الشيطانُ بأذيَّتِهم بالفعل. وهذه الأسئلةُ الإستحواذيَّةُ ليست في حقيقتِها أكثرَ من تعبيرٍ عن الغرور. أقولُ لأولئكَ الناس: 'تُهاجِمُك تلكَ الأفكارُ لأنَّك بَشَرٌ'. من الطبيعيِّ أنْ نكونَ عُرضةً للأفكار، هذا أمرٌ طبيعيٌّ لأنَّنا في حالةِ السقوط. نحنُ بشرٌ لا ملائكة، ولأنَّنا بشرٌ طُبِعْنا بسِماتِ السقوط، لا مفرَّ من ذلك. لذا، نحنُ حتمًا عرضةٌ لِأفكارٍ كهذه».

- «إذًاك، ماذا يتوجَّبُ على المرءِ فعلُه؟»

- «القدِّيسونَ هم مرشِدُونا في هذا الشأن، ضايقَتْهم آلافُ الأفكار. لكنَّهم لم يخضعوا لها. أتعْرفُ لِماذا؟ لأنَّهم بلغوا حالةَ اللاهوى، أي تخطَّوا الشهواتِ الأنانيَّة. في هذا السموِّ الروحيّ، عندما تُهاجِمُ الأفكارُ تصطدِمُ بحائط. ويدركُ جميعُنا أنَّهُ عندما نرفضُ فكرًا، فنحنُ لا نتغلَّبُ عليه فقط بل نُحرِزُ نصرًا روحيًّا أيضًا».

قلتُ مقترحًا: «إذًا تلعبُ الأفكارُ دورًا روحيًّا مفيدًا، ربَّما هي جزءٌ من تدريبِنا للإرتقاءِ نحوَ اللّه».

قالَ الأبُ مكسيموس: «ما قلتَهُ الآنَ ذكَّرَني بحادثةٍ في سيرةِ أحدِ الشيوخِ القدِّيسين. كانَ هذا الشيخُ يُشرفُ روحيًّا على راهبَين شابَّين. في أحدِ الأيَّام، طلبَ مِنْهما قَضاءَ بعضِ الوقتِ معَهُ في منسكِهِ لتقييمِ تقدُّمِهما الروحيّ. في

الليل، عندما استيقظوا للصلاة، لاحظَ الشيخُ أنَّ حشراتٍ غريبةً كانتْ تَحُومُ حولَ الراهبِ الأصغرِ سنًّا. وكُلَّما حاولَ هذا الراهبُ الشابُّ طرْدَها بعيدًا، كانَ يُتوَّجُ بإكليلٍ متألِّقٍ فوقَ رأسِه. حينذاك، أدركَ الشيخُ أنَّ ذاكَ التلميذَ الراهبَ تُهاجِمُهُ الأفكار. ولكن، لِمَا كانَ لديه من قوَّةٍ لطردِها بعيدًا دونَ أنْ تنفذَ إلى ذهنِه وقلبِه، منحتْهُ النعمةُ الإلهيَّةُ نصرًا روحيًّا».

عُدتُ وكرَّرتُ سؤالي: «لِماذا لا يمكنُنا القولُ إنَّ تلك الأفكارَ يرسِلُها اللّه إلينا بشكلِ تمارينَ روحيَّة؟»

تجهَّمَ وجهُ الأبِ مكسيموس وقال: «كما ذكرتُ سابقًا، علَّمَنا الشيوخُ القدّيسونَ أنَّ الأفكارَ تأتي إمَّا من اللّه أو من الأبالسة. لكنْ عادةً يصعبُ على المبتدئِ العديمِ الخبرةِ أنْ يميِّزَ بينَهما. لذا، اقترحَ الشيوخُ القدّيسونَ أنَّ الوسيلةَ الأفضلَ هي بتجاهلِها. لأنَّه بقدرِ ما تستحوذُ الأفكارُ على الإنسان، بقدرِ ما يعرِّضُ نفسَهُ لعوارضَ نفسيَّة».

- «ألا يمكنُ، خطأً، أنْ نطردَ فكرًا صالحًا آتيًا من اللّه باعتبارِه فكرًا شرّيرًا؟»

طمأنَني الأبُ مكسيموس: «حتّى في مثل هذه الظروف، تأكَّدْ أنَّ اللّهَ لنْ يُسيءَ فهمَنا، أَو يعتبرَ ذلكَ إهانةً له. في الحالاتِ التي يحتارُ فيها الإنسانُ من الأفضلِ أنْ يستشيرَ شيخًا روحيًّا مختبَرًا. على أيَّةِ حال، كقاعدةٍ مختبَرة، يُميِّزُ المرءُ مصدرَ الأفكارِ كالتالي: الأفكارُ الآتيةُ منَ اللّهِ تُوَلِّدُ فينا فرحًا وسلامًا داخليًّا، أمَّا الأفكارُ الشيطانيَّةُ فتسبِّبُ حزنًا واضطرابًا.

فلأُعطِكَ مثلًا عن مدى صعوبةِ تمييزِ مصدرِ الأفكار. عندما كانَ القدّيسُ سِلوانُ راهبًا مبتدئًا يعيشُ في ديرِ القدّيسِ بندلايمون الروسيِّ في الجبلِ المقدَّس، قرَّرَ في أحدِ الأيَّامِ أنْ يتركَ حياةَ الشركةِ للتنسُّكِ في البرّيَّة، وهو جهادٌ أصعبُ وأكثرُ صرامة. في البداية، بدا له هذا الفكرُ صالحًا، أنْ يتركَ الديرَ حيثُ الحياةُ قليلةُ القساوة، ليتوحَّدَ في البرّيَّةِ متمثِّلًا بالأنبياءِ القدامى، فيتقدَّمَ بسرعةٍ أكبرَ نحوَ القداسة. مع أنَّه من المنظارِ الخارجيّ، يبدو وكأنَّ هذا الفكرَ مصدرُهُ اللّه، إلاَّ أنَّهُ في الواقعِ من الشياطين، بهدفٍ واحدٍ وهو عرقلةُ ارتقائِهِ نحوَ اللّه. فبعدَ عزلِه في البرّيَّة، كانت الشياطينُ تبتغي الانقضاضَ عليهِ بكلِّ قِواها المدمِّرة. تبتغي أنْ تقودَه، وهو فتيٌّ وعديمُ الخبرة، كي يفقدَ شجاعتَهُ ويتخاذَلَ وييأس، وفي النهايةِ يتخلَّى عن جهادِهِ الروحيّ. لِحُسنِ الحظّ، إستشارَ شيخَهُ الروحيَّ، فرفضَ هذا الأخيرُ قرارَه بالتنسُّكِ في تلكَ المرحلةِ المُبكرةِ من نموِّه الروحيّ.

حالةُ القدّيسِ سِلوان تُبرِزُ مبدأً أساسيًّا لكلِّ مستكشفٍ جِدّيٍّ للحياةِ الروحيَّة، وهو الحاجةُ إلى توجيهاتِ مرشِدٍ روحيٍّ مختبَر. فالجهادُ الروحيُّ الجِدّيُّ، تكتنفُهُ كثيرٌ من الأسرار، يجبُ ألاَّ نخوضَ غمارَهُ لوحدِنا. هذا أمرٌ شبهُ مستحيل. فمَنْ يعملُ ويجاهدُ وحدَه دونَ أيِّ إشرافٍ وتوجيهٍ روحيٍّ سيكونُ على الأرجحِ عرضةً للخداع».

– «على هديِ ما قلتَ، أرى بعضَ المشاكلِ اللوجستيَّةِ الجِدّيَّة، إذْ إنَّ ملايينَ البشرِ هم باحثونَ جِدّيُّونَ في الأمورِ الروحيَّة، إلاَّ أنَّ القلائلَ بينهم يحظَونَ أو يستطيعونَ أنْ يحظَوا بمرشِدٍ روحيٍّ ممتلئٍ بنعمةِ الروحِ القدس.

فماذا سيحدثُ للباقين، وهم الغالبيَّةُ العظمى من بني البشر؟ أيُعامِلُ اللّهُ بني البشرِ بلا مساواة؟ أنا واثقٌ أنَّ الأمرَ ليس هكذا، وإلاَّ فاللّهُ لا يَكُونُ اللّه».

أوضَحَ الأبُ مكسيموس: «كلامي لا يَعْني أنَّه لكي يكونَ المرشدُ الروحيُّ فعَّالًا وجبَ أنْ يمنحَهُ الروحُ القدسُ مواهبَ كمعرفةِ الخفيّاتِ أو الرؤيةِ النبويَّةِ أو قُدراتٍ أُخرى. إنَّ سرَّ الإرشادِ الروحيِّ يستندُ على حقيقةِ أنَّ المرشِدَ الروحيَّ والتلميذَ (الابنَ الروحيَّ) يشكّلانِ معًا ثنائيًا مقدَّسًا قائمًا في جسدِ المسيح. بعدَ تأسيسِ تلكَ العلاقةِ الثنائيَّة، يعملُ الروحُ القدسُ على نحوٍ سِرّيٍّ ليسمحَ للتلميذِ بالاستِفادةِ من توجيهاتِ أبيهِ الروحيِّ الضروريَّةِ لنموِّهِ الروحيِّ. يعملُ الروحُ القدسُ غالبًا من خلالِ المرشدِ الروحيِّ بطرقٍ رقيقة».

تساءلتُ: «لكنْ في ظروفٍ مماثلة، ألا يُحتمَلُ أنْ يُخطِئَ الشيخُ الروحيُّ في الإرشاد؟»

– «نحن بشرٌ، والوقوعُ في الخطإِ أمرٌ يصعبُ تجنُّبُه. لذا قبلَ تأسيسِ أيِّ ارتباطٍ مع مرشدٍ روحيٍّ، يلزمُنا أنْ نستكشفَ ونتحقَّقَ إنْ كانَ هذا المرشدُ يقدِّمُ حقًّا خبراتِ الشيوخِ القدّيسين، دونَ أيَّةِ تحريفات. إنْ كانَ الإنسانُ مؤمنًا بهذا السرِّ الذي يتفعَّلُ بإسمِ الربِّ يسوع، إذّاك، نؤكّدُ بثقةٍ أنَّ نعمةَ الروحِ الإلهيَّةَ لنْ تتركَه. لذا، حتّى إنْ وقعَ خطأٌ بشريٌّ، في النهايةِ يُصحّحُ الخطأ؛ فاللّهُ سَيُهيِّئُ الظروفَ الضروريَّةَ لإصلاحِ الضرر».

قلتُ متعجِّبًا: «هذا هو الإيمانُ الحقيقيُّ». ولمّا اقترَبْنا من بوّابةِ الدير، وجدناها، للأسف، مغلقة. ضغطْنا زرَّ الجرس، لكنْ ما مِن جواب، فالرهبانُ لا

يزالونَ في الكنيسة، ولم يسمعْ أحدٌ صوتَ الجرس. والأبُ مكسيموس نسِيَ سهوًا فوقَ مكتبِه المفتاحَ الذي يحمِلُهُ عادة. جلسنا خارجًا على مقعدٍ قربَ كُشكِ الهاتفِ العامِّ، واستأنفْنا مُناقشاتِنا منتظرَينِ انتهاءَ الصلاة.

لَّخصتُ في فكري الميِّزاتِ الأساسيَّةَ لمرحلةِ الهجومِ ثمَّ سألتُ: «وما هي المرحلةُ الثانيةُ في تطوُّرِ الفكر؟»

- «المرحلةُ الثانيةُ يُسمِّيها الشيوخُ القدِّيسونَ 'التفاعل'. هذا يعني فتحَ حوارٍ مع الفكر، أي الدخولَ معَهُ في تبادلٍ فعليٍّ. عندما يَحُثُّكَ الفكر، مثلًا، على سرقةِ تلك الكومةِ من المال، تبدأُ بالتساؤل: 'هلْ أقومُ بهذا الفعلِ أم لا؟ ماذا سيحدثُ إذا سرقتُ المال؟ ماذا سيحدثُ إنْ لم أسرِقْه؟'. هذا التحاورُ مع الأفكارِ مجازِفٌ وخطير. على أيَّةِ حال، حتَّى في هذه المرحلةِ لا يُحاسَبُ الفرد، فإلى الآنَ لمْ يَرتكِبْ أيَّةَ خطيئة. في الحقيقة، يمكنُ للمرءِ أنْ يتفحَّصَ مثلَ هذا الفكرِ وينظرَ في عِدَّةِ خياراتٍ دونَ أنْ يُحاسَبَ عنها. لكنْ، إنْ كانَ المرءُ ضعيفَ الطبع، فغالبًا ما يُهزَمُ إذا ما دخلَ في حوارٍ مع الفكر».

أخذَ الجوُّ يزدادُ برودةً، فرُحتُ أتحرَّكُ صعودًا ونزولًا، لعدَّةِ مرَّاتٍ لأشعرَ بالدفءِ بينما تابعَ الأبُ مكسيموس كلامَه.

- «أمَّا المرحلةُ الثالثةُ في تطوُّرِ حركةِ الفكر، فندعوها مرحلةَ الموافقة. فأنتَ تُوافقُ على ارتكابِ ما يحُثُّكَ هذا الفكرُ على فعلِه، وهو في مَثَلِنا، سرقةُ المال. لقد اتَّخذْتَ قرارًا. وهنا يصبحُ الفردُ مذنبًا ومسؤولًا عن فعلِه. إنَّها بدايةُ الخطيئة. أشارَ المسيحُ إلى هذه المرحلةِ عندما قالَ إنَّ كلَّ من ينظرُ

إلى امرأةٍ ليشتهيَها بالفكرِ فَقَدْ زنى بها في قلبِه[٩٣]. في لحظةِ سماحِكَ لهذا القرارِ للتجَذُّرِ في قلبِك تصيرُ أنتَ في الحقيقةِ على الطريقِ نحوَ ارتكابِ الفعلِ في عالمِكَ الخارجيّ».

- «إذًا فعلُ الخطيئةِ يبدأُ في عقولِنا أوّلًا».

- «نعم، لكنَّنا يجبُ أنْ نكونَ حذرينَ لأنَّنا لا نزالُ هنا في مرحلةِ الموافقةِ والرغبة. حتّى الآن، العمَلُ الفعليُّ، أي ارتكابُ الإثم، لم يحدُثْ بعد. فالحربُ الروحيَّةُ هنا لا زالَتْ على المستوى العقليّ. يجبُ ألاَّ ننسى ذلك. فإنْ استدعى المرءُ عندَ هذه الحالة، اسمَ يسوعَ ولجأَ إلى الاعتراف، يمكنُهُ تفادي المرحلةِ التالية. ما يزالُ ممكنًا لنا في هذه المرحلةِ التحرُّرُ من مرحلةِ الموافقة، من خلالِ العنايةِ الإلهيّةِ ومحبّةِ اللّٰه الفائقةِ لنا».

قاطعتُه قائلًا: «فكَّرْتُ في احتمالٍ آخر، هو إنْ كانَ الفردُ غيرَ قادرٍ على تنفيذِ هذا الفعلِ بسببِ ظروفٍ معيَّنة. فَقدْ يرغبُ المرءُ بحماسٍ أنْ يختلسَ المالَ أو يرتكبَ فعلَ الزنى، ولكنْ هذا لا يعني أنّه في وضعٍ يُمَكِّنُه من فعلِ ذلك».

- «تمامًا. حتّى في هذه الحالة، لا يزالُ الفردُ في إطارِ المرحلةِ الثالثة، أي الموافقة. وبما أنَّهُ استسلَمَ للإغراء، يتوجَّبُ عليهِ التيقُّظُ والإنتباه، لأنَّ الاستسلامَ المتكرِّرَ لهذا الفكر، يؤدّي في النهايةِ إلى تطبيقِه الفعليّ. صدِّقْني، عدوُّ خلاصِنا سيُعِدُّ الظروفَ المناسبةَ لتحقيقِ غايتِه. وإذْ تغمرُ الأفكارُ القلبَ،

---

٩٣ متى ٢٨: ٥.

يصبحُ الاستسلامُ أمرًا لا مفرَّ منه. إذَّاك، نرتكبُ الخطيئةَ فعلًا...».

هنا قاطَعْتُه: «قبْلَ أنْ نَصِلَ إلى المرحلةِ التالية، رجاءً أوضِحْ لي هذه النقطة. حسبَ تعاليمِ الشيوخِ القدّيسين، هل مَنْ رَغِبَ واشتهى السرقةَ يحاسبُ كالذي سرقَ فعلًا؟»

- «كلاّ. لا يزالُ أمامَ المرءِ فرصةٌ بينَ الرغبةِ المشتعلةِ والفعلِ الحقيقيّ». ثمّ تفكّرَ في شيءٍ ما، فضحِكَ وقال: «سؤالُك يذكّرُني بحادثةٍ طريفةٍ في سيرةِ القدّيسِ يوحنّا الذهبيّ الفم. في ذلك الزمان، في القرنِ الرابع، بعضُ المتطرّفينَ المسيحيّينَ المتزمّتينَ والمفتقرينَ إلى أيّةِ خبرةٍ روحيّةٍ على الصعيدِ الشخصيّ، أصرّوا على أنَّ المرءَ عندما يستسلمُ للأفكارِ فكأنّه ارتكبَ الخطيئةَ فعلًا. كما ترى لقد أساؤوا فهمَ قولِ المسيحِ حولَ الزنى. حاولَ القدّيسُ يوحنّا عبثًا إقناعَهم بأنَّ الأمرَ ليسَ كما يرَونَه. نعم، يأثمُ الانسانُ في ذهنِه عبرَ الفكر، لكن هذا يصيرُ على درجةٍ مختلفةٍ من الارتكاب. لذا تكونُ المسؤوليّةُ أقلَّ خطورةً.

دعا الذهبيُّ الفم، وهو رئيسُ أساقفةِ القُسطنطينيّة آنذاك، أولئكَ المتطرّفينَ إلى مأدبةِ غداءٍ فاخرة. وأوصى طبّاخَهُ أنْ يحضّرَ أشهى الأطباقِ وأفخرَها. كما طلبَ من ضيوفِه المدعوّينَ ألاّ يأكلوا شيئًا في ذلكَ اليومِ لأنَّ المائدةَ ستكونُ غنيّةً ووفيرة. إلتزمَ المدعوّونَ بما أوصاهُم وبلغوا البطريركيّةَ وهم يتضوّرونَ جوعًا. جلسَ الجميعُ وبدأَ الطهاةُ بوضعِ الأطباقِ الشهيّةِ الساخنةِ على المائدة. وقبلَ أنْ يبدأوا بالأكل، طلبَ منهم الذهبيُّ الفمِ الوقوفَ لأجلِ

الصلاةِ المعتادة. وقفَ الجميعُ وبدأَ الشمَّاسُ بتلاوةِ المزامير. واسترسلَ الشمَّاس. مرَّتْ عشرونَ دقيقةً والشمَّاسُ مستمرٌّ في قراءةِ المزامير. وإذْ كانتْ رائحةُ الأطعمةِ تضوعُ أمامَهم، راحَ الضيوفُ المتضوِّرون جوعًا يتساءلونَ إنْ كانتِ الصلاةُ ستنتهي، فيجلِسوا ويأكلوا. سالَ لعابُهم، وتلظَّتْ شهوةُ بطونِهم. أخيرًا، انتهتِ الصلاة. فقالَ الذهبيُّ الفمِ لضيوفِه: 'الآنَ، يمكنُكم الإنصراف'. انصدمَ المدعوُّونَ وارْتَبَكوا. فسألهم: 'لماذا ارتبَكتم جميعُكم إلى هذا الحدّ؟ ألمْ ترَوا الأطعمةَ والمأكولاتِ الشهيَّة؟'. 'نعم، شاهدناها'. 'ألمْ تشتهُوا الأكلَ؟'. 'نعم، إشتهيناه'. 'ألمْ يتغيَّرْ كيانُكم كلُّه، وجسدُكم، نتيجةً لهذِهِ الشهوة؟'. 'نعم، تغيَّرَ'. 'إذًا هذا كأنَّكم أكلتم!'».

وتابعَ الأبُ مكسيموس: «بهذه الممازحةِ العمليَّة، تمكَّنَ القدِّيسُ يوحنَّا الذهبيُّ الفمِ من إقناعِ أولئكَ المتزمِّتينَ المسيحيِّينَ والعادمي الخبرةِ الروحيَّة، أنَّ هناك فرقًا شاسعًا بينَ ارتكابِ الخطيئةِ في القلبِ وارتكابِها بالفعل».

سألتُه: «هلْ يهُمُّ ما هي الأسبابُ التي تجعلُكَ غيرَ قادرٍ على تنفيذِ الفعل؟»

– «لا، على الإطلاق. الشيوخُ القدِّيسونَ عرفوا منْ تجربتِهم الخاصَّةِ بأنَّه حتَّى إذا ارتكبتَ الفعلَ الأثيمَ في ذهنِكَ وهيَّأتَ كلَّ الإستراتيجيَّاتِ لتنفيذِه، ولأيِّ سببٍ من الأسبابِ لم تتمكَّنْ من ذلك، فأنتَ المستفيدُ المنتصر. في مثلِ هذه الحالاتِ نصيحتُهم هي في تذكُّرِ اللّهِ وشكرِهِ لتدخُّلِ العنايةِ الإلهيَّةِ لأجلِكَ، من خلالِ صلواتِ القدِّيسينَ ومن خلالِ أعمالِكَ الخاصَّة».

قلت: «إذًا، يمكنُ القولُ إنَّ لدى الفردِ دائمًا فرصةً لعدمِ المضيِّ والانزلاقِ إلى المرحلةِ التالية».

- «بالتأكيد».

حدثَ سكونٌ قصير، مضى بعدَهُ الأبُ مكسيموس في وصفِ طبيعةِ المرحلةِ التالية: «إنْ لمْ يتمكّنِ الفردُ من تحريرِ نفسِه منَ المرحلةِ السابقةِ، فهُنا تقعُ الهزيمة. إذْ يصبحُ رهينةً للفكر. وعندما يستسلمُ الفرد، يأتيهِ الفكرُ تاليًا بقوّةٍ أعظمَ. ومقاومتُهُ تصيرُ أكثرَ صعوبة. وهكذا مرّةً فمَرّة. يُسمّي الآباءُ هذا المرحلةَ مرحلةَ الأسْر. لا يَعُدْ في مستطاعِ الفردِ التراجُعُ ويمضي في تنفيذِ الفعلِ الأثيمِ ويصيرُ الفعلُ عادَةً، يُكرِّرُها مرارًا».

قاطعتُهُ قائلًا: «يطلقُ علماءُ النفسِ على هذه الحالةِ صفةَ الإدمان».

- «الآباءُ القدّيسونَ يؤسّسُونَ استنتاجاتِهم واكتشافاتِهم على تجاربِهم الشخصيّة. فَهُم علماءُ النفسِ في المعنى الأحقِّ لتلكَ الكلمة».

وافقتُ وقلتُ: «قدْ يكُونُ الأمرُ كذلك، فبِالنهايةِ، علمُ النفسِ الحديثُ، لا يقبلُ حتّى بحقيقةِ النفس».

هَزَّ الأبُ مكسيموس رأسَه وتنهّدَ قبلَ متابعةِ الكلام: «أخيرًا، يُميِّزُ الشيوخُ القدّيسونَ المرحلةَ الأخيرةَ في تطوُّرِ حركةِ الأفكارِ وهي الهوى أو الهوس. إذْ يصبحُ الفكرُ حقيقةً مُتَحَصِّنةً داخلَ وعيِ الإنسان، داخلَ النوس. يُصبحُ الفردُ أسيرًا لأفكارٍ استحواذيّةٍ تقودُهُ باستمرارٍ إلى القيامِ بأفعالٍ تدميريّةٍ

تؤذيه والآخرينَ من حولِه. تمامًا، كالمقامرةِ المُكْرِهَة. نبَّهَنا الآباءُ والشيوخُ أنَّه عندما تُهيمِنُ علينا مثلُ هذه الأهواء، نصيرُ كَمَنْ سلَّمَ الشيطانَ مفتاحَ بابِ قلبِه، فيدخلُ ويخرجُ ساعةَ يشاء. نرى الكثيرَ من إخوتِنا وأخواتِنا يُكافحون بيأسٍ للتغلُّبِ على أهوائِهم وإدمانِهم، لكنْ من دونِ أيِّ نجاحٍ يُذكر. يُدرِكون جيِّدًا أنَّ كلَّ ما يفعلونَه يؤدِّي إلى تدميرٍ ذاتيّ. يستطيعونَ التفكيرَ بوضوحٍ عقليٍّ، لكنَّ قلبَهم مأسور. لا يستطيعونَ إخراجَ تلكَ الطاقةِ السلبيَّةِ التي تتملَّكُهم وتسيطرُ عليهم».

سألتُ: «إذًا، ما العملُ لإنقاذِ أولئكَ الناس؟ ألا رجاءَ لهم للتحرُّرِ من أهوائِهم التدميريَّة».

أجابَ الأبُ مكسيموس: «بنعمةِ الروحِ القدسِ كلُّ شيءٍ ممكنٌ، بما في ذلكَ شفاؤهم».

من ثمَّ، لخَّصَ، كأستاذٍ بارعٍ، المراحلَ الخمسةَ لِحركةِ الأفكارِ وتطوُّرِها. رفعَ أصابعَ يدِه اليُمنى الخمسَةَ عاليًا، وقال: «إذًا، هناكَ خمسةُ مراحلَ في تطوُّرِ الفكر: الهجوم، التفاعل، القبول، الأسر، والهوى. تلكَ هي تقريبًا كلُّ المراحل. وهي تنمو وتتجلَّى داخلَنا، أحيانًا على نحوٍ تدريجيٍّ، وأحيانًا أُخرى كالجُرف».

قلتُ: «حتَّى الآن، لمْ نتحدَّثْ عن كيفيَّةِ مواجهةِ تلكَ الأفكارِ التدميريَّة، ولا عن كيفيَّةِ منعِ تطوُّرِها منذُ مرحلةِ الهجومِ حتَّى المرحلةِ الأخيرةِ، مرحلةِ الهوى».

وفيما كنتُ أتلفَّظُ بآخرِ كلمة، فُتِحتْ بوَّابةُ الدير. إنَّه الأبُ أرسانيوس بإبتسامتِه المعهودة، فَقَدْ أدركَ أنَّ رئيسَ الديرِ وأنا محتجزانِ خارجًا.

اقترحَ الأبُ مكسيموس: «لماذا لا نؤجِّلُ الحديثَ في هذه المواضيعِ إلى وقتٍ لاحق، فالوقتُ متأخِّرٌ وكلانا مُنهَك».

دخلْنا إلى باحةِ الديرِ وتوجَّهَ كلٌّ منَّا نحو قلاَّيتِه.

الفصل ١٠

استراتيجيّات

أمضى الأبُ مكسيموس مُعظمَ ساعاتِ الصبيحةِ في مكتبِه، يتحدَّثُ إلى شابّينِ في منتصفِ العشريناتِ من العمرِ كانا قد وصلا إلى الديرِ قبلَ أسبوعَينِ وأقاما في إحدى القلّاياتِ المخصَّصةِ للحجّاج. إفترضتُ آنذاكَ أنّهما طالبَيْ رهبنةٍ مُحتمَلَين يَستكشفانَ خيارَ الحياةِ الرهبانيّة. لكنَّ استِفانوس، الذي له مكانةُ الأبِ العلمانيِّ بينَ الرهبانِ الشبابِ في الديرِ ويعلمُ بدقائقِ الأمورِ ومُجرياتِها، أخبرَني سرًّا بأنَّ الشابَّينِ يتعاطيانِ المخدِّراتِ وأنَّ حالتَهما متقدِّمةٌ وبالغةُ الخطورة. وأنّهما أتيا بهدفِ التحرُّرِ من إدمانِهما القاتل، وليسَ لديهما بالأساسِ أيُّ إهتمامٍ بخلاصِ نفسَيهما. فالأبُ مكسيموس هوَ معالِجُهُما، والديرُ يقدِّمُ الخدمَةَ كعيادةِ إزالةِ السموم.

كنتُ جالسًا على المقعدِ الخشبيِّ خارجَ قلّايتي أقرأُ، وإذا بالأبِ مكسيموس يخرجُ من مكتبِه مُلوِّحًا لي كي أنضمَّ إليهم. فَوْرَ دخولي إلى المكتب، تطوَّعَ الشابّانِ بالبَوحِ لي بكاملِ التفاصيلِ والوقائعِ الدقيقةِ عنْ قصّتِهما مع الإدمان. أحدُهما كانَ قد أنهى حُكمًا بالسجنِ لمدّةِ سنتَين لحيازةِ الكوكايين والإدمانِ

عليه. أمَّا الآخرُ، وهو شابٌّ طويل، لاعبُ أولمبيادٍ سابقٌ من اليونان، فَقَدْ كانتْ مشكلتُه أعظم. فإنَّ 'رفاقَ السوءِ' أوقعُوهُ في مختلفِ أنواعِ الأذى وأفعالِ السوء، وفي النهايةِ إلى إدمانِ الهيروييِن. ولقدْ أرسلَهُ أبواه اليائسانِ إلى قبرصَ بعدَ سماعِهما من صديقٍ قبرصيٍّ عن الأبِ مكسيموس ومواهبِهِ الروحيَّة.

وأخبرني كلاهما، أنَّه لولا حسنُ الضيافةِ والعنايةُ التي تلقَّياها في دير الفائقةِ القداسة، وإرشادُ الأبِ مكسيموس الروحيُّ لهما، لَكَانا عادا إلى الشارع، إلى الإدمان. عندما سألتُهما إنْ كانا يأخذانِ بِعَينِ الاعتبارِ إمكانيَّةَ التحاقِهما بالطغمةِ الرهبانيَّة، أكَّدا لي على نحوٍ قاطعٍ أنْ لا نيَّةَ لديهما للإقدامِ على ذلك، وأنَّ إقامتَهما المؤقَّتةَ في الديرِ هيَ لأسبابٍ علاجيَّةٍ محضة. مع ذلك، أثناءَ إقامتِهما في الدير، توجَّبَ عليهِما اتِّباعُ النظامِ اليوميِّ للرهبان، أيْ الاستيقاظُ في الساعةِ الثالثةِ والنصفِ فجرًا للمشاركةِ في صلواتٍ طويلة، وممارسةُ صلاةِ يسوعَ، والصومُ، والعملُ في الحقل. وعلى ما يبدو، إتِّباعُ هذا النظامِ الديريِّ أفادَهما وكانتْ نتيجتُهُ جيِّدة، إذْ أثناءَ وجودِهما في الدير، لم يتعرَّضْ أيٌّ منهما لعوارضِ الانقطاعِ عن تعاطي المخدِّرات. أخبرَني الأبُ مكسيموس لاحقًا بأنَّه قلِقَ من أنَّ إقامتَهما القصيرةَ في الديرِ قد لا تكونُ كافيةً لإعادةِ تأهيلِهما على المدى الطويل. فضلًا عن ذلك، كانَ قلِقًا من تعاظمِ مشكلةِ الإدمانِ على المخدِّراتِ في الجزيرة، وعنْ دورِ الحكومةِ الصغيرِ في معالجةِ هذا الأمرِ الخطيرِ واحتوائه. إزاءَ ذلك، شعرَ بأنَّه ملزمٌ شخصيًّا بعملِ شيءٍ ما في هذا الصدد.

في عصرِ ذلكَ اليوم، طلبَ منِّي أنْ آخذَه بالسيَّارةِ إلى أسفلِ الجبل، مسافةَ نصفِ ساعةٍ من الدير، إلى ورشةِ بناءِ 'مركزِ الحمايةِ القدُّوسة'، وهو

مركزُ إعادةِ تأهيلِ المدمنينَ على المخدّرات. أطلقَ العملَ ببنائِه قبلَ عامٍ تقريبًا بمبادرةٍ شخصيّةٍ منه. وفيما كنّا متوجّهَين بالسيّارةِ إلى المكان، روى لي عنِ الظروفِ التي أدّتْ إلى إنشاءِ هذا المركزِ.

فمنذُ سنةٍ ونصفٍ تقريبًا، بدأَ الأبُ مكسيموس بزياراتٍ منتظمةٍ لشابٍّ مسجونٍ مدمنِ مخدّراتٍ لأجلِ مساعدتِه. كان إطلاقُ سراحِ الشابِّ وشيكًا، ذلك بعدَ تمضيةِ عقوبةِ السجن. ولكنْ لم يكنْ هنالِك، في ذلكَ الوقت، أيُّ مركزٍ متخصّصٍ يساعدُ في إعادةِ تأهيلِه. عندَ سماعِه هذا، عمِلَ الأبُ مكسيموس ما يُجيدُ فعلَه، وهو الصلاةُ من أجلِ هذا الأمر. بعدَ ذلك، وقعتْ حادثةٌ غريبةٌ في الدير، إعتبرَها الأبُ مكسيموس استجابةً لصلاتِه وتدخُّلًا إلهيًّا. روى ما يلي:

«باكرًا في صباحِ السادسِ من كانونَ الثّاني ١٩٩٦، ما إنْ فتحَ الرهبانُ بوّابةَ الدير، حتّى دخلَ كلبٌ برّيٌّ متوحّشٌ إلى الباحةِ الداخليّة. كانَ الكلبُ خارجًا عن السيطرة، قضمَ ساقَ الأبِ أرسانيوس، وعندما حاولَ الأبُ إسحقُ التدخُّل، عضَّ ذراعَهُ الأيمن. كانَ الأمرُ فظيعًا. في النهاية، استطعْنا طردَهُ خارجَ البوّابةِ وأغلقناها بإحكام. إلاّ أنَّ الكلبَ لم يغادرِ المكانَ واستمرَّ بالعِواء والنباحِ في الخارج. كانَ عيدُ الظهورِ الإلهيّ، فَقلِقْنا على سلامةِ القادمينَ للمشاركةِ في خدمةِ الصباح. لذا استدْعَينا الشرطة. إلاّ أنّهم أجابوا أنَّ عملَهم لا يشملُ الكلابَ الضالَّةَ وبأنّه يجبُ علينا الاتّصالُ بهذهِ الوكالةِ وتلك. وهذا ما فعلناه. أتتصوَّرُ ما كانَ ردُّهُم؟ حذّرونا من التسبُّبِ بأيِّ أذًى للكلبِ وأكّدوا علينا أنْ نطعِمَهُ ونهتمَّ به إلى حينِ وصولِهم. وقبلَ وصولِهم إلى الدير، اتّصلوا بنا عدّةَ

مرّاتٍ للتأكُّد، لا على سلامةِ الناس، إنْ كانَ أحدُهم قد تعرَّضَ للأذى بلْ على سلامةِ الكلبِ وحالِه».

ضحِكَ الأبُ مكسيموس كعادته وقال: «أتصدِّقُ ذلك؟»

ثمَّ تابع: «بعدَ تلكَ الحادثةِ، فكَّرتُ، إنْ كانَ هنالِك هذا القدرُ من الاهتمامِ والحرصِ على سلامةِ الكلابِ البرِّيَّة، ألا يجدُرُ بنا أنْ ننشِئ وكالاتٍ ومراكزَ تعتني وتحرصُ على سلامةِ مدمني المخدِّرات؟ إنْ كانَ هنالِكَ بيوتٌ تحتضنُ الكلابَ الضالَّة، فلماذا لا يكونُ هناكَ بيتٌ يحتضنُ أولئكَ المدمنين؟

حادثةُ الكلبِ تلك، أوحتْ إليَّ بفكرةِ جمعِ تبرعاتٍ لإنشاءِ مركزٍ متخصِّصٍ لإعادةِ تأهيلِ المدمنين. وأوّلُ عملٍ قُمتُ به لتحقيقِ هذه الفكرة كانَ إلقاءَ محاضرةٍ في نيقوسيا. تفاجأتُ بردَّةِ الفعلِ إذْ تبرَّعَ الكثيرُ من الحضورِ بالمالِ ووصلَ مجموعُ التبرُّعاتِ إلى أربعةِ آلافِ جنيهًا قبرصيًّا (أيْ ما يعادلُ ثمانيةَ آلافِ دولارًا أميركيًّا حينذاك). وضعَ الحضورُ المالَ بين يديَّ. لم يكنْ لديَّ أيَّةُ فكرةٍ عمَّا يلزمُ أنْ أقومَ به. في صباحِ اليومِ التالي، تلقَّيتُ مكالمةً من إمرأةٍ مهجَّرةٍ في العقدِ السادسِ من العمر. أخبرَتْني أنَّها ورثتْ خمسةَ آلافِ جنيهًا قبرصيًّا وترغبُ في التبرُّعِ بها مساهمةً لإنشاءِ مركزِ التأهيل. وضعْنا كلَّ المالِ الذي جمعنا في حسابٍ خاصٍّ، وكان تسعةَ آلافِ جنيهًا».

قُدتُ السيَّارةَ باحتراسٍ شديدٍ على طريقٍ ترابيٍّ وعرٍ، بينما تابعَ الأبُ مكسيموس: «في نهارِ السبتِ التالي، أمضَيت يومِي كلَّهُ إلى ساعةٍ متأخِّرةٍ من بعدِ الظهر، أُعرِّفُ الحجَّاج. وما إنِ استمعتُ لاعترافِ آخرِ المنتظرين، حتَّى

خرجتُ من غرفةِ الاعترافِ ونزلتُ الدرجَ وأنا في حالةِ إعياءٍ وتعبٍ شديدَين. كانتْ تنتظرُني سيِّدةٌ، وظننتُ أنَّها تريدُ رؤيتي لتعترفَ. قُلتُ لها: 'يا سيِّدتي العزيزة أنا تعِبٌ جدًّا، رجاءً عُودي لرؤيتي في يومٍ آخر. بالكادِ أستطيعُ الوقوفَ من كثرةِ التعب'. أصرَّت: 'لكنْ يا أبتِ، أريدُ التحدُّثَ معكَ في أمرٍ مهمٍّ للغاية'. أجبتُها بنبرةٍ ثابتةٍ وحازمة: 'أعتذرُ منكِ كثيرًا، لكنْ في حالتي هذه لا يُمكنُني مساعدتُكِ'. لاحظتُ سيِّدتَين أُخريَين تجلسانِ في الطرفِ الآخرِ من الدرجِ وافترضتُ أنَّهما جاءتا أيضًا للاعتراف. فألَحَّت: 'يا أبتِ، جئْنا للتبرُّعِ بمبلغٍ من المالِ لأجلِ المركزِ الذي أنتَ في صددِ إنشائِه'. 'شكرًا جزيلًا لَكُنَّ. يمكنكنَّ إعطاءَ المالِ إلى الأبِ أرسانيوس وسيكتبُ لَكُنَّ إيصالًا'. لكنَّها أصرَّت: 'يا أبتِ، نريدُ أنْ نتبرَّعَ بمبلغٍ كبيرٍ من المال'. ظننتُ أنَّها تتكلَّمُ عن مئةِ جنيهًا قبرصيًّا أو ما يقارب. 'يا أبتِ، أنتَ لا تفهم، أتحدَّثُ عن نصفِ مليونِ جنيهًا (مليون دولارًا أميركيًّا حينذاك)'. جمَدْتُ حيثُ أنا. وإذا بها تُكرِّرُ مؤكِّدة: 'هل تسمَعُني؟ المبلغُ بالجنيه القبرصيِّ، لا الدراخما اليونانيَّة'. سألتُها: 'هل أنتِ جادَّةٌ أمْ هذه مزحة؟'. أجابتْ بثقة: 'أتَرى هاتَين السيِّدتَين الجالستَين على طرفِ الدرج؟ أتعرفُ من يكنَّ؟'. كيفَ لي أنْ أعرفَ أنَّهما زوجتا اثنَين من كبارِ مالكي أساطيلِ السفنِ السياحيَّةِ في اليونان؟ وقد جاءَتا إلى قبرصَ للتبرُّع، عندَ سماعِهما بالمركزِ المَنْويِّ إنشاؤه؟ في ذلكَ اليوم، تبرَّعتْ كلُّ واحدةٍ منهما بمبلغِ ربعِ مليونِ جنيهًا».

تابعتُ طريقي غيرَ مصدِّقٍ ما سمعتُه، وأضافَ الأبُ مكسيموس: «في اليومِ التالي، جاءَ لزيارةِ الديرِ رجلُ أعمالٍ قبرصيٌّ مشهورٌ بصحبةِ زوجتِه. إذْ

لمَّا سمعا بالتبرُّع ودونَ أنْ يتوجَّه إليهِما أحدٌ طالبًا المساعدة، قرَّرا المجيءَ إلى الديرِ والتبرُّعَ بنصفِ مليون جنيهًا».

- «غيرُ معقول. إنَّه أمرٌ لا يصدَّق!»

التفتَ الأبُ مكسيموس نحوي وقالَ بنبرةٍ جِدِّيَّةٍ ثابتة: «أتصدِّقُ يا كيرياكو، أصدقاءٌ لذاكَ الزوج، وهم من الأغنياء، تبرَّعوا في اليومِ التالي بمائةِ ألفِ جنيهًا إضافيًّا. أيْ في فترةِ أسبوعٍ واحدٍ فقطْ تمَّ جمعُ أكثرَ من مليون جنيهًا دونَ بذلِ أيِّ جهدٍ من جهتِنا».

وأضافَ الأبُ مكسيموس، أنَّ الديرَ قدَّمَ أفضلَ بقعةِ أرضٍ يملِكُها لبناءِ المشروعِ وهي على بُعدِ عدَّةِ أميالٍ فقط من الديرِ في أسفلِ الجبل. وأنَّ البناءَ دخلَ الآنَ مرحلتَهُ النهائيَّة: «تبقى المشكلةُ الوحيدةُ العالقةُ اليوم، هي إيجادُ متبرِّعينَ لتشغيلِ المركزِ وإدارتِه».

وبينما اقترنْا من موقعِ البناء، سألتُه: «إنَّها مشكلةٌ مهمَّة. هلْ فكَّرتَ في الحلّ؟»

أجابَني بابتسامةٍ عريضةٍ على وجهِه: «الصلاةُ أكثر». فالأبُ مكسيموس يؤمنُ بقوَّةٍ أنَّه، إذا صلَّى الإنسانُ بصدقٍ وإلحاحٍ من القلبِ لأجلِ منفعةِ الآخرين، فلا بدَّ أنْ يستجيبَ اللّٰه الكلِّيُّ القدرةِ بشكلٍ أو بآخر.

* * *

يقعُ مركزُ تأهيلِ المدمنين على المخدِّراتِ في وسطِ بستانِ زيتونٍ عتيق،

يتلاءمُ في هدوئهِ معَ هدفِ المركز. بدَا المبنى مثل الدير، في شكلِه الهندسيِّ المربَّعِ والمكوَّنِ من طابقَين، تتوسَّطُه باحةٌ فسيحةٌ وتلفُّهُ القناطرُ التقليديَّة. فالأبُ مكسيموس الشديدُ التدقيقِ في الجماليَّاتِ حرصَ أنْ يكونَ المبنى ممتزجًا متناغمًا مع محيطِهِ الريفيّ. وقالَ لي ونحنُ نتفقَّدُ الموقعَ والبناءَ المُشيَّد: «هذا الموقعُ كانَ مناسبًا ورائعًا لإقامةِ معهدِ لاهوت».

قلتُ ممازِحًا: «حسنًا، صلِّ بلجاجةٍ أكثر، ومن حيثُ لا تدري قدْ يظهرُ متبرِّعٌ ما يمدُّكَ بالمال».

سُرَّ كثيرًا العاملانِ اللَّذانِ كانَا يضعانِ اللمساتِ الأخيرةَ على المبنى لرؤيتِهما الأبَ مكسيموس، وقدَّما لنا المرطِّبات. أحضرا لنا كرسيَّين وجلسنا على جانبِ المبنى تحتَ شجرةِ زيتونٍ معمِّرة. وفقًا لمعلوماتِ أحدِ العمَّال، وهو من أبناءِ قريةٍ مجاورة، فإنَّ تلكَ الشجرةَ يقدَّرُ عمرُها بثمانمائةِ سنةٍ تقريبًا. هناكَ جلسنَا، نَرْشفُ مرطِّبَ صودا البرتقالِ مستمتِعَينِ بمنظرِ أشجارِ الزيتونِ التي تلفُّ المكانَ وكأنَّها لوحةٌ زيتيَّةٌ رائعة.

قلتُ مقترِحًا: «ربَّما يكونُ الوقتُ والمكانُ مناسبَينِ الآنَ لإستئنافِ حديثِنا غيرِ المنتهي حولَ الأفكار. إذْ لمْ نناقشْ حتَّى الآنَ كيفَ تمكنُ مقاومةُ الأفكارِ السلبيَّة، ولا كيفَ يكونُ التعاملُ معَها إنِ استعبَدَتْنا».

بعد لحظةِ تفكيرٍ قال: «أحدُ حجَّاجِ الجبلِ المقدَّس، سألَ شيخًا عن موضوعِ الأفكار: 'يا أبتِ، آلافُ الأفكارِ تُزعجني، خاصَّةً عندما أكونُ في الكنيسةِ أثناءَ الخدمِ الإلهيَّة. تجتاحُني أفكارٌ سلبيَّة، مجدِّفةٌ على اللهِ والأسرارِ

المقدَّسةِ والكهنة، وتتملَّكُني الرغبةُ في الهروب. لمْ أعُدْ أحتمل، أشعرْ بأنّي أحترق. ماذا أعمل؟'. أجابَه الشيخُ مشيرًا إلى السماء: 'أتعرفُ ماذا تُشبهُ هذه الأشياء؟'. بينما كانا يتكلّمانِ سمعًا أزيزَ طائرةٍ حربيَّةٍ في سماءِ جبلِ آثوس...».

قلتُ مقاطِعًا: «لطالَما اعتقدتُ أنَّ الحكومةَ اليونانيَّةَ لا تسمحُ للطائراتِ بالمرورِ فوقَ شبهِ جزيرةِ آثوس».

- «وقائعُ هذه الرواية، كانت قبلَ أنْ يُسنَّ هذا القانون. على أيَّةِ حال، أوضحَ الشيخُ للحاجِّ: 'الطائراتُ التي تُحدِثُ الضوضاءَ والأزيزَ المزعج، لا يُمكنُها أنْ تهبطَ في جبلِ آثوسَ لأنَّه لا يوجدُ مطارٌ هنا. إنْ لم نُعْطِ الأفكارَ الإذنَ بالهبوطِ في أعماقِ قلوبِنا وعقولِنا، حتَّى لو رأيناها وسمعناها، وحتَّى إنْ أقلَقَنا حضورُها لفترةٍ من الوقت، يجبُ ألاَّ نخافَها. يجبُ ألاَّ ننوحَ ونضربَ صدورَنا لأنَّ طائرةً مرَّتْ فوقَ سقفِ بيتِنا'».

وأردفَ الأبُ مكسيموس ممازِحًا: «فقطْ إنْ تحطَّمتْ تلكَ الطائرةُ فوقَ بيتِنا حينذاك يجبُ أنْ نقلق».

- «إذًا، يعلِّمُنا الآباءُ القدِّيسونَ أنَّ أفضلَ استراتيجيَّةٍ لمجابهةِ الأفكارِ المزعجةِ، هي، ببساطةٍ، تجاهُلُها».

- «بالضبط. دفاعُنا الأوَّلُ ضدَّ الأفكارِ التدميريَّةِ هو اتِّباعُ أسلوبِ اللامبالاةِ الكاملة. هذه أفضلُ استراتيجيَّةٍ صحِّيَّةٍ على الصعيدِ الجسديِّ والنفسيِّ، وأفضلُ وسيلةٍ لبترِ الأفكار وهيَ في المهد. تجاهَلْها بالكلِّيَّة. لا

تتحاورْ أبدًا مع أولئكَ الدخلاء. لا تتفاعلْ معهم أبدًا سواءٌ من دافعِ الفضولِ أَو المغالاةِ بالثقةِ بالنفس. فهذا خطأٌ تكتيكيٌّ. كأنَّكَ تتجاسرُ فتبدأُ حوارًا مع عدوٍّ لدودٍ أكثرَ دهاءً منك. إذا أعطيتَ انتباهًا للأفكارِ سرعانَ ما ستزدادُ جسارتُها تدريجيًّا. ستبدأُ بمهاجمةِ قلبِك بمزيدٍ من الضوضاءِ والأزيز. إذًا، أفضلُ إستراتيجيَّةٍ لمواجهةِ حربِ الأفكارِ هي تجاهلُها بالكامل. لا تهتمَّ لما تُمليه عليكَ وتحثُّك لفعلِه».

قُلتُ: «ومبدأُ التجاهلِ مُجْدٍ لا في تجنُّبِ الأفكارِ فحسب بلْ عندما يستفزُّنا الآخرون أيضًا».

- «نعم، بالتأكيد، طالما أنَّكَ تَحفظُ في ذهنِكَ أنَّ البشرَ ليسُوا أفكارًا، بل منتِجينَ لها».

ولكي يوضحَ طريقةَ اللامبالاةِ والتجاهل، قال الأبُ مكسيموس: «تَخيَّلْ أنَّكَ داخلَ بيتِكَ والأبوابُ والنوافذُ مغلقةٌ بِإحكام، وشخصٌ ما في ساحةِ منزلِكَ الخارجيَّةِ يُمطِرُك كلامًا بذيئًا ويتحدَّاك للخروجِ للتقاتل. هو لا يستطيعُ الدخول. إنَّهُ في الخارج يرشُقُكَ بالإهانات. يتوعَّدُكَ ويهاجِمُكَ كلاميًّا بكلِّ ما أوتِيَ من شتائمَ لكي يستثيرَكَ للرَّدِّ والخروجِ من البيت. إنَّ أفضلَ استراتيجيَّةٍ تتَّبِعُها هي عدمُ المبالاة. لا تُركِّزْ عليه. لا تُعِرْهُ اهتمامًا. إبقَ في الداخل، مُوقِنًا أنْ لا علاقةَ لكَ بذلك الشخص. دعْهُ يَصرخْ قدرَ ما يشاء. فهو لا يستطيعُ إيذاءَكَ طالما أنَّك في البيتِ والأبوابُ والنوافذُ أُغلِقَتْ بإحكام. ولقد سمَّى الشيوخُ القدِّيسونَ هذه الحالةَ الذهنيَّةَ بـ 'استراتيجيَّة اللامبالاة'. وهي أنجعُ

طريقةٍ لمحاربةِ الأفكار. أبْقِها خارجًا فقط».

سَألتُ: «لكنْ أليسَ هنالِكَ حالاتٌ حيثُ تَجِدُ نفسَك بكلِّ بساطةٍ غيرَ قادرٍ على تجاهلِ الفكر، بل أنتَ مُلزَمٌ بالرَّدِّ؟»

- «أنتَ تعرفُ، بالطبع، أنَّ لكلِّ قاعدةٍ استثناء. ففي الحالاتِ عندما تمسُّ الأفكارُ السلبيَّةُ مبادئَ الإيمانِ الجوهريَّة، كحقيقةِ وجودِ اللّهِ مثلًا، عندَ ذاك، ربَّما، يُمكن اتِّباعُ إستراتيجيَّةٍ معاكِسة، معارَضةٍ سريعة».

قلتُ متعجِّبًا: «كنتُ أفترضُ بأنَّهُ، خصوصًا في ظروفٍ مماثلة، يجبُ أنْ يكونَ الصمتُ هو أفضلُ استراتيجيَّة».

- «لا، ليسَ دائمًا. دعني أوضِّحْ لكَ جليًّا السبب. إفترضْ أنَّ فكرًا يزعجُكَ بالتلميحِ المثابرِ بأنَّ اللّهَ غيرُ موجود. تذهبُ للاشتراكِ في المناولةِ المقدَّسة، فيأتيكَ هذا الفكرُ ليقولَ: 'ماذا تعملُ هنا؟ اللّهُ غيرُ موجود. ما هذا الهراءُ والسُّخفُ، تشربُ نبيذًا وتأكلُ خبزًا وتدعوه دمَ المسيحِ وجسدَه. هذا طقسٌ يتبعُه آكِلو لحومِ البشر، إنَّه أثرٌ باقٍ من عصورٍ غابرة؟ فهذه طقوسٌ يختلقُها الكهنةُ لتأمينِ استمراريَّةِ عملِهم'. أو ربَّما أفكارٌ تقولُ لكَ إنَّ الكتابَ المقدَّسَ ليسَ نصًّا ملهمًا من اللّه، بل هو مجرَّدُ كتابٍ يُبقي الناسَ في الجهلِ ويُسهِّلُ انقيادَهم. إذَّاك، عليكَ بالردِّ بحججٍ مضادَّة، مثلًا: 'حسنًا، تقولُ إنَّ اللّهَ غيرُ موجود، أيُمكنُك إذًا إعطائي تفسيرًا مقنِعًا عن كيفيَّةِ خلقِ الكون؟'. في أمورٍ ترتبطُ بِأُسُسِ إيمانِك قدْ تجدُ نفسَك مُلزَمًا بالردّ.

من الواضحِ، أنَّ هذه المقاربةَ سهلةٌ بالنسبةِ للذين صاروا في اللاهوى

apathia، الذين أخْلوا نفوسَهم ونقّوها من كلِّ الشهواتِ والملذّاتِ الدنيويّة. هؤلاءِ، الذين يجابهونَ الأفكارَ بفاعليّةٍ، يمكنُهم أنْ يتحاوروا معَها ويتغلّبوا عليها. فالسيِّدُ المسيحُ نفسُهُ لمْ يتجاهلِ الشيطانَ عندما واجهَهُ في الصحراء، بلْ ردَّ عليه. واتّبعَ الخطّةَ 'العدوانيّة' باستخدامِهِ الاستراتيجيّةَ ذاتَها التي استعمَلها الشيطان. على سبيلِ المثال، أشارَ الشيطانُ إلى عدّةِ آياتٍ وشواهدَ كتابيّة، فَرَدَّ المسيحُ بآياتٍ كتابيّةٍ أُخرى. وبهذا الأسلوبِ غَلبَه. لكنْ بالطبع، لا يوصى بهذه الاستراتيجيّةِ للمبتدئين. كقاعدة، من الأفضلِ الحفاظُ على حالةِ اللامبالاةِ منذُ البداية».

نهضَ الأبُ مكسيموس وتمطّى، ثمَّ اقترحَ أنْ نتمشّى للاستمتاعِ بإشعاعاتِ الشمسِ المشرقةِ والتي تتألّقُ من بينِ أوراقِ أشجارِ الزيتون.

وفيما كنّا نسيرُ على مهل، سألتُ: «ماذا لو، بالرغمِ منْ كُلِّ جُهودي، لم أستطعْ طردَ الأفكارِ السلبيّةِ بعيدًا، وَوجدتُ نفسي على حافّةِ الاستسلامِ والرضوخِ لها. ما العملُ حينذاك؟»

- «في مثلِ هذه الحالات، يقترحُ الشيوخُ القدّيسونَ لعبةً ذهنيّةً».

- «لعبة؟»

- «نعم. أدخِلْ إلى ذهنِكَ ما يدعونَهُ بالفكرِ المُجزِّئ. هذا يعني أنْ تتمسَّكَ بفكرٍ آخر، وتُركِّزَ ذهنَكَ عليه. أحدُ النسّاكِ قالَ لي أنّه طردَ فكرًا مزعجًا معيّنًا، بتعدادِ الشموعِ في الثريّا المعلّقةِ في وسطِ الكنيسة.

في حالاتِ معاندَةِ الفكرِ ورفضِهِ التراجعَ، ينصحُ الشيوخُ بنقلِ تركيزِنا الذهنيِّ إلى شيءٍ آخر، حتَّى لو كانَ أحمقَ أو غيرَ ذي علاقة. إنَّها مناورةٌ لخِداعِ العقل. فكِّرْ في شيءٍ سخيفٍ لتُقوِّضَ قوَّةَ الفكرِ الذي يُعذِّبُكَ. باستخدامِك هذه الطريقة، يُمكنُك أنْ تُخفِضَ تدريجيًّا طاقةَ الفكرِ وقوَّتَه. وعند عودَتِهِ ثانيةً سيكونُ أضعفَ».

قلتُ معلِّقًا: «بالنسبةِ لي، أجِدُ التمارينَ الرياضيَّةَ كالمشيِ السريعِ في غابةِ ماين أفضلَ وسيلةٍ للتعاملِ مع أفكارٍ مماثلة».

- «جيِّد. الطبيعةُ لها دائمًا تأثيرٌ شافٍ علينا، خاصَّةً الأشجار».

أضفتُ: «في الحقيقة، تقترحُ الشيخةُ غافريليا أنَّهُ عند شعورِكَ بالتعب، امضِ وعانقْ شجرة. فستُشحَنُ بطاقةٍ مُجدَّدة».

- «جيِّد. عليَّ أنْ أَذْكُرَ أيضًا أنَّ الشيوخَ القدِّيسين، يَعتبرون العملَ اليدويَّ طريقةً فعَّالةً وعمليَّةً لمحاربةِ الأفكار».

سَألتُ: «ألِهذا يقضي الرهبانُ وقتَهم إمَّا في الصلاةِ أو في العمل؟». كنتُ قد لاحظتُ أنَّه ليس من وقتٍ للترفيه والراحة. فالرهبانُ في ديرِ والدةِ الإله يُمضون، ما لديهم من وقتِ فراغ، في الصلاةِ والقراءاتِ الروحيَّة. ولقدْ أوضحَ لي الأبُ نيقوديموس قبلَ أيَّامٍ فيما كنتُ أُساعدُه في مكتبةِ الدير، أنَّ الغايةَ من هذه الصرامة هي منعُ الذهنِ عن التشوُّشِ بأمورِ هذا العالمِ التي تُعرقِلُ تدفُّقَ النعمةِ داخلَ الفرد. فكُلُّ لحظةٍ يجبُ أنْ تُستغَلَّ إنتاجيًّا عن طريقِ الصلاةِ الدائمةِ لأجلِ 'اكتسابِ الروحِ القدس'.

قال الأبُ مكسيموس مشيرًا بيدِهِ إلى الحقولِ الواسعةِ المحيطةِ بمركزِ الحمايةِ القدُّوسة: «عملُ الرهبانِ في الحقولِ واعتناؤهم بالبساتينِ ومَزارعِ الخضار، لا يهدفُ إلى تأمينِ القوتِ أو الدعامةِ المادِّيَّة للديرِ فقط، بل هو شكلٌ من أشكالِ التدريبِ الروحيِّ أيضًا». فكَّر لثوانٍ ثمَّ أضاف: «هذا يذكِّرُني، بواقعةٍ من سيرةِ القدِّيسِ أنطونيوس الكبيرِ أحدِ آباءِ البرِّيَّةِ من القرنِ الثالث. عندما هجرَ القدِّيس أنطونيوس حياةَ العالمِ وقصدَ الصحراءَ للتوحُّدِ في ذلكَ الصمتِ الكلِّيِّ، جابَهَ مشكلةَ الأفكارِ التي راحتْ تهاجمُه. وإذْ كانَ عديمَ الخبرةِ آنذاك، شَعَرَ بالضياعِ والتشوُّش. غرِقَ في أفكارِه. ولأنَّهُ كانَ يجهلُ طرائقَ الحربِ الروحيَّة، إكتأبَ بشدَّةٍ ويئِس. فصلَّى إلى اللّهِ بلَجاجةٍ لإرشادِهِ إلى كيفيَّةِ التغلُّبِ على هذا الجمِّ من الأفكارِ الذي يُعذِّبُه. وفي أحدِ الأيَّام، فيما كانَ يصلِّي، رأى على مسافةٍ أبعدَ ناسكًا يصلِّي أيضًا. ولَفَتَهُ أنَّ ذاكَ الناسكَ كانَ يصلِّي لفترة، ثمَّ ينهضُ فيأخذُ مِعولَهُ ويباشرُ العملَ في الأرض، وينظِّفُ المكانَ من حولِ مسكنِه، يفتِّتُ الصخور، يزيلُ الأعشاب، يصنعُ عددًا من السلال، وغيرَ ذلك. ثمَّ يتوقَّفُ وينصرفُ إلى الصلاةِ من جديد. ثمَّ يعودُ إلى العمل. ويعيدُ الناسكُ تلكَ الدورة، منَ الصلاةِ إلى العمل، ومنَ العملِ إلى الصلاة. في الواقع، كان ذاكَ الناسكُ ملاكًا مُرسَلًا من اللّهِ ليعلِّمَهُ كيفيَّةَ الجهادِ النسكيّ. هذا الاختبارُ علَّمَهُ أنَّ العملَ الجسديَّ وخاصَّةً العملَ في الأرض، يُفيدُ الذين يُعانونَ من حربِ الأفكارِ ولا يقدِرونَ على التغلُّبِ عليها بوسائلَ أُخرى. فبالجهدِ الجسديِّ يستطيعُ المرءُ أنْ يتغلَّبَ تدريجيًّا على الأفكار، ويستعيدَ عافيتَهُ الروحيَّةَ والعقليَّة».

قلتُ: «إنْ لم أكنْ مخطئًا، إعْتَرَفَ العلاجُ النفسيُّ التقليديُّ أيضًا بالتأثيراتِ المفيدةِ لبعضِ أنواعِ النشاطات، مثلَ العملِ في الحقولِ والبساتين. في الحقيقة، قرأتُ في مكانٍ ما أنَّهم طبَّقوا في كوبا سياسةً تُلزِمُ المقيمينَ في المصحَّاتِ العقليَّةِ بالعمل، لأنَّه وفقًا للأيديولوجيَّةِ الماركسيَّة، العملُ له قوَّةٌ إصلاحيَّة. فبحسبِ ماركس، لا يمكنُ للمرءِ أنْ يكونَ شخصًا كاملًا ما لمْ يُستخدمْ على نحوٍ خلَّاق».

أشارَ الأبُ مكسيموس إلى الحقولِ المحيطةِ بالمركز وأوضحَ أنَّ جزءًا من برنامجِ إعادةِ تأهيلِ نزلاءِ مركزِ الحمايةِ القدُّوسةِ هو العملُ في الحقولِ والبساتين. قال وهو يتبسَّمُ: «أترى، هذا مجالٌ آخر، نقطةُ التقاءٍ أُخرى في وجهاتِ النظرِ بينَ النسَّاكِ والماركسيِّين».

ثمَّ بنبرةٍ أكثرَ جِدِّيَّةً تابعَ قائلًا: «إنَّه لشيءٌ فظيعٌ حقًّا رؤيةُ أناسٍ واقعينَ تحتَ طغيانِ فكرٍ تدميريٍّ، وقد أَسَرَ أذهانَهم. الأمرُ أحيانًا لا يُصدَّق. أثناءَ الاعتراف، أَلتقي بأُناسٍ يضربونَ على صدورِهم ويقرُّون بدموعٍ مريرة: 'لا، لا أريدُ عملَ هذا الشيء. سأتحطَّمُ، سأضيع'. وما إنْ يخرجوا من غرفةِ الاعترافِ حتَّى يرتكبوا الفعلَ الذي أقسموا قبلَ دقائقَ أنَّهم لا يرغبونَ بفعلِه. أَتعرفُ لماذا؟ لأنَّ عقولَهم أصبحتْ رهينةً لفكرٍ معيَّن. لذا، في تلك الحالاتِ، قد تكونُ طريقةُ الفكرِ المجزِّئ فعَّالة».

سألتُ: «أبتِ، لم تَذكُرِ الصلاةَ حتَّى الآن. أليست وسيلةً تحمي المرءَ من الأفكارِ المزعجة؟»

- «هذا من تحصيلِ الحاصل. بالطبع، الصلاةُ هي أكثرُ الطرائقِ فاعليَّة. هي السلاحُ الأقوى تحتَ تصرُّفِنا نحنُ المسيحيِّين. وأهمُّ الصلواتِ هي صلاةُ يسوع، الدعاءُ المتكرِّرُ لاسمِ المسيح: 'يا ربِّي يسوعُ المسيحُ، ابنُ اللهِ، ارحَمْني'. واحفظْ في ذهنِك دائمًا، أنَّ المشاركةَ في الأسرارِ وتقليدِ الكنيسةِ هي شكلٌ من أشكالِ الغذاءِ الروحيِّ الذي يخترقُ عالمَنا الداخليَّ ويزوِّدُ نفوسَنا بالقدرةِ للتغلُّبِ على الأفكار. هذا النوعُ من العملِ الروحيِّ ندعوهُ باختصارٍ 'النسك'، أي الصلاةَ والصومَ والاعترافَ والمناولةَ المقدَّسةَ ومطالعةَ الكلمةِ الإلهيَّةِ وسِيرِ القدِّيسينَ والسهرَ اليقظَ في السهرانيَّاتِ وما إلى ذلكَ من الجهاداتِ الروحيَّة. فهذه الجهاداتُ تُقوِّي النفسَ وتُحصِّنُها بالنعمةِ الإلهيَّة. هذا هو الطريقُ الذي تسلكُهُ النفسُ لبلوغِ العافيةِ الروحيَّة».

بقيَ الأبُ مكسيموس صامتًا مفكِّرًا للحظاتٍ ثمَّ قالَ بهدوءٍ ونحنُ سائرَينِ إلى حيثُ أوقفْنا السيَّارة: «هناكَ تفصيلٌ مهمٌّ يجبُ أنْ نتذكَّرَه دائمًا فيما يتعلَّقُ بتكرارِ صلاةِ يسوعَ كوسيلةٍ للتغلُّبِ على الأفكار. على المرءِ ألاَّ يلجأَ مباشرةً إلى صلاةِ يسوعَ فورَ تعرُّضِه لهجومِ الأفكارِ المُزعجة».

سألتُ متحيِّرًا: «ولم لا؟»

- «ما سأقولُه قد يبدو متناقضًا. لكنَّ الإستعانةَ الآليَّةَ بصلاةِ يسوع، يمكنُ أن تأتيَ بتأثيراتٍ معاكِسة. قد تقودُ المرءَ إلى اضطرابٍ نفسيٍّ مفرطٍ وإلى فقدانِ السيطرةِ على النفس. إعتادَ الشيخُ پاييسيوس أنْ يردِّدَ على مسامعِنا أنَّ الذي يلجأُ إلى تردادِ صلاةِ يسوعَ بسرعةٍ عندَ مهاجمةِ الأفكار، يُشبهُ الجنديَّ

المُرتعبَ في ساحةِ قتالٍ حامية. يُمسكُ بندقيَّتَهُ بإحكامٍ إلى صدرِه، مشلولًا من الخوف. ولكي يُطمئنَ نفسَهُ بأنَّه ليسَ خائفًا يُردِّد: 'أيَّتها العذراءُ الفائقةُ القداسةِ أعينيني، أيَّتها العذراءُ الفائقةُ القداسةِ أعينيني'. ويمكثُ في مكانِه يرتجفُ من رأسِه حتَّى أخمصِ قدمَيه، مشلولَ الحركةِ تمامًا، غيرَ قادرٍ على القتالِ ولا حتَّى على التنفُّس».

ضحِكَ الأبُ مكسيموس وقال: «هذا يذكِّرُني بطبيبِ أسنانٍ في جبلِ آثوس. هذا ما إنْ يلقي نظرةً داخلَ أفواهِنا يتنهَّدُ ويرسمُ نفسَه بإشارةِ الصليب، ويبدأُ بالنحيب: 'أيَّتها العذراءُ الفائقةُ القداسة، أترجَّى مساعدَتَك، ليضَعِ اللهُ يَدَه هنا'.

حينَ يُهاجِمُ المرءَ فكرٌ مزعج، عليه قبلَ البدءِ بالصلاة، أنْ يضبطَ الأمرَ ويسيطرَ عليه بصورةٍ عقلانيَّة. وإنْ أمكن، فأفضلُ وسيلةٍ هي استراتيجيَّةُ اللامبالاةِ الكاملةِ».

- «إذًا، متى يجبُ على المرءِ أنْ يصلِّي؟»

- «صلِّ، لكنْ ليسَ وأنتَ في حالةِ الاضطرابِ والفزع. ليسَ لحظةَ شنِّكَ حربًا ضدَّ فكرٍ يَشلُّك. لأنَّك في ظروفٍ مماثلة، تكونُ غيرَ محصَّنٍ وتسقطُ في مكائدِ العدوّ. الصلاةُ تعملُ عملَها في أعماقِ قلبِ الإنسانِ وتُؤدِّي إلى العافيةِ الروحيَّةِ الحقيقيَّة. لكنْ يجبُ ألاَّ تكونَ الصلاةُ بديلًا عن استِعمالِ عقلِنا وقوَّةِ إرادتِنا في مجابهةِ الأفكار. يجبُ ألاَّ تُمارَسَ في حالةِ الفزع. فحالُنا، ساعتئذٍ كحالِ الجنديِّ المشلولِ في روايةِ الشيخِ باييسيوس».

أشرتُ: «أعجبَني ما قلتَه منذُ لحظات، إذْ يوضحُ أنَّ الجهادَ الروحيَّ المنتظَم، ليسَ بالضرورةِ بديلًا عنِ العقلِ والمبادرةِ الشخصيَّةِ والحرِّيَّة، كما يقولُ بعضُ نقَّادِ الدينِ والإيمانِ مرارًا».

أجابَ الأبُ مكسيموس: «بالطبع، لا. يجبُ ألاَّ يكونَ بديلًا عنِ العقلِ والحرِّيَّة. بالعودةِ إلى الشيخِ پاييسيوس، تذكَّرْتُ حادثةً تُضحكُني كُلَّما تفكَّرْتُ فيها. كنَّا نصلّي معًا صلاةَ الغروبِ في كنيسةِ منسكِه الصغيرة. تركَ الشيخُ الكنيسةَ وتوجَّهَ إلى قلاَّيتِه للتحدُّثِ مع أحدِ الحجّاج، فيما كنتُ أنا في الهيكل. فجأةً، رأيتُ من النافذة، الشيخَ پاييسيوس يُسرِعُ خارجًا ويبدو مريضًا. بدأَ يتقيَّأُ، فسارعتُ لمساعدتِه. 'ييروندا، ماذا أصابَك؟ هلْ أنتَ مريض؟ هل أجلبُ لكَ كوبَ ماء؟'. أجابَني: 'أوه، لا تهتمَّ، ليسَ شيئًا مهمًّا. لستُ مريضًا'. سألتُه: 'لكنْ ماذا حدثَ؟'. فتنهَّدَ قائلًا: 'ماذا بوسعي أنْ أُخبرَك، لقدْ سمعتُ منذُ لحظاتٍ بعضَ الأمور...'».

وأوضحَ الأبُ مكسيموس: «ما حدثَ في ذلكَ اليوم، هو أنَّ الحاجَّ وصفَ للشيخِ پاييسيوس بالتفاصيلِ فعلًا ارتكبَه، والشيخُ تخيَّلَ في ذهنِه هذا الإثم، ولم يتحمَّلِ الأمر. في يومٍ آخر، أخذتُ أُخبرُه بما سمعتُهُ في الاعترافات. فإذا به يقاطعُني قائلًا: 'توقَّفْ. كفى. لا يُمكنُني أنْ أسمعَ المزيد. فكُلَّ مرَّةٍ أسمعُ عن مثلِ هذهِ الخطايا، أشعُرُ بأنّي سأتقيَّأُ كلَّ الطعامِ الذي تناولتُهُ خلالَ النهار'».

تساءلتُ متعجِّبًا: «وكيفَ يصيرُ أنَّه حسَّاسٌ إلى هذا الحدِّ المفرط؟ أفترضُ أنَّ شخصًا ذا خبرةٍ روحيَّةٍ عاليةٍ لا يتأثَّر».

- «لم يتأثَّرْ بها. فالعقلُ البشريُّ الذي تنقَّى من الأهواءِ الدُّنيا لا يسمحُ لفكرٍ خسيسٍ أنْ ينفذَ إليه أو أنْ ينطبعَ فيه. أيُّ شخصٍ بهذا المستوى كالشيخِ پاييسيوس، قدْ يقولُ في نفسِه بدافعِ الفضول: 'لأرى ماذا يعني أنْ يأتيكَ هذا الفكرُ أو ذاك'. في حالتِنا، أي اعترافِ ذاك الحاجّ، كانَ الفكرُ استفزازيًّا تافهًا. لم يستطعِ الشيخُ پاييسيوس أنْ يفهمَه. فجسدُه رفضَه على الفور.

الشخصُ النقيُّ المتحرِّرُ منَ الأهواءِ الدنسة، لا يحتملُ مثلَ هذه الأفكار، ولو أنَّها لوحةٌ أو مجرَّدُ تخيُّلٍ ذهنيٍّ. من جهةٍ أُخرى، الشخصُ المستعبَدُ للأفكارِ الرديئة، يرتكبُ الذنوبَ 'بقوَّةٍ جنونيَّة'، كما أشارَ القدِّيسُ يوحنَّا الذهبيُّ الفم. عقلُ هذا الشخصِ واقعٌ تحتَ نفوذِ الأهواء، أسيرٌ بالكاملِ للخطيئة. مثلَ مدمِنِ المخدِّرات، ينجذبُ إليها ولا يمكنُه أنْ يفعلَ بخلافِ ذلك».

عندما ركبْنا السيَّارةَ وسلكْنا الطريقَ الترابيَّ صعودًا عائدَينِ إلى الدير، كرَّرَ الأبُ مكسيموس أنَّ الصلاةَ المنتظمةَ غيرَ المنقطعةِ هي أفضلُ تدريبٍ لبلوغِ العافيةِ الروحيَّة. فالصلاةُ تُعينُ الذهنَ ليُدافعَ عن نفسِه ضدَّ الأفكارِ الدخيلة. متى حصَّنَّا قلبَنا بالصلاة، لا تنطبعُ في ذهنِنا الصوَرُ والأفكارُ السلبيَّةُ التي تصادفُنا.

وتابعَ قائلًا: «كانَ الآباءُ القدِّيسونَ شهودًا على الكثيرِ من الحوادثِ الأثيمةِ المروِّعة، لكنَّهم لَمْ يتعثَّروا. لم يندفعوا نحوَ الخطيئة. إذْ لا شيءَ يمكنُ أنْ يَمَسَّهم شخصيًّا. معَ ذلك، صلُّوا لأجلِ البشرِ وذرفوا دموعًا مُرَّةً لأجلِ مآزقِهم، فقدْ خُلِقوا على صورةِ الله وسقطوا إلى مستوياتٍ دُنيا. سوفَ تُلاحظُ أنَّ من يصلِّي بلا انقطاع،

يكتسبُ مع الوقتِ السيطرةَ على الأهواءِ الدنيا. فالصلاةُ، كما تَرى، تعملُ على نَحوٍ سرّيٍّ في أذهانِ الناسِ وقلوبِهم، وتدريجيًّا تكشفُ لهم محبّةَ اللّهِ الإلهيّة. وما إنْ يتذوّقُ الإنسانُ قوّةَ هذا الحُبِّ الإلهيّ، حتّى يصبحَ أيُّ اختبارٍ دنيويٍّ آخَرَ مبتذَلًا وتافهًا بالمقارنة مع الحُبِّ الإلهيّ».

سألتُ متحيّرًا: «هلِ الصلاةُ بمفردِها كافيةٌ لنموِّ الإنسانِ روحيًّا؟»

- «كما ذكرتُ سابقًا، بالإضافةِ إلى الصلاةِ، مطالعةُ النصوصِ المقدّسة، مثلَ الكلمةِ الإلهيّةِ في الإنجيل، وسِيَرِ القدّيسينَ وكتاباتِهم، لها أهمّيّةٌ بالغة. إذْ تساعدُ في تغذيةِ العقلِ بالمعاني الروحيّةِ التي تحلُّ مكانَ الغضبِ والحسدِ والطمع، وغيرِها من الانفعالاتِ الدنيا».

ثمَّ استفاضَ الأبُ مكسيموس في الشرحِ أنّنا بقراءاتِنا الكتاباتِ الملهَمةَ إلهيًّا، نولّدُ مضادّاتٍ روحيّةً في النفسِ يُمكنُها أنْ تحاربَ الڤيروساتِ العقليّةَ المدمِّرةَ التي للأفكارِ السلبيّة. فنصوصٌ كالكتابِ المقدّسِ وكتاباتِ الآباءِ القدّيسينَ خُطَّتْ بِوَحْيِ الروحِ القدسِ وتوجيهِه. وَمَنْ يغوصُ في مطالعتِها يشتركُ على نحوٍ سرّيٍّ في هذه النعمةِ الإلهيّة. فالنفسُ تتغذّى بالنعمةِ حتّى إنْ لمْ يستطعْ من يقرأُ كتاباتٍ مماثلةً إدراكَ معنى ما يَقْرَأ. قال: «فبمجرّدِ قراءةِ هذه الآياتِ والنصوص، يتقوّى المرءُ روحيًّا بالنعمةِ الساكنةِ في الكلماتِ بذاتِها».

قلتُ مقترحًا: «ينطبقُ المبدأُ ذاتُه أيضًا على كلِّ مُشاركٍ في الخِدَمِ الكنسيّةِ المقدّسة، قدْ لا يُدرِكُ ما يُقالُ ولكنَّ الطاقاتِ الروحيّةَ التي تتولّد،

تؤثِّرُ فيه بطرقٍ خفيَّة».

- «بالضبط. إضافةً إلى ذلك، هنالكَ طرائقُ أُخرى لتَنْقِيةِ النفسِ مِنَ الأفكارِ السلبيَّة. فكما سبقَ وذكرت، بالنسبةِ للمسيحيِّينَ إنَّها المشاركةُ في أسرارِ الكنيسةِ المقدَّسة. بالإضافةِ إلى سرِّ المعموديَّة الذي ننالُه عادةً في سنٍّ مبكِّرةٍ في الحياة، أهمُّ الأسرارِ هي سِرَّا الاعترافِ والمناولةِ المقدَّسة. فبالاعترافِ يصيرُ المرءُ متَّضعًا، وبالاتِّضاعِ يبلغُ التوبةَ الحقَّة، أي تحوُّلَ العقلِ بتوبةٍ عميقة. فالتوبةُ تَقتلعُ الأنانيَّة، جذرَ الأفكارِ السلبيَّة. أيضًا، بتناولِهِ القدساتِ الإلهيَّةَ يتَّحدُ الإنسانُ بالمسيح. وعندما يبلغُ حالةَ التواضعِ الكلِّيِّ، يصعبُ على الأفكارِ أنْ تمَسَّه. قدْ تهاجمُهُ آلافُ الأفكار، دونَ أنْ تؤثِّرَ فيه، كما هو حالُ القدِّيسين. بالطبع، تلعبُ الأفكارُ دورًا مهمًّا في النموِّ الروحيِّ للإنسان».

قلتُ ضاحكًا: «أنا مندهشٌ أنَّكَ تُعطي 'الشيطانَ' حقَّه».

وتابعَ الأبُ مكسيموس مفسِّرًا: «غالبًا ما تخدمُ الأفكارُ السلبيَّةُ مخطَّطَ الله. وهذا لا يعني أنَّ اللّهَ نفسَه هو واضعُها، بلْ لأنَّها تَظْهَرُ أحيانًا الطريقَ الوحيدَ للمستكبرينَ لبلوغِ التواضع. فالأفكارُ، بالواقع، يمكنُ أنْ تُقدِّمَ لنا حزنًا شديدًا، تجاربَ مُرَّةً، وألمًا عظيمًا».

أضفتُ: «لقد قرأتُ في كتاباتِ أحدِ الشيوخِ الآثوسيِّين، أنَّ منْ لا يتَّضعُ مِنْ إرادتِهِ الحرَّةِ سيتَّضعُ من خلالِ الشيطان».

- «نعم، هذا قولٌ شائعٌ جدًّا في جبلِ آثوس. الشيطانُ حاضرٌ دائمًا لمساعدتِنا. لِهذا نتعلَّمُ إبقاءَ رؤوسِنا إلى أسفل».

كانَ الظلامُ قد لاحَ عندما اقترَبْنا منَ الديرِ، والمصابيحُ الخارجيّةُ مضاءة. وإذْ لم يكنْ لديَّ سوى بضعِ دقائقَ معَ الأب، سارعتُ لإكمالِ حديثِنا حولَ استراتيجيّاتِ التغلُّبِ على الأفكار.

- «أبانا مكسيموس، لم نتحدَّثْ بعدُ عن الخُطُواتِ التي يمكنُ اتّباعُها لتحريرِ العقولِ من سيطرةِ الأفكارِ السلبيّةِ المدمِّرة. ماذا يحدثُ عندما نسقطُ في شركِ إدمانٍ استحواذيٍّ؟»

- «حسنًا، على الفور، اقطَعْ مسبِّباتِ الأهواءِ مبتعِدًا عنها».

أجبتُ سريعًا وبنبرةٍ حاسمة: «قولُ ذلكَ سهلٌ ولكنَّ تطبيقَهُ عسير».

أوضحَ الأبُ: «يُعلِّمُ الشيوخُ القدّيسون، أنَّهُ متى شخَّصَ المرءُ صحيحًا الأسبابَ، عليه أنْ يسارعَ إلى بترِها».

- «لكنْ، إنْ كانَ في استطاعتِكَ فعلُ ذلك، لن تكون ثمَّةَ مشكلة».

- «فَلأُعطِكَ مثالًا للتوضيح. إفترضْ أنّك تُعالَجُ من إدمانِكَ الكحول، واعتقدْتَ في قرارةِ نفسِكَ أنّكَ تقريبًا تغلَّبتَ على مشكلةِ الإدمانِ على الشرب. إذًا، إنْ كنتَ ترغبُ ألاّ تشربَ ثانيةً، عليكَ أنْ تبقى بعيدًا عنْ أيِّ شيءٍ يذكِّرُكَ بالكحول. لا تَزُرْ حانةً وتُقنعْ نفسَكَ أنّكَ هناكَ لكي تشربَ عصيرَ البرتقال. لا تذهبْ إلى الحفلاتِ حيثُ تُشربُ الكحول. إبقَ بعيدًا عن المسبِّبِ الأساسِ لِهَواكَ الإدمانيّ. حتّى ولو شعرْتَ بالقوّة، لا تتجاسرْ وتُجازفْ ظانًّا أنّهُ أصبحَ في إمكانِكَ الصمودُ والمقاومة. ينصحُ الشيوخُ القدّيسونَ بالابتعادِ عن

الأمكنةِ التي أنبَتَتْ هواك. مهما كلَّفَكَ الأمرُ، إبتعدْ. غيِّرِ المكان. لا تبقَ في الأمكنةِ التي تُذكِّرُكَ بالأحداثِ التي أدَّتْ إلى أسْرِك. أيُّ شيءٍ يُذكِّرُكَ بِهواكَ هو فخٌّ».

إستمتعتُ كثيرًا بسماعيَ نقاشَ الأبِ مكسيموس في قضايا الإدمان، والذي يتطابقُ بالكاملِ مع المبادئِ العلاجيَّةِ المعاصرة[٩٤]. في حديثٍ سابقٍ معَه، سمَّى الأبُ مكسيموس الأهواءَ التي تُدمنُ عليها النفسُ 'philepistrofa'، ويعني أنَّ تلكَ الأهواءَ لها الميلُ الدائمُ لتعودَ وتستأثرَ بالإنسانِ الذي وقع، في الماضي، في شباكِها[٩٥]. على سبيلِ المثال، إعترفَ له أحدُ تلاميذِه العلمانيِّينَ أنَّه فيما كانَ يشاهدُ التلفازَ في ساعةٍ متأخِّرةٍ من الليل، وعرَضيًّا، بدَّلَ إلى قناةٍ كانتْ تبثُّ فيلمَ دعارة. فتوقَّفَ عندَه وتابعَه. عندَ سماعِه ذلكَ، طلبَ منه الأبُ مكسيموس التخلُّصَ من جهازِ التلفازِ على الفور. والسببُ أنَّ هذا الرجلَ عاشَ سنيْ شبابِهِ في فسقٍ وعربدة. لذلك، خاطرَ في أنَّهُ بمشاهدتِهِ هذا النوعِ من الأفلام، سيعودُ إدمانُهُ الجنسَ بشدَّةٍ - تمامًا مثلَ حالةِ المُتعافي من إدمانِ الكحول- مؤدِّيًا إلى دمارٍ على الصعيدِ الشخصيِّ كما وفي الحياةِ الزوجيَّة. وشرحَ ليَ الأبُ مكسيموس أنَّ منْ لم يكنْ عرضةً لمثلِ هذه المشاكلِ في ماضيه، لا تسهلُ مهاجمتُه مثلَ أولئكَ الذين تحتَ تأثيرِها. وكرَّرَ، الأهواءُ هي

٩٤ فرَهُطَ الآباءِ القدِّيسين هم أساتذةٌ كبار في وصف النفس وحالات ضعفها وانكسارها، نهوضِها ونصرتها. وما في جعبتهم من دقائق الامور لا يرقى إليه كبارُ رجالات التحليل النفسيّ المعاصر. فتقنيّة الخبرة تتخطّى تقنيّة التحليل والاستنتاج (راجع الكاهن يوحنا، في اليقظة والصلاة، عرَّبه الأب منيف حمصي ص. ٥٣). (المعرّب)

٩٥ يصف القدّيس مكسيموس المعترف دورَ الذاكرة فيقول: إنَّ للذكريات دورًا رهيبًا في غرس بذار الأهواء في تربة النفس، عن طريق تمريرها للنوس. ويبدأ مفعول الذكريات مع التراخي الحاصل بفعل التعايش بين الفكر والنفس. (المرجع السابق ص. ٥٣).

'philepistrofa'، تحبُّ أنْ تعود.

قلتُ مقاطِعًا: «أبانا مكسيموس، كُلُّ هذا جميلٌ وجيِّد، كلُّهُ نصحٌ قويم. ولكنْ ألا ترى أنَّ فيهِ الكثيرَ من التبسيطِ أيضًا؟ فمشكلةُ المدمن هي أنْ يبدأَ بضبطِ نفسِه».

– «أنتَ على حقّ. من يعاني من مشكلاتٍ من هذا النوعِ يحتاجُ إلى مساعدةِ خبراءٍ في هذا الشأن. من نافلِ القول، مِنْ وجهةِ نظرِنا، أنَّ هنالكَ وسائلَ علاجيَّةً تُقدِّمُها الكنيسة: المشاركةُ في الأسرارِ المقدَّسةِ والاعترافُ المنتظمُ اللذانِ يُؤدِّيانِ إلى تنقيةِ القلبِ عنْ طريقِ التوبةِ الحقَّة. عندما يمارِسُ الفردُ هذه الأسرارَ المقدَّسةَ بانتظام، لا يعودُ شيءٌ يُخيفُه. عاجلًا أم آجلًا، سيُشفى من إدمانِهِ المزعج. حتَّى إذا فشلَ مِرارًا، سيأتي الوقتُ حينما سيُشفى القلبُ. سيتنقَّى تدريجيًّا إلى أنْ يُشفى كلِّيًّا».

حالما وصلْنا أمامَ بوابَّةِ الديرِ، أطفأتُ محرِّكَ السيَّارةِ والتفتُّ نحوَ الأبِ مكسيموس وسألْتُه: «أبتِ، إنَّكَ لا تتوقَّفُ عن الحديثِ عن القلبِ على نحوٍ متكرِّر. ماذا تعني حقًّا هذه اللفظةُ 'القلبُ' في التقليدِ الروحيِّ الآثوسيّ؟ فأنا أمزُجُ بينَ القلبِ والنوس».

– «لكلمةِ 'نوس' معنيان. أحيانًا، تُعادِلُ كلمةُ 'نوس' القلبَ، وبكلمةِ 'القلبُ' نعني مركزَ ومجموعَ قوى الذهنِ والنفسِ لدى الفرد. وهذا ما قصدَه المسيحُ في قولِه: 'طوبى لأنقياءِ القلوب، فإنّهم للّه يعاينون'[٩٦]. في أحيانٍ أخرى،

٩٦ متّى ٨: ٥.

تُستخدمُ لفظةُ 'نوس'، موازيةً للفظةِ 'العقل' أو المنطق. التمييزُ بينَ المعنيَين بالغُ الأهمّيّةِ لأسبابٍ عدّة. غالبًا ما نلاحظُ أنَّ عقلَ الإنسانِ أو منطقَهُ يمكنُ أنْ يكونَ طاهرًا إلاَّ أنَّ قلبَه قدْ يكُون ملوّثًا. قدْ يتمتَّعُ المرءُ بذكاءٍ وفكر، فيُصدرُ أحكامًا رزينةً أو يفكّرُ بصفاءٍ ووضوحٍ لحلِّ مشكلةٍ ما، إلاَّ أنَّ هذا المرءَ ذاتَه قدْ يقومُ بأفعالٍ وهو مدرِكٌ أنَّها تستوجبُ كلَّ توبيخٍ، ذلكَ أنَّ قلبَه ملوَّث. فقلبُه، الذي هو مركزُ وجودِه النفس-نوسيّ psychonoetic، هو رهينةٌ لأفكارِه».

قلتُ ونحنُ نلِجُ الديرَ قبلَ دقائقَ من بدءِ صلاةِ الغروب: «لديَّ سؤالٌ واحدٌ أخير، هل بإمكاننا القولُ إنَّ القلبَ، وبحسبِ المفهومِ الشائع، هو مركزُ اللاوعي الذي يخزِنُ فيه الإنسانُ رغباتِه المكبوتةَ التي لم تتحقّق؟ هلْ إنَّ القلبَ هو المستودعُ الذي يصيرُ فيه، بحسبِ تعبيرِ فرويد، 'كبتُ' الشهوات؟»

هزَّ الأبُ مكسيموس كتفَيه استهجانًا وقال: «آباءُ الكنيسةِ وشيوخُها القدّيسونَ لم يستخدِموا تلكَ العباراتِ والمصطلحات. لذا ليس لديَّ الكثيرُ لأقولَه. لكنْ كما فهمت، اللاوعي هو مكانٌ يخزِنُ الإنسانُ فيه، إذا جازَ القول، خبراتِهِ وذكرياتِهِ التي لا يريدُ أبدًا أنْ يسترجعَها أو يتذكَّرَها. سمِّها كما تشاء، ولكنَّ الأمرَ الواضحَ والأكيدَ من جهةِ الحياةِ الروحيّةِ الحقّةِ هو أنَّ اللاوعي يجبُ أنْ يُستأصل».

تساءلتُ مستوضِحًا: «إستئصالُ اللاوعي؟»، بينما تجمّعَ حولَنا عددٌ من الرهبانِ لسماعِ الحوارِ الدائرِ باهتمامٍ كبير.

أجابَ الأبُ مكسيموس: «ما سمَّيْتَه 'كبتًا' غيرُ مقبولٍ بالكلِّيَّةِ في المعالجةِ الروحيَّةِ الحقيقيَّة. فَما نهدفُ إليه في مواجهةِ الأفكارِ هو تحويلُ أهوائِنا وتجلِّيها، وليسَ تخزينَها وكبتَها في ما سمَّيتَه أنتَ 'اللاوعي'. الآنَ دعْني أتناول، على سبيلِ المثالِ، موضوعَ الجنس».

* عندَ سماعي ذلك بدَتْ على وجهي علاماتُ الدهشةِ والحيرة، إذْ كنتُ أفترضُ أنَّ موضوعَ الجنسِ هو من المواضيعِ البالغةِ الحساسيَّةِ أوْ قُلْ المحرَّمةِ عندَ النسَّاكِ والشيوخ.

وتابعَ: «نحنُ الرهبانَ لا نحاولُ قَمْعَ أهوائِنا الجنسيَّةِ عنْ طريقِ كبحِها في اللاوعي. أتذكَّرُ قراءةَ مقابلةٍ مع كاهنٍ متزوِّجٍ حيثُ صرَّحَ أنَّ المشكلةَ المركزيَّةَ في حياةِ الرهبانِ هي الجنس، لذا كيْ لا نفكِّرَ بالجنس، نعملُ طوالَ النهارِ في الحقول، في تنظيفِ الساحات، مسحِ الأرض، وما إلى ذلك».

سَخِرَ الأبُ مكسيموس من هذا المنطقِ وهزَّ رأسهَ متعجِّبًا، بينما راحَ الرهبانُ المحيطونَ بنا يضحكون. وتابع: «هذا هراءٌ مطلق. وماذا نفعلُ إذًا في الليل؟ أنستمرُّ في تنظيفِ الديرِ وحفرِ القنواتِ في الحقول، أو نبتلعُ الحبوبَ المهدِّئةَ للتغلُّبِ على أرقِنا؟»

بعدَ أنْ توقَّفَ الجميعُ عن الضحكِ، تابعَ الأبُ مكسيموس كلامَه، وقالَ بنبرةٍ ثابتة: «الويلُ لهؤلاءِ الرهبانِ والراهباتِ الذين يجرفونَ أهواءَهم الجنسيَّةَ إلى خزَّانِ اللاوعي. هؤلاءِ سيرتعدونَ ويتعرَّقونَ في حضورِ الجنسِ الآخر. ليسَ من روحانيَّةٍ حقَّةٍ في ذلك. ما يحدثُ معنا وما نسعى لبلوغِه، هو تحويلُ القوى

العِشقيَّةِ من الانجذاباتِ الأرضيَّةِ نحوَ اللّه، إلى حالةِ الجنسِ البشريِّ الأساسيَّةِ الطبيعيَّةِ التي كانَ فيها قبلَ السقوط».

قلتُ متمتمًا: «يتحوَّلُ العِشقُ eros إلى محبَّة agape».

- «تمامًا. وعندما يبلغُ الإنسانُ ملءَ المحبَّةِ يحبُّ الآخرينَ دونما تمييز، ذكورًا كانوا أمْ إناثًا. لا يعودُ يربُطُهُ شيءٌ بما يتعلَّقُ بحالةِ البشريَّةِ بعدَ السقوط. أتَفْهمُ ما أقول؟ محبَّةُ اللّهِ تُحوِّلُ الإنسانَ بالكلِّيَّةِ بالنعمة. لهذا نقول، كقاعدةٍ عامّة، ومثاليًّا بالطبع، نحنُ الرهبانَ لا نكبتُ رغباتِنا في اللاوعي، بل نَغصِبُ ذواتِنا لاقتلاعِ كلِّ ما في مختزَنِ اللاوعي لتنقيَتِه».

توقَّفَ الأبُ لثوانٍ، ثمَّ جالَ بنظرِهِ على رهبانِه الماثلينَ من حولِه، وتابعَ قائلًا: «عندما يُقْبَلُ أحدُهم في الطغمةِ الرهبانيَّة، يحذِّرُهُ شيخُه الروحيُّ: 'لحظةَ تُقرِّرُ الانضِمامَ إلى الدير، عليكَ أن تقبلَ الجوعَ والعطشَ والإذلالَ والمظالم'. وأحيانًا، يُخضِعُ الأبُ الروحيُّ الراهبَ المبتدئَ لتمارينَ روحيَّةٍ قاسية. وقد يضعُ بعضَ الشروطِ والأعمالِ لكيْ يستفزَّهُ ويُغضِبَه. فهوَ يماثلُ الطبيبَ الذي يُعطينا دواءً لنتقيَّأَ فنتخلَّصَ من السُّمِّ الذي ابتلعناه. الأمرُ نفسُهُ يصيرُ مع الدواءِ الذي يُعطينا إيَّاهُ الأبُ الروحيّ. عليكَ أنْ تتقيَّأَ مسالكَكَ القديمةَ في التفكيرِ والإحساس. وهذا التغييرُ المنشودُ لنْ يحدثَ ما لم نلمسْ أوتارًا حسَّاسةً محدَّدة. هكذا تكتسبُ التواضعَ الحقيقيّ».

علَّقْتُ على ذلك فقلتُ: «لمْ أشهدْ مثلَ هذه التمارينِ القاسيةِ هنا في هذا الدير»، والتفتُّ نحوَ الآباءِ أرسانيوس ونيقوذيموس اللذين كانا بينَ الرهبانِ

المتجمّعينَ حولَنا يسمعونَ النقاش. في الحقيقة، لفتَني لدى الأبِ مكسيموس وغيرِهِ من الشيوخِ الذين التقيتُهم، النهجَ الكثيرَ اللُّطفِ في التعاملِ مع المبتدئين.

ضحكَ الأبُ مكسيموس كردَّةِ فعلٍ على تعليقي وأضافَ قائلًا: «بمعونةِ الروحِ القدس، يُعطى كُلُّ شخصٍ التدريبَ المناسبَ لحالتِه».

- «أينطبقُ الأمرُ ذاتُهُ على العلمانيّينَ والراهباتِ الذين تحتَ إرشادِك وتوجيهِكَ الروحيِّ أيضًا؟»

- «بالطبع. لقدْ تعلَّمْنا أنْ نستخدمَ أساليبَ ومناهجَ معيَّنةً تسمحُ لنا بسبرِ غورِ أعماقِنا الداخليَّة، أيْ ما تدعوه أنتَ 'اللاوعي'، ومساعدةِ الآخرينَ ليكتشفوا أعماقَهم ويعرفوا ذواتِهم. وفقًا لروحانيَّةِ الشيوخِ القدّيسين، يجبُ ألاَّ يبقى اللاوعي مُظلِمًا. فالمسعى هو أنْ ننقّيَه، نُقطِّرَه، ونجعلَه شفَّافًا. يجبُ ألاَّ نقمعَ ضعفاتِنا وأهواءَنا أبدًا. فغايةُ الكنيسةِ كوسيلةٍ للشفاء، هي تقديسُ الإنسانِ بكلِّيَّتِه».

قلتُ متمتمًا: «وإنْ أدَّى ما تعملُه هنا إلى كبحِ الرغباتِ...».

- «نكونُ جميعُنا إذًا، يا كيرياكو، أشخاصًا مضطربينَ عقليًّا، مصابينَ بأمراضٍ عصبيَّةٍ وبانفصامٍ في الشخصيَّة. حتَّى متى بإمكانِكَ قمعُ أهوائِك؟ فالنتيجةُ الحتميَّةُ لهذا الكبحِ هي الجنون. ولهذا فالقدّيسونَ تحرَّروا حقًّا. إنَّهم البشرُ الأكثرُ تحرُّرًا على الأرض. وحالما يبلغونَ تلكَ المرتبة، لا يعودوا يتأثَّرونَ أبدًا بخطايا هذا العالم. لا تُرهبُهم تلكَ الخطايا. فهم ليسوا أناسًا يتستَّرونَ وراءَ

آرائِهم وكَبْتِهم. قدْ تُقابلُ أحدَ الشيوخِ القدِّيسينَ وتخبرُه بأفظعِ الذنوب، إلاّ أنَّه لا يمسُّ جوهرَهُ الأعمقَ أيُّ تأثيرٍ البتَّة. في المقابل، الإنسانُ الذي قمَعَ أهواءَهُ وكبتَها، سيتملَّكُ عليه الغضبُ ويعاملُك بقسوة. إنْ أخبرتَهُ أنَّكَ اقترفتَ بعضَ المآثم، سيضطربُ للغايةِ ويدينُكَ دونَ تسامح. سيصيرُ قليلَ التحمُّلِ دونَ أيِّ أثرِ شفقة. أتَدري لماذا؟ لأنَّه هو نفسُهُ يُعاني. في داخلِه الكثيرُ من الغضبِ والمشاعرِ والأفكارِ المكبوتة. مثلُ هؤلاءِ الأشخاصِ يتمتَّعونَ بخُلُقٍ عالٍ، هم أتقياءُ، لكنَّهم ليسوا قدِّيسينَ. الإتِّضاعُ المطلقُ ليسَ سِمتَهم».

* * *

بقولِه هذه الملاحظةَ الأخيرة، سمِعنا الصوتَ الإيقاعيَّ لناقوسِ الديرِ الخشبيِّ يدعونا لصلاةِ الغروب.

تعليقاتُ الأبِ مكسيموس الأخيرةُ حولَ التواضعِ المطلقِ للقدِّيسين، ووجودُ ثلاثةِ رهبانٍ روسٍ في ديرِ الفائقةِ القداسةِ يصلُّون بجانبي أثناءَ خدمةِ الغروب، نقَلَ فكري إلى روسيا قبلَ الثورةِ الشيوعيَّة. وقوفي في إحدى الزوايا المعتِمةِ مراقبًا الرهبانَ الروسَ الثلاثةَ وهم يصلُّون بالمسبحةِ ويضربونَ المطَّانيَّاتِ الواحدةَ تلوَ الأُخرى دونَ توقُّفٍ أمامَ إيقونةِ العذراءِ العجائبيَّة، أحضرَ إلى ذهني قصَّةً لِليو تُلسْتُوي الذي تأثَّرَ كثيرًا، كَثيودور دوستويفسكي، بالتراثِ النسكيِّ للآباءِ الشيوخِ في روسيا[٩٧]. فَكِلا الكاتبَين كان من الزوَّارِ الدائمينَ لديرِ أوبتينا Optina، المركزِ الروحيِّ الرئيسيِّ في روسيا، والذي دمَّرَهُ الشيوعيُّونَ فيما بعد. ولا بدَّ أنَّ تولستوي كانَ على علمٍ بدقائقِ الأمورِ

٩٧ أي حركة إرشاد الآباء الشيوخ الروحيِّين المعروفة بالستارتشِستفو startchestvo.

والأحداثِ العجيبةِ المتعلّقةِ بحياةِ أولئكَ النسّاكِ الروس.

إفْتُتِنْتُ بالتراتيل، بينما انتقلَ ذهني إلى روسيا إبّانَ القرنِ التاسعَ عشرَ.

في روايتِه التي خطرتْ على ذهني، يكتبُ تولستوي عن لقاءٍ بينَ أسقفٍ أُرثوذكسيٍّ روسيٍّ وثلاثةِ نسّاك. كانَ الأسقفُ مُبحِرًا مع حجّاجٍ آخرينَ من آرخانجلسك متوجّهًا إلى ديرِ سولوفتسك. أثناءَ رحلتِهِ سمعَ عن جزيرةٍ صغيرةٍ غيرِ معروفةٍ حيثُ يعيشُ ثلاثةُ نسّاكٍ مُسنّينَ قضوا كلَّ حياتِهم سعيًا لخلاصِ نفوسِهم. إهتمَّ الأسقفُ للأمرِ وناشدَ القبطانَ أنْ يتوقّفَ فيتسنّى له لقاءُ النسّاكِ الثلاثة. وافقَ القبطانُ بتردُّدٍ ورَسا قُرْبَ الجزيرةِ. أخذَ الأسقفُ قاربًا صغيرًا مع بعضِ المجذّفينَ وتوجّه نحوَ اليابسة. كانَ النسّاكُ الثلاثَةُ ذوي لُحًى بيضاءَ طويلةٍ، تصلُ إلى رُكَبِهم، مُلتحفينَ بثيابٍ رثّة. إنحنوا حتّى الأرضِ باتّضاعٍ بالغٍ أمامَ الأسقفِ مرحّبينَ به. وبعدَ أنْ باركَهم، سألَهم ماذا يصنعونَ لخلاصِ نفوسِهم وخدمةِ الربّ. أجابوا أنّهم ليسوا على معرفةٍ بطرقِ خدمةِ الربّ، وأنّهم هنا فقط يخدمونَ ويعاضدونَ بعضُهم البعض. أدركَ الأُسقفُ أنَّ أولئكَ النسّاكَ الفقراءَ لا يعرفونَ حتّى كيفَ يُصلّون، إذْ لا يفعلونَ سوى رفعِ أيديهم عاليًا نحوَ السماءِ وتردادِ القولِ التالي: ‘ثلاثةٌ أنتم، ثلاثةٌ نحن، إرحمنا’. إعتبرَ الأسقفُ أنَّ واجبَهُ الكنسيَّ يحتّمُ عليه أنْ يُعلّمَ أولئكَ النسّاكَ الأمّيّينَ الصلاةَ الربّيّة. فأمضى النهارَ بأكملِهِ لتعليمِهم، إذْ كانوا تلاميذَ بُسطاء. رغمَ ذلك، عندَ الغسقِ وقبلَ العودةِ إلى السفينة، قدّمَ لهم الأسقفُ شرحًا مبسّطًا في اللاهوتِ المسيحيّ.

لكن، ويا لَلعجب! مع غروبِ الشمسِ وبينما كانَ القاربُ يبتعِدُ عن الجزيرة، رأى كلُّ المسافرين مشهدًا من بعيدٍ أخافَهم. فالنسّاكُ الثلاثةُ كانوا يركضونَ على وجهِ الماءِ وكأنَّهم على يابسة. وما إنْ وصلوا إلى المركب، ناشدوا الأسقفَ ليُذكِّرَهم بكلماتِ الصلاةِ الربِّيَّة، إذْ نسيَها هؤلاءِ المساكينُ بالكلِّيَّةِ. إذَّاك، رسمَ الأسقفُ علامةَ الصليبِ على نفسِهِ برَهبةٍ، وطلبَ منهم أنْ يَمضوا في سبيلِهم ويواصِلوا صلاتَهم الخاصَّة، فهُم لا يحتاجونَ إلى إرشادٍ وتوجيه. ثمَّ انحنى بخشوعٍ وإجلالٍ أمامَ النسّاكِ المُسنِّينَ وسألَهم الصلاةَ من أجلِه، فقَفلوا راجعينَ فوقَ البحرِ إلى جزيرتِهم. «وشعَّ نورٌ في المكانِ حيثُ تواروا عن الأنظارِ، بقيَ حتَّى الفجر»[٩٨].

98 Leo Tolstoy, "The Three Hermits" in Ann Charters, ed., The Story and Its Writer: An Introduction to Short Fiction (New York: St. Martin's Press, 1987), pp. 169-73.

الفصل ١١

الهروب من الجحيم

صبيحةَ الخامسِ والعشرينَ من آذار، غمرَ الفرحُ والبهجةُ ديرَ الفائقةِ القداسة، رهبانًا وحجّاجًا، إحتفالًا بعيدِ بشارةِ والدةِ الإلهِ الفائقةِ القداسة، أيْ يومَ ظَهَرَ رئيسُ الملائكةِ غفرِئيل ليبشِّرَها أنَّ اللّهَ اختارَها لِتلِدَ بتوليًّا ابنَ اللّهِ الوحيد. وهذا اليومُ بالنسبةِ لليونانيّين، له أهمّيّةٌ مضاعفة. فَعامَ ١٨٢١، إندلعتْ حربُ الإستقلالِ ضدَّ الأتراكِ العثمانيّين. وعبرَ العقودِ، ألقى هذا الحدثُ الزمنيُّ ظلالَهُ على أهمّيّةِ هذا اليومِ الكنسيِّ وحجَبَه. ففي قبرص، بشكلٍ خاصٍّ، وبسببِ مشاكِلِها السياسيّةِ المُزمنة، كانَ هذا اليومُ من كلِّ عامٍ يُجيِّشُ العواطفَ الوطنيّةَ والاعتزازَ العِرقيّ. كانَ يومًا للإستعراضاتِ الوطنيّةِ والتلويحِ بالأعلامِ القبرصيّة، والخطاباتِ الناريّة، وأصبحتِ الكنائسُ مراكزَ تخدمُ هذا التأجُّجَ القوميّ.

في ذلك اليوم، دوَّنتُ في مفكّرَتي، أنّه لا يوجدُ يومٌ آخرُ في التقويمِ الكنسيِّ الأُرثوذكسيِّ اليونانيّ، مقلِقٌ للغايةِ كمثلِ هذا اليومِ حيثُ تندمجُ المشاعرُ الدينيّةُ بالمشاعرِ القوميّة. هو مزيجٌ قاتلٌ وتطوُّرٌ أدانَهُ رسميًّا رجالُ

الكنيسةِ المستنيرون، كبطريركِ القُسطنطينيَّةِ برثلماوس. ففي بيانٍ حديث، شَجَبَ رئيسُ أساقفةِ القُسطنطينيَّةِ بشدَّةٍ النزعةَ القوميَّةَ معتبِرًا أنَّها بدعةٌ خطيرةٌ لا تتَّفقُ وروحَ المسيحيَّةِ الجامعة[٩٩]. 'لكن، قليلونَ ينصاعونَ لمثلِ هذه التحذيرات'، هذا كانَ آخرَ ما دوَّنتُ في مفكّرتي ذلكَ اليومَ قبلَ الخروجِ من قلّايتي للمشاركةِ في احتفالاتِ عيدِ البشارة.

كمْ كانَ ارتياحي كبيرًا أنَّ مناخَ ديرِ الفائقةِ القداسةِ يَختلفُ تمامًا عمَّا يحصلُ في كلِّ مكانٍ آخرَ على الجزيرة. لم يكنْ هناكَ أيُّ أثرٍ للتأجُّجِ القوميّ. إقتصرَتِ الإحتفالاتُ حصرًا حولَ عيدِ البشارة. لمْ يُلْقِ أحدٌ خطبًا لاذعة، لمْ يتوعَّدْ أحدٌ الأتراك، لم يحثَّ أحدٌ جموعَ المؤمنينَ في الديرِ على 'ألَّا ينسوا أبدًا'. على العكس، بدأتِ الاحتفالاتُ في الديرِ في المساءِ الفائتِ بسهرانيَّةٍ دامتْ طوالَ الليل، رُفعتْ أثناءَها المدائحُ والتسابيحُ لوالدةِ الإله.

لمْ يكنْ هذا غريبًا، إذْ إنَّ الأبَ مكسيموس كانَ النموذجَ غيرَ الحزبيِّ والراهبَ اللاقوميّ. وخلافًا لأغلبيَّةِ إكليروسِ الجزيرة، رَفضَ الأبُ مكسيموس بعنادٍ شديدِ الضغوطَ المُستمرَّةَ التي تَعرَّضَ لها للمشاركةِ في التأجيجِ القوميِّ المحليّ، والثوراتِ السياسيَّة، والدسائسِ الحزبيَّةِ القائمةِ في الجزيرة. كراهبٍ آثوسيٍّ كانَ قد اختارَ بِوَعْيٍ تَرْكَ العالم، ركَّزَ حصريًّا على مهامِهِ الروحيَّة. وهكذا حفظَ رهبانَه من أهواءِ العالمِ وأوهامِه. فلا الراديو ولا التلفاز مسموحٌ بهما في ديرِ الفائقةِ القداسة. ولا حتَّى الصحفُ والجرائدُ اليوميَّةُ مسموحٌ تداولُها

---

99 Olivier Clément, La Vérite vous rendra libre (Paris: Editions Jean-Claude Lattes, 1996).

بينَ الرهبانِ والمبتدئينَ في الدير. كانَ الأبُ مكسيموس مؤمِنًا أنَّ كلَّ هذه الإلهاءاتِ الزمنيَّةِ مؤذيةٌ لِمَنْ نذرَ نفسَه كلِّيًّا ملتمِسًا بِجِدٍّ التألُّهَ بالمسيح.

أنْ تكونَ غيرَ معنيٍّ بالسياسةِ إلى هذا الحدِّ الاستفزازيِّ في قبرص حيثُ تسودُ النزعةُ القوميَّة، يُعتبَرُ رسالةً سياسيَّةً حاذقةً في مضمونِها وغايتِها، وغيرَ مألوفة. فمُساهمةُ الأبِ مكسيموس على الصعيدِ السياسيِّ في البلادِ كانتْ محصورةً في الصومِ وسهرانيَّاتِ الصلاةِ لطَلَبِ العونِ الإلهيِّ لتفادي الحربِ معَ تركيَّا، كما تنبَّأ العديدونَ على نحوٍ مستمرٍّ مزعجٍ ومُقلق. كانَ يقولُ ويردِّد: الخطوةُ الأُولى نحوَ سلامٍ دائمٍ مع الأتراكِ هي أنْ نجِدَ السلامَ في داخلِنا. عندئذٍ، يأتي السلامُ الخارجيُّ كنتيجةٍ طبيعيَّةٍ لذلك.

قالَ لي مرَّةً، إنَّ نظامَ الجزيرةِ الاجتماعيَّ والسياسيَّ تصدَّعَ بشدَّةٍ وابتُلِيَ بمشاكلَ كثيرةٍ لا حلَّ لها، حتَّى إنَّه فقط من خلالِ العنايةِ الإلهيَّةِ قدْ نحظى بالفرصةِ للتغلُّبِ على المشكلاتِ وإيجادِ الحلول. فما هو غيرُ مستطاعٍ عندَ البشرِ مستطاعٌ عندَ الله. سمعتُ الشعارَ ذاتَه قبلَ سنواتٍ قليلةٍ من فمِ رئيسِ ديرٍ هندوسيٍّ هو السوامي سواروباننداِ من رهبنةِ سيفانندا، ذلكَ أثناءَ أمسيةٍ حيثُ تناولْنا حديثًا غيرَ رسميٍّ في جزيرةِ 'البرادايز' عنْ كيفيَّةِ إنقاذِ العالمِ من توجُّهِهِ إلى تدميرٍ ذاتيّ. فَبَعْدَ سماعِهِ لأفكارِ إيميلي الحماسيَّةِ حولَ أهمِّيَّةِ نشرِ تعاليمِ السلامِ وخَلْقِ 'قُرى سلامٍ بيئيَّةٍ عالميَّةٍ' لتكونَ واحاتِ سلامٍ في البُقعِ المضطربةِ في العالم، وبعدَ أنْ أبدى كلَّ تقديرِه لمبادراتٍ سلميَّةٍ مماثلة، هزَّ رئيسُ الديرِ الهندوسيُّ الإسرائيليُّ رأسَهُ مُوحيًا بعدمِ قناعتِه. أشارَ قائلًا، إنَّ مشاكلَ العالمِ متراكمةٌ ومعقَّدَةٌ للغايةِ ليُعالجَها العقلُ البشريُّ منفرِدًا دونَ التدخُّلِ الإلهيّ.

لذا، اقترَحَ لزومَ أنْ يعتادَ البشرُ وينموا في ممارسةِ الصلاةِ المنتظمةِ طلبًا للعونِ الإلهيّ. هذا كانَ اقتراحًا سيوافقُ عليه الأبُ مكسيموس.

* * *

خِلافًا للأيّامِ العاديّة، ولأنَّ اليومَ يومُ عطلةٍ رسميّة، إكتظَّ ديرُ الفائقةِ القداسةِ بالمؤمنينَ والحجّاج. منذُ ساعاتِ الفجرِ الأُولى، توافدَ الرجالُ والنساءُ صحبةَ أولادِهم إلى الدير، جالبينَ معَهم تقدِماتٍ من القربانِ الكبيرِ الحجم، وزجاجاتٍ من زيتِ الزيتون، والكوليفا[١٠٠]. أحضَروا هذه التقدماتِ لتُقدَّسَ لذكرِ أقربائِهم الراقدين. فبعدَ الإنتهاءِ من الخدمة، يُوزَّعُ القربانُ والكوليفا على المصلّينَ فيتناولونَها مردّدينَ: 'أرحْ يا ربُّ نفْسَه(نفْسَها)'. يقتضي التقليدُ في الكنيسةِ الأرثوذكسيّةِ أنْ يُذكَرَ الراقدونَ بشكلٍ دوريٍّ في خدمةٍ جنائزيّةٍ في آخرِ القدّاسِ الإلهيّ. هذا يصيرُ بانتظامٍ بناءً على طلبِ الأقرباءِ الذين يتمنّونَ تذكُّرَ أمواتِهم الأحبّاء. هدفُ الذكرانيّاتِ هو التضرُّعُ إلى الربِّ من أجلِ خلاصِ المنتقلينَ وسكناهُم في الفردوس.

علَّمَ القدّيسُ يوحنّا الذهبيُّ الفمِ وغيرُه من آباءِ الكنيسةِ الأَوّلين، أنَّ ذكرَ أسماءِ الراقدينَ أثناءَ القدّاسِ الإلهيِّ يُفيدُ نفوسَهم. لذا، صارَ من العادةِ أنْ تُقامَ الذكرانيّاتُ على نحوٍ دوريٍّ من أجلِ المنتقلينَ أثناءَ الخدمِ الكنسيّة.

تذكّرْتُ كمْ أثارَ اهتمامي، مقالٌ لرئيسِ أحدِ الأديارِ في أميركا، يفيدُ أنّه باستطاعتِه 'رؤيةَ' تأثيرِ ذكرانيّاتٍ مماثلةٍ على نفوسِ الراقدين. كأنّه يُثبِّتُ ما

---

١٠٠ الكوليفا هي القمحيّة. تحتوي على القمح المسلوق ومختلف الثمار كالرمان والسمسم واللوز المطحون والزبيب والقلوبات. تُصنعُ في تذكارات والدةِ الإله والقدّيسين. وفي ذكرانيّاتِ الأموات.

قالَهُ القدّيسُ يوحنّا الذهبيُّ الفمِ في القرنِ الرابع. صرَّحَ رئيسُ الديرِ بذلكَ خلالَ الذكرانيّة، قال:

«يُقامُ رباطُ إتّصالٍ دقيقٍ بينَ الراقدينَ والأحياء. وأنا بذاتي أرى عادةً المنتقلينَ أثناءَ الخدمِ التي أُقيمُها لأجلِهم. وفي سياقِ الخدمة، غالبًا ما يتراءونَ لناظريَّ وهم في مسكنِهم الجديد... وأعِي تأثيرَ التضرُّعاتِ المرفوعةِ من أجلِهم. وكثيرًا ما يرى أو يشعرُ أحبّاؤهم أيضًا أنَّهم بقربِهم خلالَ الذكرانيّات. شاهدْتُ أحزانًا طويلةَ الأمدِ تُستأصَلُ كلّيًّا بعدَ مشاركةِ المحزونينَ في الخدمةِ الجنائزيَّة[١٠١]».

تلكَ الكلماتُ وَمضتْ في ذهني حينَ لاحظتُ الأبَ مكسيموس يخرجُ من الهيكلِ ليقودَ الترتيلَ أثناءَ هذا الذكرانيّة. خلافًا للأيّامِ العاديّة، كانَ يلبسُ ثيابًا كهنوتيّةً أُرجوانيّةَ اللونِ احتفاليّةً حامِلًا العكّازَ بيَدٍ، والمبخرةَ بالأُخرى. وقفَ بوقارٍ في وسطِ صحنِ الكنيسةِ مُحاطًا بالرهبانِ والحجّاج، مواجِهًا الهيكل. وُضعَتْ أمامَه طاولةٌ عليها التقدِمات. في وسطِ كلِّ قربانةٍ غُرستْ شمعةُ عسلٍ مُضاءة. بدأَ الأبُ مكسيموس يتمتمُ الصلواتِ ورأسُهُ منحنٍ، محرِّكًا المبخرةَ إلى الأمامِ وإلى الخلف، مالئًا الهواءَ بالأريجِ الشذيّ، الذي اعتدتُ أنْ أتنشَّقَهُ خلالَ الخدمِ الكنسيَّة. بدأَ الأبُ مكسيموس بصوتِه الناعمِ يرافقُه الرهبانُ بترتيلِ الترتيلةَ المألوفةَ:

مباركٌ أنتَ ياربُّ علِّمْني حقوقَكَ

---

101 Abbot George Burke, *An Eagle's Flight* (Geneva, NV Saint George Press, 1994), p. 37.

إنَّ مصفَّ القدّيسينَ وجدَ ينبوعَ الحياةِ وبابَ الفردوس، فَلَيتَني أجدُ الطريقَ بالتوبةِ أنا هو الخروفُ الضالّ. فادْعُني يا مخلّصي وخلّصني.

مباركٌ أنتَ يا ربُّ علِّمْني حقوقَك

يا من في القديمِ من العدمِ جبلْتَني، وبصورتِكَ الإلهيّةِ أكرمْتَني، ولمّا تجاوزتُ وصيّتَكَ أعدْتَني أيضًا إلى الأرضِ التي منها أُخذْتُ، أصعدْني إلى المثال، للتصوُّرِ بالجمالِ القديمِ أيضًا.

مباركٌ أنتَ يا ربُّ علِّمْني حقوقَك

أنا مثالُ صورةِ مجدِكَ الذي لا يوصف، وإنْ كنتُ حاملًا آثارَ الزلّات، فترأَّفْ على جبلتِكَ أيُّها السيِّدُ ونقِّني بتحنُّنِك، وامنحْني الوطنَ المحبوبَ واجعلْني للفردوسِ مستوطنًا.

مباركٌ أنتَ يا ربُّ علِّمْني حقوقَك

أرحْ يا ربُّ عبيدَكَ ورتِّبْهُم في الفردوس، حيثُ مصفُّ القدّيسين، والصدّيقونَ مثلَ الكواكبِ يتلألأون، هناكَ أرحْ يا اللّه عبيدَكَ الراقدينَ مُعرِضًا عن جميعِ زلّاتِهم.

بعدَ عدّةِ تراتيل، قرأَ الأبُ مكسيموس بصوتٍ منخفضٍ المزيدَ منَ الصلواتِ من أجلِ النفوسِ الراقدة: 'يا إلهَ الأرواحِ والأجسادِ كلِّها. يا من وطئتَ الموتَ وأبطلتَ الشيطانَ ووهبتَ الحياةَ لعالمِك. أنت يا ربُّ أرحْ نفوسَ عبيدِكَ الراقدينَ في مكانٍ نيِّر، في مكانٍ خصيب، في مكانِ انتعاش، حيث لا وجعَ ولا حزنَ ولا تنهُّد. وبما أنَّكَ إلهٌ صالحٌ ومحبٌّ للبشرِ اغفرْ لهم كلَّ خطيئةٍ

اقترفوها بالقولِ أو بالفعلِ أو بالفكر. لأنَّهُ ليس إنسانٌ يحيا ولا يُخطِئ. إلاَّ أنتَ وحدَكَ منزَّهٌ عن الخطيئةِ وعدلُك عدلٌ إلى الأبدِ وقولُكَ حقٌّ".

منذُ طفولَتي، كنتُ أسمعُ مرارًا تراتيلَ الذكرانيَّةِ هذه، لكنْ هذه كانتِ المرَّةَ الأُولى حيثُ ركَّزتُ على معانيها. أدركتُ يومذاك أنَّ كلماتِ هذه التراتيل، تُعبّرُ عن عناصرَ رئيسيَّةٍ في التقليدِ المسيحيِّ الأسراريِّ، هي أنَّ النفسَ ابتعدَتْ عن اللهِ منذُ السقوطِ وهي تترجّى عودتَها النهائيَّةَ إلى حالتِها الأصليَّةِ، بنعمةِ الروحِ القدس.

وما إنْ بدأَ الأبُ مكسيموس بذكرِ أسماءِ الراقدين، حتّى أخذَ مصلُّون عديدونَ بِمسْحِ دموعِهم. تابَعْتُ المراقبَةَ والاستِماع، أمينًا لعاداتي المهنيَّةِ وأخذْتُ أُمعِنُ النظرَ في الأهمِّيَّةِ الاجتماعيَّةِ لمثلِ هذه الطقوسِ الكنسيَّة. جاءَني آنذاكَ فكرٌ عقلانيٌّ عجزْتُ عن مقاومتِه. فكَّرْتُ أنَّ الطقوسَ الدينيَّة، تؤدّي وظيفةً مفيدةً للمجتمعِ والأفراد، إذْ إنَّها تحتوي مستوًى من القلقِ والخوفِ يختبرُه، لا محالة، الناسُ الذين يواجهونَ المآسي الموروثةَ في الطبيعةِ البشريَّة. فالتفسيرُ المنطقيُّ لأيِّ عالِمِ اجتماعٍ هوَ أنَّ تلكَ الذكرانيّاتِ تقامُ لأجلِ منفعةِ الأحياء، لا من أجلِ الراقدين. هذه الطقوسُ تُطلِقُ مشاعرَ الحزنِ وتُنشئُ التضامنَ بينَ أفرادِ المجتمعِ الواحد. علاوةً على ذلك، طقوسٌ مماثلةٌ تُعزِّزُ البناءَ الأخلاقيَّ للمجتمع. لكنْ، ما أثارَ اهتمامي هو المعنى الأسراريُّ الكامنُ في تلكَ الذكرانيّات. وهذا المظهرُ يمكنُ أنْ يتكلَّمَ عنْه الأبُ مكسيموس استنادًا لخبراتِه الشخصيَّة.

عندما اعترفتُ للأبِ مكسيموس لاحقًا بالفكرِ الذي راودَني، قالَ لي إنَّ مثلَ هذه التفسيرات، هي جزءٌ من الحقيقةِ فقط. وإذِ استَشهَدَ بكتاباتِ آباءِ الكنيسةِ الأوائل، أصرَّ أنَّ فعلًا أسراريًّا حقيقيًّا ومخلَّفاتٍ روحيَّةً ملموسةً، تتجلَّى أثناءَ خدمِ ذكرانيَّاتِ النفوسِ المنتقلة. تكلَّمَ الأبُ بسلطانٍ عن هذا الموضوع، داحضًا أيَّ مجالٍ لي للشكّ. استنتجتُ، أنَّه ربَّما يأتي تفسيرُه على مستوًى روحيٍّ لإدراكِ الحقيقة، يتعدَّى فكريَ الإجتماعيَّ المحدود.

حالما انتهتِ الخدمة، خرجَ المصلُّونَ إلى باحةِ الدير، وبدأَ المحزونونَ بتوزيعِ القرابينِ والكوليڤا على كلِّ الحاضرين. إذَّاك، ناولَني رجلٌ مع بناتِه الثلاثِ المراهقات، حصَّةً من الكوليڤا وقطعةَ قربانٍ مقدَّسة، أتوا بها لذكرِ الزوجةِ الراقدةِ والدةِ الفتيات، فقلتُ: «ليرحَمْها اللّٰه».

من ثمَّ، قدَّمَ الرهبانُ للحجَّاجِ الشايَ والقهوةَ وفطائرَ الحلوى في بيتِ الضيافةِ الجديد. عدَّةُ حجَّاجٍ كانوا من أقاربِ الرهبانِ وقدْ أتَوا إلى الديرِ يومذاك للتواصلِ مع أبنائِهم وإخوتِهم. في مثلِ هذه المناسباتِ، تتوقَّفُ نشاطاتُ الرهبانِ الأُخرى ليتسَنَّى لهم قضاءُ وقتٍ أكبرَ مَع زوَّارِهم. كانَ ذلكَ وقتًا ليتعرَّفَ الرهبانُ أثناءَه ببعضِ شؤونِ العالم، التي تدورُ خارجَ حدودِ الدير. تنهَّدَتْ أُمُّ أحدِ الرهبان، ذاتُ ثيابٍ سوداء، وهي تحتسي الشايَ وقالتْ لي: «أنا مسرورةٌ لأنَّ ابني هنا، لا في جبلِ آثوس. أقلُّه، هنا يتسنَّى لي رؤيتُه والتحدُّثُ معَهُ، ولو بينَ الحينِ والآخر».

في بيتِ الضيافة، حيثُ اجتمعَ أكثرُ من مائةِ شخص، سُرِرْتُ لرؤيةِ

استِفانوس، الذي لم أرَهُ منذُ عِدَّةِ أيَّام، بصحبةِ زوجتِه التقيَّةِ إيراتو. كانَ أيضًا حاضرًا، صديقيَ أنطوني، أوَّلُ من عرَّفَني بِجبلِ آثوس. وقدْ قرَّرَ أنْ يُمضيَ عطلةَ الأسبوعِ في الديرِ لأجلِ المنفعةِ الروحيَّة.

بعدَ الغداء، طلبَ الأبُ مكسيموس منَّا، نحنُ الأربعةَ وماريا، وهي ناشطةٌ إجتماعيَّةٌ جريئةٌ وصديقةٌ لاستِفانوس وإيراتو، الإلتحاقَ به في غرفةِ استقبالٍ خاصَّة. كما انضمَّ إلينا الأبوانِ أرسانيوس ونيقوذيموس. تأكَّدتُ أنَّ مُسجِّلي الآليَّ الصغيرَ في حالةٍ وظيفيَّةٍ كاملة، ببطاريَّاتٍ جديدةٍ وشريطٍ فارغ.

غرفةُ الاستقبالِ الخاصَّةُ مُجهَّزةٌ بالأثاثِ أفضلَ من غرفةِ استقبالِ الضيوفِ العامَّةِ والأكبرِ مساحة. جلَسْنا على كراسيَّ مخمليَّةٍ مريحةٍ ذاتِ سواعِد، فيما قدَّمَ لنا الأبُ أرسانيوس الشاي. زيَّنتْ عدَّةُ إيقوناتٍ كبيرةٍ جدرانَ الغرفةِ مع صورةٍ للشيخِ پاييسيوس واقفًا خارجَ منسكِه. وبجانبِها عُلِّقتْ لوحةٌ كبيرةٌ أُخرى، للشيخِ إفرام، وهو شيخٌ آثوسيٌّ معاصرٌ مواهبيّ. على الحائطِ المُقابل، توجدُ صورةٌ مؤطَّرةٌ كبيرةٌ للشيخِ پورفيريوس. صارَ بالإمكانِ عرضُ صوَرِهم، لأنَّ ثلاثتَهم رقدوا مؤخَّرًا. وَفقًا للتقليدِ الآثوسيّ، لا يسمحُ بعرضِ صورِ أحدِ الشيوخِ القدِّيسينَ أو نشرِ كتبٍ عن سيرتِهِ إلاَّ بعدَ انتقالِهِ من هذا العالم. آمَنَ الأبُ مكسيموس أنَّ عرضَ الصورِ هذا مهمٌّ جدًّا، إذْ يُثبِتُ أنَّ حقيقةَ حضورِ القدِّيسينَ بينَنا كانتْ ولا تزالُ واقعًا حقيقيًّا ملموسًا في الكنيسةِ منذُ بداياتِها وحتَّى وقتِنا الحاضر. وفيما كنَّا نحتسي الشايَ، حاولتُ أنْ أُغيِّرَ مدارَ الحديثِ مركِّزًا على أهمِّيَّةِ الذكرانيَّات. لذا، سألتُ الأبَ مكسيموس، إنْ كانَت لديه أيَّةُ فكرةٍ عن مصيرِ الأرواحِ التي ليسَ لها من يصلِّي من أجلِها: «ما مصيرُ أولئكَ

الأرواح؟»

وضعَ الأبُ مكسيموس كوبَ الشاي على المنضدةِ أمامَه. إذْ أدركَ التلميحَ الاستفزازيَّ لسؤالي، تجهَّمَ وجهُه، وبدأ يُجادِلُ أنَّ الليتورجيا في ذاتِها هي لمنفعةِ الجنسِ البشريِّ برمّتِه، الأحياءِ والأمواتِ عبرَ كلِّ الأجيال.

سألتُ: «أتَعْني بذلك، أنَّ بلايينَ البشرِ الذين كانوا يحيَون، والذين يعيشونَ الآن، جميعهُم يستفيدونَ روحيًّا من الصلواتِ أثناءَ الخدم؟»

- «بالطبع».

إستنتجتُ من جوابِه أنَّ الصلواتِ التي يشتركُ فيها البشر، تخلقُ حقلَ طاقةٍ ملائكيًّا عذبًا يستفيدُ منه كاملُ الجنسِ البشريّ. رغم ذلك، ذكَّرتُه، أنَّ الذكرانيّةَ صباحَ ذلكَ اليوم، أُقيمَتْ من أجلِ أشخاصٍ مُحدَّدين بناءً لطلبِ أقاربِهم. ثمَّ عُدْتُ وكرَّرْتُ السؤالَ بإلحاحٍ: «ما مصيرُ أولئكَ الآخرينَ المجهولينَ، الذين ليسَ لهُمْ من يُصلّي من أجلِهم، ولا أحدَ يتذكَّرُهم؟ بعدَ مائةٍ أو مائتيْ سنةٍ، لنْ يعودَ هنالِكَ أحدٌ يفكِّرُ بنا، تمامًا كما أنَّنا لا نفكِّرُ بمنْ رقدَ منذُ مائتيْ أو ثلاثمائةِ سنة. ماذا إذًا؟»

فكَّرَ الأبُ مكسيموس لثوانٍ ثمَّ تابعَ كلامَه قائلًا: «دَعْني أُخبرْكَ قصّةً حقيقيّةً تذكَّرْتُها للتوّ، ربَّما توضِحُ ما يحصلُ عندما نصلّي للمنتقلين. أحداثُ القصّةِ، دارتْ في روسيا قبلَ اندلاعِ الثورة. كانَ هناكَ كاهنٌ يُعاني من مشكلةِ الإدمانِ على الكُحول. وغالبًا ما يذهبُ إلى الكنيسةِ وهو سكران، معثِّرًا المؤمنين. وعليه، أرسلَ أبناءُ الرعيّةِ وفدًا إلى الأسقفِ المحلّيّ، يناشدونَهُ

التدخُّلَ لوضعِ حدٍّ لهذا الأمر. سلَّمَ الأسقفُ بما جاءَ في العرائضِ المرفوعةِ إليه، ووبَّخَ الكاهنَ المدمِنَ بشدَّة. لسوءِ الحظّ، لم يستطعْ هذا الكاهنُ المسكينُ السيطرةَ على إدمانِه. لذا، قالَ له الأسقفُ أخيرًا: 'أُنظرْ يا أبانا، بما أنَّكَ عاجزٌ عن التوقُّفِ عن الشرب، عليكَ أنْ تتوقَّفَ عن الخدمة. منذُ الآنَ فصاعِدًا لا يحقُّ لكَ أنْ تقيمَ الأسرارَ'. وجرَّدَه من لباسِه. تقبَّلَ الكاهنُ الحكمَ الصادرَ في حقِّه شاعرًا بذنبِه وخرجَ بتواضع.

في المساء، حينَ كانَ الأسقفُ وحيدًا في قلاَّيتِه يصلّي، شاهدَ رؤيا عجيبة. آلافُ البشرِ الغاضبينَ يقفونَ في حقلٍ فسيح، يهدِّدونَ بإيذائه. عندما عادَ إلى نفسِه، كانَ تحتَ تأثيرِ الصَّدمةِ وتساءلَ ما تعنيه هذه الرؤيا. أكانتْ خيالًا أم هلوسة؟! إسترجعَ الأسقفُ هدوءَهُ وتابعَ صلاتَه. وإذا بالرؤيا ذاتِها تتكرَّر. وشاهدَ أناسًا يصرخونَ مُطالبينَه بعودةِ الكاهنِ إلى الكنيسة.

في صباحِ اليومِ التالي، إستدعىَ الكاهنَ المحرومَ إلى مكتبِه وسألَه: 'ما الذي يحدُثُ معَك؟ ماذا صنعتَ؟'. تحيَّرَ الكاهنُ المسكينُ وتمتمَ قائلًا: 'سيِّدَنا، ماذا اقترفتُ؟'، أصرَّ الأسقفُ: 'لقدْ تكلَّمْنا بالأمسِ عمَّا اقترفتَهُ، لكنْ لا بدَّ أنَّكَ صنعتَ شيئًا آخرَ'، وطلبَ إليه أنْ يسردَ له كيفَ كانَ يمضي أيَّامَهُ ككاهن. قالَ الكاهنُ: 'أنتَ تعرفُ يا سيِّدَنا، بسببِ مشكلةِ الإدمانِ على الكحولِ، كانَ يُخالِجُني شعورٌ دائمٌ بالذنبِ والندم. لذا، تكفيرًا عنْ ذَنْبي، كنتُ أذهبُ كلَّ مساءٍ إلى المقابرِ وأُقيمُ ذكرانيَّةً للراقدين. أُصلّي من أجلِ نفوسِهم لعجزيَ عن فعلِ شيءٍ لنفسي. هذا كلُّ ما كنتُ أقومُ به'.

وتابعَ الأبُ مكسيموس: «تحقَّقَ الأسقفُ أنَّ البشرَ في الرؤيا كانوا أرواحَ المنتقلينَ يُطالبونَ بعودةِ الكاهنِ ليتابعَ الصلاةَ من أجلِهم. هذا الكاهنُ الروسيُّ لمْ يكنْ يعرفُ أيًا من المدفونينَ هناك».

سارعَتْ ماريا الناشطةُ الاجتماعيَّةُ، سائلةً: «أيُمكن، أنْ يكونَ هذا نوعًا من الأحلام؟»

أجابَ الأبُ مكسيموس: «لا، كانت رؤيا. فالأسقفُ لمْ يكنْ نائمًا. في هذه القصَّةِ نرى أنَّ اللّٰه، الذي لا يحكُمُ كأحكامِ البشر، قدَّرَ الصلاحَ الذي صنعَهُ هذا الكاهنُ من أجلِ النفوسِ المنتقلة، معتبِرًا ايَّاه أكثرَ أهمِّيَّةً من شرِّ إدمانِهِ الضئيل».

إستمرَّتْ ماريا بطرحِ المزيدِ من الأسئلةِ الصعبة، وكانَ الأبُ مكسيموس يُجيبُ مُوضِّحًا. «سأروي لكِ عن حالةٍ أُخرى، قد تُساعدُكِ أنْ تفهمي كيفَ تعملُ الأحكامُ الروحيَّة. أترَينَ تلكَ الصورة؟». سألَها الأبُ مكسيموس، مشيرًا إلى صورةِ الأبِ إفرام. «هو حقًّا أحدُ أعظمِ شيوخِ القرنِ العشرينَ ونسَّاكِه، قدِّيسٌ معاصرٌ حقيقيٌّ، تمتَّعَ بمواهبَ روحيَّةٍ فائقةِ الطبيعة.

ذهبَ الشيخُ إفرامُ إلى الجبلِ المقدَّسِ وهو في العشرينَ من عمرِه. منذُ بدايتِهِ تتلمذَ على يدِ الأبِ نيكيفوروس، ناسكٍ عاشَ في كاتوناكيا، إحدى المناطقِ الوعرةِ في الجبلِ المقدَّس.كلاهُما من ثيڤا. للأسفِ، كانَ الشيخُ نيكيفوروس رديءَ السمعةِ، ذاعَ صيتُهُ بالقسوةِ والتسلُّط. لا يمكنُني وصفُ الصعوباتِ التي مرَّ بها الشيخُ إفرام أثناءَ فترةِ تلمذتِهِ على هذا الشيخ. كانَ

الأبُ نيكيفوروس بلا رحمةٍ، عديمَ التمييز، لا يُبدي أيَّ تعطُّفٍ إنسانيٍّ ولا شفقة. ولقدِ اعتادَ الشيوخُ الذين عرفوه جيِّدًا أنْ يقولوا: 'كنَّا نذهبُ هناكَ لزيارةِ الأبِ إفرام، لكنَّنا لم نكنْ نستطيعُ تحمُّلَ شيخِهِ لأكثرَ من خمسَ عشْرةَ أو عشرينَ دقيقةً، فنغادر'. ولقدْ ذهبَ أحدُ الشيوخِ إلى حدِّ القول، إنَّ الأبَ نيكيفوروس قد يبدو إنسانًا إلاَّ أنَّه في الحقيقةِ وحشٌ بريٌّ».

اقترحت ماريا: «ربَّما كانَ مريضًا عقليًّا».

أجابَ الأبُ: «منْ يعلَم؟! ربَّما يكونُ الأمرُ كذلك».

أضافَ أنطوني: «أو ربَّما كانَ مسكونًا».

أجابَ الأبُ مكسيموس بنبرةٍ هادئة: «لنْ أستثني هذا الاحتمالَ أيضًا. عدَّةَ مرَّات، بلغَ الشيخُ إفرام حدَّ مغادرةِ شيخِه. لمْ يكنْ يتعذَّبُ بشدَّةٍ من شيخِهِ وحسب، بل أنَّ ظروفَ العملِ الروحيِّ الحقَّةَ لمْ تتوفَّرْ أيضًا. كانَ من المستحيلِ أنْ يجلسا معًا ليأكُلا دونَ أنْ يبدأَ الأبُ نيكيفوروس بالصراخِ والصياح. كانت حياةً استشهاديَّة».

قالتْ ماريا بنبرةِ احتجاجٍ معبِّرةً عمَّا كانَ يجُول في فكرِ كلِّ واحدٍ منَّا: «لكنْ لماذا استمرَّ في العيشِ معَه؟ هذا أمرٌ غيرُ طبيعيٍّ».

- «حسنًا، إنَّه سرٌّ وتناقض. حينَ وجَّهتُ السؤالَ نفسَه ذاتَ يومٍ إلى الشيخِ إفرام، أباحَ لي، أنَّه كلَّ مرَّةٍ كانَ يقرِّرُ المغادرة، كانَ يشعرُ بتخلِّي نعمةِ اللّهِ عنه. في أحدِ الأيَّامِ سألَهُ شيخٌ آخرُ: 'كيفَ حالُكَ يا أبانا إفرام؟'. أجابَ

بمرارةٍ: 'جيّد'. 'وكيفَ حالُ شيخِكَ؟'. تنهَّدَ الأبُ إفرام وأجاب: 'يعذِّبُني يا أبتِ، إنَّه يعذِّبُني بشدَّةٍ'. إحزرْ ماذا حدث؟ بسببِ هذه الكلماتِ ضدَّ شيخِهِ شعرَ الأبُ إفرام بانسحابِ النعمةِ وحُرِمَ منها لستَّةِ أشهر. خلالَ تلكَ الفترة، ناحَ على فقدانِهِ النعمةَ وشعرَ ببؤسٍ شديد. تخيَّلْ! أيُمكنُكَ إدراكُ أمرٍ كهذا؟»

لمْ يستطعْ أحدُنا فهمَ تلكَ الحالةِ لأنَّنا لمْ نكنْ نعرفُ معنى تخلِّي النعمة.

تمتمتْ ماريا: «يبدو أنَّها حالةٌ ماسوشيَّة[١٠٢]».

- «شعرَ الشيخُ إفرام بفقدانِ النعمة، بسببِ أفكارٍ سلبيَّةٍ حولَ شيخِه. وكلَّما قرَّرَ مغادرتَه، كانَ يختبرُ فقدانَ النعمة. إستمرَّ الشيخُ إفرام على هذا المنوالِ غيرِ المحتمَلِ مدَّةَ اثنتينِ وأربعينَ سنةً كاملة. دخلَ إلى الجبلِ المقدَّسِ في العشرينَ من عمرِهِ وحينَ رقدَ الأبُ نيكيفوروس في الربِّ، كانَ قدْ بلغَ اثنَينِ وستِّينَ عامًا. قالَ لي مرَّةً: 'اثنانِ وأربعونَ عامًا، لمْ يَدْعُني الأبُ نيكيفوروس ولا مرَّةً واحدةً بِاسْمِي. كانَ دائمًا يتوجَّهُ إليَّ بكلماتٍ قاسيةٍ ولعناتٍ'.

مع نهايةِ أيَّامِه، صارَ الأبُ نيكيفوروس مجنونًا. فكلَّما كانَ يشيخُ، كلَّما ازدادَ شكُّهُ وارتيابُهُ في الآخرين. فاضطُرَّ الأبُ إفرام إلى حبسِهِ داخلَ قلاَّيتِهِ حتَّى لا يقتلَ نفسَهُ أو أيَّ شخصٍ آخر. اعتادَ الأبُ إفرام أنْ يخبرَنا: 'مرَّتِ اثنتانِ وأربعونَ سنةً، ولكن بالثواني. أتفهمُ ما أقولُه لكَ؟ حوِّلِ اثنين وأربعينَ عامًا إلى

١٠٢ الماسوشية masochism هي انحراف يتلذَّذُ فيه المرء بالتعذيب الذي يُنزله به رفيقه.

ثوانٍ، لتتخيّلَ أنّي عشتُ ثوانٍ من الاستشهادِ لا ساعاتٍ ودقائقَ'.

يومَ رقادِ الأبِ نيكيفوروس في الربّ، أُقيمتْ خدمةُ الجنازة، ووَفقَ العادة، تقدَّمَ الأبُ إفرام، تلميذُهُ وضربَ مطّانيّةً أمامَ شيخِهِ الراقدِ وقبّلَ يدَه للمرّةِ الأخيرة. في تلكَ اللحظةِ خاطَبَتْهُ النعمةُ الإلهيّةُ وقالت: 'ما صنعتَهُ كلَّ تلكَ السنواتِ كانَ من مشيئةِ اللّه'. إذّاكَ أجابَ الشيخُ إفرام: 'أتُعلنُ لي هذا الآنَ من بعدِ رحيلِه؟ على مدى اثنينِ وأربعينَ عامًا، تضرَّعْتُ إليكَ منتحِبًا، نهارًا وليلًا، لِتُعلِمَني ماذا أعمل. كنتُ أحترقُ من الداخل، والآنَ بعدَ موتِه تُعلِمني أنَّ هذه مشيئتُكَ! ماذا لو كنتُ غادرتُ؟'. عندَ ذلك أجابَه الربُّ: 'لو غادرتَ لَمَا كنتَ حيثُ أنتَ الآن. في الحقيقة، كُنتَ سَتَتُوه'. كانَ الأبُ إفرام يسعى وراءَ التقدُّمِ الروحيّ. هذا ما أرادَه وهذا ما حصلَ عليه. مرارًا قالَ إنَّ شيخَه، في النهايةِ، قدْ أفادَه روحيًا».

توقَّفَ الأبُ مكسيموس لثوانٍ عن الكلام، وابتسمَ إذْ نظرَ على وجوهِنا علاماتِ الشكّ. ثمَّ تابع: «هنالِكَ تتمّةٌ لتلكَ الرواية. في أحدِ الأيّام، وبينما كانَ الشيخُ إفرام مستغرِقًا في الصلاة، عاينَ رؤيا. علِمَ من نعمةِ الروحِ القدسِ أنَّ شيخَه، عندَ موتِه، فُصِلَ عنِ اللّهِ وأنَّهُ يتعذَّبُ في الجحيم».

قالتْ ماريا ساخرةً: «لمْ أُفاجَأ بالأمرِ»، فضحِكْنا.

- «ولكنْ في تلك اللحظةِ بالذات، التزمَ الأبُ إفرام تعهُّدًا روحيًا دامَ لسنوات، جهادًا في الصلاةِ والصومِ والإحسان، ليُحرِّرَ نفسَ شيخِهِ من الجحيم. جثَى وتضرَّعَ إلى اللّهِ ليرحمَ شيخَهُ الراقدَ ويحرِّرَ نفسَهُ من حالةِ العذابِ هذه.

خلالَ السنواتِ الأربعِ التالية، صلّى الشيخُ إفرام بتواصلٍ من أجلِ شيخِهِ الراحل. وكلّما كانَ يصلّي، كانَ يرى نفسَ الأبِ نيكيفوروس، تبتعدُ عن الجحيم، إلى أنْ تحرَّرَ كلّيًا. خرجَ من الجحيمِ بفضلِ صلواتِ تلميذِهِ الذي ذاقَ منه المظالمَ لأربعةِ عقود».

قالتْ ماريا وأومأت برأسِها علامةً لعدمِ إيمانِها: «لستُ مقتنعةً! كيفَ يصيرُ ذلك؟»

– «أنظري يا ماريا، الكنيسةُ لدَيها القوّةُ من خلالِ صلواتِ القدّيسينَ أنْ تُخلّصَ نفوسَ الراقدين. صدِّقيني، تملِكُ الكنيسةُ حقًّا تلكَ القوّة. بالطبع، قصّةُ الشيخِ إفرام لا تبدو غريبةً لِمَن ألِفوا حياةَ جبلِ آثوس. في السنواتِ الأخيرة، كلُّ من عرفَ الشيخَ إفرام، وقَّرَه كقدّيسٍ حيٍّ وصانعِ معجزات، تمامًا كالشيخِ پاييسيوس والشيخِ پورفيريوس»، قالَ الأبُ ذلك مشيرًا إلى صورتَيِ الشيخَين الجليلَين، والقدّيسَين المعاصرَين.

لاحظتُ أنَّ استِفانوس، وإيراتو وأنطوني، والأبوينِ أرسانيوس ونيقوذيموس، على الرغمِ من دهشتِهم لروايةِ الأبِ مكسيموس، لم يُظهِروا علاماتِ حيرةٍ إزاءَ هذا النوعِ النادرِ من الروايات. فلقدِ احتكُّوا طويلًا بالروحانيَّةِ الآثوسيَّة ممَّا حصَّنَهم من كلِّ شكوكٍ وتساؤلات. تابعت إيراتو، ذاتُ الطبعِ الهادِىء والمعرفةِ الروحيَّةِ العميقة، لتُضيفَ أنَّ خبرةَ الشيخِ إفرام لها حالاتٌ مماثلةٌ في تاريخِ الرهبنةِ المسيحيَّة.

قالت: «في الحقيقة، يُمكنني أنْ أذكُرَ حالةً مماثلة، وهي حياةُ القدّيسِ

پاييسيوس الكبير».

حالما ذكرتْ إيراتو اسمَ القدّيسِ پاييسيوس، إستدارَ الأبُ مكسيموس نحوَ الأبِ نيقوذيموس، وطلبَ منه جَلْبَ كتابٍ كنسيٍّ معيَّنٍ من المكتبةِ المجاورة. حينَ عادَ الراهبُ الحدثُ حاملًا الكتابَ السميكَ والكبيرَ الحجم، راحتْ إيراتو تُقلِّبُ الصفحاتِ إلى أنْ وجدتْ سيرةَ هذا الناسكِ الذي عاشَ في القرنِ الرابع. طلبَ الأبُ مكسيموس من إيراتو أنْ تقرأَ السيرةَ الموجزةَ والتي تتشابَهُ وحالةَ الشيخِ إفرام، إنّما بأدوارٍ معاكسة.

بحسبِ السيرة، ارتكبَ تلميذُ أحدِ الشيوخِ الكثيرَ من الخطايا، وماتَ فجأةً غيرَ تائب. قلقَ الشيخُ على مصيرِ تلميذِه، فتضرَّعَ إلى اللّه ليكشفَ له ماذا حصلَ لهذا الكسولِ غيرِ التائب. إذّاك، أعلمَه اللّهُ أنَّ تلميذَه يتعذَّبُ في الجحيم. حزنَ الشيخُ كثيرًا وبدأَ يُصلّي بحرارةٍ من أجلِ خلاصِ تلميذِه. يئسَ الشيخُ فالتمسَ مساعدةَ القدّيسِ پاييسيوس الذي كانَ يعيشُ في الصحراءِ، وقد ذاعَ صيتُهُ كشيخٍ وقدّيسٍ عظيمٍ يتمتَّعُ بمواهبَ روحيَّةٍ فائقة. بعدَ أنْ أنكرَ القدّيسُ پاييسيوس امتلاكَه تلكَ المواهب، وافقَ أنْ يصلّيَ مع الشيخِ من أجلِ خلاصِ نفسِ تلميذِه غيرِ التائب.

قرأتْ إيراتو: «رفعَ القدّيسُ پاييسيوس يدَيه إلى السماواتِ وصلّى: 'يا خالقَ السماءِ والأرضِ وضابطَهما، إستمعْ إلى تضرُّعِ خدّامِكَ غيرِ المستحقّين، وتحنَّنْ على تلميذِ هذا الشيخِ وحرِّرْهُ من أغلالِ الجحيم'».

وتابعتْ إيراتو القراءةَ أنّه حالَما انتهى القدّيسُ پاييسيوس والشيخُ من

التضرُّعِ إلى اللّه، عاينا رؤيا مماثلة، تداولاها فيما بعد. أوضحتْ لهما الرؤيا تفاصيلَ تحريرِ المسيحِ لذاكَ التلميذِ من عذاباتِ الجحيم. تابعتْ إيراتو القراءةَ: «من ثمَّ، سألَ الشيخُ القدّيسَ پاييسيوس، أنْ يكشفَ له ماهيَّةَ الجهاداتِ الروحيَّةِ التي خاضَها فخوَّلتْهُ لتلكَ المواهبِ الفائقةِ الطبيعة. وبحسبِ ما هو مؤرَّخٌ في السيرة، أجابَ القدّيسُ بكلِّ تواضع: ’اغفرْ لي أيُّها الأبُ المكرَّم، فلمْ أعملْ صلاحًا يستحقُّ هذه الموهبة. العنايةُ الإلهيَّةُ هي التي تُرتِّبُ مثلَ هذه الأمورِ استجابةً للسائلينَ العونَ من أعماقِ قلوبِهم. أمالتِ العنايةُ الإلهيَّةُ الأذنَ نحوَ صلاتِكَ وتحقَّقتْ من عِظَمِ محبَّتِكَ لتلميذِك. بصنيعِكَ هذا حَذَوتَ حذوَ اللّهِ الرحيمِ الذي أعلنَ لنا هذه الحقيقة، أنَّه لا توجدُ فضيلةٌ أعظمُ من المحبَّةِ غيرِ الأنانيَّة، التي من أجلِها يضحّي المرءُ حتّى بحياتِه لأجلِ الآخرين. إستمعَ الربُّ صلواتِكَ بسببِ هذا الحبِّ الذي أبدَيتَهُ تجاهَ تلميذِكَ‘».[١٠٣]

ذكَرْتُ أنَّه بغضِّ النظرِ عن واقعيَّةِ هذه الاختبارات، مثلُ هذه الرواياتِ تُثيرُ اهتمامًا لاهوتيًّا على صعيدِ كيفيَّةِ تصوُّرِ التقليدِ المسيحيِّ الآثوسيِّ للجحيم، وَفقًا لخبرةِ ممارسيها المُتَّقدِينَ والشيوخِ الموهوبين.

تدخَلَ الأبُ مكسيموس قائلًا: «إسمحْ لي أوَّلًا أنْ أوضِّحَ أمرًا. نحنُ، ندعوه الجحيم. في الحقيقة، ما نعنيه هو اختبارُ النفسِ التغرُّبَ عن اللّه. فنفسُ الأبِ نيكيفوروس كما نفسُ ذاكَ التلميذِ الذي حرَّرَهُ القدّيسُ پاييسيوس، انفصلتا عن اللّه».

١٠٣ راجع سيرة القدّيس في السنكسار.

جادلتُه: «حسنًا. لكنِ استنادًا لِما أوضحتَهُ اليوم، يمكنُ أنْ أُميِّزَ أربعَ مُعضلاتٍ أساسيَّةً قدْ تبرزُ لمنْ لا يألفُ تراثَ جبلِ آثوسَ وروحيَّتَه»، ووجَّهتُ نظري إلى ماريًّا التي أومأَتْ باستحسانٍ كما لو أنَّها تقرأُ أفكاري.

قالَ الأبُ مكسيموس بابتسامةٍ معهودةٍ تعتلي وجهَه: «فلنسمعْها».

قلتُ: «في الحقيقة، دوَّنتُها بسرعةٍ بينَما كنتَ تتكلَّمُ»، وبدأتُ أقرأُ من دفترِ ملاحظاتي: «إهتماميَ الأوَّل هو أنْ أكتشِفَ إذا ما كانتْ هذه الخبراتُ حقيقيَّةً أم مجرَّدَ أوهامٍ وهلوسات؟ أعني روايةَ ذاكَ الأسقفِ الروسيِّ ورؤيتَهُ أمواتًا يصيحونَ به، ومعاينةَ الأبِ إفرامَ لشيخِه في الجحيمِ وخارجَه، وتحريرَ القدِّيسِ پاييسيوس لتلميذِهِ غيرِ التائب! ثانيًا، وسامحْني إنْ كنتُ أكرِّرُ ما سبقَ وقلتُه، لكن ما هوَ مصيرُ أولئكَ الذين انتهى بهمِ المطافُ في الجحيم، وليسَ لديهم أحدٌ على غرارِ القدِّيسِ پاييسيوس أو الشيخِ إفرام ينقذُهم من الجحيمِ بصلواتِه. ثالثًا، أتُشيرُ تلكَ الأحداثُ إلى أنَّ الجحيمَ ليس حالةً ثابتةً وأنَّه يمكنُ للراقدِ التحرُّرُ من أغلالِها؟ رابعًا، وفقًا لخبرةِ الشيخِ إفرام، أهو مفيدٌ روحيًّا الإخلاصُ لشيخٍ كهذا؟ ماذا نتعلَّمُ من علاقةٍ مماثلةٍ بينَ شيخٍ وتلميذِه، والجهادِ للإتِّحادِ باللّه؟ ألا تعارضُ هذه العلاقةُ التعسُّفيَّةُ المبادِئَ الأساسيَّةَ لحقوقِ الإنسان؟»

هزَ الأبُ مكسيموس رأسَه بينما انتظرتْ بقيَّةُ المجموعةِ بحرارةٍ جوابَه، خصوصًا ماريًّا. أشارَ أنطوني بإصبعِهِ نحويَ وقالَ ممازحًا إنَّني لمْ أكفَّ يومًا عن أنْ أكونَ أكاديميًّا عقلانيًّا، على الرغمِ من السنواتِ الطويلةِ التي أمضيتُها

متفحّصًا الرهبانيّةَ والروحانيّات.

إقترحتُ: «فلنتناولْ السؤالَ الأوّل. أيُمكنُ أنْ يكونَ الشيخُ إفرام قد شاهدَ أمورًا عن شيخِهِ في الجحيم، أم أنّه عاينَ رؤيا نتيجةَ مخيّلتِهِ الناشطة؟ كيفَ للمرءِ أنْ يقبَلَ ويُصدّقَ أنَّ خبرةَ الشيخِ إفرام أصيلةٌ مثبّتَةٌ على حقائقَ، لا على أوهامٍ وهلوسات؟»

أجابَ الأبُ مكسيموس: «إذًا، دونَما معاييرَ وشروطٍ لاهوتيّة، كلُّ شيءٍ يجبُ أنْ يُرفضَ باعتبارِهِ وهمًا وهلوسة، بما في ذلكَ حقيقةُ اللّه نفسِه».

تدخَّلتْ ماريّا سائلة: «أبتِ، إلى أيِّ نوعٍ من المعاييرِ والشروطِ اللاهوتيّةِ أنتَ تُشير؟»

- «أوّلًا، عليكمْ أنْ تقبلوا وتؤمنوا بحقيقةِ اللّه. وأيضًا بواقعيّةِ الأرواحِ، والأماكنِ الروحيّةِ التي تختلفُ عن الأماكنِ الأرضيّةِ والكائنةِ خارجَ حدودِ هذه الأرض. علاوةً على ذلك، يجبُ أنْ تَقبلُوا أنَّ لدى القدّيسينَ خبراتٍ فعليّةً لحقائقَ أُخرى. على سبيل المثال، لمْ تكنْ خبرةُ الشيخِ إفرام فريدةً من نوعِها. إذْ لدى كلِّ القدّيسينَ عبرَ تاريخِ الأزمنةِ خبراتٌ مماثلة. منذُ ابراهيمَ وموسى والقدّيسِ بابيسيوس الكبيرِ إلى الآن، تحاورَ القدّيسونَ وتحدَّثوا مع اللّه. قبلَ أنْ نتعمّقَ في الحديث، يجبُ أنْ تَقبلَوا هذا الأمر، على الأقلّ كاحتمالٍ. لمْ يكنِ الشيخُ إفرام مختلاً عقليًّا. كانَ قدّيسًا موهوبًا للغاية، خبيرًا في الحقائقِ الروحيّة، لا شخصًا غيرَ متوازنٍ عقليًّا. مواهبُهُ الروحيّةُ عُرفَتْ جيّدًا في جبلِ آثوسَ بينَ الذينَ تواصَلوا معَه. فالرؤيا التي شاهدَها لمْ تكنْ لمرّةٍ واحدةٍ

فقط، بلْ تكرَّرتْ لأربعِ سنواتٍ متتالية. إضافةً إلى ذلك، شهِدَ كيفيَّةَ تأثيرِ صلواتِه تدريجيًّا في نفْسِ شيخِه. كلَّما صلَّى كانَ يرى نفْسَ شيخِهِ ترتفعُ إلى أعلى، بعيدًا عن حالتِها الجحيميَّة. بكلماتٍ أُخرى، أصبحتْ نفسُ شيخِهِ شيئًا فشيئًا أكثرَ تقبُّلًا للنعمةِ الإلهيَّة. استمرَّ ذلك، حتَّى عادَ إلى الربِّ بالكلِّيَّة».

علَّقتُ قائلًا: «الأهمّيَّةُ اللاهوتيَّةُ لهذه القصَّةِ تكمنُ في أنَّها تضادُ الإعتقاداتِ التقليديَّةَ حولَ الجحيمِ والدينونة. فالجحيمُ في هذه الحالة، لا تبدو بالضرورةِ حالةً ثابتة. النفسُ البشريَّةُ يُمكنُها، في الحقيقة، أنْ تتحرَّرَ من تلك الحالة».

قالَ الأبُ مكسيموس مؤكِّدًا، كما لو أنَّهُ أمرٌ بديهيٌّ: «هذا بالطبعِ ممكنٌ. إنَّنا نتكلَّمُ هنا على أولئكَ الذين يَقبَلونَ التقدُّس. لكن يبقى دائمًا أولئكَ الذين ببساطةٍ لا يُذعِنونَ لمثلِ هذه العناية. يُمكنك أنْ تُصلِّي للشياطين، بقدرِ ما تشاء. ولكنْ في اعتقادي، أنَّهم عاجزون عن قبولِ النعمةِ الإلهيَّة، بالرغمِ منْ أنَّ الشيخَ پاييسيوس صلَّى حتَّى من أجلِ خلاصِ الشياطين».

تدخَّلتْ ماريًّا قائلة: «السؤالُ البديهيُّ الذي يُراوِدُني يتطابقُ معَ قلقِ كرياكوس الثاني المتعلِّقِ بروايةِ الشيخِ المستبدِّ الذي خلَصَ بفضلِ صلواتِ تلميذِهِ المُطيعِ الشيخِ إفرام. ماذا عنِ الآخرين، البشرِ العامِّيِّين، الذين ليسَ لديهم من يصلِّي من أجلِهم، والذين ببساطةٍ يفتقرونَ لمثلِ هذه الارتباطاتِ وشبكاتِ التواصلِ الروحيَّة؟ يبدو لي ظلمًا واضحًا يتضارَبُ ومحبَّةَ اللهِ الكلِّيَّةَ لكلِّ الخليقة».

- «لكنَّنا تحدَّثنا عن هذا منذُ لحظات. ألمْ نقُلْ إنَّ الكنيسةَ تُصلِّي من

أجلِ كُلِّ الراقدين؟ علاوةً على ذلك، تُخصّصُ الكنيسةُ أيّامًا محدّدةً للصلاةِ من أجلِهم. هذه الخدمُ تُقامُ لأجلِ نفوسِ الراقدينَ في كلِّ الأرض».

سألتْ ماريًا ثانية: «أرثوذكسيُّونَ وغيرُ أرثوذكسيِّينَ على حدٍّ سواء؟»

أجابَ الأبُ: «تشملُ الصلواتُ الجنسَ البشريَّ أجمعَ وتؤثِّرُ به».

قاطعتُه: «إذًا هذه الصلوات، لها تأثيرٌ على كلِّ الراقدين. إنْ هم تجاوبوا، ينالونَ العونَ للإرتقاءِ نحوَ اللّه. هذا يَعني، إنْ أدركتُ الأمرَ جيِّدًا، أنَّ ما ندعوه 'الجحيمَ' هو حالةٌ نسبيّة. أيْ قدْ تكونُ النفسُ في حالةٍ جحيميّة، أكثرَ أو أقلَّ عمقًا».

- «لستُ أكيدًا من ذلك. الجحيمُ هو الجحيم. لستُ على درايةٍ بوجودِ جحيمٍ سفلى وجحيمٍ عليا. نحتاجُ أوّلًا لفهمِ معنى الجحيم».

- «ظننتُ أنّه حالةُ الانفصالِ عنِ اللّه».

- «بالطبع، إنَّه كذلك. هو عدمُ معرفةِ اللّه، لكنْ لا ذلكَ وحسب. بحسبِ الشيوخِ القدِّيسين، الجحيمُ هو اختبارُ اللّهِ، لا كَنُورٍ ونعمةٍ أبديّة، لكنْ كَنارٍ أبديّة. إلاّ أنَّ اللّه، ليسَ نارًا أبديّة. الإنسانُ، لا اللّه، هو الذي يخلقُ هذا التشويه. لذا أرواحُ البشرِ هي المحتاجةُ إلى الشفاء، لكي تصبحَ قادرةً على رؤيةِ اللّه، كَنُورٍ لا كَنارٍ معذِّبة».

* * *

الرؤيةُ التي قدَّمَها الأبُ مكسيموس عن الجحيمِ تختلفُ بشكلٍ جذريٍّ

عن المفهومِ المَحْقُونِ في الوعيِ الغربيِّ، الذي يصوِّرُ الجحيمَ كمكانٍ فيه قِدْرٌ من الزيتِ المغليِّ والكِبريتِ الحارق. فُتِنْتُ، إذْ لطالما شعرتُ أنَّ أكثرَ ما كان يُنَفِّرُ المفكِّرينَ المسيحيِّينَ المعاصرينَ هو لاهوتُ 'الجحيم والدينونة'. فمثلُ هذه العقائد، قادتْهم إلى اعتناقِ تقاليدَ دينيَّةٍ أُخرى، لا تُصوِّرُ العالمَ المُزمعَ أنْ يأتيَ، بهذه الصورةِ المروِّعة. مؤخَّرًا، أنكرَتْ إحدى لجانِ الكنيسةِ الأنجليكانيَّةِ، مدفوعةً بإدراكٍ مماثل، الفكرةَ الشائعةَ في الوعيِ الغربيِّ حولَ الجحيمِ كموضع 'تشتعلُ فيه النيران، وترتفعُ فيه المذاري وصرخاتُ الألمِ الذي لا ينتهي'، ووصفَتْهُ بالمقابلِ أنَّه إبادةُ النفوسِ التي ابتعدَتْ عن محبَّةِ اللّٰه.

رفضَتْ هذه اللجنةُ الفَهْمَ الشائعَ منذُ القرونِ الوسطى حول الجحيم، وذكرَتْ في تقريرِها أنَّ 'المسيحيِّينَ آمنوا بـ'لَهْوَتاتٍ' مُرعبةٍ جعلتِ اللّٰه وحشًا ساديًّا، وخلَّفتْ آثارًا نفسيَّةً مؤلمةً للغايةِ على الكثيرين'. وتابعَ التقريرُ موضحًا الأسبابَ العديدةَ لهذا التغييرِ في موقفِ الكنيسةِ الأنجليكانيَّة، من بينِها احتجاجاتٌ أخلاقيَّةٌ من داخلِ الإيمانِ المسيحيِّ وخارجِهِ ضدَّ دينِ الخوفِ، وإدراكٌ متزايدٌ أنَّ صورةَ إلهٍ مرسِلٍ الملايينَ إلى العذابِ الأبديِّ، هي غريبةٌ عن إعلانِ محبَّةِ اللّٰهِ في المسيح.

رغمَ ذلك، انتهى التقريرُ بملاحظةٍ دفعتْني لطرحِ المزيدِ من الأسئلة. يذكرُ التقرير: 'الجحيمُ ليس عذابًا أبديًّا، لكنَّه اختيارٌ نهائيٌّ وغيرُ قابلٍ للنقضِ لكلِّ مَن قاومَ اللّٰهَ على نحوٍ تامٍّ ومطلق. إذْ تصبحُ النهايةُ الوحيدةُ عدمَ الوجودِ بالكليَّة[١٠٤]'.

104 Reported by the Associated Press, *Bangor Daily News*, January 19, 1996.

عدمُ الوجودِ بالكلِّيَّة؟ مِنْ فَهْمي لترتيبِ الأمور، حتَّى الذين رفضوا اللّٰه 'على نحوٍ تامّ'، لا يُمكنُ أنْ يدخلوا إلى حالةِ 'عدمِ وجود'. ألا ينقضُ هذا مبدأَ خلودِ النفس؟ بالإضافةِ إلى ذلك، ألا تقتضي رحمةُ اللّٰهِ اللامتناهيةُ وترأُّفُه، منحَ النفوسِ فرصًا أُخرى للهروبِ من جحيمِهم الحقيقيِّ وبؤسِهم؟ وألا تُحتِّمُ رحمةُ اللّٰهِ الكلِّيَّةُ ومحبَّتُه المطلقةُ إعادةَ النفوسِ إلى حالتِها الإلهيَّة؟ أعتقدُ أنَّ هذا هو المنطقُ الداخليُّ الذي دفعَ الشيخَ پاييسيوس إلى الصلاةِ حتَّى من أجلِ خلاصِ الشياطين، ودفعَ القدِّيسَ سِلوان أيضًا ليقولَ إنَّه لا يستطيعُ أنْ يرقدَ بسلامٍ عالِمًا أنَّ نفسًا واحدةً قد تكونُ هالكة. ينوحُ هذا القدِّيسُ الروسيُّ المعاصرُ الذي نسكَ في جبلِ آثوس: 'كيفَ لي أنْ أكونَ سعيدًا في الفردوس، وأحدُ إخوتي في البشريَّةِ لا يزالُ يتعذَّبُ في الجحيمِ الأبديَّة؟'[١٠٥]. كَتبتُ على هامشِ الصفحةِ حيثُ قَرأتُ ذلك المقطعِ مِنْ حياةِ القدِّيسِ سِلوان: أنَستنتجُ من هذا، أنَّ النفسَ التي في الفردوسِ، لا تستطيعُ أنْ تكونَ في حالةِ السعادةِ التامَّةِ كما يجب، طالما أنَّ نفسًا واحدة، تَبلى في الهلاكِ الأبديّ؟ أيتضاربُ إذًا الفردوسُ مع مثلِ هذه الفكرةِ الرهيبة؟

* * *

كنتُ على وشكِ أنْ أُثيرَ كلَّ هذه القضايا معَ الأبِ مكسيموس عندما قامَ استِفانوس، الذي التزمَ الصمتَ حتَّى تلكَ اللحظة، وطرحَ سؤالَهُ الخاصّ: «أبانا مكسيموس، كيف يمكنُ التمييزُ بينَ الخيالات، والرؤى الحقيقيَّة؟ نحنُ

---

١٠٥ الأرشمندريت صفرونيوس (سخاروف): القدّيس سلوان الآثوسيّ. نقلته إلى العربية الأمّ مريم (زكّا). منشورات التراث الآبائي. طبعة ثانية ١٩٩٩.

كَبشر، مهما كانتْ دَرَجةُ تقدُّمِنا الروحيّ، نحملُ في داخلِنا إمكانيَّةَ الضلال. قد تُعاينُ اللّهَ في رؤيا أو قدْ تسمعُ صوتَ اللّه، كما حدثَ معَ الشيخِ إفرام، ومع ذلكَ يُراودُكَ الشكُّ أنّه تصوُّرٌ خاطئٌ أو هلوسة. كيفَ تميِّزُ بينَ اختبارٍ حقيقيٍّ للّه، واختبارٍ ضالٍّ؟ الكثيرُ من الناسِ اليومَ يدَّعي سماعَ صوتِ اللّه، أو رؤيتَهم العذراءَ الفائقةَ القداسة، أو المسيحَ وما إلى ذلك».

تدخَّلتُ قائلًا: «عرفتُ أُناسًا، أتوا وأخبروني أنَّهم يسمعونَ رسائلَ من اللّه، يسمعونَ ذاكَ وتيك، وأنا متأكِّدٌ جدًّا أنَّهم يَخدعونَ أنفسَهم».

أضافَ استِفانوس: «هذا ما كانَ يدورُ في ذهني حينَ طرحتُ سؤالي. كيفَ يمكنُ الجزمُ أنَّ ما اختبرَه الشيخُ إفرام أو الشيخُ پاييسيوس هو اتِّصالٌ مباشرٌ مع اللّهِ ذاتِه، وليسَ ضربًا من الخيال؟ وهذا بالضبطِ ما يقلقُ كيرياكوس وماريًّا».

أجابَ الأبُ مكسيموس: «إسمع، اللّهُ بذاتِه وضعَ لنا بعضَ المعاييرِ في كلماتِه، وعلى لسانِ الشيوخ. الأهمُّ، أنّه يمكنُنا التأكُّدُ من الحقيقةِ على أساسِ الخبرة. إذا كنتَ خبيرًا يمكنُكَ بسهولةٍ اكتشافُ الوهم، تمامًا كخبيرِ الألماسِ الذي يميِّزُ حَجرةَ الماسِ الحقيقيَّةَ من المزيَّفة».

توقَّفَ الأبُ عن الكلامِ ومسَّدَ لحيتَه السوداء، فكَّرَ لثوانٍ ثمَّ تابعَ قائلًا: «عندما تعتادُ النفسُ حضورَ النعمةِ ومذاقَها، تُدركُ على الفورِ الوهم، ما يدعوه الآباءُ 'الخداع'. قد يبدو أحدُ الأمورِ نقيًّا وبسيطًا في ظاهرِه، ولا يعطيكَ أيَّ سببٍ للشكِّ أو الارتيابِ فيه، لكنَّ النفسَ المختبَرةَ تستعرفُ الخداعَ وتميِّزُه.

أعني الخداعَ الذي ينشأُ عن روحِ الخداع. أتفهمونَ ما أقول؟»

أومأْنَا مدركينَ أنّه عنى الشيطان.

- «ما وددتُ قولَهُ هو، إنْ كانتِ النفسُ مريضةً ويتملَّكُها الحقدُ والكبرياءُ، وما شابَه من الأهواء، إذَّاك، تكونُ الضلالةُ احتمالًا واردًا. لكنْ إنْ كانتِ النفسُ متواضعة، يمكنُها أنْ تكشفَ روحَ المكرِ بسهولة».

سألَ استِفانوس: «أهذا ما يعنيهِ الشيوخُ بقولِهم، إنَّ الاتّضاعَ يولِّدُ موهبةَ التمييز؟»

أومأَ الأبُ مكسيموس موافقًا: «صحيح، بالتمييزِ يُشيرُ الآباءُ إلى العمليّةِ التي يمكنُ للمرءِ من خلالِها أنْ يكشفَ مصدرَ روحٍ ما، إذا كان من اللّه أو لا. أتَرون، يستحيلُ على المرءِ اكتسابُ موهبةِ التمييزِ دونَ التواضع. في الأساسِ، التمييزُ ليس إلاَّ مجموعَ الخبرةِ والمنطقِ والحدس. هو القدرةُ أنْ تُدركَ فوريًّا أنَّ روحًا ما هو روحُ خداعٍ. الشيخُ إفرام والقدّيسُ پاييسيوس الكبيرُ كلاهما كانَ محاربًا مختبَرًا في الجهادِ الروحيِّ، وبلغَ أعماقًا عظيمةً من التواضع. لذا نالا موهبةَ التمييز، وصارَ في مستطاعِهما ملاحظةُ الفرقِ بينَ رسالةٍ حقيقيّةٍ من اللّه وبينَ الوهمِ والخداع».

تساءلتْ ماريّا: «أيمكنُ تعرُّضُ قدّيسٍ للخِداع؟»

- «هذا ممكنٌ في القضايا المتعلّقةِ بالمعرفةِ الدنيويّة. لكنَّ ذلكَ ليسَ وهمًا. هو، ببساطة، مجرَّدُ خطإٍ ناتجٍ عن النقصِ البشريّ. هوَ خطأٌ عقليٌّ،

يتعلَّقُ بمعارفِ هذا العالمِ. ليسَ خطأً مستنِدًا على التمييزِ بينَ الأرواحِ الخَيِّرةِ والشرِّيرة، أو تشويشًا في معرفةِ إذا ما كانتِ الرسالةُ من اللهِ أم لا. أتُدركونَ ما أقول؟ على سبيلِ المثال، قد يشيرُ أحدُ القدِّيسينَ إلى شجرةٍ ما ويقول: 'هذه شجرةُ صنوبر'، إلَّا أنَّها في الحقيقةِ شجرةٌ أُخرى. ليسَ القدِّيسُ مُلزَمًا أنْ يكونَ عالِمًا بأمورِ العالمِ الخارجيّ. من بعدِ العنصرة، تلاميذُ المسيح، صيَّادو السمكِ البسيطون، لمْ يُصبحوا فجأةً واسعي المعرفةِ في شؤونِ هذا العالَم. لقد وُهِبوا الحكمةَ الإلهيَّةَ وعطايا الروحِ القدسِ كالشفاءِ والنبوءة. لم يُوهبوا المعرفةَ المتخصِّصةَ بالعالمِ المادِّيِّ».

* * *

ما إنْ سمِعْنا ناقوسَ الديرِ يدعونا لصلاةِ الغروب، حتَّى أنهَينا حديثَنا كَعِدَّةِ مرَّاتٍ سابقة. وقفَ الأبُ أرسانيوس أوَّلًا وساعدناه في نقلِ أكوابِ الشاي إلى المطبخ. توجَّه استِفانوس وإيراتو إلى الكنيسة، بينما شكَرَتْ ماريًّا الأبَ مكسيموس وأخذتِ البَركة، ثمَّ استقلَّتْ سيَّارتَها عائدةً إلى نيقوسيا في رحلةٍ تستغرقُ ساعتَين.

ذكَّرْتُ الأبَ مكسيموس أنَّنا لم نشملْ في حديثِنا موضوعَ علاقةِ الشيخِ بتلميذِه، وما موقفُ التلميذِ إنْ تعرَّضَ لمعاملةٍ سيِّئةٍ كحالِ الشيخِ إفرام. فطلبَ أنْ أُذكِّرَه بالأمرِ في الغد، فيما توجَّهنا نحوَ الكنيسةِ مع الأبِ نيقوذيموس وأنطوني.

حالما انتهتْ صلاةُ الغروب، عندَ الثامنةِ والنصفِ مساء، عادَ استِفانوس

وإيراتو إلى منزلِهما الجبليّ الذي يبعُدُ مسافةَ عشرينَ دقيقةً عن الديرِ بالسيّارة. توجّهتُ أنا إلى قلّايتي وأغلقتُ بابَ غرفتي، كما انسحبَ الأبُ مكسيموس وباقي الرهبان، كلٌّ إلى قلّايتِه لإكمالِ جهادِهم قبلَ أنْ يخلدوا إلى النوم. أمّا أنا فدوّنتُ بعضَ الملاحظاتِ وأمضيتُ بعضَ الوقتِ متأمّلًا في المسائلِ التي ناقشناها مع الأبِ مكسيموس.

هذه القصصُ، مثلَ قصّةِ الشيخِ إفرامَ وجهادِه الروحيِّ لتحريرِ شيخِه من حالةِ 'الجحيمِ الأبديّة'، تركتْ انطباعًا قويًّا في ذهني. في تقديري، خبراتٌ مماثلة، والتي تشكّلُ جزءًا من التقليدِ الروحيِّ الآثوسيِّ، تتناقضُ ولاهوتَ الجحيمِ والهلاكِ الأبديِّ الذي نَشأْتُ عليه. عندما كشَفْتُ في أحدِ الأيّامِ للأبِ مكسيموس عن تساؤلاتي، طمأنني قائلًا: «الأمرُ الوحيدُ الذي يمكنُنا التأكُّدُ منه، هو أنَّ اللهَ سيحاكمُنا بحبٍّ مطلقٍ ورحمةٍ لا متناهية».

مع ذلك، حلولُ الأبِ مكسيموس لم تُوقِفِ اهتمامي في التفكيرِ في هذه الأمور. في مساءِ ذلكَ اليوم، بدأتُ بالقِراءة في أعمالِ القدّيسِ غريغوريوس النيصصيّ[١٠٦]، أحدِ الآباءِ الكبّادوكيّين الذي لعبَ دورًا أساسيًّا مع شقيقِه القدّيسِ باسيليوس الكبيرِ في صياغةِ اللاهوتِ المسيحيِّ القديم. لِدَهشتي، وجدْتُ مواضيعَ تتعلّقُ مباشرةً بالأمورِ التي شغلَتْنا عصرَ ذلكَ اليوم. ولمْ تكنْ هذه المرّةَ الأُولى حيثُ تظهرُ الأجوبةُ صُدْفَةً، حينَ يستحوذُ عليَّ فكرٌ أو تساؤل. هذه المواضيعُ شرحَتْ موقفَ القدّيسِ غريغوريوس من مسيرةِ صعودِ النفسِ

106 Panayiotes Christou, Ellenike Patrologia [Greek Patrology], vol. 4 (Thessaloniki: Kyromanos Publishers, 1989).

نحوَ اللّه وحَوَتْ على تعاليمِه عن الخلاصِ النهائيّ لكلِّ النفوس.

كتبَ المؤلِّفُ، وبحسبِ لاهوتِ القدّيسِ غريغوريوس: «غايةُ الحياةِ البشريَّة هي بلوغُ الصلاحِ الكامل، بلوغُ الكمال. ويتحقَّقُ هذا من خلالِ مسيرةٍ طويلةٍ مؤلمةٍ ومضنكة، تبدأُ بغرسِ الفضائلِ في النفسِ وتنتهي ببلوغِ التألُّه... هذا هو جهادُ كلِّ الجنسِ البشريّ، وعلى الأخصِّ النسّاك، الفلاسفةِ الحقيقيّين».

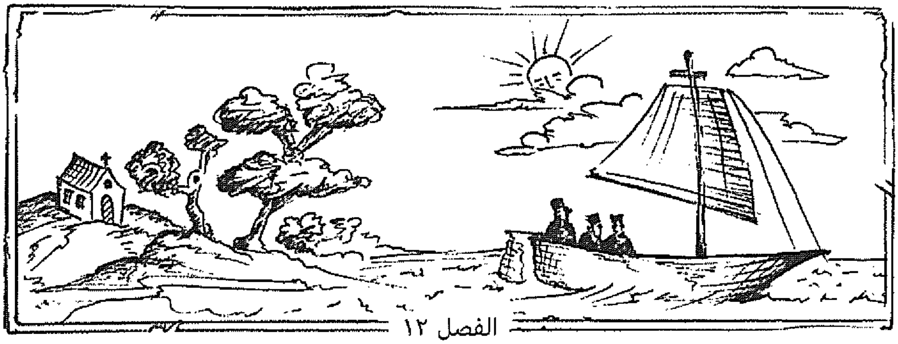

الفصل ١٢

شغفٌ للعدالة

أُقبلَ شهرُ تمّوز، واقتربتْ نهايةُ إجازتي السنويَّة. درجةُ الحرارةِ في المدن، وخاصّةً في نيقوسيا تقتربُ أثناءَ ساعاتِ الظهيرةِ من المائةِ درجةٍ فهرنهايت(أيْ ٣٨ سلسيوس)، ممّا يجعلُ الحياةَ اليوميّةَ معاناةً لِمنْ يفتقدونَ فرصةَ الوصولِ السهلةَ إلى المناطقِ الجبليّةِ أو البحر. مع ذلك، عندما تغربُ الشمسُ وتهبُّ الرياحُ الغربيّة، فإنَّ أُمسياتِ قبرص العابقةَ بشذا الياسمين، لا يماثِلُها أيُّ مكانٍ على البحرِ الأبيضِ المتوسّط.

أُعتقتُ من ذلكَ الحَرّ، إذْ كنتُ عاليًا في الجبالِ محاطًا بأشجارِ الصنوبر. فَدَيرُ الفائقةِ القداسةِ في فصلِ الصيفِ هو مكانُ راحةٍ حقيقيٌّ للنفسِ والجسد.

ذاتَ يوم، زارتِ الديرَ مجموعةٌ من حوالي عشرينَ راهبةً آتياتٍ من اليونانِ في رحلةِ حجٍّ إلى الأماكنِ المقدّسةِ في قبرص، واسترَحْنَ عدّةَ ساعاتٍ في الديرِ تفاديًا لدرجاتِ الحرارةِ المرتفعةِ في السهول. لكنْ على ما يبدو، أنَّ سببَ زيارتِهنّ كانَ الأبَ مكسيموس الذي ذاعَ صيتُهُ كشيخٍ مواهبيٍّ حتّى إلى

ديرِهنَّ في اليونان.

تمنّيتُ قبلَ مغادرتي الجزيرة، أنْ أستكشفَ المزيدَ من المواضيعِ عن الروحانيّةِ الآثوسيّة. لذا، تهيّأتُ بالكاملِ لمّا طلبَ الأبُ مكسيموس منّي عصرَ ذلك اليوم، التاسعَ عشرَ من تمّوز، بعدَ أن أمضى يومَه مع الراهباتِ في مناقشاتٍ مطوّلةٍ حولَ الحياةِ الروحيّة، أنْ أُوصِلَه باكرًا صباحَ اليومِ التالي إلى ديرِ ستافروفوني.

بدأْنا رحلتَنا بعدَ الرابعةِ فجرًا بقليل، وهو، على ما يبدو، الوقتُ المفضَّلُ في اليومِ لدى الأبِ مكسيموس. وحالما انطلقْنا، قال: «رئيسةُ الراهباتِ اللواتي التقيتَهُنَّ أمسِ، كانتْ مقرّبةً من الشيخِ بورفيريوس. لقد أخبرَتْني عن بعضِ التجاربِ العجائبيّةِ التي خبرَتْها معَه».

قلتُ بصوتٍ خافت: «أبانا مكسيموس، طلبتَ إليَّ سابقًا أنْ أذكّرَكَ لتخبرَني عمّا خبرْتَه أنتَ شخصيًا مع الشيخِ بورفيريوس. حسنًا، قد تكونُ الآنَ الفرصةُ مؤاتيةً لذلك». مسّدَ الأبُ مكسيموس لحيتَهُ وابتسمَ إذْ كانَ، على ما يبدو، متوقّعًا طلبي، وراحَ يروي لي بعضَ الأحداثِ من حياةِ هذا الشيخِ الخارق.

– «كانَ الشيخُ بورفيريوس ممتلئًا من الروح القدس[١٠٧]. أتذكّرُ أنّنا مرّةً استضفْنا راهبًا إيطاليًا قادمًا منْ كلابريا، أمضى معَنا عِدّةَ أسابيعَ في جبلِ آثوس. كانَ يتحدّثُ اليونانيّةَ بطلاقةٍ حتّى إنّكَ تحسبُهُ يونانيًا».

١٠٧ قسطنطين يانّيتسيوتيس، بالقرب من الشيخ بورفيريوس، نقلته إلى العربيّة الراهبة ماريا شقير، منشورات مكتبة البشارة - بانياس ٢٠١١.

- «أأُرثوذكسيٌّ هو؟»

- «كلَّا، كاثوليكيّ. لكنْ لمْ يعلمْ أحدٌ بذلكَ سوى أنا ورئيسِ الدير. ولقدْ كتَمْنا هذا عن الرهبانِ الآخرين. كانَ يلبسُ كَلِباسِنا الرهبانيّ ويشارِكُ في الحياةِ الديريَّةِ تمامًا كالآخرين. سمعَ عنِ الشيخِ پورفيريوس، ولمَّا اقتربَتْ عودتُهُ إلى إيطاليا، طلبَ منّي اصطحابَهُ إلى الشيخ. كانَ الشيخُ پورفيريوس آنذاكَ في الثمانينَ من عمرِه، يقطنُ في إحدى ضواحي أثينا. لحظةَ دخولِنا إلى منزلِه، استقبلَنا بترحابٍ كبير، ومع أنَّه أعمى، نادى الراهبَ الإيطاليَّ باسمِه الأوّل. لم يُعلِمْ أحدٌ الشيخَ بزيارتِنا له. ولحظةَ دخولِنا إلى منزلِه قال: 'كنتُ في انتظارِكَ، أيُّها الأخُ أوغسطين!' وبدأَ على الفورِ بإعطائِه تعليماتٍ عليه أنْ يتَّبِعَها فورَ عودتِه إلى ديرِه في إيطاليا لتفادي كارثةٍ محتَّمةٍ هناك. فقدْ أعلمَهُ أنَّ منبعَ مياهِ الشفة في الديرِ ملوَّثٌ وأعطاهُ تعليماتٍ مُفصَّلَةً عن المكانِ الذي يجبُ أنْ يحفِروا فيه لإستخراجِ ماءٍ صالحٍ للشرب. تكلَّمَ كما لو أنّه يعرفُ المنطقةَ بشكلٍ تامّ. كما حذَّرَ الراهبَ الإيطاليَّ أيضًا بأنَّهم يواجهونَ خطرًا آخر. فَعلى قمَّةِ التلَّةِ التي يقعُ ديرُهم عندَ سفحِها ثمَّةَ صخرةٌ ضخمةٌ متزعزعة. واقترحَ إزالتَها أو تثبيتَها حتّى لا تشكّلَ أيَّ تهديدٍ فيما بعد. ذُهِلَ الراهبُ الإيطاليُّ، وسألَ الشيخَ پورفيريوس عن كيفيَّةِ معرفتِهِ كلَّ هذه التفاصيل. وجاءَ جوابُه بسيطًا. فَقَدْ كشفَ له الروحُ القدسُ هذه المعلومات».

- «هلْ وَجدوا الماء؟»

- «نعم. إتَّصلَ بي الأخُ أوغسطين بعدَ بضعَةِ أسابيعَ وأطلعَني أنَّهم إتَّبعوا

تعليماتِ الشيخِ پورفيريوس حرفيًّا، فوجدوا الماءَ، وثبّتوا الصخرة. وأدرَكَ الرهبانُ الكاثوليك، أنَّهم لو لم يثبّتوا الصخرةَ لكانتْ سحقتِ الدير، تمامًا كما حذَّرَهم الشيخُ پورفيريوس».

ثمّ تابعَ الأبُ مكسيموس ليقولَ إنَّ الشيخةَ الآتيةَ من اليونانِ التي التقيتُها أمس، أطلعَتْه على بعضِ التجاربِ التي خبِرَتْها مع الشيخِ پورفيريوس والتي تفوقُ عجائبيًّا اختباراتِهِ الشخصيَّةَ معَه.

- «قبلَ بضعِ سنوات، كانَ من المفترضِ أنْ تخضعَ الشيخةُ لعمليَّةِ قلبٍ مفتوحٍ صعبةٍ جدًّا. وساورَها القلقُ بأنَّها قد لا تنجو. كانتْ تحبُّ الترتيل، لكنِ اتَّبعتْ نصيحةَ طبيبِها وامتنعتْ عن الترتيل. مع ذلك، أثناءَ إحدى السهرانيَّاتِ تحمَّستِ الشيخةُ ولم تستطعِ السيطرةَ على نفسِها. فانضمَّتْ إلى الجوقةِ ورتَّلتْ معَهم التسبيحَ الثالوثيَّ: «قدُّوسٌ الله، قدُّوسٌ القويّ، قدُّوسٌ الذي لا يموت، ارحمنا». رتَّلتْ بصوتٍ عالٍ من كلِّ جوارحِها. إذَّاك، فزعتْ من أنَّ قلبَها سيتوقَّف. تناولتْ جسدَ المسيحِ ودمَه، وتوجَّهتْ مباشرةً إلى قلَّايتِها لتستريحَ، والقلقُ يسيطرُ عليها. فما إنْ تمدَّدتْ حتَّى رنَّ الهاتف. أجابتْ سائلةً: 'مَنْ أنت؟'، أجابَ المتكلِّمُ: 'أنا الأبُ پورفيريوس'. كانَ يهاتفُها من دارِه في أثينا: 'كم رتَّلْتِ بروعةٍ: قدُّوسٌ الله، قدُّوسٌ القويّ، قدُّوسٌ الذي لا يموت... عندَ ذاكَ، زارَكِ الذي لا يموتُ وأنقذَكِ من الموت'. بعدَ المكالمةِ الهاتفيَّةِ بقليل، تحسَّنَتْ حالُها بسرعة، ولم تعدْ في حاجةٍ إلى إجراءِ عمليَّةٍ جراحيَّة.

اعتادَ الشيخُ پورفيريوس أنْ يفعلَ أمورًا مماثلة. كانَ يتَّصلُ هاتفيًّا بأُناسٍ

لمْ يعرفْهم يومًا، ليخبرَهم بما يحدثُ معَهم بالضبطِ وليعطيَهم النصائح».

قلتُ: «لقد سمعتُ أنَّ أحدَهم، غيرَ عالمٍ أنَّ الشيخَ پورفيريوس قد رقد، إتَّصلَ هاتفيًا به وأنَّ الشيخَ تكلَّمَ معَه بكلِّ وضوح. أَحقيقيَّةٌ تلكَ الرواية؟»

هزَّ الأبُ مكسيموس رأسَه موافِقًا وقال: «أمرٌ ممكن». ثمَّ تابعَ بنبرةٍ مرحةٍ أنَّ أمرًا كهذا كان في مستطاعِ الشيخِ پورفيريوس القيامُ به. «كانَ المتَّصلُ من سيدني. ولم يكنْ عالمًا أنَّ الشيخَ قدْ رحل، فاتَّصلَ بهِ هاتفيًا تقريبًا بعدَ شهرٍ من رقادِه. فردَّ عليهِ الشيخُ پورفيريوس وقالَ له: 'أرجو عدمَ الإتِّصالِ بي مجدَّدًا، فأنا لمْ أعدْ في هذا العالم. لقدْ متُّ وأنا أحيا الآنَ في السماء'.

لكنْ أعجبَ ما سمعتُ من رواياتٍ، كانَ ما حدثَ مع تلكَ الشيخةِ وأربعينَ من راهباتِها بعدَ زيارتِهنَّ الشيخَ پورفيريوس».

تردَّدَ الأبُ مكسيموس للحظةٍ في المتابعةِ ولكنَّه شعرَ بِلَهفتي لسماعِ المزيد، فواصلَ روايةَ هذا الحدثِ من حياةِ صانعِ العجائبِ المعاصرِ هذا.

- «أطلعتْني الشيخةُ على تفاصيلِ هذه الحادثةِ العجيبة. ذاتَ يومٍ اصطحبتِ الشيخةُ أربعينَ من راهباتِها وذهبنَ في زيارةِ حجٍّ إلى 'آرتا'. في طريقِ العودة، قرَّرنَ التوقُّفَ في آثينا لزيارةِ الشيخِ پورفيريوس. وصلْنَ إلى دارِ الشيخِ مساءً. المسافةُ بينَ دارِ الشيخِ والديرِ تُقدَّرُ بخمسِ ساعاتٍ بالسيَّارة، وأكثرَ من ذلكِ بالحافلة. لذا، نبَّهتِ الشيخةُ راهباتِها بحزم: 'يا أخواتي، إنَّها السابعةُ مساءً الآنَ، ونحنُ مسافراتٌ منذُ ثماني ساعات. وتلزمُنا خمسُ ساعاتٍ بعدُ لنصلَ إلى الديرِ، لذا لا يمكنُنا المكوثُ عندَ الشيخِ پورفيريوس أكثرَ من خمسَ عشرةَ

دقيقة. فلنأخذْ بركتَهُ ولنتابعْ طريقَنا'.

تفهمّتِ الراهباتُ الأمرَ، ودخلْنَ دارَ الشيخِ. لكنَّ الشيخَ المُسنَّ الأعمى فرِحَ كثيرًا بوجودِ الراهباتِ من حولِه، حتَّى إنَّه لمْ يدَعْهنَّ يغادرْنَ. على أحرَّ من الجمر، حاولتِ الشيخةُ مقاطعتَهُ عدَّةَ مرَّاتٍ قائلة: 'بيروندا، علينا الذهاب'. وكانَ يجيبُها كلَّ مرَّة: 'إستريحي، لا تكوني في عجلةٍ من أمرِكِ'. حتَّى الثامنةَ كنَّ ما يزَلْنَ في بيتِ الشيخِ. في إحدى اللحظات، فقدَتِ الشيخةُ صبرَها وقالتْ بثباتٍ وحزم: 'بيروندا، سامحْني، علينا الرحيلُ الآنَ وسنأتي لزيارتِكَ في وقتٍ لاحقٍ'. لوَّحَ الشيخُ بورفيريوس بيدِهِ متغاضيًا وقال: 'لمَ العَجلة؟ دَعِينا نستمعُ إلى الراديو، ففي هذه الساعةِ تبثُّ إحدى المحطَّاتِ في بيريا تراتيلَ رائعة'.

ثارَتْ ثائرةُ الشّيخة. فالساعةُ صارتِ الثامنةَ وعشرَ دقائق، إحتسبَتِ الوقتَ وأدركتْ أنَّهنَّ سيصلنَ إلى الديرِ حواليْ الثانيةَ فجرًا. فصمَّمتْ على المغادرةِ فورًا قائلة: 'أرجوك، بيروندا، أوقفْ هذا الراديو. يجبُ أنْ ننطلقَ'. بعدَ أنْ صعدْنَ إلى الحافلةِ، دعا الأبُ بورفيريوس الشيخةَ وأشارَ أنَّ لديهِ موضوعًا مُلِحًّا يريدُ أنْ يتحادثَ بشأنِهِ معَها على انفراد. ترجَّلتِ الشيخةُ من الحافلةِ وراحَ الشيخُ يخبرُها أمورًا كثيرةً غيرَ مترابطة. نفدَ صبرُها وغضبَتْ وقالت: 'أُعذرْني بيروندا، فلقدْ تجاوزَ الوقتُ الثامنةَ مساءً وإنّي قلقةٌ لأنَّنا سنصلُ إلى الديرِ في ساعةٍ متأخِّرة'. طمأنَها الشيخُ: 'آ، لا تقلقي، لا تقلقي، ستصلْنَ إلى الدير في الوقتِ المناسب'.

أخيرًا، صعدَتْ إلى الحافلة. ولكنْ قبلَ الإنطلاق، طلبَ منها الشيخُ

پورفيريوس طلبًا آخرَ، لا تستطيعُ رفضَه. فقَدْ ناشدَها أنْ تصطحبَ معَها شابّتينِ، صدفَ أنْ جاءتا لزيارتِه ذلكَ اليوم، وتُوصِلهما إلى وسطِ مدينةِ أثينا.

أَيوسعِكَ أنْ تتخيَّلَ شعورَ الإحباطِ الذي اعترى الشيخةَ المسكينة؟ فَبَدَلًا من تخطّي آثينا كما قرّرنَ سابقًا، علِقنَ في زحمةِ المدينة. بالإضافةِ إلى ذلك، نفدَ وقودُ الحافلة. بعدَ ساعاتٍ من التجاربِ والمحن، وصلنَ إلى الدير. كانتِ الساعةُ تعدَّتِ الثانيةَ فجرًا بكثير. وأمِلَتِ الشيخةُ أنْ يحالفَهنَّ الحظُّ، فتكونُ إحدى الراهباتِ مستيقظةً لتفتحَ لهنَّ البوّابة. لكنّهنَّ اندهشنَ جميعُهنَّ إذْ لاحظنَ أنَّ الأنوارَ في الديرِ ما زالت مضاءةً، وأنَّ الراهباتِ الثلاثينَ اللواتي بقينَ في الدير، لم يخلدْنَ إلى النوم. فكَّرتِ الشيخةُ في نفسِها: 'غريب، لماذا لم يخلدْنَ إلى النومِ حتّى الآن؟ أينتظرْنَ عودتَنا؟!'.

كانتِ الراهباتُ متلهّفاتٍ لمعرفةِ تفاصيلِ الرحلةِ ولقاءِ أخواتِهنَّ بالشيخِ پورفيريوس. ناشدَتْهنَّ الشيخةُ بنفادِ الصبر: 'رجاءً، حضّرنَ طعامًا لنأكل، ولا تسألنَ شيئًا الآن'. لكنَّ الراهباتِ كنَّ في توقٍ شديدٍ لسماعِ تفاصيلِ الرحلةِ وأصرَرْنَ قائلاتٍ: 'ماذا أخبركنَّ الشيخُ پورفيريوس؟'. فَقدَتِ الشيخةُ صبرَها وسألتهنَّ: 'أهذا وقتٌ مناسبٌ لطرحِ أسئلةٍ كهذه؟ ثمَّ بالمناسبة، لماذا ما زلتنَّ مستيقظاتٍ حتّى هذه الساعةِ المتأخّرة؟ لماذا لم تخلدنَ إلى النومِ؟'. توقّفتِ الراهباتُ عن الكلام، نظرْنَ إلى بعضهنَّ البعض، ورُحنَ يضحكنَ. قالتْ إحداهنَّ مشيرةً إلى ساعةِ الحائط: 'أمّنا الحبيبة، أهذا وقتٌ متأخّر؟'. ردَّتِ الشيخة: 'ماذا تقصدين؟ أيّ نوعٍ منَ الهراءِ هذا. تجاوزتِ الساعةُ الثالثةَ فجرًا، وتسألينَ بدهشةٍ عمّا إذا كانَ الوقتُ متأخّرًا'. مُجدَّدًا، نظرتِ الراهباتُ إلى

بعضهنَّ البعضِ وتابعنَ الضحكَ من كلِّ قلوبهنَّ: 'أنظري إلى الساعةِ يا أمَّنا الحبيبة'.

لكَ أنْ تتخيَّلَ دهشتَها حينَ استدارتْ ونظرتْ إلى ساعةِ الحائط، وأدركتْ أنَّ الوقتَ لم يتجاوزْ الثامنةَ والنصفَ مساءً. لقد قطعنَ المسافةَ من دارِ الشيخِ پورفيريوس الواقعِ في ضواحي آثينا إلى الديرِ، والتي تتطلَّبُ على الأقلِّ خمسَ ساعات، في خمسَ عشرةَ دقيقةً تقريبًا! واعلَمْ أمرًا مهمًّا جدًّا أنَّ تلكَ الحادثةَ العجيبةَ لم تشهدْ عليها راهبةٌ أو راهبتان، بل الأربعونَ راهبةً في الحافلةِ كنَّ شهودًا عليها».

- «ما تفسيرُك لتلكَ الحادثة؟»

أجابَ الأبُ مكسيموس: «ما هو تفسيري! ليسَ هناكَ من تفسيرٍ عقلانيٍّ لتلكَ الأحداث. إنَّه سرّ».

قلتُ: «ربَّما دخلوا إلى منطقةٍ زمنيَّةٍ مختلفة، بُعْدٍ مختلف. إنسانٌ مشكِّكٌ سيقولُ إنَّها هلوسةٌ جماعيَّة، أو أنَّ ساعةَ الحائطِ في الديرِ كانتْ معطَّلة».

تغاضى الأبُ مكسيموس التعليقَ على منطقي المشكِّك، وتابعَ كلامَه مُصِرًّا: «مثلُ هذه الظواهرِ تحدثُ في حياةِ القدِّيسين. إقرأْ سِيَرَهُم وسوفَ تعاينُ الأمرَ بنفسِك. أحداثٌ من هذا النوع، كانتْ روتينيَّةً في حياةِ الشيخِ پورفيريوس».

أخبَرَني الأبُ مكسيموس مرَّةً، أنَّه إذا ما بلغَ شخصٌ ما القداسة، يستطيعُ

في حالاتٍ معيَّنةٍ أنْ يخرقَ قوانينَ الطبيعة. ويحدثُ هذا عادةً لتحقيقِ غاياتٍ سامية، كالشفاءِ أو الإرشادِ الروحيّ.

تابعتُ قيادةَ السيَّارةِ صامتًا لدقائقَ معدودة، متأمِّلًا في كلِّ ما سمعتُه من الأبِ مكسيموس عن حياةِ الشيخِ پورفيريوس وعجائبِه. بعدَ قليل، قلتُ كاسرًا الصمت: «أبتِ، بالأمس، خلالَ حديثِكَ معَ الراهبات، قلتَ أمرًا حيَّرني».

أنزلَ الأبُ زجاجَ النافذةِ من جهتِهِ ليستنشقَ هواءَ الصباحِ العليل، ثمَّ سألَني بدهشة: «ماذا قُلتُ!؟»

- «قلتَ إنَّنا يجبُ أنْ نستسلمَ للكنيسةِ لنتغذَّى روحيًّا، تمامًا كما يستسلمُ الطفلُ الرضيعُ بينَ ذراعيْ أمِّه بثقةٍ كاملة».

أوضحَ الأبُ مكسيموس: «هذا يعني عيشَ حياةٍ روحيَّةٍ دونَ غضبٍ وهموم».

- «لكن ماذا يعني ذلك؟»

- «ببساطةٍ، يعني ألاَّ تصبحَ درجةُ نموِّكَ الروحيِّ هاجسًا. أودعْ ذاتَكَ بينَ يديْ شيخِك الروحيِّ ضمنَ سياقِ أسرارِ الكنيسة».

قلتُ: «من الصعبِ عليَّ أنْ أتقبَّلَ هذه الفكرة. فمنطقُ تفكيريَ الذي اكتسبتُهُ في الغربِ يتعارضُ وفكرةَ الإيمانِ الأعمى والطاعةِ العمياءِ لشيخٍ روحيّ».

قالَ الأبُ مكسيموس ممازحًا: «لهذا أنتَ لستَ راهبًا» .

قلتُ: «هذا الإيمانُ وهذه الطاعةُ، قد يكونانِ بنّاءَين، إنِ افترضْنا أنَّ الشيخَ بلغَ درجاتٍ عاليةً من القداسة. لكن، أليسَ خطِرًا أنَّ من يُعتبرُ شيخًا، لمْ يبلغْ بعدُ درجةَ القداسةِ ولا يُبرِزُ مواهبَ الروحِ القدسِ بل قد يُظهِرُ قسوةً وإساءةً في التصرُّف، كما في حالَةِ شيخِ الأبِ إفرام؟»

- «في كلِّ ما نفعلُه في حياتِنا، هناكَ مخاوفُ ومخاطرُ لا مفرَّ منها. لهذا، علينا أنْ نكونَ حذرينَ جدًّا في اختيارِ شيخِنا. بالطبعِ ما هو مطلوبٌ، ليسَ بالضرورةِ شخصًا بلغَ درجاتٍ روحيَّةً عاليةً أو شخصًا مواهبيًّا، إنَّما شخصٌ متواضعٌ بالفعل. فالمرءُ لا يتغذَّى من مواهبِ هذا الشيخِ الروحيَّة، بل من تقليدِ الكنيسة».

قلتُ مبقيًا نظري على الطريق: «إذًا، لدى الكنيسةِ ديناميَّةٌ داخليَّةٌ تتفعَّلُ من ذاتِها. بهذا المعنى، هل الشيخُ مجرَّدُ مُيَسِّرٍ فقط؟»

- «يمكنُ مقاربةُ الأمرِ من هذا المنظار. فالمرشدونَ الروحيُّونَ الذين لم يبلغوا درجاتٍ روحيَّةً عالية، لكنَّهم يتَّبعونَ بكلِّ إيمانٍ المنهجيَّةَ التي وضعَها الآباءُ القدِّيسون، يستطيعونَ فعليًّا أنْ يؤدُّوا هذا الدور. فالشيوخُ والتلاميذ، في تلكَ الظروف، ينفتحونَ على قوى الروحِ القدسِ حتَّى تقودَهم فيتألَّهوا. قد يتخطَّى التلميذُ شيخَهُ ويتفوَّقُ عليه في سُلَّمِ القداسة، كما كانَ في حالةِ الشيخِ إفرام».

قلتُ: «بوسعي فهمُ ذلك. فهوَ يتطابقُ مع الحالاتِ حيثُ يتفوَّقُ فيها الطلاَّبُ الجامعيُّونَ على أساتذتِهم في إنجازِهم الأكاديميّ. لكنَّ حيرتي لا تكمنُ

هنا، بل في بنيةِ العلاقةِ التي تربطُ بينَ الرئيسِ والمرؤوس. فهيَ تتناقضُ مع قِيَمِ المساواةِ والحرِّيَّةِ والديمقراطيَّةِ والحرِّيَّاتِ المدنيَّة».

إعترَتْ وجهَ الأبِ مكسيموس ابتسامةٌ هازئةٌ، ثمَّ قال: «أوَّلًا يلزمُ أنْ نفهمَ ماهيَّةَ الحرِّيَّةِ الحقَّانيَّةِ قبلَ أنْ نتمكَّنَ من تقييمِ حكمةِ العلاقةِ بينَ الشيخِ وتلميذِه. هلْ تشيرُ الحرِّيَّةُ ضمنًا إلى أنَّ الأشخاصَ يُعطَوْنَ ترخيصًا لفعلِ كلِّ ما يتمنَّونَ؟ بحسبِ الشيوخِ القدِّيسين، الحرِّيَّةُ الحقَّانيَّةُ تفترضُ في الحقيقة، إنعتاقَ المرءِ من أهوائِهِ الذاتيَّةِ ورغباتِه. الحرِّيَّةُ، في جوهرِها، تَعني الخضوعَ الكلِّيَّ للمسيح. فالحقُّ، أنَّ المسيحَ هو الذي يحرِّرُنا».

قلتُ معلِّقًا: «هذا الفكرُ عنِ الحرِّيَّةِ يختلفُ جذريًّا عنِ المفاهيمِ الشائعةِ لدينا».

ثمَّ تابعَ: «المسيحُ، بالنسبةِ لنا نحنُ الرهبان، هو كلُّ شيء. هو حرِّيَّتُنا وسلامُنا ونجاحُنا وسعادتُنا. الحرِّيَّةُ الحقيقيَّةُ ليستْ مسألةَ فرضيَّاتٍ فلسفيَّةٍ حولَ أفكارٍ مجرَّدةٍ لحرِّيَّاتٍ فرديَّة. فهذِه قضيَّةٌ مختلفةٌ بالكلِّيَّة». وأضافَ ممازِحًا: «نتركُ تلكَ المناقشةَ للفلاسفةِ والسياسيِّينَ، وأبناءِ حقلِكَ من علماءِ الإجتماع».

وتابعَ الأبُ مكسيموس كلامَه موضِحًا أنَّ الطاعةَ الرهبانيَّةَ التي يُبديها تلميذٌ لأبيهِ الروحيّ، تختلفُ عنِ الطاعةِ لسلطةٍ زمنيَّة. فهذا يتناقضُ وغايةَ الرهبنة. فالسلطةُ الزمنيَّةُ مؤسَّسةٌ على هيمنةِ إنسانٍ على إنسان. إنَّها طاعةٌ لإرادةٍ بشريَّةٍ مشحونةٍ بالأنانيَّة:

«علَّمَ الشيخُ الراحلُ صفرونيوس، كمثلِ شيوخٍ آخرين، أنَّ الطاعةَ هيَ

فعلٌ روحيٌّ يجبُ أنْ يستندَ كليًّا على حرِّيَّةِ إرادةِ الفرد[108]. وأنَّ طاعةَ التلميذِ لمعلِّمِه تثمرُ روحيًّا، فقط إنْ تأسَّستْ بمحضِ اختيارِ التلميذ. ذلكَ يعْني تخلِّي التلميذِ عن أنانيَّتِه وأحكامِه الشخصيَّة، ملتمِسًا، بمعونةِ شيخِهِ 'الدروبَ التي تؤدِّي إلى الله'، كما قالَ الشيخُ صفرونيوس. لذا، كما ترى، لا يسعى المرشدُ الروحيُّ إلى إخضاعِ إرادةِ تلميذِهِ عن طريقِ استعبادِهِ لإرادتِهِ البشريَّةِ الذاتيَّة».

قلتُ: «هذا المفهومُ المثاليُّ، إنْ أمكنَ تطبيقُه، يتطابقُ مع مفهومِ العلاقةِ بين المريضِ والطبيب. فَلَدى الأطبَّاءِ سلطةٌ رهيبةٌ على أجسامِنا. فَبِإمكانِهم أنْ يقطِّعونا حقيقةً، بِرِضانا التامّ».

سألَ الأبُ مكسيموس بنبرةٍ بلاغيَّة: «وإذَا ما أخطأَ الأطبَّاءُ أحيانًا تُجاهَ مرضاهم، أيَعني ذلكَ أنْ نقصيَ الطبَّ ونُعرِّيَهُ من كلِّ فوائدِه؟»

- «بكلِّ تأكيدٍ، لا».

وضَّحَ الأبُ أيضًا أنَّ التلميذَ يَنذُرُ الطاعةَ للمسيح، لا للشيخِ كإنسان. وإنْ فشلَ هذا الأخيرُ في أداءِ دورِه، وَفقًا للتقليدِ والقوانينِ الرهبانيَّة، يحقُّ للتلميذِ أنْ يرفضَهُ ويبحثَ عنْ شيخٍ مناسب.

قدتُ السيَّارةَ في صمتٍ لبضعِ ثوانٍ متأمِّلًا في كلِّ ما تناقشْنا به ثمَّ قلتُ مستنتِجًا: «القدِّيسون، الذين استطاعوا تجاوزَ رغباتِهم الخاصَّة هم الأحرارُ

108 Archimandrite Sophrony (Sakharov), *Askesis kai Theoria [Ascetics and Theory, trans. from Russian]* (Essex, England: Stavropegic Monastery of St. John the Baptist Press, 1996), pp. 53-54.

حقًّا».

- «هذا ما يُبيِّنُهُ التقليدُ الكنسيُّ. فالقدّيسونَ هم الأكثرُ تعقُّلًا وحكمةً على الأرض، لأنّهم لمْ ينخدِعوا بإغراءاتِ هذا العالم، وسلكوا في الإتّجاهِ الصحيحِ، أيْ نحوَ الاتّحادِ مَع الله».

قلتُ: «يساوِي الناسُ العاديُّونَ الحرِّيَّةَ في أغلبِ الأحيانِ بالقدرةِ على إشباعِ رغباتِهم الخاصَّة: الملكيّاتِ الخاصَّة، الوظائفِ المرموقة، إستهلاكِ السلعِ المادِّيَّة، النجاح، المشاركةِ الجنسيَّةِ مع شريكٍ راشدٍ قابلٍ للفكرة، السفر، المشاركةِ الديمقراطيَّةِ في القراراتِ التي تؤثِّرُ في حياتِهم، وغيرِها من الأمور. كلُّها تعني بوجهٍ عامٍّ سعيَ الإنسانِ وراءَ السعادةِ كما يتخيَّلُها لنفسِه. يبدو لي أنَّ مفهومَكَ عن الحرِّيَّةِ مختلفُ تمامًا. إنَّه في تجاوزِ المرءِ كلَّ هذه الرغباتِ المختلفة».

- «تمامًا. هذهِ الرغباتُ هيَ التي تُبقينا مُستعبَدِينَ لهذا العالمِ الزائل. لذا، ما يعتبرُه الناسُ العاديُّونَ حرِّيَّة، هو في الواقع، شكلًا من أشكالِ العبوديَّة، لكنَّه لا يبدو لهم كذلك».

* * *

حوالى الساعةِ الخامسةِ والنصفِ صباحًا، وصلْنا إلى ديرِ ستافروڤوني، وهو أحدُ أقدمِ الأديارِ شرقي البحرِ الأبيضِ المتوسّط. يقعُ الديرُ على هضبةٍ مخروطيَّةِ الشكل، على ارتفاعِ ٦٨٨م، وقد شيَّدتْه القدّيسةُ هيلانة، والدةُ القدّيسِ قُسطنطين الإمبراطور، في القرنِ الرابع. وَفقًا للتقليد، بعدَ عودتِها من

رحلةِ حجٍّ إلى الأرضِ المقدَّسة، أُرشِدَتِ القدِّيسةُ هيلانة إثرَ رؤيا إلى بناءِ ديرِ ستاڤروڤوني، وهناكَ تركتْ جزءًا من عودِ الصليبِ المقدَّس. ويحتفظُ رهبانُ الديرِ إلى هذا اليوم بهذِهِ القطعةِ الصغيرةِ من عودِ الصليبِ المقدَّس، مغلَّفةً بصليبٍ من الفضَّة. لذا دُعِيَ الديرُ ستاڤروڤوني، أي جبلُ الصليبِ.

هناكَ، في ديرِ ستاڤروڤوني، احتكَّ الأبُ مكسيموس للمرَّةِ الأُولى بالتقليدِ المسيحيِّ الروحيّ. ففي سنِي مراهقتِه، كانَ يستقلُّ الحافلةَ من ليماسول، وينزلُ عندَ سفحِ الجبل، ثمَّ يسيرُ لعِدَّةِ ساعاتٍ صعودًا ليصلَ إلى القمَّةِ كيْ يلتقيَ الشيخَ أثناسيوس، رئيسَ الديرِ المكرَّمَ آنذاك، الذي اشتُهِرَ بقداستِهِ ومواهبِهِ الروحيَّة. نظامُ ديرِ ستاڤروڤوني، كما ديرُ الفائقةِ القداسة، هو كالأديارِ الآثوسيَّة، أيْ أنَّ شيخًا يرأسُ جماعةً من الرهبان.

حينَ أوقفْتُ السيَّارةَ أمامَ بوَّابةِ الديرِ، بعدَ ثلاثينَ دقيقةً من القيادةِ الحذِرةِ والبطيئة، قالَ ليَ الأبُ مكسيموس: «لولا الشيخُ أثناسيوس، لَانْدثرَ كلُّ أثرٍ للرهبنةِ في قبرصَ اليوم. بفضلِ مسبحتِهِ وبرفقةِ راهبَين آخرين، أبقى الشيخُ أثناسيوس على روحِ الرهبنةِ الحقَّةِ حيَّةً في قبرص، في زمنٍ اعتقدَ جميعُ الناس، أنَّ الرهبنةَ شيءٌ من الماضي».

لمَّا صعدْنا على الدرجِ نحوَ الكنيسة، ترامَتِ الشمسُ بازغةً من البحرِ، مقدِّمةً لنا لوحةً بانوراميَّةً للجزءِ الشرقيِّ للجزيرة. حينَ أبصرتُ هذا المشهد، أدركْتُ أنَّ اختيارَ القدِّيسةِ هيلانة لهذا الموقعِ تحديدًا لبناءِ ديرِها، لم يكنْ صدفة. حُفِظَ الديرُ تمامًا من القراصنةِ والجيوشِ المهاجمةِ الذين سَلبوا منطقةَ

الشريطِ الساحليِّ القبرصيِّ على مدى الزمن، لأنَّه على قمَّةِ جبلٍ شديدِ الانحدارِ وبعيدٌ عنِ الساحل. كانَ الديرُ أيضًا مكانًا مساعدًا على ممارسةِ الهدوئيَّة، أيْ منهجِ الصلاةِ الصامتِ غيرِ المنقطعِ، سمةِ الروحانيَّةِ الآثوسيَّة.

دخلْنا الكنيسةَ الصغيرةَ بينما كانَ الرهبانُ على وشكِ الانتهاءِ من الصلواتِ الصباحيَّة. سُرُّوا لرؤيةِ الأبِ مكسيموس، ورحَّبوا به بالسجداتِ المعتادةِ وتقبيلِ اليد. خرجَ الشيخُ أثناسيوسُ من غرفةٍ جانبيَّة، تبدو كغرفةٍ للاعتراف. عندَ رؤيتِه، تملَّكَني شعورٌ بالرهبةِ والورع. بدا لي، بشعرِهِ الأبيضِ الطويلِ ولحيتِه، نبيًّا من العهدِ القديم، نموذجًا كانَ يمكنُ لفنَّاني عصرِ النهضةِ أنْ يستندوا إليه ليصوِّروا الله. في الخامسةَ عشرةَ من عمرِه، التحقَ الشيخُ أثناسيوس بديرِ ستاڤروڤوني، وقدْ بلغَ الآنَ الخامسةَ والثمانينَ تقريبًا. منذُ سنواتٍ عديدة، أخبرَني استفانوس عن الشيخِ أثناسيوس، الذي صارَ أوَّلَ مرشدٍ له أثناءَ بحثِهِ لإعادةِ اكتشافِ جذورِهِ المسيحيَّة، بعدَ سنينَ انغماسٍ طويلةٍ في الصوفيَّةِ والهندوسيَّة. قالَ لي استِفانوس مرَّةً، إنَّ الشيخَ أثناسيوس، ذا الهيئةِ المتواضعةِ على الإطلاق، يتمتَّعُ ببصيرةٍ تُمكِّنُه قراءةَ نفسِ المرءِ ككتابٍ مفتوح. ولما سألَه استِفانوس عنْ كيفيَّةِ معرفتِه أمورًا لم يُخبرْها هوَ شخصيًا لأحد، أجابَ الشيخ: 'يا بنيَّ، لا أعرفُ كيف. فأنا أشعرُ بلهبٍ هنا، حولَ صدري، يُطلعُني على أمورٍ أريدُ أنْ أعلَمَها'.

حالَما رآنا، بدأَ الشيخُ أثناسيوس يباركُنا بإشارةِ الصليبِ متمتِمًا صلواتٍ تبريكيَّة. ضربَ الأبُ مكسيموس مطانيَّةً أمامَه وقبَّلَ يدَه، ثمَّ دخلا إلى غرفةِ الاعتراف. أدركتُ في تلكَ اللحظةِ لِمَ طلبَ منِّي الأبُ مكسيموس أنْ أوصِلَه

إلى ديرِ ستافروڤوني. فالشيخُ أثناسيوس هو أبوهُ الروحيُّ في قبرص.

بعدَ اعترافِ الأبِ مكسيموس، ذهبْنا لتناولِ وجبةِ الفطورِ معَ ثلاثينَ راهبًا تقريبًا. ثمَّ أمضى الأبوان بعضَ الوقتِ على انفراد. وحالما انتهيا، انطلقنا عائدَينِ إلى ديرِ الفائقةِ القداسة. كانَ ذلكَ في العشرينَ من تمّوز، وهو يومُ حدادٍ وغضبٍ وخيبةٍ للقبارصةِ اليونان. إذْ منذُ ثلاثٍ وعشرينَ سنة، اجتاحتْ تركيّا قبرص، ممّا خلقَ التقسيمَ الحاليَّ للجزيرة. كانَ يومًا لتجمُّعِ الحشودِ في الساحاتِ المركزيَّةِ في المدنِ والبلدات، لشجبِ الغزوِ والمطالبةِ بانسحابِ كلِّ القوّاتِ العسكريَّةِ التركيَّةِ التي تحتلُّ الأربعينَ بالمائةِ الشماليَّةَ من الجزيرةِ، ولعودةِ المهجَّرينَ إلى ديارِهم.

لحسنِ الحظّ، الهواجسُ المنبئةُ باندلاعِ الحربِ في هذا الصيف، لمْ تتجسَّدْ حتّى الآن، ولا توجدُ علاماتٌ وشيكةٌ تشيرُ إلى تأزُّمٍ آخر. قلتُ في نفسي، لعلَّ السهرانيّاتِ طوالَ الليلِ في ديرَيِ الفائقةِ القداسة وستافروڤوني، غيَّرتِ الحالةَ المتفشِّيَةَ، بإلغاءِ تلكَ 'الأفكارِ السلبيّة' التي تُهيِّءُ للحرب.

عرَضْتُ مسألةَ الغزو، بعدما مرَرْنا بعِدَّةِ قرى، حيثُ رُفعتْ راياتٌ ضخمةٌ تذكيرًا بأهمِّيَّةِ هذا اليوم: 'العدالةُ لقبرص'، 'لنْ ننسى أبدًا'، 'تركيّا أُخرجي من قبرص'. بدا الأبُ مكسيموس حزينًا وأخفضَ رأسَه مفتكرًا بعمق، لمّا طرحتُ مأساةَ الغزوِ والدورَ الذي لعبَه رجالُ الدينِ في شحنِ النفوسِ وتأجيجِ الانفعالاتِ التي مهّدَتِ الطريقَ إلى تلكَ الكارثة.

وبعدما عبرْنا قريةَ 'كاپيذس'، وسلكْنا طريقًا متعرِّجًا مظلَّلًا بأشجارِ

الصنوبر، قلتُ متمتمًا: «يبدو لي أنَّ العديدَ من رجالِ الدينِ هنا، يتكلَّمونَ ويعملونَ بخلافِ الديانةِ التي يعترفونَ بها. يبدو أنَّهم فشلوا في التمييزِ في عقولِهم بينَ فكرةِ 'اللّٰه' وفكرةِ 'الوطن'. ونحنُ في أميركا، نعاني المشكلةَ ذاتَها معَ المتطرّفين. فيحسبونَ المسيحَ مُرادِفًا للأميركانيَّة. وفي قبرص، يحسبونَ المسيحَ مرادفًا للهيلّينيَّة، وفي روسيا مرادِفًا لـ'روسيا المقدَّسة'. قبلَ مجيئي إلى الدير، استمعتُ إلى عظةِ أسقفٍ، فسَّرَ تطويبةَ المسيحِ حولَ العدالة، كأنَّه يدعو للكفاحِ المسلَّحِ ضدَّ الإضطهاد».

لمْ يتجاوبِ الأبُ مكسيموس مع تعليقاتي، لبَعض الوقت، وكانَ لا يزالُ يبدو حزينًا، مفكّرًا، ومصلّيًا بمسبحتِه. تكلَّمَ أخيرًا بعدَ أنْ رفعَ ناظرَيهِ نحوَ الطريقِ أمامَه، وقال:«أنظرْ يا كيرياكوس، أنا لستُ بسياسيٍّ. دوري مختلف. أَتَفهمُ قصدي؟ الناسُ الذين يحتكُّونَ بالكلماتِ الإلهيّةِ يفهمونَها ويفسّرونَها حسبَ درجةِ نضوجِهم الروحيِّ وتقبُّلِهم. أعرفُ الكثيرينَ الذين سمعوا كلمةً واحدةً فقط من اللّٰه، كلمةً واحدةً من الإنجيلِ، وكانتْ كافيةً لتغييرِ حياتِهم بالكامل. كانتْ كافيةً لإطلاقِهم في دربِ القداسة.

أمَّا فيما يختصُّ بكلامِ يسوع. فيجبُ ألاَّ نفسّرَهُ مستخدمينَ معاييرَ دنيويَّة. ليسَ من حكمةٍ في ذلك. فالمسيحُ لمْ يكنْ يتحدَّثُ عن أمورٍ تتعلَّقُ بهذا العالم. وهذا ما يَعجزُ الكثيرونَ عن فهمِه، سواءٌ كانوا إكليريكيّينَ أو علمانيّين. لم يكنْ يُحاولُ أن يَجعلَ هذا العالمَ أفضلَ وأكثرَ عدالة. فكلُّ ما قدَّمَه لنا المسيحُ عبرَ الإنجيل، يكتنفُه معنًى أعمقُ، ألا وهو خلاصُ البشريَّةِ

وإعادتُنا الأبديَّةُ إلى ملكوتِ الله. لذا، فـ"طوبى للعطاشِ والجياعِ إلى البرّ[١٠٩]، فإنَّهم سيُشبعون"، لا علاقةَ لها بمفاهيمِ العدالةِ الدنيويّة. أنا مدركٌ تمامًا أنَّ ما أقولُه، يعارضُه الكثيرون».

قلتُ مقاطِعًا: «ينظرُ بعضُ الناسِ إلى المسيحِ من زاويةِ أنَّه تكلَّمَ على حقائقَ عظيمةٍ وعلَّمَنا عن العدالةِ والمساواةِ بينَ كُلِّ الأعراق، وبينَ الرجلِ والمرأة. لا بلْ يذهبُ بعضُ العلماءِ إلى حدِّ القولِ إنَّ العظةَ على الجبل، غيَّرتِ العالم. لقدْ أدَّتْ إلى إلغاءِ العبوديَّة، وظهورِ الديمقراطيَّةِ الحديثة، والاعترافِ العالميِّ بحقوقِ الإنسان».[١١٠]

أجابَ الأبُ مكسيموس باستياء: «يُقالُ الكثيرُ عن المسيح، لكنَّ ذلك ليسَ دقيقًا. لا يدرِكُ الناسُ أنَّ مركزيَّةَ اهتمامِ المسيحِ ما كانتْ حولَ أمورِ هذا العالم. فالعديدُ من الناسِ يريدونَ أنْ يرَوا المسيحَ كمُصلحٍ إجتماعيٍّ يقومُ بأعمالٍ صالحةٍ خيِّرة».

- «أتقصدُ من كلامِكَ أنَّ المسيحَ لمْ يهتمَّ بعملِ الصالحات؟»

- «لا، لا، كيرياكو! بالطبعِ، اهتمَّ المسيحُ في عملِ الصالحات. مَنْ مِنَّا يشكُّ في ذلك؟ لكنِّي أُكرِّرُ أنَّها لم تكنِ المهمَّةَ الرئيسيَّةَ للمجيءِ إلى العالم».

- «آه، بدأتُ الآنَ أُدرِكُ ما تقصدُه. فالكثيرونَ بشَّروا من قبلِ المسيحِ بالمحبَّةِ كسبيلٍ لحلِّ مشاكلِ البشر»، قلتُ هذا وأنا أفكِّرُ في ذهني بِمُوْهِبِي

١٠٩ أي أن يبرِّرهم الله.

110 Page Smith, Rediscovering Christianity: A Search for the Roots of Modern Democracy (New York: St. Martin's Press, 1994).

الصينِ القديمة."[111]

قالَ الأبُ مكسيموس: «لم يكنِ اهتمامُ المسيحِ الأساسيُّ منصبًّا على إلغاءِ العبوديَّة، ولا على إرساءِ قواعدِ المساواةِ بينَ الأجناسِ والأعراق، أو بينَ الرجالِ والنساء. أرجو ألَّا تُسيءَ فهمي. تلكَ تطوُّراتٌ اجتماعيَّةٌ حسنةٌ جدًّا، ولربَّما نتجتْ عن تعاليمِ المسيح. لكنَّ قلقَ المسيحِ الأساسيَّ واهتمامَهُ المركزيَّ كانَ في جوهرِ الوجودِ الإنسانيِّ، وخلاصِ البشريَّةِ وسُكناها في ملكوتِ الله. حينما نطقَ المسيحُ بتطويبةِ العدالة، لم يقصدْ أنَّ الذين يسعَون وراءَ العدالةِ العالميَّةِ هم بالضرورةِ المباركون.

فكِّرْ للحظةٍ فقط. عندما نَجِدُ أنفسَنا في نزاعٍ معَ الآخرينَ نشعرُ عادةً، أنَّ الآخرينَ هم المخطِئونَ والظالمونَ لنا. هل صدفَ أنْ قابَلْتَ أحدًا أثناءَ مشاجرة، توقَّفَ ليقولَ للآخر: 'أنا آسفٌ جدًّا، يا صديقي. أنتَ على حقٍّ، ولقد ظَلَمْتُك'؟»

أضفتُ: «هذا ما يجري أيضًا في حياتِنا الجَماعيَّة. نحنُ ندخلُ الحربَ بحماسٍ شديدٍ بعدَ أنْ نشوِّهَ سمعةَ من نعتبرُهم أعداءَنا. نصنعُ ذلكَ وكلُّنا إيمانٌ أنَّ اللهَ إلى جانبِنا. واحسرتاه، لَعِبَ المتديِّنون، يا أبتِ مكسيموس، دورًا رئيسيًّا في تشويهِ صورةِ الآخَرِ وإظهارِه كشيطان».

111 الموهية (المووِيّة أو الموتزووية) Mohism or Moism هي فلسفة قديمة أنشأها في القرن الخامس قبل الميلاد الفيلسوف الصينيّ مو تي Mo-ti أو موتزو Mo-tzu الذي نادى بـ «المحبة الكونيّة» الشاملة. مخالفًا بذلك الكونفوشيوسيّة التي دعت إلى «محبّة خاصّة» يتعيّن على المرء أن يحيط بها والدَيه. ولقد تحدّت الموهيّة المذهب الكونفوشيوسيّ قرونًا متعددة. Huston Smith, The World's Religions (San Francisco: HarperSanFrancisco, 1991), pp. 166-67.

تمتمَ الأبُ مكسيموس: «فعلًا، واحسرتاه». ثمَّ فكَّرَ في أمرٍ ما وإذا بوجهِهِ يُشرقُ ثانيةً، فقالَ: «أثناءَ جلساتِ الاعترافِ غالبًا ما أسألُ المُعترفَ: 'هل ظلمتَ أحدًا عن قصدٍ أو عنْ غيرِ قصد'، ويأتي الردُّ دائمًا: 'أنا؟ أبدًا! بالعكس'».

إبتسمْتُ لحركاتِ وجهِه وقلتُ: «عجبًا، أينَ يختبئُ الظالمون؟ ما قابَلْتُ أحدًا منهم ولا مرَّة، بل أسمعُ فقطْ بمن وقعَ عليهِم الظلم. لدينا مَيْلٌ للإعتقادِ أنَّ اللّهَ العادلَ سيتدخَّلُ لمصلحتِنا ويفرضُ العدلَ كما نراهُ نحن، كإجبارِ تركيًّا على الخروجِ من قبرصَ مثلًا».

قالَ الأبُ مكسيموس: «العدالةُ وَفقًا لنا، تعني عادةً رؤيةَ اللّهِ يُنْزِلُ أشدَّ العقوباتِ بِمنْ نعتبرُهم أعداءَنا، فنستمتعَ بمشاهدتِهم بأمِّ العينِ يتعذَّبونَ في نارِ جهنَّم».

قلتُ مقاطِعًا: «وإنْ لمْ تأتِ العدالة، يبدو لنا الأمرُ كأنَّ اللّهَ غائبٌ عن التاريخ، وأنَّ الأمورَ تجري بطرقٍ تفوقُ سيطرتَه، ولا تَعنيه. سمعتُ لاجئًا قبرصيًّا يقولُ إنَّه لا يمكنُ أنْ يكونَ هناكَ إله. لماذا؟ لأنَّ الجيشَ التركيَّ سيطرَ على بلدتِه».

– «هاك! لقد وجدْتَها. إنسانٌ ذو مفهومٍ إنسانيٍّ عنِ العدالةِ يحقُّ له أنْ يطرحَ السؤالَ التالي: 'أينَ كانَ اللّهُ عندما غزَتْ تركيا جزيرةَ قبرص؟'. على الرغمِ من ذلك، يجبُ ألاَّ نفكِّرَ على هذا النحو. اللّهُ ليسَ غائبًا عنِ التاريخ. فلا شيءَ يحدُثُ دونَ قصدٍ إلهيّ».

توقَّفَ قليلًا عن الكلامِ ثمَّ تابع: «ربَّما، فشِلْنا في تربيتِنا الدينيَّةِ أنْ نتعلَّمَ

أمرًا واحدًا، أنَّ طرائقَ الإنسانِ ليستْ بالضرورةِ طرائقَ اللّه. أتذكَّرُ أنّي قرأتُ نصًّا في أحدِ الكتبِ الدينيَّةِ وأنا في المدرسةِ الثانويَّة، يجزمُ أنَّ المنطقَ يقودُنا إلى استنتاجِ أنَّه لا بدَّ أنْ يوجدَ إلهٌ لنشرِ العدالة. وفقًا للنصِّ، اللّهُ هو العدالةُ السامية. فالمظالمُ مستشريةٌ في العالم، وعاجلًا أمْ آجلًا، سيدبِّرُ اللّهُ الأمرَ بإنزالِ العقوباتِ بالظالمين».

قلتُ بعفويَّة: «ويكافئُنا نحنُ العادلين».

- «هذا يبيِّنُ لنا حالةَ الشعبِ الأخلاقيَّةَ السائدة، وكمْ أنَّها بعيدةٌ عن روحِ اللّه. أتَعلَمُ ما قالَه أحدُ قدّيسينا القدماءِ مرَّة؟ قال: 'لا تقلْ أبدًا إنَّ اللّهَ عادل، لأنَّه ليسَ كذلك'، مقارنةً بمعاييرِ البشريَّةِ للعدالة. استنتجَ القدّيس: 'كيفَ يكونُ اللّهُ عادلًا عندما يطلبُ منَّا ألَّا نتواجَهَ أو نقومَ بردَّةِ فعلٍ حينَ يأتي شخصٌ ما ويغتصبُ أملاكَنا بل ندَعُهُ يأخذُها، وإنْ طلبَ منَّا أن نمشيَ معَه ميلًا واحدًا فلنذهبْ معَهُ ميلَين. وإنْ صفَعَنا على خدٍّ فلنُدِرْ له الخدَّ الآخرَ أيضًا. أهذه هيَ العدالة؟ ماتَ من أجلِ الذين مقتوه، بصقوا عليه، ركلوه، ماتَ من أجلِ العالمِ كلِّه. عندما كانَ المسيحُ في الجسد، وكانَ على وشْكِ أنْ يموت، لم يُصَلِّ من أجلِ تلاميذِه بل من أجلِ صالبيه. لم يقلْ لتلاميذِه: 'انتظروا لترَوا ما سأفعلُ بهم حينَ أقوم'. ولدينا أمثلةٌ عديدةٌ عن شهداءٍ وقدّيسينَ أظهروا هذا النوعَ من المحبَّةِ المسيحيَّة. فأثناءَ رجمِ الشهيدِ الشابِّ استفانوس حتَّى الموت، صلَّى من أجلِ مهاجميه. ثمَّ رفعَ ناظرَيه إلى فوقُ وقالَ كلماتِه الأخيرة: 'يا ربِّي وإلهي، لا تمسكْ هذه الخطيئةَ عليهم'.

إذًا، ما معنى كلِّ هذا؟ يَعني أنَّ عدالةَ اللّهِ ليستِ العدالةَ التي نتخيَّلُها في أذهانِنا. من المهمّ جدًّا أنْ يفهمَ الناسُ هذا الأمرَ لكيْ لا يفقدوا إيمانَهم، فيسخروا منه عندما تواجهُهم المصاعب».

قلتُ: «هنالكَ الكثيرُ من الظلمِ من حولِنا، الكثيرُ من الأمراضِ، من الموتِ والدمارِ، العديدُ من المآسي بمختلفِ الأنواع. الصالحون يتعذَّبون، حتّى القدّيسونَ يتعذَّبون، لذا يُطرحُ السؤالُ بعفويّة: 'أينَ هو اللّه؟ أينَ عدالتُه'».

أكَّدَ الأبُ مكسيموس: «عدالةُ اللّه تعملُ بطرقٍ عجيبةٍ سرِّيَّةٍ تفوقُ إدراكَنا العقليّ».

أشرتُ: «يبدو لي أنَّ أفكارًا مثلَ اللاهوتِ التحريريّ، أخطَأَتِ القصدَ وهي خارجَ روحِ المسيح».

لم يكنِ الأبُ مكسيموس قد سمعَ عن 'اللاهوتِ التحريريّ' من قبل، لذا شرحتُ له أنَّ هذا اللاهوتَ يعتبرُ تعاليمَ المسيحِ متوافقةً مع التمرُّدِ العنفيِّ الهادفِ لإرساءِ العدالةِ الإجتماعيَّة. أضفتُ: «بالطبعِ، رفضَ بابا روميةَ هذه النزعةَ واعتبَرَها هرطقة».

أجابَ الأبُ مكسيموس بنبرةٍ حاسمة: «أتَّفِقُ مع البابا بالكاملِ في هذا الموضوع».

- «قد يستنتجُ النُقَّادُ أنَّ هذهِ وصفةُ بَلادةٍ تجاهَ الظلم. أتقترحُ بأنّنا يجبُ

أنْ نبقى غيرَ مبالينَ وغيرَ فاعلينَ في العالم، أنْ نتوقَّفَ عن السعيِ لجعلِ هذا العالمِ مكانًا أفضل، وأنْ نُوَجِّهَ كلَّ طاقاتِنا نحوَ العالمِ الآخر؟ أهذا ما يُعلِّمُه الآباءُ القدِّيسون؟»

- «ليسَ الأمرُ كذلك. كنْ فاعلًا في العالمِ بكلِّ وسائِلِك، وحاولْ جعلَه مكانًا صالحًا وعادلًا على قدرِ الإمكان. ولكنْ، لا تحيا في الوهم. العدلُ الإلهيُّ يختلفُ عن رؤيتِنا للعدالة. أتُدرِكُ معنى ما أقول؟ رجاءً، دعْنا لا نُحوِّلِ المسيحَ إلى مُصلحٍ إجتماعيّ».

- «إذًا، ما هيَ عدالةُ اللّه؟»

جاوبَ الأبُ مكسيموس بصوتٍ أعلى بعدما تنفَّسَ عميقًا وقال: «العدالةُ الحقيقيَّةُ بالنسبةِ للّه هي مساعدتُهُ لنا عبرَ نعمتِهِ لتصحيحِ ما آذانا عن حقّ. وما هو ذلك؟ هو تغرُّبُنا عن طبيعتِنا الإلهيّة. العدالةُ الحقيقيَّةُ تعني بلوغَ التألُّه، إتّحادَنا مُجدَّدًا باللّه الذي خَلقَنا على صورتِه. فاللّهُ منحَنا إمكانيَّةَ التألُّهِ بالنعمة. هدفُنا المطلقُ هو الاتّحادُ مجدَّدًا بخالقِنا، والسُكنى في موطِنِنا الأصليِّ وقِبلتِنا الأخيرة. من الناحيةِ الوجوديَّة، بالسقوط تأذَّينا في صميمِ كيانِنا».

- «إنْ كنتُ أفهمُ كلامَكَ، فالعدالةُ تعني بالنهايةِ دخولَنا مُجدَّدًا إلى الفردوس، عودةَ الإبنِ الضالِّ إلى القصر».

- «بالضبط. إذّاك، يبدأُ كيانُنا بالعملِ وَفقَ طبيعتِنا الأصليّة. فتنفتحُ أذهانُنا وقلوبُنا وتصبحُ قادرةً على إدراكِ أمورِ هذا العالمِ بعدساتٍ ومعاييرَ مختلفةٍ بالكلّيّة، أعني بمعاييرَ روحيّة. في هذه المرحلة، تُختبَرُ العدالة، وتَعمَلُ

لا حسبَ المفهومِ الشائع، بلْ كحُبٍّ إلهيٍّ مطلقٍ غيرِ مشروط. على العكس، نلاحظُ أنَّ الإنسانَ ما إنْ يَستقيمُ مع العدالةِ الإلهيَّةِ كحُبٍّ غيرِ مشروط، إذَّاك، ترتفعُ قوانينُ المنطقِ ويعملُ اللهُ في داخلِ الإنسانِ فيُبَرِّرُهُ على الأرضِ وفي السماء. لهذا، فالنسَّاكُ الذين بلغوا القداسة، لا يدينونَ الناس. قد يتوقَّعُ المرءُ منهم عدمَ احتمالِ ضعفاتِ البشر، بينما العكسُ صحيح.

على أيَّةِ حال، لمَّا قالَ: 'طوبى للجياعِ والعطاشِ إلى البرِّ...'، عنى بالحقيقة: 'طوبى للجياعِ والعطاشِ إلى النعمةِ الإلهيَّة'. لأنَّ اللهَ هو العدلُ، والحقُّ، والسلامُ، هوَ كلُّ شيء».

- «إذًا، هل تعمِّمُ المعنى ذاتَهُ على التطويباتِ الأُخرى أيضًا مثلَ 'طوبى للرحماءِ...'».

- «بالتأكيد. فالتطويباتُ لها غايةٌ واحدةٌ، هي مساعدةُ البشرِ على دربِ التألُّه. لا تتكلَّمُ على أخلاقيَّاتٍ يتخيَّلُها البشرُ أو على السلوكِ الحسن، بلْ تَحملُ في طيَّاتِها معنًى وجوديًّا أعمق.

لهذهِ الغاية، كلُّ تعاليمِ الكنيسةِ موجَّهةٌ لشفاءِ الإنسان، ليبدأَ بالتصرُّفِ بطريقةٍ طبيعيَّة، حسبما خلقَهُ اللهُ في البدء. يبدأُ هذا العملُ الروحيُّ داخلَ الكنيسة. عادةً، يتخيَّلُ الناسُ هذا الجهادَ الروحيَّ كدربٍ شرعيٍّ لخلاصِ نفوسِهم. يظنُّونَ أنَّ عمليَّةَ خلاصِ نفوسِهم هي كالوثوبِ من مراجِلِ جهنَّمَ إلى مروجِ الفردوسِ الخضراء.

في الواقعِ، الجهادُ الروحيُّ الذي يجري داخلَ الكنيسة، يهدُفُ إلى

شفاءِ وجودِنا، وأشخاصِنا، وختمِ اتِّحادِنا باللّه، هذا الاتِّحادِ الذي هو وِجهتُنا الحقيقيّةُ ومُبرِّرُ وجودِنا في العالم. طالما أنَّ هذه الغايةَ لم تحقَّقْ بعدُ، نستمرُّ في الحياةِ على نحوٍ مَرَضِيٍّ غيرِ كامل، ونختبرُ المظالمَ الواحدةَ تلوَ الأُخرى».

أضفتُ: «إنَّ العالَمَ الاجتماعيَّ الذي نخلقُه جماعيًّا سيعكسُ بشكلٍ طبيعيٍّ هذه الأمراضَ التي تتربَّصُ في داخلِنا». ثمَّ سألتُه: «بالرجوعِ إلى التطويبات، ما علاقةُ 'طوبى للرحماء، ...'، بما قلتَه للتوّ».

أجابَ: «أظنُّ أنَّنا تحدَّثنا عن هذا في وقتٍ سابق. على أيَّةِ حال، الخاصِّيَّةُ المركزيَّةُ لحركةِ اللّهِ نحوَ الإنسانِ هي بالضبطِ هذه الرحمة. لهذا نحنُ ندعو اللّهَ في الليتورجيا 'الرحيم'. في الكتب، دعا اللّهُ نفسَه 'الرحيم'، أليسَ كذلك؟ وبما أنَّنا مدعوُّون لنصيرَ آلهةً، فمِنَ الضروريِّ أنْ نصبحَ رحماءَ أيضًا. لا يمكنُ أن نصبحَ مثلَ اللّه إلاَّ بعدَ أنْ ننمِّيَ هذه الصفةَ في داخلِنا».

- «أتعني تقديمَ العونِ للمحتاجين».

- «لا أقصدُ بالرحمة، تقديمَ الصدقةِ للفقراءِ والتبرُّعَ بالمالِ لعدَّةِ عللٍ تستوجبُ ذلك. فكلُّ هذه هي ظواهرُ خارجيَّةٌ للرحمة. فالرحمة، الحركةُ التي تُميِّزُ اللّه، ليست سوى الحبِّ المطلقِ غيرِ المشروط».

فكَّرَ الأبُ مكسيموس لثوانٍ ثمَّ تابع: «أحدُ أشكالِ الممارسةِ الروحيَّةِ هوَ أنْ نتعلَّمَ ألاَّ ندعَ الأحداثَ التي نختبرُها في حياتِنا، تمرُّ دونَ ملاحظتِها. لا أعني بذلك، أنْ نركِّزَ على المآسي والصعوباتِ التي نصادفُ، لتبدوَ لنا أكثرَ كآبةً ممَّا هي عليه، فندخلُ في اليأسِ والاكتئاب. بالأحرى، علينا إدراكُ أنَّ

كلّ ما يحدُثُ معَنا ينطوي داخلَ المحيطِ غيرِ المحدودِ لرحمةِ اللّهِ ورأفتِه.

حينما نتعلَّمُ أنْ نُولِّدَ الأفكارَ الصالحةَ فقط، ونُصدِرَ الأحكامَ الصحيحةَ ونكتسبَ رؤيةً واضحة، سندركُ أنَّ كلَّ ما نصادفُهُ هو في المُحصِّلةِ النهائيَّةِ بركةٌ».

تذمَّرْتُ قائلًا: «منَ الصعبِ جدًّا على مَنْ يعاني من مأساةٍ ما، أن يحافظَ على حالةٍ ذهنيَّةٍ رفيعةٍ مماثلة، ناهيكَ عن صعوبةِ إقتراحِ ذلكَ عليه».

- «أجل، إنَّه صعبٌ لكنَّه صحيح. نعرفُ هذا من شهادةِ القدّيسينَ ومن تجارِبنا اليوميَّة. أتدركُ أنَّ كلَّ الأمورِ التي تُعتبرُ موجعةً ومسبِّبةً التعاسةَ حسبَ المعاييرِ الإنسانيَّة، يمكنُ تحويلُها إلى فوائدَ من خلالِ النعمةِ الإلهيَّة؟ أنا مقتنعٌ كلِّيًّا أنَّ الإنسانَ الذي تعرَّضَ للصدمةِ في حياتِه، سواءٌ كانت نفسيَّةً أم جسديَّةً، لديه طاقاتٌ هائلةٌ ليصبحَ إنسانًا عظيمًا حقًّا. لهذا السببِ أيضًا، شدَّدَ الآباءُ القدّيسونَ على كيفيَّةِ مجابهةِ التجارب. ولم يقصدوا التجاربَ الزائفةَ المتعلِّقةَ بملذّاتِ الحواس، بل التجاربَ التي ترافقُ الظروفَ الصعبةَ والميؤوسَ منها حيثُ يجدُ الإنسانُ نفسَه عالقًا. عَنَوا التجاربَ التي تُعذِّبُ الإنسانَ وتُؤدّي في أغلبِ الأحيانِ إلى الصدماتِ النفسيَّةِ العسيرة.

في مثلِ هذه الظروف، إنْ توجَّهْنا إلى اللّه بالشكلِ الصحيح، سامحينَ للنعمةِ أنْ تنشطَ في داخلِنا، إذّاكَ يحدثُ أمرٌ متناقض. فاللّه، طبيبُ نفوسِنا وأجسادِنا، لا يشفي صدماتِنا ماحيًا كلَّ أثرٍ لها وحسب، بل يصنعُ أهمَّ من هذا بكثير. إذْ يُحوِّلُ الجراحَ القديمةَ إلى مصدرِ قوَّةٍ روحيَّة. ويغدو الإنسانُ

المُعافى على درايةٍ بهذا العالمِ الداخليِّ البشريِّ، ويُمسي بدورِهِ شافيًا للآخرينَ من حولِه.

لذلك، غالبًا ما سمحَ اللّهُ بتعرُّضِ القدّيسينَ لِتجاربَ هائلةٍ متنوّعةٍ أدخلَتْهم في حزنٍ عميقٍ واضطرابٍ روحيّ».

- «لماذا؟»

- «لأنَّ الإنسانَ لا يقدرُ أنْ يفهمَ الآخرينَ في ألمِهم وحزنِهم ما لمْ يقعْ هو شخصيًّا تحتَ نيرِ التجارب، ما لمْ يختبرِ الألمَ ويذرفِ الدموعَ الحارّة».

أضفتُ: «أحدُ الأمثالِ القبرصيَّةِ هو: صعبٌ على الشبعانِ أنْ يتذكّرَ الجوعان».

وافقَ الأبُ مكسيموس: «تمامًا. فمَنْ لمْ يختبرِ التجاربَ يشبهُ الرغيفَ الذي لمْ يُخْبَز. تجاربُ الحياةِ تقعُ في دائرةِ العنايةِ الإلهيّة».

- «أبانا مكسيموس، هل في كلامِكَ هذا، تلميحٌ ضمنيٌّ إلى أنَّ اللّهَ يتعاملُ معَ الشرّ».

- «حاشا. لا يتعاونُ اللّهُ أبدًا مع الشرّ. هو يمنحُنا ببساطةٍ الفرصةَ لتحويلِ التجاربِ الأليمةِ في حياتِنا إلى بركاتٍ مفيدةٍ لنا. لنْ أنسى أبدًا ما اعتادَ الشيخُ پاييسيوس قولَه لنا: 'سيأتي الوقتُ حينَ سنشكرُ اللّهَ على كلِّ الجراحِ والآلامِ التي قاسَيْناها في حياتِنا'. كلُّ واحدٍ منّا يحملُ صليبَه الخاصّ. إنْ واجَهْنا تجاربَنا بثباتٍ بطريقةٍ روحيّةٍ، سنُدرِك يومًا ما، أنَّ كلَّ هذه المآسي

والتجاربِ قد تحوَّلتْ داخلَنا إلى حسناتٍ عظيمة، إلى كنوزٍ حقيقيَّة. كما يتَّضحُ، يا كيرياكوس، أنَّ القدّيسين كانوا على درايةٍ بهذا اللغز. لذا عمدًا، لم يتفادَوا التجاربَ والأحزانَ بل غالبًا ما أتاحوا لها أنْ تشتدَّ».

بنبرةٍ قلقٍ قلتُ مقاطعًا: «أتمنَّى أنَّهم لا يسعَون وراءَ الآلامِ والأحزانِ كسبيلٍ للإستنارةِ الروحيَّة».

- «آ، كلاَّ. القدّيسونَ ليسوا ماسوشيِّين. لكنَّهم عندما تعرَّضوا لتجاربَ مُحزنةٍ تركوها تجتاز. وأثناءَ ذلك، ثبَتوا ولم يهتزُّوا وبقَوا في حالةِ صلاةٍ ذهنيَّة. قد تسألُ متعجِّبًا، لماذا؟ لأنَّهم على درايةٍ أنَّ كلَّ تلكَ الظواهرِ ليستْ كما تبدو، بل تنكشفُ حقيقتُها في سياقِ حياتِنا الروحيَّة. ونستنتجُ أخيرًا، أنَّ الشرائعَ الروحيَّةَ لمْ تعملْ على دمارِ القدّيسين، بل على إيصالِهم إلى الكمال. قادَتْهم ليصيروا أولادًا حقيقيِّينَ لله. إقتبلَ القدّيسونَ تجاربَهم وخبراتِهم الأليمةَ بصمتٍ، تمامًا كما تقبَّلَ المسيحُ محاكمتَهُ ومآسيه. ناشدَ بيلاطسُ البنطيُّ المسيحَ أنْ يتفوَّهَ ولو بكلمةٍ واحدةٍ دفاعًا عن نفسِهِ لكيْ يجِدَ سبيلًا لإطلاقِ سراحِه. إلاَّ أنَّ المسيحَ لزمَ الصمت».

تدخَّلْتُ مقاطعًا حديثَه: «لكنَّ بطرسَ الرسول، لمْ يتصرَّفْ في بستانِ الجتسيمانيَّةِ بالطريقةِ عينِها، بلِ استلَّ سيفَهُ وقَطعَ أُذُنَ الجنديِّ الرومانيِّ».

- «أتعرفُ لماذا؟ لأنَّ بطرسَ في ذلكَ الوقتِ، كانَ لا يزالُ تحتَ هيمنةِ عقلِهِ وطريقةِ تفكيرِهِ الدنيويَّة. لكنَّهُ بعدَ أنْ أنكرَ المسيحَ ثلاثَ مرَّاتٍ، دونَ أيِّ سببٍ حقيقيٍّ، تعلَّمَ درسًا عظيمًا. أتَذكُرُ ما سألَتْه تلكَ الجارية؟ 'أنتَ كنتَ

معَ يسوع، أليس كذلك؟'. لكنَّ بطرسَ الذي طغَى عليه الجبنُ، أنكرَ قائلًا: 'لا أعرفُهُ، ما رأيتُهُ يومًا'. كانَ ذلكَ سقوطًا عظيمًا له».

تساءلتُ قائلًا: «باعتقادِك، لماذا يسمحُ اللهُ بحدوثِ أمرٍ مماثلٍ لرسولٍ عظيمٍ مثلَ بطرس».

- «على وجهِ التحديد، لكي يختبرَ بطرسُ بنفسِهِ ماهيَّةَ الكائنِ البشريّ، ويكتسبَ قلبًا متعطِّفًا، ليُصبحَ رحيمًا بدلًا من ديَّان. قبلَ تلكَ التجربة، كانَ إنسانًا قاسيًا، متزمِّتًا، عادمَ التحمُّل، عاجزًا عن المغفرة، لا يصبرُ على الضعفاتِ البشريَّة. لكنَّه تغيَّرَ إثرَ تلكَ التجربة. عندما يختبرُ الإنسانُ تجربةً مُذِلَّةً، ينمو في قلبِه ميلٌ إلى الرحمة. يصبحُ، أوَّلًا وقبلَ كلِّ شيءٍ، رؤوفًا معَ نفسِه ويتعلَّمُ أنْ يُقيمَ علاقةً صحيحةً معَ نفسِه».

سألتُ: «هلْ يعني ذلكَ أنَّه يجبُ ألاَّ نشعرَ بالذنبِ لآثامِنا لكيْ نغدوَ متعطِّفين على أنفسِنا؟»

- «لا. ما عنَيتُهُ هو أنْ نتعلَّمَ كيفَ نُقَيِّمُ كُلَّ حالةٍ بشكلٍ صحيح. يجبُ أنْ نفحصَ أعمالَنا دونَ أيَّةِ نوايا ماسوشيَّة، دونَ أنْ نُثقلَ أنفسَنا بالكآبةِ واليأس. يجبُ أنْ نباشرَ بِبَتْرِ معاصينا، لكنْ دائمًا ضمنَ سياقِ الرأفةِ الذاتيَّة. فاليأسُ والكآبةُ ليسا من الله.

هذا يذكِّرني بسيرةِ أحدِ القدِّيسينَ في كتابِ أقوالِ الآباءِ الشيوخ: طغَتْ على راهبٍ شابٍّ أفكارٌ جنسيَّةٌ حادَّة، فهرعَ إلى شيخِهِ للاعترافِ. قال: 'أبتِ، تعذِّبُني أفكارُ الزنى، ولا أدري ما العمل'. كانَ الشيخُ رجلًا صالحًا، لكنَّه

يفتقرُ إلى الخبرة. لمْ يكنْ يدرِكُ ما معنى أنْ يكونَ الإنسانُ تحتَ تأثيرِ تجاربِ الزنى الحادّة. لذا، أنّبَ الراهبَ الشابَّ مؤكّدًا أنَّ امتلاكَهُ أفكارًا كهذه، يتنافى مع نذورِهِ الرهبانيّة. يئسَ الراهب، فقرّرَ تركَ الحياةِ الرهبانيّة. اعتبرَ نفسَهُ غيرَ مستحقٍّ ورحل. في طريقِه إلى المدينة، إلتقى بشيخٍ آخرَ حكيمٍ ممتلئٍ بالمواهبِ الروحيّة. على الفور، أدركَ الشيخُ ببصيرتِهِ ما قد جرى. فسألَهُ بعفويّة، 'ما وجهتُك، يا أخي؟'، فروى له الراهبُ الشابُّ الحادثةَ التي جعلتْهُ يقرّرُ التخلّي عن حياتِهِ الرهبانية، بعدَ ثماني سنواتٍ من ترهُّبِه. جاءَ جوابُ الشيخِ معزّيًا: 'أنا راهبٌ منذُ سبعينَ سنةً، ولا زِلتُ أُعاني منْ مثلِ هذه الأفكار. عُدْ إلى منسكِكَ يا بنيَّ وسوفَ يُعينُكَ الله. سأُصلّي من أجلِكَ'. عادَ الراهبُ الشابُّ إلى ديرِهِ مُحرَّرًا من حربِ الأفكار. لكنَّ هذا الشيخ، لم يكتفِ بالصلاةِ من أجلِ الراهبِ الشابّ، بلْ رفعَ يدَيهِ ناظرًا إلى فوقُ وصلّى هكذا: 'أتوسَّلُكَ إلهي أنْ ترفعَ تلكَ التجربةَ عن هذا الراهبِ الشابّ وتوجِّهَها نحوَ شيخِه'. ووَفقَ ما جاءَ في كتابِ الآباءِ الشيوخ، غادرَتْ أفكارُ الزنى الشابَّ ووَلجتْ ذهنَ شيخِه. بعدَ ذلكَ بقليل، رأى الشيخُ الحكيمُ الشيخَ العديمَ الخبرةِ هارعًا نحوَ المدينة، فسألَه بنبرةٍ سلاميّةٍ هادئة: 'ما وِجهتُكَ يا أبتِ'. أجابَ الشيخ: 'آه، لا تسألْني. أرجوك، لا تسألْني. أنا مغادرٌ إلى المدينة. أفكارُ الزنى تُلاحقُني وتزعجُني. إنّها تخنقُني. لستُ مستحقًّا أنْ أكونَ راهبًا'. إذّاك، أجابَه الراهبُ الحكيم: 'عُدْ إلى منسكِكَ يا أبتِ. اللهُ هو الذي سمحَ لتلكَ الأفكارِ أنْ تستحوذَ عليكَ كيما تنموَ في التواضعِ وكي لا تدفعَ بإرشاداتِكَ الرهبانَ الشبابَ إلى اليأس'».

أنهى الأبُ مكسيموس قصَّتَهُ بينما انعطفتُ وأوقفتُ السيّارةَ تحتَ شجرةٍ

بلُوطٍ مُظلِّلَةٍ خارجَ بوَّابةِ ديرِ الفائقةِ القداسة.

* * *

في تلكَ الليلة، قبلَ أنْ أتوجَّهَ إلى النوم، أمضيتُ بعضَ الوقتِ أقرأُ عن الرحمة، فوقعتُ على قولٍ للقدِّيسِ إسحقَ السريانيّ، أحدِ الشيوخِ القدِّيسينَ المشهورينَ في المسيحيَّةِ الأُولى. في إحدى عظاتِه، تناولَ القدِّيسُ إسحق موضوعَ طبيعةِ القلبِ الرحيم. وممَّا جاءَ فيها أنَّ القلبَ الرحيم حقيقةً، هو قلبٌ يتأجَّجُ ملتهبًا بمحبَّةِ الخليقةِ بأسرِها، «...للبشر، للطيور، للحيواناتِ البرِّيَّة، للأبالسة، ولسائرِ المخلوقاتِ على الأرض. التعطُّفُ العميقُ تجاهَ الخليقةِ بأسرِها، يجعلُ القلبَ عاجزًا أنْ يسمعَ عن أيِّ أذًى أو حتَّى أيِّ حُزنٍ بسيطٍ يصيبُ الخليقة. لهذا السبب، يَرفعُ القلبُ الرحيمُ الصلواتِ من أجلِ الوحوش، والطيورِ الجارحة، والحيواناتِ والشياطين، والثعابينِ وكُلِّ شيءٍ آخرَ ضمنَ الخليقة، بما في ذلكَ أعداءُ الحقّ».[112]

طَوَيتُ الكتاب، إذْ تغلَّبَ عليَّ النعاس، حافظًا في ذهني كلامَ القدِّيسِ إسحقَ عن الرحمة. أحسستُ أنَّه يلزمُني الكثيرُ من الوقتِ لأبلغَ حالةً مماثلةً وأنا في العالم. لكنِّي تعزَّيتُ حينما تذكَّرتُ ما قالَه الأبُ مكسيموس: «ثِقْ. ولا تقلقْ لكونِكَ ما زِلْتَ في بدايةِ الطريقِ الروحيّ».

---

١١٢ كاليستوس وير، الملكوت الداخلي، نقلته إلى العربيّة كاترين سرور، منشورات تعاونيّة النور للنشر والتوزيع ٢٠٠١.

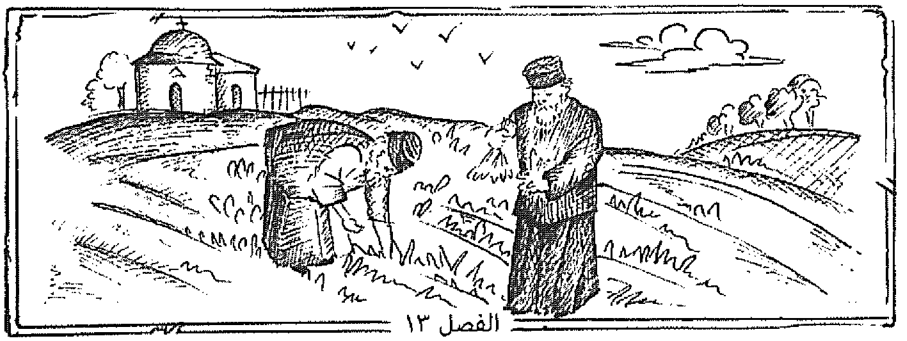

القوانين الروحيّة

حديثي مع الأبِ مكسيموس حولَ العدالةِ أثناءَ رحلتِنا إلى ديرِ ستافروفوني، ولّدَ في ذهني كثيرًا من الأسئلةِ العالقة، فدوَّنتُها وعزمْتُ على طرحِها في أوَّلِ فرصةٍ مؤاتية. في اليومِ التالي، كما لو أنَّه قرأَ أفكاري، ولم تكنْ هذه هي المرَّةَ الأُولى منذُ إقامتي في الدير، طلبَ منّي الأبُ مكسيموس مرافقتَهُ في نزهةٍ إلى منسكِ[١١٣] القدّيسِ يوحنّا المعمدان.

في جبلِ آثوس، بُنِيَ المنسكُ كمبيتٍ لناسكٍ، أو كمكانِ خلوةٍ يتردَّدُ عليه دوريًّا الرهبانُ لإمضاءِ فتراتٍ روحيَّةٍ مكثَّفةٍ على انفراد. ولأنَّهُ جزءٌ نموذجيٌّ تكميليٌّ لمنهجِ الحياةِ الروحيَّةِ الآثوسيَّةِ وممارستِها، شيَّدَ الأبُ مكسيموس منسكًا وألحقَه بديرِ الفائقةِ القداسةِ بغيةَ نقلِ هذا التقليدِ بكلِّيَّته إلى الجزيرة. ببناءِ المناسكِ حولَ ديرِ الفائقةِ القداسة، أصبحتْ رؤيةُ الأبِ مكسيموس البعيدةُ المدى واضحة. فهذه إشارةٌ أنَّ هدفَه هو خلقُ التركيبةِ المؤسَّساتيَّةِ

١١٣ يتبعُ المنسك ديرًا. ويمكن أن يعيشَ فيه راهبٌ واحدٌ أو بعضُ الرهبان مع أبيهم الروحيّ. أمّا الإسقيط فهو قرية رهبانيّة صغيرة تتألّف من عدّة مناسك وأكواخ. ولها في العادة، كنيسة مركزيّة.

التي يمكنُ أَنْ تُخرِّجَ القدّيسينَ، تمامًا كما تُخرِّجُ الجامعاتُ العلماءَ والحائزينَ جوائزَ 'نوبل'.

إنَّ أغلبَ الشيوخِ الآثوسيّينَ وقدّيسي القرنِ العشرين، مثلَ القدّيسِ سِلوان الروسيِّ والشيخِ بابيسيوس، عاشوا قسطًا كبيرًا من حياتِهم في مناسكَ مماثلةٍ حيثُ انصرفوا إلى الصلاةِ اليقِظةِ غيرِ المنقطعة. حتّى الآن، لا تزالُ المناسكُ الثلاثةُ التي شيّدَها الأبُ مكسيموس حولَ ديرِ الفائقةِ القداسة شاغرة، يتردَّدُ عليها الرهبانُ في مناسباتٍ خاصّةٍ لخلوةٍ مؤقّتة.

انطلقْنا عصرَ ذلكَ اليومِ في مسيرِ ساعة. أعطاني الأبُ مكسيموس إحدى عكّازَيهِ التي يحتفظُ بها في مكتبِهِ وانطلقنا. وحالما عبَرْنا بستانَ الوردِ الذي زرعَه رهبانُ الديرِ لإنْتاجِ ماءِ الوردِ وبيعِه، طرحتُ سؤاليَ الأوّل.

– «أبانا مكسيموس، نجدُ الكثيرَ في تعاليمِ الشيوخِ حولَ التجاربِ وكيفيّةِ مجابهتِها. تبدو هذه اللغةُ، في أذهانِ العديدِ من الناسِ قديمةً، وإلى حدٍّ ما لغةً مندثرة. في الحقيقة، إنّها هذه اللغةُ تحديدًا التي غالبًا ما تُفجّرُ المشاعرَ السلبيّةَ نحوَ الدين. إذا أَحسنتُ فهمَ كُلِّ ما أخبرتَني بالأمس، يبدو أنَّ المفهومَ المتداولَ لكلمةِ 'تجربة' مختلفٌ جدًّا عن مفهومِ الشيوخ».

أجابَ الأبُ مكسيموس ونحنُ نحثُّ الخطى: «هذا صحيح».

قلتُ مضيفًا: «ما نعنيه عادةً بهذه الكلمة، هو الانجذابُ نحوَ عملٍ شرّيرٍ ما، مثلَ الكذبِ أو السرقة، أو الزنى مثلًا، مفترضينَ أنّه سيمنحُنا متعةً أو يشبعُ لذّةً محرّمة».

قالَ الأبُ مكسيموس: «هذا جزءٌ صغيرٌ فقط ممَّا قصدَهُ الشيوخ. كما أوضحتُ بالأمس، يقصدُ الآباءُ بالتجربةِ كلَّ شيءٍ يُسبِّبُ مصاعبَ وأحزانًا. قد تكونُ التجربةُ إخفاقًا في بعضِ المساعي، أو إحباطًا، أو أيَّ شيءٍ يسبِّبُ لنا الشعورَ بعدمِ الرضى، أو القلقَ بأنَّنا لَسنا على الدربِ الصحيحِ نحوَ اللّه».

توقَّفَ الأبُ مكسيموس للحظة، إلتفتَ نحوي، وسأل: «أتذْكرُ ماذا عرضَ المسيحُ علينا أنْ نصلّي: 'لا تُدخِلْنا في تجربة...'».

قلتُ فيما استأنفْنا السير: «من جهةٍ أُخرى، سمعتُ شيوخًا يَدَّعونَ أنَّ التجاربَ هي لخيرِنا. وإنْ أُزيلتْ كلُّ التجارب، لنْ يخلصَ أحدٌ. ألا يحملُ هذا الكلامُ تناقضًا؟»

- «كلاَّ. إنَّه سوءُ فهمٍ للمعنى. المسيحُ يشيرُ إلى تلكَ التجاربِ التي لها سلطانٌ علينا ويمكنُ أنْ تؤذيَ نفوسَنا. لم يكنْ يتحدَّثُ عن التجاربِ التي تعترضُنا والتي لا مفرَّ منها. تجاربُ كهذه تصيرُ مفيدةً روحيًّا إنْ أحسنَّا التعاملَ معَها».

- «كيفَ يكونُ ذلك؟»

- «يعلِّمُنا الآباءُ الشيوخُ أنَّ ما من أحدٍ محصَّنٌ تجاهَ التجارب. فالخطأةُ كما القدّيسونَ يُعانونَ جميعُهم من كُلِّ أنواعِ التجاربِ والمِحَن. المعاناةُ هي جزءٌ مكمِّلٌ للحالةِ البشريَّة. في الحقيقة، أحزانُ القدّيسينَ العظماءِ وآلامُهم يمكنُ أنْ تكونَ أشدَّ حدَّةً بكثيرٍ منْ معاناتِنا.

أترى يا كيرياكو، معظمُنا لا يَعِي طرقَ عملِ القوانينِ الروحيَّةِ في حياتِنا. لذا نَتشكّى، ولا نصبرُ إذا اعترضَ سبيلَنا من الصعوباتِ أو الاستفزازات أتفهُها. نتمرمرُ ونستاءُ متعجّبينَ: لماذا نُهاجَمُ نحنُ بهذِه المحنةِ أو تلك، أو سوءِ الحظّ هذا دونَ الآخرين!؟»

- «إنَّه سؤالٌ قديمٌ، لماذا تصيبُ المآسي الناسَ الصالحين؟»

- «سببُ طرحِنا أسئلةً كهذه، يعودُ إلى جهلِنا للقصدِ الحقيقيِّ من وجودِنا. لو علِمنا، لكنَّا رحَّبْنا كالقدّيسينَ بهذه التجارب، على أنَّها فرصٌ للتقدُّمِ الروحيّ».

بقينا بضعَ ثوانٍ صامتَينِ مركّزَينِ انتباهَنا، إذْ كنَّا نعبرُ منعطفًا وعرًا.

قلتُ مقترحًا: «من الصعبِ جدًّا، أنْ يحافِظَ المرءُ على وجهةِ النظرِ هذه، في مواجهةِ الحزنِ الشديد. لكن، كيفَ يفسّرُ الشيوخُ أسبابَ معاناةِ البشر؟»

- «يميّزونَ أسبابًا شتَّى في تعاليمِهم»، أجابَ الأبُ مكسيموس ونحنُ ندخلُ منطقةً مشجّرةً مغطّاةً على طولِ الطريقِ بأوراقِ الصنوبرِ الإبريَّة، وتابع: «قد تكونُ أعمالُنا السالفةُ أحدَ الأسباب. هذا جزءٌ من القانونِ الروحيِّ الذي بواسطتِه يحكمُ اللهُ الكون. إنَّه قانونُ السببِ والمُسَبّب».

قلتُ متمتمًا: «إنْ حييتَ بالسيف، فبالسيفِ تموت».

أكّدَ الأبُ مكسيموس: «لا أحدَ محصَّنٌ إزاءَ هذا القانون، نحنُ أحرار. عندما نُفكّرُ ونتصرَّفُ وَفقَ طرقٍ تفصلُنا عن الله، فإنَّ هذا التغرُّبَ يهيّئُ أرضًا

خصبةٌ لوقوعِ أحداثٍ مؤلمة. سوفَ تحتشدُ قوى الشرِّ ضدَّنا. هلْ تعرفُ لماذا؟ لأنّنا أعطَينا الضوءَ الأخضرَ لأحداثٍ أليمةٍ كي تعترضَ طريقَنا. إذا سرقْنا مثلًا، ستلاحقُنا الشرطةُ وينتهي بنا المطافُ في السجن. لم يعاقبْنا اللّٰه، بل النتيجةُ الطبيعيّةُ لأعمالِنا».

أشرتُ: «هذا أمرٌ يسهلُ فهمُه، لكنْ ماذا عنِ التجاربِ المؤلمةِ التي تُصيبُنا دونَ أيِّ سببٍ ظاهر. قد يدَّعي المشكّكونَ أنَّ حُججًا من هذا النوع، غالبًا ما تُستخدمُ لِلَومِ ضحايا أبرياءَ لأجلِ معاناتِهم. على سبيلِ المثال، إذا أُصِبْتَ بمرضِ السرطان، فلا بدَّ أنَّكَ عملتَ أمرًا سيئًا، لا تتذكَّرُه. إنَّكَ تدفعُ الآنَ ثمنَ آثامِكَ السالفة».

- «القانونُ الروحيُّ للسببِ والمُسَبَّب هو أحدُ المصادرِ المحتملةِ لمثلِ هذه التجارب. لكنّه ليسَ الوحيد».

سألتُ بدهشةٍ: «هلْ هناكَ قوانينُ روحيّةٌ أُخرى؟»

- «بالطبع. يتعرَّضُ الناسُ الصالحون، وحتّى القدّيسون، في كثيرٍ من الأحيان، إلى تجاربَ عسيرةٍ مؤلمةٍ لأجلِ مساعدتِهم على التقدُّمِ في المسارِ الروحيِّ أو لأسبابٍ أُخرى».

وإذ لاحظَ نظرةَ تساؤلٍ واستفسارٍ على وجهي، تابعَ الأبُ مكسيموس مستفيضًا: «دعْنا نفترضُ بأنّنا متعمّقونَ روحيًّا، نصلّي إلى اللّهِ نهارًا وليلًا لخلاصِ نفوسِنا. لكنْ، في الوقتِ عينِه، لا نبذلُ جهدًا كافيًا لنيلِ ما نشتهيهِ فوقَ كلِّ شيءٍ، وهو الاتّحادُ باللّٰه. ببساطة، قدْ نفتقرُ إلى الزخمِ الكافي لبلوغِ هذه

الحالة. ومن المحتملِ أيضًا، ألاَّ نكونَ مُدركينَ بأنَّ بعضَ ما نفعلُهُ أو لا نفعلُه، قد يكونُ مؤذيًا لتحقيقِ هذا الاتِّحاد. نحرمُ أنفسَنا من التقدُّمِ، الذي كُنَّا قادرينَ أنْ نحرزَهُ نظرًا لطاقاتِنا ودرجةِ نموِّنا الروحيّ».

قلتُ معلِّقًا: «يُمكنُنا أنْ نشبِّهَ الأمرَ بحالةِ الطلابِ المتعهِّدينَ النجاح والذين لا يبذلونَ جهدًا كافيًا لبلوغِ الطاقةِ التي يملكونَها».

- «أحسنت. المعلّمونَ الصالحونَ الذين يهتمُّون لخيرِ طلاَّبِهم، يلجأونَ أحيانًا إلى العقاب، لكي يُحفِّزُوا الطلاَّبَ على بذلِ جهدٍ أكبرَ لبلورةِ مواهبِهم المتأصِّلة. لدى الطلاَّبِ إمكانيَّاتٌ عظيمة، لكنْ، ربَّما بسببِ الجهلِ أو الكسل، قد لا يُمارسونَ جهدًا كافيًا. من نحوٍ مماثل، نُخفقُ في أغلبِ الأحيانِ في إدراكِ أنَّهُ يلزمُنا الكثيرُ من التركيزِ والجِدِّيَّةِ في حياتِنا الروحيَّة. 'تُسرَقُ' قلوبُنا، كما يقولُ الآباء، في اهتماماتِ الحياةِ اليوميَّة، فلا ننمو كما يجب. ولكنْ في الوقتِ عينِه، نلتمسُ بحرارةٍ نعمةَ الربّ. بفعلِنا هذا، نمنحُ الربَّ الحقَّ في مساعدتِنا للتقدُّمِ في السبيلِ الروحيّ. هذا العونُ لا يتمُّ بضربٍ من السحر، بل من خلالِ الأحداثِ الجاريةِ معَنا. أتتذكَّرُ الحادثةَ التي أخبرتُك بها عن الشيخِ بايسيوس؟»

- «أيَّةَ حادثة؟!»

- «عندما تضرَّعَ للربِّ بحرارةٍ ليجعلَ قلبَهُ متواضِعًا فيستحقَّ معاينةَ الخالق. تفضَّلَ عليه الربُّ وخلقَ تلكَ الحادثةَ مع الكاهنِ الذي أذلَّهُ في الكنيسةِ وهوَ على وشكِ التناول. أتَذْكُر؟»

- «نعم، نعم. أتذكَّرُ تلكَ الرواية».

- «إذًا، إنْ طلبْنا التواضع، عندئذٍ يسمحُ اللهُ لحادثةٍ أنْ تجريَ في حياتِنا، فتُساعدُنا لنيلِ هذا الهدف. اللهُ لا يتدخَّلُ البتَّةَ ما لم نسمحْ له نحنُ بذلك».

قلتُ ممازحًا: «من الآنَ فصاعدًا، الأفضلُ أنْ أكونَ حذرًا في ما أطلبُه».

ثمَّ تابعَ الأبُ مكسيموس كلامَهُ موضِحًا أنَّ المطلوبَ في مثلِ هذه الظروفِ هو إدراكُنا أنَّ هذا الحدثَ هو هبةٌ روحيَّة. «لأنَّنا إذا ما تفاعلْنا سلبيًّا معَ الاختبارِ واستنتجْنا أنَّ اللهَ نسِيَنا أو لمْ يستمعْ إلى صلواتِنا، عند ذاك قدْ نفقدُ فرصةَ الاستفادةِ من الشيءِ عينِه الذي صلَّيْنا من أجلِه».

- «ما تقولُه يختلفُ بعضَ الشَّيءِ مع فكرةِ الكَرمًا karma[١١٤] الشرقيَّة، حيثُ إنَّ ما يحدثُ لنا هو نتيجةٌ حتميَّةٌ لأفعالِنا السالفة».

*- «لا أدري ما معنى ذلك. ما أعرفُه، وَفقًا لتعاليمِ الشيوخِ القدِّيسين، هو أنَّ هناكَ أسبابًا عديدةً للأمورِ السيِّئةِ التي يتعرَّضُ لها الناس.

*وبالإضافةِ إلى قانونِ السببِ والمُسَبِّبِ، والقانونِ المتعلِّقِ بالنموِّ الروحيِّ، قد يُعاني الكائنُ البشريُّ من أجلِ الآخرين، عبرَ قانونِ المحبَّةِ وقوَّتِها. ينطبقُ

١١٤ الكَرمًا: العاقبة الأخلاقيّة الكاملة لأعمال المرء في طَور من أطوار الوجود بوصفها العامل الذي يقرّر قَدَرَ ذلك المرء (في الإعتقاد البوذيّ) في طورٍ تناسخيّ تالٍ. أي مجمل أعمال الإنسان التي تقرّر مصيره في الآخرة.

هذا، على وجهِ الخصوص، على المرشِدينَ الروحيّين. فبطريقةٍ سرِّيّة، غالبًا ما يأخذونَ على عاتقِهم أعباءَ تلاميذِهم، مخفِّفينَ بذلك منْ ثقلِ دَينِهم. فتنتقلُ أحزانُ التلميذِ وتجاربُهُ إلى المرشدِ الروحيِّ. يُعرفُ هذا القانونُ بـ'بذلِ الذات'».

- «أفترضُ أنّه مشابهٌ لحَمْلِ المسيحِ خطايا العالم».

- «بالضبط. المسيحُ هو النموذجُ الأصليُّ الذي نتّبع. لذا، أولئكَ القادةُ الروحيُّون، بتقليدِهم للمسيحِ عبرَ بذلِ الذات، يمكنُ أنْ يخفِّفوا من نيرِ شعبِهم، بحَمْلِهم الكثيرَ عنه. وهذا يقودُ غالبًا إلى أضرارٍ جسديّةٍ خطيرة، وحتّى إلى الموت».

- «حقًّا، ماتَ معظمُ تلاميذِ المسيحِ ميتاتٍ فظيعة، بالصلبِ، بقَطْعِ الرأس، أو ما شابه. سمعتُ أيضًا عن قدّيسينَ مُعاصرينِ ماتوا بمرضِ السرطان، كالشيخِ پاييسيوس».

- «هنالكَ آلافُ الأمثلةِ في تاريخِ الكنيسة. فالقدّيسُ أثناسيوس الآثوسيّ، مؤسّسُ ديرِ اللافرا الكبير، أوّلِ ديرٍ شُيِّدَ على جبلِ آثوس في القرنِ العاشر، سقطَ من أعلى الكنيسةِ أثناءَ العملِ في بنائِها. ويحقُّ للمرءِ أنْ يتعجّبَ: أيجوزُ أنْ تكونَ نهايةُ قدّيسٍ عظيمٍ على هذا النحوِ الرهيب!»

إذْ تحرَّكَتْ داخلي مشاعرُ الشكّ، قلتُ بإفعامٍ حيويٍّ: «ألا يمكنُ للمرءِ أنْ يفسّرَ الأمر، ببساطة، أنّه حادثٌ مأساويٌّ».

ضَربَ الأبُ عصاه بالأرضِ مؤكِّدًا: «لا وجودَ لحوادثَ عَرَضيّة، ولا لِمُصادفات. لا شيء، لا شيءَ على الإطلاقِ يحدثُ في الكونِ دونَ أنْ يحملَ في طيّاتِه معنى. ذاكَ القدّيسُ العظيمُ، إتّبعَ مثالَ المسيح. إقتبلَ في نفسِه أعباءَ تلاميذِه من أجلِ التقدُّمِ الروحيِّ للديرِ الذي كان مُنشغلًا في إنشائه».

صمَتَ الأبُ مكسيموس لبرهةٍ قصيرةٍ، كما لو أنّه يُعطيني الوقتَ عمدًا للتأمُّلِ في مغزى ما قالَه، ثمّ تابعَ كلامَه: «أتريدُ معرفةَ أمرٍ آخر؟ إنَّ قانونَ بذلِ الذات، يمكنُ أنْ يعملَ من نحوٍ سلبيٍّ أيضًا».

- «من نحوٍ سلبيٍّ!»

- «نعم، هذا جزءٌ من سرِّ كيفيَّةِ عملِ القوانينِ الروحيَّةِ في الحياة. تمامًا كما بوسعِ الشيوخِ القدّيسينَ اتّخاذَ أعباءِ الآخرينَ بطريقةٍ إيجابيَّةٍ مُحبَّةٍ للغير، فنحنُ الآخرين، ودونَ إدراكِ ذلك، قد نتّخذُ أعباءَ من نُسيءُ معاملتَهم. مثلًا، إذا ما شهَّرْنا بأناسٍ أو نشرْنا الأكاذيبَ عنهم، وهؤلاءِ لمْ يعامِلونا بالمثل، إذّاك قدْ يتحوَّلُ إلينا جزءٌ من أعبائِهم ومآسيهم وتجاربِهم، لأنّنا نحنُ المذنبونَ، مُسبِّبو الأذيَّةِ لهم. بحالاتٍ كهذه، يكون بذلُ الذاتِ بالطريقةِ السلبيَّة».

حلَّلتُ مفتكرًا: «لكنْ إنْ كانَ هذا هو واقعَ الحال، إذًا، مَنْ يؤذينا، في الواقعِ، يُحسنُ إلينا. رُبَّ من يجادلُ أنَّ هذا أمرٌ غريبٌ للغاية، على الأقلِ من وجهةِ نظرِ الإدراكِ الاعتياديِّ المألوف».

- «غريبًا كانَ أم لا، هذه هي، بالضبط، تعاليمُ الآباء. هنالكَ قوانينُ روحيَّةٌ تعملُ ولا يعلمُ معظمُ الناسِ عنها أيَّ شيء. لذا، إنْ آذانا الآخرون نميلُ

عادةً إلى الردِّ بالمثل، مفترضينَ أنَّ علينا الدفاعَ عن أنفسِنا، عن اسمِنا، شرفِنا، مهنتِنا، وهلمَّ جرًّا. نحنُ، في الواقع، لا نصيبُ سوى أنفسِنا».

- «لكنْ أليسَ من الطبيعيِّ أنْ نتصرَّفَ هكذا؟! لا ينفكُّ المعالجونَ النفسانيُّون عن تذكيرِنا أنَّه إذا ما سمحْنا للآخرينَ بِدَوْسِنا، سنعاني من مشاكلَ جمَّة. سنفقِدُ الثقةَ بالنفسِ ونغدو مَداسًا لمُعذِّبينا. ألا تجِدُ سعيَنا لحمايةِ أنفسِنا والدفاعِ عن حقوقِنا أمرًا طبيعيًّا؟»

- «قد يكونُ رَدُّ الفعلِ أمرًا طبيعيًّا، لكنَّه ليسَ بالضرورةِ الرَدَّ الصحيحَ دائمًا. أعرفُ أنَّه ليسَ من السهلِ قبولُ هذا المبدإ الروحيِّ، لكن، هذه هي قواعدُ عملِ القوانينِ الروحيَّة. ما نعتبرُهُ دفاعًا مبرَّرًا عن حقوقِنا قدْ يدفعُنا، في الواقع، إلى الغوصِ في حلقةٍ مفرَغة، يمكنُها أن تزعزعَ ركيزتَنا الروحيَّة. في اعتمادِنا ردَّ التعدِّي بتعدٍّ، نفقدُ، في الواقع، كلَّ فرصةٍ للاستفادةِ الروحيَّةِ من التجربة. يوضِّحُ هذا القانونُ أيضًا لماذا عندما يُضربُ القدِّيسونَ، يديرونَ، حرفيًّا، الخدَّ الآخر».

* * *

بينما كانَ الأبُ مكسيموس يتكلَّم على قانونِ البذل، اتَّضحَ لي سببُ رفضِهِ الدفاعَ عن نفسِهِ أمامَ فيضِ الاتِّهاماتِ التي رشقَهُ بها، دونَ رحمةٍ، أحدُ الأساقفةِ المحلِّيِّين منذُ وصولِه إلى الجزيرة. أعلنَ الأسقفُ مرارًا أنَّ الأبَ مكسيموس هو جزءٌ من مؤامرةٍ حاكَها الرهبانُ الآثوسيُّونَ للإستيلاءِ على الكنيسةِ القبرصيَّةِ المستقلَّة. وحينما أخفقتْ هذه الوسائلُ في إقناعِ أيِّ كان،

بدأَ الأسقفُ بنشرِ إشاعاتٍ عن تورُّطِ الأبِ مكسيموس في أفعالٍ جنسيَّةٍ غيرِ لائقة. فقامَ بعضٌ من تلاميذِ الأبِ مكسيموس، إذِ اشمأزُّوا من تصرُّفاتِ الأسقف، بتشكيلِ لجنةٍ ضمَّتْ عدَّةَ محامينَ للدفاعِ عنهُ ضدَّ ما اعتبروه تُهمًا باطلةً وأكاذيبَ خبيثة. فلمَّا اكتشفَ الأبُ مكسيموس هذه المبادرة، طلبَ من المحامينَ أنْ يوقفوا كُلَّ هذه النشاطاتِ فورًا ويتركوا الأسقفَ يقولُ ما يشاء، موضحًا لهم أنَّه يفضِّلُ وضْعَ رجائِه كلِّيًا على العنايةِ الإلهيَّة. لذا هو لا يحتاجُ إلى محامي دفاع. نتيجةَ ذلك، خَزِيَ الأسقفُ، جزاءَ أعمالِه فيما ارتفعتْ شعبيَّةُ الأبِ مكسيموس كزعيمٍ روحيٍّ ممتلئٍ بالنعمِ الإلهيَّة. على ما يبدو أثمرَ قانونُ البذل.

تابعَ الأبُ مكسيموس كلامَه، أنَّه بالإضافةِ إلى قانونِ السببِ والمسبَّبِ، وقانونِ التقدُّمِ الروحيِّ، وقانونِ البذل، فإنَّه يمكنُ أنْ تحدثَ مساوئُ للناسِ بسببِ حقدِ الأرواحِ الشرِّيرة. المثلُ الكلاسيكيُّ هو حالةُ أيُّوبَ الصدِّيقِ في العهدِ القديم:

- «فَقَدَ أيُّوب كلَّ ما يملِك، ماتَ جميعُ أبنائِه وبناتِه، نبذَهُ الجميعُ حتَّى زوجتُه. هذا الذي كانَ رجلًا سعيدًا، غنيًّا، ناجحًا في أعمالِه، وعادلًا، غيرَ مؤذٍ لأحدٍ في حياتِه، مُحسنًا لكلِّ من يقصدُه، أصيبَ بالجذام(أي البَرص) واضطرَّ للعيشِ فوقَ أكوامِ القُمامة. بلغَ قِمَّةَ اليأسِ التي تفوقُ تحمُّلَ البشر، حتَّى إنَّهُ تمنَّى لو لم يولد. والأسوأُ من ذلك، أنَّه اختبرَ صمتَ اللّه».

- «صمتَ اللّه!»

- «نعم، الشعورُ بأنَّ اللّهَ غائبٌ عن حياتِنا، أنَّه غيرُ موجود، أنَّه يسمحُ دونَ رحمةٍ للشرِّ أنْ يُنزِلَ الضرباتِ بالبشر».

قلتُ: «كانَ هذا بالتأكيدِ شعورَ الناسِ حينَما ساقَهم النازيّون إلى غرفِ الغاز».

* - «نعم. في مثلِ هذه الظروفِ القاسيةِ التي تفوقُ كلَّ تحمُّلٍ للبشر، يمكن للإنسانِ أنْ يصِلَ إلى قِمَّةِ اليأس، فيما يبقى اللّهُ صامتًا كما في حالةِ أيُّوب. تذكَّرْ كم عيَّرَهُ أصدقاؤه القدامى محاولينَ استفزازَه، سائلينَه: 'أينَ هو إذًا إلهك؟[115]'.

فجأةً، في حالةِ اليأسِ القُصوى هذه، تكلَّمَ اللّهُ معه، كاشفًا له طبيعتَهُ الحقيقيّة. حينذاك، نطقَ أيُّوب بهذه الكلماتِ التي لا تُنسى: 'بسمعِ الأذنِ قد سمعتُ عنكَ، والآنَ رأتْكَ عيناي. لذلك أَزدري بنفسي، وأتوبُ في الترابِ والرماد[116]'. في ذروةِ اليأس، عاينَ اللّهَ مباشرةً».

تابعَ الأبُ مكسيموس فيما كنّا نخرجُ من المنطقةِ المشجَّرة: «إعتادَ أحدُ شيوخِنا أنْ يردِّدَ على مسامعِنا أنَّ اللّهَ يعلنُ عن نفسِه، في الذروة. في تلكَ المرحلةِ القُصوى، حينَ يفقدُ المرءُ صبرَه، قد يعلنُ اللّهُ عن ذاتِه».

قلتُ معلِّقًا: «أفترضُ أنَّ هذا ما حدثَ مع الشيخِ إفرام».

---

١١٥ كانت آلام أيّوب جسديّة وفكريّة وانفعاليّة وروحيّة. ورغم كلّ هذه الآلام التي رآها آتية عليه من الله. لم يجدّف على الله. صرخَ من شدّة الألم دون أن يتحدّى الله أو يعترض. فعبّر عن تعزيته في تمسّكه بالله قائلا: 'لا تزال تعزيتي وابتهاجي في عذاب لا يشفق أنّي لم أجحد كلام القدّوس'. (أيوب ٦: ١٠).

١١٦ أيوب ٥: ٤٢.

- «تمامًا. إنّه اللّهُ ذاتُهُ الذي أعلنَ نفسَه لكلَيهما».

* * *

مرّةً أُخرى، مشَينا في صمتٍ حتّى وصلْنا إلى منسكِ القدّيسِ يوحنَّا، وهو مبنًى حجريٌّ صغيرٌ ذو سقفٍ قرميديٍّ يمتزجُ في شكلٍ رائعٍ بالبيئةِ الجبليّةِ المحيطةِ به. يقعُ على حافّةِ منحدرٍ مع شرفةٍ ضيّقةٍ جهةَ الشرق. في الجوار، شجرةُ صنوبرٍ ضخمةٌ عاليةٌ تظلّلُ المنسكَ أثناءَ ساعاتِ النهارِ الحارّة. بدا المنسكُ مكانًا نموذجيًا لحياةِ الصلاةِ والتأمُّلِ، والسكونِ المطلق.

فتحَ الأبُ مكسيموس البابَ وتوجّهَ مباشرةً إلى الكنيسةِ الصغيرة. رسمَ إشارةَ الصليبِ وضربَ عدّةَ مطّانيّات، ثمّ توجّهَ نحوَ إيقونتَي السيّدِ والسيّدةِ وقبّلَهما، فإيقونةِ القدّيسِ يوحنّا. من ثمّ ملأ المصابيحَ المعلّقةَ أمامَ تلكَ الإيقوناتِ بالزيتِ وأضاءها، وراحَ يبخّرُ، فيما امتثلْتُ جانبًا، متابعًا كلَّ خطوة.

وفيما كنتُ أتساءلُ لماذا يشعلُ القناديلَ، ونحنُ سوفَ نغادر، قال مبتسمًا: «يحبُّ القدّيسونَ ذلك».

بعدَ إتمامِهِ هذا الطقس، جلسْنا على مقعدٍ في الساحةِ أمامَ الكنيسةِ للاستراحة. تأمّلتُ لبضعِ دقائقَ في المدى الطبيعيِّ الممتدِّ أمامَنا ثمَّ استأنفتُ الحديث: «بما أنَّ مسبّباتِ التجاربِ التي نواجهُها متنوّعة، كيفَ يمكنُ التمييزُ إنْ كانتْ ناتجةً عن أعمالٍ سالفةٍ أو عن شيءٍ آخر؟ إنْ أُصيبَ أحدٌ ما بمرضِ السرطان، كيف يمكنُه معرفةُ إذا ما كان ذلك نتيجةَ قانونِ السببِ والمُسبَّبِ أو قانونِ البذلِ مثلًا؟»

- «ليسَ بوسعِكَ أنْ تعرفَ ذلك. إنَّه سرٌّ ليسَ للعقلِ البشريِّ أنْ يدركَه. الحقيقةُ الوحيدةُ التي يمكنُ أنْ نؤكِّدَها، هي أنَّ هنالكَ قوانينَ روحيَّةً تَعملُ كما حدَّدَها الآباءُ القدِّيسونَ المُعاينونَ اللّٰه. أمَّا عن كيفيَّةِ عملِ تلكَ القوانينِ في حالاتٍ معيَّنة، فهذا يعلَمُهُ اللّٰهُ وحدَه».

استنتجتُ: «إذًا، عبثًا تبحثُ عن الأسباب».

- «ليسَ البحثُ عقيمًا فقط، بل يمكنُهُ أنْ يُقوِّضَ حياتَنا الروحيَّةَ أيضًا».

- «آ، أُدرِكُ ما تعنيه. تتورَّطُ 'الأنا' بطريقةٍ لا يمكنُ تجنُّبُها في مثلِ هذا البحث. وعليه، نلتهي عن جهادِنا للتغلُّبِ على أهوائِنا وضعفاتِنا».

وافقَ الأبُ مكسيموس ونصحَ بالتركيزِ على كيفيَّةِ مجابهةِ كلِّ تجربةٍ بغضِّ النظرِ عن أسبابِها: «يُعلِّمُ الآباءُ القدِّيسونَ أنَّ كلَّ ما يصادفُنا قد يتحوَّلُ إلى تجربة».

- «مثلًا؟»

- «الفقر، الإزدهار، السعادة، الحزن، الصحَّة، المرض، النجاح، الفشل، أيٌّ من تلكَ الحالاتِ التي نواجِهها يمكنُ أنْ تتحوَّلَ إلى تجارب».

- «يمكنُني أنْ أرى التجربةَ في حالةِ العوز، المرض، الحزن، الفشل، لكنْ من الصعبِ رؤيتُها في حالاتِ السعادةِ، الإزدهار، النجاح!»

أجابَ الأبُ مكسيموس: «يعلِّمُ الآباءُ أنَّ الغنى والنجاحَ الزمنيَّ يمكنُ أنْ

يتحوَّلا إلى تجاربَ هائلةٍ إنْ أَسَرَا قلبَكَ وفكرَكَ في هذا العالم، أو حوَّلاكَ إلى متغطرسٍ مغرور. والمبدأُ ذاتُهُ ينطبقُ على حالاتِ السعادةِ والصحَّة، وما إلى ذلك. لذا، أمامَ كلِّ حالةٍ محسوسة، يجبُ أنْ نُذكِّرَ أنفسَنا أنَّنا في هذه الفترةِ الزمنيَّةِ نخوضُ هذه التجربةَ على وجهِ التحديد. ماذا علينا أنْ نعملَ وكيفَ نتصرَّفُ في حالةٍ مماثلة؟ لنفترضْ أنّي ثريٌّ. كيفَ عليَّ مواجهةُ ثَرائي روحيًّا؟ أو لنفترضْ أنّي رجلٌ فقير. كيفَ يمكنُني أنْ أواجِهَ فَقْري روحيًّا؟ أو لنفترضْ أنّي رجلٌ سعيد. كيفَ يُمكنُني أنْ أواجِهَ سعادتي روحيًّا؟ لديَّ مشاكلُ عائليَّة: كيفَ يُمكنُني تخطّي صعوباتي روحيًّا؟ هل تتابعُ ما أقول؟ لاحِظْ أنَّ الشيوخَ القدِّيسين، أولئكَ الأرواحَ البارَّة، كقاعدةٍ عامَّة، يعتبرونَ أنفسَهم أسبابَ كلِّ مشكلةٍ يواجهونها».

أجبتُ: «يصعبُ على البشرِ أمثالي أنْ يُدركوا ما قلتَه».

انتصبَ الأبُ مكسيموس وقال: «فكِّرْ في الأمرِ فقطْ من هذا النحو: ذكَّرَنا المسيحُ أنَّ اللّهَ يعتني بطيورِ السماءِ وبكلِّ ورقةِ عشبٍ على الأرض. أَيُعقلُ ألاَّ يعتنيَ بنا؟ إنْ كانتْ كلُّ شعرةٍ على رأسِنا هي ضمنَ عنايةِ اللّه، فكم بالحريِّ ما يختصُّ بأمورٍ جِدِّيَّةٍ في حياتِنا؟ إنْ رسَّخْنا هذا في ذهنِنا كإيمانٍ عميق، إذًا، لِمَ اليأس؟ حتَّى وإنْ كانتِ الأحزانُ التي نختبرُها ناتجةً عن خطايانا، فبالصبرِ نحوِّلُها إلى فوائدَ روحيَّة. اللّهُ يملِكُ التِّرياقَ ليحوِّلَ ما اقترفناهُ من شرٍّ إلى صلاح. قد تسأل، لماذا؟ لأنَّ اللّهَ لا يبلغُ نهاياتٍ مسدودة، اللّهُ لا يُهزم. كذلك، شرورُ الإنسانِ لا تَغلِبُ حكمةَ اللّه غيرَ المتناهية. حتَّى الشرورُ التي يرتكبُها أفظعُ المجرمينَ، لا تَغلِبُ محبَّةَ اللّه».

كلماتُ الأبِ مكسيموس كانتْ مشحونةً بإحساسٍ هائل. كانَ إيمانُهُ المطلقُ بعنايةِ اللّهِ بمثابةِ البلسمِ للعقولِ المُشكِّكةِ كمثلي، التي تعلَّمَتْ وتغذَّتْ لسنواتٍ طويلةٍ لاكتسابِ مزيَّةِ الشكّ.

أغلقَ الأبُ مكسيموس بابَ المنسك، وبدأْنا رحلةَ العودةِ سيرًا على الأقدام. إلتفتُّ نحوَه وقلت: «ما قلتَهُ الآن، ذكَّرَني بِداڤيد».

- «آ، داڤيد. داڤيد»، هزَّ الأبُ مكسيموس رأسَه كردَّةِ فعل: «أحسنتَ، إنَّه مَثَلٌ جيِّدٌ ينطبقُ تمامًا على ما كنَّا نتكلَّم عليه».

* * *

قبلَ سنتَين، استلمتُ رسالةً من داڤيد، وهو سجينٌ محكومٌ بالإعدام، كانَ قد قرأَ كُتُبي. كتبَ داڤيد أنَّهُ منذُ صدورِ حكمِ الإعدامِ في حقِّهِ تولَّدَ في داخلِهِ إهتمامٌ كبيرٌ بالروحانيّة. سألَني إنْ كانَ في إمكاني إقتراحُ إسمِ مرشدٍ يمكنُ له مراسلتُه. أعطيتُه عنوانَ الأبِ مكسيموس. بعدَ ثلاثةِ أشهر، كتبَ لي يُطلعُني أنَّه بدأَ مراسلةً منتظمةً مع الأبِ مكسيموس. وأنَّه لم يسبقْ لهُ أنِ اختبرَ هذا الكمَّ من المحبَّةِ ينهالُ عليه من إنسانٍ آخر. بالإضافةِ إلى الرسائل، أرسلَ له الأبُ مكسيموس كُتبًا تتضمَّنُ تعاليمَ الآباء، مثلَ الفيلوكاليا[117] والكتابِ الروسيِّ الكلاسيكيِّ "سائحٌ روسيٌّ على دروبِ الربّ". يبدو أنَّ تلكَ الكتبَ الروحيَّةَ وتَواصُلَهُ المنتظمَ مع الأبِ مكسيموس، أثَّرَتْ عميقًا فيه. كتبَ لي أنَّ أفضلَ

117 St. Nikodemos of the Holy Mountain and St. Makarios of Corinth, The Philokalia (translated from the Greek and edited by G. E. H. Palmer, Philip Sherrard, Kallistos Ware), vol. 1 (London: Faber and Faber, 1990).

حدثٍ جرى في حياتِه هو اعتقالُه. فهذا ما عرَّفَه على الحقائقِ الروحيَّةِ وخلَّصَهُ من أذًى إضافيٍّ لروحِه.

قد يكونُ الأمرُ صدفةً أو عنايةً إلهيَّة. فقبلَ سنواتٍ قليلةٍ من توقيفِه في السجنِ المشدَّدةِ حراستُه، شُيِّدَ ديرٌ آثوسيٌّ لا يبعدُ كثيرًا عن السجن، بأموالِ متبرِّعٍ من ولايةِ تكساس الأميركيَّة. هذا المتبرِّعُ كانَ قد شُفيَ بأعجوبةٍ على يدِ ناسكٍ آثوسيّ. اتَّصلَ الأبُ مكسيموس برئيسِ الدير، وهو راهبٌ أميركيٌّ سبقَ والتقاهُ في الجبلِ المقدَّس، وطلبَ منهُ أنْ يزورَ داڤيد. بعدَ تسعةِ أشهر، مُنِحَ الإذْنَ بالزيارة. لأنَّ إدارةَ السجنِ لم يسبقْ لها أنْ تعاملتْ مع الرهبان. فكلُّ السلطاتِ الروحيَّةِ التي زارتِ السجن، حتَّى ذلك الحين، إقتصرَتْ على الخدَّامِ والكهنةِ والحاخامات. مذَّاك، بدأَ الرهبانُ، ذوو اللُّحى الطويلةِ الملتحفونَ بثيابِهم السوداء، بزيارةِ داڤيد بانتظام. خصَّصوا له قانونَ تمارينَ روحيَّةٍ تتضمَّنُ الصلاةَ غيرَ المنقطعة، وسهرانيَّات، وقراءاتٍ آبائيَّة، وصيامات، ومطَّانيَّاتٍ أمامَ إيقوناتِ السيِّدِ المسيحِ والسيِّدةِ مريمَ الفائقةِ القداسة. إثرَ هذا النظامِ النسكيِّ الصارم، دخلَ داڤيد في حالةِ توبةٍ عميقة، في تغييرٍ جذريٍّ في قلبِه وعقلِه.

قالَ الأبُ مكسيموس: «لقدْ تغيَّرَ حقًّا، لكنَّ حكمَ الإعدامِ الصادرِ بحقِّهِ لم يتغيَّر».

وَفقًا للأبِ مكسيموس، قصَّةُ داڤيد لا تختلفُ عن قصَّةِ اللصِّ الذي صُلِبَ عن يمينِ المسيح، والذي في لحظاتِهِ الأخيرةِ خلَّصَ نفسَه جرَّاءَ توبتِه. ويقولُ الأبُ مكسيموس إنَّ الآباءَ القدِّيسينَ علَّموا أنَّ الإنسانَ يمكنُ أنْ ينالَ

ملكوتَ السماواتِ حتّى وهو يلفظُ أنفاسَه الأخيرة، على إفتراضِ أنّه دخلَ في توبةٍ صادقة. كلُّ ما حدثَ لداڤيد، أو ما قد يحدثُ لأيِّ إنسانٍ آخرَ في حالةٍ مشابهة، يجبُ أن يُرى ككشفٍ لإرادةِ اللّهِ وعنايتِه. لذا، يجبُ ألاّ ييأسَ المرءُ مهما تكنِ الظروف.

* * *

حثَّيْنا الخطى، إذِ الغسقُ قد لاح، وصلاةُ الغروبِ سوفَ تبدأُ بعدَ قليل، وسنتناولُ بعدَها وجبةَ عشاءٍ خفيفة. على مسافةِ ربعِ ميلٍ من الدير، إلتقَينا بالأبِ خريستوذولس راكبًا جرّارًا. هو الأكبرُ سنًّا بينَ رهبانِ دير الفائقةِ القداسة، في الستّيناتِ من عمرِه. أخبرَني استفانوس أنَّ الأبَ خريستوذولس أصبحَ راهبًا قبلَ سنواتٍ قليلةٍ فقط، بعدَ أنْ تُوُفِّيَتْ زوجتُهُ وتزوَّجَ أولادُهُ الأربعة. وبما أنّه كانَ مزارعًا معظمَ حياتِه، أُوكِلتْ إليه خدمةُ إدارةِ حقولِ الدير. لقد انتهى لتوِّهِ من حراثةِ أرضٍ على جانبِ الجبل، بمساعدةِ راهبَينِ مبتدئَينِ روسيَّينِ وعاملٍ رومانيّ. كان منهمِكًا بالزرع. دردشَ الأبُ مكسيموس معَهم لبِضْعِ دقائقَ حولَ محصولِ البطاطا. كانوا هم أيضًا في عجلةٍ يستعدُّونَ للعودةِ إلى الدير، فتركناهم وتابَعْنا السير.

وبينما اقترَبْنا من بوّابةِ الديرِ الخارجيّة، قلتُ: «يا أبتِ، لديَّ سؤالٌ واحدٌ أخيرٌ لليوم، ماذا يفهمُ الشيوخُ القدّيسونَ من 'إرادةِ اللّهِ وعنايتِه'؟»

- «هذا ما كنّا نتحدَّثُ عنْهُ طوالَ اليوم. لا عليك، بما أنَّ الوقتَ يداهمُنا دعْني أختصرُ الكلام. يُعلِّمُ الشيوخُ القدّيسونَ أنَّ إرادةَ اللّه تُظهرُ

ذاتَها بطرائقَ أربعٍ مختلفة. الطريقةُ الأُولى هي إرادةُ اللّه كَ'مَسرَّة Evdokia'. هذا ما يتمنّاه اللّهُ حقًّا».

- «لا أفهمُ قولَك».

- «إرادةُ اللّهِ كمَسرَّةٍ، كانتْ أنْ يصيرَ الإنسانُ الأوّلُ إلى اتّحادٍ دائمٍ معَه. هذا ما تمنّاهُ حقًّا قلبُ اللّه. لكنْ نتيجةَ السقوط، وُضِعتْ إرادةُ اللّهِ كمسرَّةٍ جانبًا، ثمَّ، بحسبِ ما يقولُ الشيوخُ القدّيسون، استبدَلَ اللّهُ المسرَّةَ بالتدبير».

لاحَظَ الأبُ مكسيموس الاستغرابَ الذي بدا على وجهي عندَ سماعي كلمةَ 'تدبير'، المرحلةِ الثانيةِ لإرادةِ اللّه. فسارعَ ليوضحَ أنَّ ما قصدَهُ الآباءُ من 'التدبير'، يختلفُ معناه عمّا يُفهمُ عادةً. «بدايةً، أرسلَ اللّهُ إبنَه. ثمَّ أَوجَدَ الكنيسةَ، وَضَعَ الأسرار... وما إلى ذلك. بكلامٍ آخر، وهبَ اللّهُ البشريَّةَ الساقطةَ منهجًا في كيفيّةِ التألُّه. أوجدَ 'تدبيرًا' للخلاصِ الروحيّ.

لكنْ مرَّةً أُخرى، أخفقَ الإنسانُ في الالتزامِ بهذه المرحلةِ الثانيةِ لإرادةِ اللّه. أخفقَ في الاستفادةِ ممّا أُعطيَ من أدواتٍ ليُعيدَ اتّصالَهُ المفقودَ مع خالقِه. ثمَّ، كُشِفَتْ لنا إرادةُ اللّهِ كَ'تنازل'. إذْ سمحَ اللّهُ للتجاربِ التي تبدو مؤلمةً، أنْ تضربَ الإنسانَ لكيما يتيَقّظَ لواقعِه ويجاهدَ بشغفٍ لإسترجاعِ قدسيَّتِه، حالتِهِ الأُولى. لم يكنْ ذلكَ ما تمنّاه حقًّا قلبُ اللّه. مع ذلك، سمحَ اللّهُ بالحوادثِ المؤلمةِ والتجاربِ على أنواعِها أنْ تحصلَ مع الإنسان، لكيْ يساعدَهُ للوصولِ إلى هدفِهِ الأسمى، ألا وهو استعادةُ حالتِهِ الإلهيّة».

قلتُ: «الأمرُ يشبهُ حالةَ مريضٍ مُجبَرٍ على تناولِ أدويةٍ مُرَّةِ المذاقِ لكيْ يتحسَّنَ حالُه. هنا يبدأُ قانونُ السببِ والمُسبَّبِ بالعمل».

أومأَ الأبُ مكسيموس وتابع: «حسنًا، وَفقًا للشيوخ، هنالكَ إعلانٌ رابعٌ لإرادةِ اللّه. هو ما يسمُّونه 'التخلِّي الإلهيّ' عن شخصٍ ما».

قلتُ متعجِّبًا: «أيُمكنُ للخالقِ أنْ يتخلَّى عن أحدِهم؟»

«هذا التخلِّي، هو مجرَّدُ فعلٍ محسوسٍ سريعِ الزوالِ وخارجيّ. بالطبع، لا يتخلَّى اللّهُ عنْ أحد. في الواقع، نحنُ من نتخلَّى عنِ اللّهِ ونقطعُ كلَّ علاقةٍ به. مع ذلك، حتَّى ضمنَ هذا الإعلانِ الرابعِ لإرادةِ اللّه، في ما يبدو تخلِّيًا، يبقى ممكنًا للبشرِ أنْ يبلغوا خلاصَهم، شرطَ توبتِهم الحقيقيَّة، كما كانَ الحالُ معَ داقيد».

وفيما دخلْنا باحةَ الدير، سألَ الأبُ مكسيموس: «هل ترى يا كيرياكو كمْ أنَّ الأمرَ، في الواقعِ، بسيط. ما إنْ ندرِكُ أنَّ كلَّ ما يحدثُ في حياتِنا، يتحرَّكُ ضمنَ عنايةِ اللّه، ضمنَ تلكَ المراحلِ الأربعِ لإرادتِه، حينذاك، لنْ نسمحَ بأنْ تخنقَنا الصعوباتُ والمآسي التي قد تعترضُ طريقَنا في الحياة».

قلتُ معلِّقًا: «بوسعِكَ فقط أنْ تفكِّرَ على هذا المنوالِ، إنْ كانَ هدفُكَ الرئيسيُّ الاتِّحادَ باللّه».

ردَّ الأبُ مكسيموس بنبرةٍ أقوى: «لكنْ هذا أساسُ وجودِنا، علاقتُنا مع اللّه. فكِّرْ في الأمر. يأتي الأهلُ ويتشكُّونَ من مشاكلَ عديدةٍ يواجهونَها مع

أولادِهم. فأُذكِّرُهم، أنَّ ما يعتبرونَه هم مشكلةً لدى أولادِهم ليسَ المسألةَ الأساسيَّة. الأهمُّ هو إنْ كانَ أولادُهم على علاقةٍ فعليَّةٍ مع اللّٰه الحيّ. إنْ لم يكنِ الأمرُ كذلك، فهذا الفراغُ سيمتلِئُ لا محالة، بالرذائلِ، كالمخدِّراتِ والاختلاطِ الجنسيِّ غيرِ الشرعيّ، والسُّكْر، والبطالة، وما إلى ذلك. لكنْ عندما يُؤسِّسُ الأولادُ علاقةً صحيحةً مع اللّٰه، آنذاكَ كلُّ المشاكلِ الأُخرى سوفَ تُحَلّ. هكذا تسيرُ الأمور».

* * *

وكرَّرَ الأبُ مكسيموس مرارًا أنَّ الكنيسةَ يجبُ أنْ تُرى كمُستشفًى روحيٍّ قادرٍ على شفاءِ الانشقاقِ بينَ الإنسانِ واللّٰه. وما إنْ يتمَّ هذا، كلُّ المشاكلِ الزمنيَّةِ الأُخرى سوف تُحلّ. مفهومٌ كهذا، هو على خلافٍ كلِّيٍّ مع طرائقِ التفكيرِ العلميِّ التي تدرَّبتُ عليها.

دخلْنا كنيسةَ الديرِ بعدَ دقائقَ قليلةٍ من بدءِ صلاةِ الغروب. رسمَ الأبُ مكسيموس إشارةَ الصليبِ وقبَّلَ إيقونةَ والدةِ الإلهِ الفائقةِ القداسة، ثمَّ توجَّهَ إلى المقعدِ المخصَّصِ له كرئيسٍ للدير. وقفتُ في الجهةِ الخلفيَّةِ من الكنيسة، في زاويةٍ مُظلمة، أُنصتُ إلى الترتيل، الفَنِّ الذي يعتبرُه الأبُ مكسيموس أساسيًّا في الحياةِ الروحيَّة. لذا، جاءَ بمعلِّمِ موسيقى بيزنطيَّة، ليُدرِّبَ رهبانَهُ على أداءِ التراتيلِ بطريقةٍ حسنة.

أثناءَ صلاةِ الغروب، بدأَ الرهبانُ بترتيل 'يا نورًا بهيًّا لقدسِ مجدِ الآب...'، أحدِ أفضلِ التراتيلِ البيزنطيَّةِ لديَّ، والتي تُرتَّلُ يوميًّا في صلاةِ

الغروب. رحتُ أُدندِنُ معَهم:

'يا نورًا بهيًّا لقدسِ مجدِ الآبِ الذي لا يموتُ
السماويِّ القدُّوسِ المغبوطِ،
يا يسوعُ المسيحُ،
إذْ قدْ بلغْنا إلى غروبِ الشمسِ ونظرْنا نورًا مسائيًّا،
نسبِّحُ الآبَ والابنَ والروحَ القدسَ الإله،
فيا ابنَ اللهِ المعطي الحياة،
إنَّك لمستحقٌّ في سائرِ الأوقاتِ أنْ تُسبَّحَ بأصواتٍ بارَّة،
لذلكَ العالمُ لك يُمجِّد!'

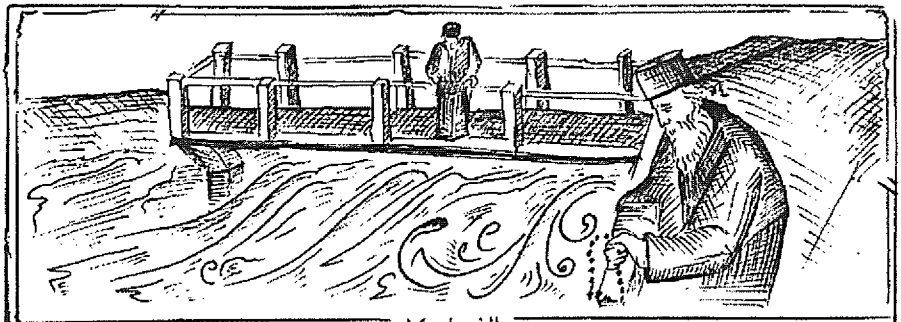

الفصل ١٤

الصلاة غير المنقطعة

في فترةِ العصر، تنزّهْنا قليلًا وجلسْنا على مقعدٍ تحتَ شجرةِ سنديانٍ مظلّلةٍ تُشرفُ على ديرِ الفائقةِ القداسةِ، فقالَ الأبُ مكسيموس: «كثيرٌ من الناسِ ممّنْ يقصدونَ ديرَنا هنا أو يزورونَ جبلَ آثوس، يفترضونَ أنّنا، نحنُ الرهبانَ، نملِكُ وصفاتٍ سِحْريّةً أو أسرارًا خفيّة. ويتوقّعونَ أنّه متى أُعطُوا تلكَ الوصفاتِ السرّيّةَ سيغدونَ على دربِ الكمالِ الروحيّ. لستُ على علمٍ بتلكَ الأسرار!»

* وفيما كانَ الأبُ ينقلُ حبّاتِ مسبحتِهِ بينَ أصابعِ يدَيه، أوضحَ أنّه وَفقًا لتعاليمِ الشيوخ، طريقُ الكمالِ الروحيّ هو المشاركةُ التامّةُ في منهجِ الكنيسةِ فقط لا غير، والذي يَفترضُ الصلاةَ، والصوم، والطاعةَ لشيخٍ، والاعتراف، والتوبة، وتناولَ القرابينِ المقدّسة، وقراءةَ كلمةِ اللهِ وكتاباتِ الشيوخِ المستنيرين، وما إلى ذلك. قال هازئًا: «ليسَ عندَنا أسرارٌ ووصفاتٌ غامضةٌ لكيفيّةِ الوصولِ إلى الله. حالما تبدأُ أنتَ بالمشاركةِ في المناهجِ التي حدَّدَتْها الكنيسةُ، تتقوّى وترتفعُ روحيًّا. تُمنحُ الغذاءَ الروحيَّ المخصّصَ لك».

تساءلتُ: «هلْ يحدثُ هذا تلقائيًا؟»

«أنظرْ إلى الأمرِ من النحوِ التالي: الكنيسةُ هي مثلُ المنِّ الذي به قاتَ اللهُ العبرانيّين الجياع[١١٨]. كانَ المنُّ الطعامَ نفسَهُ للكلّ. رغمَ ذلك، تحوَّلَ هذا المنُّ بنعمةِ اللهِ بطريقةٍ ما، ليغذِّيَ كلَّ واحدٍ حسبَ حاجاتِه. لنقلْ إنَّ شخصًا ما كانَ في حاجةٍ إلى فيتامين ب، فالمنُّ وفَّرَ له ذلك. بينما آخرُ، كانَ في حاجةٍ إلى فيتامين د، مرَّةً أُخرى، تحوَّلَ المنُّ عجائبيًّا إلى هذا الفيتامين. فاللهُ غذَّى شعبَه، بطريقةٍ فرديَّةٍ وشخصيَّة، كلاًّ حسبَ حاجتِه».

تابعَ الأبُ مكسيموس وهو يُمسِّدُ لحيتَه: «المبدأُ ذاتُه ينطبقُ على الكنيسة. فأثناءَ القدَّاسِ الإلهيّ، يتفعَّلُ الروحُ القدسُ داخلَ كلِّ فردٍ بطريقةٍ مختلفةٍ عن الآخر. قد يولِّدُ في أحدٍ ما إحساسًا عذبًا عميقًا، وفي آخرَ إحساسَ تبجيلٍ. يُعطى كلُّ شخصٍ ما يحتاجُه لنموِّه الروحيّ. لهذا، وكما ذكرتُ قبلًا، يجبُ ألَّا نقلقَ لمدى تقدُّمِنا».

وأشارَ الأبُ أنَّ درجةَ الإدراكِ والنضجِ الروحيّ تتفاوتُ كثيرًا بينَ البشر. لا يبلغُ الكلُّ العمرَ الروحيَّ عينَه. إلاّ أنَّ جميعَهم يجدُ الراحةَ ضمنَ الكنيسة، بالتحديد، لأنَّ الروحَ القدسَ يعملُ بهذهِ الطريقةِ السرِّيَّة، مانحًا كلَّ واحدٍ كمِّيَّةَ الغذاءِ المناسبةَ واللازمةَ له:

«خلافًا لما يعتقدُه البعض، لم يُعلَّمْ أيُّ إنسانٍ تعاليمَ سرِّيَّةً أدَّتْ إلى تقدُّمِه الروحيّ. من المؤكَّد، لا أحد. جميعُنا نبدأُ بشكلٍ بسيطٍ جدًّا ونتابعُ

---

١١٨ أنظر الإصحاح ١٦ من سفر الخروج.

على أساسِ تقبُّلِنا ومستوى نموِّنا. معظمُ تعاليمِ الآباءِ هي في الواقعِ تمارينُ عمليَّةٌ للتغلُّبِ على الكبرياءِ ولتنميةِ التواضعِ الحقيقيِّ والرحمةِ الحقَّة. ليسَ من حياةٍ روحيَّةٍ دونَ تواضعٍ حقٍّ. هذا من المسلَّمات».

ابتسمَ الأبُ مكسيموس إذْ تذكَّرَ حدَثًا من فترةِ ابتدائِهِ في الرهبنة: «أوَّلُ ما طلبَهُ منِّي شيخي، كانَ أنْ أمسحَ أرضَ الكنيسة. توقَّعتُ منه أنْ يرشِدَني إلى أسرارِ الصلاةِ الذهنيَّةِ وما إلى ذلك. بدلًا من ذلك، أعطاني مكنسةً واسفنجة، ودلوَ ماء...».

قاطعتُه: «الخبرةُ التي وصفْتَها للتوِّ مشابهةٌ لخبرةِ مبتدئٍ آخرَ ذهبَ إلى جبلِ آثوسَ ليصبحَ خبيرًا في الأسرارِ الروحيَّة». أخرجتُ من حقيبتي كتابًا كنتُ أقرأه. قلبتُ الصفحاتِ وبدأتُ بترجمةِ أحدِ النصوصِ إلى اليونانيَّة، جملةً تلوَ الأُخرى.

قرأتُ: «قبلَ سنواتٍ قليلة، توجَّهَ شابٌّ طامحٌ في الرهبنةِ إلى جبلِ آثوس. في حديثِه مع الرئيسِ المكرَّمِ للديرِ، حيثُ رغبَ أنْ يقيمَ، قالَ الشابُّ: 'يا أبتِ! قلبي يتحرَّقُ للحياةِ الروحيَّة، للنسكِ، للتواصلِ والاتِّحادِ الدائمِ مع اللهِ، للطاعةِ لأبٍ روحيّ. رجاءً، أرشدْني أبتِ القدِّيسَ لأتقدَّمَ روحيًّا'. ذهبَ رئيسُ الديرِ وأحضرَ كتابَ 'دايفيد كوبرفيلد' لكاتبِه شارلز ديكنز. قال: 'يا بنيَّ، إقرأ هذا'. إعترضَ الشابُّ المضطربُ: 'لكنْ يا أبتِ، هذه روايةٌ عاطفيَّةٌ ابتداعيَّةٌ من العصرِ الفيكتوريِّ، نتاجُ العبوديَّةِ الغربيَّة. هذا ليسَ كتابًا روحيًّا ولا حتَّى أرثوذكسيًّا! أحتاجُ إلى كتاباتٍ تعلِّمُني الروحانيَّة!'. إبتسمَ رئيسُ

الديرِ وقال: 'ما لم تُنَمِّ أوّلًا مشاعرَ مسيحيَّةً طبيعيَّةً وإنسانيَّة، وتتعلَّمَ أنْ ترى الحياةَ كما رآها دايفي الصغير – ببساطةٍ، بعذوبة، بحرارةٍ، بغفران – فكلُّ الروحانيَّةِ الأرثوذكسيَّةِ وتعاليمُ الآباءِ لنْ تُجديكَ نفعًا، لا بل ستحوِّلُك إلى وحشٍ روحيٍّ وستدمِّرُ روحَك'[119]».

عقَّبَ الأبُ مكسيموس: «أحسنت! هذا ما يُحذِّرُنا منه الشيوخُ مرارًا. المعرفةُ الروحيَّةُ بمفردِها، لا تقودُنا إلى اللهِ بل، في الواقع، قد تدفعُنا في اتِّجاهٍ معاكس. إذْ قدْ نستسلمُ إلى الإغراءِ ونَتخيَّلُ بأنَّنا، بسببِ سعةِ معرفتِنا، نحنُ المميَّزونَ لدى الله. قد تؤجِّجُ فينا الكبرياءَ والبطالة».

أعدتُ الكتابَ إلى حقيبتي وقاطعتُه ملحًّا: «أبانا مكسيموس، بعدَ بضعةِ أيّامٍ سأغادرُ الدير، ولا يزالُ لديَّ بعضُ الأسئلةِ أبغي استيضاحَها».

كان الأبُ يتأمَّلُ خليجَ مورفو المنبسطَ أمامَنا عبرَ الوادي تحتَ الدير. أجابَ: «حسنًا، ماذا تنتظر؟»

– «تُشدِّدُ دومًا على مركزيَّةِ الصلاةِ غيرِ المنقطعةِ في الحياةِ الروحيَّة. السؤالُ الذي قد يطرحُهُ العديدُ من الناس هو: لماذا الالتزامُ بالصلاةِ وليسَ بشيءٍ آخرَ، كالتأمُّل مثلًا؟ أوّلًا، ما غايةُ الصلاة؟ ثانيًا، كيفَ يمارسُ المرءُ الصلاةَ غيرَ المنقطعة؟»

حرَّكَ الأبُ مكسيموس حبَّاتِ مسبحتِه لبضعِ ثوانٍ واستجمعَ أفكارَه، ثمَّ

119 Monk Damascene Christensen, Not of This World: The Life and Teaching of F -ther Seraphim Rose, Pathfinder to the Heart of Ancient Christianity. (Forestville, CA: Father Seraphim Rose Foundation, 1993), pp. 894-95.

تنفَّسَ عميقًا مالئًا رئتَيهِ وأجاب: «كما تناقشْنا مرارًا، هدفُ الكنيسةِ الأساسيُّ هو إعادةُ الإنسانِ إلى حالتِهِ الطبيعيَّة، أي الاتِّحادِ مع اللّٰه. قُلنا، إنَّ الإنسانَ، قبلَ السقوط، عاشَ في حالةٍ من التأمُّلِ المستمرِّ في اللّٰه. بعدَ السقوط، تشتَّتَتْ عقولُنا وقلوبُنا وركَّزتْ على أمورِ العالم، فانقطعْنا من هذا الترابطِ والاتِّحادِ المقدَّس».

فجأةً، سألني الأبُ مكسيموس، وكأنَّه يغيِّرُ الموضوع: «أتعرفُ ما هو المعنى الحقيقيُّ للخطيئة؟»

أجبتُ: «حسنًا، يفتكرُ الناسُ أنَّ الخطيئةَ هي إنتهاكٌ لأنظمةٍ أخلاقيَّةٍ ما. لكنِّي على يقينٍ أنَّ ذلكَ لا يتوافقُ معَ ما يدورُ في ذهنِك. فالمفهومُ الأسمى للخطيئةِ 'amartia'، هو أنَّكَ أخفقتَ، أي انفصلْتَ عن اللّٰه».

- «حسنًا. على سبيلِ المثال، قد يتعجَّبُ أحدٌ ما عندما نقولُ إنَّ هذا الفعلَ أو ذاكَ هو خطيئة. ويتساءل: لماذا هو كذلك؟ لماذا تُعتبرُ الشهوةُ الجنسيَّةُ خطيئةً، مع أنَّها تُمتِّعُ شخصًا، ولا تؤذي أحدًا؟ لماذا يُعتبرُ الجشعُ أو الشراهةُ خطيئة؟

يُعلِّمُ الآباءُ أنَّه عندما ينحصرُ عقلُكَ وقلبُك، نوسُك، في أمورِ العالم، أكانت مالًا أو شهواتٍ جسديَّة، أنانيَّةً أو آراء، مفاهيمَ أو أيَّ شيءٍ آخر، فأنتَ تقترفُ خطيئة، وتصبحُ مستعبَدًا لتلكَ التلهِّياتِ التي تُبعدُ قلبَك وعقلَك عن اللّٰه».

قلتُ محتجًّا: «أتعني بذلكَ أنَّه يلزمُ علينا جميعًا أنْ نعتزلَ العالمَ ونلتحقَ

بالأديار؟»

- «كلاَّ. بتاتًا. ببساطة، انتبهْ ألاَّ تجعلَ عقلَك وقلبَك يؤسَرانِ في أمورِ هذا العالمِ التي تُبقيكَ منقطِعًا عن اللّه. أتَعلمُ ما يقولُهُ الآباءُ إضافةً إلى ذلك؟ قد يكونُ أحدُنا واسعَ الثراء، لكنّه في عينيِ اللّه لا يُحسبُ هكذا. آخرُ قد يملِكُ إبرةً فقط، لكنّه غنيٌّ في عينيِ اللّه. من جهةٍ أُخرى، قد يتحرَّرُ غنيٌّ من الجشعِ ويتحرَّرُ نفسيًّا من غناه ويلتصقُ باللّه، بينما مالِكُ إبرةٍ قد يحصرُ عقلَهُ وقلبَهُ في تلكَ الإبرةِ فتأسُرُه».

- «إذن، على ضوءِ ذلكَ يجبُ تفسيرُ قولِ يسوعَ 'إنَّ مرورَ جَمَلٍ من ثقبِ إبرةٍ أيسرُ من دخولِ غنيٍّ إلى ملكوتِ السماوات'[١٢٠]».

- «تمامًا. 'الغنيُّ' الذي لا يستطيعُ دخولَ الفردوسِ، هو الشخصُ المهووسُ بأمورِ هذا العالمِ، سواءٌ كانت ملياراتِهِ أو إبرتَه. دخولُ ملكوتِ السماوات يعني التحرُّرَ من كلِّ أمورِ هذا العالمِ، أي ما يدعوه الآباءُ 'إخلاءَ الذات' 'kenosis'».

- «ماذا عن الصلاة؟»

- «سوفَ أصلُ إلى هذه النقطة. منهجُ الكنيسةِ هو مساعدتُنا لبلوغِ تلكَ الحرِّيَّة، أيْ التجرُّدِ من الأهواء. والصلاةُ هي القوّةُ التي تدفعُ الإنسانَ في اتّجاهِ إعادةِ الاتّصالِ مع اللّه. تستوجبُ الصلاةُ إغلاقَ كُلِّ الأبوابِ أمامَ الأفكارِ والهواجس، وتوجيهَ كلِّ الطاقاتِ نحوَ هذا اللّهِ الشخصيِّ. فهذا ليسَ تحرُّكًا

١٢٠ متّى ١٩:٢٤.

نحوَ كائنٍ وهميٍّ في ما وراءَ العالمِ المنظورِ أوْ في ما وراءَ السحب. بالأحرى، في لحظةِ استدعائي اسمَ اللّه، أبدأُ بإقامةِ علاقةٍ شخصيَّةٍ معَه. وفيما أُصلِّي تتحرَّكُ نفسي تجاهَ هذا 'الشخص'».

قلتُ مقاطعًا: «بعباراتٍ عمليَّة، كيفَ على المرءِ أنْ يصلِّي؟»

أجابَ: «كما تَعلَم، هناكَ طرقٌ وأشكالٌ عديدةٌ للصلاة. إحداها هي أنْ نصلِّيَ معَ الآخرين. لسنا ذرَّاتٍ منعزلةً في الكون، بل نحنُ أشخاصٌ ذوو علاقاتٍ مع بعضِنا البعض. والصلاةُ الجماعيَّةُ تؤكِّدُ ارتباطَنا بالربِّ وببعضِنا البعض.

هنالكَ أيضًا الصلاةُ الشخصيَّة. قدَّمتِ الكنيسةُ، استنادًا لخبراتِ الآباء، كثيرًا من الصلواتِ التي يمكنُ أنْ نَستعينَ بها حينما نصلِّي بمفردِنا. هنالِكَ صلواتٌ لكُلِّ المناسبات، يمكنُ أنْ نتلوَها حسبَ المشاكلِ التي نواجهُه».

أشرتُ: «وهذه الصلواتُ مشحونةٌ بطاقاتٍ روحيَّة».

– «دومًا! لأنَّ الآباءَ المعاينينَ اللّهَ والمملوئينَ بنعمةِ الروحِ القدسِ كتبوها. عِشقُهم للّهِ كانَ فيَّاضًا حينما نظموا قصائدَهم، كما يَكتبُ العشّاقُ القصائدَ تعبيرًا عن حبِّهم لبعضِهم البعض».

✻ كرَّرتُ: «القدِّيسونَ هم عاشقو اللّه»، بينما تذكَّرتُ حديثًا سابقًا مع الأبِ مكسيموس، حيثُ قالَ، إنْ أدركْنا اللّهَ بطريقةٍ طفوليَّة، فَ'خوفُ اللّه' هو تشويهٌ فادحٌ للمسيحيَّة. 'خوفُ اللّه' لدى القدِّيسينَ، هو الخوفُ من فقدانِ تواصلِهم مع اللّهِ المحبِّ القدُّوس، لا الخوفُ من أبٍ طاغيةٍ يحكمُ الكونَ كلَّهُ

بقبضةٍ حديديَّة.

وتابعَ الأب: «بهذه الروح، كُتبتْ تراتيلُ الكنيسة. باعتيادِنا على تلاوةِ الصلواتِ التي كتبَها القدِّيسون، نرتبطُ بالروحِ القدسِ الذي ألهَمهم لكتابةِ هذه الصلوات. فطاقةُ العِشقِ الإلهيِّ القائمةُ في تلكَ القصائدِ تنتقلُ منسكبةً في نفوسِنا. لذلك، يلزمُ تعلُّمُ كيفيَّةِ الصلاةِ باستخدامِ تلكَ الصلواتِ الموطَّدة. لنفترضْ، على سبيلِ المثال، أنَّكَ تواجهُ تجربةً مسبِّبةً لك أسًى عميقًا، يُمكنك إذًا أنْ تصلِّيَ البراكليسي أو القوانينَ الابتهاليَّةَ لوالدةِ الإله، أو البراكليسي للمسيحِ الربّ. بتركيزِكَ على كلماتِ التراتيلِ والمزاميرِ والإنجيل، تربطُ ذاتَك مع القوى الإلهيَّة، المصدرِ الذي أوحى بكتابةِ تلك الأبيات».

- «لكنْ يا أبتِ، أحيانًا، لا يفهمُ الناسُ معناها».

- «هذا لا يهمّ. يمكنُك، رغمَ ذلكَ أنْ تجنيَ ثمَرَها. فالقوى الروحيَّةُ التي تتولَّدُ من تلاوةِ تلكَ الكلمات، تؤثِّرُ فيكَ بطريقةٍ لا تُدرَك».

ثمَّ تحدَّثَ الأبُ مكسيموس عن صلاةِ الربِّ يسوع: 'أيُّها الربُّ يسوعُ المسيح، ابنَ الله، ارحمْني أنا الخاطئ'. وهذا موضوعٌ ناقشناه سابقًا. شكلُ الصلاةِ الخاصُّ هذا، يعتبرُه الآباءُ الشيوخُ أساسيًا في الحياةِ الروحيَّة. ذكَّرني أنَّ المؤمنَ الجادَّ والممارسَ الدائمَ للفنونِ الروحيَّة، يجبُ أنْ يردِّدَ هذه الصلاةَ طيلةَ الوقت. فهي، حسبَ قولِه، الدواءُ الأكثرُ فعاليَّةً لشفاءِ النفس، إنَّها 'عِلْمُ العُلوم'، تحديدًا لأنَّها المنهجُ الذي، متى أُتقنَ، يمكِنُ أنْ يُؤدِّيَ إلى فتحِ الأبوابِ نحوَ الله. تردادُ هذه الكلماتِ البسيطة، بتأثيرِ قوَّتِها، يمكِنُ أنْ يقودَنا

إلى آفاقٍ لا توصف، وإلى سرّ التألّهِ العظيم.

قلتُ مقترحًا: «ربّما هذه هي الأسرارُ الروحيَّةُ التي يبحثُ عنها الناس».

- «لا تتسرَّع. كلُّ الأسرارِ التي تُكشف، ليست نتيجةَ معرفةٍ عقليّةٍ لصيغةٍ خفيّة. إنّها إعلاناتٌ آتيةٌ من فوق، نتيجةَ تنقيةِ القلبِ عن طريقِ التوبةِ الصادقةِ والتواضعِ الحقيقيّ. كما يكتبُ الشيخُ صُفرونيوس، الإستعلاناتُ والإلهاماتُ الإلهيّةُ تُعطى عندما تتّقِدُ الصلاةُ كَلَهَبٍ ملطِّف، داخلَ الفرد. إنّها، بكلماتِه، «الشعورُ العذبُ بحبِّ اللّهِ الذي يجذبُ العقلَ ويكشفُ له رؤًى روحيَّة، مصحوبةً من حينٍ لآخرَ برُؤَى النورِ الإلهيّ[١٢١]». إنّها الثمارُ التي تُمنحُ للنفسِ المجاهدةِ للاتّحادِ باللّه».

أضفتُ: «إنّها الأسرارُ التي لا يمكنُ أنْ يُسبرَ غورُها بمنطقٍ محض»، بينما فكّرتُ في الفلسفةِ الكَنتية[١٢٢] Kantian التي تقولُ بأنَّ المنطقَ البشريَّ يستحيلُ عليه معرفةُ طبيعةِ الحقيقةِ المطلقة. أبقَيْتُ هذه الأفكارَ لنفسي، فيما تابعَ الأبُ مكسيموس:

- «عندما تمارِسُ صلاةَ الربِّ يسوعَ بانتظام، فكأنَّكَ تتجوّلُ في مدينةٍ ملوَّثةٍ لابسًا قناعَ أوكسجين. لا شيءَ يمكِنُه أنْ يَمَسَّكَ».

قلتُ: «يبدو الأمرُ بسيطًا، أعني، ترداد 'أيُّها الربُّ يسوعُ المسيحُ، ارحمني'».

---

١٢١ الأرشمندريت صفرونيوس (سخاروف) - في الصلاة - نقلته إلى العربيّة الأم مريم (زكّا) - منشورات التراث الآبائيّ - ١٩٩٥.

١٢٢ نسبةً إلى عمانوئيل كَنْت (١٧٢٤- ١٨٠٤): فيلسوف ألمانيّ، أحدُ أعظم الفلاسفة.

- «إنَّها بسيطةُ العبارة، لكنَّها غنيَّةُ المفعول. وتطبيقُها بسيطٌ أيضًا، أقلَّهُ في مراحلِها الأوَّليَّة. ظننتُ في البداية، أنَّ التدرُّبَ على صلاةِ الربِّ يسوعَ نوعٌ من ممارسةٍ معقَّدةٍ يلزمُ اجتيازُه. لكنْ، عندما التقيتُ بشيخي للمرَّةِ الأُولى، سلَّمَني المسبحةَ وطَلَبَ إليَّ تردادَ الصلاةِ فقط، بتواضعٍ ومن دونِ تخيُّلات. قالَ لي بإلحاحٍ: إذهبْ وتدرَّبْ على ذلك، وسنتكلَّمُ لاحقًا».

سألتُ: «كمْ من الوقتِ علينا أنْ نكرِّسَ من أجلِ الصلاة، نحنُ العائشينَ في العالم؟»

- «يمكنُكَ أنْ تبدأَ بالقليل، كخمسِ دقائقَ يوميًّا، ولكنْ مِنَ الضروريِّ أنْ يصيرَ ذلك بانتظام. بعدَ بضعةِ أسابيع، يمكنُكَ تكريسُ وقتٍ أكثر، كعشرِ دقائقَ صباحًا، وعشرِ دقائقَ مساءً، لكنْ دائمًا في الساعةِ ذاتِها وفي مكانٍ هادئ. في البداية، قد يكونُ التركيزُ صعبًا، قد يشردُ عقلُكَ بعيدًا، لكنْ عليكَ بالمثابرة. توقَّعْ، لحظةَ تبدأُ الصلاةَ، أنْ تتذكَّرَ كلَّ ما نَوَيْتَ القيامَ به وكلَّ ما نسيتَ أنْ تفعلَهُ خلالَ النهار، وما إلى ذلك. لا تستسلمْ مهما كانتِ الظروف».

تابعَ الأبُ مكسيموس قائلًا إنّه قبلَ تلاوةِ صلاةِ يسوع، يُفيدُ أنْ 'تُدفئَ القلبَ' لبضعِ دقائقَ بالصلواتِ الاعتياديَّة. بعدَ ذلك، تستطيعُ أنْ تتلوَ صلاةَ يسوعَ بتركيزٍ طاردًا كلَّ الأفكارِ الأُخرى بعيدًا.

- «لحظةَ تُدركُ أنَّ فكرَكَ يجولُ هنا وهنالك، ابذُلْ جهدًا لكيْ تُعيدَ استجماعَهُ وتبقيَهُ مركَّزًا على كلماتِ الصلاة. هذه هي الخطوةُ الأُولى لإتقانِ

الصلاةِ غيرِ المنقطِعة».

ضحِكَ الأبُ مكسيموس إذْ تذكَّرَ أحدَ الرهبانِ في جبلِ آثوس: «كانَ هذا الراهبُ كثيرَ النسيان. ولكنْ لحسنِ حظِّهِ، ما إنْ يبدأُ بالصلاة، كانَ الشيطانُ يذكِّرُه بكلِّ ما سهى عن القيامِ بِهِ أثناءَ النهار».

وقالَ الأبُ مكسيموس، إنَّ صلاةَ الربِّ يسوعَ قد تُصبح عادةً يمكِنُ أنْ تُولِّدَ قوى قادرةً على 'فتحِ قلوبِنا'.عندَ ذاك، يُبدي المرءُ حِسًّا مختلفًا جذريًّا. «تزورُ النعمةُ القلبَ وتُحيي كلَّ قواه الخامدة، ويبدأُ الشخصُ بالعملِ ضمنَ طاقاتِ اللّه. أتَعلمُ أنَّ صلاةَ الربِّ يسوعَ هي، بالنسبةِ للقدّيسينَ، أكثرُ أهمّيَّةً من تنفسُّهم؟»

إستنتجتُ: «إذًا، أسرارُ اللّه تُعلَنُ بواسطةِ النعمةِ كحصيلةٍ طبيعيَّةٍ لصلاةِ الربِّ يسوع».

– «النعمةُ هي عنصرٌ أساسيٌّ. ولكنَّ بلوغَ تلكَ المرحلةِ ليسَ أمرًا سهلًا. بلوغُ الصلاةِ لأعماقِ النفسِ يستدعي جهادًا روحيًّا مثابرًا ودائمًا. وما إنْ نبلغُ هذا، نستنيرُ ونُعطى موهبةَ الحكمة. في تلكَ المرحلة، تتفعَّلُ مفاهيمُ مختلفةٌ متخطِّيةً كلَّ منطقٍ وفكرٍ عقلانيّ. في الحقيقة، إنَّها توجِّهُ المنطقَ، كونَها أرفعَ منه. ومَن يبلغُ تلكَ الحالةَ الذهنيَّة، لا يحكمُ على أيِّ أمرٍ إلاَّ بعدَ أنْ يفحصَهُ بالصلاة. وإنْ تلقَّى أثناءَ الصلاةِ رسالةً تتناقضُ والمنطق، فسيُطيعُ الرسالةَ الآتيةَ رغمَ ما يُمليهِ المنطقُ التقليديّ. حقًّا، يا كيرياكوس، حالما تُهيمِنُ روحُ صلاةِ الربِّ يسوعَ على القلب، عندَ ذلكَ فقط يُشفى الإنسانُ في أعماقِ كيانِه. إذَّاك،

يكونُ لهبُ اللّهِ قدِ اشتعلَ في قلبِه».

- «أبانا مكسيموس، منذُ أيّام، أخبرَتْني فتاةٌ ممّنْ كانوا ينتظرونَ دورَهم للاعتراف، أنّها كلّما صعدَتْ على متنِ الطائرةِ وقبلَ الإقلاع، تبدأُ بتردادِ صلاةِ يسوع. لكنّها تشعرُ أنّها غيرُ صادقة. لأنَّ لها دافعًا خفيًّا، وهو أنْ تؤمِّنَ سلامتَها. وكلّما دخلَ هذا الفكرُ ذهنَها، تفقدُ الحافزَ للصلاة».

- «إنْ ركّزْتَ على الصلاة، لا تهمُّ دوافعُك. حتّى إنْ لم تكنْ نواياكَ مثاليّة، معَ الوقت، ممارسةُ الصلاةِ بانتظامٍ سوفَ تجعلُ نواياكَ كاملة. ما يحدث، في الحقيقة، هوَ أنَّ صلاةَ يسوعَ تُعلِّمُكَ كيفَ تصلّي. صلِّ، واللّه سيهتمُّ بالباقي. سيقودُكَ إليه عبرَ الصلاة».

شعَّتْ عينا الأبِ مكسيموس وهو يتفوَّهُ بتلكَ الكلمات. خالجَني شعورٌ بأنّهُ يتكلَّمُ استنادًا لخبرةٍ شخصيّة، لكنّه، لنْ يبوحَ بها أبدًا. اشتبهْتُ بالأمرِ بسببِ حادثةٍ اختبرتُها معَه أثناءَ المراحلِ الأُولى من علاقتِنا، إذْ واجهتُ بعضَ الصعوباتِ معَه. على ما يبدو أنّه أساءَ فهمَ محتوى كُتُبِيَ السابقة، ولعدمِ إتقانِهِ اللغةَ الإنكليزيّة، افترضَ، ولِحُزنِيَ الكبير، أنّي أكتبُ في شؤونِ السِّحرِ وأتعاطاه، مُعرِّضًا بذلكَ حياتِيَ الروحيّةَ للخطر. ذاتَ يوم، إذْ كنتُ مُحبطًا، أفلتَ منّي الكلامُ وقلتُ بأنَّ مشكلتَنا في سوءِ التواصلِ ناجمةٌ عن خلفيّاتِنا المختلفةِ جذريًّا. قلتُ كصديقٍ ساخط: «لو أمضيتُ أنا عشرَ سنواتٍ في جبلِ آثوس، ولو أمضيتَ أنتَ عشرَ سنواتٍ في جامعةٍ أميركيّة، لكنّا تفاهمْنا مع بعضِنا البعضِ على أفضلِ وجهٍ ممكن». مِن بعدِ التعبيرِ عن خيبتي بصراحة، تخوّفتُ

منْ أنْ أكونَ قد قطعتُ الصلةَ مع صديقيَ الآثوسيّ. بدا مكتئبًا وحزينًا. لكنَّ شيئًا مُدهشًا للغايةِ حدثَ بعدَ ذلكَ بقليل. إذْ تغيَّرَ موقفُهُ بالكاملِ في اليومِ التالي. لمْ يُبْدِ أيَّ قلقٍ لتعاطيَّ السِّحرَ، وبالتالي العبثِ بمصيرِ روحيَ الخالدة. وقد علِمْتُ ما جرى، لا منَ الأبِ مكسيموس نفسِه، الذي شعرتُ أنّه بدأ يثقُ بي بالكاملِ بعدَ لقائِنا الصادق، بل من صديقي استِفانوس، الصديقِ المؤتمَنِ لكِلَينا. أعلَمَني استِفانوس أنّه في ذلكَ اليوم، ذهبَ الأبُ مكسيموس إلى قلّايتِهِ ليصلّيَ ساعيًا لإيجادِ حلٍّ للصعوبةِ التي نواجهُ في علاقتِنا. إذّاك، تلقَّى 'إستنارةً من العلى'، وأُعلِمَ أنَّ 'كيرياكوس لمْ يأتِ إليكَ ليتتلمذ. مُهمّتُهُ مختلفة، جاءَ إلى هنا لإجراءِ بحثٍ أكاديميٍّ لينقلَ الحكمةَ الروحيّةَ الآثوسيّةَ إلى جمهورٍ أوسع'. فتجدَّدَتْ علاقتي مع الأبِ مكسيموس، ومنذُ تلكَ اللحظة، أصبحَ راغبًا مشاركتي، بطولِ أناةٍ، في أعمقِ تبصُّراتِه. أخيرًا، استطعتُ مواصلةَ بحثي في التقليدِ الروحيِّ الآثوسيِّ بتعاونٍ كاملٍ منه.

* * *

سألتُ، مشيرًا إلى المسبحةِ التي في يدِه: «هل استعمالُ المسبحةِ لتردادِ صلاةِ الربِّ يسوعَ واجبٌ؟»

رفعَ الأبُ مسبحتَه إلى أعلى وقال: «إنّها تساعدُ فقطْ في التركيزِ على الصلاة. بعدَ كلِّ تلاوةٍ للصلاة 'أيُّها الربُّ يسوعُ المسيحُ، ابنَ اللّه، ارحمني'، تُحرِّكُ إبهامَكَ إلى الحبّةِ التالية. هذه المسبحةُ تحتوي على مائةِ حبّة. ما إنْ أعودُ إلى حيثُ بدأت، أعلمُ أنّني ردَّدتُ الصلاةَ مائةَ مرّة. وإنْ طلبَ منّي شيخي أنْ أتلوَ الصلاةَ أربعمائةَ مرّةً قبلَ النوْم، حينذاكَ، تُساعدُني المسبحةُ لمراقبةِ

العدد، دونَ تشتُّتٍ ذهنيٍّ. بالطبع، ليسَ من الضروريّ أنْ تمتلِكَ مسبحة، بوسعِكَ أنْ تصلّي من دونِها».

قلتُ: «من لا يألفُ المناهجَ الآثوسيَّة، قدْ يتساءلُ ما القصدُ من تردادِ اسمِ يسوعَ المسيحِ إلى ما لا نهاية». وأضفتُ أنَّ صلاةَ الربِّ يسوعَ تُذكِّرُني باليوغا الشرقية ʻmantra yogaʼ، أسلوبِ التأمُّلِ الذي مارَسْتُهُ لسنواتٍ عديدة.

لكنَّ الأبَ مكسيموس رفضَ المقارنة. وأصرَّ أنَّ استدعاءَ إسمِ يسوعَ المسيح، لا يشبِهُ أشكالًا أُخرى من الممارساتِ الروحيَّة. فالهدفُ من صلاةِ الربِّ يسوعَ ونتائجُها، تختلفُ كلِّيًا عن أهدافِ التأمُّلاتِ التي على شكلِ استرخاءٍ عميقٍ للذهن. وأضافَ بأنَّ عمليَّةً سرِّيَّةً إلهيَّةً تنشطُ مع صلاةِ الربِّ يسوع. ثمَّ تابعَ ليقولَ إنَّ يسوعَ المسيحَ هو إلهٌ حيٌّ، شخصٌ حيّ. إذًا، تردادُ هذا الإسمِ القدُّوس، هو مناشدةُ هذه القداسةِ التي لها تأثيرٌ فوريٌّ داخلَ أعماقِ النفس. تدريجيًّا، تبدأُ النفسُ باختبارِ الحلاوةِ الإلهيَّة.

قالَ: «هذه هي إحدى الاختباراتِ الأوّليَّةِ التي تحدثُ معَ شخصٍ يبدأُ بالصلاة. هذا ما يفعلُهُ القدّيسون، حافظينَ اسمَ الربِّ يسوعَ في ذهنِهم بلا انقطاع».

– «بما أنَّ معظمَنا نحنُ العلمانيِّينَ، لسنا رهبانًا ولا قدّيسينَ، فكيفَ تُجدينا نفعًا هذه الصلاةُ التكراريَّةُ؟ إنَّنا نفتقرُ إلى الوقت».

– «أوّلُ ما عليكَ أن تفعلَه هوَ الاقتناعُ بقوّةِ الصلاة، وبأنَّها حقيقيَّة، وأنَّ تأثيرَها يتعدّى شخصَكَ ويطالُ كلَّ من تصلّي من أجلِه».

ذكَرْتُ أنَّ بعضَ العلماء، يَدَّعونَ اليومَ أنَّ هنالِكَ في الواقعِ دليلًا اختباريًّا على فاعليَّةِ تلكَ الصلاة[١٢٣]. فاعترى وجهَ الأبِ مكسيموس تجهُّمٌ رافضٌ، مُشيرًا إلى أنَّه غيرُ آبهٍ ولا متأثِّرٌ برأيِ العلمِ في قوَّةِ الصلاة. فهو يعرفُ ذلكَ من خبرةٍ مباشرة.

ثمَّ تابعَ قائلًا: «ستندهشُ إنْ أدركتَ قوَّةَ صلاةِ الربِّ يسوعَ على الناسِ العاديِّين. ربَّما وضعَها القدِّيسون، إلَّا أنَّها لاستعمالِ أيِّ كان، رهبانٍ، ونسَّاكٍ، وعلمانيِّين. هذه الصلاةُ ضروريَّةٌ اليوم، إذْ يشعرُ الناسُ بالعزلةِ وانقطاعِ التواصلِ بينَ بعضِهم البعض. استنادًا لما أسمعُهُ من اعترافات، أدركتُ أنَّ لدى الناسِ صعوبةً ما في التعاملِ والتواصلِ مع أطفالِهم، وشركاءِ حياتِهم، وجيرانِهم، وزملائِهم في البشريَّة. يشعرونَ في داخلِهم بأنَّهم متروكون، محرومونَ من الإلفةِ الشخصيَّة. إنَّه أمرٌ مُحزنٌ للغايةِ في الحقيقة».

قلتُ مقترحًا: «تلكَ هيَ مشاكلُ الحضاراتِ الصناعيَّة. هنا في قبرص، لا يزالُ الترابطُ الاجتماعيُّ قويًّا جدًّا».

- «لا. ليسَ بالمقدارِ الذي تعتقدُه. على أيَّةِ حال، الصلاةُ هي أنجعُ ترياقٍ لشعورِ فقدانِ التواصلِ هذا، سواءٌ كنتَ تعيشُ في قبرص أو وسطَ مدينةِ نيويورك».

- «إذًا، أتقترحُ أنَّها شكلٌ من العلاجِ لِمنْ يُعاني الوحدةَ والعزلة».

- «ليسَ لهؤلاءِ فقط. لكنْ نعم، أنتَ على حقّ. ليسَ هناكَ من علاجٍ

123 Dossey, Healing Words.

أفضل. فصلاةٌ يسوعَ تمنحُ الناسَ حسًّا هائلًا بالقوّة. أعرِفُ حقيقةً أنَّ هذه المشاعرَ المعاصرةَ من الوحدةِ والغربة، تتبخَّرُ ببساطةٍ بالصلاةِ المنتظمة. أذكرُ أنّي قبلَ سنواتٍ التقيتُ بناسكٍ في جبلِ آثوس، يعيشُ في البرِّيّة بمفردِه. سألتُهُ: 'أبتِ، ألا تخشى العيشَ وحدَك هنا'. أجابَني أنَّه لا يشعرُ بالوحدةِ أبدًا لأنَّه يصلّي بلا انقطاع. كانَ ممتلِئًا بالحضورِ الحيِّ لحبِّ الله».

وشدَّدَ الأبُ مكسيموس محاوِلًا طردَ أيِّ شكوكٍ في ذهني: «تمنحُكَ الصلاةُ الدائمةُ هذا الحسَّ العميقَ بالمؤانسة. تمنحُك إحساسَ تواصل، حتّى إنَّكَ لا تعودُ تكترثُ إنْ تَحدَّثَ أحدُهم معكَ أو إنْ عشْتَ في عالمٍ مُعادٍ. صدِّقْني، كلُّ إحساسٍ بأنَّكَ معزول، وغيرُ محبوبٍ وغيرُ مرغوبٍ بك، ومحسودٌ، يختفي بقوّةِ الصلاةِ غيرِ المنقطعة. لا يوجدُ دواءٌ أنجعُ منها. من خلالِ الصلاة، تبدأُ تواصُلَكَ مع المسيحِ الحيِّ الساكنِ في أعماقِ نفسِك. في الحقيقة، هذه هي إحدى الظواهرِ الأُولى التي تُستعلنُ لِمنْ يصلّي بلا انقطاع».

قلتُ: «يبدو الأمرُ بسيطًا جدًّا، أعني الصلاةَ بلا انقطاع»، وأومأتُ برأسي طاردًا بعضَ رواسبِ الشكِّ من ذهني: «لكنَّه لأمرٌ عسيرٌ لِمنْ يعيشُ في العالمِ أنْ يسبرَ غورَ شيءٍ كهذا».

أصرَّ الأبُ مكسيموس: «لكنْ، كما أخبرتُكَ من قبل، الأمرُ بسيطٌ جدًّا، إملأْ وقتَ فراغِكَ بالصلاة».

قلتُ نصفَ ممازحٍ: «ليسَ لديَّ وقتُ فراغ».

- «ألا تقودُ السيّارة؟ أثناءَ قيادتِكَ، لا يسعُكَ أنْ تقرأَ أو أنْ تحلَّ أحاجِي

حسابيَّة. إستفدْ من هذا الوقتِ لتردِّدَ صلاةَ يسوع. أو إنْ كنتَ تطبخُ أو تمسحُ الأرض أوْ تنتظرُ وصولَ حافلةِ النقلِ العامّ، أُتْلُ الصلاة. إذا اعتدْتَ على ملءِ أوقاتِ الفراغِ هذه، بصلاةِ الربِّ يسوع، ستختبرُ ثمارًا رائعةً في قلبِك. صدِّقْني، إنَّها حقًّا رائعة».

علَّقتُ قائلًا: «أفترضُ أنَّها وسيلةٌ لكبحِ الأفكار».

- «وهذا أيضًا، لكنَّها أكثرُ من ذلك. اسمُ المسيحِ نفسُه لَهُ القوَّة. إنَّه يَجْلُبُ الهدوءَ إلى النفس».

- «أهذا ما تسمِّيه النعمة؟»

- «لا. الإنسانُ يبلغُ هذا الهدوءَ في المراحلِ المبكِّرةِ جدًّا عندَ بدءِ ممارستِهِ صلاةَ الربِّ يسوع، إذْ يُهيمنُ على القلبِ سلامٌ داخليٌّ وفرحٌ وعذوبة. وتزدادُ فاعليَّةُ الصلاةِ إنْ خصَّصَ وقتًا محدَّدًا كلَّ يومٍ للتركيزِ حصريًّا عليها، علاوةً على أوقاتِ فراغِه».

- «في أوَّلِ لقاءٍ لنا في جبلِ آثوس، ذكرْتَ أنَّ هناكَ أساليبَ أُخرى لتلاوةِ صلاةِ الربِّ يسوع. لكنَّكَ لمْ تخبرْني عنْ أيَّةِ تفاصيلَ إضافيَّة».

- «حسنًا. هنالِكَ طرقٌ عِدَّةٌ يمكنُ أنْ تُساعِدَ الذهنَ على التركيز. ولكنْ، لا ننصحُ العلمانيِّينَ باتِّباعِها، لأنَّها تتطلَّبُ إشرافًا مستمرًّا من مرشدٍ روحيٍّ خبير. أولئكَ الذين في العالمِ قد يفتقرونَ إلى التمييز، فيُفرِطونَ في الإستمتاعِ بتلكَ الممارسات، ونتيجةَ ذلك، لا يؤذونَ صحَّتَهم النفسيَّةَ فقط،

بل الجسديَّةَ أيضًا».

- «كيفَ يكونُ ذلك؟»

- «هناكَ بعضُ التمارينِ التنفُّسيَّة، يمكنُ للراهبِ أنْ يمارسَها فيما يتلو صلاةَ الربِّ يسوع. ولكن، هذه التمارينُ قدْ لا تُلائمُ مَنْ لا يخضعُ لإشرافٍ روحيٍّ. فأفضلُ طريقةٍ لممارسةِ صلاةِ يسوع، هي بالتركيزِ بتواضعٍ على الكلمات. هذه هي طريقةٌ سليمةٌ، تَحمي العلمانيَّ من اختباراتٍ زائفةٍ وأوهامٍ روحيَّة. المهمُّ هو الاعتيادُ على ممارسةِ الصلاة. والأفضلُ بكثير أنْ نكونَ خاضعينَ لأبٍ روحيٍّ».

* * *

قطعَ محادثتَنا هديرُ حافلاتٍ تَحْملُ سُيَّاحًا ألمانًا. عبرَتِ الحافلاتُ من أمامِنا وتوقَّفتْ عندَ بوَّابةِ الديرِ الخارجيَّة. فالديرُ هو أيضًا موقعٌ أثريٌّ جذَّاب، الأمرُ الذي اضطرَّ الأبُ مكسيموس أنْ يتكيَّفَ معَه. عصرُ ذاك اليومِ كانَ مُخصَّصًا لهذا النوعِ من الزياراتِ السياحيَّة. توقَّفْنا عن حديثِنا لبعضِ الوقت، وراقبْنا، من بُعدِ مائةِ مترٍ، الدليلَ السياحيَّ وهي تبدأُ عملَها الروتينيّ. وما إنْ ولجوا باحةَ الدير، حتَّى استأنَفْنا الحديث.

قلتُ متصفِّحًا دفترَ ملاحظاتي: «هناكَ نقطةٌ أُخرى، أردتُ أنْ أسأَلَكَ عنها. ذكرْتَ أنَّه يجبُ علينا ممارسةُ الصلاةِ قَدْرَ المستطاع، حتَّى أثناءَ انشغالِنا بشيءٍ آخر. لكنْ في الوقتِ نفسِه، أشرْتَ أنَّهُ عندما نصلِّي، يجبُ أنْ نعزمَ التركيزَ على الصلاة. أتساءَلُ، كيفَ يُمكنُنا عمَلُ ذلكَ حينَ يكونُ ذهنُنا مركَّزًا

على شيءٍ آخر؟»

- «بوسعِكَ القيامُ بذلكَ، فقطْ أثناءَ قيامِكَ بأعمالٍ لا تتطلَّبُ أيَّ تركيزٍ، كانتظارِكَ في محطَّةِ النقلِ العامِّ أو أثناءَ تنزُّهِك أو أثناءَ تقشيرِ البطاطا. في مراحلِ ممارستِكَ الأُولى، لن يكونَ في وسعِكَ أنْ تصلِّيَ وأنتَ تُلقي محاضرةً للتلاميذِ في الجامعة. على أيَّةِ حال، هناكَ أمرٌ متناقضٌ عن صلاةِ يسوع. عندما نعتادُ على الصلاةِ المتواصلة، إذَّاك، يمكنُنا ممارسةُ عدَّةِ نشاطاتٍ أُخرى في الوقتِ نفسِه. فيما تُردَّدُ الصلاةُ في داخلِنا، لا تعترضُ أيَّ عملٍ قد نقومُ به. إنَّها تتفعَّلُ ذاتيًّا. وعندما نبلغُ مرحلةً أكثرَ تقدُّمًا، تستمرُّ الصلاةُ في القلبِ دونَ انقطاعٍ، ولو كنَّا نحلُّ مسائلَ حسابيَّة».

- «في القلبِ؟»

- «كما سبقَ وأوضحتُ لك، يُميِّزُ الشيوخُ القدِّيسونَ بينَ وظائفِ الذهنِ ووظائفِ القلب. هذه النقطةُ نُشدِّدُ عليها كلَّما مارسْنا الصلاةَ. شيوخُ الكنيسةِ المتمرِّسونَ يواصلونَ الصلاةَ حتَّى أثناءَ نومِهم. كما تقولُ الآية: 'إنِّي نائمٌ لكنَّ قلبي مستيقظ'».

- «مَنْ يُصلِّي؟ ومَنِ النائم؟ كيفَ يكُونُ أحدٌ نائمًا ويُواصلُ الصَّلاة؟!»

- «أنصِت. تبدأُ بذكرِ اسمِ المسيح. هذا أمرٌ إلزاميّ. فالهدفُ ليسَ اختلاقَ شعورٍ ما من الفرحِ والارتياحِ في قلبِك، بل تحرُّكًا ملموسًا نحوَ المسيح. فالصلاةُ تَستدعي الطاقةَ ذاتَها التي تنبعُ مباشرةً منَ المسيح، وتُوجِّهُ ثانيةً نحوَه».

- «لا يزالُ الأمرُ غيرَ واضحٍ لي. أَيعني كلامُكَ أنَّه أثناءَ الصلاةِ يَسمَعُ المرءُ القلبَ يردِّدُ كلماتِ الصلاة».

- «لنفترضْ أنَّه بالتلاوةِ الاعتياديَّةِ لصلاةِ يسوع، يقيمُ الروحُ القدسُ في القلبِ وينشطُ فيه. لكنْ، هذا يتخطَّى الكلماتِ والمعاني. لا يجبُ أنْ ننحصرَ في الكلمات».

- «إذًا، نحنُ نستخدمُ الكلماتِ لنتخطَّى الكلمات».

- «بوسعكَ قولُ ذلك». ثمَّ أكَّدَ الأبُ مكسيموس مرَّةً أُخرى أنَّ الصلاةَ يجبُ أنْ تردَّدَ بـ 'توبةٍ وتواضعٍ مطلقَين'، وألاَّ نتعاطَاها كتِقنيَّةٍ لبلوغِ خبراتٍ روحيَّة، خشيةَ الإنزلاقِ في الأوهام.

ثمَّ سارعَ ليقول: «قد يبدو الأمرُ متناقضًا وغريبًا، إذْ من الممكنِ أنْ يبلغَ الإنسانُ مرحلةَ الصلاةِ بلا انقطاع، لكنَّه لا يزالُ في حالةٍ من الوهم».

سألتُ وعلاماتُ الحيرةِ على محيَّاي: «لكنِ استنادًا إلى ما كنتَ تخبرُنا عن الصلاة، كيف يكونُ ذلك ممكنًا؟!»

- «هذا يصيرُ عندما تُتلى الصلاةُ بطريقةٍ آليَّةٍ دونَ تواضع. فنعمةُ الروحِ القدسِ لا يمكنُ أنْ تحضرَ في مثلِ هذه الشروط. لم يكلَّ الشيخُ بايسيوس من تذكيرِنا بهذا. كانَ يقولُ إنَّه لا يمكنُنا بلوغُ حياةٍ روحيَّةٍ حقَّةٍ إلاَّ باكتسابِ توبةٍ عميقةٍ 'Metanoia'، التي تعني تحوُّلًا جذريًا في صميمِ قلوبِنا وأذهانِنا. يجبُ ألاَّ نطلبَ من اللهِ أنْ يمنحَنا مواهبَ فائقة، كالتنبُّؤ، أو الرؤى،

أو صنعِ المعجزات. فالتوبةُ هي التي تولّدُ التواضع، والتواضعُ سوفَ يمهّدُ الطريقَ لاكتسابِ المواهبِ الروحيَّة، وذلكَ حسبَ الحاجة. هكذا يعملُ الروحُ القدس.

حتَّى القدّيسونَ، عليهم أنْ يُواجهوا أيضًا مثلَ هذه العقباتِ في جهادِهم الروحيّ. ونحنُ من يستفيدُ من أخطائِهم وانتصاراتِهم. هذا ما حدثَ مع القدّيسِ سِلوان حينَ كانَ بعدُ مبتدئًا في ديرِ القدّيسِ بندلايمون الروسيّ في جبلِ آثوس. بلغَ القدّيسُ سِلوان حالةَ يأسٍ تامّ، عندما ظنَّ أنَّ الصلاةَ لا تؤثّرُ عمليًّا في حياتِه[١٢٤]. في الواقع، لاحظتُ أنَّ الكثيرَ من الناسِ الذين يصلّونَ بلا انقطاع، يعانونَ من هذا الضعفِ عينِه، أنَّ الصلاةَ ليسَ لها تأثيرٌ عليهم. في حالةِ القدّيسِ سِلوان، نَرى راهبًا شابًّا، صبورًا، مطيعًا، ومحبوبًا من الجميعِ في الدير. نتيجةَ ذلك، هاجَمَهُ فكرُ مدحِ الذاتِ بأنّه يعيشُ كقدّيس. مثلُ هذه الأفكارِ تنبعُ من المجدِ الدنيويّ. كانَ يمارسُ كلَّ التقنيّاتِ الخارجيَّةِ المفترضة، ومعَ ذلك، لم تكفَّ أفكارُ الغرورِ عن مطاردةِ ذهنِه. وبما أنَّه افتقرَ للخبرةِ الروحيَّة، افترَضَ أنَّه قدْ أصابَ الهدفَ وأنَّهُ على طريقِ القداسة».

- «لم يخطِئ الهدف. فبالنهاية، أعلنتْهُ الكنيسةُ قدّيسًا».

- «لكنَّه، في ذلكَ الوقت، كانَ لا يزالُ شابًّا تحتَ تأثيرِ المجدِ الباطل. إنَّ خبراتِه مفيدةٌ جدًّا لنا. فبالرغمِ من ممارستِه الصلاةَ بلا انقطاع، لم يكنِ الروحُ القدسُ قدِ اتّخذَ بعدُ في قلبِه مسكنًا، ممَّا قادَه في النهايةِ إلى الشكّ

١٢٤ الأرشمندريت صفرونيوس (سخاروف): القدّيس سلوان الآثوسيّ. نقلته إلى العربية الأمّ مريم (زكّا). منشورات التراث الآبائي. طبعة ثانية ١٩٩٩.

واليأس».

أشرتُ: «أفترضُ أنّه في هذه الحالة، هناكَ تحوُّلٌ مثيرٌ للاهتمامِ لأوهامٍ تختلطُ بالفضائل. فبالنهايةِ جاهدَ للّهِ وكرّس حياتَه من أجلِه».

– «بالتأكيد، هذا صحيح. كراهبٍ مبتدئ، كانَ من الصعبِ جدًّا عليه، أنْ يميّزَ إذا ما كانتْ تجربتُه من اللّهِ أم لا. ذاتَ ليلة، فيما كانَ يصلّي، شعَّ نورٌ غيرُ عاديٍّ داخلَ قلّايتِه واخترقَ كاملَ جسدِه. ثمَّ أوحى له فكر: 'هذه هي النعمة، اقْبَلْها'. لكنَّ قلبَه امتلأَ اضطرابًا وحيرةً، وهذه علامةٌ أكيدةٌ بأنَّ هذا النورَ لمْ يكنْ من اللّه. إستمرَّتِ الصلاةُ في داخلِه، لكنَّ روحَ التوبةِ تراجعتْ إلى حدٍّ أنَّه فقدَ السيطرةَ على نفسِه، وبدأَ فجأةً أثناءَ الصلاةِ يضحك. في الواقع، النورُ الذي اختبرَه سِلوان كانَ شيطانيًّا. إخترقَ ذهنَهُ كفكرٍ، متظاهرًا أنّه النعمة. ولأنَّ بزرةً من المجدِ الباطلِ كانتْ لا تزالُ في قلبِه، تركتْه روحُ التوبة. ولمّا أدركَ ما حدثَ، ضربَ رأسَه على الحائطِ بيأس».

قلتُ متذمّرًا: «لكن، إذا كانَ خداعُ قدّيسٍ ممكنًا إلى هذا الحدِّ، ماذا عن الناسِ العاديّين الهالكين، مِثلَنا!»

– «أُكرّر، لا تَنْسى أنَّ سِلوان مَرَّ بهذه التجاربِ وهو فتيٌّ، مبتدئٌ متحمّس. نتعلّمُ مِنْ تجربتِه أنَّ الصلاةَ المستمرّة، من دونِ تواضعٍ وتوبةٍ صادقة، كما كانَ يقولُ الشيخُ باييسيوس، يمكنُ أنْ تُؤدّيَ إلى أوهامٍ متنوّعة. يمكنُ أنْ تُؤدّيَ إلى المجدِ الباطل، لا بل إلى عوارضَ مَرَضِيَّة. في حالةِ سِلوانَ الشابّ، بدأتِ الشياطينُ في الظهورِ أمامَه. كانَ يتحادثُ معَها، وهذا أمرٌ مُحرَّمٌ

في الحياةِ الروحيَّة. يُخبِرُنا في شهاداتِهِ عن الحواراتِ المختلفةِ التي أجراها معها. فكانت تارةً ترفعُ كبرياءَهُ عاليًا حتَّى السماء، وطورًا تُدخِلُهُ في حالاتٍ من النشوةِ والابتهاج، التي هي ثمارُ المجدِ الباطل، وفي أوقاتٍ أُخرى، تقودُهُ إلى هاويةِ اليأسِ والأوهام. مشاعرُ النشوةِ والابتهاجِ المفرطِ هذه، التي يتبعُها اليأسُ التامّ، هي المواصفاتُ النموذجيَّةُ للشخصيَّةِ الباطلة. فاليأسُ والأوهامُ هما القُطبانِ اللذان تتأرجحُ بينَهما شخصيَّةٌ مماثلة».

- «رغمَ ذلك، ألمْ يتحرَّرْ من تلكَ الحالةِ ويبلغِ القداسة؟»

- «بالطبع. لقد حقَّقَ ذلكَ من خلالِ جهاداتٍ روحيَّةٍ زئبقيَّة، دامتْ لسنَوات. أتَرى، يا كيرياكوس، تأتي النعمةُ الإلهيَّةُ في النهايةِ لِتُعينَ النفسَ المجاهدة».

- «هذا أمرٌ مُعَزٍّ للغاية».

- «على أيَّةِ حال، كان سِلوان في حالةٍ من اليأسِ العميق، لأنَّه أدركَ الهوَّةَ التي تفصلُهُ عن الله. إختبرَ غيابَ اللهِ من قلبِه. إنَّه لَاستشهادٌ غيرُ عاديٍّ بالنسبةِ لإنسانٍ أدركَ ذلك. أتدركُ ما أَعنِيه؟»

ما بدا من تعابيرَ على وجهي، أوحى للأبِ مكسيموس بأنَّهُ ليسَ لديَّ أدنى فكرةٍ عمَّا كان يَتحدَّثُ عنه.

قالَ: «في الحقيقة، إنَّه أسوأُ ما يُمكنُ أنْ يختبرَهُ إنسانٌ في الحياة. كان هذا الاختبارُ حاسمًا في حياةِ القدِّيسِ سِلوان. وعندما خارَتْ كلُّ قواه، تسلَّلَ فكرٌ

إلى ذهنِه يقول: إنَّ اللّهَ بعيد، يتعذَّرُ الوصولُ إليه، يحيا بمعزلٍ عن الإنسان، وإنَّهُ يستحيلُ على إنسانٍ أنْ يقيمَ علاقةً معه. بالطبع، الظلامُ الذي خيَّمَ على قلبِ سِلوان هو الذي قادَه إلى هذا الاستنتاجِ اليائس».

إستغرقَ الأبُ مكسيموس في التفكيرِ لبضعِ ثوان، وهو ينقلُ حبّاتِ مسبحتِه، ثمّ تابع:

«أعتقدُ أنّنا كلّنا، عاجلًا أم آجلًا، سنختبرُ حالَةَ اليأسِ الروحيّ، لكنْ كلٌّ حسبَ طاقتِهِ وقواه. ليترأَّفِ اللّهُ بنا فنجتازَ هذا الاختبارَ مَرَّةً واحدةً في حياتِنا. لا أعتقدُ أنَّهُ في وسعِ أيِّ إنسانٍ احتمالُ ثقلِ هذا الاختبارِ مرّتين. لكنْ حسبَما أخبرَني شيوخي، يجبُ أنْ نعبرَ جميعُنا في هذا الاختبار، في حالةِ اليأسِ والإعياءِ الكاملِ هذه، قبلَ اتّحادِنا معَ اللّه».

تمتمتُ: «في الحقيقة، لستُ متشوّقًا إلى مثلِ هذا الاختبارِ الذي لا مفرَّ منه».

– «لهذا نحتاجُ إيمانًا وصبرًا عظيمَينِ لأنّه، بالضبط، عندَ دخولِنا تلكَ المرحلةَ من اليأس، يكشفُ لنا اللّهُ عن نفسِه».

سألتُ: «كيفَ خرجَ القدّيسُ سِلوان من يأسِه؟ كيفَ وَجدَ طريقَه إلى اللّه؟»

– «في الحقيقة، لم تكنْ معاناةُ القدّيسِ سِلوان مختلفةً عن معاناةِ يسوعَ

المسيحِ في بستانِ الجثسيمانيّة[١٢٥]، تلكَ المعاناةِ التي أدَّتْ إلى تَعرُّقِ المسيحِ دمًا. أبإمكانِكَ أنْ تتخيَّلَ ذلكَ؟ بالطبعِ، لا يمكنُ لأيِّ إنسانٍ أنْ يحتملَ هذا الشكلَ من المعاناة».

اقترحتُ: «يبدو أنَّ تجربةَ القدِّيسِ سِلوان هي نموذجٌ لِما يسمَّى 'ليلَ النفسِ المظلم'، وهي المرحلةُ التي تسبقُ ارتقاءَ الإنسانِ نحوَ الله».

- «نعم، لقدْ بلغَ القدِّيسُ سِلوان بالفعلِ حالَ ظلامٍ داخليّ. وفيما كانَ لا يزالُ غارقًا في هذا الظلام، ذهبَ إلى كنيسةِ النبيِّ إيليّا للمشاركةِ في صلاةِ الغروب. ثمَّ، بينما كانَ واقفًا أمامَ إيقونةِ السيِّدِ المسيح، في يأسٍ كلّيٍّ وألمٍ عميق، شاعرًا بتخلّي النعمةِ الإلهيَّةِ عنه، رأى المسيحَ متجسِّدًا أمامَه. في تلكَ اللحظة، إمتلأ كيانُهُ بكلِّيَّتِه، نفسًا وجسدًا، بنارِ النعمةِ الإلهيَّة، تلكَ النارِ التي يصحبُها المسيحُ معَه بانحدارِهِ إلى الأرض. في تلك اللحظةِ على وجهِ التدقيق، يغدو الإنسانُ مستودعًا للروحِ القدس».

قلتُ معلِّقًا: «يبدو وكأنَّ القدِّيسَ سِلوان اختبرَ عَنصرتَهَ الخاصَّة».

- «نعم، بالضبط. في تلكَ اللحظة، اختبرَ القدِّيسُ سِلوان سرَّ العنصرة، تمامًا كما اختبرَها رسلُ المسيحِ منذُ ألفَيْ سنةٍ خلت. البشرُ أجمعونَ لديهم الطاقاتُ لاختبارِ ظهورٍ إلهيٍّ مماثل. إنَّها خبرةُ القدِّيسينَ في كلِّ الأجيال، من آدمَ إلى يومِنا هذا. إختبارُ الله، ما شعرَ به القدِّيسُ سِلوان وكلُّ القدِّيسينَ العظماء، لم يكنْ مختلفًا عمَّا اختبرَهُ القدِّيسُ بولس الرسول، أو الأنبياءُ موسى،

---

١٢٥ متّى ٣٠ : ٢٦.

وإبراهيم، وإسحق ويعقوب. كان سياقُ الاختبارِ مختلفًا بينَ كلٍّ منهم، لكنَّ الذي تحدَّث معهم، والذي أعلنَ ذاتَه لهم، كانَ اللّهَ نفسَه».

أشرتُ: «من قراءاتِي عن حياةِ القدّيسِ سِلوان، يخرجُ المرءُ بإنطباعٍ أنَّ النعمةَ الإلهيَّةَ تُستعلَنُ في وعيِه، وتجذبُه إلى حالٍ من النشوةِ والفرح. ولكنْ قد تتراجعُ أحيانًا، فترميهِ في مشاعرِ اليأسِ المطلق».

- «أتَرى، حتّى القدّيسونَ الذين أحرزوا النعمةَ الإلهيَّة، مُعرَّضونَ دائمًا لفقدانِها. من الممكنِ أنْ يسقطوا منها، وعليهم إذَّاك أنْ يجاهدوا بقسوةٍ لاستعادتِها. لهذا بقيَ القدّيسونَ الموقَّرون، مثلَ القدّيسِ سِلوان والشيخِ پاييسيوس، في يقظةٍ مفرطةٍ حتّى رمقِ حياتِهم الأخير».

وقالَ الأبُ مكسيموس متجهِّمًا: «صدقًا، الشعورُ بتخلّي النعمةِ الإلهيَّةِ عنكَ لا يُحتمل. وهذا ما دفعَ القدّيسَ سِلوان، بغيةَ استعادةِ النعمةِ التي فقدَ والحفاظِ عليها، إلى القيامِ بجهاداتٍ قاسيةٍ للغايةِ قد يعتبرُها آخرونَ تحريفًا للمسيحيَّة.

بالطبع، ليسَ صحيحًا أنْ تراها من هذا النحو. فالنفسُ، التي ارتقتْ إلى رؤيةِ اللّهِ والنورِ غيرِ المخلوق، ثمَّ فقدَتْه، تكونُ في حالةِ يأسٍ، لا يُمكنُ أنْ يدركَهُ منْ لم يَخُضْ خبرةً مماثلة. في الحقيقة، كما يقولُ القدّيسُ سلوان، وحدَهُ مَنْ فَقَدَ أحبَّ الناسِ إلى قلبِه، زوجةً أو زوجًا، ابنةً أو ابنًا، يستطيعُ أنْ يتذوَّقَ، إنَّما بضعفٍ، ألمَ مَنِ اختبرَ النعمةَ الإلهيَّةَ ثمَّ فَقَدَها. فمَنْ كانَ في هذه الحالةِ الكثيرةِ الألم، يتصرَّفُ بطرقٍ تبدو لنا غيرَ مفهومةٍ وغامضة. ليسَ في

مستطاعِ الناسِ العاديّينَ أن يفهموا لماذا قد يُغلِقُ ناسكٌ على نفسِه في كهفٍ، لسنواتٍ أو حتّى نهايةِ حياتِه. فمَنْ يقاربُ الحياةَ الروحيَّةَ بعقلِه، سيجدُ مثلَ هذا السلوكِ غريبًا، لا بل انحرافًا عقليًّا».

قلتُ مستنتجًا: «إذن، استعادةُ النعمةِ الإلهيَّةِ تتطلَّبُ جهادًا مضاعفًا، وممارساتٍ نسكيَّةً أكثرَ شدَّة».

أجابَ الأبُ مكسيموس: «ليسَ بالضرورة. فاسترجاعُ النعمةِ لا يعتمدُ على جهاداتِ الفرد. قدْ يذوبُ ناسكٌ في جهادِه النسكيِّ دونَ أيَّةِ نتائج. وآخَرُ قد يُغمرُ بالنعمةِ الإلهيَّةِ، وهو بالكادِ يجاهد».

- «لا أفهمُ ما تعنيه».

- «إسمع. ليسَ هنالكَ من نهجٍ عمليٍّ أو تمارينَ محدَّدةٍ تضمنُ أن يُمنحَ المرءُ تلقائيًّا النعمةَ الإلهيَّة. ليسَ من صيغةٍ متَّبَعةٍ لبلوغِ ذلك. فأيُّ علمانيٍّ بلغَ أعماقَ الاتِّضاع، بقليلٍ من الجهادِ النسكيِّ أو حتّى من دونِه، قد يُخَصُّ بزيارةِ النعمةِ الإلهيَّة. ليسَ في مستطاعِكَ شراءُ النعمةِ الإلهيَّةِ عن طريقِ جهاداتٍ أو تداريبَ عمليَّة. يَدَّعي الكثيرون اليومَ أنَّهم يُصلُّونَ لاكتسابِ مواهبَ روحيَّة، فَيَرَون أنوارًا ورؤًى، أو يشهدونَ ظواهرَ مختلفةً، مفترضينَ أنَّها استعلاناتٌ ملموسةٌ لقوى الروحِ القدس. معظمُ تلكَ الاختبارات، لا يتعدّى كونَهُ أوهامًا، نتاجَ خيالاتِهم النرجسيَّة. دعني أُكرِّرْ ثانيةً، مَنْ ليسَ في اتِّضاعٍ مطلق، مَنْ لا يزالُ مُصابًا بالتفاخر، لنْ يتذوَّقَ أيَّ أثرٍ للنعمةِ الإلهيَّةِ.

إنَّ إعلانَ اللّٰهِ عن ذاتِه في حياةِ الإنسانِ وضميرِه، هوَ حقًّا سرٌّ عظيم.

لذلك، علينا ألاّ نتألّمَ ونقلقَ بشأنِ الناسِ الذين لا يتقبّلونَ الكلمةَ الإلهيّة؛ لا يهمُّ إن كانوا مُعرَّضينَ لها بشكلٍ دائم. فالأمرُ لا يعودُ لنا لنُقرّرَ إنْ كان هذا أو ذاك من الناسِ جاهزًا لتلقّي رسالةِ الله. الأمرُ يعودُ كلّيًا إلى العنايةِ الإلهيّة».

بقولِه هذه الملاحظةَ الأخيرة، سَمِعْنا صوتَ الناقوس، داعيًا الرهبانَ والحجّاجَ لصلاةِ الغروب. انتصبْنا فورًا، وبدأنا السيرَ نحوَ الدير.

قلتُ، فيما كنّا نقتربُ من بوّابةِ الدير: «أبانا مكسيموس، أُلاحظُ أنَّ الرهبانَ والعديدَ منَ الحجّاجِ يجلبونَ مسابحَهم إلى الكنيسةِ أثناءَ خِدَمِ الصلاة. أيَجِبُ أنْ نمارسَ صلاةَ الربِّ يسوعَ أثناءَ الخِدَم؟ أليسَ منَ الأفضلِ أنْ نركّزَ على ما يُقرأُ ويرتّل؟»

- «المهمُّ يا كيرياكو، هو إبقاءُ الذهنِ منشغِلًا بالله. سواءٌ ركّزتَ على كلامِ الصلواتِ الليتورجيّةِ أو ركّزت على اللهِ بتردادِكَ صلاةَ الربِّ يسوع، فالنتيجةُ النهائيّةُ هي دائمًا حفظُ الذهنِ في الله».

- «إذًا، تعتمِدُ أفضلَ ما يناسبُك».

- «نعم. إحفظْ فقطْ ذكرَ اللهِ حيًّا في ذهنِك. بالممارسة، إنْ شاءَ الله، قدْ يصبحُ المرءُ إناءً لنعمةِ الروحِ القدس. وفي وقتٍ ما، ستنزلُ الصلاةُ إلى قلبِكَ وتصبحُ ذاتيّةَ الفعل. عرفتُ في حياتي، لا رهبانًا ونسّاكًا فقط، بل أيضًا بعضَ العلمانيّينَ ممّن غمرتْهم النعمةُ الإلهيّة. أعرفُ رجلًا هيمنتْ عليه النعمةُ برمّتِه حتّى إنّها سلبتْه النوم، ممّا اضطرّنا إلى نصحِه بالتوقّفِ عن الصلاةِ لفترةٍ من الوقت».

- «يَعتبرُ الأطبّاءُ النفسانيّونَ التقليديّونَ مثلَ هذا السلوكِ مَرَضِيًّا».

أجابَ الأبُ مكسيموس بنبرةٍ حادّة: «إذًا عليهم افتراضُ أنَّ العِشقَ العميقَ الذي يجمعُ رجلًا وامرأةً هو حالةٌ مَرَضيَّةٌ أيضًا».

أشرتُ: «من الجهةِ الأُخرى، بعضُ العلماءِ النفسانيّين المُعاصرين، ممَّنْ يأخذونَ الروحانيّةَ بجِدّيّةٍ، يعتبرونَ مثلَ هذه الحالاتِ حالاتِ 'طوارئَ روحيّةً'، تتطلّبُ مقاربةً علاجيّةً مختلفةً كلّيًّا[126]».

وبينما وقفْنا خارجَ البابِ وأنعشْنا أنفسَنا بماءٍ باردٍ يتدفّقُ من جانبِ الجبلِ، قالَ الأبُ مكسيموس: «المطلوبُ هنا هو مرشدٌ روحيٌّ خبيرٌ على درايةٍ بالذي يحدثُ حقًّا، وبما هو أصلحُ للشخص».

وتابعَ الأبُ مكسيموس وهو ينحني ليغسِلَ وجهَه: «أتذكّرُ أيضًا حالةَ أستاذٍ جامعيٍّ من تسالونيكي، جاءَ إلى جبلِ آثوس لإخبارِنا عن تجربتِهِ مع صلاةِ الربِّ يسوع. قالَ مشتكيًا إلى شيخِنا، 'أبتِ، لا أستطيعُ التوقُّفَ عن الصلاة. في داخلي نارٌ تتأجّجُ باستمرار'. كانَ يواجهُ صعوبةً كبيرةً كلّما دخلَ إلى الصفِّ ليحاضرَ طلّابَه. إذ حالما يفتحُ فاه، بدلًا من إلقاءِ المحاضرة، تعتريه رغبةٌ قويّةٌ لتلاوةِ الصلاة. قالَ الأستاذُ للشيخ: 'عندَ تملُّكِ هذا الشعورِ عليَّ، أشعرُ وكأنّي أبكي أمامَ طلّابي، أخاطبُهم عن عمقِ محبّتي لهم. في داخلي، أحسُّ بلهبِ حبِّ اللهِ يحرقُ نفسي وأغدو لا صلةَ لي بكلِّ شيءٍ آخر'».

126 Stanislav Grof and Christina Grof (eds.), Spiritual Emergency: When Personal Transformation Becomes a Crisis (Los Angeles: Tarcher Putnam, 1989).

- «وما العملُ في هذه الحالة؟»

- «بكلِّ بساطة، طلبَ منه شيخُنا أن يتوقَّفَ عن الصلاةِ لفترةٍ وجيزة، لكي يركِّزَ على محاضراتِه. بخلافِ الرهبانِ والنسَّاك، هذا كانَ يعيشُ في العالم. عليه أن يزاولَ عملَهُ في العالَم».

صمَتَ الأبُ مكسيموس لبضعِ ثوانٍ متأمِّلًا، ثمَّ تابعَ قائلًا: «أتَعلَمُ ما اعتادَ القدِّيسُ إفرام فعلَه؟ كانَ يناشدُ اللّٰه ليخفِّفَ من دفقِ نعمتِه في قلبِه، لأنَّه لم يعُدْ في وسعِه أخذُ المزيد. فقَدْ شعرَ أنَّهُ سينفجِرُ من وفرةِ النعمة. أَبوسعكَ أنْ تتخيَّلَ ذلك؟ فالنعمةُ الإلهيَّةُ يُمكنُ أن تكونَ كمحيطٍ يغمرُكَ. كما سبقَ وأخبرتُك، هذا حصلَ أيضًا مع الشيخِ بايسيوس».

ثمَّ، وكأنَّهُ استنارَ داخليًّا، أضافَ الأبُ مكسيموس قائلًا: «أعلنَ المسيحُ أنَّه جاءَ إلى العالمِ ليُلقيَ نارًا في الأرض. أحقًّا جاءَ ليُحرقَ كوكبَنا؟ منَ الحماقةِ افتراضُ هذا. جاءَ إلى العالمِ ليُلهبَ قلوبَ الناسِ بنيرانٍ يستحيلُ على سيَّاراتِ الإطفاءِ إخمادُها، ولا يستطيعُ إنسانٌ إشعالَها. وحدَه المسيحُ يمكنُهُ أنْ يُشعِلَها في قلبِ الإنسان، ووحدَه الإنسانُ في وسعِه إخمادُها».

- «كَيفَ يسعُهُ إخمادُها؟»

أجاب: «بالطبع، من خلالِ أفكارِه وأعمالِه الأثيمة. أترى، الخطيئةُ هي كالمفتاحِ الكهربائيّ. ما إن تضغطُ على الزرِّ، حتَّى ينطفئَ النورُ فورًا».

+ + +

دخلنا إلى باحةِ الديرِ بينما كانَ السيَّاحُ محتشدينَ حولَ دليلِهم التي كانت تتكلَّمُ معَهم بالألمانيَّة، والرهبانُ يتوجَّهونَ في عجلةٍ نحوَ الكنيسةِ للمشاركةِ في صلاةِ الغروب. طلبَ منّي الأبُ مكسيموس أنْ أتبعَهُ إلى مكتبِه، فلديه شيءٌ يريدُ إعطاءَه لي. أوصاني مناولًا ايَّايَ كتابًا: «إقرأ هذا القسم، هذا المساء. سيساعدُكَ أن تفهمَ لماذا القدِّيسونَ، الذين ذاقوا النعمةَ الإلهيَّةَ، يشعرُونَ بالاتِّضاعِ العميق».

شَكرتُه، وضعتُ الكتابَ في حقيبتي، وذهبنا معًا إلى صلاةِ الغروب.

ذلكَ المساء، وكما طلبَ منّي، طالعتُ أعمالَ آڤا دوروثاوس، وهو أحدُ آباءِ الكنيسةِ الأوائل، والذي شكَّلَتْ تعاليمُه، لقرونٍ، غذاءً روحيًّا للرهبانِ والنسَّاك[١٢٧]. القسمُ الذي طلبَ منّي الأبُ مكسيموس مطالعتَه كان في التواضع، الشرطِ الضروريِّ للحياةِ الروحيَّةِ وأساسِ 'الصلاةِ الكاملة'.

بدأتُ المطالعة:

> التواضعُ هو أعظمُ الفضائل، ويشملُها كلَّها. وحدَه التواضعُ لهُ قوَّةُ جذبِ النعمةِ الإلهيَّةِ إلى روحِ الإنسان. التواضعُ يُحصِّنُ الإنسانَ من الغضبِ ويجعلُه عاجزًا عن إغضابِ أحد.

وفقًا لآڤا دوروثاوس، إذا تعرَّضَ الإنسانُ المتواضعُ لسوءٍ، فهو دائمًا يُحمِّلُ نفسَهُ المسؤوليَّةَ كاملة.

> لا ينتقدُ أحدًا ويرفضُ لومَ الآخرينَ كمسبِّبينَ لمشاكلِه مهما

١٢٧ القدّيس دوروثاوس غزّة. التعاليم الروحيّة. منشورات التراث الآبائي ١٩٩٣- نقلها إلى العربيّة الأرشمندريت إفرام كرياكوس.

كانت. لذلكَ، ذهنُه دومًا في سلامٍ.

فيما كنتُ أقرأ، تأسّفتُ على الهوّةِ الكبيرةِ التي تفصلُ بينَ نظرةِ آڤا دوروثاوس وتعاليمِه عن التواضعِ، وبينَ مفهومِي لها. فكّرتُ، ربّما أرادَ الأبُ مكسيموس أن أستخلصَ استنتاجاتيَ الخاصّة.

يعلّمُ آڤا دوروثاوس أنّه يوجدُ نوعان من التواضعِ. أوّلًا، عليكَ دومًا أن تعتبرَ الآخرينَ أحكَمَ وأفضلَ منكَ، وثانيًا، ليسَ عليكَ أبدًا أنْ تَنسبَ أيَّ إنجازٍ تُحرزُهُ إلى قدراتِكَ الشخصيَّة، بلْ إلى النعمةِ الإلهيَّة. هذا هو الشكلُ المثاليُّ للتواضعِ الذي ميّزَ القدّيسينَ على مدى الأجيال.

> كلّما اقتربَ القدّيسونَ من الله، يكتشفون أكثرَ فأكثرَ ذواتِهم الخاطئةَ وغيرَ المستحِقّة.

تابعتُ المطالعةَ وصادفتُ مقطعًا يوضحُ فيه آڤا دوروثاوس بمَثَلٍ هذا القولَ المتناقِض. كَتَبَ:

> أذكرُ مرّة، أنّهُ بينما كُنّا نتحدّثُ عن التواضعِ، سمِعَنا أحدُ نبلاءِ غزّة نقول، 'كلّما اقتربَ أحدُنا من الله، يزدادُ حسُّه بأنّه خاطئٌ'. سألَ النبيلُ متحيّرًا، 'كيفَ هذا، يا صاحبَ السيادة؟'. أجبتُه، 'أخبِرْني فقطْ كيفَ تنظرُ إلى نفسِكَ في بلدتِك'. أجابَ النبيلُ، 'أنا أهمُّ النبلاءِ فيها'. ثمّ سألتُه، 'إنْ غادرْتَ بلدتَكَ وذهبتَ إلى قيصريّة، فكيفَ ستنظرُ إلى ذاتِك؟'. قال، 'سأَعتبرُ نفسي أحقرَ النبلاءِ المحلّيّينَ'. عُدْتُ وسألتُه، 'وإنْ غادرْتَ إلى أنطاكيا، إذّاكَ كيف سترى نفسَك؟'. جاءَ جوابُه، 'مجرّدَ فلّاحٍ عديمِ القيمة'. ثمّ سألتُه، 'لنفترضْ أنّكَ غادرتَ

بلدتَكَ إلى القُسطنطينيَّة، وسكنتَ بجوارِ القصرِ الملكيّ، ماذا سيكونُ شعورُك؟'. أجابَ، 'سأشعرُ بأنّي عالةٌ مطلقة'. فقلتُ له، 'هذا هو بالضبطِ ما يشعرُ به القدّيسون. فكلّما اقتربوا من اللهِ ازدادَ شعورُهم بأنّهم أثمةٌ وعديمو الاستحقاق'.

وضعتُ الكتابَ قربَ السرير، رفعتُ ذراعيَّ إلى وراءِ رأسي، متأمّلًا في صعوبةِ اكتسابِ التواضعِ الحقّ، خاصّةً في عصرِنا المنغمسِ في الأنا والفرديَّة. رغمَ ذلك، يُحذِّرُنا القدّيسونَ أنَّ الإنجازاتِ الدنيويَّة، والبراعةَ الفلسفيَّة، والقوى النفسيَّةَ الخارقةَ للطبيعة، لا يمكنُها أنْ تُعيدَ رباطَنا بالله. إنَّما بالتوبةِ والتواضعِ نستعيدُ اتّحادَنا به.

قلتُ متنهّدًا: «بلوغُ فضيلةِ التواضعِ أمرٌ صعبٌ، صعبٌ، صعبٌ جدًّا». ثمَّ أطفأتُ الأنوار.

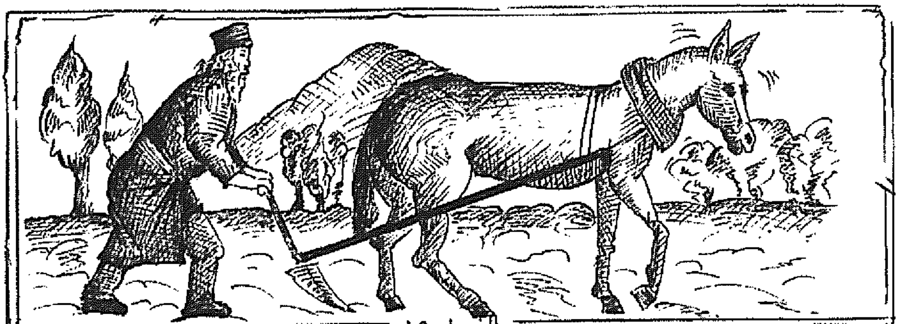
الفصل ١٥

الدربُ الثلاثيّ

غادرتُ قبرص أواخرَ شهرِ آب، بعدَ أيّامٍ قليلةٍ من مشاركتي في عيدِ رقادِ والدةِ الإله، أحدِ الاحتفالاتِ الرئيسيَّةِ في ديرِ الفائقةِ القداسة. عزمتُ أنْ أعودَ في عيدِ الميلادِ وفي الصيفِ القادمِ للقاءاتٍ إضافيَّةٍ معَ الأبِ مكسيموس. فقد كانَ واضحًا أنّي أحتاجُ لمزيدٍ من التواصلِ معَه لتعميقِ فهمي للتقليدِ الروحيِّ الآثوسيّ.

ما إنْ وطِئتْ قدمايَ مطارَ بانغور الدّوليّ، حتّى قرأتُ لافتةً استفزازيَّةً كبيرةَ الحجم: 'أهلًا بكم في ماين، حيثُ هكذا ينبغي أنْ تُعاش الحياة'. شعرتُ بالتعبِ لكنّي كنتُ مبتهجًا. إذْ، بقدرِ اعتزازي بمغامراتي الروحيَّةِ مع الأبِ مكسيموس ورهبانِ ديرِ الفائقةِ القداسة، كنتُ سعيدًا بعودتي إلى بيتي لإعادةِ الروابطِ مع إيميلي وَولدَينا اليافعَين ڤاسيا وقُسطنطين. استطعتُ سريعًا أنْ أتغلَّبَ على الصدمةِ الحضاريَّةِ وأتأقلمَ مع بيئتي الجديدة، وأتكيَّفَ مع التقويمِ المختلفِ جذريًّا، الذي اعتدْتُ من خلالِه برمجةَ حياتيَ اليوميَّة. لم أَعُدْ مُلزَمًا بالاستيقاظِ عندَ الثالثةِ والنصفِ للمشاركةِ في الصلاةِ لأربعِ ساعاتٍ متواصلةٍ حتّى

بزوغِ الفجر. كما أنّي لم أعُدْ مُضطرًّا أنْ أختليَ في قلاّيتي بعدَ الساعةِ السابعةِ والنصفِ مساءً، للقراءةِ والصلاةِ والتأمُّل. بدلًا من ذلك، عدتُ تلقائيًّا إلى برنامجيَ المعتاد، واستأنفتُ نزهاتي الطويلةَ مع إيميلي في الغابةِ، فيما أطلعَتْني على عملِها في مشروعِ «قريةِ السلامِ البيئيَّة»، كما ساعدَتْني في استخلاصِ المعلوماتِ والخبراتِ التي جلبْتُ معي من قبرص. كذلك، استأنفتُ نزهاتي مع صديقي مايك لويس الذي زوَّدَني باقتراحاتٍ قيِّمةٍ منْ منظورِ شخصٍ لا هو مسيحيٌّ ولا يونانيّ. هذه المحادثاتُ المشّائيّةُ لعبتْ دورًا تحفيزيًّا في تنظيمِ أفكاري حول التقليدِ الروحيِّ الذي تعرَّضتُ له، وفي فهمِ كيفيَّةِ متابعتي الكتابة. فمرَّةً أثناءَ إحدى هذه المُحادثاتِ برفقةِ إيميلي، أدركتُ أنَّ كلَّ رهبانِ آثوس ونسّاكِه يُسلِّمونَ بوجودِ ثلاثِ مراحلَ محدَّدةٍ في المسيحيَّةِ في بحثِنا عن اللّٰه. إنَّها واضحةٌ جدًّا، لكنْ ببساطة، أخفقَ علماءُ الغربِ في ملاحظتِها. في لحظةِ إدراكي تلك، عادتْ إلى ذهني كلُّ تعاليمِ الأبِ مكسيموس وتجمَّعتْ في وحدةٍ مترابطة.

أوضحتُ يومَذاك إلى إيميلي، أنَّ رحلةَ النفسِ إلى اللّٰهِ يجبْ أنْ تعبُرَ في ثلاثِ مراحلَ محدَّدةٍ ومميَّزة. في بادِئ الأمر، هنالك مرحلةُ التطهيرِ C-tharsis، أي تنقيةِ النفسِ من شهواتِ الأنا. يليها مرحلةُ التنوير Fotisis، أو إستنارةُ النفس، إحدى هباتِ الروحِ القدسِ للنفسِ التي تطهَّرت. وأخيرًا، تأتي مرحلةُ التألُّهِ Theosis، أي الاتّحادُ مَع اللّٰه، كمقرّ سُكنى نهائيّ للنفسِ البشريَّة. يستحيلُ بلوغُ المرحلتَينِ الأخيرتَين، قبلَ عبورِ النفسِ في نارِ التنقيةِ من أهواءِ الأنا.

بالإضافةِ إلى مشاركةِ هذه الأفكارِ مع إيميلي ومايك، سنحَتْ ليَ الفرصةُ أنْ أُقدِّمَها أيضًا في مؤتمرٍ عُقِدَ في مونتريال في شهرِ أيّارَ الذي تلا. الموضوعُ المحوريُّ لذلكَ المؤتمرِ السنويِّ كانَ أَوْجُهَ التداخلِ بينَ تقاليدِ العالمِ الحكيمةِ والعلمِ الحديث. التحضيرُ لمحاضَرتي ساعدَني في استخلاصِ أهمّيّةِ الدربِ الثلاثيِّ هذا، كما فهِمْتُهُ من خلالِ بحثي في الروحانيّةِ الآثوسيّةِ والتدرُّبِ مع الأبِ مكسيموس.

أخبرْتُ الجمهورَ الحاضر، أنَّه وَفقًا لتقليدِ الآباءِ القدّيسينَ الحكيم، التنقيةُ ضروريّةٌ في مُساعدتِنا لتخطّي عقبتَينِ أساسيَّتَينِ تُبقيانِنا معزولِينَ عن معرفةِ اللهِ ومعاينتِه. العقبةُ الأساسيَّةُ هي، أوّلًا وقبلَ كلِّ شيء، مجموعُ أهوائِنا ورغباتِنا الدنيويَّة. وهذه الأهواءُ هي حصيلةُ افتتانِ عقولِنا وقلوبِنا، وأسرِها في هذا الكونِ المادّيِّ الفادحِ العابر، معَ آلافِ التجاربِ والإغراءات.

العقبةُ الأساسيَّةُ الثانيةُ التي تُعيقنا عن معرِفةِ الله، هي اعتمادُنا المطلقُ على حواسِنا وفكرِنا العقلانيِّ لِفَهمِ الحقيقة، التي أمسَيْنا نُوازيها بالمادّةِ الفادحة. ولقد سقطَ مُعظمُ فلسفاتِ الغربِ ولاهوتُهُ ضحيَّةَ هذه المُغالطةِ العقلانيّةِ والحسّيّة.

فبالتركيزِ في المقامِ الأوّلِ على العالمِ المادّيّ، نَفْقدُ صِلَتَنا مع السماء. نَفقدُ العلاقةَ التي تمتَّعَ بها آدمُ وحوّاءُ مع اللهِ قبلَ السقوط، أو التي كانت للابنِ الضالِّ قبلَ قرارِه تركَ القصرِ السماويّ. إنَّ هذا الانشقاقَ هو في صميمِ مأزِقنا الوجوديّ وسببُ كُلِّ ما لحقَ من اضطرابٍ وآلامٍ نفسيّة.

كيفَ يمكنُ للإنسانِ أنْ يعالجَ هذا الانشقاقَ ويحصلَ على التطهير؟ الجوابُ الآثوسيُّ هو: من خلالِ النسكِ أي التدريبِ الروحيِّ. ممارسُ النسكِ بصورةٍ دائمةٍ هو «الناسك» الذي، بخلافِ المفهومِ السلبيِّ السائدِ عن معنى تلك الكلمة، هو من يتعاطى حصريًّا تمارينَ روحيَّةً من أجلِ أنْ يحظى بالألوهيَّةِ، الجائزةِ المطلقة. فكما يُخضِعُ عدَّاءُ المراتون جسدَهُ لتدريبٍ صارمٍ ومؤلمٍ في غالبِ الأحيان، كذلك على الناسكِ أنْ يَخضعَ لتدريبٍ مُنتظمٍ وشاقٍّ. قد تبدو هذه الأعمالُ غيرَ مفهومةٍ وحتَّى ماسوشيَّةً بالنسبةِ لغريب.

النسكُ، حسبَ شيوخِ آثوس، يعني التغلُّبَ على إغراءاتِ الحواسِّ التي تستعبِدُ الذهنَ والقلبَ في شؤونِ هذا العالمِ الماديّ. على الرهبانِ والراهبات، بالإضافةِ إلى العلمانيّينَ المُلتزمينَ، أنْ يَستبدِلوا مُتعةَ الأكلِ بالصومِ الدوريِّ والمنظَّمِ كأحدِ التمارينِ الروحيَّة، ليُسيطروا على شهوةِ الشراهةِ. عليهم أيضًا أنْ يَستبدلوا الحياةَ الجنسيَّةَ بالعفَّة، لكيْ يُحرِّروا طاقتَهم ويُعيدوا توجيهَها حصريًّا نحوَ الهدفِ الأسمى وهو تأسيسُ علاقةِ 'عشقٍ' معَ اللهِ القدُّوس. حبُّ القنيةِ يجبُ أنْ يتراجعَ أمامَ الفقرِ وعدمِ القِنية. علاوةً على ذلك، يجبُ على المبتدِئينَ التوَّاقينَ، أنْ يُخْلُوا ذواتِهم من جميعِ الرغباتِ والطموحاتِ الدنيويَّة، ويتنازلوا عن أيَّةِ شهرةٍ أو مراكزِ قوَّةٍ اجتماعيَّةٍ، كانوا قد تبوَّأوها في المجتمع[128].

تُقدِّمُ المسيحيَّةُ الشرقيَّةُ بعضَ حالاتٍ ملحوظةٍ من تاريخِ أفرادٍ رفضوا ثرواتٍ باهظةً ونفوذًا عظيمًا من أجلِ حياةٍ تأمُّليَّةٍ غيرِ منقطعة. إحداها حالةُ

128. For a comparative study of the phenomenon of eremitism, see Peter France, Hermits: The Insights of Solitude (New York: St. Martin's Press, 1996).

القدّيسِ سابا[١٢٩] أعظمِ القدّيسينَ الصربيّينَ، الذي كانَ ابنَ ملكِ صربيا، ثمَّ تنازلَ عن عرشِهِ والتحقَ بديرِ خيلاندار، الديرِ الصربيِّ في جبلِ آثوس. وعادَ لاحقًا إلى صربيا كي يخدمَ مُواطنيهِ السابقينَ كمعلّمٍ وشافٍ روحانيّ[١٣٠].

يجبُ على العلمانيّين أنْ يُنمُّوا إحساسَ حرّيّةٍ داخليّةٍ من الممتلكاتِ الخارجيّةِ والمراكزِ الأرضيّةِ والإعتدادِ بالنفس. مطلوبٌ منهم استخدامُ أمورِ هذا العالمِ من دونِ التعلُّقِ بها عاطفيًّا والتعبُّدِ لها. يمكنُ للناسِ العاديّينَ أيضًا ممارسةُ النسك، لأنّه بحسبِ الآباءِ القدّيسين، الحياةُ بحدِّ ذاتِها هي شكلٌ من أشكالِ النسك. بالممارسةِ هذه، مهما يجري من أحداثٍ يجبُ أن يُنظر إليها كتجربةٍ، يمكنُ استثمارُها روحيًّا لإحرازِ التواضع، السبيلِ الأوحدِ والحقيقيِّ إلى الله. التواضعُ أو التغلُّبُ على أهواءِ الأنا يُقتنى إمّا في إطارِ الرهبنة، أو ضمنِ الحياةِ في العالمِ الشاسعِ بتجاربِهِ الإيجابيّةِ والسلبيّةِ التي لا تُعدُّ ولا تُحصى. على سبيلِ المثال، تعتبرُ الكنيسةُ الزواجَ أحدَ أشكالِ النسك، حلبةٌ فيها يتجاوزُ أحدُنا أناه من أجلِ شريكِه. قالَ الأبُ مكسيموس مرّةً إنّه من الخطإِ اعتبارُ الزواجِ وسيلةً للإنجاب، كما يعتبرُهُ المسيحيُّون التقليديُّون. فالهدفُ الأساسيُّ من الزواجِ هو النسكُ الذي يمارسُهُ شخصان، مطلوبٌ منهما أنْ يتغلّبا على التباعدِ في ما بينَهما أثناءَ صعودِهما المشتركِ نحوَ الله.

عندما يتجرَّدُ أحدُنا من كلِّ ارتباطٍ أو اهتمامٍ دنيويٍّ ويبلغُ حياةَ النسك،

١٢٩ هو الأمير راستكو وريث عرش الإمارة الصربيّة وابن الأمير اسطفان نمانجا تخلّى عن هذا المجد الأرضيّ مختارًا الحياة الديريّة. فلجأ سرًّا إلى الجبلِ المقدَّسِ وصارَ راهبًا باسم سابا. وبعدَ أنْ مكثَ في دير ڤاتوبيذي لحقَ به والدُه وصار هو أيضًا راهبًا باسم سمعان.

١٣٠ عاد إلى صربيا على أثر إنشاء كنيسة صربيا الأرثوذكسيّة المستقلّة وانتخابه أوّل رئيس أساقفةٍ عليها.

حينذاك، يمتلئُ الذهنُ من حقيقةِ اللّه. تحتلُّ الصلاةُ الدائمةُ مكانَ الاعتمادِ الكلّيّ على المنطقِ والفكرِ البشريّ في سعْيِ الإنسانِ لمعرفةِ طبيعةِ الحقّ. أعاشَ الإنسانُ في ديرٍ أم في العالم، تبقى ممارسةُ الصلاةِ ركيزةَ حياتِهِ الروحيَّة.

عندما يلتزِمُ المرءُ عملًا روحيًا جِدّيًا، فأحسنُ ما يفعلُهُ هو اللجوءُ إلى مرشدٍ روحيٍّ خبيرٍ، إلى شيخٍ ممتلئٍ بمواهبِ الروح. شيخٌ كهذا، يتحمَّلُ المسؤوليَّةَ المقدَّسةَ لمراقبةِ النموّ الروحيّ للمبتدِئ، ويساعدُهُ على الإبحارِ وسطَ ألوفِ العوائق، التي من المرجَّحِ مصادفتُها في عملٍ روحيٍّ مماثل. حافَظَ التقليدُ الآثوسيُّ على النمطِ «المشيَخيّ» الإرشاديّ، لكن يبدو أنَّهُ تلاشى في كلِّ الأمكنةِ الأُخرى ضمنَ الحركةِ المسيحيَّة. في حالِ غيابِ شيخٍ مرشدٍ، في وسعِ العلمانيِّ أنْ يتغذّى روحيًا من خلالِ تقليدِ الكنيسة. يمكنُهُ أيضًا أن يدرسَ الكتبَ المقدَّسةَ مثلَ الإنجيلِ وسِيَرِ القدّيسينَ وتعاليمِهم. لقد قالَ الأبُ مكسيموس مرارًا، إنَّ القدّيسينَ بوسعِهم أنْ يخدموا كمناراتٍ مرشِدةٍ في المسارِ الروحيّ. فَهُم يُعلّمونا كيفَ نحيا وكيفَ ننمّي فضيلةَ التمييزِ الضروريَّةَ لكي نميّزَ الأصيلَ من المزيَّف، السيّدَ أو القدّيسَ من النبيِّ الكاذبِ والدجّال، والملائكةَ من الشياطين.

أخبرتُ الحضورَ في مونتريال أنَّ فكرةَ التنقيةِ مفقودةٌ على نحوٍ خطير، وقد أُغفِلَتْ إغفالاً شبهَ نهائيٍّ في الغرب. حتّى ضمنَ تيّارِ «العصر الجديد» NEW AGE، الحركةِ الروحيَّةِ المستندةِ على الطاقةِ البشريَّةِ والتي ازدهرتْ في الأيّامِ الأخيرة، لم تُعطَ التنقيةُ اهتمامًا يُذكرُ من حيثُ أنّها تحويلُ تركيزِ الذهنِ من الانشغالِ بالأنا إلى اللّه. ذلك أنَّ التركيزَ في هذا التيّار، انصبَّ على التقْويةِ

الشخصيَّة، على التحوُّل، وبلوغِ حالاتِ النشوةِ والقوى النفسيَّة. لذا، إحدى المواهبِ الروحيَّةِ التي يُمكنُ أنْ يجلِبَها الشرقُ المسيحيُّ إلى الغربِ المُعاصر، هي منهجيَّةُ التنقية لكي يتخلَّصَ الإنسانُ من عبادةِ الأنا.

تابَعتْ مُحاججًا، أنَّ الاستنارةَ لا يمكنُ اكتسابُها بالجهدِ البشريّ. الإستنارةُ هي الحصيلةُ الطبيعيَّةُ للعملِ المنفَّذِ خلالَ مرحلةِ التطهيرِ السابقة، وتُمنحُ للقلبِ هبةً من الروحِ القدس. فقط في مرحلةِ التنقية، تَفعيلُ الإرادةِ البشريَّةِ ممكنٌ ولازمٌ. والإستنارةُ، هبةُ النعمة، تُشكِّلُ مع أمورٍ أُخرى، الحكمةَ المقدَّسةَ بذاتِها. في هذه المرحلةِ تغدو النفسُ المُطهَّرةُ، أي القدِّيس، قناةً يُعلِنُ اللهُ من خلالِها حكمتَه. وهذا هو المعنى الحقيقيُّ للإستنارة.[١٣١]

يُعلِّمُ الآباءُ الشيوخُ أنَّ النفسَ التي تطهَّرَتْ من أهواءِ الأنا، وبلغَتْ مرحلةَ الاستنارة، تُمنحُ عادةً مواهبَ الروح، كالرؤى التنبُّؤيَّة، وصنعِ الأشفية، ومعرفةِ المستقبلِ وقدراتٍ أُخرى تبدو 'خارقةً للطبيعة'، إذْ تنتهِكُ قوانينَ الفيزياءِ المعروفة. ولكن، الأهمُّ من كلِّ ذلك، أنَّ الاستنارةَ تعني مُعاينةَ النورِ الإلهيِّ غيرِ المخلوقِ واختبارَه. إنَّه الاختبارُ السرِّيُّ لموسى على جبلِ سيناء، وللرسلِ في العنصرة، ولكلِّ القدِّيسينَ عبرَ العصور. إنَّهُ نورُ المسيحِ على جبلِ ثابور.

قبلَ رقادِه عام ١٩٩٤، إئتمنَ الشيخُ پاييسيوس كاهنًا راهبًا مقرَّبًا إليه، على اختبارٍ إستثنائيٍّ له مع النورِ غيرِ المخلوق، يتطابقُ مع اختباراتٍ أُخرى. قال الشيخ پاييسيوس: «ذاتَ ليلة، فيما كنتُ أتلو صلاةَ الربِّ يسوع وحدي

131 Kontzevitch, The Acquisition of the Holy Spirit.

في قلّايتي، ابتدأتُ أشعرُ بفرحٍ سماويّ يَغمرُني. فقلّايتي المُظلمةُ المضاءةُ بشمعةٍ واحدةٍ فقط، أخذتْ تمتلئُ تدريجيًا من نورٍ فائقِ البهاء، لونُهُ أبيضُ مائلٌ إلى الزُّرقة. في البداية، كانَ النورُ قويًّا جدًّا، ولكن، بعدَ ذلك، ألِفَتْ عيناي تألُّقَه. كانَ هذا النورَ غيرَ المخلوق! بقيتُ في تلكَ الحالةِ ساعاتٍ طويلةً فاقدًا الإحساسَ بالأمورِ الأرضيّة. عشتُ في عالمٍ روحيٍّ مختلفٍ بالكلّيّةِ عن هذا العالمِ الشهوانيّ.

وأنا في تلك الحالة، كانت لي رؤًى وخبراتٌ سماويّةٌ فائقةُ الطبيعة. وَمَضَتِ الساعاتُ من دونِ أنْ أشعرَ بها. ثمّ، بدأَ النورُ غيرُ المخلوقِ بالإنحسارِ شيئًا فشيئًا، وعدتُ أنا إلى حالتي السابقة. أحسستُ بالجوعِ والعطش، فأكلتُ قطعةَ خبزٍ يابسٍ وشربتُ قليلًا من الماء. كنتُ تعبًا، فجلستُ لأستريحَ قليلًا. شعرتُ أنّي مثلَ الحيوان، وحزِنْتُ على نفسي كَوني لا أختلفُ عن البهائمِ في شيء. هذا التواضعُ الطبيعيُّ تولّدَ في داخلي نتيجةَ تغيُّرِ حالتي. دخلتُ، مِنَ الحالةِ الروحيّةِ التي كنتُ فيها إلى هذه الحالة، وأدركتُ عمقَ الاختلافِ، فلَمْ يبقَ لي إلاّ أنْ ألومَ نفسي وأشعرَ بحقارتي. خرجتُ من قلّايتي معتقدًا أنّ الوقتَ لا يزالُ ليلًا وأنّ هناكَ بدرًا في السماء. توجّهتُ إلى قلّايةِ راهبٍ كان يقيمُ بالقربِ من قلّايتي، وسألتُه عن الوقت. كانت العاشرةَ صباحًا. فالنورُ غيرُ المخلوقِ كانَ قويًّا جدًّا بحيثُ أنّ نورَ النهارِ بدا لي مثلَ الليل، والشمسَ مثلَ القمر!»[132]

132 Dionysios Tatses, O Asketes Tes Panagoudas [The Ascetic of Panagouda] (Konitsa, Greece: Melissa Press, 1998), pp. 39-41.

اختبارُ النورِ غيرِ المخلوقِ قدْ يأخذُ أشكالًا أُخرى. قدْ يجلبُ ظواهرَ شفاءٍ عجائبيَّةً ويعملُ كدرعٍ واقٍ ضدَّ الأخطارِ الخارجيَّة. حدثٌ استثنائيٌّ وردَ في قصَّةِ الناقدِ الفنيِّ الروسيِّ الشهيرِ بيتر أندريفيتش سترلتزوف، الذي التحقَ بديرِ أوبتينا، وفيما بعدُ صُيِّرَ كاهنًا باسم أرساني. فأثناءَ الإرهابِ الستالينيّ، نُفيَ الأبُ أرساني إلى أحدِ المعتقلاتِ السيِّئةِ السمعةِ في سيبيريا. أثناءَ السنواتِ التسعَ عشرة، بين ١٩٣٩ و١٩٥٨، التي أمضاها في المعسكرِ تحتَ ظروفٍ قاسيةٍ جدًّا، شفَى الأبُ أرساني السجناءَ وأدخلَ التعزيةَ والرجاءَ في قلوبِ الكثيرِ منهم، وكان بينهم شيوعيُّونَ ومجرمون. كثيرٌ من بينِ هؤلاءِ، بسببِ لطفِهِ ومحبَّتِهِ للآخَرِ صاروا تلاميذَ له. أحدُ أبرزِ الأحداثِ التي ذُكرَتْ في سيرتِهِ هي يومَ اقتيدَ الأبُ أرساني من الثكنةِ وسجينًا آخرَ شابًّا يُدعى ألكسي، وسُجنا في غرفةٍ صغيرةٍ غيرِ مُدْفأةٍ مصنوعةٍ من ألواحٍ معدنيَّة. عقابُهما كانَ الحبسَ مدَّةَ ثمانٍ وأربعينَ ساعة. في الخارج، كانتِ الحرارةُ تبلغُ ثلاثين درجةً تحتَ الصفر. وهذا يعني، في الواقع، الحكمَ عليهما بالموتِ الأكيدِ وبلا شفقة. بعدَ مرورِ ساعاتِ العقابِ الثماني والأربعين، فتحَ الحرَّاسُ بابَ الزنزانةِ متوقِّعينَ رؤيةَ جثَّتَين متجمِّدَتين.

وفقا لكاتبِ سيرتِه، ما إنْ أغلقَ الحرَّاسُ بابَ الزنزانة، لم يعترِ الأبَ أرساني أيُّ قلقٍ أو خوف، بل نصحَ رفيقَهُ الشابَّ اغتنامَ الفرصةِ التي مُنحتْ لهما للصلاةِ بصوتٍ عالٍ، من دونِ خوف. وعلى الفور، دخلَ الأبُ أرساني في حالةِ صلاةٍ مكثَّفةٍ بلا انقطاع. إعتقدَ ألكسي غيرُ المتديِّنِ أنَّ الأبَ أرساني فَقَدَ صوابَه. بدأَ يشعرُ بجسمِهِ يتجمَّد، فهَيَّأَ نفسَه للمَوت. ملأَ صوتُ الأبِ

أرساني المكان. وفجأة، تبدّلَ كلُّ شيء: الظلامُ، البرودة، تَخدُّرُ الجسد، الألم، والخوف. استدارَ ألكسي نحوَ الأبِ أرساني، ولم يصدّقْ عينَيه. فالزنزانةُ اتَّسعت، وشعَّ فيها نورٌ بهيٌّ وبدَتْ شبهَ كنيسة. كانَ الأبُ أرساني مرتديًا ثيابًا بيضاءَ لامعةً ويصلّي بصوتٍ عالٍ رافعًا يدَيه عاليًا نحوَ السماء. ووقفَ عن يمينِه ويسارِه رجلانِ وسيمانِ بملابسَ لامعة. نهضَ ألكسي. شعرَ بدفءٍ في جسدِه، واستعادَ التنفُّسَ بشكلٍ طبيعيّ، كما امتلأَ قلبُه فرحًا. وإذْ شعرَ بحضورِ اللّٰه معَهما، بدأَ يصلّي مع الأبِ أرساني. مرّتَين، إجتاحَتْ ألكسي أفكارٌ خارجيّةٌ مهاجِمةٌ موحِيةٌ له أنَّهما على وشكِ الموت، وأنّهما في حالٍ من الهذيان. لكنّ كلَّ شيءٍ بدا مختلفًا وحقيقيًّا. من ثمَّ، طلبَ منه الأبُ أرساني أنْ يستلقيَ وينامَ لبعضِ الوقت، بينما تابعَ هو الصلاة. بعدَ ساعاتٍ سَمِعا أصواتًا وقرعًا على الباب. فَتحَ ألكسي عينَيه، ورأى الأبَ أرساني لا يزالُ مصلّيًا. أمّا الشخصانِ الواقفانِ عن يمينِه ويسارِه، فبارَكاهما وانصرفا فورًا. وراحَ النورُ الساطعُ يبهَتُ شيئًا فشيئًا، ووجدا نفسَيهما من جديدٍ في الزنزانةِ الضيّقةِ المتجمّدة. فَتحَ الحرّاسُ البابَ فانذهلوا. فبدلًا من جثّتَينِ مجمّدتَين، وَجدوا الإثنينِ واقفَينِ وعلاماتُ الهدوءِ والابتسامِ باديةٌ على وجهَيهما. ببساطةٍ قالَ الأبُ أرساني للحرّاسِ المنذهلين: «نحنُ على قيدِ الحياة»، من دونِ أن يعطيَ أيّةَ إيضاحات.[١٣٣]

تجدرُ الإشارةُ إلى أنّه يُمكنُ للنورِ غيرِ المخلوقِ أنْ يسطعَ، وبشكلٍ مفاجئٍ، على أيِّ إنسان، بغضِّ النظرِ عن وضعِه. لم يكنْ ألكسي، مؤمنًا باللّٰه، مع ذلك، إختبرَ النورَ غيرَ المخلوقِ الذي لمْ يُنقذْ حياتَه فقط، بل حوّلَه إلى

١٣٣ الأب أرساني. تعريب عن الإنكليزيّة ونشر دير القدّيس جاورجيوس - دير الحرف.

شخصٍ آخر. شاول كانَ مضطهِدًا للمسيحيّينَ إلى أنْ سقطَ عن جوادِه، وهو في طريقِهِ إلى دمشق، وأُصيبَ بعمًى مؤقّتٍ إثرَ سطيعِ النورِ غيرِ المخلوق. تلكَ التجربةُ دفعَتْهُ لإنْجازِ مهمّتِهِ التاريخيّةِ الإستثنائيّةِ كَبولسَ القدّيسِ رسولِ الأممِ.

عندما تُمنحُ هباتُ النعمةِ لإنسانٍ بواسطةِ الإستنارة، يُصبح التألُّهُ الغايةَ التاليةَ والنهائيّةَ في رحلةِ النفس. هذه المرحلةُ تسمو على كلِّ المراحل، وتتحدّى كلَّ المفاهيمِ البشريّة. حسبَ تقليدِ الشيوخِ القدّيسينَ والمسيحيّةِ عامّةً، النفسُ لا تفقِدُ فرادتَها عندَ عودتِها إلى اللّه. فاتّحادُها باللّهِ لا يعني انْصِهارَها بطريقةٍ تُفقِدُها استقلاليّتَها أو تُحَطِّمُها. بعودتِه إلى قصرِ أبيه، لم يفقِدِ الابنُ الضالُّ هويّتَه. على العكس، فإنّه جلبَ معَه الاختباراتِ المتراكمةَ من رحلتِهِ الدنيويّةِ إلى حالتِهِ الجديدةِ المؤلّهة.

قد تكونُ هذه النقطةُ بالتحديدِ إحدى الاختلافاتِ الرئيسيّةِ بينَ روحانيّةِ الآباءِ المسيحيّينَ وبعضِ المعتقداتِ البوذيّة، بما يختصُّ بالمصيرِ النهائيِّ للنفسِ البشريّة. فمِنْ منظورِ الآباءِ المسيحيّين، ما يُبادُ أثناءَ مرحلةِ التطهيرِ ليسَ الإدراكَ الداخليَّ لـ«الأنا»، بل هو مجموعُ الأهواءِ الأنويّةِ التي تُعيقُ معاينتَنا للّه. قد يكونُ القدّيسُ سيرافيم ساروفسكي في حالةِ وحدةٍ معَ اللّه، لكنّه لا يزالُ مستقلاً في إطارِ تلكَ الوحدةِ كنفسٍ مُدرِكَة لذاتِها، كقدّيسٍ خادمِ القصدَ الإلهيّ. بقولِنا هذا، فَلنَتذْكُرْ أنَّ أفضلَ التقاليدِ الحكميّةِ تُحذِّرُ من أنَّ طبيعةَ المصيرِ الأخيرِ لرحلتِنا الروحيّةِ تتخطّى جميعَ المفاهيمِ البشريّةِ وكلَّ العقائدِ والمعتقدات. لذا، كلُّ ما نقولُه عن اللّهِ والتألّه، بديهيًّا هو غيرُ كافٍ،

إنْ لم يكنْ خطأً.

بالرغمِ من هذه العوائقِ في فهمِ ماهيَّةِ التألُّه، فالخبراءُ الروحيُّون، والقدِّيسونَ العظماء، واللاهوتيُّونَ المُعاصرون، حاولوا إبلاغَنا بلمحةٍ ضئيلةٍ عن هذا السرِّ الأساسيِّ لمصيرِ الإنسان. كتبَ أحدُ اللاهوتيِّينَ المُعاصرينَ مستنِدًا إلى شهاداتِ آباءِ الكنيسةِ وخبراتِهم: «تألُّهُ الإنسانِ هبةٌ ساميةٌ تمنحُها نعمةُ الروحِ القدس[١٣٤]». الإنسانُ المتألِّهُ يخضعُ لتغييرٍ ليسَ فقط في الذهنِ والنفس، بل في الجسدِ أيضًا. أولئكَ الأفرادُ يغدونَ ساهينَ عن احتياجاتِ الجسدِ العاديَّةِ كالأكلِ والنومِ مثلًا، إذ ليستْ لهم الحوافزُ والاحتياجاتُ المادِّيَّةُ التي للناسِ العاديِّين. لا يعودونَ خاضعينَ ومقيَّدينَ بقوانينِ الطبيعةِ كسائرِ البشرِ العاديِّين. 'ذاقَتْ نفوسُهم عمقَ العِشقِ الإلهيِّ وحلاوةَ الهباتِ الروحيَّة، لذا لا تعودُ تكتفي بما حقَّقَتْه، بل تُواصلُ تقدُّمَها لبلوغِ آفاقٍ سماويَّةٍ أعلى'.

أخيرًا، هناكَ بُعدٌ اجتماعيٌّ لتعاليمِ الآباءِ الشيوخِ عن التألُّه. 'يجبُ ألَّا يُنظَرَ إلى التألُّهِ ضمنَ إطارِ بهجةٍ شخصيَّةٍ مرتكزةٍ على الأنا. غالبًا ما شدَّدَ الآباءُ على أنَّ الشَّخصَ المتألِّهَ بالرَّغمِ من بلوغِهِ الكمالَ في الإلهِ التامِّ واتِّحادِهِ بالقوَّاتِ الملائكيَّة، الشاروفيم والسيرافيم، إلاَّ أنَّه لا يستكينُ في هذه الحالةِ المُفرحة، بل يغدو رسولًا للروحِ القدس، مُختارًا العيشَ بينَ إخوتِهِ في البشريَّة، خادمًا ايَّاهم بالكلمةِ والعملِ على غرارِ الرسل. إنَّ مَنْ تألَّه، إذْ هو في حالةِ تأمُّلٍ مستمرٍّ للّه، يمكنُه إرشادُ آخرينَ لخلاصِ نفوسِهم وبلوغِ التألُّه'.[١٣٥]

134 Demetrios Tsames, *Ayiologia [Agiology*, the study of sainthood] (Thessaloniki: Pournara Press, 1985), pp. 105-14.

135 Ibid.

بعدَ إلقاءِ محاضرتي في مؤتمرِ مونتريال حولَ الطريقِ الثلاثيَّةِ المراحل، تكلَّمَ من بعدي البروفِسور جون روسنر، الذي أَشرتُ إليه سابقًا، وأضافَ تعليقاتِهِ الخاصَّةَ حولَ حياةِ الرهبانِ والنسَّاكِ وممارساتِهم:

«إنَّ ممارساتٍ كهذِهِ مستندةٌ إلى الإيمانِ أنَّه من المهمّ الإبتعادُ عن العالمِ ومغرياتِهِ لإقتناءِ الروحِ القدس. هذا هو دربُ المتوحِّدينَ عبرَ التاريخ. ولا يَسْهُ عن ذهنِكَ أنَّ هدفَ هؤلاءِ ليس أنْ يصبحوا أعضاءَ في مجتمعاتٍ رهبانيَّةٍ أو أخويَّات. فالأديرةُ في الغرب، تركَّزت حولَ الحياةِ الجماعيَّةِ بحدِّ ذاتِها. من جهةٍ أُخرى، التمَحْورُ في أديرةِ الشرقِ كانَ في مكانٍ آخر. يعيشونَ حياةَ الشركةِ بمعنًى ثانويٍّ فقط. فإنَّ الارتباطَ بينَ الفردِ والسماءِ هو المحورُ المركزيُّ وليسَ ارتباطُ أعضاءِ الديرِ مع بعضِهم البعض. كانَ النسَّاكُ الأوَّلونَ يجتمعونَ في الأديرةِ فقط لإقامةِ القدَّاسِ الإلهيِّ معًا، من ثمَّ يعودُ كلٌّ منهم إلى كهفِه. أسَّسوا الأديرةَ ليجتمعوا معًا حولَ مائدةِ الطعامِ لبساطةِ الأمر. جاهَدوا لبلوغِ المعرفةِ والحكمة، التي لا تتأتَّى من طرائقَ منطقيَّةٍ بلْ من مستوياتٍ فوقَ الإدراكِ حيثُ يتوقَّفُ الذهنُ، كما في البوذيَّةِ واليوغا. الكهنةُ البوذيُّون ورهبانُهم وراهباتُهم يعيشونَ، مُنفصلينَ عن بعضِهم البعضِ في هذا التقليدِ غيرِ المسيحيّ، ولا يُسمحُ لهم بالدخولِ إلى أديرةِ إخوتِهم للأسبابِ عينِها التي في الأديرةِ المسيحيَّة. لكنْ إنْ لم نفهمْ ذلك، وفرَضْنا على ما حدثَ المفاهيمَ السائدةَ في أميركا في القرنِ العشرين، وتجاهلناهُ بكلِّيَّته، نكونُ نحنُ الخاسرين. ليسَ بوسعِنا اقتبالُ ذاكَ النمطِ من العيشِ لأنَّنا نحيا في حالةٍ مختلفة. نحيا في عالمٍ عصريّ، لكنْ يلزمُنا من حينٍ إلى آخرَ أنْ ننفصلَ عنهُ ونسكنَ في تلكَ العلاقةِ الداخليَّةِ مع السماء.

فعجائبُ القدّيسينَ العظيمة، هي نتاجُ تلكَ العلاقة».

تساءلتُ في نفسي متعجّبًا، لماذا غفلَ المثقّفونَ ومؤرّخو الأديانِ ولاهوتيّو الغرب، عن تعاليمِ الآباءِ والشيوخِ المسيحيّينَ حولَ الطريقِ الثلاثيّةِ المراحل؟ لماذا، على سبيلِ المثال، صرّحَ أسقفُ ناوورك الأنجليكانيّ المؤثّرُ الجداليُّ المشهورُ الدكتور جون سبونغ بخيبة تامّةٍ بأنّه: «إذا كانَ في وسعِ الهيئةِ الأنجليكانيّةِ التحوّلُ يمينًا إلى هذا الحدّ، فإنّها تلتحقُ ببروتستانتيّةٍ أصوليّةٍ متشدّدة، وبكاثوليكيّةٍ لاتينيّةٍ مَرّ عليها الزمن، وبتقليدٍ أرثوذكسيٍّ غيرِ مناسب، كأنّها السيماءُ الرئيسيّةُ للمسيحيّةِ مع بزوغِ فجرِ القرنِ الحادي والعشرين. . . إنّي لا أرى أيَّ أملٍ مستقبليٍّ للمسيحيّةِ في أيٍّ من تلكَ التقاليد. لا أتوافقُ إلاَّ مع القليلِ من هذه التقاليدِ المُحافظة».[١٣٦]

يبدو أنَّ الأسقفَ سبونغ لاهوتيٌّ عقلانيٌّ متطرّف، لا يُبدي أيَّ إهتمامٍ أو وعيٍ لتقليدِ الآباءِ القدّيسينَ الأسراريِّ العجائبيّ. يحكمُ على المسيحيّةِ استنادًا لِما تُقدّمُه الكنائسُ اليوم، لا استنادًا للكنيسةِ الأسراريّةِ كما تجسّدتْ في حياةِ القدّيسين. وهو واحدٌ بينَ كثيرينَ من اللاهوتيّينَ الغربيّينَ والمؤرّخينَ والفلاسفةِ النقّاد، الذين قدّموا تقييماتٍ مماثلةً في شأنِ السماتِ الخارجيّةِ للتقليدِ المسيحيّ. فإهتمامُهم مُنصبٌّ في قضايا الأخلاقِ والعدالةِ الاجتماعيّةِ والإصلاح. مَساعٍ كهذه مهما بدَتْ مفيدة، إلاَّ أنّها، كما أفهمُها، لا تؤدّي إلى الإستنارةِ السرّيّة. السؤالُ، الذي حاولتُ سبرَ غورِهِ هو، لماذا أغفلَ هؤلاءِ المثقّفونَ والعلماءُ كلُّهم التقليدَ المسيحيَّ الأسراريَّ برمّتِه، أو تَجاهلوه طوعيًّا؟

136 John S. Spong, Here I Stand (San Francisco: HarperSanFrancisco, 1999), p. 441.

هذه أسئلةٌ طرحتُها، في السنةِ الدراسيَّةِ التالية، على طلاَّبي في حلقةٍ دراسيَّةٍ حولَ الدينِ من منظورٍ اجتماعيّ.

شرحْتُ لِتلاميذي أنَّ جوابَ علمِ الإجتماعِ يكمنُ في الطريقةِ التي نَمَتْ بها المسيحيَّةُ ضمنَ الحدودِ التاريخيَّةِ للإمبراطوريَّةِ الرومانيَّة. اتَّخذَ قُسطنطين، إمبراطورُ القرنِ الرابعِ الرومانيّ، بعضَ قراراتٍ حاسمةٍ كانَ لها أثرُها الدائمُ في الحضارةِ الغربيَّة، وفي المسيحيَّةِ على السواء. في منتصفِ القرنِ الرابع، رَفَعَ قُسطنطين المسيحيَّةَ من طائفةٍ مُضطَهَدةٍ إلى الدينِ الرسميِّ للإمبراطوريَّةِ الرومانيَّة. منذُ ذلكَ الحين، غدَتْ كلٌّ من المسيحيَّةِ واليهوديَّةِ التي منها انبثقَتْ المسيحيَّة، والفلسفةِ الإغريقيَّةِ والقانونِ الرومانيِّ الدعامةَ الثقافيَّةَ الثالثةَ التي آزرتْ ما ندعوهُ 'الحضارةَ الغربيَّة'. استُبدِلَ تعدُّدُ الآلهةِ عندَ القُدامى بإلهِ إسرائيلَ الواحدِ الأحد، وأصبحتِ الوصايا العشرُ الركيزةَ الأخلاقيَّةَ للغرب. نَقَلَ قُسطنطين عاصمةَ إمبراطوريَّتِهِ من روما إلى القُسطنطينية، بعدَ أنْ أدركَ أنَّ الأُولى صارتْ عُرضةً لهجماتِ قبائلِ البربرِ من الشمال. نَقْلُ العاصمةِ إلى 'روما الجديدة'، كانَ قرارًا استراتيجيًا حاسمًا أثّر في مجرى التاريخِ الغربيّ. هذا ما أتاحَ للإمبراطوريَّةِ أنْ تَدُومَ ألفَ سنةٍ أُخرى. إلى ذلك، ربّما كانَ هنالك، سببٌ آخرُ لتغييرِ مكانِ العاصمةِ إلى الشرق. فَرُوما القديمةُ كانتْ ملطَّخةً كثيرًا بماضيها الوثنيّ، أمَّا القُسطنطينيَّةُ فكانت بدايةً جديدةً، مدينةً دونَ تاريخ، أُسِّسَتْ حصريًّا على الدينِ الجديد.

بينما ازدهرَ القسمُ الشرقيُّ للإمبراطوريَّةِ المعروفُ بِ 'بيزنطية' وحقَّقَ نجاحًا، إنهارَت، في النهاية، البُنيةُ التحتيَّةُ الاجتماعيَّةُ والسياسيَّةُ للقسمِ الغربيِّ

للإمبراطوريَّةِ تحتَ وطأةِ غزواتِ الجرمان. هذه التطوُّراتُ جعلتِ الكنيسةَ الرومانيَّةَ المؤسَّسةَ المُنتظمةَ الوحيدةَ التي صانَتْ وحدةَ المجتمعِ الأوروبِّيِّ الغربِيِّ البربريِّ والمهشَّمِ سياسيًّا. داهمتِ العصورُ المُظلِمةُ أوروبَّا، تطوُّرٌ لم تشهدْهُ بيزنطية؛ وتلكَ كانتْ نقطةً مهمَّةً غالبًا ما تجاهلَها المؤرِّخونَ الغربيُّون. جديرٌ بالذكر، أنَّ القُسطنطينيَّة، أثناءَ العصورِ المُظلِمة، كانت مركزًا حضاريًّا رائدًا، فاقَ عددُ سكَّانِها المليون، بينما لم يكنْ في باريس سوى بضعِ آلافٍ فقط. إليكَ كيفَ وصفَ مؤرِّخٌ من القرونِ الوسطى الأوضاعَ السائدةَ في الغرب:

إنَّ القيادة، التي كانَ المجتمعُ الغربِيُّ المشوَّشُ بأَمَسِّ الحاجةِ إليها، لم تكنْ لتتأتَّى سوى من الكنيسة، التي كانتْ تحوي في صفوفِها أغلبَ المثقَّفينَ في أوروبَّا، وأقوى المؤسَّساتِ في ذاكَ العصر. رغمَ أنَّ الكنيسةَ عانَتْ بشدَّةٍ من الغزواتِ الجرمانيَّة، فالأساقفةُ جعلوا اهتماماتِهم متطابقةً معَ اهتماماتِ النبلاء، وكانوا في الحقيقة، وفي غالبيَّتِهم، أقرباءَ للملوكِ والأرستقراطيِّينَ الأكثرِ نفوذًا؛ عامَّةُ رجالِ الدين كانوا فاسدينَ جهلةً، عاجزينَ عن التعاطي مع مشكلةِ تنصيرِ مجتمعٍ، ظلَّ وثنيًّا بشدَّةٍ بالرغمِ منْ التحوُّلِ الشكليِّ لأعدادٍ غفيرةٍ من المُحاربينَ الجرمان إلى المسيحيَّة. أفدحُ الخُرافاتِ الوثنيَّةِ طُعِّمَ في المسيحيَّةِ اللاتينيَّةِ.... ومع مطلعِ القرنِ السابع، كانَ الإنضباطُ الكنسيُّ في بلادِ الغالِ في حالٍ من الفوضى، وأصبحتِ المُشكلةُ الأساسيَّة، هي المحافظةَ على حدٍّ أدنى من معرفةِ القراءةِ والكتابةِ يكفي لاستمراريَّةِ الليتورجيا حسبَ مُعتقداتِ المسيحيَّةِ اللاتينيَّةِ. ...حُفِظتِ الكنيسةُ اللاتينيَّةُ ومعَها الحضارةُ الأوروبِّيَّةُ منَ الإنقراضِ،

بفضلِ مؤسَّستَين كنسيَّتَين، كانَت لهما وحدَهما القوَّةُ والفعاليَّةُ للصمودِ أمامَ الطابعِ البربريِّ المحيطِ بهما: الإكليروسُ العاديُّ (أي الرهبان) والبابويَّة.[١٣٧]

أشارَتْ هذه التطوُّراتُ التاريخيَّةُ إلى بدايةِ انشغالِ الكنيسةِ الغربيَّةِ بإدارةِ هذا العالم، إلى حدِّ أنَّ البابا شخصيًّا شارَكَ أحيانًا في حملاتٍ عسكريَّةٍ مُستخدِمًا السيفَ بسهولةٍ كما لو أنَّه يستخدِمُ الإنجيل. كانَ ذلك تطوُّرًا فظيعًا مُروِّعًا للرهبانِ والنسَّاكِ الشرقيِّين، الذين استنكروا أيَّ استخدامٍ للعنف. «معارضةُ الكنيسةِ البيزنطيَّةِ عن قبولِ مبدإ 'الغايةُ تُبرِّرُ الوسيلة' (حتَّى إلى حدِّ الإصرارِ على أنَّ قتلَ جنودِ العدوِّ في المعركةِ هو خطيئة)، أدَّى إلى شعورٍ أنْ لا أحدَ ممَّنْ يتعاطونَ السياسةَ أو الحربَ أو التجارةَ يخلو من وصمةٍ أخلاقيَّة. هذا ما وضَعَ البيزنطيِّينَ في مواجهةٍ غيرِ مؤاتيةٍ مع التجَّارِ الغربيِّينَ، أو الصليبيِّين، أو المحاربينَ المُسلمينَ في الجهادِ المقدَّس».[١٣٨]

بينما انهارَتِ المؤسَّساتُ السياسيَّةُ والعسكريَّةُ في القسمِ الغربيِّ من الإمبراطوريَّة، كلُّ البُنيةِ التحتيَّةِ الاجتماعيَّةِ والسياسيَّةِ في القسمِ الشرقيِّ للإمبراطوريَّةِ الرومانيَّةِ كانت في استقرارٍ نسبيّ. ساسَ عدَّةُ أباطرةٍ شؤونَ هذا العالمِ مُقترفينَ في معظمِ الأحيانِ جرائمَ مروِّعةً ضدَّ أعدائِهم، بينما بَقيتِ الكنيسةُ غيرَ دنيويَّةٍ في أعمالِها وتوجُّهِها اللاهوتيِّ، مُتمِّمَةً دورَها، كضميرِ

137 Norman F. Cantor, Medieval History, 2nd ed. (New York: Macmillan, 1969), p. 161; quoted in W. C. Cockerham, Sociology of Mental Disorder (Upper Saddle River, NJ: Prentice Hall, 1996), p. 11.

138 Warren Treadgold, A History of the Byzantine State and Society (Stanford: Sta - ford University Press, 1997), p. 849.

الإمبراطوريَّة، وغالبًا، كقوَّةٍ مناهضةٍ لاعتباطيَّةِ السلطةِ الإمبراطوريَّة. اهتمامُها ونطاقُها الشرعيُّ ما كانا شؤونَ الدولةِ بل ما وراءَ هذا العالم. لذا، سببُ صمودِ العنصرِ الأسراريِّ في المسيحيَّةِ الشرقيَّةِ (الطريقِ الثلاثيِّ المراحل) إلى يومِنا هذا في بعضِ المجتمعاتِ الرهبانيَّةِ القديمة، هو حقيقةُ أنَّ الكنيسةَ في بيزنطية، بخلافِ نظيرتِها في الغرب، لم تمارسْ أيَّ نفوذٍ أو سلطةٍ سياسيَّةٍ مباشرةٍ على المجتمع. كانَ هنالِكَ حدودٌ واضحةٌ وجازمةٌ بينَ الحقلِ الدينيِّ الكنسيِّ من جهة، والدولةِ الإمبراطوريَّةِ من جهةٍ أُخرى. كـ'نائبٍ للمسيحِ' على الأرض، فَهِمَ الإمبراطورُ دورَهُ الأوَّليَّ كحامٍ للمسيحيَّةِ الأرثوذكسيَّةِ وصائنٍ لها. عاشَ الرهبانُ في سلامٍ في أديرتِهم، حائزينَ دعمًا اقتصاديًّا وسياسيًّا كاملًا من الدولة، مُركِّزينَ كُلَّ طاقتِهم ويقظتِهم على الاستكشافِ المنظَّمِ للحياةِ الروحيَّةِ الداخليَّةِ والأهدافِ الأُخرويَّة. وفيما توجَّهتِ المسيحيَّةُ الغربيَّةُ أكثرَ فأكثرَ نحوَ شؤونِ هذا العالم، حافظتِ المسيحيَّةُ الشرقيَّةُ على طابعِها الرهبانيِّ والنسكيّ.

اعتُبِرَ العملُ الأساسيُّ للرهبانِ والراهباتِ السعيَ وراءَ القداسة. قدْ تكونُ الأديرةُ البيزنطيَّةُ قد كرَّستْ وقتًا للدراسةِ والبحثِ والثقافةِ والتعليمِ أقلَّ من نظيراتِها الغربيَّة، لكنَّها اهتمَّتْ بجدِّيَّةٍ بواجباتِ الضيافة، وَرَعَتْ أعمالَ الرحمةِ مُنشئةً مستشفياتٍ ومياتمَ وبيوتًا لإيواءِ المُعوَزين. بَيْدَ أنَّ التشديدَ الأكبرَ انصبَّ في نكرانِ العالم، كما يَظهرُ بوضوحٍ من موقعِ أديرةِ الميتيورا المُعلَّقةِ على صخورِ جبالِ تساليا العموديَّة، ومن جبلِ آثوس المقدَّس، الجمهوريَّةِ الرهبانيَّةِ الفائقةِ

الطبيعة.[١٣٩]

التطوُّراتُ التاريخيَّةُ المختلفةُ التي شهدَتْها الإمبراطوريَّةُ الرومانيَّةُ بِقسمَيْها الغربيِّ والشرقيِّ، توازتْ مع، أو ربَّما كانتْ المسؤولة عن، نشوءِ توجُّهَينِ مُختلفينِ في اللاهوتِ المسيحيّ. التيَّارُ الذي نشأَ في الغربِ ارتكزَ على فكرِ أرسطو، المنذِرِ الفلسفيِّ للثورةِ العلميَّةِ والفيلسوفِ الذي كان تركيزُه الأساسيُّ دراسةَ هذا العالَم. علَّمَ أرسطو أنَّ اللّهَ 'المحرِّكَ غيرَ المتحرِّك'، يمكنُ أنْ يُعْرَفَ ويُبرهَنَ وجودُهُ بِدراسَةِ الطبيعة، ومن خلالِ الاستنتاجاتِ المنطقيَّةِ الفلسفيَّة. توما الأكوينيّ، الذي قدَّمَ أرسطو إلى الغرب، كانَ المُحفِّزَ للكنيسةِ الكاثوليكيَّةِ الرومانيَّةِ لإعتِناقِ الفلسفةِ الأرسطوطاليسيَّةِ والارتكازِ عليها في توجيهِ اللاهوتِ الكاثوليكيّ. وإذِ التزمَ اللاهوتُ الغربيُّ هذا التوجيه، غرَسَ في الحقيقةِ البذورَ للثورةِ العلميَّةِ ونشوءِ التيَّاراتِ العقلانيَّة، التي مهَّدَتِ الطريقَ للعالَمِ العلمانيِّ الحديثِ كما نعرفُهُ اليوم. على أيَّةِ حال، هذا المنظورُ 'السكولاستيكيّ' كانَ مخالِفًا لمنظورِ المسيحيَّةِ الشرقيَّةِ التي آمنتْ أنَّ اللّهَ معرفتُهُ ممكنةٌ فقط من خلالِ الممارسةِ الروحيَّةِ والاستنارةِ السرِّيَّةِ المباشرة.

في النهاية، عام ١٠٥٤، انشقَّتِ المسيحيَّةُ رسميًّا إلى كنيستَين، الرومانيَّة(الكاثوليكيَّة) والأرثوذكسيَّة الشرقيَّة، وهو ما يُعرَفُ بالإنشقاقِ الكبير. منذُ ذلكَ الحين، تابعَ كلٌّ من 'المسيحيَّتَين' طريقَهُ المنفصلَ والمُختلفَ جذريًّا عن الآخر.

139 Vivian Green, A New History of Christianity (New York: The Continuum Publishing Co., 1996), p. 67.

مَرّتِ المسيحيّةُ الغربيّةُ بتشنّجاتٍ جذريّةٍ أُخرى، أدّتْ إلى تزايدٍ مطّردٍ لِلعَلمنة. فَفي منتصفِ القرنِ السادسَ عشر، علّقَ مارتن لوثر على بابِ كنيستِه 'بنودَهُ الخمسةَ والتسعين' التي أَطْلَقَتِ الثورةَ ضدَّ البابا. أَلْغَتِ البروتستانتيّةُ الرهبانيّةَ كمؤسّسة، وممارسةَ تكريمِ القدّيسينَ الذين كانوا حسبَ التقليدِ منائرَ روحيّةً على الدربِ المؤدّي إلى التألّه. بكلماتِ الأبِ مكسيموس: «نُزِعَ قلبُ المسيحيّة».

بالإضافةِ إلى الإنكارِ الحضاريِّ للحياةِ الرهبانيّة، أعادت البروتستانتيّةُ توجيهَ المؤمنينَ إلى التعبيرِ عن إيمانِهم من خلالِ 'نسكٍ دنيويّ'، أيْ تهذيبٍ عقلانيٍّ لأعمالِ الإنسانِ في هذا العالم. بيّنَ عالِمُ الاجتماعِ الألمانيُّ العظيمُ ماكس ڤيبر[140] أنَّ هذا التوجيهَ الجديدَ للحضارةِ الغربيّةِ أدّى، كنتيجةٍ غيرِ مقصودة، إلى إنشاءِ 'أخلاقيّةِ العملِ البروتستانتيّ'، التي لَعبَتْ دورًا رئيسيًّا في إحداثِ ثورةٍ في العالم، إذْ فتحَتِ الأبوابَ أمامَ الرأسماليّةِ الحديثةِ والثورةِ الصناعيّة.

من جرّاءِ إدراكِ اللهِ بمنظورٍ سكولاستيكيٍّ عقلانيٍّ بحت، وتهميشِ الطريقِ الثلاثيِّ المراحل، شنّتِ المسيحيّةُ الغربيّةُ معركةً خاسرةً مع العِلمِ، الذي أمسى، في نهايةِ المطاف، بديلًا عنِ الدينِ من منظورِ العديدِ من روّادِ الفكرِ الغربيّ. لذا، فالتقليدُ الثقافيُّ الغربيُّ السائدُ منذُ العصورِ الوسطى، خضعَ لروحٍ قاسيةٍ مُعاديةٍ للدين، الذي اعتُبِرَ موازيًا للتخلّفِ الإجتماعيّ والسياسةِ

140 Max Weber, The Protestant Ethic and the Spirit o f Capitalism (New York: Scri - ner, 1958).

الرجعيَّة.

من الجهةِ الأُخرى، بقيَتِ المسيحيَّةُ الشرقيَّةُ حتَّى فترةٍ قريبة، منقطعةً ومعزولةً عن كلِّ هذه التأثيراتِ العلمانيَّة، ويعودُ السببُ الرئيسيُّ لهذا إلى سقوطِ القُسطنطينيَّةِ بِيَدِ الأتراكِ عام ١٤٥٣، وسقوطِ روسيا الأرثوذكسيَّةِ على يدِ الشيوعيَّةِ عام ١٩١٧. ربَّما كانتْ نتيجةُ ذاكَ السباتِ الحضاريّ والعزلةِ عنِ التطوُّراتِ التاريخيَّةِ الغربيَّة، الحفاظَ على التقليدِ الرهبانيّ المسيحيّ الشرقيّ، الذي صانَ حتَّى يومِنا هذا الطريقَ الثلاثيَّ المراحلِ ونمطَ «المَشْيَخَة» (الأبوَّةِ الروحيَّة). هذه كانت نتاجَ الوجودِ الألفيّ للبيزنطيَّةِ المَنسيَّةِ والزائلةِ تاريخيًّا.

إذا سلَّمْنا بالخصائصِ الإجتماعيَّةِ والثقافيَّةِ التي للدولةِ والمجتمعِ البيزنطيّ، كانَ بالإمكانِ تنميةُ توجيهٍ 'ساحرٍ' لا دنيويٍّ إلى العالم؛ حالةٌ افترضَها ماكس فيبر أنَّها موجودةٌ فقط في المجتمعاتِ الآسيويَّة. وَجْهُ المسيحيَّةِ الأسراريُّ هذا هو ما يُمكنُ لِبيزنطية أنْ تُقدِّمَهُ إلى العصرِ العلمانيّ الدهريّ الحاضرِ واللاحق، أي استعادةَ «عين البصيرة»(أي الحدس) كممرٍّ للمعرفةِ الحقّ حقيقيٍّ كطريقِ العلم، أو إعادةَ «عين الحواس» (أي الإدراك الحسّيّ) والفلسفة، أو «عين العقل» (أي الإدراك العقليّ). اقترحتُ على طلَّابي أنَّ الإرثَ والثمرَ الذي تهبُهُ البيزنطيَّةُ للعصرِ الحديثِ قد يكونُ الطريقَ الثلاثيَّ المراحل، موازاةً مع ما قدَّمتْهُ المسيحيَّةُ الغربيَّةُ للعالَمِ من تطوُّرٍ علميٍّ، وفكرٍ إجتماعيٍّ نقديٍّ، وديمقراطيَّةٍ حديثة.

الفصل ١٦

مجدلة السلام

عُدتُ إلى قبرص في عيدِ الميلادِ وأثناءَ الصيفَين المتعاقِبَين. خلالَ تلكَ الزيارات، كنتُ أُمضي بضعةَ أيّامٍ في ديرِ الفائقةِ القداسةِ لإجراءِ مزيدٍ من المحادثاتِ مع الأبِ مكسيموس. علاوةً على ضروريّاتِ بحثي، التي تتطلّبُ المزيدَ من الاتّصالاتِ مع هذا الشيخِ الآثوسيّ، غَدَتِ الخلواتُ الدوريّةُ في الديرِ ضرورةً نفسانيّةً وروحيّةً بالنسبةِ لي. ففي ربوعِهِ الهادئة، أشعرُ بنشاطٍ وتَجَدُّدٍ روحيّ. أحسستُ أنّه بيتٌ ثانٍ لي، وأنا شديدُ الامتنانِ للرهبانِ والراهباتِ الذين نذروا حياتَهم للّه، وبفعلِهم هذا صانوا الرهبنة. أَنقَذوا التقليدَ الروحيَّ المسيحيَّ وحافظوا لنا على هذه المؤسّسةِ الحيويّة، نحنُ العائشينَ في مطلعِ القرنِ الحادي والعشرين. دوّنتُ في مفكّرتي وأنا على متنِ الطائرةِ من أمستردام إلى لارنكا: «كلٌّ منّا عليه أنْ يتواصلَ مع أحدِ الأديارِ للتجديدِ الروحيِّ الدوريّ، كدواءٍ مضادٍّ للعزلةِ وتفاهةِ الحياةِ العصريّة».

وصلتُ إلى قبرص في ٢٩ من كانون الأول عام ١٩٩٩. فترةُ الميلادِ تلك، كانتْ فريدة. إذْ معَ نهايةِ ذاكَ العام، كانَ العالمُ بأسرِه قلقًا ومتخوّفًا من الألفيّةِ

المقبلة. ثمَّةَ هلعٌ ممّا سُمِّيَ بمشكلةِ 'Y2K'. هلْ ستتعرَّفُ الحواسبُ الآليَّةُ على عام ٢٠٠٠؟ هلْ سيَغْرَقُ العالمُ في الفوضى؟ هلْ سَيَبقى العالمُ كما نعرفُه؟ وكتدبيرٍ وقائيّ، ألغتْ شركاتُ الطيرانِ رحلاتِها المُقرَّرةَ في الأوَّلِ من كانونَ الثاني. في ماين، نصَحَنا بعضُ الأصدقاءِ بملازمةِ البيتِ وتخزينِ الأطعمة، والمياهِ والوقودِ لأيَّامٍ قد تطول. زميلةٌ سابقةٌ خبيرةٌ في عالمِ الحاسوب، توقَّعتْ بشؤمٍ بأنَّ بلبلةً عالميَّةً ستحدثُ حتمًا، ونصحَتْ بأخذِ تدابيرَ عاجلةٍ تحسُّبًا للأعظم. وقدْ سلَّمَتْني عددًا كبيرًا من مقالاتٍ كَتبَها خبراء، لإقْناعي بجِدِّيَّةِ الموقفِ وخطورتِه. وتوقَّعَتْ أنَّه 'بحلولِ شهرِ كانونَ الأول، لنْ تبقى أيَّةُ بطّاريّاتٍ في المخازن'.

من جهةٍ أُخرى، إيميلي، ناشطةُ السلامِ المتفائلةُ أبدًا، أمضَتْ عِدَّةَ أشهرِ السنةَ الفائتةَ في قبرص، كمستشارةٍ في تأسيسِ 'قريةِ السلامِ البيئيَّة' التي، رغمَ التوتُّراتِ السياسيَّةِ المحلِّيَّة، بدأَتْ تصيرُ واقعًا. وقدْ سافرَتْ إلى نيبال، غيرَ مباليةٍ بتوقُّعاتِ الألفيَّةِ الجديدة، لتشاركَ في مشروعِ تشجير، ولكي تكونَ مع ابنتِنا ڤاسيا، المقيمةِ هناكَ لِفصلٍ دراسيٍّ من قِبَلِ الجامعةِ لدراسةِ الحضارةِ التيبيتيَّة. كانتا متشوقَّتَينِ إلى هذا اللقاء، وقرَّرتا استقبالَ الألفيَّةِ معًا في جبالِ الهملايا. تمنَّيتُ لهما التوفيقَ وتضرَّعتُ إلى اللّهِ أنْ يحفظهما، وتأكَّدتُ من وصولي إلى قبرص قبلَ نهايةِ القرن. في تلكَ الفترة، ركَّزَ الإعلامُ على بثِّ نبوءاتِ نوسترادموس وتوقُّعاتِ المنجِّمينَ عن وقوعِ كوارثَ هائلة. بالإضافةِ إلى ذلك، راحَ بعضُ الغيورينَ المتديِّنينَ يبحثونَ في سفرِ رؤيا يوحنَّا، وتكلَّموا بهَوَسٍ عن علامة ٦٦٦، ومجيءِ المسيحِ الدجَّالِ ومعركةِ أرماجدون. وبتوقُّعٍ بارز، بلْ

بفرحٍ عظيم، تطلّعوا لمجيءِ 'مسيحٍ' سينزلُ من السحبِ على أصواتِ الأبواق، بعدَ انتصارِهِ على قوى الظلام. بالنسبةِ لهم، الأفضلُ أنْ تنقضيَ أحداثُ هذا السيناريو الأليمِ سريعًا.

قرّرتُ أنْ أمضيَ ليلةَ رأسِ السنةِ المصيريّةِ في نيقوسيا مَعَ أختي مارولا، الفنّانةِ التي تعلّمتْ من ذاتِها، وصهري قاسوس، وهو مهندسُ اتّصالاتٍ متقاعد. كانَ بيتُهما مركزَ نشاطاتٍ بشريّة. فالأقاربُ والأصدقاءُ والمعارفُ يأتونَ ويذهبونَ في أيِّ وقتٍ كان، ممّا قادَ أبي أنْ يُعلنَ ذاتَ يومٍ قبلَ موتِه: 'هذا ليس بيتًا بل سفارة'. الإختلافُ بينَ أسلوبِ الحياةِ في قبرص وماين شاسع، هو تناقضٌ أحببْتُه. فَبَيْتُ أختي المفتوحُ على مدارِ اليوم، كانَ مَرجِعًا وركنَ استقرارٍ واستمراريّةٍ في حياتي، يُساعدُني على إبقاءِ روابطي مع الجزيرة، بغضِّ النظرِ عن السنينَ العديدةِ التي أَمضيتُها في الغربةِ بعيدًا عنها. أنا كنتُ ابنَ جيلٍ محظوظٍ منَ المهاجرينَ بَلَغَ سنَّ الرشدِ خلالَ عصرِ الطيران. فأعمامي، الذين هاجَروا إلى الولاياتِ المتّحدةِ قبلَ أنْ تجولَ الطائراتُ في السماء، نادرًا ما عادوا لزيارةِ أرضِ أسلافِهم، مسقطِ رأسِهم.

لحسنِ الحظّ، غيابُ أيِّ اهتمامٍ جِدّيٍّ في الجزيرةِ بموضوعِ الانتقالِ إلى القرنِ الجديدِ خفّفَ من وطأةِ اضطراباتي. فالقبارصةُ انشغلوا بشدّةٍ في النزاعِ اليونانيِّ - التركيّ، لا في مشكلةِ 'Y2K'. فآنذاك، لم يكنِ الحاسوبُ متغلغلًا بعدُ في المجتمعِ القبرصيِّ كما هو في أميركا. لذا، تطلّعتُ بشوقٍ إلى احتفالٍ بالسنةِ الجديدةِ خالٍ منَ القلق.

الأصدقاءُ والأقاربُ كانوا مدعُوِّينَ للاجتماعِ معًا في بيتِ شقيقتي للاحتفالِ بليلةِ رأسِ السنةِ الجديدة، بما فيهم أولادُها الثلاثةُ وأحفادُها الأربعة. توماس ونيكي كانا بينَ المدعوِّينَ وكنتُ أنتظرُ بشوقٍ إعادةَ التواصلِ معهما. كِلاهُما غَدا من أبناءِ ديرِ الفائقةِ القداسةِ المنتَظِمينَ ومن المؤيِّدينَ المتحمِّسينَ للأبِ مكسيموس. كانَ لدينا الكثيرُ لنتبادلَه، إذْ لم تتسنَّ لنا الفرصةُ أنْ نلتقيَ منذُ ذاكَ اللقاءِ المثيرِ الذي جمعَ بينَ توماس والأبِ مكسيموس قبلَ ثلاثِ سنوات، أيْ منذُ بداياتِ بحثي.

قرَّرتُ الذهابَ إلى الديرِ أثناءَ الأسبوعِ الأوَّلِ من كانونَ الثاني، لإمضاءِ بضعَةِ أيَّامٍ هناكَ قبلَ العودةِ إلى ماين وبدايةِ الفصلِ الدراسيِّ الشتويّ. لكنَّ مخطَّطاتي تغيَّرتْ فجأةً بعدَ حديثي مع استِفانوس عبرَ الهاتف. إذْ أعلمَني أنَّ سهرانيَّةً ستُقامُ في الحادي والثلاثينَ من كانونَ الأوَّل في كاتدرائيَّةِ ليماسول تمامَ الساعةِ الثامنةِ والنصفِ مساءً وستستمرُّ حتَّى الساعاتِ الأُولى من صباحِ اليومِ التالي. وسيُقام قدَّاسٌ إلهيٌّ خاصٌّ لاستقبالِ الألفيَّةِ الجديدة، وقد طُلب من الأبِ مكسيموس أنْ يترأَّسَ الخدمة. نصحَني استِفانوس: 'لو كنتُ مكانَكَ لما تغيَّبتُ'.

شعرتُ أنَّه لا يُمكنني إضاعةُ تلكَ الفرصةِ الفريدة، بقدرِ تَطلُّعي إلى إمضاءِ تلكَ الأُمسيةِ الاحتفاليَّةِ مع شقيقتي والجمعِ الغفيرِ من الأقاربِ والأصدقاء. بعدَ تغلُّبي على تردُّدي، ركبتُ السيَّارةَ متوجِّهًا إلى ليماسول. لحسنِ الحظّ، تفهَّمَتْ شقيقتي الأمرَ ودَعمَتْ قراري.

وبينما كنتُ أقودُ إلى ليماسول أثناءَ الساعاتِ الأُولى من مساءِ اليومِ الأخيرِ في الألفيَّةِ الثانية، عُدتُ إلى التفكيرِ في مخاوفِ مشكلةِ الألفيَّةِ الجديدةِ وما تحملُه من توقُّعاتٍ كارثيَّة. ما كنتُ بحاجةٍ للالتجاءِ إلى نوسترادموس من أجلِ سيناريو يوضِّحُ لي نهايةَ الحياةِ على الأرضِ كما عرفنَاها. فمنذُ سنينَ عدَّةٍ وعلماءُ الاجتماعِ العقلانيُّون، وفلاسفةٌ وعلماءُ بيئة، يحذِّرونَنا من احتمالِ وقوعِ جَيَشانٍ واضطراباتٍ مكثَّفةٍ نتيجةَ العصريَّة. وأسفاه، لقد كشفنا، نحن البشر، أسرارَ الطبيعةِ، دونَ أن ننمِّيَ الحكمةَ الملائمةَ لضبطِ هذا الماردِ الذي أطلَقْنا عِنانَه. وعليه، كانَ القرنُ العشرون، أعظمَ القرونِ تطوُّرًا وأكثرَها دمويَّة، فقَدْ ماتَ خلالَهُ أكثرَ من مائةِ مليونِ شخصٍ في الحروبِ العالميَّةِ والإقليميَّة، وهو رقمٌ يفوقُ الأرقامَ المسجَّلةَ في القرنِ التاسعَ عشرَ بخمسةَ عشرَ ضعفًا [١٤١]. تذكَّرتُ ما كتبَ الراحلُ آرثر كوستلر Koestler[١٤٢] مرّة، أنَّ البشريَّةَ تعيشُ مُنذُ كارثةِ هيروشيما على وقتٍ مقتَرَض. واقترحَ أنَّهُ لكيْ تتوضَّحَ هذه الحقيقةُ الرهيبةُ، علينا أنْ نبدأَ بقياسِ الوقتِ بدءًا من عام ١٩٤٥، سنةِ وقوعِ هذا الحدث المشؤوم[١٤٣]. هلْ سيُبقي الروسُ والأميركيُّونَ قذائفَهم في مستودعاتِهم أَم سيُطلقونَها دونَ قصد، مُطلِقينَ بذلكَ سلسلةَ أحداثِ سفرِ الرؤيا؟ كانَ هذا هو التخوُّفَ الرئيسيَّ للعلماءِ النوويِّينَ وخبراءِ الحاسوبِ وهُمْ يفكِّرونَ مليًّا في التغييرِ الذي سيطرأُ على القرنِ الجديد. التأمُّلُ في كلِّ ذلكَ هو ما جعلَني أُقرِّرُ التخلِّي عن الاحتفالاتِ الدنيويَّةِ احتفاءً بقدومِ الألفيَّةِ الجديدة، والمشاركةَ في

---

141 Peter Kivisto, Key Ideas in Sociology (Thousand Oaks, CA: Pine Forge Press, 1998), p. 150.

١٤٢ كوستلر، آرثر (١٩٨٣ - ١٩٠٥): كاتب وفيلسوف إنكليزيّ معاصر، نمساويّ المولد.

143 Arthur Koestler, Janus: A Summing Up (New York: Vintage, 1979).

السهرانيّةِ معَ الأبِ مكسيموس لرفعِ مجدلةِ سلام.

* * *

وصلتُ تمامَ الساعةِ الثامنةِ والنصفِ مساء، وكانَ استِفانوس وزوجتُهُ في انتظاري على درجِ الكاتدرائيّةِ في وسطِ ليماسول. علِمتُ أنَّ الأبَ مكسيموس موجودٌ في غرفةِ الاعترافِ الصغيرةِ المجاورةِ للكنيسةِ يُرشدُ الحجّاج. لم يكنْ مسرورًا بذلك لأنَّ الاعترافَ ما كانَ ضمنَ برنامجِهِ في تلكَ الليلة، كما أخبرَني استِفانوس. لكنْ عندما حضرَ عِدَّةُ أشخاصٍ إلى الكنيسةِ وأعرَبوا عن رغبتِهم لإلتقائِهِ شخصيًّا للاعتراف، شعرَ بأنَّ واجبَهُ يُملي عليه مقابلتَهم. كانَ هذا جزءًا من التقليدِ الآثوسيِّ الذي حاولَ الأبُ المحافظةَ عليهِ في قبرص، وهي مهمَّةٌ تزدادُ استحالتُها أكثرَ فأكثر جرَّاءَ شعبيَّتِهِ المتزايدةِ باطِّراد. كانَ عليه الإلتحاقُ بالخِدمةِ الطويلةِ بعدَ أنْ يُساعدَ المُعترِفينَ على التحرُّرِ من عبءِ خطاياهم.

تفاجأتُ لرؤيةِ عددٍ وفيرٍ من الناسِ يُشاركونَ في السهرانيّة. فالكنيسةُ كانتْ ملأى. وبالنظرِ لأهمّيّةِ الاحتفالاتِ الدنيويّةِ المُقامةِ بمناسبةِ السنةِ الجديدة، ظاهرةٌ كهذهِ تستدعي الغرابةَ وتدلُّ على سمعةِ الأبِ مكسيموس الحسنةِ والمتزايدةِ في الجزيرة.

جَلَسْنا في منتصفِ الكاتدرائيّةِ الفسيحة، ذاتِ القبّةِ البيزنطيّةِ العالية. لم يكنْ هنالِكَ أيُّ ضوءٍ إلاّ المنبعثُ من الشموعِ التي أضاءَها المؤمنونَ أمامَ الإيقونات. بالكادِ ميَّزْتُ وجوهَ الناسِ وسطَ هذا الظلام. تطلَّعتُ من حولي بحثًا

عن أيِّ ضوءٍ كهربائيٍّ لأتحقَّقَ إنْ كانتِ الكهرباءُ ستدومُ عندَنا بعدَ منتصفِ الليل. رأيتُ ضوءًا في الهيكلِ وقرَّرتُ أنْ أعتمدَهُ كإشارةٍ لي. إنْ بقيَ مضاءًا فكلُّ شيءٍ سيكونُ على ما يرام.

في ساحةِ المدينةِ الرئيسيَّةِ وعلى بعدِ ثلاثمائةِ مترٍ من الكاتدرائيَّة، كانتِ التحضيراتُ جاريةً على قدمٍ وساقٍ لاستقبالِ الألفيَّةِ الجديدةِ باحتفالاتٍ صاخبةٍ تتناقضُ كليًّا مع سكونِ الخدمةِ المقامةِ في الكاتدرائيَّةِ وخشوعِها. وحالما بدأَ المرنِّمونَ بترتيلِ مزاميرِ داوودَ المعتادةِ مطوَّلًا، راحَ الكاهنُ المترئِّسُ يبخِّرُ من نحوٍ إيقاعيٍّ منتظمٍ مالئًا الكنيسةَ بوفرةٍ بأريجِ البخورِ العَطِرِ المعتاد.

عَبرَتِ الساعاتُ الواحدةُ تِلوَ الأُخرى بالترانيمِ والتراتيل، التي لمئاتِ السنين، حرَّكتِ الحسَّ الروحيَّ والجماليَّ في المؤمنين. كانت تخطُرُ ببالي العديدُ من الأفكار، وأنا أُنصِتُ إلى الخدمةِ القائمةِ، تارةً واقفًا، وطورًا جالسًا. لم أشعرْ بأيِّ إعياءٍ أو ضجر، وذلك بفضلِ الترتيلِ البارعِ الذي تناوبَ عليه الخورسان، واحدٌ في الجانبِ الأيمنِ من الكنيسة والثاني عن اليسار.

أكَّدَ لي الأبُ مكسيموس في أكثرِ من مرَّةٍ أنَّ تراتيلَ الكنيسةِ الشرقيَّةِ وموسيقاها وضعَها شيوخٌ قدِّيسون، وهُم في حالاتِ إيحاءٍ إلهيّ. ذاكَ هو سببُ شعورِ المرءِ بالانتعاشِ إثرَ سماعِ هذه التراتيلِ بدلَ التضجُّر، مهما تكرَّرت، على افتراضِ أنَّ المرتِّلينَ يُجيدونَ فنَّ الترتيل. عندما سألَ أحدُهم عن جدوى إقامةِ سهرانيَّاتٍ مُطوَّلةٍ وإنشادِ تراتيلَ لا تنتهي، كانَ جوابُ الأبِ مكسيموس كالتالي: «خَبْزُ الخُبْزِ يتطلَّبُ وقتًا»، مُشيرًا بأنَّه يلزمُ للمرءِ وقتًا قبلَ أنْ يسعَهُ

الدخولُ في حالةٍ ذهنيّةٍ أسراريَّة، كيما يغدوَ متقبِّلًا النعمةَ روحيًّا. هذه هي وظيفةُ الخِدَمِ الطويلةِ التي يصعبُ على العقلانيّينَ أنْ يفهموها أو يتحمَّلوها. لا عجبَ إذًا، إنْ أُوجِزَ القدّاسُ الإلهيُّ في الغرب، حيثُ انتصرَتِ العقلانيّةُ واستُعيضَ عنه بالعظات.

في الحقيقة، قدْ يكونُ الاختبارُ الجماليُّ للخِدَمِ والليتورجيا في الكنيسةِ الشرقيّةِ هو ما ساعدَ على بقائِها عبرَ العصور، لأنّه يُقالُ إنَّ هذه السِّمَةَ الجماليَّةَ بالتحديدِ هي التي حوَّلَتِ الروس، والأوكرانيّين، وأوروبِّيين شرقيّينَ آخرين إلى المسيحيّةِ الأرثوذكسيّة. ففي القرنِ العاشر، أحبَّ أميرُ كييف ڤلاديمير توحيدَ دينِ إمبراطوريّتِهِ للإبقاءِ في المقامِ الأوّلِ على وحدةِ بلادِهِ السياسيّة. وقبلَ أنْ يتّخذَ القرارَ النهائيَّ حولَ الدينِ الذي سيعتمِدُهُ في كلِّ إمبراطوريّتِهِ الممزَّقةِ بينَ قبائلَ مُنفلتة، بَعثَ بوفودٍ لزيارةِ بلدانٍ وأماكنَ عباديّةٍ مختلفةٍ حيثُ تُمارَسُ أديانٌ مختلفة، ليكتشفَ الأنسبَ من بينها لإمبراطوريّتِه. على برنامجِ البعثة، كانَ الذهابُ إلى القُسطنطينيّة لزيارةِ كنيسةِ 'آيا صوفيا' أي 'الحكمة المقدّسة'، التي شيَّدَها الملكُ يوستنيانوس منذُ بضعةِ قرون. هناكَ، حضروا قداسًا. حالَ عودتِهم، رفعوا نتائجَ زياراتِهم إلى الأميرِ في تقريرٍ بارز. وفي وصفِهم لخبراتِهم العديدة، قالوا عن زيارتِهم لآيا صوفيا: «منْ ثمَّ قصَدْنا اليونان، حيثُ اصطحَبَنا اليونانيّونَ إلى الصروحِ التي يعبدونَ فيها إلهَهم، فلَمْ نكنْ ندري، أكنّا في السماءِ أمْ على الأرض. إذْ على الأرضِ لا تُوجدُ مثلُ هذه العظمةِ أو هذا الجمال، وليسَ بمقدورِنا وصفُ ما رأيناه. كلُّ ما نستطيعُ قولَهُ هو أنَّ الله كانَ هناكَ بينَ البشر، وأنَّ خِدَمَهم أبهى من احتفالاتِ الأممِ

الأُخرى، لا يُمكنُنا أبدًا أنْ ننسى ذاكَ الجلال».[١٤٤]

أقنعَ التقريرُ الأميرَ ڤلاديمير باعتناقِ المسيحيَّةِ الشرقيَّة، ومعَهُ في النهايةِ الملايينَ من رعاياه. وقد يكونُ دافِعَهُ للتحوُّلِ سعيُهُ لصَوْنِ استقلالِ بلادِهِ عن أيَّةِ سيطرةٍ سياسيَّةٍ من الخارج، لا سيّما الجرمانيّين. بالإضافةِ إلى ذلك، دربُ التحوُّلِ الجماعيِّ إلى المسيحيَّةِ الشرقيَّة، هيَّأ له المُرسَلونَ البيزنطيُّون، خاصَّةً كيرلُّس ومِثُّوديوس، وهما راهبانِ من تسالونيكي، يُنسبُ إليهما إهتداءُ السلافيّينَ إلى المسيحيَّةِ الشرقيَّة. بِغضِّ النظرِ عن أسبابِ تحوِّلِه، أضحى الأميرُ ڤلاديمير في نهايةِ المطافِ 'القدّيس ڤلاديمير'، بفضلِ النتائجِ التاريخيَّةِ لذاكَ القرارِ وتحوُّلِهِ الشخصيِّ الصادقِ إلى أميرٍ عادل[١٤٥].

كانتْ تلكَ الأفكارُ تدورُ في ذهني عندما ظهرَ الأبُ مكسيموس أخيرًا في كاملِ حُلَّتِهِ الكهنوتيَّة. تبيَّنْتُ الوقتَ في ساعةِ يدي، كانتِ العاشرةَ والنصفَ مساء. ففي ساعةٍ ونصفٍ سوفَ يبدأُ قرنٌ جديد. وقفَ الأبُ مكسيموس أمامَ المائدةِ المقدَّسةِ مُحاطًا بالأبوَينِ نيقوذيموس واسحق المُرافقَينِ له. حَملا كلاهما شموعًا بيضاءَ طوالَ الخدمة. ثمَّ، وقبلَ خمسِ دقائقَ بالضبطِ من منتصفِ الليل، بدأَ الخورصان بإنشادِ المجدلةِ الكبرى. رفعَ الأبُ مكسيموس يدَيهِ إلى العُلى وركَّزَ ناظرَيهِ على قبَّةِ الكاتدرائيَّةِ حيثُ إيقونةُ الضابطِ الكلّ، حاملًا الإنجيلَ بيدٍ وبالأُخرى مبارِكًا المُصلّين. تناوبَ الخورسان على إنشادِ أبياتِ المجدلة،

144 S. H. Gross and O. P. Sherbowitsz, The Russian Primary Chronicle: Laurentian Text (Cambridge, MA: The Medieval Academy of America, 1953), p. 111; quoted in Adrian Hastings (ed.), A World History of Christianity (Grand Rapids, MI: William B. Eerdmans Publishing Co., 1999).

١٤٥ تيموثي وير، الكنيسة الأرثوذكسية: إيمان وعقيدة، منشورات النور، ١٩٨٢.

وهذا ما عزَّزَ تأثيرَها على الحسّ الوجدانيّ. «المجدُ للّهِ في العلى وعلى الأرضِ السلامِ وفي الناسِ المسرَّة...».

إنتهتِ المجدلةُ الكُبرى تمامًا عندَ منتصفِ الليل، فبدأَ الأبُ مكسيموس القدَّاسَ الإلهيَّ ويداه مرتفعتانِ إلى أعلى وناظراهُ مسمَّرانِ على إيقونةِ الضابطِ الكلِّ مُعلِنًا بصوتٍ جهيرٍ الصلاةَ القديمة، «مباركةٌ مملكةُ الآبِ والابنِ والروحِ القدس، الآنَ وكلَّ آنٍ وإلى دهرِ الدَّاهرين».

لحظةَ تفوُّهِ الأبِ مكسيموس بكلمةِ 'مباركةٌ...'، تفجَّرَ جحيمُ ضوضاءِ الألعابِ الناريَّةِ الآتي من الساحةِ المركزيَّةِ وأجزاءٍ أُخرى من المدينة. لقد بدأتِ الاحتفالاتُ المُدَوِّيَةُ لحلولِ الألفيَّةِ الجديدة. لم يأبَهِ الأبُ مكسيموس لهذه الضوضاءِ وبقيَ ثابتًا في صلاتِه. وجَّهْتُ نظري نحوَ الهيكلِ حيثُ كان الضوءُ الكهربائيُّ لا يزالُ مضاءًا. قلتُ في نفسي، إذًا ستستمرُّ الحضارة. انحنيتُ نحوَ استِفانوس وإيراتو وتمنَّيتُ لهما ألفيَّةً جديدةً سعيدة. انتهتِ السهرانيَّةُ تمامَ الثانيةِ والنصفِ فجرًا.

قبلَ التوجُّهِ إلى منازلِنا، دُعينا لإمضاءِ بعضِ الوقتِ مع الأبِ مكسيموس في منزلٍ مُتاخمٍ للكاتدرائيَّة. بعدَ تبادلِ التمنِّياتِ بالسنةِ الجديدة، استمَعْنا إلى آخرِ الأخبار، فيما كنَّا نستمتعُ بفطورٍ باكرٍ من الحلوى التقليديَّةِ للسنةِ الجديدة. ودَّعْنا الأبَ مكسيموس ورافقتُ استِفانوس وإيراتو إلى منزلِهما في ليماسول. كانتِ الساعةُ الرابعةَ والنصفَ صباحًا عندما أَويتُ أخيرًا إلى الفراشِ في شقَّتِهما. كانتِ الشوارعُ المُحيطةُ بالساحةِ الرئيسيَّةِ والمنتزَهُ المُطلُّ على

البحرِ ملأى بالليماسوليّينَ المُبتهجينَ احتفالًا بحلولِ الألفيّةِ الجديدة. شعرتُ بحسنِ حظّي، إذْ عملتُ باقتراحِ استفانوس في مشاركتِهم السهرانيّة. قبلْ أنْ نخلدَ إلى النوم، استمَعْنا إلى آخرِ الأخبارِ العالميّةِ على قناةِ يورو نيوز المرئيّة. كانتِ القريةُ العالميّةُ تحتفلُ، بينما بَقيتِ القذائفُ صامتةً في مستودعاتِها. على الأقلِّ هذه المرَّةَ، كانَ المُتعصّبونَ لرؤيا يوحنّا ولتنبُّوءاتِ نوسترادموس على خطإ.

انتظرْتُ بشوقٍ حلولَ العصرِ لأُوصِلَ الأبَ مكسيموس في سيّارتي إلى ديرِ الفائقةِ القداسة. كالعادة، وافقَ على طلبي أنْ أكونَ سائقَه لبضعةِ أيّام. أثناءَ هذه الرحلة، قرَّرتُ، بتشجيعٍ من الأبِ مكسيموس، أنْ أذهبَ إلى جبلِ آثوس في زيارةٍ ثانيةٍ، كمحطّةٍ أخيرةٍ في استكشافي للتقليدِ المستيكيِّ للمسيحيّةِ الشرقيّة.

سُررتُ أنَّ لاڤروس، وهو صديقٌ مشترَكٌ لاستِفانوس ولي، ويقطنُ في ليماسول أيضًا، سيُرافقُني في تلكَ المغامرة. كانَ لاڤروس أستاذًا سابقًا في علمِ الاقتصادِ البيئيِّ في ولايةِ آيوا الأميركيّة، وتلميذًا متحمّسًا للأبِ مكسيموس، رجلًا يتمتَّعُ بحسٍّ مرحٍ وطباعٍ هادئةٍ وفكرٍ مَرِن. وبما أنّه أمضى أكثرَ منْ عشْرِ سنواتٍ في أميركا وله خلفيّةٌ أكاديميّةٌ مماثلةٌ لخلفيّتي، سيكونُ مثالَ الرفيق. إذْ بفضلِ زياراتِه المتكرّرةِ والمطوّلةِ لجبلِ آثوس، صارَ واسعَ الاطّلاعِ على المكان. ووثّقَ علاقاتِه مع شيوخٍ ورؤساءِ أديرةٍ ورهبانٍ ونسّاكٍ مختلفين. لذا، سيكونُ خيرَ مرشدٍ لي ونحنُ نتسلّقُ الجبلَ المقدّسَ ونجولُ من ديرٍ إلى ديرٍ بحثًا عن شيوخٍ بارزين.

قبلَ مُغادرتي قبرص، اجتمعْنا، لاڤروس وأنا، بالأبِ مكسيموس للتباحثِ في حَجّنا المقبل، وأخذِ بركتِهِ والإستماعِ إلى اقتراحاتِهِ عن الأديرةِ التي يجبُ أنْ نزورَها والشيوخِ الذينَ علينا أنْ نلتقيَ بهم أثناءَ رحلتِنا التي ستدومُ أسبوعَين. وقد خطَّطنا أنْ تكونَ في آذار القادمِ، أثناءَ عطلةِ الربيعِ في جامعةِ ماين.

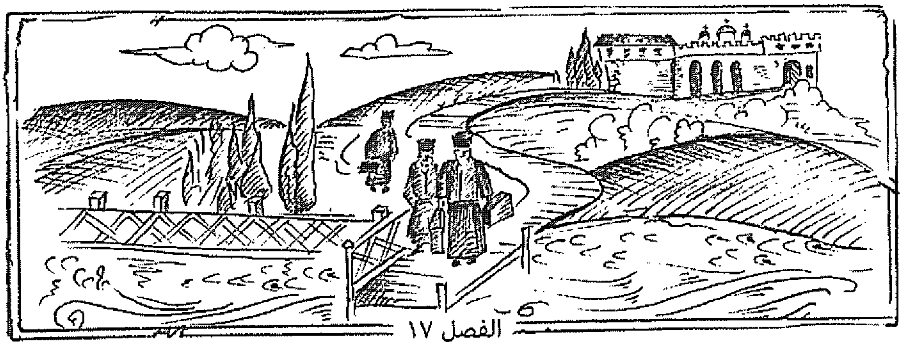

جبلُ الصمت

وصلتُ إلى تسالونيكي تمامَ الساعةِ الحاديةَ عشرةَ والنصفِ مساءً، آتيًا من بوسطن عبرَ ميلانو على خطوطِ الطيرانِ الإيطاليّ. كنتُ متشوِّقًا للقاءِ لاڤروس، المفترضِ أنْ يكونَ قدْ وصلَ إلى المطارِ قبْلي بساعتَين قادِمًا من قبرص. سوفَ نُمضي ليلتَنا في تسالونيكي، ونبدأُ رحلتَنا إلى الجبلِ المقدّسِ غدًا صباحَ الأحدِ ١٢ آذار.

ما إنْ عبرْتُ النقطةَ الجمركيّة، حتّى بدأتُ البحثَ عنه. فحسبَ اتّفاقِنا المسبق، مكانُ التقائِنا كانَ عندَ بابِ المطارِ الخارجيّ. إلاَّ أنَّهُ لم يكنْ هناك. شعرتُ بالإحباط. تجوّلتُ حائرًا لأربعينَ دقيقةً حولَ المطارِ، القليلِ الحركةِ والذي يبدو مهجورًا فعلًا، وبعدَ تأكُّدي أنّه ليسَ من رحلةٍ أُخرى قادمةٍ من قبرص في هذه الساعةِ المتأخّرةِ من الليل، ركِبتُ سيّارةَ أجرةٍ إلى فندقِ 'سيتي' في وسطِ مدينةِ تسالونيكي. هناك، وجدتُ فاكسًا من لاڤروس، حيثُ يقول: 'أنا آسف. لم أتمكّنْ من الاتّصالِ بكَ قبلَ مُغادرتِكَ الولاياتِ المتّحدة. لكن، عندي أخبارٌ سيّئة. فقَدْ أُطلِعْتُ في اللحظةِ الأخيرةِ أنّنا أخطأْنا في توقيتِ زيارتِنا

إلى جبلِ آثوس، لأجلِ لقاءِ الشيوخِ والتحدُّثِ معَهم. إذ، بَعدَ غروبِ الأحد، ١٢ آذار، يبدأُ الأسبوعُ الأوّلُ من الصومِ الكبير، ويدخلُ كلُّ الجبلِ المقدَّسِ في نظامِ صومٍ وصلاةٍ صارم. لكنَّ الأهمَّ من ذلك أنَّ الجميعَ يلتزمونَ الصمتَ الكلّيّ. يا صديقي، لم ندرِكْ كلانا أنّنا نتوجّهُ نحوَ جبلِ الصمت. فإذا حالفَنا الحظُّ والتقَينا بأحدٍ ما، جُلّ ما سيفعلُه هو النظرُ إلينا دونَ التكلُّمِ كالسمكة. ويبقى هذا ساريًا لثلاثةِ أيّام، حتّى الأربعاء ١٥ من الشهر. أُدرِكُ عواقبَ هذا التغييرِ المفاجِئ على برنامجِك، لكنّي واثقٌ أنّنا سنُنجِزُ الكثيرَ في الأيّامِ الباقيةِ قبلَ رحلةِ عودتِك. لذا يا كيرياكو، بدلَ أنْ نهيمَ كِلانا في تسالونيكي، قرّرتُ، بتردُّدٍ كبير، أنْ أطلبَ المسامحة، وتَستحسِنَ تغييرَ البرنامج. يمكنُ أنْ نلتقيَ في تمامِ الثالثةِ من بعدِ ظهرِ يومِ الثلاثاءِ في مطارِ تسالونيكي. الرجاءَ التأكيد، وليباركْكَ الله. لافروس'. أرسلتُ له فاكسًا مُعلِمًا ايّاه أنّه مسامح، وأنّي سأكونُ في إنتظارِهِ يومَ الثلاثاء. ثمَّ ذهبتُ للنوم.

كانَ لديَّ ثلاثةُ أيّامٍ أُمضيها في المدينةِ وعزمتُ الاستفادةَ بالكاملِ من هذا العائقِ المؤقّت. تسالونيكي هي ثانيةُ المُدُنِ الكُبرى في اليونان، وكانتْ تُحسبُ أثناءَ العصرِ البيزنطيّ المركزَ الثاني للمسيحيّةِ الشرقيّةِ الأكثرَ أهمّيّةً بعدَ القُسطنطينيّة. تسالونيكي، تلكَ المدينةُ التي ألهمتِ الشعراءَ والكُتّابَ والمغنّينَ لأجيالٍ عديدة، تغصُّ بمواقعَ آثريّةٍ تعودُ إلى زمنِ الإسكندرِ الكبيرِ ومعلّمِه أرسطو، وفيها وُلِدَ كلاهما. والأهمُّ بالأكثرِ لبحثي، أنَّ المدينةَ غنيّةٌ بالكنائسِ القديمةِ التي شُيِّدَتْ أثناءَ العصرِ البيزنطيّ. فتاريخُ المدينةِ، كما تاريخُ القُسطنطينيّة، ميّزا تاريخَ المسيحيّة.

تسالونيكي تلقَّتْ عدَّةَ رسائلَ من الرسولِ بولس؛ ومنها خرجَ الراهبانِ الموهوبانِ كيرلُّس وأخوه مثُوديوس في القرنِ التاسعِ في مهمَّتِهما لنشرِ المسيحيَّةِ في بلادِ السلاف. في الحقيقة، أدركتُ أنَّ تسالونيكي هي مدينةُ مؤسِّسَيْ تَوجُّهينِ لاهوتيَّينِ رئيسيَّين، حدَّدا تطوُّرَ المسيحيَّةِ منذُ الإنشقاقِ الكبيرِ عام ١٠٥٤، وهما أرسطو[١٤٦]، والقدِّيسُ غريغوريوس بالاماس[١٤٧]. اعترَتْني هذه الأفكارُ فيما كنتُ أحتسي الشايَ في ساحةِ أرسطو، وبجانبي تمثالٌ ضخمٌ للفيلسوفِ الحكيمِ أرسطو، وعلى بُعدِ بضعةِ أمتارٍ من الساحةِ توجدُ كنيسةُ القدِّيسِ غريغوريوس بالاماس. لعِبَ القدِّيسُ غريغوريوس، رئيسُ أساقفةِ تسالونيكي في القرنِ الرابعَ عشرَ الدورَ الحاسمَ في صدِّ اللاهوتِ السكولاستيكيِّ الغربيِّ المبنيِّ على فكرِ أرسطو، ومَنْعِهِ منْ أنْ يكونَ التوجُّهَ اللاهوتيَّ المُسيطِرَ على المسيحيَّةِ الشرقيَّة.

أثناءَ سنواتِ تدهورِ بيزنطية، تأثَّرَ بعضُ اللاهوتيِّينَ والإكليروسِ البيزنطيِّينَ النافذينَ بالتطوُّراتِ في الكنيسةِ الغربيَّة، فأيَّدوا تبنِّي المنحى السكولاستيكيِّ كمقاربةٍ أساسيَّةٍ للَّاهوت، وانتقدوا الممارساتِ الروحيَّةَ لنسَّاكِ جبلِ آثوس ورهبانِهِ مُعتبِرينَها هرطقةً. طريقةُ عيشِ رهبانِ آثوس آنذاك،

١٤٦ فكر أرسطو هو اللاهوت السكولاستيكيّ أو المدرسيّ. وأحد أكبر الفلاسفة المدرسيّين هو توما الأكويني الذي بنى لاهوته وفلسفته على فكر أرسطو إلى حد بعيد. وأحد أهم مبادئ الفلسفة المدرسيّة هو أن العقل يكتشف أسسًا إضافية لدعم الايمان الآتي عن طريق الوحي الالهيّ والعقيدة والكنيسة. أو بكلامٍ آخرَ هو منحى عقليٌّ لفهمِ الإيمان.

١٤٧ هو رئيس أساقفةِ تسالونيكي (١٢٩٦-١٣٥٩) لم يهتم بالمسائل الفلسفيّة المجردة. صاغ نظرة إلى الإنسان قائمة على الكتاب المقدّس، فقال إن الإنسان ككلّ خُلق على صورة الله ومثاله، وإن الجسد هو شريك الروح في تحقيق الخلاص والقداسة. بترجمة خبرة الكنيسة الروحيّة، لاهوته كان امتدادًا خلّاقًا للتقليدِ الآبائيّ، وكانت نقطة انطلاقه هي الحياة في المسيح. اتهمه أعداؤه بالابتداع المدمّر، وحتّى هذا اليوم ما برح الغربيّون يقذفونه بهذا الاتّهام.

عُرِفَتْ بالهدوئيَّة. كانَ هدفُهم الاختبارَ المباشرَ للنورِ غيرِ المخلوقِ والتألُّه.[١٤٨]

زعيمُ الحملةِ المعاديةِ للهدوئيَّةِ كانَ برلعام، وهو راهبٌ يونانيٌّ من كالابريا في إيطاليا، واسعُ المعرفةِ متمرّسٌ في الغرب. بصفتِه عالِمًا ولاهوتيًا إنسانويًّا، أيّدَ التأمُّلَ العقليَّ، والميتافيزيقياتِ الأرسطوطاليسيَّة، واللاهوتَ التوماويَّ[١٤٩] على أنَّها السُّبُلُ الأنسبُ في التأمُّلِ والبحثِ عن اللّه. سخِرَ من مناهجِ النسَّاكِ الآثوسيّينَ مُعتبرًا ايّاها خرافةً ونتاجًا للجهل، واعتبرَ خبراتِ الآباءِ القدّيسينَ للنورِ غيرِ المخلوقِ هراءً تامًّا ووهمًا. علَّمَ برلعام وأتباعُهُ أنَّ جوهرَ اللّهِ يفوقُ كلَّ إدراكٍ وكلَّ معرفةٍ بشريَّة. لذا، فالنورُ غيرُ المخلوقِ الذي يختبرُهُ شيوخُ آثوس، ليس منَ اللّهِ بل هو مجرَّدُ نتاجِ الخيالاتِ المشوَّشةِ لأولئكَ الشيوخ.

كانَ المؤيِّدَ الأوّلَ لمدرسةِ الهدوئيَّةِ رئيسُ أساقفةِ تسالونيكي غريغوريوس بالاماس، الذي اختبَرَ بنفسِه، كراهبٍ في جبلِ آثوس لعدَّةِ سنوات، النورَ غيرَ المخلوق. وإذْ هوَ عالِمٌ ضليع، عارضَ حُجَجَ الفلاسفةِ السكولاستيكيّين واللاهوتيّينَ بشدَّة، وبمهارةٍ دافعَ عن الهدوئيَّةِ كطريقٍ أساسيٍّ نحوَ معاينةِ اللّه، نحوَ التألُّه. اتَّفقَ مع أخصامِهِ أنَّ جوهرَ اللّهِ غيرُ مدركٍ بالكلّيَّةِ ويفوقُ كلَّ فهمٍ بشريّ. لكنَّه، أسَّسَ لاهوتَهُ على تعاليمِ آباءِ الكنيسةِ الأُوَل، وأكَّدَ أنَّ الإنسانَ يُمكنُهُ أنْ يختبرَ اللّهَ في الحقيقة، من خلالِ القِوى الإلهيَّةِ التي هي انبثاقاتٌ لجوهرِهِ الإلهيّ. لذا، اختبارُ النورِ غيرِ المخلوقِ كقِوى اللّه، حقيقيٌّ وليسَ وهمًا. حاوَلَ بالاماس بحجَّتِهِ هذه إنقاذَ الاعتقادِ أنَّ التألُّهَ جائزٌ بشريًّا. كما أكَّدَ

١٤٨ تيموثي وير. الكنيسة الأرثوذكسية: إيمان وعقيدة. منشورات النور. ١٩٨٢.

١٤٩ نسبة إلى توما الاكويني.

أنَّ مقاربةً فلسفيَّةً بحتةً لمعرفةِ اللّٰهِ قد تمنعُ البشرَ أنْ يعرفوا اللّٰه فعلًا»[١٥٠].

المواجهةُ اللاهوتيَّةُ بينَ غريغوريوس بالاماس والهدوئيِّينَ من جهةٍ، وبرلعام ومؤيِّديهِ من جهةٍ أُخرى، دامَتْ لبعضِ الوقتِ في منتصفِ القرنِ الرابعَ عشر. وانتشرَتْ بشكلِ رسائلَ عامَّةٍ وكتبٍ ونقاشات، مولِّدةً نزاعاتٍ كثيرةً داخلَ الكنيسةِ الشرقيَّة. في النهاية، انتصرَ موقفُ بالاماس، وأعلنَتِ الكنيسةُ في القُسطنطينيَّة أثناءَ المجمعَينِ المتعاقبَين عامَيْ ١٣٤١ و١٣٥١، أنَّ تعاليمَ غريغوريوس هي التعاليمُ الحقَّةُ للكنيسةِ الأرثوذكسيَّة، ورفضتْ تعاليمَ برلعام وحرمَتْها لأنَّها هرطقة. كتبَ رئيسُ ديرٍ آثوسيٍّ معاصرٌ وأستاذٌ سابقٌ في اللاهوتِ في جامعةِ تسالونيك: «كفاحُ القدِّيسِ غريغوريوس، لمْ يسْعَ إلى تبريرِ بعضِ الأفكارِ الفلسفيَّة، بل إلى إثباتِ أنَّ التألُّهَ النهائيَّ هدفٌ يُحرزُهُ البشر»[١٥١]. وَفقًا للقدِّيسِ غريغوريوس والهدوئيِّين، المقاربةُ الفلسفيَّةُ وحدَها لا تكفي لمعرفةِ اللّٰه. «فاللاهوتُ المستنِدُ إلى العقل، لا إلى الاختبارِ المباشرِ للّٰه، ليسَ لاهوتًا بل فلسفة. والفلسفةُ هي إبداعٌ إنسانيٌّ، لا تَمنحُ معرفةَ اللّٰه معرفةً حقَّةً، ولا السلامَ القلبيَّ»[١٥٢].

بانتصارِ بالاماس على برلعام، وبالتالي على أرسطو، نجَتْ مُعتقداتُ الهدوئيِّينَ حولَ الطريقِ ذاتِ المراحلِ الثلاث، وحُفظَتْ للأجيالِ في الأديارِ

١٥٠ أنظر: القدِّيس غريغوريوس بالاماس - الدفاع عن القدِّيسين الهدوئيِّين - نقلَه إلى العربيَّة رهبان دير القدِّيس جاورجيوس (دير الحرف) - منشورات التراث الآبائيّ ١٩٩٦.

151 Abbot Gregory, O Agios Gregorios O Palamas: Dydaskalos tes Theoseos [St. Gregory Palamas: Teacher o f Theosis] (Mount Athos: Holy Monastery of Gregoriou, 2000), p. 17.

152 Ibid., p. 50.

القديمة، كالأديارِ الآثوسيَّة. والمُلفتُ في هذا الصدد، هو ما جاءَ في كتاباتِ كين ويلبير، أحدِ روّادِ المذهبِ العبر- شخصيِّ transpersonal، في نقدِهِ البارعِ للفكرِ الغربيِّ، إذْ يَدَّعي أنَّ الحضارةَ الغربيَّةَ تَفتقرُ إلى 'يوغا' أَو إلى منهجٍ لإكتسابِ المعرفةِ يَتعدَّى الحواسَ والفكر. وبالتالي، الفكرُ الغربيُّ أسيرٌ لتركيباتِهِ الثقافيَّةِ والعلميَّة. ويلبير، كمُعظمِ نُظرائِهِ اليوم، يَجِدُ تلكَ 'اليوغا' في الأديانِ والفلسفاتِ الشرق-آسيويَّة، وتحديدًا في الزِّنِّيَّة Zen[١٥٣]. في كلِّ أعمالِه، ليسَ من ذكرٍ أو إدراكٍ للتقليدِ الهدوئيِّ أو للمفاهيمِ التي تستندُ عليها مراحلُ الحياةِ الروحيَّةِ الثلاث.[١٥٤]

* * *

فيما كنتُ جالسًا أحتسي الشايَ في ساحةِ آرسطو، متأمِّلًا في هذه المواضيع، ألحَّ عليَّ الفكرُ بأنَّ العنايةَ الإلهيَّةَ هي وراءَ ذلكَ الجدَلِ اللاهوتيِّ. إذْ كلاهما، أي المقاربةُ الهدوئيَّةُ نحوَ اللهِ من جهة، والمقاربةُ الفلسفيَّةُ من جهةٍ أُخرى، وَجْهانِ لعملةٍ مسيحيَّةٍ واحدة، واحدٌ مُهيمنٌ في الشرق، والآخرُ في الغرب. فكما أخبرَني أسقفٌ كاثوليكيٌّ في ماين مرَّة، أنَّ للمسيحيَّةِ رئتَين. رئةٌ في الغربِ أي العقلانيَّةُ والفلسفة، وأُخرى في الشرقِ أي الأسراريَّةُ وغيرُ الدنيويَّة. وأضاف، أنَّ الرئتَينِ ضروريَّتانِ لأجلِ التنفُّسِ السليم. تعاطفتُ كثيرًا مع تلكَ الاستعارة، إذْ إنِّي نشأتُ على الفكرِ الغربيِّ وتقليدِ حركةِ التنويرِ الفلسفيَّة، وفي الوقتِ عينِهِ انجذَبْتُ بشدَّةٍ لجذوريَ الثقافيَّةِ في أرثوذكسيَّةٍ

١٥٣ فرقة بوذيّة تؤمن بأن في ميسور المرء أن ينفذ إلى طبيعة الحقيقة عن طريق التأمل.

154 Ken Wilber, The Marriage of Sense and Soul: Integrating Science and Religion (New York: Random House, 1998).

أسراريَّةٍ شرقيَّة. لا يُمكنُني أنْ أتخيَّلَ التنفُّسَ برئةٍ واحدةٍ فقط. لا يسعُني إلاَّ أنْ أُبديَ إعجابي بعبقريَّةِ توما الأكوينيِّ وسَعَةِ معرفتِهِ، كوني تعمَّقتُ إلى حدٍّ ما في دراسةِ أعمالِه. لكنَّه هو نفسَه اضطرَّ أنْ يُعلن، بعدَ دخولِهِ في حالِ اختطافٍ روحيٍّ أثناءَ إحدى الخِدَمِ الدينيَّة، أنَّ كلَّ ما كتبَهُ قبلَ هذا الاختبار، تافِهٌ مقارنةً بِما اختبرَهُ في تلكَ الحالة. منذُ تلكَ الحادثةِ وحتَّى موتِهِ بعدَ سنة، لم يكتبْ أيَّةَ كلمة. إختبارُ توما الأكوينيِّ الشخصيُّ زوَّدَ القديسَ غريغوريوس بالاماس بدعمٍ إضافيٍّ في نزاعِهِ مع الفيلسوفِ الكالابريِّ برلعام[١٥٥]. مع ذلك، عاودَتْني كلماتُ أرسطو: 'إذا ادَّعيْتَ أنّه يَجِبُ ألاَّ تتفلسفَ، فأنتَ في الحقيقةِ تتفلسف'. إذنْ تجنُّبُ الفلسفةِ أمرٌ عسير. القدّيسُ غريغوريوس بالاماس نفسُهُ كانَ واسعَ المعرفةِ جدًّا بأرسطو، وفي مجادلاتِهِ مع برلعام دفاعًا عن الهدوئيَّةِ استخدمَ الحججَ الفلسفيَّةَ والمنطقَ الذي ابتدعَهُ الفيلسوفُ العظيمُ أرسطو. لذا، كنتيجةٍ نهائيَّة، أيُّ الإثنينِ كانَ على حقّ، القدّيسُ غريغوريوس بالاماس أم أرسطو؟ لم أطرحْ قطُّ تلكَ الجدليّاتِ على الأبِ مكسيموس، ولم أكنْ مُتأَكِّدًا مِمَّا سوفَ يكونُ رَدُّه. الواضحُ لي هو أنَّ القدّيسَ غريغوريوس بالاماس كانَ بطلَهُ العظيم، وإكرامًا له بنى تلكَ الكنيسةَ الصغيرةَ المُدهِشةَ بجوارِ ديرِ الفائقةِ القداسة.

تَساءلتُ في نفسي عن كيفيَّةِ تطوُّرِ المسيحيَّة، لو لم يسقطِ القسمُ الغربيُّ

---

١٥٥ تجْدُرُ الإشارة هنا أنّه بالرغم من هيمنة المنحى العقلي على المسيحية في الغرب أكثر من الشرق، برز خارج هذه العقلانية خط صوفي في الغرب. من أسمائه البارزة يوحنا الصليب، هلديغراد Hildegard الذي مِنْ Bingen، إغناطيوس الذي من لويولا، وتيريزا التي مِنْ آفيلا، إلى آخرين معاصرين مثل توماس ميرتون وبادري بيو من إيطاليا. إلا أنه، يَبْدو لي، أن تقليد الشيوخ لنقل المعرفة عن الله من جيل إلى آخر من نحو منتظم حفظ في شكلٍ واضحٍ وأكثرَ تمييزًا في الشرق، خصوصًا في جبل آثوس.

من الإمبراطوريَّةِ تحتَ نيرِ غزواتِ الجرمان، وتسقط بيزنطية في يدِ الأتراك. أكانَ ممكنًا للحضارةِ الغربيَّةِ المحافَظةُ على مقاربةٍ أكثرَ توازنًا بينَ الصوفيَّةِ والعقلانيَّة، بينَ الإيمانِ والعلم؟ فبالنهاية، آباءُ الكنيسةِ الأوائلُ مثلَ القدّيسَين باسيليوس الكبير وغريغوريوس النيصصيّ كانوا واسعي المعرفةِ في العلومِ الكلاسيكيَّة. كرّموا الفلاسفةَ القُدامى ودمَجوا تعاليمَ هؤلاءِ إلى فهمِهم الصوفيّ والاختباريّ لله. بكلامٍ آخرَ، الاتّجاهان، الصوفيّ والعقلانيّ، وُجِدا في الكنيسةِ الأُولى. وانفصلا فقط على أثرِ التطوُّراتِ التاريخيَّةِ اللاحقة.

ربَّما، كانَ لا بُدَّ، لهذه التطوُّراتِ أنْ تَحدثَ بتلكَ الطريقةِ لأسبابٍ تفوقُ إدراكَنا. ربَّما، كانَ يلزمُ البشريَّةَ أنْ تنمّيَ عقلانيَّتَها. لكنِ الآن، مع بلوغِ الفكرِ العلميّ حدًّا أصبحَ يُهدِّدُ صميمَ وجودِنا، قد يلزمُ أنْ نجلبَ إلى الطليعةِ التقليدَ الصوفيَّ المنسيّ، وفقَ ما هو مُصانٌ في أماكنَ متفرّقةٍ مثلَ جبلِ آثوس. الآن، في هذه المرحلةِ من التاريخ، وبغضِّ النظرِ عمَّا نفضِّلُهُ شخصيًّا من مذاهبَ دينيَّة، يلزمُنا أنْ ندمجَ مجدَّدًا العقليَّ بالحدَسيّ، العلميَّ بالصوفيّ، لخلاصِنا الوجوديّ والروحيّ معًا.[١٥٦]

* * *

استَقَلَّتُ الحافلةَ إلى مطارِ تسالونيكي، وهذه التساؤلاتُ، التي لا جوابَ لها، تدورُ في فكري. شعرتُ بارتياحٍ كبيرٍ وأنا أُرحّبُ بلاقروس خارجَ صالةِ

156 Pitirim A. Sorokin, Social and Cultural Dynamics, 4 vols. (New York: America Book Co., 193741). See also Wilber, The Marriage of Sense and Soul; and Richard Tarnas, The Passion of the Western Mind: Understanding the Ideas that Have Shaped Our World View (New York: Harmony Books, 1991).

الجمارك، والابتسامةُ المألوفةُ على وجهِه. ركِبنا بعجلةٍ سيَّارةَ أجرة، آملِين الوصولَ إلى محطَّةِ الحافلاتِ قبلَ إقلاعِ آخِرِ حافلةٍ متوجِّهةٍ إلى أورانوبوليس Ouranoupolis التي تبعدُ حوالى ثلاثَ ساعاتٍ ونصفٍ، والواقعةِ عندَ الشاطئِ الجنوبيِّ لِشِبهِ جزيرةِ خالكيذيكي Chalkidike.

وصلنَا إلى أورانوبوليس حوالي الساعةَ التاسعةَ مساء. سنُمضي ليلتَنا هناكَ كيْ نأخذَ السفينةَ إلى الجبلِ المقدَّسِ في الصباحِ التالي. لافروس، الذي غدا مثلَ استِفانوس، من المقرَّبينَ للأبِ مكسيموس، حملَ الكثيرَ من الأخبارِ عن آخرِ التطوُّراتِ في قبرص. إذْ كنَّا نعلمُ أنَّنا، فورَ دخولِنا إلى جبلِ آثوس، سنَتْبعُ نظامَ صومٍ صارمٍ، ذهبْنا لتناولِ العشاءِ في أحدِ المطاعمِ على البحرِ، وأطلقْنا العِنانَ لأنفسِنا في المأكلِ والمشربِ، في مأدبةِ لحمِ أخطبوطٍ طازجٍ ينطبعُ في الذاكرة، ونبيذِ راتسينا retsina المحلّيِّ المشهور.

كانَ لافروس رجلًا يتمتَّعُ بذكاءٍ فطريٍّ وحكمةٍ زمنيَّة، نشيطًا متوسِّطَ القامة، ممتلئَ البُنيةِ بعضَ الشيء، تُغطِّي وجهَه المستديرَ لحيةٌ بيضاءُ مُشَذَّبة. تقاعَدَ منذُ وقتٍ ليسَ ببعيد، وكرَّسَ وقتَهُ في قضايا الدفاعِ عن البيئة، وفي مساعدةِ الأبِ مكسيموس في مهامِهِ الروحيَّةِ والاجتماعية. هو ابنُ كاهنٍ بارزٍ من ليماسول، وقدِ اشتركَ لافروس الشابُّ في الخمسينيّات في حملةٍ فدائيَّةٍ سرِّيَّةٍ مناهضةٍ للحكومةِ الاستعماريَّة، حملةٍ سمَّاها البريطانيّون 'إرهابًا'. مهمَّتُهُ كانتْ حَملَ رسائلَ سرِّيَّةٍ منْ مكانٍ إلى آخرَ في الجزيرة.

لكنْ أثناءَ تلكَ السنَواتِ المُظلمة، غيَّرَتْ حادثةٌ معيَّنةٌ حياتَهُ رأسًا على

عقب. ففي أحدِ الأيّام، وهو في طريقِهِ إلى إحدى القُرى الواقعةِ شرقَ الجزيرةِ في مهمَّةٍ استثنائيَّة، أضاعَ طريقَهُ وأوقفَ درَّاجتَهُ الناريَّةَ قُرْبَ حقلٍ واسع. فجأة، لاحظَ مشهدًا غيرَ اعتياديّ. ففي وسطِ الحقل، رأى راعيًا جالسًا على صخرة، يقرأُ في كتاب. وفيما اتَّجهَ نحوَهُ ليستدلَّ على الطريق، أدركَ أنَّهُ يقرأُ الكتابَ المقدَّس. أجابَ الرجلُ، وهو يُنزِلُ نظَّارتَهُ ليُبصرَ لاڤروس بوضوحٍ أكثر: «قبلَ أنْ أُرشِدَكَ إلى الطريق، رجاءً أجِبْني على السؤالِ التالي؛ إنْ كانَ يسوعُ المسيحُ هو رئيسَ أساقفةِ قبرص، أتعتقدُ أنّه كانَ سيأخذُ رشّاشًا لمحاربةِ البريطانيّين».

أعلنَ لاڤروس بشكلٍ قاطع: «سؤالُ الراعي غيَّرَ حياتي مائةً وثمانينَ درجة. منذُ تلكَ اللحظة، غدَوتُ داعيةَ سلامٍ ورفضْتُ العنفَ كوسيلةٍ لحلِّ المشاكلِ الإنسانيَّة. كانَ ذاكَ الراعي ملاكًا أو شخصًا أرسلَتْهُ الملائكةُ لمُساعدتي في رؤيةِ الأمورِ بشكلٍ أوضح».

* * *

في الصباحِ التالي، تمامَ العاشرةِ والنصف، ركبْنا السفينةَ المسمّاةَ «بواجبِ الاستئهال Axion Estin»، على اسمِ إحدى إيقوناتِ والدةِ الإلهِ العجائبيّةِ في جبلِ آثوس، وتوجَّهْنا مباشرةً إلى عمقِ شبهِ الجزيرةِ الآثوسيَّة. كانَ نهارًا رائعًا، فيما كنَّا نعبرُ في مياهِ بحرٍ هادئٍ من ديرٍ إلى ديرٍ نُنزِلُ الحجَّاجَ والرهبانَ ونَقِلُّ آخرينَ على متنِ السفينة. إلى الجنوبِ وراءَ الأديار، يرتفعُ جبلُ آثوس المكسوُّ بالثلوج، أكثرَ من ستَّةِ آلافِ قدمٍ عن مستوى البحر. شعَرْتُ مرَّةً ثانيَةً وأنا أزورُ الجبلَ المقدَّس، كما لو كنتُ أَرجعُ بالزمنِ إلى الوراء، إلى المكانِ الوحيدِ من

بيزنطية، الذي نجا وبقيَ حيًّا[157].

محطّتُنا الأُولى كانتْ في ديرِ ڤاتوبيذي، الذي تربطُنا بهِ علاقات، وفيهِ يُمكنُ أنْ نضعَ برنامجَ زياراتِنا. بعدَ أنْ رسَوْنا في مرفإ ذافني، كانَ أمامَنا خياران لِنصِلَ إلى ديرِ ڤاتوبيذي، إمّا السيرُ على الأقدامِ لستِّ ساعاتٍ في مسارٍ خلّاب، أو استئجارُ حافلةِ نقلٍ معَ حجّاجٍ آخرينَ تقلُّنا إلى الديرِ في مدّةِ ساعةٍ تقريبًا. إخترْنَا الخيارَ الأخيرَ مُدّخرينِ قوّتَنا للمسافاتِ الطويلةِ التي سنقطعُها سيرًا على الأقدامِ لاحقًا.

على الرغمِ مِنْ جمالِ الريفِ الآثوسيّ، لم تكنِ الرحلةُ نزهةً ممتعة. فَوُعورةُ التضاريسِ والظروفُ غيرُ المثاليّةِ لرحلتِنا تَجعلُكَ تشعرُ أنّه تمرينٌ جسديٌّ مُضنٍ، كأنّه ضربُ نسك. الافتقارُ إلى الطرقِ المُعَبّدةِ أو أيّةِ شروطٍ للراحةِ كانَ خيارًا مقصودًا من قِبَلِ رهبانِ آثوس. لم يشاؤوا أنْ يقوّضَ شيءٌ هدفَ انسحابِهم إلى الجبلِ المقدّس.

- «ما قراءَتُكَ يا كيرياكوس، لبيانِ بابا روميةَ الأخير؟»، سألَني لاڤروس فيما كنّا جالسَينِ في المقعدِ الخلفيِّ لحافلةِ النقلِ وهي تكتسحُ الطرقاتِ كسفينةٍ في عاصفة، مُمسكَينِ الدرابزونَ بإحكام.

- «لِوَضعِ الأمرِ في إطارٍ مُعتدِل، أرى أنّه بيانٌ استثنائيّ. ألا تعتقدُ ذلك؟ في تقديري هو بيانٌ تاريخيّ. ربّما هو بدايةٌ لِمُصالحةٍ بينَ الشرقِ والغرب».

قالَ لاڤروس، العارفُ الحضارةَ الآثوسيّةَ جيّدًا: «أتمنّى أنْ يكونَ رأيُكَ

157 Markides, Riding with the Lion, pp. 214-332.

صائبًا، لكنْ لا تتأمَّلْ كثيرًا. فلا تزالُ منتصِبَةً بينَهما مشاعرُ عداءٍ تَعودُ إلى زمنٍ بعيدٍ في التاريخ. فلْنرَ ما سيقولُهُ لنا الرهبانُ في هذا الصدد».

ذَهلتُ في الحقيقةِ عندَ سماعي أنَّ الحبرَ الأعظم، بعدَ أنْ طلبَ المغفرةَ من اليهودِ والإسلامِ لِما اقترفَتْهُ كنيستُهُ في الماضي في حقِّهم من ذنوب، مضى في طلبِ مغفرةِ شركائِهِ من المسيحيّينَ الأرثوذكس. تصدَّرَ الحَبرُ الإعلامَ في جميعِ أنحاءِ العالم. قبلَ مغادرتي ماين، ناقَشْتُ الأمرَ مع طُلاَّبي. شرحْتُ لهم مُوَضِّحًا، أنَ الأسبابَ الرئيسيَّةَ التاريخيَّةَ للعداءِ بينَ الشرق والغرب، تعودُ إلى زمنِ انقسامِ الإمبراطوريَّةِ الرومانيَّة؛ والذي أدَّى في النهايةِ إلى الانشقاقِ الكبيرِ في الكنيسةِ عام ١٠٥٤ . بعدَ نُقطةِ التحوُّلِ تلك، تَدهورَتِ العلاقاتُ فقط، معَ محاولاتِ مصالحةٍ متقطِّعةٍ وغيرِ فعَّالة. الأحداثُ التي صَدَمَتِ البيزنطيّينَ وولَّدَتْ شكوكًا عميقة، كانتْ الأثرَ الذي خلَّفَتْهُ الحملاتُ الصليبيَّةُ على مجتمعِهم. ففي طريقِهم إلى فلسطين لمُحَارَبَةِ 'الكفَّار' أثناءَ الحملةِ الصليبيَّةِ الرابعة، أدارَ المحاربونَ المقدَّسونَ أسلحتَهم ضدَّ البيزنطيِّينَ وبدلًا منَ الأرضِ المقدَّسةِ غزَوا العديدَ من مدنٍ بيزنطية، بما في ذلكَ مدينتَيْ تسالونيكي والقُسطنطينيَّة، حيثُ أطلقوا العِنان لأنفسِهم لممارسةِ أشنعِ أَوْجهِ الهمجيَّةِ والعنف. في تسالونيكي، اغتصبوا النساءَ والأطفال، سَلبوا البيوتَ وأحرقوها، كما دنَّسوا الكنائسَ ودمَّروها. حسبَ ما جاءَ على لسانِ مؤرِّخٍ مُعاصر:

> حتَّى الهياكلُ المقدَّسةُ لم تَسلَمْ من عنفِ أولئكَ البرابرةِ الهمجيّ. كانَ أمرًا مُستهجَنًا أنْ يلجأَ أولئكَ إلى تحطيمِ إيقوناتِنا مُستخدمِينَها كوقودٍ لطهي طعامِهم. والأكثرُ إجرامًا من ذلك، أنّهم

> كانوا يرقصونَ حولَ الموائدِ المقدَّسةِ التي ترتعدُ أمامَها الملائكة، ويُنشِدونَ أغانيَ تجديفيَّة. وبعدَ ذلك، كانوا يَتبوَّلونَ في جميعِ أرجاءِ الكنيسة، مُغرقينَ الأرضَ ببولِهم.[١٥٨]

تعرَّضتِ القُسطنطينيَّةُ والعديدُ منَ الأديرةِ في جبلِ آثوس لمصيرٍ مماثلٍ أوقعَ جروحًا عميقةً قاطعةً الروابطَ بينَ المسيحيَّةِ الشرقيَّةِ والغربيَّة. مع الوقت، رُمِّمتْ بيزنطية إلاَّ أنَّها كانتْ مُنهَكةً جدًّا لِتُدافعَ عن نفسِها ضدَّ الأتراكِ العُثمانيين. في تأريخِهِ لتلكَ الفترةِ المأساويَّةِ من تاريخِ الغرب، كتبَ المؤرِّخُ جون نوريتش Norwich :

> فاقتِ الحملةُ الصليبيَّةُ الرابعة... ما سبقَها من حملاتٍ في الوحشيَّةِ والطمع، في الجحودِ والازدواجيَّة. بنهبِ القُسطنطينيَّة، تكبَّدَتِ الحضارةُ الغربيَّةُ خسارةً أعظمَ من سلبِ روما في القرنِ الخامس، أو حرقِ مكتبةِ الاسكندريَّةِ في القرنِ السابع. خسارةُ القُسطنطينيَّة، ربَّما هي الخسارةُ الأكثرُ فداحةً في التاريخ. الضررُ الذي تكبَّدَتْهُ سياسيًّا كانَ أيضًا جسيمًا. لمْ تستَعِدْ بيزنطية قطُّ أيَّ جزءٍ يُذكرُ من سيادتِها المفقودة. بدلًا مِن ذلك، تُرِكَتِ الإمبراطوريَّةُ البيزنطيَّةُ مُنهَكة، عاجزةً عن الدفاعِ عن نفسِها ضدَّ المَدِّ العُثمانيّ. قليلةٌ هيَ سُخريَةُ الأقدارِ التاريخيَّةُ الأعظمُ من مصيرِ المسيحيَّةِ الشرقيَّة، الذي كانَ يجبُ أنْ يَختُمَهُ رجالٌ قاتلوا تحتَ رايةِ الصليب... عليهم أنْ

158 John Julius Norwich, A Short History of Byzantium (New York; Alfred A. Knopf, 1997), p. 239.

يَتحمَّلوا 'هم' المسؤوليَّةَ الرئيسيَّةَ للخرابِ الذي كتبوه للعالم.[١٥٩]

بينما كنتُ أقرأ، في مكتبةِ ديرِ الفائقةِ القداسة، أحدَ كتبِ السِّير ستيفن رانسيمان Runciman، حيثُ يصِفُ في تسلسلٍ زمنيٍّ وصفًا حيًّا مذهلًا للأحداثِ التاريخيَّةِ التي تَلَتْ سقوطَ القُسطنطينيَّة في يدِ الأتراكِ العُثمانيِّين[١٦٠]، بالكادِ استطَعْتُ ضبطَ دموعي. ما كنتُ أختبرُ فقطْ ألمَ سقوطِ القُسطنطينيَّة في ثلاثةِ أيَّامٍ من النهبِ والدمارِ والمذابح، ولا استعَدْتُ في ذاكرتي أحداثَ اجتياحِ الأتراكِ لقبرص عام ١٩٧٤؛ ما أدهشَني هو تلكَ النتيجةُ التدميريَّةُ لإبادةِ حضارةٍ برُمَّتِها، هي 'الرئةُ' الشرقيَّةُ للغربِ؛ وآثارُ ذلكَ على مصيرِ العالم.

لأسبابٍ مُختلفة، هذا التاريخُ لا يزالُ الغربُ جاهلَه. في الحقيقة، قد يكونُ أحدُ الأسبابِ هو أنَّهُ بعدَ سقوطِ القُسطنطينيَّة، لم يبقَ أيُّ بيزنطيٍّ لِيُخبرَ عن تلكَ الفترة. فالذين نَجَوا فرُّوا إلى فينيسيا وفلورنسا، حاملينَ معَهم كُتُبَهم ومعرفتَهم عن الحضارةِ الكلاسيكيَّة، مُساهمينَ في رَفْعِ القِوى الإجتماعيَّةِ التي أطلقَتْ عصرَ النهضة. سببٌ آخرُ قد يَكونُ حقيقةَ أنَّ مؤرِّخَ القرنِ الثامنَ عشرَ العظيمَ إدوارد غيبون، في عملِه الكلاسيكيِّ الشهيرِ حولَ انحطاطِ الإمبراطوريَّةِ الرومانيَّة وسقوطِها، ألغى دورَ بيزنطية، كأنْ لا صلةَ لها، وطبَعَ تاريخَها الألفيَّ بقوالِبَ سلبيَّة. تلكَ المواقفُ ورِثَها مؤرِّخونَ غربيُّون للقرونِ الوسطى، إذْ ركَّزوا أوَّلًا على تاريخِ الغربِ وحَكَموا على بيزنطية بمنظارِ غيبون. كتبَ مؤرِّخٌ للقرونِ الوسطى معاصر:

159 Ibid., p. 306.

160 Sir Steven Runciman, The Fall of Constantinople, 1451 (Cambridge: Cambridge University Press, 1965).

تاريخُ بيزنطية هو بحثٌ يُخيِّبُ الأمل. فالإمبراطوريَّةُ المتمحورةُ حولَ القُسطنطينيَّةِ انطلقتْ مع كُلِّ المكاسبِ التي ورِثتْها في الحياةِ السياسيَّةِ والثقافيَّةِ والإقتصاديَّةِ من الإمبراطوريَّةِ الرومانيَّةِ في القرنِ الرابع. بالكادِ أضافَتْ بيزنطية شيئًا إلى هذا الأساسِ الرائع، ما عدا في عالمِ الفنّ، الذي برعَ فيهِ اليونانيُّون. لم تُقدِّمِ الإمبراطوريَّةُ الرومانيَّةُ الشرقيَّةُ في العصورِ الوسطى أيَّةَ مساهماتٍ تُذكَرُ في الفلسفة، واللاهوت، والعلوم، أو الأدب... إنتقدَ المؤرِّخونُ المعاصرونَ، المتخصِّصونَ في تاريخِ الإمبراطوريَّةِ الرومانيَّةِ الشرقيَّةِ في القرونِ الوُسطى، بشدَّةٍ مَيْلَ مثقَّفي القرنِ التاسعَ عشرَ لِشَطْبِ بيزنطية كمثالِ حضارةٍ ضامرة. مع ذلك، خارجَ حقلِ الفَنّ، من الصعبِ إيجادُ أيَّةِ مساهمات، سواءٌ في شكلِ أفكارٍ جديدةٍ أو مؤسَّساتٍ أُضيفَتْ إلى الحضارةِ من قِبَلِ شعوبِ القرونِ الوسطى الناطقةِ باليونانيَّة."[١٦١]

يبدو أنَّ هذهِ الأفكارَ السلبيَّةَ الشائعةَ تَبَلْوَرَتْ في الوعيِ الجماعيِّ في الغرب، مؤثِّرةً على موقفِهِ من الحضارةِ البيزنطيَّة، التي لعِبَ المحاربونَ ضمنَ الحملاتِ الصليبيَّةِ المقدَّسةِ دورًا مركزيًّا في تحطيمِها. ذاكَ الانحيازُ المسَلَّمُ بهِ تُجاهَ بيزنطية، ضلَّلَ العلماءَ وأبقاهم، حتَّى فترةٍ قريبة، غيرَ مُكترِثينَ نوعًا ما بالتاريخِ البيزنطيّ. كما أبقى اللاهوتيِّينَ الغربيِّينَ غافلينَ عن حقيقةِ جبلِ آثوس وأهمِّيَّتِه، والتراثِ الروحيِّ المحفوظِ هناك.

✣ ✣ ✣

161 Cantor, Medieval History, p. 274.

إستقبَلَنا رهبانُ ديرِ ڤاتوبيذي بترحابٍ حارٍّ، خاصَّةً مَنْ كنَّا التقَيْنا بهم في زياراتٍ سابقة. بالرغمِ مِنْ أنَّهم بَدوا مُنهَكينَ كلِّيًّا بعدَ إكْمالِهم صيامَ انقطاعٍ كلِّيٍّ لثلاثةِ أيَّامٍ متواصلة، أي انقطاعًا كلِّيًّا عنِ الطعامِ والماءِ وحتَّى عن الكلام، إلاَّ أنَّهم كانوا متلهِّفينَ لسماعِ أخبارِ قبرص، مَسقطِ رأسِ نصفِ رهبانِ الدير، الذي يضمُّ أكثرَ من مائةِ راهب، وعلى وجهِ الخصوص، لِسَماعِ أخبارِ الأبِ مكسيموس. فمُعظمُ السنينَ التي أمضاها الأبُ مكسيموس في جبلِ آثوس، كانتْ في ديرِ ڤاتوبيذي، تمامًا مثلَ بطلِه القدِّيسِ غريغوريوس بالاماس.

شعَرْنا بارتياحٍ في ربوعِ ڤاتوبيذي، رغمَ هذا الإطارِ غيرِ الرسميّ، وحاولْنا أنْ نختبرَ ردَّةَ فعلِ الرهبانِ على بيانِ بابا رومية. لكنَّنا تراجَعْنا عن التمادي في بحثِ الأمر، حينَ لمَسْنا أنَّه لا تزالُ توجدُ مشاعرُ شكٍّ قويَّةٌ وتخوُّفٌ من الكنيسةِ الغربيَّة. فقَدْ أبدَوا قلقَهم من احتمالِ وجودِ دوافعَ خفيَّةٍ في بيانِ بابا رومية ليُهَيْمِنَ على الكنيسةِ الأرثوذكسيَّة. من ردَّةِ فعلِهم، أدركْتُ أنَّ ما حُفِظَ في جبلِ آثوس، للأسف، ليسَ الطريقُ الثلاثيَّةُ المراحلِ فقط، بل الذكرياتُ والصدماتُ التي صبغَتْ تاريخَ المسيحيَّةِ المضطرب. قالَ راهبٌ شابٌّ: «يلزمُ أنْ يتخلَّى بابا رومية، عن عصمتِهِ، وعن أنَّ الفاتيكان هو مركزُ المسيحيَّة. أرجوكَ، لا تُسِئْ فهمَ ما قلتُه. نحنُ نُحبُّ بابا رومية». ثمَّ ناولَني كتيِّبًا كتبَه رئيسُ ديرٍ آخر، الذي بعدَ انتقادِهِ لسياساتِ الفاتيكان في أوروبا الشرقيَّةِ، الأرضِ التقليديَّةِ للأرثوذكسيَّة، عبَّرَ عن أملِه، لحدوثِ معجزةٍ في يومٍ من الأيَّام، وأنَّ «... الكنيسةَ الأرثوذكسيَّةَ المقدَّسةَ في روما القديمةِ سترجعُ إلى إيمانِها الرسوليِّ. بعدَ ذلك، سنُرحِّبُ، نحنُ أو مَن يَخلفُنا، بذراعٍ مفتوحة،

ببابا رومية في جبلِ آثوس بصفتِه الأسقفَ المتقدِّمَ للكنيسةِ الجامعةِ الرسوليَّةِ الواحدة، وسيكونُ فرحُنا أبديًّا».

عندما اقترحْتُ على الراهبِ الشابِّ بأنّه ربَّما يكونُ في إعلانِ البابا، إشارةٌ غيرُ مباشرةٍ على أنَّ البابويَّةَ ليستْ معصومة، وأنَّ هناك أملًا للمصالحة، أجابَني: «إذًا، يجبُ أنْ نتمهَّلَ ونرى. نريدُ أفعالًا وليس أقوالًا فقط». إلاَّ أنَّ الشيخَ ذيونيسيوس، وهو ناسكٌ رومانيٌّ يناهزُ الإثنينِ والتسعينَ من العمرِ بالكادِ يُبصِر، ويُعتبَرُ قدِّيسًا حيًّا في مرتبةِ الشيخَينِ پاييسيوس وإفرام، كانَ ردُّ فعلِه مغايرًا لمَّا زُرناه في منسكِهِ الذي يبعدُ ساعتَين سيرًا على الأقدامِ من ديرِ ڤاتوبيذي، وأطلعناهُ على الخبر. رسمَ الناسكُ النحيفُ ذو اللحيةِ البيضاءِ الطويلةِ إشارةَ الصليب، ورفعَ ذراعَيهِ نحوَ السماء، وبفرحٍ أعلنَ أنَّ ذلكَ كانَ أفضلَ خبرٍ سَمِعَهُ منذُ مدَّةٍ طويلة. عندما، أظهر الأبُ سيرافيم، أحدُ الراهبَينِ اللذين رافقانا إلى هناك، علاماتِ الشكّ، نصحَهُ الشيخُ ذيونيسيوس: «إنْ سألَ أحدٌ المغفرة، ليسَ لنا الخيارُ إلاَّ أنْ نغفرَ له، دونَ أيَّةِ تحفُّظاتٍ أو تردُّد. هذا ما يطلبُه منَّا المسيح». وتابعَ الناسكُ العجوزُ بلهجتِهِ اليونانيَّةِ العذبة، مُتحدِّثًا عن فضائلِ الصبرِ والمغفرةِ والتواضعِ والحبِّ، القِيَمِ المركزيَّةِ في حضارةِ الجبلِ المقدَّس.

مكثْنا في ديرِ ڤاتوبيذي أربعَ ليالٍ. كَرَمُ رئيسِ الديرِ والرهبانِ وحسنُ استضافتِهم لنا، جعلانا نشعرُ بالراحةِ ووجَدْنا صعوبةً في أنْ نترُكَ لننتقلَ إلى أماكنَ أُخرى. لكنَّ أيَّامَ زيارتِنا إلى الجبلِ كانتْ محدودةً وهناكَ شيوخٌ كُثُرٌ يجبُ أنْ نلتقيَ بهم، وأديرةٌ أُخرى يجبُ أنْ نزورَها. وعَدْنَا أصدقاءَنا بالعودةِ في

المستقبلِ القريب.

في الأيّامِ السبعةِ التالية، تنقّلْنا من ديرٍ إلى ديرٍ على شبهِ جزيرةٍ يبلغُ طولُها ثلاثينَ ميلاً وعرضُها عشرةَ أميال. قطَعْنا مسافاتٍ كبيرة، في الغالبِ مشيًا على الأقدامِ وأحيانًا بالسفينة، حتّى استنزَفْنا القائمةَ التي أوصى بها الأبُ مكسيموس. التعرُّفُ إلى جبلِ آثوس وحضارتِهِ كانَ فريدًا، لا يُنتسى، وليسَ من مفرداتٍ تصفُهُ وتَفيهِ حقَّه. بالإضافةِ إلى لقاءاتِنا بالشيوخِ والنسّاك، سجَدْنا أمامَ عِدّةِ إيقوناتٍ قديمةٍ عجائبيّة. كما رأيْنا ذخائرَ فريدةً لعددٍ من قدّيسي المسيحيّةِ العُظماء، مثلَ قَدمِ القدّيسِ يوحنّا المعمدان، يدِ القدّيسةِ مريم المجدليّة، جمجمةِ القدّيسِ يوحنّا الذهبيِّ الفم، أجزاءٍ من عودِ الصليبِ المقدَّس، زنارِ والدةِ الإلهِ العجائبيّ، وكنوزٍ مقدّسةٍ أُخرى يُكرِّمُها الرهبانُ، الذين لم يراودْهم قطُّ شكٌّ عن الأصالةِ التاريخيّةِ لتلكَ الذخائر. أمّا من ناحيَتِنا، نحنُ القادمينَ من عالمٍ مشكِّكٍ علمانيٍّ، فلا نعرفُ إنْ كانَ هنالِكَ دليلٌ مُختبَرِيٌّ يؤكِّدُ أنَّ اليدَ المغلَّفةَ بالفضّة، التي رأيناها، هي بالتأكيدِ يدُ القدّيسةِ مريم المجدليّة. تعلّمتُ مع الوقتِ أنَّ أسئلةً كهذهِ في الجبلِ المقدَّس، في الحقيقة، هي غيرُ مناسبة. على أيّةِ حال، إذا كانَ هناكَ مكانٌ في العالمِ يُمكنُ أنْ تُجمعَ وتُحفظَ فيه تلكَ الذخائرُ الفريدةُ منذُ الأزمنةِ المسيحيّةِ الأُولى، فهو بالتأكيدِ أديرةُ جبلِ آثوس العشرون.

⁜ ⁜ ⁜

معَ قربِ نهايةِ حجّنا، بدأنا النزولَ من الجبلِ نحوَ البحرِ، بعدَ أنْ أمضَيْنا ليلتَينِ في ديرِ سيمونوبترا Simonopetra، ذي الطوابقِ التسعة، الذي يقعُ في

الطرفِ الغربيِّ لشبهِ الجزيرةِ والمُشيَّدِ على قمّةٍ صخريّةٍ شديدةِ الإنحدار. ديرُ سيمونوبترا هو من روائعِ الهندسةِ المعماريّةِ البيزنطيّة، ويبدو مثلَ حصنٍ لا يُقهر، يسكنُه حوالي أربعونَ راهبًا منْ خمسَ عشْرةَ جنسيّةً مختلفة. فرادةُ هذا الديرِ لا تَكمنُ في التنويعِ العرقيِّ لرهبانِهِ فقط، بل في تحصيلِهم الأكاديميِّ العالي وإنجازاتِهم العلميّةِ والمهنيّةِ في العالمِ قبلَ أنْ يلتحقوا بهذه الشركةِ الرهبانيّة. الراهبُ المُشرِفُ على بيتِ الضيافة، يبلغُ من العمرِ خمسًا وأربعينَ سنة، كانَ أستاذًا في علمِ الأحياءِ المِجهريِّ (Microbiology) في إحدى الجامعاتِ الأميركيّة. حينَ التقيناهُ، كانَ يمسحُ أرضَ المضافة. راهبٌ آخرُ، طبّاخُ الدير، كانَ سابقًا أستاذًا في علمِ الفيزياءِ الدُّونَ-الذَّرّيّةِ في إحدى جامعاتِ إنكلترا. وآخرُ غيرُه كانَ عالمًا في الناسا NASA. انذهَلْنا! فهؤلاءِ الرهبانُ تخلَّوا عن احترافِهم العلميِّ ومناصِبِهم العاليةِ في العالمِ كي ينضمُّوا إلى حياةِ العزلةِ، سعيًا لمعرفةِ الله.

رهبانُ ديرِ سيمونوبترا كانوا أوّلَ مَنْ أوضحَ لنا أنَّ إنجازاتِهم في العالم لا علاقةَ لها بما يُحاولونَ أنْ يُحقّقوه في الجبلِ المقدَّس. يَجلسُ أولئك العلماءُ-الرهبانُ عندَ أقدامِ شيخٍ مثلَ الشيخِ پاييسيوس، الناسكِ الذي لم يَحظَ إلاَّ بستِّ سنواتٍ فقطْ من التعليمِ المدرسيِّ الرسميّ، لكيْ يستشيروهُ روحيًّا.

أخبرَنا أحدُ شيوخِ سيمونوبترا: «نحنُ نُلقِّبُ الجبلَ المقدّسَ بِ'بستانِ العذراءِ الفائقةِ القداسة'. فالبستانُ يحتوي على تنوُّعٍ كبيرٍ منَ الزهورِ والأشجارِ والشجيراتِ والأعشابِ الضارّة، وكُلِّ أنواعِ الثمارِ والخضار. في صورةٍ مماثلة، ستَجِدُ في الجبلِ المقدَّسِ مجموعةً منوّعةً منَ الناسِ مختلفةً في الشخصياتِ والآراء،

في مستوى تحصيلِها العلميّ، في نموِّها الروحيّ، وفي فهمِها للعالمِ الخارجيّ».

هدفٌ واحدٌ مشتركٌ يجمعُهم هو تخطّي أهوائِهم الأنويَّة، من خلالِ التنقية. بغضِّ النظرِ عنْ مستوياتِهم العلميَّةِ ونموِّهم الروحيّ، بغضِّ النظرِ عن مدى سعَةِ عقلِهم أو ضيقِه، فجَميعُهم يُمارسُ منهجيَّةً نسكيَّةً واحدة: الصلاةَ بلا انقطاع، الصومَ، الاعترافَ، المناولةَ المقدَّسة، وغيرَها من الجهادات. جميعُهم يُنشِدونَ التراتيلَ نفسَها، يَتْبَعونَ التيبيكون نفسَه، أيْ البرنامجَ اليوميَّ لليتورجيا والممارساتِ الروحيَّة. ما لَفَتَ نظري، في المقامِ الأوّلِ، هو هذا الهدفُ المشتركُ وما يلزمُهُ من ممارساتٍ روحيَّة، بصرفِ النظرِ عمّا جلبَ معَه كلُّ واحدٍ من رأسمالٍ فكريٍّ وثقافيٍّ عندما التحقَ بالديرِ حتّى يغدوَ ممارسًا دائمًا لعلمِ البحثِ عن اللهِ وفنِّه.

فيما كنّا نقطعُ طرقاتِ الجبلِ سيرًا على الأقدامِ مُتَّجهَينِ نزولًا نحوَ الشاطئِ لنأخذَ السفينةَ ونعودَ إلى أورانوبوليس، اقترحَ لاقروس: «فكِّرْ في الأمرِ من هذا النحو. إفترضْ أنَّكَ حائزٌ على جائزةِ نوبلْ وقرَّرْتَ يومًا أنْ تتعلَّمَ اللغةَ الصينيَّة. يجبُ أنْ تبدأَ بدرسِ أبجديَّتِها أوّلًا، تمامًا كأطفالِ السنةِ الأُولى من المرحلةِ الإبتدائيَّةِ في المدرسة. ثقافتُكَ وتقدُّمُكَ في ميدانِكَ العلميِّ لا يُحدثانِ فرقًا».

قلتُ متعجِّبًا: «لكنْ تخيَّلْ إذا بلغَ بعضُ هؤلاءِ الرهبان، خلالَ عشرينَ أو ثلاثينَ عامًا، المرتبةَ الروحيَّةَ التي بلغَها شخصٌ كالشيخِ پاييسيوس».

افترضَ لاقروس وهو يسيرُ أمامي متكِّئًا على عصاه: «آنئذ، سيكونُ لَدَينا

شيوخٌ حازوا لا على المعرفةِ الزمنيَّةِ وحسب، بلْ على معرفةِ اللّه أيضًا».

أضفت: «ومتى تمَّ ذلك، سيتأثَّرُ مستقبلُ الكنيسةِ كثيرًا».

بعدَ مرورِ خمسَ عشرةَ دقيقة، ونحنُ نسيرُ نزولًا صادَفْنا مجموعةً من المزارعين، وظّفَهم رئيسُ ديرِ سيمونوبترا للمساعدةِ في الحقول. لقدِ اكتشفوا خَليَّةَ نحلٍ كبيرةً في جذعِ شجرةِ زيتون، ووَفقًا لتعليماتِ رئيسِ الديرِ كانوا يستعدُّونَ لنَزْعِ القفيرِ ووضعِهِ في حاويةٍ خاصَّةٍ لخليَّةِ النحل. لا أحدَ منهم كانَ لديهِ أيُّ تدريبٍ للقيامِ بمهمَّةٍ دقيقةٍ كَتِلك. بدَوا قلقينَ مشوَّشين. واتَّفقَ أنَّ لاڤروس كانَ نَحَّالًا موسميًّا خبيرًا. أنْ يُصادِفَ مرورُنا في هذا الوقتِ بالتحديد، فيما كانوا على وشكِ أنْ يقوموا بتلكَ المهمَّةِ الدقيقةِ، كانَ واحدًا من تلكَ التزامُنَاتِ الغريبةِ التي تتكشَّفُ بشكلٍ دوريٍّ في حياتِنا، لكنَّنا نُخفِقُ عادةً في ملاحظتِها. إلاَّ أنَّ العُمَّال، على أيَّةِ حال، اعتبروا الحادثةَ معجزة، وشكروا العذراءَ الفائقةَ القداسةِ على إرسالِ لاڤروس لإنقاذِهم. لو لم يظهر لاڤروس هناكَ في تلكَ اللحظةِ لمُساعدتِهم، لكانوا بالتأكيدِ سيخرِّبونَ القفيرَ مُعرِّضينَ أنفسَهم للَدغاتِ النحل.

أثناءَ أربعينَ دقيقةً تلت، جلستُ على صخرةٍ، من مسافةٍ آمنةٍ وتابعتُ لاڤروس والمزارعينَ وهم يسترجِعونَ القفيرَ مع العَسَّالةِ بنجاح. ما إنْ وضعَ لاڤروس الجزءَ الأخيرَ من القفيرِ الأزّازِ في خليَّةِ النحلِ الخاصَّة، إلْتَمَعَتْ في ذهني كلماتُ القدّيسِ باسيليوس الكبير، حيثُ يحثُّ تلاميذَه أنْ يتشبَّهوا بالنحلِ الذي يجمعُ الرحيقَ أينما وُجِد.

قلتُ في نفسي، يا لها من استعارةٍ مُلائِمةٍ لإنهاءِ حجّنا إلى الجبلِ المقدّس، إلى «جبلِ الصمت».

فهرس

مقدّمة.. ٣

توطئة.. ٧

شيوخٌ وقدّيسون.. ٢٣

تحوُّلات ٥٥

معرفةُ الله ٨٥

أمراضُ القلب ١٠٩

إيقوناتٌ وأصنام.. ١٣٧

علاماتٌ وعجائبُ.. ١٥٩

ملائكةٌ وشياطين.. ١٩٣

دخلاء غير منظورين ٢٣٧

استراتيجيّات ٢٦٧

الهروب من الجحيم.. ٢٩٧

شغفٌ للعدالةِ ٣٢٧

القوانين الروحيَّة ٣٥٩

الصلاة غير المنقطعة.. ٣٨١

الدربُ الثلاثيّ.. ٤١٥

مجدلةُ السلام.. ٤٣٧

جبلُ الصمت ٤٤٩